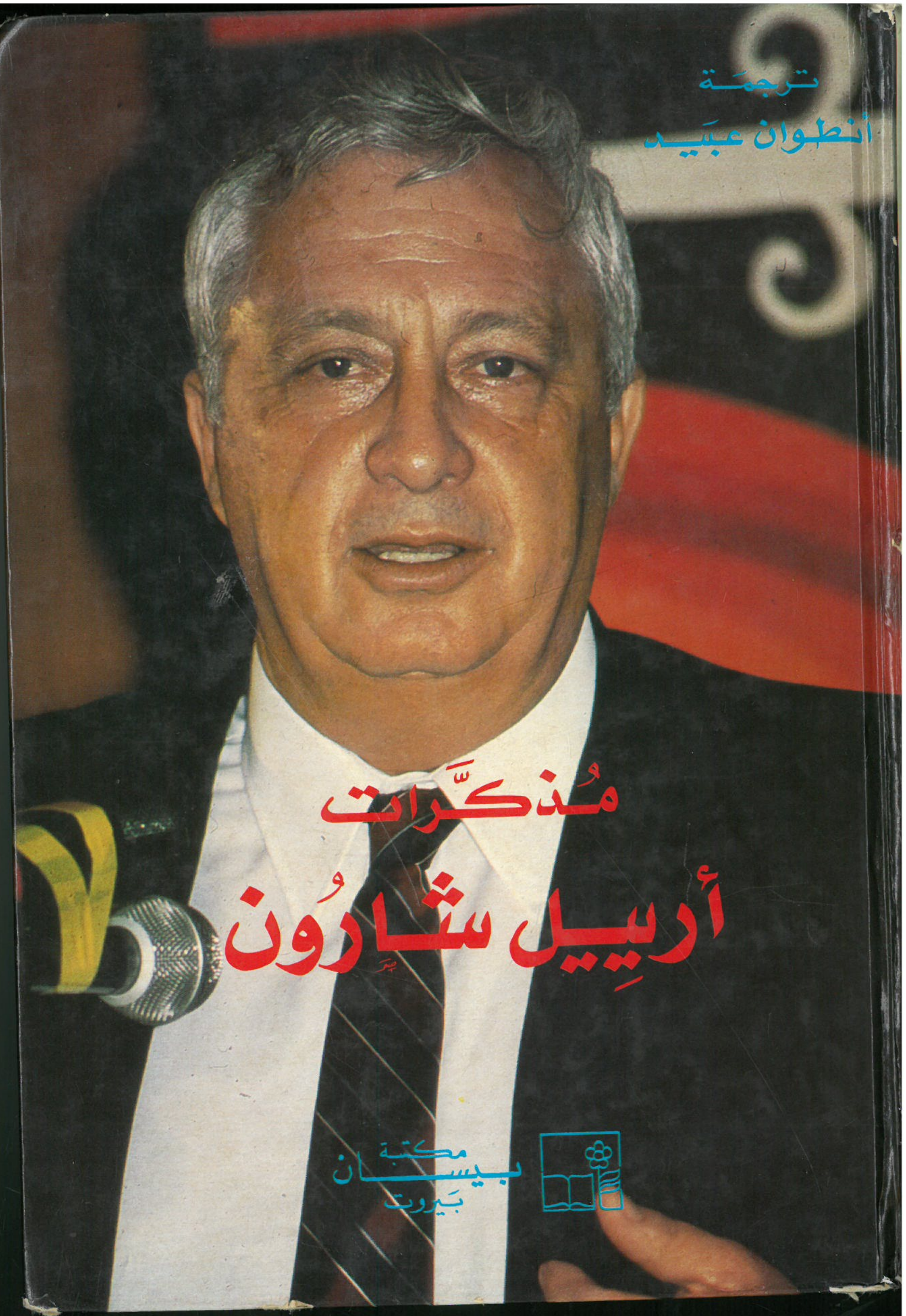

ترجمة
أنطوان عبيد

مُذكّرات أرييل شارون

مكتبة بيسان
بيروت

مذكرات
آريل شارون

وضعها أساساً باللغة العبرية دافيد شانوف، وترجمها غبريال روث إلى اللغة الفرنسية، ونقل النص الفرنسي إلى اللغة العربية الاستاذ أ.عبيد.

A
956.9405
S531 A

مُذكّرات
أريِل شارُون

B.U.C. - LIBRARY
10 JUL 1997
RECEIVED

ترجمة
أنطوان عبيد

مكتبة
بيسان
ص.ب: ٥٢٦١ - ١٣
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مقدمة

كان لا بدَّ في غَمرة تسارُع الأحداث، وفي صميم غرقِ الشرق الاوسط في مشكلات ما بعد حرب الخليج، وفي الوقت الذي يتهيأُ فيه العالم الى وَضْع نظامٍ عالميٍّ جديدٍ يأملُ الكبار، من خلاله، إبعادَ شبحِ الحروب عن العالم... لكي يتسنّى للشعوب أن تنعمَ بفترةٍ من السلام والازدهار...

كان لا بدّ، في غمرة كل هذا، أن تسعَى الشعوبُ الصغيرة إلى إعدادِ العدّة، فكريًّا ونفسيًّا وحضارياً، لتكون على مستوى التحدّي، وقادرةً على معالجة مشكلاتها بمسؤوليةِ العارفِ المخطِّط المصمِّم الذي يجعلُ المعرفةَ أهمَّ ركيزةٍ من ركائز الإعداد والانطلاق.

ويسرّنا أن نقدِّم للعالم العربي، قادةً وسياسيين، شعوباً وحكومات، أفراداً وجماعات، هذه المذكرات لتكون ضوءًا من أضواء المعرفة، ونوراً من أنوار الإشعاع، لأن الوقوف على رأي الغير، ومعرفة رأيه، وسَبْرِ أغوار أساليبه، من أهم الأمور التي يجب أن يتوسَّل بها القادة والمسؤولون لسدِّ الثغرات في كل خطَّةٍ تطال سلامةَ شعبٍ، وبقاءَ أمَّةٍ، وخلودَ وطن.

الناشر

مثل صدى

١٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣. منذ عدة ايام نحن في « افريقيا » على الضفة الغربية لقناة السويس. أُعطي المصريون الوقت ليستفيقوا من صدمتهم بعد عبور قواتنا القناة ــ وهي عملية وصفها انور السادات في البدء قائلاً « إنها مناورةً تلفزيونية ». كان المصريون قد اهملوا في البداية قطاع العبور من دون أن يشكوا في نتائج اختراقنا. لكنهم ما عتموا ان وعوا وشوك الخطر الذي كان يترصدهم : تطويق فرقهم وتشتيتها. ولذا كانوا يصبون على الجسر المرتجل حمم مدافعهم وكل ما يملكون من قوة نارية. وكانت القذائف تمزق الرمال محدثة ضجة مخنوقة. ومن وقت الى آخر كانت تنفجر مركبة في الخضم المتواصل للرجال والدبابات الذين كانوا ينتشرون في الجنوب والشمال خلف الخطوط المصرية. وكانت القذائف تولول فوق رؤوسنا ملقية وابلاً من قنابل النابالم.

كنا نحارب منذ يوم الغفران، اي منذ قرابة اسبوعين، ولم يذق اي منا طعم النوم الحقيقي. وكان الرجال في اثناء الهدوء النسبي يحاولون أن يستسلموا للنعاس ويأخذوا ساعة راحة أو اثنتين وهم يرقدون فوق محركات الدبابات الحامية. وكنتُ قد امضيت الليل بطوله في مراكزنا المتقدمة، سابراً اغوار قطاع الاسماعيلية على ضوء النجوم وراصداً اقل اشارة تحرّك عند المصريين.

وهكذا غدوت عاجزاً عن فتح عينيّ على رغم نار الجحيم والقصف.

افترشت الرمال قرب سيارتي « الجيب » متدثراً بمعطفي. وكنت نصف غافٍ عندما احسست بغطاء يضعه احدهم فوقي. ومن بُعد بضع خطوات سمعت جندياً يوشوش : « اصمت، أريكُ تعِبٌ. دعه يرقد ! » ايقظت هذه الكلمات، في ما يشبه الحلم، صدىً بعيداً في نفسي.

كان جندي آخر قد تلفظ بالكلمات نفسها قبل خمس وعشرين سنة؛ كان من بين الثلاثين رجلاً الذين كنت اقودهم في غارة خلف الخطوط العراقية خلال شتاء ١٩٤٨ في اثناء حرب الاستقلال. فبعد ان انهكتنا المعركة والمشي أخذنا سبيل العودة كيفما تيسَّر الأمر الى مخيّمنا بين بساتين حمضيات كفرصفا، وقد تبللنا حتى العظام واصطكت ركبنا ارتعاشاً من جراء المطر الخفيف الأغبر عند الفجر. كانت خيمتي، التي فقدت تماسكها قبل الأوان بعدة شهور، تقطر ماء من كل جوانبها. وبدا لي ان النوم فيها غير ممكن. لذا دخلت مخزن الاسلحة والذخيرة وارتميت فوق سرير ميدان مخلَّع من مهملات الزوايا. وبعد ان غرقت في معطفي، وتركت الرقاد ينساب الى داخلي، سمعت خطوة متثاقلة لواحد من رجالي كان يريد التحدث اليّ. وسمعت صوت الرقيب بيريتز ينهره قائلاً : « اصمتْ، أريكْ مرهَق. دعْه يرقد ». ثم غطّاني احدهم بدثار او بمعطف آخَر. ها قد مر ستة وثلاثون عاماً على حلاوة هذه البادرة، وما زلت اذكرها بما فيها من شعور التقوقع في مكان دافئ آمن ومن احساس بالاطمئنان في جو عائلي.

ربما عادت شدة هذا الشعور الى كوني لم اعرف امثال علامات المودة هذه في كنف عائلتي. فأبي صموئيل وأمي فيرا كانا من طينة مختلفة تماماً، فلم يكونا يفصحان أبداً حتى عن عواطفهما الأكثر جيشاناً. ومع ذلك كانا يكنّان لنا، اختي ريتا وانا، محبة عميقة، ولكن من دون ان يعبِّرا عنها، خصوصاً ببراهين حسية. والصفات التي قد ترسم صورة اهلي كانت القوة

والعزم والعناد. ففي موشارف[1] كفرملال حيث كانا يديران مزرعتهما وحيث ولدت في العام ١٩٢٨، كانا معروفين بطبعهما القاسي. وحتى بين الروّاد العتاة الذين حولوا أرض كفرملال المحَصاة الجافَّة الى تربة خصبة كان عنادهما يبقيهما على حدة، وغالباً معزولَين تماماً ...

كانا يختلفان عن سكان كفرملال بسِمات أخرى كثيرة. فمعظم الأزواج الأربعين تقريباً في القرية كانوا من الصهاينة العماليين القادمين من « غيتوات » وضياع التجمعات اليهودية في شرق اوروبا. وعلى غرار رواد الموجتين الثانية والثالثة من المهاجرين كانا قد جاءا الى اسرائيل (فلسطين في نظر العالم كله، ولكن في نظرهما « ارض اسرائيل » أو « بلاد اسرائيل ») ليس فقط لاحياء الوطن القومي للشعب اليهودي بل ايضاً لبناء نموذج عن الاشتراكية. فالقرية الزراعية التعاونية المسماة « موشاف » كانت بالنسبة اليهما اداة هذا المشروع: مكان تقطن فيه كل عائلة بيتها الخاص وتزرع أرضها الخاصة، ولكن حيث القرارات المهمة مثل الغرس والبذار والجني وتنظيم السوق كانت تؤخذ على نحو جماعي؛ مكانا حيث القيم الجماعية كانت تعلو عما عداها.

كان على الامور ان تحدث وفق هذا التصور. لكنّ والدي لم يجد في كفرملال اي قالب موافق له. فهو مثل جيرانه كان صهيونياً متحمساً، لكنه لم يكن اشتراكياً. على العكس. اذا كان من كلمة تستطيع تحديده فهي كلمة « فردي ». والأسوأ هو أنه لم يكن يسعى الى اخفاء عدائه لأولئك الذين كان يعتبرهم عقائديين لا يمكن اصلاحهم. ففي عالم « الموشاف » السياسي والاجتماعي المصغّر كانت طبيعة مثل طبيعة ابي تُعتبر « تافهة » و « وغير متّسِمة بالجِدِّية ». بيد ان الاحتكاكات بين ابي والسكان الآخرين كانت تعطي احياناً نتائج ايجابية. فتجديداته على صعيد الغرس والمزروعات، التي كان يعتمدها على رغم مقاومة الجماعة، كانت عظيمة الجدوى إن لمجموع القرية

(١) القرية الزراعية التعاونية.

أو لكل المستوطنات الزراعية اليهودية. ولكن يمكن القول بوجه عام ان عدم التوافق الظاهر بين ابي وجيرانه كان مصدراً لمشاكل كانت تفاقم بدورها الصعوبات التي لا تخلو منها اي حياة فردية أو جماعية.

كان صموئيل، مثل ابيه قبله، قومياً يهودياً بسيطاً وعنيداً. ولم يكن يجد نفسه خارج الصهيونية في اي حزب سياسي، اشتراكي او شيوعي أو ليبرالي أو ما الى ذلك. كان قد ترعرع في برست ــ ليتوفسك حيث كان والده أحد قادة التنظيم الصهيوني المحلي. وكان لجدي زميل وصديق حميم هو والد مناحيم بيغن، المعروف من عائلتنا ليس باسم « بيغن » بل باسم « بيغون » الذي يعني بالروسية « عدّاء » « مصاباً بحب التنقُّل ». وتقول الحكاية إنهما خلعا ذات يوم باب المجمع بعد ان رفض الحاخام اعطاءَهما الإذن لتنظيم حفلة دينية في داخله احياء لذكرى تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية.

كان موردخاي شاينرمان، جدي الصهيوني، قد هاجر الى اسرائيل للمرة الأولى في العام ١٩١٠. وخلال سنتين علّم في مدرسة للريحوبوت قبل أن يعود الى روسيا عازماً على المجيء ثانية الى اسرائيل مع سائر افراد عائلته. لم يستطع تحقيق طموحه، لكنه اورث ابنه حنينه العميق الى ارض اسرائيل ولم يألُ جهداً لتحضير صموئيل الى اتمام « صعوده » الخاص الى وطن اجداده. ولولع جدي بالثقافة ارسل والدي يتلقن في المدارس الروسية الابتدائية والثانوية، اللغات الفرنسية والالمانية واللاتينية. وهو لقّنه بنفسه اللغة العبرية واطلعه على خفايا الكتاب المقدس والفلسفة الصهيونية. ولاقتناع والدي العميق بدعوته كمزارع عتيد في ارض الميعاد، تسجل بعد انهاء دروسه الكلاسيكية في كلية الزراعة بجامعة تيفليس حيث كانت العائلة قد استقرت هرباً من نيران معارك الحرب العالمية الأولى. هناك التقى فيرا ــ طالبة الطب في الجامعة نفسها.

اتت فيرا من موهيلوف، على نهر الدنيبير، في روسيا البيضاء. كانت عائلتها العائلة اليهودية الوحيدة منذ أجيال في قرية هالافينشيشي الصغيرة. فوالدها كان

مستثمراً حرجياً ينجّر العوارض الخشبية الكبيرة والهياكل للأبنية ويدير غابات يكتريها. ومع ان عائلة شنيروف هذه كانت تعيش في وسط شعب كله من قبائل الموجيك فانها نجحت نوعاً ما في الإبقاء على شعلة الديانة اليهودية بدعوتها عائلات يهودية اخرى الى الاحتفال معها بالاعياد. وهذا التعلق بإيمانهم وتقاليدهم انتزع احترام جيرانهم المسيحيين انفسهم. ولذلك فعندما قامت حركات السلطة القيصرية لاستئصال اليهود (بوغروم) في منطقتهم خلال عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٦ لم تُمسَّ شعرة واحدة من رؤوسهم. ولكنّ هذا الاستثناء في المعاملة قد يكون عائداً ايضاً، من بين اسباب اخرى، الى قوة جدي لامي الهِرَقْليّة. كان آل شنيروف مغرمين بالمعرفة والثقافة. ومع أنهم قاسوا شظف العيش بعيداً من الترف فقد ارسلوا كلا من ابنائهم الثمانية للتعلم في مدرسة المدينة المجاورة. وقد انجز اربعة من هؤلاء دراستهم الجامعية بفضل مساعدة البكر يوسف.

قد يكون ان والدي اشتمَّ عند فيرا علامة قوة نفسية نادرة وفهم أنها قد تكون رفيقة مثالية لحياة الريادة التي اختارها. الا اذا كان اغرم بها كل بساطة. وفي كل حال، وجد في فيرا شخصية وطبعاً غير مألوفَين، ونوع المرأة التي تفعل ما يتوجب عليها من دون أن تطرح اسئلة كثيرة أو تشكو.

في العام ١٩١٧ سرعان ما تحولت حرب القيصر ضد المانيا الى حرب اهلية في روسيا. ولم تستطع الثورة القضاء على خصومها، في روسيا الكبرى كما في اوكرانيا، الا بعد انقضاء اربع سنوات، وفي ١٩٢١ اتجه الجيش الأحمر جنوباً قاصداً المدن القفقاسية، وعلى رأسها باكو وتيفليس. وعجّل هذا الأمر في إفشال خطط والديّ العتيدين. فأبي كان انهى تَوّاً دراسته الزراعية، بينما كان امام امي سنتان فقط لانهاء مطمحها الاسمى : دكتوراه في الطب. لكنها اضطرت الى الاستسلام للقدر. ولما كان والدي صهيونياً مناضلاً معروفاً فقد كان على يقين ان الشيوعيين سيلقون القبض عليه فور وصولهم. ولقد شاهد بأُم العين، مثله مثل فيرا، مجازر الاتراك الرهيبة ضد الارمن، ولم يكن

يغذي اي اوهام حول ما تستطيع الثورة ان تنجزه. ولذلك مع اقتراب جحافل الجيش الأحمر وضع والداي خطتهما موضع التنفيذ : تزوجا في ربيع تلك السنة نفسها وهربا من تيفليس قاصدَين مرفأ باطوم على البحر الاسود، ومنه ابحرا الى اسرائيل.

اذا كان هذا السفر أو الصعود ــ يجسد تحقيق حلم ابي فإنه لم يكن كذلك في نظر والدتي. لم يكن صموئيل اشتراكياً، كما قلت، لكنَّ فيرا كانت بشق النفس صهيونية. هو كان يرى في السفر رجوعاً الى البلاد، أما هي فلم تكن تعتبر نفسها اكثر من مهاجرة. ليس لأنها كانت تعتبر هذا التهجير حدثاً خارقاً : فأخوها البكر يوسف كان مستقراً في اسطمبول مع أخ آخر هو سالومون، فيما كان يدرس اخ ثالث الطب في المانيا، من حيث كان عليه التوجه الى المكسيك فالولايات المتحدة مغيِّراً اسمه من شنيرون الى مونتانا تسهيلاً لعلاقاته مع مكاتب الهجرة.

وعلى غرار عائلات يهودية عديدة كان آل شنيرون ينقلعون من منازلهم متنقلين على ضوء تقلبات العصر وكوارثه. فبعد الحرب العالمية الأولى عرفت هجرة اليهود في بداية القرن من اوروبا الشرقية وروسيا موجة جديدة. ونزل في موانئ اسرائيل قرابة اربعين الف يهودي، مشكلين ما عرف في ما بعد باسم « الصعود الثالث ». وكانت فيرا مع زوجها في عداد هذه الموجة مع أن روابط مشتركة قليلة تجمعها مع الصهاينة المتحمسين ومع اشتراكيِّي جيلها. لم تكن تعرف العبرية وتعبِّر باللغة الروسية افضل مما تتحدث باليدِّية، اللغة العبرية الالمانية التي ينطق بها يهود اوروبا الوسطى والاتحاد السوفياتي (Yiddish). ولم تكن تفهم شيئاً في ما يتعلق بالارض والتربة والمواسم والزراعة عموماً، لكنها كانت تستعد بشجاعة لمهنتها كممرضة حتى آخر ايامها. وفي الواقع، لم تكن تحس بأنها في بيئتها الا في رفقة النخبة الفكرية أو الفنية الروسية وغيرهم من الناس « اللائقين »، وكانت قليلة الميل الى العيش الجماعي مع أناس لا تعرفهم وليس عندها قواسم مشتركة معهم.

وقبل اي شيء آخر كانت تريد إنهاء دراستها الطبية. فعندما غادرت مع والدي تيفليس عزَّتْ نفسها بكونها قد تستطيع تحقيق طموحها بشكل أو بآخر في اورشليم أو في الجامعة الأميركية في بيروت. ولم تستطع وهي في تيفليس ان تستجمع معلومات مفيدة حول هذا الموضوع، مهما قلَّتْ. فوجدت ارض الميعاد هذه جاهلة ومقفرة، قد توافق عند الاقتضاء مزارعين وعمالاً، لا طالبة طب. وعندما غادرت مزرعة بن شمس الاختبارية، حيث وجد ابي عملا في البداية، الى معهد الزراعة في مكفاح اسرائيل فهمت كم ان حلمها الخاص كان بعيداً من التحقُّق. لكنها لم تكن من اللواتي يندبن حظهن، فتحملت تضحيتها الثقيلة التي تركت في قلبها جرحاً بليغاً.

كان ابي، من جهته، يدرس امكانيات الاستقرار. كان قد علم ان كيبوتز عين هارود في وادي جزرائيل يستقبل مرشحين جدداً، لكنَّ فيرا لم ترق لها الفكرة ابداً. وهذا من حسن الحسن بالطبع. لأن الحياة الجماعية في الكيبوتز كانت ستكون وبالا على امرأة مثلها. وحينئذ سنحت فرصة للعمل في كفرملال، على بعد قرابة خمسة وعشرين كيلومتراً الى الشمال الشرقي من تل ابيب، في سهل شارون الساحلي. قد تكون الحياة صعبة فيها، ولكن في اي مكان ليست الحياة صعبة ؟ كان عليهما ان يعيشا من دون مياه جارية وكهرباء، تحت خيمة، الى ان يبنيا كوخهما الخاص. الى ذلك كان ثمة مخاطر : فقبل سنة تقريباً تهدمت القرية خلال غزوة عربية قبل أن يعيد اهلها إعمارها. ولكن سيتمكن أهلي في كفرملال من زراعة ارض خاصة بهما، وهذا الاعتبار يبز ما عداه في نظر ابي.

اذاً، في العام ١٩٢٢ استقر صموئيل وفيرا في كفرملال. سكنا بالفعل خلال الاشهر الثمانية عشر الأُوَل تحت الخيمة وتصببا دما وعرقا ليغرسا فدان الأرض القاحلة التي منحاها. وسيمر وقت طويل قبل أن يتمكن صموئيل من بناء « بيته » : غرفتين صغيرتين وسقيفة متواضعة تستعمل كمطبخ. في البدء سيسكن اهلي في احدى الغرفتين لأن الثانية ستأوي بغلة وبقرة. وكانت

الجدران الداخلية مطلية بطين ممزوج بقش وسواد طبيعي مجفف.

تعاودني صورتي كطفل يرنو من سريره الى الجدار المقابل الذي تتسع شقوقه سنة بعد سنة. واتذكر ايضاً دعائم السقف الفاصلة بين الغرفة ومخزن الغلال. كانت الجرذان الكبيرة قد اختارتها مسكناً لها، تراقب ما يجري تحت وتنتهز الفرصة لتقفز الى الطعام الذي قد تكون نسيته امي في المطبخ. كنت الاحظ مناوراتها عند المساء واسمعها تنط فوق رأسي. واتفق لي مراراً ان أشاهد اذنابها المشعَّرة تلتف على الدعائم. وعندما كانت تتمادى في غيِّها كنت مكلَّفاً إدخال الهر على الخط. لمن ستكون الغلبة في المعركة التي ستدور ؟ ليس بمقدوري معرفة ذلك، وإنما أعلم فقط أن البقاء كتب للهر. لكني اذكر أن الأذناب بقيت هي ايضاً.

صارت احدى الغرفتين الآن مخدعاً لوالديّ، فيما الاخرى نُظمت ضمن حيز يضم قاعة استقبال وقاعة طعام وغرفة نوم تأوينا اختي ريتا وانا. ولم تمض بضع سنوات على ولادتي حتى بنى أبي غرفة ثالثة، الأمر الذي سمح لريتا أن تنعم بحلاوة ما يشبه الخلوة. وفي ذلك الوقت كان قد أضيف مقابل بيتنا قن دجاج واصطبل مع زريبة يتسعان لحصاننا ولحمار وبقرتين أو ثلاث بقرات.

كان نقب الأرض وغرسها وقطف الثمار وحصد الحبوب بمثابة اشغال شاقة لوالديّ، لا سيما في السنوات الأولى قبل أن يتمرسا في عمل الأرض المضني. كانا ينزلان كل يومين أو ثلاثة ايام الى نهر اليركون لملء برميل الماء ونقله في عربتنا التي يجرها الحصان. وكانت امي تحلب البقرات وتعتني بالبهائم وتعمل في الحقل الى جانب والدي، وفي متناولها طشت ماء تبل فيه يديها المشققتين، جاهدة عبثاً لتحفظهما رطبتين. وفي نهاية النهار كانا يتحدثان بحنان باللغة الروسية. بينما تكون امي تغسل في دلو آنية المائدة وابي ينشفها كنت اصغي اليهما من سريري، في الجهة المقابلة من الغرفة، وانا اتظاهر بالنوم. وكانت لهجة هذه المحاورات، وايضاً انصاف الكلمات التي

كنت استطيع فهم معناها، تشعرني بالمودة العميقة بينهما حتى وان كانا لا يتحادثان كثيراً في البيت وان كانت والدتي لا تُظهر الا نادراً علامات حسن المزاج.

عندما كبرت فهمت ان امي لم تتأقلم حقاً مع حياة الموشاف على الرغم من أنها أصبحت مزارعة ماهرة. لقد احتفظت في ركن خاص بها، على الرف، بمبضع الجراحة وكتب التشريح التي كانت تتصفحها من وقت الى آخر. كان يتملكني انطباع انها تخفي في مكان ما، في قرارة نفسها، حياة مختلفة، مبتورة عن المزرعة ــ عالما سرياً حيث تحب اشياء اخرى واناساً آخرين. وكانت تُودع وحدتها وحنينها الرسائل العديدة التي تكتبها في انتظام الى ذويها واصدقائها في باكو وتيفليس، الى شقيقتها البكر في طشقند، الى اشقائها في باريس واسطمبول. حتى انه كان يتفق ان تكرس لهذه الرسائل نهاراً بكامله، فتختلي في غرفتها حتى العشاء. وكان أبي يسمي تلك الأيام، « النهارات الرسائلية ». الأمر الذي كان ينبغي ترجمته لي بعبارة : « من مصلحتك اليوم أن تقعد عاقلاً ».

بالنسبة الى ابي ايضاً كانت الحياة في الموشاف معركة متواصلة ــ وليست فقط معركة الرائد ضد الطبيعة وعناصرها؛ كان ينافح ايضاً من اجل المحافظة على تلك الثقافة التي علموه أن يحبها. فكان يقرأ آثار الشعراء والكتاب الروس الكبار، ويرسم بالألوان المائية مشاهد طبيعية وصوراً نصفية للاصدقاء، ويدندن غالباً بصوته الصادح الجميل اناشيد روسية وصهيونية. ومن وقت الى آخر كان اصدقاؤه الموسيقيون يجتمعون عندنا ليعزفوا موسيقى خفيفة في غرفة الجلوس (التي كانت ايضاً غرفة نومي)، فكنت اغفو على اصوات آلاتهم.

كان هذا النشاط الثقافي القوي يلبي حاجة عميقة جداً عند ابي، ولم يكن التوفيق بينه وبين أعمال المزرعة المزعجة يتمّ من دون انفطار قلب. لأنه كان يرفض كل ضغط خارجي ــ هكذا بكل بساطة !

ولم تكن هذه « المعركة الثقافية » المعركة الوحيدة التي كان عليه أن يخوضها طوال طفولتي، ولا الاكثر اهمية. وانا لم ابدأ افهم الا بعدما كبرت أن الموسيقى والفن والادب كانت تشكل جزءاً من منزلنا، فقدرت حينئذ لوالدي حق قدرهم على ما بذلاه من جهود في هذا السبيل. ولكني قبل ذلك بكثير كنت قد وعيت أن ابي في صراع متواصل مع سكان الموشاف.

كان بطبعه عاجزاً عن قبول التسويات والحلول الوسط، وهذه كانت مشكلته الكبرى. يضاف الى ذلك ايضاً انه كان مهندساً زراعياً يتحلى بالروح العلمية، اضافة الى كونه صاحب رؤى في هذا المجال. ولم يكن كذلك رجلاً يلوذ بالصمت أو يختر ضغائنه. فاذا ظن ان الغير مخطئ أو ليس على صواب كان عليه أن يقول له ذلك. واذا كان مقتنعاً أنه هو على حق لم يكن يتراجع قيد أنملة حتى ولو قام الجميع ضده.

لو كان في القطاع الخاص ليس عليه أن يؤدي حساباً لأحد لما كان لطبعه هذا من نتائج. ولكن في موشاف جماعي لا تسير الامور هكذا. كان يماحك في كل مناسبة : النظام التعاوني، مساحة الأراضي المعطاة، المواسم والزراعات. كان يبدي على الفور معارضته لكل شيء. وحتى عندما يكون خاسراً كان يرفض الخضوع للقرارات التي تبنتها الاكثرية. فاذا قررت لجنة الموشاف مثلاً غرس بستان برتقال أو ليمون حامض كان هو يلحّ لاختبار الليمون الافندي والمانغا. واذا اعتبرت اللجنة ان الربيع هو الفصل المناسب لزراعة البطاطا كان هو يفضل نهاية الخريف. وهو مَن ادخل الى البلاد زراعة الافوكا، الثمرة التي وصفها بأنها « مستقبلية »، ففي تلك الايام كانت مجهولة تقريباً عندنا، وكانت فكرة تخصيص ارض جيدة لاختبار هذه الثمرة الجديدة تبدو في غير محلها. كان يقول لي : « عندما تعمل لانجاز شيء ما عليك ان توليه حمايتك، اذ ينبغي للانسان أن يدافع عما له ! » وهو كان يدافع عن ملكيته بسياج وقفل هما الوحيدان آنذاك في كفرملال. ليس لاسباب الامان،

لان القفز فوق السياج كان سهلاً جداً، بل لتثبيت فكرة السياج في حد ذاتها ...

لم يكن كل هذا يروق لاهل الموشاف الذين لم يكونوا اقل عناداً من والديّ. غير أن العلاقات لم تكن عدائية بالمعنى الحقيقي للكلمة. فعلى الرغم من كل هذه الصراعات كان اهلي سعداء لكونهم هناك. واذا كانا يتخاصمان مع الآخرين حول بعض النقاط الا انهما كانا متوافقَين معهم حول غالبية المشاكل. كانا يشاركان كليا في حياة كفرملال، فيحرسان مع الآخرين ويساعدان على حماية قرى اخرى عندما تعوز هذه الرجال. ومع ذلك كان ثمة توتر صامت ودائم بين والدي والآخرين. اذكر ان احد المزارعين ظل سنوات عديدة يبدأ مداخلاته في مجلس الموشاف بهذه الكلمات عينها : « لست مهندساً زراعياً، ولكن اسمحوا لي مع ذلك أن اقول لكم ان ... » وكان الجميع يعلمون أن مجلسهم لا يضم الا مهندساً زراعياً واحداً.

هذه المشاكسات وما ينجم عنها من وحدة قد تكون وجدت افضل تعبير لها في ارادة ابي الاخيرة على فراش الموت بعد انقضاء اربع وثلاثين سنة على استقراره مع والدتي في كفرملال : كان يرغب في ان يرتاح في مقبرة القرية، ولكنه لم يكن يريد ان تُنقل رفاته في شاحنة الموشاف الصغيرة. كان عليّ ان استعمل عربته الخاصة. ولم يكن يريد أيضاً أن يرثيه أحد من سكان الموشاف الذين يتعين عليهم فقط الاكتفاء بالصلوات التقليدية. وتشاء الصدف الغريبة أن تكون قطعة الأرض المجاورة لقبر والدي مخصصة لذاك الذي كان خصمه الكبير طوال سنوات عديدة. ولقد لاحظت امي ذلك عندما كنا نستعد لانزال الجثة في التربة، فأمرت فوراً بإيقاف الدفن وطلبت من حفاري القبور أن يحفروا قبراً في مكان ابعد : وهكذا قد ترقد هي بين الخصمين عندما يوافيها الأجل ...

هذا المناخ من النزاع وسم كل طفولتي. لانه لم يقتصر فقط على

الراشدين. ففي قرية قليلة السكان كان يستحيل ألّا يلحظ الاولاد وجود شقاق بين الكبار. كنت احس جيداً ان هذا التوتر المستديم بين اهلي وجيرانهم كان يلقي بوزره على علاقاتي مع اترابي. وكان ذلك يؤلمني. اجهل ما اذا كان رفاق عمري يقاسمونني شعوري هذا، لكنّ نتائج هذا الوضع كانت بادية للجميع. فالالعاب التي كنا ننظمها في الحقول والبساتين كانت تتوقف عند باب بيتنا وبيوت غيرنا بالطبع. فكنت اشعر بأني وحيد، معزول. وكنت اتساءل دائماً « كيف تجري الامور » عندهم، في داخل منازلهم. وهذه الاهانات كانت تجرحني وتشوشني بعمق.

كانت بعض الحوادث تُبرز ايضاً من وقت الى آخر فردية اهلي. وهكذا كنت أعلم انّ كل اصدقائي كانوا يعالجون من جُلَفِهم وامراضهم الشائعة في مستوصف القرية على بعد بضع مئات من الامتار. لكننا نحن لم نكن نقصده ابداً ! لم اضع فيه رجلي قط فيما الفضول يستحثني لزيارته. كان والداي يفضلان أخذي الى القرية المجاورة كفرصفا حيث تقطن طبيبة صديقة لهما. يقع بيتها على بعد عدة كيلومترات من بيتنا، وللوصول اليه لا بد من اعتماد « قادومية » بين الحقول، ومع ذلك كنا نتجشم مشقة الذهاب اليه، وقت الحاجة وحتى في حالات الاستعجال.

اذكر جيداً الصدمة التي انتابتني عندما سقطت عن ظهر حماري الصغير الظريف الذي اصطدم بعائق فقذفني الى الأرض وذقني الى الامام. لطّخ الدم وجهي فهرولت الى امي التي احتضنتني واخذت تركض في اتجاه القرية المجاورة. عند الغسق مررنا في ذهابنا امام نوافذ مستوصف كفرملال المضاءة. تابعت والدتي سيرها الحثيث عبر الحقول الغارقة في الظلمة، حيث لا يخاطر احد باجتيازها بعد حلول الليل. اخيراً قرعت بعنف رتاجاً كبيراً فخرجت الدكتورة فوغل وبيدها قنديل حقل. لاحظت على ضوء القنديل ان امي كانت مغطاة بالدم. فتساءَلْتُ فوراً « كيف جرحت نفسها » قبل أن أدرك لاحقاً ان كل هذا الدم هو دمي. عالجتني الدكتورة فوغل وضمدت

جرحي، فعدنا بهدوء الى منزلنا في وقت متأخر من الليل، عبر القادومية الخطرة ذاتها.

كانت الدكتورة فوغل، الروسية الاصل، صديقة حميمة لامي التي كانت تدعوها احياناً الى غداء قوامه الملفوف والبورشتش. كانت تزورنا في رفقة زوجها ڤانيا لتمضية سهرة « ناطقة باللغة الروسية ». كنت استمع الى الحديث من سريري، فتسحرني في آن شخصية الدكتورة فوغل وقصتها المرددة مراراً عن وصولها الى كفرملال. وينبغي القول إن الدكتورة فوغل كانت شخصاً فذاً في عصرها. أولا لم يكن زوجها يهودياً. ثم ان عرب المنطقة كانوا يطلقون عليها لقب « الست غزالة ». وبحسب علمي، لم يطلق العرب لقبا على اي شخص سواها في محيطنا.

كان زوجها ڤانيا سودورنكو اوكرانيّاً خدم كضابط في الجيش الابيض الاوكراني بقيادة دنيكين خلال الثورة البولشيفية. ولقد صادرت فرقتُه الآنسة فوغل حالما حازت شهادة الدكتوراه في الطب. امضيا الحرب كلها سوية حتى أغرمت الدكتورة اليهودية بالضابط الخيال الاوكراني وبادلها الغرام فعقدا قرانهما. بعد هزيمة جيش دينيكين هرب الزوجان الى تشيكوسلوفاكيا ثم ابحرا الى فلسطين مصطحبين والد الدكتورة فوغل. كان هذا الشيخ يقطن مع ابنته وصهره في غرفة تقع خلف العيادة. لكنه لم يفتح فمه قط : فهو لن يغفر ابداً لابنته المتزوجة من غوييم (اسم يطلقه اليهود على الشعوب غير اليهودية).

علمت الدكتورة فوغل بعد وصولها بقليل الى فلسطين ان مستوصف كفرملال معروض للبيع، فاشترته من صاحبه الممرِّض العسكري والمتقاعد. (عند هذه النقطة من السرد كان الجميع يوجهون انظارهم نحو سريري ليتأكدوا من أنني غافٍ). كان لهذا الممرض زبائن عرب عديدون، ويُروى أن جاره القريب، الافندي العربي، كان عشيق زوجته. فعندما اكتشف الممرض

سر الخيانة لم ينبس ببنت شفة بل انتظر الفرصة المناسبة لينتقم. وسرعان ما توفرت هذه : كان الافندي يتعالج في انتظام عند الممرض من مرض ظهره. ذات يوم اقنعه هذا بضرورة اجراء جراحة « هينة » له. وهكذا صار، ولكن عندما استيقظ الافندي من البنج وجد ظهره مثنياً في حدبة رافقته مدى العمر. ولأن الممرض خشي انتقاماً كان يبدو حتمياً فقد سارع الى بيع عيادته وسافر بحراً الى فرنسا. هناك درس الطب جدياً وصار في ما بعد الطبيب الشخصي لملك المغرب.

لم أكن أنا، المتناوم في سريري، لأفوّت حرفاً من القصة، ولم اتساءل اطلاقاً ماذا يمكن أن يكون نصيب الخيال فيها. كان كل شيء في نظري حقيقياً ورائعاً.

في الواقع، كان كثير من العرب يقصدون عيادة الدكتورة فوغل. كانوا يعبدونها بالمعنى الحقيقي للكلمة. فهي كانت تتكلم لغتهم بطلاقة، افضل مما تنطق بالعبرية. اضف الى ذلك شجاعتها الرائعة. فخلال التمرد العربي في العام ١٩٣٦ قصدها بعض زبائنها جادّين السير عدة ايام ليطلبوا منها توليد زوجاتهم. في تلك الحقبة كان اليهود المسافرون يتعرضون لاخطار جسيمة بسبب كمائن المتمردين العرب. لكنَّ الدكتورة لم تتعرض لاي اذى على رغم تنقلاتها العديدة. كان موقفها من العرب على صورتها ومثالها : خارجاً عن المألوف، وقد اسرت اليّ انها اضطرت خلال الثورة البولشيفية ان تعالج ذات يوم روسا بيضا كانوا قد اشتركوا في حركات قيصرية ضد اليهود. ولقد ظنت أنَّ عليها أن تضيف قولَها : « كانوا في حاجة الى عون ولذلك عالجتهم. كانت الصفات الادبية، هي ايضاً، استثنائية عند تلك المرأة.

كان زوجها، ڤانيا الاشقر الشعر والازرق العينين، يتمايز عن السكان المحليين على رغم كل جهوده الاندماجية. كان يرغب من كل نفسه ان يساهم في العمل الجماعي للرواد اليهود. لكنَّ هذا الضابط الاوكراني العائش في وسط شعب يهودي لم يكن مقبولا ! وذلك كان يُشعره بمرارة عميقة

ويحفظ عنده حنينه الى روسيا، مثل امي. كان ڤانيا و « الست غزالة » يكوّنان زوجين غريبين حقاً، شبيهين في شذوذهما وفرادتهما بوالدي واصدقائهما الحميمين الآخرين : فردّيين غير قابلين للاصلاح، لم يندمجوا كلياً في هذا المجتمع الجديد الذي يشكون مع ذلك جزءاً منه.

بدأت في مرحلة ما من طفولتي ادرك بغير وضوح وضع والديّ. من الخطأ ان نقول انهما كانا مرفوضيْن من الآخرين — كانا مختلفين ليس أكثر. وهذا الاختلاف لم يكن يحمل في طياته ما من شأنه ان يوحي الي بعاطفة الخجل او الضغينة. في الواقع، ربما كان في وسعي ان افاخر بهما. غير ان وعيي هذه الحقيقة، الذي لم يحصل الاّ ببطء شديد، لم يسهّل عليَّ الامور. لكنني عرفت تعويضات كثيرة : الموسيقى، القصص، شخصيّات زوارنا غير العاديين ... وكان هناك العمل ايضاً. فمهما حدث في المدرسة واياً كانت علاقاتي برفاقي كان عملي متواصلاً واخّاذاً لدرجة ان ما عداه كان يبدو عديم الاهمية. كان في وسعي ان اركز عليه كلياً.

الابن سر ابيه

عند قدوم الربيع يفوح من بساتين الليمون المزهرة رائحة قوية تلف المزروعات بطبقة من العبير ثقيلة في المناطق الواطئة وخفيفة لطيفة فوق المرتفعات. وبساتين الليمون رطبة خضر، منغلقة على نفسها ــ عالم خاص يحدثك بلهجات متنوعة وبأشكال شتى. فهي للولد ملعب ومدرسة اهم من أي شيء آخر. أما الحدث فالشاب فتحدثه البساتين عن العمل خصوصاً، لكنها تولّد لديه كآبة حالمة وتوقظ عنده الرغبة. ففي المزارع الجماعية والكيبوتزات، حيث كل فرد يعرف شؤون الآخرين، تأوي الرياض الاهواء الدفينة.

كان ابي يحدثني دائماً في طفولتي عن نبل العمل الجسدي. وعندما كبرت كونت لنفسي رأيي الخاص في الموضوع، لكنّ العمل ظل في الواقع يشكّل جزءاً من عمق وجودي. ولقد سرت وانا طري العود على خطى والدي بين الاثلام التي لا تنتهي في حقل الفستق. كنت اشاهده يفتت قلاع التربة الحمراء بمجرفته قبل أن يدفن فيها الحبوب التي كنت احملها في يدي. وكانت التلة المنبسطة امامنا تظهر لي بلا نهاية، وعندما كنت اشعر بالتعب كنا نستريح بعض الوقت؛ حينئذ كنا ندير ابصارنا الى الوراء لنقوّم العمل المنجز، ونستعيد قوانا لانجاز الباقي.

كان ابي يقيم علاقة شخصية مع كل شجرة ليمون في بستاننا. وكنت اقول

لنفسي « إنه يعامل أشجار الليمون كما لو كانت كائنات بشرية ». حتى أنه أطلق على بعضها اسماء من مثل « الشجرة المدهشة » بنموها ووفرة ثمارها، أو « الشجرة الحامضة » لانها تعطي ثماراً حامضة الطعم.

وكان يصنف في خرائطه ومذكرات عمله أصل كل شجرة ومميزاتها، مسجلاً بعناية كل أطوار نموها، ويرفق هذا بملاحظات حول طريقة معاملتها: كمية الاسمدة والمياه التي كانت تحتاج اليها، أو ايضاً كيفية تطعيمها أو تقليمها أو تشذيب بعض اغصانها. وكان يحدثني عن كل ذلك في اثناء عملنا معاً، مشدِّداً على أهمية مزج النظرية بالخبرة الميدانية. ولم يكن يوصي بزراعة الافوكا أو الكليمنتين او المانغا الا بعد ان يجربها بنفسه. وكان مقتنعاً ان هذه الثمار قابلة للتأقلم عندنا كما كان يعرف كيف يغرسها.

كان عمري ثماني سنوات أو تسع عندما عُهد اليّ بأعمال اكثر صعوبة استقل بانجازها. ومع قدوم الربيع كنت انزل الى الكرم واكدن الحصان الى المحراث ــ ذاك الذي تتيح سكّته تخفيض تهوية الثلم الى الحد الادنى وبالتالي حفظ رطوبة التربة. لكنّ لخطوة الحراثة هذه ثمناً: لم يكن العمل يتقدم الا ببطء شديد لتقارب الاثلام التي تخطها هذه السكة، فكان ينتابني شعور بأن الحراثة ثلما بعد آخر في رتابة الذهاب فالاياب لن تنتهي ابداً. وعندما كانت تحين أخيراً ساعة الافطار كنت اسقي الحصان واقدم اليه عليقة من الشوفان؛ ثم استظل العربة لأتناول فطوري « كاسراً الصفرا » واشرب الشاي المحلى الذي اعدّته لي امي. وفي جلستي هذه كنت احس الحرارة الصاعدة من التربة المفلوحة حديثاً. وكانت حقول كاملة من الخشخاش المنثور قد ازهرت خلال الليل في الأراضي البور المحيطة بالكرم، ملهبة المشهد بشعلة متوقدة شاسعة. ومئات الفراشات تستدير حول نفسها في الضوء البرّاق، ورفوف العصافير تلامس الأرض في حركة جماعية ساعية الى رزقها من الحشرات والديدان التي رفعتها السكة الى السطح.

ظللت هكذا بلا حراك طوال بعض الوقت، يغمرني خدر لذيذ، كان التعب

يسبب لي دواراً خفيفاً، وكان في وسعي ان امضي بقية النهاية في هذا الوضع، جامداً مأخوذاً بمشهد الكرم والحقول، الذي يسلب اللب. لكنه كان ينبغي وضع حد لهذا الاسترخاء اللذيذ، والنهوض وسقي الحصان ماء وغير ذلك من النشاطات التي تتطلب مجهوداً قوياً. ثم كونت من جديد المحراث وعاودت تقدمي البطيء في الثلم الضيّق. مع أنه لم يكن يوجد احد في الجوار ليراقبني، وان والدي لم يكن يهمه إن حرثت ثلاثة دونمات أو اربعة في ذلك اليوم. في الواقع، كان يتعين علي أن أخوض معركة الارادة هذه مع ذاتي وان ابرهن لنفسي اني قادر على التغلب على هذا الكسل الذي كان يسمِّرني الى الأرض.

في الشتاء كنت امضي ساعات طويلة في الاسطبل الواقع خلف البيت. اجلس على عتبة الاسمنت مصغياً الى صوت المطر المتقاطر من السقف النافر فوق الباب. في هذا الحيِّز المغلق يفوح من البهائم حرارة خفيفة تشيع مناخاً من الهدوء والأمان. كنت اقدّم دائماً الى الحيوانات طعاماً اضافياً، لكنني كنت احتفظ لنفسي بقرون الخروب التي اضافها والدي الى العلف، فأخرجها من المعلف غامساً يدي في الشوفان. وفي مساء عاصف اضطررنا، امي وانا، الى تسلق سقف التبّان لتثبيت القرميد الفخاري. وعلى رغم كل جهودنا قلعت العاصفة قرابة نصف السقف. تشبثنا بكل قوانا بالحبال واستطعنا انقاذ القسم الاكبر من القرميد فلم يتأثر التبن الا قليلاً. في ما بعد حدثني ابي عن عاصفة هبت قبل عدة سنوات فيما هو غائب عن المزرعة، فاستطاعت امي أن تنقذ السقف بربطه الى العربة بحبل. واضاف قائلاً : « لقد انجزنا نحن الاثنين عملاً مماثلاً، لكنَّ عملَنا هو لعبُ اولادٍ بالمقارنة مع ما قامت به فيرا وحدها ».

الحدث الاكثر أهمية خلال السنة في نظر اولاد القرية كان يبدأ في كانون الأول (ديسمبر) عندما تلاطف اشعة الشمس المنحرفة قشر الثمار، فيتحول لونها حينئذٍ الى أصفر برتقالي منير ويغزو عبيرها العنيد مماشي البساتين. وفي موسم القطاف تستقر فرق التوضيب النقّالة في المزارع تحت اشراف قائد ذي هيبة وقوة اسطوريتين. كان هذا الرجل يتصدَّر حلقة مساعديه وقد تقولب

صدره في كنزة صوفية ملفوفة الياقة، فبدا كأنه سيد المقام بلا منازع. كانت عاملات فريقه من النساء الشابات المقرفصات على الحضيض يسحبن بسرعة البرق حبات البرتقال المقطوفة حديثاً وذات الحجم الواحد. والى جانبهن جلست فوق مقاعد خشبية فتيات أقل خبرة يلففن الثمار بأوراق حريرية. ويساعد هؤلاء فريق « الجديدات » ــ مراهقات في الخامسة أو السادسة عشرة كن يجهدن لاحراز مهارة أولئك اليدوية. واذا كانت عيونهن تنمّ عن اعجاب برشاقة المحترفات فقد كان ممكناً ايضاً ملاحظة نظراتهن المختلسة الى « ملك » الفرق من وقت الى آخر. وكان واضحاً انهن كن يتعلّلن سراً بأحلام اخرى غير حلم التقدُّم المهني.

كان حمّالو الفريق يتنقلون من جماعة الى اخرى، آتين بالاقفاص الفارغة وناقلين الملآنة. وكان وضع النجارين ارفع شأناً من وضع الحمالين : يقفون أمام طاولات طويلة وثقيلة، وببضع ضربات من مطرقتهم كانوا يصنعون الاقفاص من الواح خشبية رقيقة، ويضعون دائماً بين شفاههم قبضة من المسامير الفولاذية. بالنسبة الينا، كانت قيمة كل نجار مرهونة بعدد المسامير التي يستطيع امساكها بشفتيه. وفي هذا السلم الاجتماعي كان رئيس النجارين هو من يحتل المرتبة الأولى، وكان وضعه مشابهاً تقريباً لوضع رئيس الموضِّبات نفسه. كان يحمل قدّوماً به يسمِّر غطاء الاقفاص الملآنة المتحركة أمامه، خاتماً العملية بحركة شبه رسمية ينمُّ اعتدالها واناقتها عن « معلميّة » لا جدال فيها.

كان كل هؤلاء العمال المجتهدين ــ المصنِّفات والموضبات والمتمرنات والحمالون والنجارون ــ يعملون كآلة مزيَّتة تماماً، لكنها آلة حية تضج بالاحاسيس والعواطف والرغبات الدفينة. وكان رئيس الموضبات يستجمع فريقه كل سنة ويدعمه بتوظيف مراهقين من الجنسين. وخلال فصل القطاع كان الفريق يتنقل بين مزرعة واخرى، وقرية واخرى. وهذا النمط من الحياة كان قد جعل منه جماعة مستقلة يرتبط اعضاؤها ارتباطاً وثيقاً في ما بينهم.

وكانت هذه الحياة المتنقلة تشجع الاهواء الغرامية، ولذا كان ابناء الفلاحين، عند قدوم الفريق، يفتحون جيداً آذانهم وعيونهم حتى لا يدعوا اي علاقة غرامية جديدة تفوتهم : فالنظرات العابرة والملامسات كانت توحي بأشياء لم يكن اهلنا المحافظون جداً ينتبهون اليها اطلاقاً.

عنصر آخر ثابت في عالمنا الصغير : التوتر المستمر بين سكان الموشاف والعرب الذين تتوزع قراهم ومخيماتهم بين المستوطنات الزراعية اليهودية. كانت كفرملال قد دمرت اثر هجوم عربي في العام ١٩٢١، اي قبل سنة من استقرار اهلي فيها. وكادت ان تتهدم ثانية خلال التمرد العربي في العام ١٩٢٩، بعد ولادتي بسنة. واذا استثنينا بعض الحقبات الهادئة يمكن القول ان الحياة لم تكن هادئة امينة جداً فيها. اذكر رحلة قمت بها بالاوتوكار مع والدتي من اورشليم الى تل ابيب، وكان عمري خمس سنوات، لمعالجة عيني. وخلال الرحلة كلها جلست القرفصاء فوق مقعدي، رانياً بعمق الى مرتفعات اليهودية في محاولة لاكتشاف علامات محتملة لوجود ابو جلدة، الارهابي العربي الشهير، المتخصص في نصب الكمائن على طريق اورشليم.

ولم يكن الامن مشكلة طارئة في كفرملال بل على العكس كان مصدراً لقلق كل سكان القرية اليومي. فكانوا يقيمون الحراسة كل مساء في الحقول. ومن وقت الى آخر كان الموشاف يرسل بعض اعضائه لانجاد القرى المجاورة المعرضة للخطر. وكان ابي يحمل دائماً مسدساً صغيراً كانت امي تحسن استعماله هي ايضاً. وكاد يقع مرتين في كمين : المرة الأولى في العام ١٩٣٦ عندما كان عائداً على ظهر الحصان من بستان ليمون قريب كان يحرثه، والمرة الثانية عند تخريب نظام الري في حقولنا؛ فالمخرِّب لم يكتفِ بالضرر الذي احدثه بل كمن ليقتل من يأتي لاصلاح نظام الري. وفي الحالتين خرج ابي سليماً معافى. لكنَّ افراداً عديدين آخرين من سكان القرية كانوا اقل حظاً منه.

عندما بلغت الثالثة عشرة بدأت انا ايضاً اقوم بالحراسة في الحقول. كنت

اجلس في الظلمة، مسلحاً بعصا وخنجر قفقاسي مزيَّن القبضة اشكه تحت حزامي، وهو هدية من والدي في إحدى المناسبات.

خلال ليالي السهر الطويلة تلك، وحيدا مع نفسي، كنت استجمع قوتي من عاطفة غدت معروفة : وعيي لاستقلالي كنت احسني سيد مصيري، وهذه الثقة لم تضعف عندما لاحظت ذات ليلة حركة مشبوهة. تفحصت الظلمة فتعرفت على والدي الذي جاء يتفقدني فقط. كم من الليالي قضاها هكذا في جواري من دون أن ادري ؟ يستحيل عليّ معرفة ذلك. وانا لم اكشف له ابداً اني رأيته.

على رغم هذا التوتر الخفي الذي كان يشكِّل خلفية حياتنا اليومية، والاحداث الدامية التي كانت تنفجر من وقت الى آخر، كان اليهود والعرب يعيشون متجاورين. كانوا يلتقون يومياً في الحقول او في السوق، ويقيمون علاقات تتغذى من ذاتها. وجاء العام ١٩٣٦ ليرسم مفصلاً جديداً. ففيه اندلعت « الاحداث » أو « التمرد » العربي بسلسلة من الاغتيالات واعمال التخريب. كانت كل قرية من القرى اليهودية المحاصرة تعرف اسماء ضحاياها، ومن خلال محادثات الراشدين كان يُستشف توقعات متشائمة داكنة. ألا يزال من الواجب تذكير اي كان كم كانت الحياة خطرة بالنسبة الى اليهود المعرَّضين للعنف العربي المنظم في ظل لامبالاة الحكومة البريطانية ؟ ما زلت اذكر امي تقول انه يتعين علينا ان نستعد « للصمود ». وقد الحت على والدي حتى يدربها على استخدام بندقيته الالمانية القديمة « الماوزر »، المخبأة في صندوق خشبي مطمور تحت قش التبان. كانت هذه « الماوزر » غير شرعية، مثلها في ذلك مثل مخبأ السلاح في الموشاف، المحفور في جدار البئر الجديد؛ وكان صاحبها معرض للسجن عند اكتشافها. ومع ذلك كان ابي يخرجها من التبان ليحرس خلال الليل متسلحاً بها.

على رغم لهجة الكبار الكئيبة لم اكتشف قط اي اثر للخوف فيها. على العكس : ما استطعت التقاطه منها يشير بالحري الى ثقة بالنفس والى عزم لا

يُفَلّ. ميدانياً كان التوافق كاملاً بين اهلي وباقي عائلات الموشاف؛ فهؤلاء الرجال العتاة لم تعد تساورهم الاوهام — لقد بنوا قريتهم من الصفر. وبعد سنوات من العمل المضني حولوا منطقة موبوءة بالمالاريا الى اراضٍ خصبة ومنتجة. وهم رفضوا ان يُصنِّفوا حقيري المحتد وخلعوا النير واعادوا بنيان حياتهم. لم يكونوا يخشون شيئاً ولم يساور أيّا منهم شكٌّ حول حقوقه في الأرض التي كان يستعملها.

حتى امي انتهى بها المطاف اخيراً الى التماثل مع هذه الأرض. لم تكن صهيونية في شيء عند وصولها الى البلاد ولم تكن تشعر بأي رباط روحي بأرض اسرائيل. بل كانت بالحري لامبالية بالاشتراكية (التي كان ابي قد اعتنقها) التي تقول إن العمل اليدوي يقدس الحياة. لكنَّ متطلبات حياتها اليومية جعلتها تعي ضرورة تثمير هذه الأرض التي تعيش عليها، وأيضاً ضرورة الدفاع عنها وقت الحاجة، بعدما غدت هذه الأرض على مر السنين جزءاً منها.

كانت فكرة التعايش مع العرب على قدم المساواة شيئاً طبيعياً عند اهلي وباقي سكان القرية. وعلى رغم الفخر الوطني عند هؤلاء لم يكونوا متزمتين ولم يعتقدوا قط أنهم افضل من الآخرين. وكان اهلي على اقتناع عميق بأن للعرب كل الحقوق بصفتهم من سكان البلاد، وان في وسع اليهود والعرب ان يتعايشوا. لكنهم لم يكونوا اقل اقتناعاً بأن اليهود وحدهم كان لهم كل الحقوق على البلاد، وان لا شيء ولا احد في امكانه ان يخرجهم منها، حتى الارهاب أو أي شكل آخر من أشكال العنف.

من استيهاماتي الطفولية اني اخذت احلم ان القرية ستكون منيعة ضد اي هجوم عربي. في ما بعد، خلال الاشهر الستة الأولى الرهيبة من حرب الاستقلال، كنت اقول لنفسي ان تقدم العدو، حتى في حال حصول اسوأ الاحتمالات للجيش، سوف يصد عند مدخل القرية. وبعد ذلك بكثير ايضاً، في العام ١٩٦٧ خلال حرب الايام الستة، فيما كنت قائد فرقة، كان يغمرني

هذا الاقتناع نفسه. بكلمات اخرى، راودني دائماً الشعور ان العدو عاجز عن اختراق قرى زراعية. فالأرض التي تملكها حقا والتي نتعلق بها بكل قوانا الجسدية ونعرف كل مرتفع وواد وبستان فيها، وفيها نعيش مع عائلتنا، ان ارضا كهذه هي مصدر قوة؛ لا اعني القوة الجسدية بل الروحية. فمثل مارد الميتولوجيا اليونانية انتيه الذي كان يستمد في صراعه مع هرقل قوتَه من اتصاله بالأرض، هكذا الأرض هي مصدر قوتنا.

عندما اخذت اكبر بدأت افهم ان العداوة ليست حكراً على اليهود ضد العرب بل هي تتحكم باليهود بعضهم مع بعض. هنا ايضاً وعيت الظاهرة اثر الخلافات العميقة بين اهلي وباقي سكان الموشاف. لكنني ميزت في الصراع اليهودي — اليهودي بعض المرارة التي تتجاوز كثيراً الخلافات المألوفة حول المواسم وطرائق الزراعة. فهذه المرة كانت المسألة تتعلق بحاييم ارلوزوروف، القائد الصهيوني الاشتراكي الكبير، الذي اغتيل على شاطئ تل ابيب. ولقد عزيت هذه الجريمة الى يهود آخرين من غير حزب الماباي الصهيوني الاشتراكي المسيطر. وفي تلك الاثناء سمعت للمرة الأولى اسم زائيف جابوتينسكي يتردد عندنا كخصم لبن غوريون وحزبه الماباي في الجانب الصهيوني. ولقد اتهم محازبو جابوتينسكي بمصرع ارلوزوروف.

كان ابي مخطوف اللون من فرط سخطه. لم يكن من انصار جابوتينسكي، بل على العكس كان عضواً في الماباي مثل باقي سكان الموشاف. ولكن ان يصل الامر باليهود درجة اتهام بعضهم بعضاً فذاك امر لا يحتمله. ولم يكن كذلك يستطيع ان يتصور ان محازبي جابوتينسكي امتدت يدهم لاغتيال ارلوزوروف، هذا القائد اليهودي الشاب واللامع، حتى ولو كانوا ينتمون الى جهة سياسية مناوئة. وكان مما اوقعه مريضاً بالفعل ان يُقدم اشتراكيو الماباي على اطلاق تهمة كهذه، باذرين هكذا الضغينة بين اليهود من اجل غاياتهم السياسية فحسب.

لم توضع القضية على الرف في تلك الحقبة، بل ظلت تتفاعل طوال سنوات.

رصّ اعضاء الماباي صفوفهم حول زعمائهم وصبوا غيظهم على محازبي جابوتينسكي المطالب باعادة النظر في اسس الاشتراكية. وهذا الحقد الفتّاك تفشى في كل شرائح الشعب اليهودي في البلاد. رُشق « المنشقون » بالحرم ووصفوا بالمجرمين وبأعداء الشعب اليهودي وبالصهيونيين غير الشرعيين ... وطبيعي ان تثير هذه الاهواء حفيظة سكان كفرملال.

لم يكن ابي من نوع الرجال الذين يتحاشون الصدام مهما كانت نتائجه. على ان الرهان، هذه المرة، كان بالنسبة اليه مبدأ مقدساً اثمن من كل شيء : مجاهرته بأنه قومي يهودي قبل اي شيء آخر. كان يجرحه حتى عمق كيانه ان يقدم يهود على التقاتل فيما الجماعة بكليتها تناضل من أجل وجودها. فرذل بصفاقة اولئك الذين كانوا يستخدمون ادعاء الماباي حول الجريمة ضد الجهة السياسية المقابلة واتهمهم بفقدان الوعي. وكانت النتيجة متوقعة: اعتبر اهلي من محازبي جابوتينسكي فالصق بهم العمل الشائن. وظلت الكراهية تسمم مدة من الزمن جو كفرملال.

كانت قضية ارلوزوروف الشرارة التي الهبت النار في البارود، اي في الاهواء السياسية. في الحقبات الاكثر هدوءاً كان سكان الموشاف غارقين حتى آذانهم في السياسة. وفي اثناء اضطرابات ١٩٣٦ التزموا الى اقصى حد الحركات المتنوعة التي كانت تناضل في الساحة. وخلال مراهقتي كانت الجدالات تدور حول الاشتراكية والصهيونية والانشقاق ومجموعة من التيارات التي كانت تتسابق لكسب ولاء الجماعة. كانت الاحداث السياسية في اوروبا تخضع للتحليل، ويطرح على بساط البحث الذي لا ينتهي وضع الجماعات اليهودية الصغيرة والكبيرة في القارة القديمة. وكان الناس يتابعون بأكبر انتباه ممكن الوضع في الاتحاد السوفياتي، ويتحدثون حتى ساعات الصباح الاولى عن البولشيفية وعن ستالين (لم يطلق والداي على ستالين اسمه الحقيقي بل كانوا يلقبونه بـ « الجلف الجيورجي »). كانت القرية تعج بالافكار والآراء والمناقشات. وبطبيعة الاشياء وعلى غرار اولاد القرية

المشاغبين والمندفعين، وجدتني مشاركاً انا أيضاً في هذه الجدالات، الأمر الذي جعلني التزم منذ صباي الباكر مثل الآخرين.

كان في مطبخنا خوان بدائي صنعه والدي لي ولشقيقتي. ما ان تعلمت القراءة حتى اعتدت الجلوس اليه اتصفح الجريدة الموضوعة على احدى كراسي الكبار المصنوعة هي ايضاً بيد والدي. وعندما كانت والدتي تعد طعام المساء كنت اقرأ لها مقالات تبحث — على ما اذكر — في العنف المتنامي وفي نتائجه على اليهود. كنت اقرأ الأخبار والتعليقات عن صعود النازية وعن الحرب الاهلية في اسبانيا — هذه الحرب التي تطوع فيها يهود من ارض اسرائيل ليحاربوا مع الالوية الدولية. كنت اتخيل هؤلاء المحاربين اليهود وانقيادهم الى أحلام البطولة الطفولية، محتقراً انتقادات أبي لليهود الذين « يعملون لقضايا الآخرين ».

كانت الاخبار تردنا ايضاً بالراديو — كان عمي ميكايل المخترع قد ركب لنا نموذجاً حصرياً لجهاز يتخذ شكل علبة كبيرة يزينها هوائي على شكل شريط ملولب يذكّر بفتّاحة القناني. في ذلك الزمان كان جهازنا واحدا من اجهزة الالتقاط اللاسلكية النادرة جداً في المنطقة، فكان الناس يأتون من كل مكان للاعجاب به وسماعه. لكنَّ الاخبار السارة كانت بالحري نادرة. عاد النازيون الى احتلال منطقة السار وغزا الايطاليون الحبشة. واختار هيلاسيلاسي، « اسد يهوذا »، اورشليم مدينة لمنفاه. ثم ضُمت النمسا الى الرايخ بعد الانقلاب النازي في ١١ آذار (مارس) ١٩٣٨ (انكلاس) واحتجت تشيكوسلوفاكيا. كان العالم كله يرشح جوا من الخطر والعدوان، جوا لا يمكن فهمه ولكنه دائماً حقيقي.

بالنسبة الى غالبية الاولاد في القرية كانت الحياة تنساب مع تواتر الفصول واعمال المزارع. وفي جو كهذا لم يكن الميل العام يولي المدرسة دائماً الاولية. وينطبق هذا الأمر عليّ خصوصاً لاني لم اكن يوماً تلميذاً فوق المتوسط. وغالباً ما كان والداي يقولان ان على شقيقتي ان تتابع دراستها

لأنها موهوبة. لم يصل بها الأمر الى اتهامي بالولد الكسول، ولكن راح يتكون عندي انطباع عن توافق ضمني بينهما حول مستقبلي : سأظل في المزرعة للعمل مع والدي.

لكني في العام ١٩٤١، وكان عمري ثلاث عشرة سنة، دخلت ليسيه تل أبيب الواقع على بعد ساعة سفر بحافلة بطيئة تنقل الاولاد من القرى البعيدة عن المدينة. كنت اصل باكراً في الصباح — واستطيع اذاً ان اجتاز سيراً على الأقدام الكيلومتر ونصف الكيلومتر الذي يفصل موقف الباص من الليسيه في شارع غاوولا، ليس بعيداً من الشاطئ. وعند انتهاء آخر امثولة كنت احب التسكع في سوق بتسالال او في سوق الكرمل؛ فاشتري الفلافل، وحتى كباية ليموناضة عندما يتوفر معي ثمنها. ثم كنت اذهب لرؤية جدتي لنجري محادثة ودية. في العام ١٩٢٥ نجح اخيراً جدي لابي في جلب باقي افراد العائلة من باكو، لكنه توفي بعد ذلك ببضع سنوات، تاركاً ارملة، هي جدتي ميريام، لم تتعلم العبرية على رغم مكوثها خمس عشرة سنة في البلاد. لذا كانت تحدثني بالروسية، فتروي لي قصة حياتها في بتروغراد حيث تعلمت مهنة التوليد، وفي بريس — ليتفوسك حيث مارستها، وفي باكو حيث التجأت عائلتها خلال الحرب العالمية الأولى. وكنت اعود ادراجي الى المزرعة بين الثالثة والرابعة بعد الظهر واكرس بقية نهاري، وكذلك السهرة، لأعمال الحقل، حتى اذا فرغت منها انتقل الى كتابة فروضي.

كانت تل ابيب، في نظري، نوعاً من خيرات السماء. بعد انتهاء الصفوف كنت احب التنقل في الاسواق المسقوفة، متنشقاً الروائح التي لا حصر لها المنبعثة منها : دخان الششليك والكباب، ورائحة الخبز الخارج طازجاً من الفرن وفطائر السبانخ المطيَّبة بالافاويه. كان يمكن تصنيف الناس السائرين في هذه الأسواق الى فئتين : اولئك المستعجلين تبضّع مشتريات النهار واولئك المتسكعين بين اكوام الخضار والفاكهة أو معروضات الاسماك واللحوم والفراريج أو السمانة. ولدى سماعي كلام الباعة المعسول، يطلقونه بنغم من

تلحينهم، كنت اتساءل عن نمط حياتهم وسلوكهم. فما داموا لا ينتجون البطاطا أو البصل أو البرتقال، فماذا في استطاعتهم أن يفعلوا في الحياة — ومن أين يأتون بالمال ؟

وفي ايام المطر كنت ابدل المسيرة : انزل الى الشاطئ وامضي فترة طويلة في مراقبة الغيوم الثقيلة والامواج المرتدة فالمتكسرة على الرمال. وكان يتفق لي غالباً ان اتوجه لزيارة اصدقاء اهلي — من « العائلات الطيبة » على حد تعبير امي، عانية بذلك اناساً متعلمين ومثقفين. ولقد ارتبطت في المدرسة بصداقات مع صبيان وبنات من تل ابيب ومنطقتها، ومن خلالهم اكتشفت شيئاً مذهلاً : لم يسمعوا ابداً باخبار والدي وبأفكاره المتعلقة بالمواسم أو الاسيجة او الثورة البولشيفية. كانوا يجهلون كل شيء عن الصراعات القائمة بين والديّ وسائر عائلات كفرملال — والأسوأ من ذلك أنهم لم يكونوا يجدون فيها اي اهمية. كان موقفهم مني بسيط جداً، مثل موقفهم من الصبيان الآخرين. مع رفاقي في الصف هؤلاء كنت اغازل البنات وارنو الى النوافذ المفتوحة في البناية المجاورة للمدرسة، وهي فندق يقصده بنوع خاص بنات هوى تل ابيب والجنود الانكليز من طالبي اللذة.

كانت تل ابيب بالنسبة اليّ عالماً جديداً من كل وجهات النظر، مكاناً انسى فيه سورات الغضب والتجاوزات الانفعالية التي كنت اكابدها غالباً في قريتي. كان التغيير جسدياً تقريباً، كما لو كان ازيح عني حمل ثقيل. لم اعد رازحاً تحت توتر شديد او خاضعاً لسيطرة انفعالاتي. كان نوع من التحول يحدث في داخلي، وكنت اعيه وإن لم افهم معناه تماماً. في اختصار، كنت احس أني اقترب من النضج.

اذا كانت سنوات الليسه الأولى سعيدة في نظري فان الآخرين كانوا يعيشون تلك المرحلة بحصر نفسي متنامٍ. ففي ١٩٤٠ كانت « ضربات » هتلر تقلب رأساً على عقب خارطة اوروبا وبالتالي كل التشكيل الجيوبوليتيكي

في الشرق الأوسط. وفي حزيران (يونيو) من تلك السنة نفسها انهارت فرنسا تحت هجمات الدبابات الالمانية، ومع استسلامها اصبحت الادارة الفرنسية في سوريا ولبنان تحت سيطرة حكومة فيشي المتعاونة. والعراق الذي تسيطر عليه بريطانيا منذ عشرات السنين هزه انقلاب لصالح الالمان، وفي نيسان (ابريل) ١٩٤١ تمرد الجيش العراقي ضد قوى الاحتلال البريطاني. وفي الشهر نفسه احتلت الجيوش الالمانية اليونان وجزيرة كريت، مهددة بذات الفعل الواجهة الشرقية للمتوسط. وفي الوقت نفسه تقريباً هجمت مدرعات رومل في افريقيا الشمالية في محاولة لبلوغ قناة السويس، هذا الشيء الذي لا غنى لبريطانيا العظمى عنه. وفي تلك الأثناء قذف الطليان تل ابيب ومنطقة حيفا بالقنابل، حارقين مستودعات البترول الكبيرة. وكنا ننظر من كفرملال الاضواء المشعة التي تشعل الافق.

كان الناس يتسقّطون الأخبار يغمرهم إحساس بأن العالم ينطبق على صدورهم. فمعظمهم كان عندهم اهل واقارب في بلدان اوروبا، وكان القلق على مصيرهم ممزوجاً بالخوف من غزو الماني لأرض اسرائيل : فاذا نجح الالمان في سحق الروس في القفقاس تُفتح امامهم بوابة شمال البلاد — كانوا يقولون عندنا ويضيفون : واذا توصلوا الى طرد الفرق البريطانية من مصر فلن يوقفهم شيء في تقدمهم حتى قلب الجماعة اليهودية. وفي عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢، كان رُهاب إفناء اليهود يسيطر على البلاد. فالاشاعات المتناقلة من فم الى اذن كانت تقول ان النازيين، اذا وُفِّقوا في خرق طريق ارض اسرائيل، فان المجموعات اليهودية ستحتشد قرب حيفا وان آخر التحصينات ستبنى على قمة الكرمل.

امام التهديد الرازح على مصر وقناة السويس بدأت فلسطين تعج بحركات العساكر نحو الشمال والجنوب، على امتداد الطرقات القديمة التي تربط افريقيا الشمالية بآسيا الصغرى. واصبحت اسرائيل، مرة اخرى، منطلق توزيع القوات. وعلى الطريق الساحلي الذي يجتاز كفرملال كنا نشاهد مرور القوافل

العسكرية المتتابعة : قوات فرنسا الحرة المتجهة نحو بلدان المشرق، الاستراليين والنيوزيلانديين، وحتى طوابير من اليونانيين يسوقون بغالا امامهم. وفي ١٩٤٢ شوهد في تل أبيب مرور جنود بولونيا الحرة، يقودهم الجنرال فلايسلاو اندرز ويتبعهم آلاف الزوجات والاولاد. وكنا أحياناً بدلاً من الذهاب الى المدرسة نتسكع ونركض نحو الشاطئ لنشاهد البولونيات الشقراوات وقد فغرنا افواهنا. حتى أننا تضاربنا عدة مرات مع الجنود البولونيين الشبان بعد إهانة مضادة للسامية، حقيقية او خيالية. وخيّمت وحدة بولونية بعض الوقت ليس بعيداً من مدخل القرية، وكان أهل الموشاف يدعون الجنود الشباب الى منازلهم. وكان احد الضباط يزورنا في انتظام. ويصعب علي تحديد العلاقات التي كانت تسود بينه وبين والديّ : كان يحلو في اعينهما، وهما ايضاً لقيا حظوة في عينيه. عندما كان يأتي لزيارتنا كان الثلاثة يتجادلون مطولاً وهم يرشفون اقداح الشاي. ثم كان الضابط ووالدي يخرجان الى الحوش لتقطيع الحطب.

من بين القوات الحليفة كان الاستراليون والنيوزيلانديون هم الاكثر تقديراً. كان الناس لا يزالون يذكرونهم منذ الحرب العالمية الأولى، عندما اجتازوا صحراء سيناء على الخيل ليحاربوا الاتراك في غزة وبئر سبع ومجدو. وها هم اليوم يعودون من طرف العالم الآخر ليشاركوا في حرب اقسى من الأولى. وعندما كانوا يعودون في مأذونية بعد خوضهم معارك فاصلة في الصحراء الغربية كان يتوقفون غالباً في البلدات والمدن والقرى اليهودية. كان عدد كبير منهم من المزارعين في بلادهم وكانوا يتحسرون على مواسمهم ومواشيهم الخاصة. ولذا غالباً ما كانوا يطلبون عملاً عندنا لتلبية حاجة اتصالهم بالأرض. ولقد عقدنا روابط صداقة حقيقية مع بعض هؤلاء الجنود، حتى أن أحدهم كان يقضي مأذونيته عندنا. اطلقنا عليه في العائلة اسم « كيوي ». كنت مقتنعاً أن هذا هو اسمه الحقيقي الى ان جاء يوم علمت فيه أن كل النيوزيلانديين يُطلق عليهم هذا اللقب. ولم تكن لهجته النيوزيلاندية الحادة ولهجتنا

الانكليزية المترددة يساعداننا على الاتصال العميق وإن كنا نتوصل في وجه عام الى التفاهم. ولقد ظل يراسل والدي حتى وفاته على ارض المعركة قبل انتهاء الحرب بقليل.

في خضم الحمى العامة والانفعالات الملجومة والقلق العميق عند الجميع لم يتخذ المجتمع اليهودي موقفاً سلبياً ولم يكتف بدور المتفرج. فإن عشرات الالوف من الشبان والشابات انخرطوا في صفوف الجيش البريطاني، وفي ١٩٤١ اطلقت الوكالة اليهودية حملة لصالح انشاء فرقة عسكرية من اليهود فقط، وهو مشروع ظلت السلطات البريطانية ترفضه حتى العام ١٩٤٤ عندما أُنشئ اخيراً لواء يهودي للمساهمة في حملة ايطاليا.

في فلسطين نفسها كثّف الجيش اليهودي شبه السري ــ الهاغانا ــ تدريب رجاله، وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمري لُقِّنتُ اسرار العمل في الخفاء. جُمع أحداث القرية، بمن فيهم أنا، في نظام داخل أحد بساتين الليمون في خراج القرية. وبعد انتظار قليل أُدخِلنا تباعاً الى كوخ صغير. هناك كنا نضع يداً على التوراة والأخرى على مسدس ونقسم يمين الولاء. لم تكن الحفلة تحمل في طياتها شيئاً مؤثراً، لكنّ فكرة المساهمة على نحو نشيط في الدفاع عن الجماعة كان يعني لنا الشيء الكثير في العمق.

في البداية كنت اتابع التدريب مع صبيان القرية الآخرين كل يوم سبت بالاضافة الى احدى عشايا الاسبوع، ولكن سرعان ما نُقلت الى وحدة ممتازة تُدعى « فرقة نقل الإشارات » التي كان لها شعار خاص بها : علمان صغيران متصالبان. كان « رجال » هذا الفرع، المحشودين من مختلف القرى، يدرَّبون على مقربة من كفرملال على استعمال المسدس والسكين، على يد شبان لا يزيد عمرهم عن عمرنا الا قليلا. في ما بعد جاء اعضاء « شرطة القرى العبرية » ليعلمونا استخدام اسلحة اخرى : بندقية « لي إنفيلد » من مخلّفات الحرب العالمية الأولى، القنبلة اليدوية، رُشَيِّشة « ستن »، وحتى الرشاش.

كانت هذه الشرطة اليهودية جزءاً من وحدة عسكرية وطنية أُنشِئت تحت مراقبة بريطانية على اثر التمرد العربي. وكانت مكلّفة في آن واحد الدفاع عن القرى اليهودية وعن التجهيزات البريطانية مثل انبوب شركة بترول العراق. كان رجالها المدربون على حمل السلاح تغطية ممتازة لتدريب رجال الهاغانا واستخدام التجهيزات التي تعود الهاغانا.

بالاضافة الى استعمال الاسلحة الخفيفة لُقِّن اعضاء وحدتنا معلومات طوبوغرافية وعُوِّدوا على العراك الجسدي. كنا نقطع المنطقة في كل الاتجاهات، نرود القرى العربية واليهودية، ونتسلق التلال، ونتقصى بدقة اقل مجرى مياه واصغر واد، حتى نتعرف غيبا الى كل التضاريس الارضية وبما اننا لم نكن نملك راديو ميدانياً، كنا نستخدم عمود الإشارات المعروف بالملوّحة وابجدية « مورس » بوساطة الرايات الصغيرة في اثناء النهار وبوساطة قناديل « اللوكس » في اثناء الليل. ووصل الى فلسطين جزء من الغنيمة التي غنمها الجنرال ارشيبالد وأقل من القوات الايطالية في افريقيا الشمالية، ما أتاح لنا ان نتخصص في نظام الإشارة الايطالي. وكان يتخلل التدريبَ في انتظام احاديث تعليمية يلقيها خبراء حول مواضيع مختلفة او حول آخر تطورات مجرى الحرب. وكنت أُرسل احياناً لتلقي تدريب مكثّف في مواضيع مثل استخدام التلفون الميداني أو اسلحة متنوعة. ولقد تميزت تلك الحقبة بنشاط كثيف، وهي حقبة وقفت فيها الجماعة اليهودية حزمة واحدة في مواجهة مصيرها إذ كانت تعي تماماً أن مستقبلها مرهون بعوامل قوية خارجة عن سيطرتها، لكنها كانت عاقدة العزم على الصراع من أجل البقاء بكل الوسائل المتاحة.

حزيران (يونيو) ١٩٤٥. عمري سبع عشرة سنة واكاد انهي دراستي الثانوية. قبل شهر من هذا التاريخ مات ادولف هتلر في ملجأه. في اوروبا انتهت الحرب. في آسيا تقف الامبراطورية اليابانية على شفا الخراب. لكنني لا اشعر ان حقبة كبيرة ورهيبة تشرف على نهايتها. على العكس : بدلاً من الفرح والانفراج المنتظَرين نحس جميعنا بنوع من الحصر النفسي. كما لو أن

كل المشاكل التي مزّقت المجتمع اليهودي قد بُرِّدَتْ وأُجِّلت مدة الحرب، وها هي توشك الآن بالعودة مجدداً بقوة. الى ذلك هناك الصراعات بين اليهود والعرب، التي لم تجد حلاً لها؛ والصراع المعلّق موقتاً ضد سلطات الانتداب؛ والمشكلة المستجدة اليوم : مئات الالوف من اليهود الناجين من المجازر والمتوسلين حق الدخول الى ارض اسرائيل. وفيما كنت استعد لمغادرة قريتي مدة طويلة من أجل الحصول على تنشئة عسكرية مكثّفة كنت استشف في الجو مداهمة حدث مهم : فثمة شيء سيحدث؛ وثمة من يطرق الباب.

في صفوف الهاغانا

... اولئك الطارقون الباب بكل عزم اليأس لم يكونوا سوى الناجين من بين الجماعات اليهودية الأوروبية. فليس من يجهل ان الانكليز خلال الحرب اخذوا كل الاحتياطات لمنع الهاربين اليهود من دخول فلسطين، ملجأهم الأخير الأوحد. فلخشيتهم من اغاظة العرب لم يحيدوا قيد انملة عن كوتا المهاجرين المحددة في الكتاب الابيض للعام ١٩٣٩. وكانت نتائج هذه السياسة التقييدية فاجعة : سفن مكتظة بمئات الرجال والنساء والأولاد، الذين استطاعوا الهرب من الإبادة الجماعية، كانت في البحر في وسط الحرب، عاجزة عن ايجاد مرفأ يستقبلها. وكان سبعمائة وخمسون يهودياً هاربين من رومانيا قد لاقوا حتفهم غرقاً على متن الباخرة ستروما التي اغرقها طوربيد في عرض البحر قبالة الشواطئ التركية. ولقي مائتا راكب يهودي على متن السفينة سلفادور المصير نفسه في بحر مرمرة. وأُوقف لاجئون آخرون نجحوا في خرق الحصار البحري البريطاني والرسو في ارض اسرائيل، ونقلوا الى معسكرات الاعتقال في جزيرة موريس ثم في جزيرة قبرس. ولقد اخرجت مأساة ستروما الى شوارع تل ابيب آلاف الناس الذين قاوموا الشرطة البريطانية عندما حاولت توقيف متظاهرين. وعندما قررت السلطات (المنتدبة) إبعاد ركاب السفينتين ياتريا و اتلانتيك اللتين رستا في ارض اسرائيل غمر الحصر النفسي والضغينة الجماعة اليهودية. كانت الحياة تبدو للناظر من الخارج كأنها تتبع

مجراها السوي. لكنَّ سخطاً مكتوماً، يغذيه يأس العجز، كان يكمن في نمط الحياة اليومية.

كانت كل مأساة يعيشها الناجون من الجحيم النازي ـــ وما أكثرهم ! ـــ تطرح على بساط البحث كيفية التصرف ازاء الانكليز. وكانت احدى منظمات المقاومة الشديدة الصلابة، اللاحي أو مجموعة شترن، قد حسمت المسألة منذ بداية الحرب. فبالنسبة اليها كان الانكليز مسؤولين عن استشهاد اللاجئين، ولا يخفف من ذنبهم كونُهم يحاربون ضد المانيا النازية. وكانت منظمة الإيرغون تزافاي لايومي المقاوِمة، وهي أكثر أهمية من ناحية العدد ويقودها مناحيم بيغن، قد كظمت غيظها في البداية. ولكن في نهاية ١٩٤٣، عندما مالت كفة النصر الى جانب الحلفاء، قررت الايرغون هي ايضاً ان ساعة التمرد المسلح قد دقت. فشوهدت المناشير تنبت كالفطر على الجدران، ووُزعت جرائد سرية تدعو الشعب الى الثورة. اما حزب الاكثرية بيشوف فقد ظل على موقفه السابق، اي اعتبار نفسه طالما استمرت الحرب حليفاً لبريطانيا العظمى على رغم سياستها المناهضة للصهيونية والتي يدفع ثمنها الناجون من بين المجموعات اليهودية الأوروبية. لكنَّ الايرغون والشترن كانا يقولان بالكفاح المسلح ويقرنان القول بالفعل.

في مدرستنا كان بعض الطلاب ينتمون الى هاتين المنظمتين فيما آخرون يناضلون في صفوف الهاغانا، الجيش السري الأكثري. كنا نقرأ كل الاعلانات والمنشورات الدعائية التي تصدرها حركات المقاومة، وكان كل منا يدافع باندفاع عن القضية التي يعتبرها الافضل. وكنا على اطِّلاع كامل على تصرفات السلطات الانتدابية، فبدأت العداوة ضد الانكليز تتحول الى كراهية. وفوق هذا الهيجان كانت الاحزاب السياسية لا تزال تتقيد بأوامر الوكالة اليهودية الحاثة على الاعتدال والتعاون. ولكن كيف نشهد مآثر الايرغون وفريق شترن ضد الانكليز من دون ان نحسدهما على شجاعتهما ومبادرتهما ؟

ابتداء من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ ازدادت صعوبة البقاء مكتوفي

الايدي امام الاحداث. في السادس من هذا الشهر اقدم عميلان لشترن على اغتيال اللورد مُوْين، الوزير البريطاني المقيم في القاهرة الذي كان كثيرون يعتبرونه كمُلْهِمٍ لسياسة التشدد ضد اللاجئين والناجين اليهود. تبع الاغتيالَ عملية اصطياد حقيقية قامت بها الهاغانا ضد عملاء الايرغون والشترن لتسليمهم الى الشرطة البريطانية، في عملية مطاردة ستبقى في حوليات البلاد تحت مصطلح « فصل ». من جهتي كنت اتفجَّر في داخلي. ومع ذلك نجحت في اخفاء إعجابي بهؤلاء الشجعان وتفهمت اجراءات الوكالة اليهودية لتدارك اغتيالات جديدة ضد البريطانيين. والحقيقة أن توقيف اولئك القناصين وعقابهم بديا لي بالحري مبرَّرين، ولكن ان يُسلَّما الى ايدي الانكليزي فذلك ما لم اقبله ! كيف يُسمح ليهود ان يشوا باخوتهم او يسلموهم ؟ تلك في نظري جريمة حقيقية، وعار لم أكن أرتضي ان أشارك فيه.

دامت عملية « الفصل » اشهراً، اي الى نهاية الحرب بالفعل. ولم يقبل تيار الوسط الصهيوني، الذي يشكل الاكثرية، بالتفاوض لتسوية الامور مع المنظمات المتمردة الا بعد موت هتلر واستسلام النازيين. وبنتيجة المفاوضة اتفق الايرغون وشترن من جهة، والهاغانا من جهة أخرى، على تنسيق أعمالهما. وكانت المطالبات بانشاء دولة يهودية قد بدأت تزيد من ضغطها، فأدّت السياسة البريطانية، المستوحاة من الكتاب الأبيض والمؤدِّيَة الى تحديد صعود اليهود وفق عدد محدد، الى سلسلة عمليات عسكرية قادتها هذه المرة كل حركات المقاومة معاً وبتنسيق كامل.

في مثل هذا الجو المثقل بالتهديدات رحت استعد لاتّباع تدريب سري كرئيس فرقة في الهاغانا. وراودني شعور أن أحداث غير متوقعة اخذت ترتَسم في الافق واني سألعب فيها دوراً نشيطاً.

اقيم التدريب في كيبوتز روحاما، على حدود صحراء النقب. وكان علي للذهاب الى هناك ان آخذ اولاً شاحنة ركاب حتى كيبوتز نقبا، المركز المنعزل هو ايضاً، ثم الصعود في شاحنة عربية في اتجاه غزة، فانزل في قرية

برير العربية وانتظر الى جانب الطريق تحت الانظار العدائية لعدة رجال متحلقين حول طاولة في احد المقاهي وغيرهم من المارين في الشارع. كان بيدي نبوت(١)، هذه العصا المعقّدة التي كان يحملها اليهود والعرب في ذلك العهد للدفاع عن النفس. مع ذلك، وحتى في هذا المكان المشهور بخطره، لم يكن نبوتي هو ما أعطاني رباطة الجأش بل افتخاري بأني يهودي، الا اذا كانت هذه العاطفة ناجمة عن شعور الشباب بأنهم منيعون على الخطر. ولكن على رغم الجو المهدِّد لم يحدث شيء، وما لبثت شاحنة الكيبوتز ان مرت واخذتني.

في تلك الاثناء كان كيبوتز روحاما بمثابة نهاية العالم نوعا ما، اي المكان الأكثر وحشة الذي يمكن تخيّله. كان هذا المتحد الصغير قد اسس في العام ١٩٤٤ فوق ركام كيبوتز آخر حرقه العرب خلال اضطرابات ١٩٢١. في ارض جدباء غبراء، تتخللها بعض المرتفعات الصخرية قد يظن من بعيد انها تلال، تقوم بعض البيوت الحقيرة البشعة المحاطة بالاغراس والحقول المحروثة. لكن المكان الذي لا يشجع كثيراً على الزراعة كان يوفر في المقابل ظروفاً مثالية للتدريب العسكري السري. فكل انسان يقترب من الكيبوتز، بالسيارة او بالشاحنة، كان ينمّ عن وجوده بسحابة من الغبار الذي يمكن رؤيته من بعد عدة كيلومترات، الأمر الذي يسمح بمتسع من الوقت لتخبئة الاسلحة « غير الشرعية » والاختباء عند الحاجة في احد مجاري السيول المحيطة بالتلال.

كان روحاما كيبوتز متخلِّفاً في عمرانه، وكان سكانه يعطون الانطباع نفسه وهم يرتدون البنطلون القصير النافر ويعتمرون الكسكيت الروسية. لكنهم كانوا عن كثب ذوي مهابة ملكية، وعلى رغم زيهم المضحك كانوا ينضحون بثقة من يعيش على ارضه ومنها. وواضح انهم فخورون بالمهمة التي

(١) حرف مائل في الأصل لكلمة nabut.

ينجزونها في مكان تبدو كفرملال بالنسبة اليه فردوساً أرضياً. وكان للمكان تاريخه ايضاً : ففي اثناء الحرب العالمية الأولى لعب الكيبوتز في « صيغته الأولى » دوراً مهماً في أعمال الـ « نيلي »، شبكة التجسس اليهودية التي قدمت معلومات ثمينة للقوات البريطانية حول حركات الجيشين التركي والالماني. فيه عاش رجال مثل هارون بن هارون وابشالوم فاينبرغ وجوزف ليشانسكي الذين رويت لي مآثرهم مراراً وتكراراً حتى غدت جزءاً من تنشئتي. كل ذلك زين روحاما في نظري بما يشبه الهالة؛ وفي هذا الموقع المتقدم على حدود الصحراء انشئ مخيم تدريب سري من أجل حاجات الجيش اليهودي الجديد. لكنَّ شهرة روحاما لم تكن مؤاتية لما كنت اتوخاه من تجليات اذ لم اتميز فوق الحد في تدرُّبي على ترئُّس فصيلة. بكلام آخر، لم تؤثِّر المواهب العسكرية التي قد اكون احملها في مدربيّ. ففي نهاية الشهرين لم تكن « شهادتي » تحمل درجة « عريف » أو رئيس دورية بل فقط درجة « عريف تحت الاختبار »، ما يتوافق مع رتبة جندي من الدرجة الأولى.

اصبت بخيبة كبيرة. كنت اعرف اني اساوي اكثر من هذا ولم اكن افهم لماذا لم استطع اثباته. ليس لأن ذلك سيغير مسيرتي في المرحلة المقبلة. فمثل الجميع كنت أعرف أن الانتداب البريطاني على أرض اسرائيل يقارب على نهايته وان المشاكل ستبلغ قريباً درجة الغليان، واني في تلك المرحلة سأكون غاطساً فيها حتى اذني بصفة رقيب أو جندي من الدرجة الأولى.

هذه كانت حالتي النفسية عندما عدت الى كفرملال لاساعد ابي في أعمال المزرعة ولتقرير طريقي العتيدة. في سريرتي كنت اقول لنفسي ان افضل ما أُقدِم عليه هو انخراطي في صفوف البالماخ، المنظمة العسكرية اليهودية، الاقرب ما يكون من الجيش النظامي. كانت البالماخ قد انشئت في العام ١٩٤١ لتكون في تكوينها قوة دفاع ضد الالمان عندما كان آلاف الشبان والشابات اليهود في الشتات يحاربون في الجبهة تحت الراية البريطانية. كانت

قاعدتها في الكيبوتزات حيث تمزج التدريب المتواصل بالأعمال الزراعية. وسرعان ما غدت وحدة منتخبة من ثلاثة آلاف جندي مشهورين بانجازاتهم العسكرية ومناقبيتهم. ولم يراودني شك في أن هذه القوة العسكرية ستكون في قلب الاحداث العتيدة، وهو ما كنت ارغب فيه بالتحديد.

كان لأبي أفكار اخرى حول الموضوع. ذات يوم، فيما كنا نعمل سوية في بستان برتقال، لاحظت اذ رفعت رأسي أنه كان يراقبني من وراء اغصان شجرة. كان القلق بادياً على سيمائه. قال لي بلهجة خفيضة : « أريك، انت حر في انتقاء الحياة التي ترغب فيها. ولكن عليك أن تعدني بشيء : اياك ثم اياك أن تسلم يهوداً لاممیين. اريد ان تقسم لي على ذلك ».

لم يأت على ذكر البالماخ ــ لم يكن من ضرورة لذلك: فالتلميح كان واضحاً جداً. « كانت عملية « الفصل » قد شارفت على نهايتها. ومن الصعب وصف ما كان يفكر فيه والدي بشأن هذه العملية التي يقوم بها يهود ضد يهود آخرين. فمن حيث ان البالماخ هي سن الرمح في الهاغانا كلفت مطاردة مناضلي الايرغون والشترن؛ وهي التي سلمتهم الى الانكليز. لم يكن ابي يستطيع مجرد التصور اني قادر على الانغماس في هذا النوع من العمليات، وعلى رغم رغبتي في الانخراط في البالماخ فهمت جيداً عواطفه حيالها وقبلتها.

لذلك اكتفيت بنصيب ادنى مرتبة : بدلاً من البالماخ انخرطت في شرطة القرى اليهودية. كانت شرطة حقيقية من بعض النواحي لانها كانت مكلّفة الدفاع عن التجمعات والقرى اليهودية، وتسيير الدوريات على الطريق وفي المناطق الريفية. لكن هذه الشرطة الريفية لم تكن في نظر رجال الهاغانا، وانا منهم، سوى ستار ملائم. كانت قيادتنا منوطة بضباط انكليز، لكني لم أكن أشاهدهم في الواقع الا عند اجراء تفتيش؛ آنذاك كنت اضطّر الى ارتداء الزي العسكري والحضور الى المخيم المرتبط به. وبين كل تفتيشين كنا ننشغل بدراسات تكتيكية واستعمال الاسلحة وندرب أيضاً الاصغر منا سناً مثلما كان

رجال الشرطة الريفية قد دربونا عندما كنا في وحدات الأحداث في الهاغانا.

في تلك الأثناء كانت الحالة تسوء في سرعة بين المجتمع اليهودي والسلطات المنتدبة. وبلغ الصراع ذروته بسلسلة من الهجمات قام بها الإيرغون والشترن ضد مراكز الشرطة والمواقع العسكرية البريطانية، فيما كانت الهاغانا تدمر الجسور وخطوط السكة الحديدية ومراكز حرس الشواطئ. بعض تلك العمليات تكلل بالنجاح، وبعضها كان اقل حظاً اذا نجم عنه اسرى وقتلى من جهتنا.

كانت محاكمات الأسرى اليهود تخصُّني. فعندما كان يعلنون بفخر فعل إيمانهم في وجه القضاة انما كانوا يعبِّرون بصوت عال عمَّا كان يفكر جميع الناس في الخفاء. كانوا مثاليين من البدء الى النهاية : امام المحكمة، وفي غرف سجنهم، واخيراً في صعودهم الى المشنقة. ولقد سحرني كما سحر غيري ماتي شمولفيتش، من فريق شترن، الذي أعلن أمام القاضي : « نحن نناضل من أجل فكرة ما هي التي أتت بنا الى هذه البلاد وفي سبيل تحقيقها هربت من مخيم اللطرون وحملت السلاح. هذه الفكرة هي حقيقة، هي فكرة مملكة اسرائيل على ارض اسرائيل. سوف نحققها حتى ولو اضطررتم الى شنق كل محاربي اسرائيل. في ضميركم تعرفون جيداً أننا لسنا مجرمين ... وتعرفون أن هذا التوق عند الشعب اليهودي الى الحرية لن تخنقوه لا بالعذاب ولا بالمشنقة ... ».

تابعت مع كل الحكاية دوف غرونر، رجل الايرغون. فمع انه اصيب بجرح بليغ في فكه فقد انشد الـ « هاتيكفا »، نشيدَنا الوطني، أمام المحكمة البريطانية التي حكمت عليه بالشنق. وكان عليه أن يتألم طوال سنة كاملة في حبسه المنفرد قبل تنفيذ الحكم فيه. وبعد غرونر جاء دور مايير فاينستاين من الإيرغون وموشيه برازاني من فريق شترن اللذين نسفا نفسيهما بقنبلة يدوية اوصلت اليهما في سجنهما الانفرادي عشية تنفيذ حكم الشنق بهما، ثم دور

ثلاثة رجال آخرين من الايرغون الذين حكم عليهم بالموت بعد مهاجمتهم قلعة عكا.

كان من شأن هذه الأحداث المأسوية ان تزيد من حدة معضلتي : كنت معجَباً بهؤلاء الابطال واحسدهم على بطولاتهم وشجاعتهم. ولكني كنت انتمي الى الهاغانا وكنت مقتنعاً بأن لا حق لأي انسان بأن يستبد برأيه ويعمل على هواه، حتى ولو كان نموذجاً للشجاعة. وعندما هددت الايرغون بشنق رقيبين بريطانيين اذا نفذ حكم الاعدام بالمحتجزين في سجن عكا كنت عضواً في فريق الهاغانا المكلف البحث عن الرهينتين. وبعد شنق الموقوفين اليهود تابعنا بحثنا في الكثبان والادغال شرق ناتانيا. ولكني في قرارة نفسي لم أكن أرغب اطلاقاً في تحرير الرقيبين الانكليزيين؛ بل اني كنت أحلم بالثأر للوطنيين اليهود الذين تمّ شنقهم.

كانت حكومة الانتداب واقعة تحت المطرقة اليهودية والسندان العربي عندما راحت تحاول عبثاً في العام ١٩٤٧ التفاوض حول حلول وسط، ومنها اقتراح التقسيم الذي رفضه الفريقان معاً. ولما يئست بريطانيا العظمى من تسوية الوضع اوقفت انتدابها في اذار (مارس) من تلك السنة وفوضت الامم المتحدة بحل المشكلة.

فيما كانت منظمة الأمم المتحدة تعدّ تحقيقاتها وملفاتها كانت وتيرة تدريبنا تتسارع. كنت لا أزال اعيش في المنزل وأعمل قدر استطاعتي في المزرعة، لا سيما ان والدي بدأ يعاني آنذاك اضطرابات قلبية انتهت بصرعه. ذات يوم، فيما كنت منشغلاً بري بستان البرتقال، ابصرت فتاة تعمل في حقل خضار مجاور لأرضنا. كان هذا الحقل يخص مدرسة داخلية حيث يتعلم ويعيش اولاد *Olim* جُدُد. وكان يتفق لي مراراً ان اشاهدهم يعملون في البستنة، غير أني لم ار هذه الفتاة من قبل. من اللحظة الأولى خُيل الي اني لم اشاهد في حياتي أجمل من هذه المخلوقة. ومن خلال ستائر اغصان البرتقال كنت استطيع ملاحظتها كما يحلو لي، وكان وجهها وضفائرها الكستنائية

تشد نظري على نحو لا يقاوَم. كنت اتساءل كيف اتمكن من تقديم نفسي اليها، وخصوصاً كيف استطيع أن أوحي اليها بالعواطف نفسها التي أكنُّها لها. وفجأة وعيت أن المياه تغمرني تحت ركبتي : ففي اثناء سهوي فاضت مياه الري خارج مجراها ودمرت الاثلام الترابية التي كنت ركشتها بجهد حول جذوع الاشجار.

لم يكن تنظيم لقاء معها بالأمر السهل. فادارة المؤسسة كانت تجري رقابة شديدة على الطلاب الآتين في معظمهم من اوروبا من دون أهلهم. وابواب المؤسسة كانت تُقفل كل مساء اقفالاً تاماً. لكن الحظ ابتسم لي اذ سرعان ما كُلفت تدريب بعض طلاب المدرسة الداخلية بصفتي مدرِّس من قِبل الهاغانا. استطعت اذاً ان اقوم بتحقيق خفي وحتى أن أوصل رسالة الى فتاة احلامي. ولشد ما كانت سعادتي كبيرة عندما قبلت لقائي. اجهل كيف تدبرت أمرها، لكنها استطاعت الخروج في الموعد المضروب؛ وانا من جهتي احدثت ثقباً في السياج الحديدي المحيط بملعب المدرسة، أتاح لها ان تنفذ منه. كانت تدعى مارغاليت أو « غالي ». ارسلت مع اختها من رومانيا الى ارض اسرائيل لتجتمعا بشقيقيهما اللذين وصلا قبلهما. ولقد نجا أهلها وشقيقاتها الاصغر من أهوال الحرب وهم في طريقهم الى البلاد. كانت غالي، ابنة الستة عشر ربيعاً، لا تزال فتاة خجولة جداً، لكن مجرد حضورها كان يجعلني أغطس في نوع من الافتتان. لم تكن حبي الأول بحصر المعنى، لكن ما احسه هذه المرة كان مختلفاً كلياً عن كل العواطف الغرامية التي عرفتها من قبل. كنا نخرج عند المساء ونذهب للجلوس فوق حجر بئر قديمة، في وسط بستان البرتقال. هناك كنا نتحدث حتى سقوط الليل وكل منا يمسك يد الآخر. وبعد عدة شهور من اللقاءات الليلية السرية قررنا سوية اللقاء في وضح النهار — ودائماً قرب البئر القديمة. لكنها لم تأت في الموعد المحدد. فكرت أولاً أنها لم تستطع ربما الخروج هذه المرة. أخيراً أبصرتها وهي تبتسم لي من بين أغصان غابة ليست بعيدة عن البئر. تلك كانت المرة الأولى التي اشاهد فيها عينيها اللوزيتين المشذّرتين بالذهب.

لسوء الحظ، غالباً ما كانت ظروف تلك السنة تمنع استمرار هذا الحب العذري الرقيق الذي كان يجمع في استمرار بين قلبينا؛ فقد كانت وحدتي تدعوني في استمرار الى مهمات تطول كل مرة اكثر. وفيما كانت لجنة الامم المتحدة الخاصة تضاعف جهودها لايجاد حل للنزاع اليهودي العربي كان التوتر يزداد عنفاً بين الفريقين. كان العرب يضاعفون القتل والتخريب في القرى اليهودية، فكنا نستدعى ثم نحرر تباعاً. كان علينا أن نسيِّر في استمرار دوريات في بساتين البرتقال وفي الحقول، لا سيما في الليل، لمناوشة العصابات العربية التي بدأت تزرع الرعب في المنطقة.

العملية الأولى التي شاركت فيها فعلاً حدثت في خريف تلك السنة نفسها. كانت استخبارات الهاغانا تشك في أن أحد أبناء مشايخ البدو في القطاع، واسمه ابو كشك، يتعامل مع تلك العصابات. وكانت النية تأديبه على سبيل التحذير. كان علينا اذاً ان نصادر سيارته « الناش » الحمراء البديعة التي كان يحلو له أن يتبختر فيها في الجوار. واذ كنت اعرف عاداته كنت مع زمرتي في مكان مناسب على طريق ضيقة تجتاز أحد بساتين الحمضيات. وعندما اعلمنا احد كشافتنا بقدوم السيارة وضعنا في عرض الطريق احدى الطاولات الطويلة التي توضب الحمضيات فوقها. وبعد برهة توقفت السيارة محدثة صرير فرامل قوياً. نزل منها ابن الشيخ في سرعة واطلق ساقيه للريح.

قفزت الى السيارة ليتبيّن لي فوراً أن الهارب كان ذا حضور ذهني على رغم استعجاله (وخوفه) فحمل معه المفاتيح. انطلقت اعدو في اثره بين البساتين. كنت أعرفها عن كثب وفي تلك الأثناء كنت سريع العدو. لكن ابن ابو كشك كان ذلك اليوم، وللاسف، اسرع مني. طاردته هكذا مسافة كيلومتر الى اثنين قبل أن أيأس واعود الى السيارة. وكانت دوريات انكليزية تُسيَّر في المنطقة، ولذا كان علينا أن نخبئ السيارة في هري في قرية مجاورة. ومن حسن حظنا أن احد رجالنا — وكنا عشرة — كان يعرف شيئاً من الميكانيك، فيما الآخرون كانوا خبراء في أحصنة الجرِّ وفي العجلات...

كنا نشعر ان الزمن بطيء كالسلحفاة، لكنَّ المحرك انتهى به الأمر اخيراً الى الهدير المتقطع، وتوصلنا الى نقل السيارة الى المكان المقصود.

عند نهاية الصيف انهت اللجنة الخاصة للامم المتحدة اعمالها وقررت أن الحل الوحيد العادل هو تقسيم البلاد لتُنشأ فيها دولتان، واحدة يهودية وأخرى عربية. في هذا الخريف المتأخر الذي كان يبدو بلا نهاية كانت الجمعية العمومية للأمم المتحدة، المجتمعة آنذاك في لايك ساكسِس بولاية نيويورك، تكرس أعمالها لمشروع التقسيم. وحصل التصويت يوم ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧. وصدف اني كنت ذلك المساء في المنزل استمع الى الراديو مع والديّ.

فيما كان الأمين العام المساعد يقرأ لائحة اسماء المندوبين كنا نحن الثلاثة نعد الأصوات : ثلاثة وثلاثون بلداً صوتوا مع المشروع، وثلاثة عشر بلداً ضده، وامتنع عشرة بلدان عن التصويت. وهكذا نجح مشروع التقسيم بلا عناء. وصارت دولة اسرائيل امراً واقعاً في نظر الامم المتحدة.

ما كادت تعرف النتائج حتى تدفق سكان كفرملال الى الشارع الرئيس وعقدوا حلقة رقص وغناء. لكن بهجتهم كانت آنذاك ممزوجة بهَمٍّ دفين. صحيح ان الدولة اليهودية ولدت على يد الامم المتحدة، لكنَّ الناس لم تكن تتعلل بالأوهام. فجميعنا كنا نعرف أن العرب لن يقبلوا مشروع التقسيم. وكان دم كثير قد سال خلال السنوات الطويلة الماضية ! ولم يشك احد ان الأمور ستسوء بعد ذهاب القوات البريطانية. من جهة اخرى، لم تتقاعس الدول العربية المجاورة لاسرائيل عن اعلان نياتها؛ حتى ان حكوماتها اوضحت أنها لن تسمح بوجود دولة يهودية « في قلب العالم العربي » وانها تنوي الانتظار ستة أشهر، أي حتى انقضاء المهلة الرسمية للانتداب البريطاني، وأضافت الحكومات انها بعد هذا التاريخ ستوحِّد جهودها لتمحي عن خريطة العالم الدولة الجديدة. وهكذا فان الأزمة التي كانت تختمر في السر منذ الحرب العالمية الثانية مزمعة أخيراً على الانفجار.

في ١٢ كانون الأول (ديسمبر) استدعيت مرة اخرى مع أعضاء الهاغانا الآخرين. لكن المقصود هذه المرة تعبئة عامة لمدة غير محددة. في غضون ذلك كانت الهاغانا قد اصبحت جيشاً حقيقياً متورطاً بعمق في عمليات اطلقت عقالها قراراتُ الامم المتحدة فحرب الظل تحولت الآن الى حرب مكشوفة.

علمنا ان المفتي الأكبر للقدس عاد الى الشرق الأدنى بعد أن أقام طوال الحرب في المانيا النازية. وأنه أعلن من القاهرة، حيث هو الآن، « الجهاد » أو الحرب المقدسة ضد اليهود. وتنظم في جوار اورشليم « جيش الخلاص العربي »، وهددت عصابات مسلحة جنوب تل ابيب. وتعاونت منظمات عربية شبه عسكرية مع القرى الفلسطينية على شكل وحدات من الانصار بقيادة المشايخ.

فيما كانت القوات البريطانية تغادر البلاد اتخذت الحرب حجماً جديداً مع « معركة الطرق ». اطلقت القوى العربية في كل البلاد عملية واسعة النطاق هدفها قطع المراكز المدنية والقرى اليهودية بعضها عن الآخر وتأمين السيطرة على الطرق ومفاصل السكة الحديدية. وبعد ان تُعزل هكذا المناطق اليهودية يجب محاصرتها ثم افناؤها. هاجم جيش الخلاص العربي، بقيادة فوزي القاوقجي، مشمار هاإميك على طريق حيفا، ورامات يوحانان شرق هذه المدينة، وكفار زولد وياحيام في الجليل، وكيبوتز تيرات زفي في وادي بيت شين. وفي اذار (مارس) قطعت المستوطنات الزراعية في النجف عن باقي البلاد، وكذلك اورشليم وقرى غوش اتزيون جنوب العاصمة.

في منطقة كفرملال دارت المعارك وفق الاستراتيجية نفسها. فبما أننا لا نملك العديد الكافي للسيطرة على الطرقات العامة وطرقات القرى، اعتمدنا تكتيك الضرب والهرب، مجبرين العرب على توزيع قواهم واعتماد سياسة دفاعية. ولكوننا جميعاً من المنطقة كنا نعرف تضاريسها وخباياها. وقد نُظمنا

في وحدات من عشرة رجال للوحدة وفي فصائل من ثلاثين أو خمسة وثلاثين رجلاً، نناوش العدو على الطرقات والجسور وفي القرى لمنعه من اعادة حشد قواه وشن هجوم ضد تجمعاتنا وقرانا.

عملنا في جوار الطريق الساحلية القديمة على مهاجمة القواعد العربية ونصب الكمائن لعدو يزيدنا عدداً، وتوصلنا الى السيطرة على مفارق الطرق وعلى نقاط استراتيجية مهمة. كنا نترك المخيم عادة عند منتصف الليل فنجتاز بساتين الحمضيات والحقول المحروثة والوديان، متجنبين قدر الامكان الاصطدام بالدوريات العربية والبريطانية. وبعد ان نضع وراءنا رجالاً يغطون ظهورنا كنا نصل الى مكان الكمائن قبل الفجر، منتظرين حركة مرور ساعات الصباح الأولى بين القرى العربية وقواعد العدو.

كنا قد اصبحنا مهرة في فن الاهتداء الى طريقنا في ظلمة الليل البهيم، وشيئاً فشيئاً اكتسبنا قوة التحمُّل التي يتطلبها هذا النوع من العمليات. وكان الخطر وضغط العمل قد قاربا فيما بيننا فصارت وحدتنا العسكرية عائلة واحدة.

كلما كنا نتقارب كنت أحس تغييراً يحصل في داخلي. وفيما كانت عملياتنا تتوالى كنت اغدو اكثر وعياً لحدث جلل في نظري : رجال فصيلتي كانوا يثقون ثقة عمياء بقدرتي على قيادتهم الى المعركة، وايضاً (وهو ربما امر اكثر اهمية) على ارجاعهم سالمين معافين. قادني هذا الشعور الى التمعن العميق في طريقة عملي. وشحذت ثقة رجالي فيّ حسي بمسؤولياتي، وعززت ثقتي بقدرتي على الحكم الصائب والعمل اللبق.

كان الهجوم على بير العدس خلال شتاء ١٩٤٨ احد الأحداث المهمة التي وسمت دخولي مرحلة النضج الكامل. بير عدس قرية عربية مجاورة لقريتنا، واقعة في وسط مجموعة من القرى والبلدات اليهودية مثل كفرصفا وكفرملال ومجديال. كانت مركزاً لفرق جيش الخلاص العربي / القاوقجي المؤلفة خصوصاً من جنود عراقيين غير نظاميين. من قاعدتهم هذه كان الجنود يشنون

غارات ويطلقون قذائف مدفعيتهم ورشاشاتهم الثقيلة على التكتلات اليهودية. فكان من الواجب اذاً اخراسهم.

لكن بير العدس كانت قرية حصينة وحسنة الدفاع، اي هدفاً اصعب بكثير مما عرفناه حتى ذلك الوقت. فهجوم ضد قرية كهذه كانت بالفعل عملية حرب عصابات، تتطلب عملاً منسقاً ودعماً من قوة تقدر بكتيبة. باختصار، لم تكن عملية من النوع الذي اعتدنا عليه.

كان رئيس كتيبتنا، زني جرمان، قد تخيل خطة تلحظ هجوماً ليلياً. على وحداتنا ان تتقدم عبر الحقول وتطوق القرية لتحاصرها من الخلف. فتقضي خطة كهذه تزامناً كاملاً وحساباً دقيقاً للوقت في كل مرحلة. وعندما أُعلمت بتعييني لقيادة الرتل لم يعد في الدنيا من هو اشد افتخاراً مني. وكان الوادي الذي يتعين علينا اجتيازه قد غمرته مياه الامطار، وعلي ان اقود الرجال، برشاشاتهم ومتفجراتهم، الى المكان المقصود في الوقت المحدد. وعلى رغم صعوبات العملية كنت على يقين من قدرتي على انجازها. فلقد حاربت في هذا القطاع طوال اشهر وأعرف كل خباياه.

عشية الهجوم تجمعت الكتيبة لتلقّي التعليمات في مجمع مجديال القديم. بعد شروحات الضباط عن مختلف نواحي المهمة صعدت بدوري الى المنصة في مواجهة المحاربين الذين تحلقوا حولها. حاولت أن أستخدم التعابير الأكثر بساطة ووضوحاً في مفرداتها لأصف مسيرتنا والحواجز التي قد تعترضنا والطريق الذي سيقودنا الى خلف القرية. في الخارج كانت السيول تنهمر، يصحبها من وقت الى آخر رعود تقاطعني في شرحي وبروق تنير جدران الكنيس ووجوه الرجال المشدودين كالنوابض ليستوعبوا التعليمات جيداً.

بعد انتهاء الاجتماع اصطف الرجال طوابير تحت المطر المتساقط. وضاعفت العاصفة جموحها. وفي فترات زمنية منتظمة كان البرق يمزق الليل الاسود وينير الجوار كما في النهار، راسماً بدقة حدود الاشجار والابنية.

غادرت الكتيبة مجديال وهي تتخبط في برك المياه واندفعت خلال الحقول والبساتين. كانت الوحول تثقل جزمتي فنتقدم بشق النفس. وكنزتي المكتنزة ماء تفوح منها رائحة القطن المبلل.

على رغم صعوبات الأرض والعاصفة سرعان ما وصلنا الى الاسلاك الشائعة التي تفصل بين القطاعين اليهودي والعربي. احدثنا فيها فتحة واسعة ومر كل الرتل. وامام الوادي الذي غمرته السيول أُمرتُ بتوقف قصير للراحة، وفيما كان الرجال يقرفصون فوق الحضيض تفحصت المكان لاختيار افضل مكان للعبور. وقع اختياري على مكان لا يتعدى فيه ارتفاع المياه وسط العابر. اجتزنا من دون مفاجآت وقد رفع الرجال اسلحتهم ومتفجراتهم فوق رؤوسهم. بعد أن تجمعنا على الضفة الثانية اتجهنا شرقاً ثم شمالاً في اتجاه بير العدس. وشاهدت الطابور يلتف خلفي ثم يختفي في الظلمة.

كنا نجد السير هكذا منذ قرابة الساعة عندما وصل عامل اتصال الى رأس الطابور لاهثاً ليقول لي إن خبراء المتفجرات قد اختفوا. في البدء كانوا يسيرون في المؤخرة، لكنهم تبخروا الآن.

فيما توقف الطابور قلت لأشير ليفي، رئيس سريتنا، اني قد استطيع ايجادهم. فقد تصورت أنهم وهم سائرون في المؤخرة واصلوا سيرهم شرقاً غير منتبهين الى اتجاه الطابور شمالاً. فاذا رجعت الى المفترق فقد يحالفني الحظ باقتفاء آثارهم والاهتداء اليهم وارجاعهم الى الطريق الصحيح.

اكتفى ليفي بأن يقول لي: « هيا ارجعهم ». سرت والطابور في الاتجاه المعاكس وسلكت طريقاً مختصرة توصلني الى المفترق عبر حقل تحول الى مستنقعات، فوجدته بعد مسيرة كيلومتر تقريباً. تفحصت الآثار ففهمت أن النقّابين كانوا قد فقدوا الاتصال فتابعوا سيرهم إلى الأمام.

اقتفيت اثرهم متسائلاً ما المسافة التي قد يكونون قطعوها قبل أن يدركوا أنهم ضاعوا؛ وخلال سيري كنت احاول ايضاً أن أحزر ما قد فعلوه عند

وعيهم المأزق الذي هم فيه. ما ان طرحت السؤال على نفسي حتى ظهروا امامي على نحو غير متوقع حتى كدت أَقعُ عليهم. فرووا لي انهم منذ بداية السير على الضفة الثانية للوادي ادركوا أنهم تائهون، فتوقفوا وقرفصوا في انتظار ان يأتي من يبحث عنهم.

بعد أن عدت الى رأس الطابور تسلمت القيادة. كنا نتخبط اكثر من ذي قبل في وحل سميك ولاصق، يزيده ثقلاً نوع من الحصى يغطي الحقول الواقعة وراء بير العدس. وعلى رغم العاصفة والقلق الذي سيطر علينا جميعنا بعد اختفاء النقّابين، كنت اشعر أني أسيطر جيداً على الوضع. وفيما كنا نشق طريقنا زاد اقتناعي اننا على الطريق السليم وان كل شيء سيتم كما هو متوقع. وكان ميدان العمليات يحدثني بألف شكل : التربة، بحفائرها وسواقيها واشجارها وادغالها وانحداراتها. ومع ان العاصفة خفت حدتها فإن البروق ظلت تلهب سواد السماء منيرة بساتين البرتقال والغابات المألوفة، كأنها تُثبِت لي أننا على الطريق الصحيح.

بعد ساعة جديدة من المشي وصلنا الى قرب القرية والى المكان الدقيق الذي كنا حددناه. انتشر الرجال في سرعة وصمت وفق خطة مرسومة مسبقاً. وركز حاملو الرشاشات (بأمرة ضابط شاب اسمه اسرائيل تال) اسلحتهم قرب المشاة. وكان الصمت المطبّق يخيم على القرية. والعاصفة التي عرقلت تقدمنا كانت حليفنا ايضاً نوعاً ما اذ غطت على وقع اقدامنا بحيث ان الميليشيا المحلية نفسها في القرية لم تَدْرِ بوجودنا.

في الدقيقة ذاتها الملحوظة في الخطة فتحت الرشاشات نار جهنم، مغطية على هزيم الرعد. وللحال تقريباً رد العرب بنيران غزيرة. وكنت منبطحاً على بطني مع رجال فصيلتي، في انتظار امر الهجوم. وكانت القذائف تصفر فوق رؤوسنا، وكان يسمع من حين الى آخر صرخة الم مكبوتة. لكنَّ الأمر المنتظر لم يصدر. ولم اكن اعرف ما القرار والعمل. هل كان يتعين علينا أن نفتح النار ببادرة خاصة منا أو ان نتقدم ــ أو ايضاً ان ننتظر ؟ وكلما مر الوقت بدا لي

بوضوح متزايد ان شيئاً ما حصل لرئيس سريتنا. ودفعتني الغريزة اكثر مما دفعني التفكير المنطقي الى اعطاء الأمر بالتقدم ونحن نطلق النار. وبهذه الطريقة بلغنا تدريجاً الخنادق التي تدافع عن القرية وتمنع بلوغها.

لكن العراقيين لم يلوذوا بالفرار. بل هم صلَوْنا ناراً حامية. حتى اننا لم نبلغ البناية الحجرية الكبيرة التي كانت هدفنا الاساسي. كانت الحرب لا تزال في بدايتها ولم يكن رجالنا قد تلقّوا بعد معمودية العراك بالسلاح الابيض. وحتى الآن كان الفريقان، اليهود والعرب، يستخدمان الطريقة نفسها : احد الخصمين يتخذ مواقع له يفتح منها النار بهدف اجبار العدو على التراجع. ولكنْ اذا صمد المهاجَم ووقعت خسائر في صفوف المهاجِم كان هذا الأخير يعتبر ان المعركة انتهت فيخلي المكان.

كان من الواضح ان العرب المدافعين عن بير العدس لم يكونوا ينوون اطلاقاً اخلاء القرية، اقله في هذه المرحلة. وبما أننا فاجأناهم من الخلف تضعضع دفاعهم وشعروا أنهم وقعوا في الفخ. وكنت مقتنعاً اننا لو ثابرنا على الضغط عليهم بنيراننا فترة اطول لتوصلنا الى تحطيم مقاومتهم. وكنت في اللحظات الأخيرة قد شعرت ببعض التردد في قوة نارهم. واذ ذاك وردنا الأمر بالانسحاب. فلم نعد نفهم ...

استمر المطر ينهمر مدراراً ونحن نغادر القرية. وهذه المرة كنا نحمل جرحانا ونتقدم ببطء شديد. وفي اثناء طريق العودة سعيت بجهد الى استعادة كل مرحلة من مراحل العملية، وخلصت الى الاستنتاج ان كل المسألة لم تكن سوى ورطة ضخمة. فلقد ذهبت ادراج الرياح كلُ المشاكل التي تعين علينا حلها قبل الوصول الى المكان، وكذلك الهجوم نفسه والخسائر المتكبَّدة. والحال أن العملية كانت ستؤول الى صالحنا لو كنا اكثر عناداً بقليل ... وقليل جداً ! والأمر الذي اثار سخطي بنوع خاص هو أن الانسحاب اصدره ضابط في القيادة الميدانية العامة، مراكزه خلف خطوطنا، وليس ضابطاً كان يتابع العملية على الأرض. هذه الأفكار وغيرها مما ينكد المزاج كانت تشغل

بالي فيما كنت اجرجر رجلين من رصاص على طريق العودة الى مجديال. وصلت منهكاً الى ثقب الاسلاك الشائكة، ومنهاراً وميتاً من التعب الى شارع القرية فيما كانت بوادر الفجر توشح الأفق بالبياض.

ومع ذلك كان لهذه العملية نتيجة سعيدة : في صبيحة اليوم التالي ظلت قرية بير العدس صامتة، ممّا أراحنا من قذائف الهاون التي عرفناها طوال أسابيع عديدة. وعلمنا في ما بعد ان العراقيين اخلوا القرية. وكان للعملية نتيجة اخرى بالنسبة الي، شخصية هذه المرة، لأني رقيت الى رئيس سرية. وكان عدد لا بأس به من الرجال يقطنون كفرملال، وقد كانوا رفاقي في المدرسة واللعب. لم تكن العلاقات بين عائلاتهم وعائلتي علاقات مودة دائماً، لكن العلاقات بينهم وبيني غدت الآن مختلفة تماماً، وعندما كنا نعود الى القرية لبضع ساعات أو ليوم راحة كان أهلها يهرعون الى ملاقاتنا وفي افواههم زهور الثناء والكلام الطيب. كان ذلك اكثر من استقبال، فالقرية تبنتنا جميعاً وكانت تضمنا الى قلبها ــ وانا مع كل الآخرين.

أقبل شتاءُ ١٩٤٧/ ٤٨ ونحن غارقون في حرب يومية. كانت المعارك والكمائن تتتابع مكوّنة معركة واحدة مستمرة. وحدها الأخبار البارزة والأحداث الخارقة كانت تكسر رتابة الحرب اليومية، مثل الهجوم الصاعق ضد الكميونات العربية خارج جلجوليا، وحلب الابقار المتروكة على طريق قلقيليا أو هرب العراقيين من كفرصفا. كانت الفوضى تبدو ضاربة اطنابها في كل مكان. كنا نقوم بعملية ثم نعود الى قاعدتنا بعد مكابدة خسائر، ونستعد لعملية تالية، وهكذا دواليك كل يوم. لم يكن أحد يعرف هل من استراتيجية وراء كل هذا ــ وفي حال الايجاب، هل هي الاستراتيجية الصالحة ؟ خسِرنا العديدين من رفاقنا واصدقائنا : بيرتز تاباك، كفرزارا، زيف غنديل قرب قلقيليا، وغيرهم ايضاً وقعوا في عمليات من أجل السيطرة على مفارق بلا اهمية أو وديان مجهولة الاسم. وكانت لائحة الضحايا تطول مع كل معركة وكل مناوشة. وكنا نكاد لا نفكر في ما سيحدث بعد رحيل الانكليز، عندما

ستغزو البلاد جيوش عربية ــ جيوش نظامية حقيقية. جل ما كنا نعلمه أننا نخوض ذروة صراع لا شفقة فيه يقرر مصير وجودنا على هذه الأرض.

ذات يوم من شهر اذار (مارس) عدت الى المنزل في مأذونية من عدة ساعات. بين ماجديال وكفرصفا مررت امام مراكز دفاعية يحتلها ليلاً نهاراً رجال كفرملال الاكبر سناً. وكنت دائماً شديد الفخر عندما أعود من كمين أو غارة على رأس سريتي، لا سيما عندما كنت اشاهد والدي في احد خنادق الدفاع. ومن واجب الحقيقة علي أن اقول إني كنت أحياناً اقوم بدورة طويلة لامر قرب هذه المراكز. ولكن في عصر ذلك النهار لم يكن أَبي في الخندق. وقيل لي إنه حرس طوال الليل وعاد في هذه الساعة الى المنزل.

عند اقترابي من المنزل شاهدته يعمل على سفح مرتفع تحت سماء مكفهرة. وكانت القذائف الضائعة على هذه الخلفية الغائمة خطوطاً منحنية برتقالية واسعة كانت تموت ببطء في المرحلة الاخيرة من مسيرتها. مصدرها القرى العربية الواقعة على سفوح التلال المجاورة في السامرة ... تحت هذه السماء الداكنة والمهددة كان والدي ينقب ارضاً يغرس فيها بستاناً جديداً. كانت الحرب تقترب من ذروتها ــ التي بلغتها في ايار (مايو) ــ وفكرت أن الوقت قد لا يكون مناسباً لبذل جهود كبيرة في غرس بستان حمضيات جديد لن تعطي اشجاره ثمارها قبل مضي اربع سنوات. لذلك سألت والدي ما رأيه في ما هو مُقْدِمٌ عليه. ومن دون أن يتوقف عن العمل اجابني بلهجة خشنة : « في ايام الفوضى هذه التي نعيشها على كل واحد أن يبذل افضل ما في وسعه في ركنه الصغير. هل تظن أن أفضل ما يتعين علينا عمله اليوم هو البكاء والنحيب ؟ اعمل عملك ! هذا كل شيء ! » اكملت طريقي نحو البيت وأنا أهز رأسي واقول في نفسي : « لا يُعقل ان يكون المرء عنيداً الى هذا الحد؛ فالعناد يجعل الانسان لا يحتمل ». لكن هذا العناد كان ايضاً مرادفاً لهذه الارادة الضرورية جداً للعيش والصمود في بلاد مثل بلادنا.

لم استطع العودة الى المنزل قبل ١٤ ايار (مايو)، اليوم الذي قرأ فيه بن

غوريون اعلان الاستقلال وانشاء الدولة. وصلت الى كفرملال بعد الظهر. ولكن عندما كنت اجتاز الشارع الرئيس لم اكن واعياً على الاطلاق الاهمية التاريخية لهذا اليوم. فكرت أن ما يميزه من غيره من الأيام الأخرى هو المأذونية القصيرة التي حصلت عليها. فلسوف يتاح لي اخيراً أن التقي غالي للمرة الأولى بعد شهرين. في تلك الليلة نفسها كان علي أن اقود عملية : نسف الجسر المؤدي الى قلقيلية، المدينة التي ستكون قاعدة لغزو منتظر في الغد تقوم به الجيوش العربية للبلاد. وكنت قد اعددت خطتي منذ مساء البارحة، ولا يسنح الوقت الآن الا لزيارة قصيرة للمنزل والتعريج على غالي لمعانقتها وتوديعها.

فيما كنت اتجه الى المدرسة الداخلية حيث لا تزال تقيم غالي سمعت من جهاز راديو رنة صوت بن غوريون الحازمة تعلن إنشاء الدولة. والتقط ذهني بوضوح الكلمات الآتية : « في ارض اسرائيل ولد الشعب اليهودي وفيها كوَّن هويته ». كانت الكلمات واضحة ومؤثرة. لكني لم اشعر بأي انفعال. فما كان يقوله كان طبيعياً جداً وواضحاً جداً ... ولا يترك في النفس الاثر الذي تركه اعلان قرار الامم المتحدة ونتائج تصويت لايك ساكسيس في تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة الماضية. ففي نظري قد نلنا استقلالنا منذ ستة اشهر. حتى اننا كنا غاطسين في هذا الاستقلال حتى اعناقنا وكنا نحارب من أجله منذ ذلك الشهر نفسه. وهذه الليلة سأقوم قرب جسر قلقيلية بما كنت به تماماً في كل ليلة منذ قرابة ستة أشهر.

حرب الاستقلال

اعلن بن غوريون رسمياً نشوء دولة اسرائيل في ١٤ ايار (مايو) عند منتصف الليل، في الدقيقة ذاتها التي انتهى فيها الانتداب البريطاني. وكنا نعلم جميعنا ان هذه الدقيقة، ستكون ايضاً الاشارة المتفق عليها بين الجيوش النظامية للبلدان العربية المجاورة لغزو الدولة الجديدة. كانت القوى السورية واللبنانية محتشدة على حدودنا الشمالية، فيما كانت الفرق المصرية تتحفز على حدود شبه جزيرة سينا. في الوسط، كان « الفيلق العربي »، بقيادة ضباط بريطانيين، قد دعم بوحدات عراقية من عشرة آلاف رجل. كان مقدراً لكل هذه القوى ان تجتاز حدودنا وتنضم الى « الجيوش » والوحدات العربية غير النظامية التي شاهدناها تعمل خلال الشهور الأخيرة.

وكان كل اليهود الشباب يدركون تماماً ان هذا الغزو لم يكن يهدف فقط الى تحطيم الدولة في حد ذاتها بل أيضاً الى الإبادة الجسدية لسكانها اليهود — « مذبحة مغولية جديدة »، كما كان قد أوضح أحد القادة العرب.

تقع قلقيلية على قرابة سبعة كيلومترات من كفرملال. هذه البلدة العربية الكبيرة كانت مركز تجمع القوات العراقية التي كانت تنوي قطع البلاد الى قسمين في « وسطها »، اي في المكان الاقل عرضاً. وكان جسر صغير يقوم فوق احد الوديان في احد ضواحي المدينة، في الأوقات العادية لم يكن يشكل الا تفصيلاً بلا أهمية في المشهد الطبيعي. ولكن بعد شتاء قاس جداً وامطار

متأخرة كان لا يزال مجرى الوادي موحلاً ــ الامر الذي يعطيه اهمية اولية من أجل تقدم القوات العراقية. ففي هدمه كنا سنربح وقتاً ثميناً جداً.

في اللحظة عينها التي أعلنت فيها دولة اسرائيل كنت اقود سريتي الى ذلك القطاع فيما كانت وحدات اخرى تهاجم النقاط الاستراتيجية لخط سير القوى العراقية. وكنت اتقدم ببطء لأن نسف الجسر لم يكن سوى عنصر من مجموعة عمليات متزامنة وواسعة النطاق يجب أن تجري دفعة واحدة في الساعة س.

لدى وصولنا الى جوار الجسر توقفنا ثم تابعنا سيرنا زحفاً. وكشفت امامي حارسين عراقيين يسيران ذهاباً واياباً. ولا ريب ان اقترابنا قد اثار شبهه احدهم، ففتح النار معطياً هكذا الإشارة لاطلاق نار فوري.

بعد بضع دقائق بدأ تراشق بالاسلحة الاوتوماتيكية بين الفريقين، وغادر الحارسان مركزهما ليلتجآ الى بيت في ضواحي البلدة. ولم يكن نقّاباي ينتظران غير هذه اللحظة : فقفزا ليضعا في سرعة حمولتهما من الديناميت في النقاط الحساسة من الجسر ثم التحقا بنا في مراكزنا. وكان العراقيون يطلقون النار من البيوت وبساتين الحمضيات على جانبي الطريق، من دون أن يجسروا على اجراء هجوم مضاد. كانوا يعرفون أننا هنا، في مكان ما، لكن العتمة كانت تمنعهم من تحديد موقعنا الصحيح والتعرف الى اهمية عديدنا.

اعطيت الأمر لايقاف النار، لأني اردت ترك العراقيين في حيرة من أمرهم حتى تهديم الجسر وعودتنا. كان الوقت يداهمنا، وكنت اسمع الرصاص يطرق على الأرض وينبو عن الصخور. وكنت أعلم أن علينا أن نجتاز بعد تهديم الجسر خمسة كيلومترات لنعود الى المخيم.

كانت الساعة الواحدة تماماً عندما أعلمت المؤخرة بالراديو ان اصابع الديناميت كانت في أماكنها معدة للانفجار. فأجابني صوت نسائي شديد العذوبة من الطرف الآخر من الخط يسألني إن كان في وسعي الانتظار، بسبب

غزو الجيوش العربية
في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨

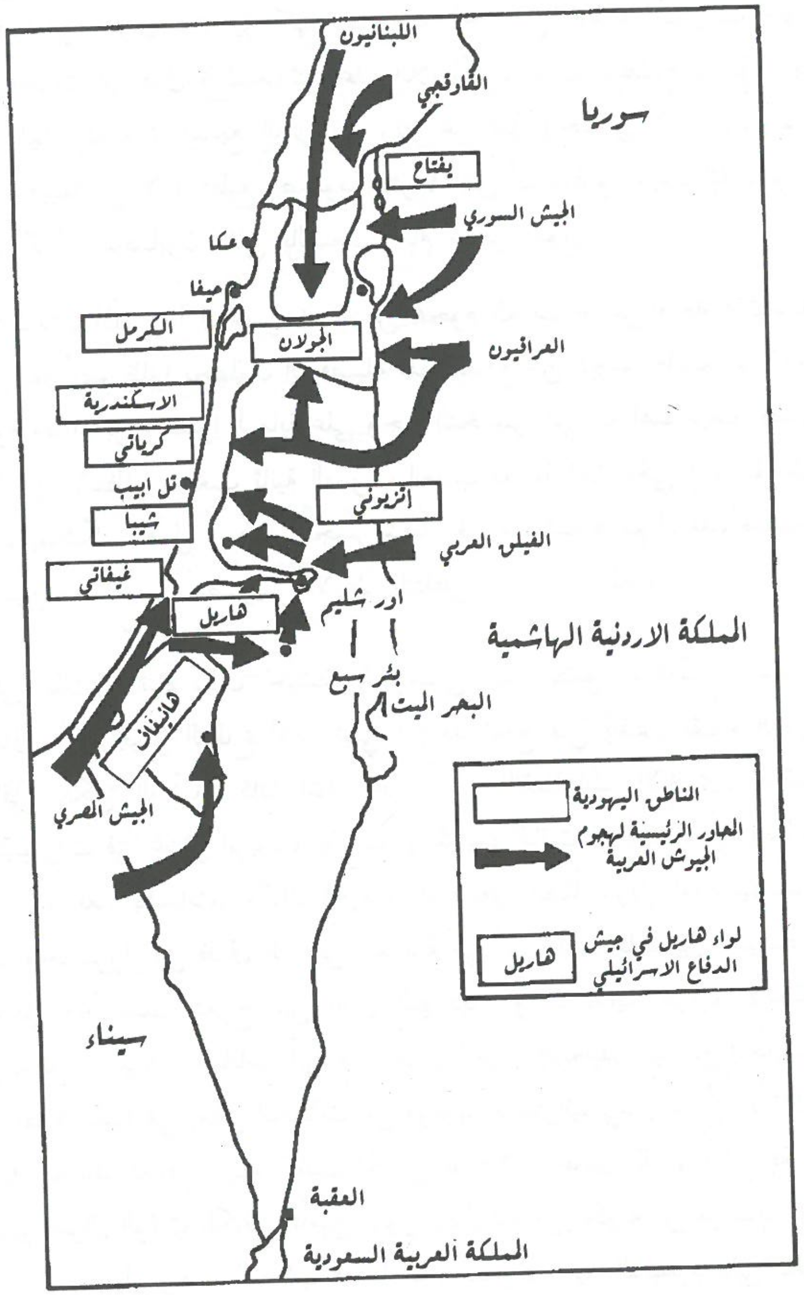

ان الوحدات الأخرى التي نسقت معها العملية لم تأخذ مواقعها بعد. هل نستطيع تأخير التفجير ؟ كانت الرمايات الآلية من البساتين والبيوت تزداد حدة من دقيقة الى اخرى، وتأجيل كهذا هو حتماً آخر شيء أتمناه. ما زلت أجهل لماذا عجزت عن قول لا لمحدثتي على اللاسلكي. كنت استطيع تخيل وجه جميل لهذا الصوت البديع الذي تنمّ رنته عن قلق وحماس لا حدود لهما. كيف اجيبها اني لا استطيع الصمود اكثر ؟ اظن أن معظم رؤساء الفصائل او السريا كانوا سيصابون مثلي بالضعف امام سحر صوتها.

انتظرت، اذاً، وانا اتوجس خوفاً من هجوم العرب أو من محاولة تطويق. ولكن بما أنهم ظلوا يجهلون ان فصيلة فقط تدافع عن الجسر فإنهم لم يقوموا بهجوم مضاد بل واصلوا الرماية على وجه التخمين في اتجاهنا. بعد نصف ساعة من الانتظار سمعت ثانية الصوت العذب لعاملة اللاسلكي : « كل شيء جاهز، يمكنكم العمل ». صار الجسر شظايا في ما يشبه هزيم الرعد، فانسحبنا راكضين ومستعينين بتضاريس الأرض لنتلطى من نيران العدو.

في تلك الأثناء كان جيشنا (الرسمي منذ بضع ساعات والمسمى تساهال ــ « جيش الدفاع الاسرائيلي ») قد نجح في وقف تقدم الجيش العراقي. لكن الوضع كان اشد حرجاً في القطاعات الأخرى. فالقرى والكيبوتزات في غوش اتزيون، جنوب اورشليم، كانت قد وقعت في يد العدو وخسائرنا تعد بالمئات. وكان العرب قد قطعوا ايضاً طريق اورشليم ــ تل ابيب وحاصروا كل طرق التموين المؤدية الى اورشليم. فالطريق الممتدة بين الساحل واورشليم تتعرَّج بين تلال اليهودية. ومنذ بداية حرب الاستقلال كانت تحت نيران عصابات آتية من القرى العربية المحيطة بها من الجانبين أو المسيطرة عليها في بعض الحالات من موقعها الاستراتيجي. وبما أن الهاغانا لا تملك العديد الكافي فإنها كانت تكتفي باحتلال احدى القمم المشرفة على الطريق طوال الوقت الكافي لتأمين مرور ارتال تموين مكونة من مركبات بطيئة صفحت محلياً. وعند انسحاب قواتنا كان العدو يستعيد السيطرة على الطريق.

في نهاية شهر نيسان (ابريل) كانت المدينة في حاجة الى مؤن. وفي ١٤ ايار (مايو) هاجمت قواتنا واحتلت المرتفعات المسيطرة على قرية اللطرون، « الحاجز » على طريق اورشليم، فظلت الطريق مفتوحة مدة يومين. ولكن في الاضطراب العام السائد في تلك المدة لم يجر تحضير رتل تموين الا بعد انقضاء ثمان وأربعين ساعة، أي عندما زالت سيطرتنا عن المرتفعات. وهذا التأخير كان حاسماً. ففي ١٦ ايار (مايو) خرق لواء غيفاتي الحصار فاتحاً الطريق في اتجاه الجنوب لمواجهة القوات المصرية حالما تجتاز الحدود. وبعد ان انسحب اللواء احتلت كتيبتان من الفيلق العربي الاردني ثكنة الشرطة المحصنة في اللطرون مع قرية صغيرة تشرف على الطريق والمرتفعات المجاورة. وهكذا اغلق هذا الشريان الحيوي من جديد.

اخليت القرى اليهودية شمال اورشليم بعد ان هددتها وحدات اردنية اخرى. وفي اورشليم نفسها كان احتياطي التموين قد نفد. ودمرت منشآت مياه الشفة، فكان على السكان ان يكتفوا بماء المطر الذي تجمعه الآبار القديمة التي حفرها اجدادنا لهذه الغاية، ما يضطرهم الى تقنين صارم. واختبأ الناس في الأقبية والخنادق، واقفرت الشوارع. وفي كل يوم كان المدافعون عن الحي اليهودي في المدينة القديمة يتراجعون قليلاً. كم من الوقت سيصمدون ؟ لا احد يجسر على القول، حتى ولو ان المدينة الجديدة ستقاوم وقتاً طويلاً قبل أن تسقط، بسكانها من مئات الوف اليهود.

في نهاية شهر ايار (مايو) قرر بن غوريون والقيادة العامة للجيش اليهودي الفتي ان يحاولوا تخليص المدينة باحتلال اللطرون وازالة هذا الحاجز من طريق اورشليم. اسندت العملية الى وحدة جديدة هي اللواء السابع المؤلف من عديد مأخوذ من فرق اخرى ومن مهاجرين جدد ضموا اليه حالما نزلوا من المراكب التي نقلتهم من مخيمات قبرص حيث احتجز الانكليز المهاجرين خلافاً للقانون. ولتأمين نواة صلبة للواء الجديد جرى تأطيره بوساطة ضباط وحدتنا، فوج الكساندوروني.

غادر رتل الحافلات المخيم الواقع بقرب ناتانيا واخذ طريق اللطرون. وسرعان ما وصلنا الى تل ابيب التي لم ارها منذ اشهر طويلة. ما شاهدته من نافذة الاوتوبوس صدمني : كنت اعتقد ان كل سكان تل ابيب سيكونون في خدمة العلم في خضم هذه الحرب المصيرية. لكن مشهد شوارعها يبرهن على ما يبدو ان الحياة تسير في مجراها الطبيعي كما لو أن شيئاً لم يكن. وتحولت دهشتي الى ذهول عندما قرأت على الجدران اعلانات تدعو الشبان والشابات الى التقدم الى مراكز التعبئة العامة. وهكذا، لا يزال يوجد شبيبة لم تجند بعد ! وكان لبعض رفاقي ردة فعل اعنف — واكثر عملية : ففيما كنت مأخوذاً بـ « المشهد » قفز عدة جنود من الحافلة التي أمامنا الى ارض الشارع ليحجزوا سيارة كبيرة وجميلة متوقفة الى جانب الرصيف ودمجوها في الرتل الذي تابع طريقه عبر ضواحي المدينة.

تابعنا سيرنا من تل ابيب الى ريحوفوت ثم عكرون. توقفنا في ضواحي القرية العربية المهمة اكير فيما راح بعضنا يفاوض على مرورنا فيها مع سكانها. كان المشهد غريباً حقاً : فوج من الجيش اليهودي متجه الى ملاقاة الفيلق العربي ليحاربه يفاوض عرباً ليسمحوا له بالمرور ! في الوقت الحالي يبدو الأمر سوياً. فالرملة واللد كانتا في أيدي الاردنيين، وهنا في قلب منطقة شعبها يهودي كانت هذه القرية الكبيرة تعج بالناس المسلحين ... لكنّ هدفنا ليس احتلال اكير — ولهذا السبب طلبنا بتهذيب الاذن بالمرور. واذ رفض طلبنا كان علينا أن ندور لنمر في كيبوتز ناعان ونواصل سيرنا عبر اكرون لنصل الى كيبوتز هولدا حيث كان علينا أن ننظم صفوفنا للمعركة.

دخلنا هولدا عند الغسق. أمضينا الليل في العراء في حقل حول الطريق، مصغين الى الصوت الممل لهدير محركات طائرات تحوّم فوق رؤوسنا. ويبدو أن احدى الطائرات كانت تفتش منذ ساعات عن مكان تحط فيه. ثم انقطع الهدير، وسمعنا صوت سقوط اعقبه انفجار. وفي الغد قيل لنا إن طائرتين

اخيرين نجحتا من دون عوائق في بلوغ المطار المجاور، في المخيم العسكري تل نوف.

في اليوم نفسه خيمنا في العراء في بستان زيتون وشهدنا تدريب مهاجرين جدد. كانوا لاجئين قادمين من اوروبا، قبض عليهم الانكليز فيما هم يحاولون النزول سراً الى شواطئ البلاد. وقد علاهم العفن طوال اشهر — وبعضهم طوال سنوات — في مخيمات الاعتقال البريطانية في قبرص. ومع نهاية الانتداب البريطاني صعدوا الى اسرائيل، وما كادوا يصلون الى حيفا حتى وجدوا انفسهم في قلب الحرب وفي يدهم بندقية. رحت اراقبهم وانا اتساءل من منهم لن يعودوا احياء. إنهم يجسدون في نظري مأساة مزدوجة بل حتى ثلاثية: لقد عاشوا Shoah وتعرفوا الى المخيمات الانكليزية والآن، مرة أخرى، يتعين عليهم أن يجابهوا الموت. وتذكرت أن توراتنا كانت تمنع تجنيد الشبان خلال السنة الأولى التي تلي زواجهم — وذلك من أجل السماح لهم ان ينشئوا عائلة. وفي السياق نفسه أيضاً تمنع التوراة أيضاً تجنيد الرجال الذين غرسوا كرماً جديداً او اشجاراً جديدة لكي يتاح لهم وقت الاعتناء بها حتى تمتن جذورها. لكنّ هؤلاء الناجين من الجحيم النازي لم يمنحوا مهلة لا للزواج ولا للغرس. ظللتُ أتفحصهم وأنا أفكر في الاعلانات على جدران تل ابيب، الموجهة الى الاسرائيليين الذين لم يتقدموا بعد الى مكاتب التجنيد.

في اليوم التالي تسلمنا تجهيزاتنا : الجربندية (كيس الظهر) والنِطاق (الزنار) والذخائر، ولكن لا مطرات للماء ،! لم نعر الأمر اهمية آنذاك؛ اما في ما بعد فقد كان علينا ان نمر بساعات مضنية من العطش. ثم اعطونا تعليماتنا : شيدت بلدة النطرون، هدفنا الأول، على خرائب حصن صليبي قديم، فوق مرتفع يشرف على طريق اورشليم ويسيطر عليها. وكانت سفوح التلة الجنوبية مكسوة ببساتين زيتون تتدرج نزولاً حتى الطريق. وفي اسفل السفح الغربي ينتصب دير مهيب للآباء الترابيست. وعلى بعد خمسمائة متر تقريباً نحو الجنوب ترتفع تلة تكللها ثكنة محصنة للشرطة الانكليزية، وقد

احتلّتها الآن القوات الأردنية. كُلفت كتيبتنا مهمة أساسية: طرد الاردنيين من هذه المرتفعات، احتلال الدير ثم الاستيلاء اخيراً على الثكنة المحصنة غرباً. وفي اثناء المعركة كان على كتائب اخرى ان يغطوا جناحينا باحتلال قرية دير ايوب أو « قِمّة المدافع » شرق اللطرون، و « التلة ٣٠٤ ». وحددت الساعة س عند منتصف ذلك اليوم تماماً. وقادت فصيلتي الهجوم. كان علينا أن نجتاز حقول قمح تمتد جنوب اللطرون ونأخذ طريق اورشليم ومنها نتسلق التلة المغروسة زيتوناً في اتجاه القرية.

اوضحت دراسة سريعة للخارطة التكتيك الواجب اعتماده. سأقود رجالي تحت جنح الظلام نحو قمة المنحدر الايسر من التلة وادور حولها لافاجئ العدو الاردني في قلب مواقعه. كان علينا أن نأخذ هذه القمة قبل طلوع النهار وان نكون على استعداد لصد كل هجوم مضاد محتمل. وسيكون علينا بعد ذلك أسهل نسبياً أن نحتل الدير الذي سيكون تماماً تحتنا على مرمى مدافعنا ــ هذا اذا قرر العرب الدفاع عنه. ثم نتقدم بعد ذلك نحو حصن الشرطة الذي سيكون حينذاك معزولاً تماماً.

كنت اجهل اهمية امكانيات العدو، لكن العملية كانت تبدو لي ممكنة لأنه قيل لي ان مدفعية ميدان من عيار ٦٥ ملم سوف تساندنا. وكنت قد شاهدت قطع مدفعية خلال الحرب العالمية الثانية منذ مرور طوابير القوى الحليفة على الطريق الساحلية ــ وطبعاً في السينما. لكنني لم اشترك قط في معركة تشاركنا فيها المدافع. حتى أنني تساءلت عما اذا سيبقى لنا ما نفعله عند انهمار القذائف.

في كل هذه الحمى كنت منشغلاً بشيء لم اتوصل الى تحديده. لم يكن تنافر قواتنا ولا حتى الاردنيين الذ ين اعلم أنهم متشبثون جيداً بالقمة، بل كان جهلي بالطوبوغرافية. فمع اني درست بعناية الخرائط حتى بت اعرفها غيباً لم اكن اشعر أني « في بيتي » هنا. وبدلاً من العاطفة المألوفة والمطمئنة التي

كنت اشعر بها في بساتيني اجدني الآن في ارض مكشوفة على تلال مجهولة كثيرة الحصى .. لم يكن الليل يأتيني بعبير الحمضيات بل بروائح الحمص المخيِّبة. كان ثمة شيء مجهول؛ الحقول غريبة والمزروعات غير مألوفة. لكنَّ ما كان يبدو لي اكثر جسامة هو أن رئيس السرية لم يصطحبني معه عندما ذهب يراقب مسرح العمليات، على الرغم من أنني ووحدتي رأس الرمح في الهجوم. بكلام آخر، لم ار قط بأم العين الأرض التي سيتعين علي العمل فوقها.

في مساء ٢٥ ايار (مايو) غادرنا بساتين البرتقال في هولدا حيث كنا نخيم في الهواء الطلق، وصعدنا الى باصنا. وكان رؤساؤنا يعقدون اجتماعاً اخيراً في أحد مباني الكيبوتز. كان الوقت يمر وبدا اكثر وضوحاً ان الاختلافات عنيفة في وجهات النظر تباعد بين الضباط. كنا نشاهدهم يشوِّرون ويومئون من خلال النوافذ المضاءة. وكانت اعصابنا مشدودة ونحن متراصون في مركباتنا. وصارت نصف الساعة ساعة كاملة ثم اثنتين ... ومر الليل. بدأنا نشعر بالقلق على سياق العملية : ماذا سيحدث اذا فاجأنا لمعان الفجر الشهير في اليهودية، « عندما الصباح يعانق المساء » ؟ تولد عندنا انطباع بأننا انتظرنا دهراً عندما اقلعت الشاحنات اخيراً لتنقلنا مسافة قريبة. عندما لامست اقدامنا الأرض في حقل جنوب اللطرون كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً. ولاننا سنسير ساعة قبل الوصول الى هدفنا كنا متأخرين اربع ساعات عن التوقيت الملحوظ في البداية. وكان ضباب كثيف يغشى الأرض عندما بدأنا نجدُّ السير بين سنابل القمح. أمامنا كانت المدفعية الأردنية تهدر وقذائفها تصفر فوق رؤوسنا. تساءلت كيف استطاع العدو معاينتنا، لكن السؤال ظل ثانوياً في نظري لأن حظوظه من اصابتنا كانت ضعيفة جداً في الظليل الذي يسبق الفجر. غير اننا في اللحظة ذاتها، وكنا على درب قريبة في الطريق العام، جوبهنا بنار من اسلحة اوتوماتيكية آتية من التلة المنتصبة امامنا ــ وشعرت، اكثر مما شاهدت، ان اثنين من رجالي يتجندلون ويغرقون ببطء في الضباب.

وتجمع الرجال حالاً حولي واخذوا مواقع قتالية وردوا بنار حامية. ومن خلال هاتفي الميداني سمعت آمر سريتي، آشر ليفي، يخبر التشكيلات الأخرى اننا نتعرض لنار كثيفة من أسلحة اوتوماتيكية واننا تكبدنا خسائر. وسمعت أمرَ رئيس الكتيبة : « اخلوا الجرحى وتابعوا تقدمكم ». بعد لحظة نقل لي عامل اتصال امر آشر ليفي : بدلاً من التقدم الى الامام واجتياز الطريق نحو بساتين الزيتون في الجزء الغربي من المنحدر من حيث يأتي الرصاص، علينا أن ننعطف الى اليمين في موازاة الطريق، وبهذه الطريقة نستدير حول الرشاشات الاردنية وهكذا ننقل محور هجومنا نحو الشرق.

ساعدني ازريال راتزابي، احد شبان كفرملال، على تركيز مدفعنا الهاون الخفيف من عيار ٥٢ ملم لكي نُدرك التلة ونغطي تقدم الفصيلة. كان ازريال يلقم المورتر وانا اضبط الرماية ــ بدقة كافية لاصابة المراكز الاردنية خمس مرات أو ست. وفيما كان ازريال منشغلاً بادخال قذيفة جديدة سمعته يطلق شكوى مكبوتة ورأيته يتجندل أمامي. لقد أصابته رصاصة في جنبه خارقة رئتيه.

كان الظلُّ يتحول ببطء الى لون رمادي. اندفعنا الى اليمين فوق حرف واد صغير موازٍ للطريق التي صارت الآن امامنا. نظرت الى ساعتي فدلت العقارب على الساعة الخامسة. بدأت السماء تتقشع لكنّ الضباب لا يزال يخفي عن انظارنا الرشاشات الاردنية التي تُكنس الأرض. هناك، على امتداد الوادي، اصبنا بخسائر جديدة : انهار رقيبي رامي بوتاش، وتبعه احد رجالي. اخذ الباقون الجرحى على اكتافهم واكملنا طريقنا الى بير الحلو، بئر المياه الصالحة للشرب المذكورة على الخارطة، على بعد مائتي متر امامنا.

فجأة ارتفع الضباب منهزما امام نور النهار المنتصر. نحن وحدنا، فوق ارض عارية، الطريق امامنا وحقل القمح وراء ظهورنا، معرَّضين لنور الشمس الصباحي. كنا سريتين عند اسفل سفح التلة، لكني الآن لا ارى احداً باستثناء

رجالي. وبدت بساتين الزيتون أمامنا كأنها تنفث النار. فركضنا نحو مُنخفضٍ في الأرض الى يميننا، على بعد مائة متر.

بعد ان استعدنا انفاسنا انبطحنا أرضاً خلف المنخفض الذي ظهر في الوقت المناسب. ألقيت نظرة دائرية لأحاول تحديد موقعنا عندما أصابت رصاصة هاتفنا الميداني الوحيد اصابة مباشرة، قاطعة بذلك اتصالنا بباقي الوحدات العاملة على الأرض. كنت منبطحاً استمع الى صفير قذائف هاون الأردنيين الذين يحاولون كشفنا. وكانت القذائف تنفجر في حقل القمح، فتلتهب السنابل ويتصاعد الدخان محمولاً على ريح الصباح الفاترة وقد فرقته حزوز الرصاص.

تفحصت في سرعة الوضع الذي لا يترك لنا حظوظاً نتوهمها. لقد وقعنا في الفخ في ارض مكشوفة، ووحده هذا الهُدب من الأرض لا يزال يؤمِّن لنا حماية خادعة ضد نار العدو. كانت طريق اورشليم تتلوى على بعد مائتي متر منا، هذه الطريق التي كان عليّ في البداية اجتيازها تحت جنح الظلام. وكانت حقول القمح الملتهبة، والجلالي الكثيرة الحجارة وراء ظهورنا. ولم نكن نستطيع فعل شيء الا الالتصاق بالأرض ما أمكننا والانتظار. فلا بد لرؤسائنا ان يعوا في نهاية الأمر ما حدث لنا ويجدوا وسيلة لانعاش الهجوم. هذا ما كنا نفكر فيه ونرجوه.

خلف ثنية الارض التي نحتمي وراءها يوجد طرف قطعة ارض رطبة. فمياه نبع يكاد يجف تسربت اليه وكونت بركا سوداء آمنة. وبما أننا غير مزودين بمطرات لم يكن في متناولنا غير هذه المياه الوسخة، غير أن نفسي أَبَتْ شرب ولو بلعة واحدة من هذه المياه الملوثة. وتساءلت ماذا قد يكون في وسعنا اذا اضطررنا الى الانتظار ساعات طويلة. في المقابل، كنا نملك كمية وافرة من القنابل اليدوية والذخائر ان لرشيشاتنا الستنّ وإن لبنادقنا التشيكية. فقلت لرجالي : اذا لم تطلق جماعتنا الهجوم بدلاً منا فسيكون علينا البقاء على هذه

الحال حتى هبوط الليل، فنستطيع حينئذ الخروج من وكرنا والالتحاق بمواقعنا.

اذاً، كنت آمل حقاً ان يفهم رؤساؤنا ما جرى لنا والا يتأخروا في اصدار الأوامر لأطلاق العملية من عقالها. لكنّ هذا الأمر لم يصدر لسبب غامض. وكان جهاز اتصالنا مصاباً ولا من اثر لاي ساعٍ، والشمس تصعد في الافق وترشق رؤوسنا بأشعتها الحارة ــ والاردنيون يواصلون رماياتهم. وكان كل منا يترصد بدوره العدو، فيما الآخرون يلتصقون تماماً بالأرض ليظلوا خارج حقل رؤية العدو. وعندما يحرك احد الرجال وضعه ولو قليلاً ليتجنب تصلب المفاصل يتلقى رصاصة في ساقه. واقل حركة منا يقابلها وابل من رصاص العدو. وكنا نجر الجرحى الى الخلف، في الجزء الموحل من الثنية لأنه اقل خطراً. وفوق كل شيء هنالك الانتظار انتظار لا يبدو أنه سينتهي، يعكره من وقت الى آخر رشق من رشيشنا او قذيفة مورتر. ونسمع الى يميننا طلقات نار اخرى. فنفترض ان آشر ليفي موجود هنا مع باقي السرية، لكن ذلك ليس بالأمر الاكيد، وانا لا اريد ان اخاطر بحياة احد رجالي بإرساله لتقصي الحقيقة.

بعد ساعتين من هذه المحنة تضاعفت نيران الاردنيين حدة ووتيرة. وفجأة شاهدنا على قمة التلة جنوداً اردنيين يتقدمون نحونا، قافزين من زيتونة الى اخرى ليختبئوا بعد ذلك خلف سياج حجري ينتصب في المكان الأكثر بعداً من الطريق. كانوا يتقدمون بقفزات وهم يطلقون النار، واجتازوا الطريق من جهة الجنوب في اتجاهنا. ثم اختفوا في مجرى الوادي جنوب الطريق. كان يبدو جلياً أنهم قرروا وضع حد للعبة التخبئة وتصفيتنا بهجوم جَبْهَوِيّ.

بعد بضع دقائق خرج الاردنيون من الوادي ومن بساتين الزيتون، الى يسارنا. وزحف ايضاً رتل من العرب نحونا وهم يطلقون النار ويزعقون بالاهانات ليتشجعوا بها. وسمعت بوضوح صراخ اذبح اليهود[1] يعلو على

(١)بالعربية في النص.

صوت الرصاص. انتظرنا ان يصبحوا على بعد ثلاثين او اربعين متراً من موقعنا قبل ان نكنس الأرض بكل أسلحتنا: الرشيش والستنّ والبنادق التشيكية. فانسحب المهاجمون حالاً حاملين جرحاهم. ونحن من جهتنا جررنا جرحانا زاحفين حتى النبع الذي بدأت مياهه الآسنة بالاحمرار. ثم نظمنا صفوفنا تحسبا لهجوم جديد.

في الساعات التالية سيقوم الاردنيون بهجومات اخرى متتالية، مستخدمين في كل مرة التكتيك نفسه: تقدُّم بقفزات وزحف، ثم اطلاق رصاص وصراخ. وفي كل مرة كنا نصدهم على نحو منهجي ايضاً، ونحن نكاد نختنق من الكرديت[1] الممزوج بغيوم الدخان الآتية من حقول القمح المحروقة. وإذ توقف اطلاق النار برهة سمعت نوعاً من الدوي الرتيب. فرفعت عيني نحو السماء الزرقاء البادية من خلال الغيوم المنقشعة والدخان المتنسِّل وميزت عالياً في السماء، فوق رؤوسنا تماماً، اللمعان المعدني لقاذفات العدو وهي ترسم دوائر رشيقة مثل عصافير بريئة ــ لترمي قنابل سوداء صغيرة.

وفكرت: هذه المرة لست ارى كيف السبيل الى الخروج. ففضلاً عن زنار نار العدو الذي يضيق من دقيقة الى اخرى، وعن شمس من رصاص فوق رؤوسنا وريح حامية آتية من السهل، فإننا نخاطر بالموت عطشاً. وفرض نفسه على مخيلتي نوعٌ من السراب الواعي، او قل ذكرى من الماضي البعيد : رأيتني أمام كشك ويتمان في تل أبيب ابتلع زجاجات كبيرة من الليموناضة المثلجة، شرابي المفضَّل. قطعت كل امل في تحسُّن ما. فحظنا الوحيد في البقاء هو اذاً رهن مقاومتنا : الصمود حتى الليل ومحاولة التواري تحت جنح الظلام. وراحت عيناي ترنوان الى الساعة في معصمي، لكن الوقت بدا لي معلَّقاً. ظننت للوهلة الأولى ان ساعتي توقفت فعبَّأتها وعبأتها وعبأتها ... الى ان سمعت صوتاً خافتاً عديم الصدى : لقد كسرت نابض ساعتي ! وتذكرت

(١) نوع من البارود.

الآية التوراتية التي تعلمتها في المدرسة : « اوقفي يا شمس مجراك في جبعون، وانت يا قمر في عجلون ». كنا آنذاك في وادي عجلون بالتمام، وبدا لي ان الشمس هي التي توقفت، لا ساعتي.

بعد قليل من ابتعاد الطائرات لاحظنا من خلال غيوم الدخان شبحاً آتياً من البئر. كان الرجل يركض في خط متعرج ويرتمي احياناً على الأرض لينهض ويتابع ركضه. وسرعان ما بلغ ثنيتنا وقفز الى جانبنا. كان مردخاي دوشيمنر، أحد الشبان الناجين من Shoah والذي يُعتبر الرسول الاسرع عدواً عند آشر ليفي. اخبرني لاهثاً ان رجال السرية الآخرين موجودون الى يميننا، على مقربة من البؤر. وهم ايضاً عالقون في المأزق. وهو مكلّف ايضاً بأن يأخذ مدفعنا المورتر. وبعد ان ارتاح دقيقة امسكه ونظر الي بشدة ثم نهض بقفزة وعاد من حيث اتى راكضاً. بعد عدة ايام سأخبر بأن موردخاي قتل والهاون بين ذراعيه ...

نحو الظهر زاد اردنيو التلة قوة نيرانهم، ما ينبئ بوقوع هجوم جديد. اتكأت على مرفقي رافعاً صدري ورأسي لارى ماذا كان يجري — وفجأة أحسست في بطني ضربة عنيفة قذفتني الى الوراء. وسمعتني اصرخ « ماما ! »، وفوراً تطلعت حولي من خشية ان يسمعني أحد. وكان الدم قد حمّر قميصي — وأيضاً بنطلوني لأني في اللحظة نفسها تلقيت رصاصة اخرى، في فخذي هذه المرة. فانبطحت من دون أن أفقد رباطة جأشي، غير أني كنت أشعر أن قواي تغادرني.

في هذا الوضع بالذات تابعت تطور الهجوم الاردني الجديد وفق السيناريو المعروف سلفاً: اطلاق نار، صراخ وشتائم، ولكن من دون دعم لوجيستي حقيقي. وهذه المرة أيضاً صددناه. لكنني شعرت هذه المرة ان رجالي خارت قواهم. وكانت اسراب من الذباب الاسود تحوِّم حولنا وقد حملتها رياح الخمسين. لقد عذبتنا طوال الصباح، لكنها تلسع الآن — وهذا عذاب حقيقي. وكانت جماعات النمل تتراكض نحونا وقد جذبها دم الجرحى والقتلى.

فيما كنت راقداً هكذا اقترب مني اقدم محاربين في سريتي وهما يزحفان. هذان « المحاربان القديمان » في الجيش الانكليزي لا يزيد عمرهما عن عشرين سنة الا بضعة شهور. بدت لي نظراتهما ميتة، فارغة من كل تعبير. سألني الأول : « أريك، كيف ترى إخراجنا من هنا ؟ » ثبّتُ نظري فيهما برهة قبل ان اجيب بلهجة تعمدتها حازمة : « لقد اخرجتكما من اوضاع اشد صعوبة من هذا الوضع. وسأخرجكما هذه المرة ايضاً. عودا الى مكانكما واصنعا ما اقوله لكما ». فيما كانا يزحفان القهقري سمعت احدهما يقول لرفيقه : « صحيح أنه أنقذنا من ورط في الماضي، ولكن كيف سيتمكن من ذلك هذه المرة ؟ » اثرت فيّ هذه الملاحظة كأنها إهانة شخصية.

قرابة الساعة الواحدة بعد الظهر احسست ما يشبه التغيير الميداني. بدا لي ان نار اردنيي اللطرون خفت وغدت اكثر تقطُّعاً. ومدفعيتنا التي كدنا لا نسمعها قبل الظهر بدأت تقصف الآن وتغطي على الرمايات الاخرى. أعلم ان شيئاً ما يحدث هذه المرة، ولكن ما هو ؟ توفي نصف رجالي تقريباً وجرح معظم الباقين — وبعضهم جروحهم خطرة. وجروحي الخاصة تؤلمني. وثيابي مبللة بالدم، من فخذيّ حتى بطني. لا استطيع تحديد مكان الاصابة بالضبط، غير أني شهدت الكثير من الجروح في منطقة الاربية والبطن لاعرف ما ينجم عنها اذا لم يوقف نزفها. ثم هل أنا قادر على المشي أو حتى على التحرك ؟

عند الساعة الثانية بعد الظهر توقف هزيم المدافع. وخيم على ميدان المعركة صمت من رصاص — صمت مريب ايضاً اذ لا شيء يتحرك. في اللحظة نفسها القيت نظرة عجلى خلفي، من وراء كتفي، نحو التلة ٣١٤، الى اليمين، على مسافة سبعمائة وخمسين متراً تقريباً من هنا شاهدت فوق المنحدر الداكن من التلة قرويين فلسطينيين يعتمرون الكوفية ويحركون بنادقهم نحونا. ومن حين الى آخر كانوا ينحنون فوق أشكال سود مرمية فوق الحضيض، لا يمكن تحديدها. كنت اعلم أن رجالنا كانوا يوجدون ايضاً على التلة ٣١٤ حيث كلفوا حماية جناح الهجوم. وبلمح البصر فهمت ما يجري : جماعتنا

هزموا، والناجون تراجعوا وهم يدافعون عن أنفسهم؛ والأشكال السود على سفح التلة ليسوا سوى الضحايا الذين ينهمك العرب في تجريدهم مما يملكون وفي تشويههم.

كذلك فهمت معنى الصمت : لقد اصبحنا وحدنا فوق ارض الميدان. فالوحدات الأخيرة تلقت الأمر بالانسحاب ـــ ما يشرح القصف المدفعي المخصص لتغطية الانسحاب. ونحن لم نر المنسحبين عندما مروا خلفنا، وهم لم يعلموا بوجودنا في مكاننا ـــ وعلى قيد الحياة.

اذا كان الفلسطينيون قد وصلوا الى التلة ٣١٤، وبما أنهم يتقدمون نحونا بحثاً عن موتانا وجرحانا، فلم يبق لنا سوى شيء واحد نفعله : محاولة الهرب. قرأت اليأس في عيون رجالي عندما اعطيت الأمر بالانسحاب، مشيراً الى الاتجاه : رأساً خلفنا، من خلال الدخان وحفافي المزروعات. قلت في نفسي : اذا ابتسم لنا الحظ ـــ شرط الا يرفع العرب الذين أمامنا رؤوسهم حتى ذهابنا ـــ فقد نخلص بجلدنا.

لكنهم إن ابصروا بنا قتلونا حتى قبل أن نجتاز بضعة امتار. كانوا يتقدمون ببطء على سفح التلة ٣١٤، متنقلين من جثة الى أخرى وجاهلين حضورنا، على ما يبدو. وكان فمي جافا وصلباً مثل قطعة حطب. زحفت الى « النبع » وبللت شفتي بمياهه الآمنة المحمرة دماً. كان احد عشر من جرحانا يستطيعون المشي. لكن سيمحا بنحاسي، وهو شاب رائع من كفرملال، كان عاجزاً عن التحرك لاصابته في رجليه. نظر الي مومئاً بحركة سريعة من رأسه لإفهامي انه سيغطي انسحابنا. لم ينقطع طوال النهار عن الرماية بالرشيش الى ان خرج فجررناه الى الثنية الواقية. قال لي : « اريك، اترك لي قنبلة يدوية ». فانصعت لأمره، لأني كنت أعلن أن لا أمل له ـــ وربما لنا كلنا ـــ في النجاة. لم يكن عندي من يستطيع حمل سيمحا أو حتى حملي لو كنت عاجزاً عن تدبير امري. تلاقت نظرتانا فأشحت بوجهي. وفي اللحظة عينها تذكرت والديه مثلما شاهدتهما للمرة الأخيرة في القرية.

الهجوم الاول على اللطرون
٢٦ ايار (مايو) ١٩٤٨

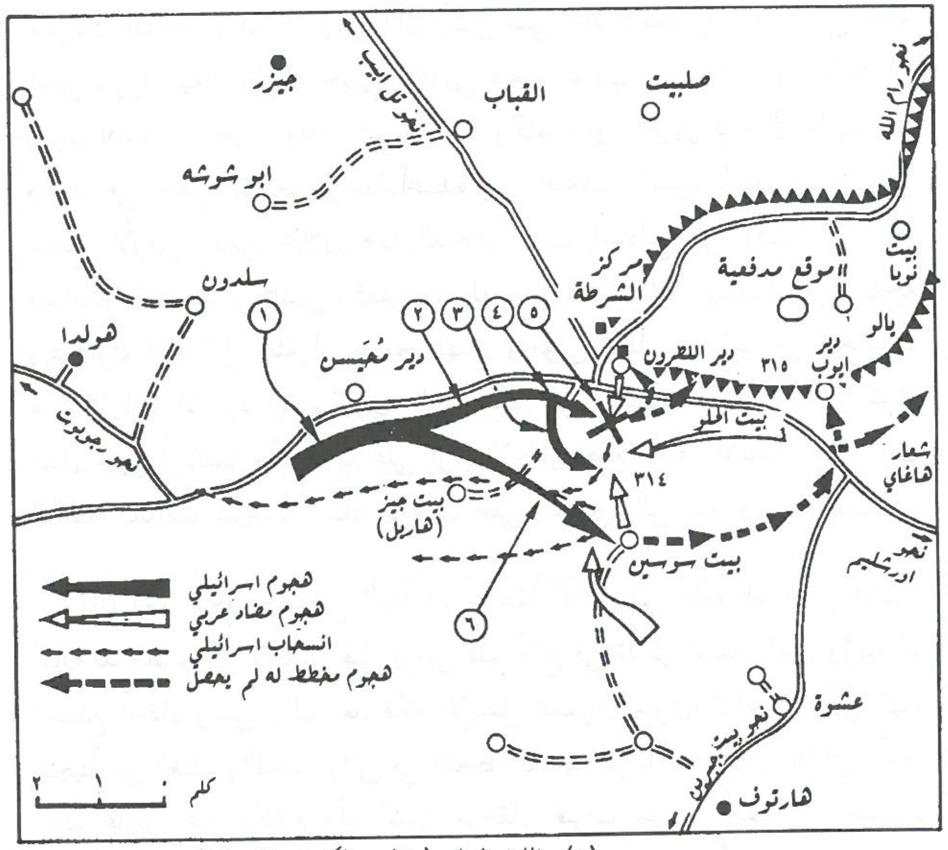

(١) - اللواء السابع (يتضمن الكتيبتين ٣٢ و ٧٢).
(٢) - الكتيبة ٣٢ (من لواء ألكساندروني).
(٣) - السرية " أ " من الكتيبة ٣٢ .
(٤) - السرية " ب " من الكتيبة ٣٢ .
(٥) - فصيلة القتال الاولى (بقيادة شارون) من السرية " ب ".
(٦) - الكتيبة ٧٢ .

كانت بلدة اللطرون، التي تشرف على اهم مناطق الاختناق في الطريق القديم المؤدي الى اورشليم، مفتاح صمود هذه المدينة نوعاً ما. وقد تعرضت البلدة لهجومات متعددة قامت بها القوات الاسرائيلية حتى غدت ميدان المعركة الاكثر شراسة في حرب الاستقلال. شارك شارون في الهجوم الاول على اللطرون واصيب بجرح بليغ بعد ان كادت فصيلته تتعرض للافناء.

كنت عاجزاً عن النهوض. وتذكرت ان سرية من المدرعات الاردنية لا بد ان توجد في الجوار، وتساءلت هل هي فعلاً هنا، في مكان ما خلفنا ؟ كانت الحجارة تجلف ركبتي في اثناء زحفي في الجل الأول الواقع خلف الثنية. غير أني تمكنت أخيراً من بلوغ حافة الجل الثاني. توقفت هناك وأنا عاجز عن استرداد انفاسي. وكان الدم لا يزال يسيل على امتداد فخذي. وبدت لي حافة الجل سوراً منيعاً. نظرت حولي فانتابني شعور غريب : هذا المشهد لا بد ان يكون Shéol الجحيم، وادي الموتى ... وكانت بؤر حريق لا تزال ملتهبة هنا وهناك في حقل القمح، مرسلة أعمدة من الدخان الأسود الذي يتنسَّل على سطح الأرض. ومن خلال هذا الدخان كنت استطيع من وقت الى آخر مشاهدة الفلسطينيين الذين يكملون نزولهم من التلة ٣١٤، يبحثون عن اسلحة ويتوقفون امام كل جثة أو جريح لنهبه. وحولي تتطاير اسراب من الخاشية، هذا الذباب الاسود اللئيم الذي ظل يعذبنا طوال النهار بأزيزه الدائم. كنت ابذل جهوداً يائسة وأنا أدب على أربع لاجتاز بضعة أمتار اضافية. وفي تلك اللحظة بالذات شاهدته. كان يزحف على السفح، الى يساري؛ فتوقفت.

كان أحد رجال فصيلتي الجديد، مراهقاً كاد ينهي عامه السادس عشر. كان قد انضم الى وحدتي قبل يومين فلم افلح في تذكر اسمه. لدى رؤيته لم استطع اخفاء رعبي : لم يعد فكه الاسفل الممزق سوى كتلة لا شكل لها، عجيناً من العظم واللحم. رآني في اللحظة نفسها تقريباً. لم تصدر عنا أي نأمة: كان عاجزاً عن الكلام وأنا كنت مرهقاً. اقترب مني وزحف الى جانبي، جامعاً كل قواه ليساعدني على التقدم، دافعاً وسانداً اياي لأجتاز حافة الجل. قلت له أن يتابع وحده وينجو بجلده. لكنه رفض اطاعتي.

وهكذا زحفنا سوية متجاوزين جلاً جديداً ثم آخر فآخر ... الى ان اجتزنا اخيراً القمة وقد كشطت ايدينا وركبنا واحترقت من حرارة الأرض. صادفنا على السفح الآخر من التلة « زاحفين » آخرين في حالة من البلاهة الكاملة. كان أحدهم موشيك لانزيت، مساعد رئيس السرية. حملني موشيك على

ظهره باذلاً كل جهوده لحملي واجتياز حقل القمح المحترق نحو المكان الذي لا بد أن نجد فيه، في اعتقادنا، كل رجال وحدتنا. لكنه هو ايضاً كان جريحاً؛ وبعد ان اجتاز مسافة قصيرة وهو يتعثر عند كل خطوة انهار من الانهاك. ومع ذلك لم ينثنِ عن مساعدتي : جعل رجلي على الأرض وأمَرَّ ذراعي حول كتفيه داعماً إياي، فاستندت اليه ونجحت في التقدم.

مشينا بضعة كيلومترات، مجتازين الدخان والنار. وكنا نلتقي من وقت الى آخر أشباحاً اخرى تبرز ظاهراً من خلف هذا الستار من الضباب والحرارة والسخام والدخان الأسود — وسوية كنا نتجه نحو هولدا. كان الجو ينجلي كلما تقدمنا في السهل، وفجأة شاهدت سياراتنا المصفحة التي تنتظر وهي محمّلة بالناجين من المعركة. وقبل أن أفقد وعيي بلحظة شاهدت سيارة جيب تدخل الحقل المرمَّد وتعود منه، بحثاً عن ناجين آخرين. واقتربت الجيب منا راسمة خطوطاً دائرية واسعة، فتعرفت على الفتاة الجالسة على المقعد الامامي وعلى السائق : الشقيقان رفقا وصموئيل بوغين من كفرملال. في تلك اللحظة بالذات تذكرت اسم الصبي ابن الستة عشر ربيعاً، المهشم الفك، الذي أنقذ حياتي : يعقوب بوغين؛ ابن عم رفقا وصموئيل. وبعد ثوان فقدت وعيي أمام إحدى المركبات المدرعة.

نصر مُرّ

عندما استعدت وعيي كنت ممدَّداً على محمل في مكان مجهول، وقد غش قماش رطب وجهي. وسمعت صوتين يقولان: « واحد آخر يتجندل ... من هو ؟ — انه اريك، اجاب الصوت الثاني. — آه ... ما به ؟ اين اصيب ؟ ».

وقبل ان افقد وعيي من جديد سمعت الأول يجيب : « في صلب خصيتيه ».

كنت اترجح بين الوعي والهذيان في اثناء نقلي، مع جرحى آخرين، بسيارة الاسعاف الى اكرون، البلدة المجاورة. وعندما توقفت السيارة برهة امام الكنيس القديم جاءت نساء عديدات بأباريق حليب سقيننا منها. وكنت اشكو ظمأً شديداً. لكنهن عندما شاهدن جرحي اعتبرن أن الشرب خطِر في حالتي. كنت عاجزاً عن ابقاء عينيَّ مفتوحتين، ومن وقت الى آخر كنت أغرق في ما يشبه الغفوة. وعندما استعيد وعيي لا افكر الا في جرحي.

نقلنا من أكرون الى مستشفى بريطاني قديم قرب ريهوفوت، يغص بالجرحى. كنت راقداً فوق محملي في كامل وعيي، وقد انهكني التعب. اقتربت مني ممرضة عسكرية جميلة في يدها قمقم، وطلبت مني ان ابوِّل فيه. عجزت، فأمرت احدهم ان يأتيها بمسبار. وكان لهذه الكلمة وقع سحري،

فما كدت اسمعها حتى طلبت القمقم، ولم تمض دقيقة حتى كنت اشعر بارتياح لذيذ، زاد من لذته كونه غير مصحوب بأي الم، كما كنت اخشى. وتساءلت: كيف يمكن هذا ؟ هل بأعجوبة لا أزال سليماً في الداخل ؟ واذ كان القمقم يمتلئ كانت الممرضة الجميلة تنحني علي وتقبل شفتي بنعومة. ومرة جديدة غرقت في اللاوعي.

بعد قليل شعرت على نحو غامض ان احدهم يستبدل ضماداتي، ووجدت نفسي مع جرحى آخرين في سيارة اسعاف نقلتنا الى مستشفى حداثا في تل أبيب. تمت الرحلة بلا مشاكل الى حين وصولنا الى شارع بلفور، أمام المستشفى. ففي تلك اللحظة سمعت صفارات الانذار، وبطرفة عين اختفى الجميع : السائق والممرضات وكل من تسعفه قدماه على الهرب. وكنت اسمع من على محملي هدير المقاذفات الممل وطلقات المدافع المضادة للطائرات. حينئذ بدت لي الطائرتان اللتان حلقتا فوق اللطرون بعيدتين كثيراً كما لو أنهما لا تعنيان لي شيئاً. اما الآن فكل انتباهي مشدود الى الانفجارات التي تهز المدينة، وتساءلت عما اذا كانت القنابل ستسقط في الجوار.

بعد انتهاء الانذار نقلنا الى دار توليد قديمة يحتلها الآن جنود جرحى. جاء طبيب يفحصني، وإذ أنهى عمله ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضى وقال : « لو كانت الاشياء في بنطلونك منظمة على شكل آخر لكنت اقل حظاً عندما اصبت ». فالرصاصة التي دخلت اسفل البطن خرجت من أعلى الفخذ. وهذا المسار الغريب مرده الى ان الاردنيين اطلقوا النار من علُ. وهكذا كتب لي الخلاص على رغم فقداني دماً غزيراً.

لكن العزاء الكبير الذي احسسته آنذاك لم يستطع ان يزيل صور المعركة التي كان شريطها ينطبع في ذهني بلا انقطاع. وفي انتظار دوري في غرفة العمليات وفي اثناء نقاهتي بعد ذلك كانت تستبد بي تلك الاحداث التي عشتها في حقل القمح. فقد ابيدت فصيلتي تقريباً. من اصل خمسة وثلاثين

عنصراً قتل خمسة عشر وجرح احد عشر وعُدّ الآخرون مفقودين. كنت أعلم أن الأخبار ستصيب بالذعر كفرملال وكفرصفا وماجديال وقرى أخرى في المنطقة ينتمي اليها الضحايا. وسيعم الحداد كل بيت فيها.

معظم هؤلاء الصبيان كانوا رفاقي في السلاح خلال اشهر طويلة. سوية عرفنا ساعات صعبة. وسوية ترعرعنا ونضجنا. كانوا قد صاروا عائلتي، منزلي العاطفي — عائلة لم أفترق عنها أبداً. وكنت لا أنفكُّ أتخيل ازريال عندما اصيب، والمح نظرة بنحاسي اليائسة عندما تناول القنبلة التي تركتها له بناء على طلبه. كانت هذه الصور وعشرات غيرها على غرارها تعتمل في وانا في سريري في المستشفى.

كذلك كنتُ أتذكر كما في شريط متحرك، المهاجرين الجدد يتجادلون باللغة اليدية فيما هم يتدربون قرب بستان زيتون في هولدا. وايضاً اسمع ضباطنا يتخاصمون فيما نحن نراقبهم من زجاج الشاحنة. وتساءلت هل كنت تصرفت على نحو آخر لو كنت اعرف طبيعة الأرض معرفة افضل. لكنَّ اكثر ما كان يحفر فيّ اكثر من كل شيء آخر هي مجرد فكرة تركنا لمصيرنا هناك ... لماذا لم يكن يوجد في ارض المعركة اي ضابط لمتابعة تطور العملية وسحبنا من هذا الفخ ؟ اجل، لماذا ؟ فنحن صددنا، على رغم خسائرنا الفادحة، كل الهجومات العربية. وكلما فكرت في الأمر كلما كان يزداد اقتناعي بأنه كان في استطاعتنا ان نصمد ونحارب حتى هبوط الليل لو لم نترك ونهمل ... لم تكن تلك افكار عابرة بل كانت تراودني ليل نهار وأنا في سريري وتؤلمني في وقت أنا أحوج فيه الى استعادة قواي في المستشفى.

على رغم هذه الأفكار المَرَضيَّة تحسنت صحتي تحسناً أتاح نقلي بعد عدة أيام الى رامات غان حيث جاءت غالي تعودني. كان الكابوس قد ازيل عن صدرها لكنَّ القلق لا يزال بادياً عليها. واستطعنا اخيراً التحدث بعد اسابيع عديدة كانت تبدو لي الآن سنوات ضوئية. متى سيرى واحدنا الآخر وفي أي ظروف ؟ كان الشك لا يزال يحوِّم على كل شيء. كنت اعلم أني سأنقل عما

قريب، الى مستشفى تل هاشومر هذه المرة، ومن هناك سأجدني مرة جديدة في ارض المعركة. متى ؟ عندما تتحسن صحتي.

جاء ابي وامي ايضاً يزورانني، وكذلك اهل شبان فصيلتي يبحثون عن ابنائهم. لم تكن وسائل الاتصال في ذلك الزمان مثلما هي اليوم ولا يمكن الركون الى المعلومات المتاحة حول معركة اللطرون. انا نفسي كنت أعلم بشق النفس من ظل على قيد الحياة ومن سقط. فكان يؤلمني جداً مشهد هؤلاء الأهل أو الأنسباء التعساء وهم واقفون في غرفتي ينتظرون لحظة استيقاظي حتى استطيع أن أجيبهم — والاشد ايلاماً كان الشعور بأني نجوت فيما هذا الابن أو ذاك النسيب قُتل. ثم ماذا كان في وسعي ان اقول لهم ؟ أأخبرهم بما فعل العرب بالقتلى والجرحى، وربما بالاسرى ؟ هؤلاء الرجال والنساء في غرفة المستشفى كنت اعرفهم منذ بداية حياتي. وفي صمتهم كان يُخيل الي سماعهم يقولون : « لقد ائتمنّاك على اعز ما نملك. والآن، انت الذي بقيت على قيد الحياة، قل لنا أين ابننا ؟ ».

فيما كنت استعيد صحتي ببطء دخل وقف اطلاق النار الأول حيز التنفيذ تحت رقابة الامم المتحدة. بيد ان الوضع ظل خطراً جداً. كانت اورشليم لا تزال محاصرة، وفي احيائها الجنوبية استطاع طابور مصري الالتقاء بالقوى الاردنية. وخلال ذلك كان معظم الجيش المصري يتقدم على امتداد الطريق الساحلية بين غزة واشدود، ولا يبعد اكثر من خمسة وثلاثين كيلومتراً عن تل ابيب. وكان المصريون قد بنوا كذلك خطاً عسكرياً يجتاز شمال النجف من الشرق الى الغرب ويعزل روحاما وقرى المنطقة عن بقية البلاد.

كان قادة الجيش ينتهزون فرصة وقف اطلاق النار للحصول على مزيد من الاسلحة. وعندما عدت الى وحدتي استطعت تقدير التقدم الحاصل في هذا المجال ورؤية كمية الاسلحة المذهلة التي في حوزتنا الآن. وحينئذ تذكرت أننا خلال الشتاء الماضي كنا نفتقر كثيراً الى السلاح بحيث ان كثيرين من رجالنا كانوا عزلا. كذلك استفدنا من وقف اطلاق النار لاعادة تنظيم قوانا

وانشاء جيش حقيقي قادر على خوض عمليات ضخمة ــ وقادر خصوصاً على استثمار العوامل الجغرافية وفق استراتيجية تقدُّم على المحاور الداخلية الكبرى، ما ينبغي ان يؤمن لنا الافضلية على القوى العربية المتنوعة والمفتقرة الى التنسيق.

بعد هدوء نسبي دام قرابة الشهر اقترح مجلس الامن تجديد وقف اطلاق النار. لكنَّ الدول العربية، وعيا منها لواقع ان كل يوم يمر يثبِّت اسرائيل كدولة. ويقوي شرعية وجودها، رفضت الاقتراح. وحوالي منتصف تموز ١٩٤٨ احسست بتحسن كاف لانضم الى وحدتي، الفوج ٣٢ الذي يسيطر الآن على تلال كوليه شمال شرق اللد. وكان الاردنيون قد قاموا قبل عدة ايام بهجوم مضاد فشتتوا احدى وحداتنا وقتلوا الجرحى. وجد في ارض المعركة ثمان وعشرون جثة وقد قطعت آذانها ووضعت اعضاؤها التناسلية في الافواه. وبقينا عدة أيام نفتش في المنطقة عن الاعضاء المبتورة. وجدناها اخيراً مبعثرة فوق المرتفعات: أصابع وآذان واعضاء رجولة مغمورة بالتراب. لم أشعر من قبل بانحطاط وتوتر في آن مثلما شعرت آنذاك. كانت جروحي لا تزال تؤلمني، غير أني كنت أعلم ان سبب هذه الآلام نفسي اكثر منه جسدي. كنت اجتر افكاري وهي تستبد بي من جراء ترك القيادة وحدتي وحيدة في المؤخرة وفي ارض مكشوفة. وكنت كل ليلة اقوم بدورات تفتيشية لأتأكد من أن العسس والحراس متيقظون في مراكزهم.

بعد مرور اسابيع على عودتي الى وحدتي حصل لي حادث سيارة زاد الطين بلة فأخر استعادتي تفاؤلي وثقتي بنفسي. كنت أقود جيب، والى جانبي آمر سريتي، عندما انقلبت السيارة رأساً على عقب. خرجت منها ببضعة اضلاع مكسورة وجرح في العمود الفقري. وعندما غادرت المستشفى كنت لا ازال اعاني آلاماً عنيفة كما لو اشبعت ضرباً.

دخل وقف اطلاق النار الثاني حيز التنفيذ. ولكن في منتصف تشرين الأول (اكتوبر) أخل به مثلما أخل بالأول. فدارت اشد المعارك عنفاً في النقب

والجليل وحول أورشليم. هذه المرة كانت الغلبة لنا. أجبر اللبنانيون على التراجع في الجليل الأعلى والجليل الغربي. ومع أن السوريين نجحوا في الاحتفاظ برأس جسر لهم في مشمار هاياردين، فقد أُبيد جيش التحرير العربي بقيادة فوزي القاوقجي. وفُك الحصار عن اورشليم وصار الاسرائيليون يحاربون الآن لتثبيت رواق يؤمّن الاتصال الحر بأورشليم.

في الجنوب احتل قائد الجبهة ايغال آلون بئر سبع، مكبداً المصريين أولى هزائمهم النكراء وفاكا الطوق المضروب حول النقب. ولم يكن هدفنا هذه المرة الصمود بل خلق حقيقة سياسية ووقائع حسية على الأرض. ومن أجل هذا أطلق بن غوريون على العملية الاخيرة من حرب الاستقلال اسم « عملية الوقائع ».

في تلك الأثناء رُقيت الى رتبة ضابط استطلاع في كتيبتنا المنشغلة الآن في سلسلة من المعارك ضد العراقيين. وفي منتصف تشرين الأول (اكتوبر) دعينا الى الجنوب لمحاربة المصريين. كان أحد الويتهم محاصراً في جيب بين الفالوجه وعراق المنشية. لكن كل جهودنا لاخراجهم منه باءت بالفشل.

كان الأربعة آلاف جندي مصري في الفالوجة تحت امرة ضابط سوداني هو العميد سعيد طه بك، رجل معارك شجاع تلقى تدريبه العسكري في الجيش البريطاني. كان بطلاً حقيقياً. فمع ان لواءه لم يكن يملك اي امل في فك الحصار او تلقي نجدة ما، فقد اظهر مقاومة شرسة وصد كل هجوماتنا. وعلى رغم وضع طه بك الميئوس منه رفض مبادرة احد الضباط الاسرائيليين الذي كان يسعى الى ترتيب تفاوضي. وعندما قبل اخيراً أن يلتقي ايغال آلون رفض عرضه بالسماح للجنود المصريين بالانسحاب مع اسلحتهم وعدتهم وهم في حالة قتال تراجعي. وتقول القصة التي شاعت آنذاك ان طه بك اصغى بتهذيب الى ايغال آلون الذي راح يشرح له ان وضعه ميئوس منه تماماً، ثم اجابه بأنه سيقاتل من أجل شرف الجيش المصري، ولهذا فإنه لن يستسلم.

على رغم تفوقنا المطلق في ساحة القتال لم نتمكن من تحطيم خطوط دفاع العدو. فمنذ نهاية تشرين الأول (اكتوبر) كان قد صد كل هجوماتنا، منزلاً بقواتنا خسائر جسيمة. اخيراً تقرر شن هجوم كبير في ليلة ٢٧ كانون الأول (ديسمبر). كان على وحدتنا ان تغافل تيقظ قرية الفالوجة فيما تهاجم كتيبة اخرى عراق المنشية. وعلى رغم بطولة رجالنا اتت نتيجة العملية فاجعة. فبعد فك الالتحام احصينا في صفوفنا ثمانية وتسعين قتيلاً من اصل الستمائة رجل المشتركين في المعركة.

صمد طه بك حتى اليوم الأخير. وفي نهاية المطاف امكن عقد اتفاق خاص بموجبه غادر لواؤه المكان عائداً الى مصر. وكان ذلك فشلاً ذريعاً للواء السكاندروني، خصوصاً بعد مأساة اللطرون. ومن منظور عام لم تكن معركة الفالوجة الا فصلاً من هذه الحرب. ففي عملية حوريب طوق القسم الاساسي من الجيش المصري وسحق في قطاع غزة، ولم ينجُ في النهاية الا بتدخُل اميركي (حصل بضغط بريطاني). وعقد اتفاق لوقف نهائي لاطلاق النار مع مصر في ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٤٩، وبعد ذلك مع سوريا والاردن ولبنان. وفي بداية اذار (مارس) كانت المعارك قد توقفت في كل البلاد.

عند نهاية الاعمال الحربية ـــ وبعد اعتراف معظم بلدان العالم بدولة اسرائيل ـــ تخلصت هذه من عقدة مولدها كأمة « مثل باقي الأمم ». كنا آنذاك في نشوة الانتصار، وهي عاطفة كنت استطيع تحسسها ـــ مثل الجميع ـــ بكل الياف كياني. لقد ظللت طوال ثمانية عشر شهراً احارب على كل الجبهات، وغالباً خلف خطوط العدو؛ وساهمت في معارك دامية ضد عدو لا يرحم. بيد ان الحقيقة تحتم عليّ القول إني في قرارة نفسي لم تحدوني رغبة على تذوق هذا النصر والابتهاج به بعدما صار ممكناً التمتع به.

طبعاً احسست مثل الآخرين الإثارة العابرة التي تلي الانجاز ـــ وهل يمكن عدم التأثر بحدث كهذا ؟ ـــ لكني كنت اشعر في باطني بالاحباط وبما يشبه

الضياع. كان عمري عشرين سنة، ومعظم اصدقائي سقطوا في ساحات المعركة، في اللطرون وغيرها. وقد شاركت في عدة عمليات جريئة وفي غيرها من العمليات المضمورة. حتى أني قدت بعضها. لكنني شاركت ايضاً في بعض انتكاساتنا الحربية الاكثر قساوة. وفوق كل شيء لم أكن أتوصل الى تحرير نفسي من الشعور بأن هذه العمليات كان يمكن التخطيط لها والقيام بها على نحو آخر، وبالتالي كان يمكن تغيير مسارها ومثل الآخرين لم اكن اعرف ماذا يخبئه الغد لنا : السلام او حرباً جديدة ؟ ولم تكن عندي كذلك اي فكرة عما سوف افعله. لقد وجَدْتَني في نهاية المعارك فريسة عواطف طاغية من الأحباط والخيبة. وفي الليل كنت استعيد في احلامي الساعات المأساوية التي شاهدتها وعشتها خلال هذه الشهور الأخيرة.

في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٩ دُمج لواء الكساندروني في الاحتياط فيما رُقيتُ انا الى رتبة ضابط استكشاف في لواء غولاني. وكانت نهاية الأعمال الحربية قد ولّدت منازعات محلية عديدة حول رسم الحدود، ولذا كانت المناوشات مع المصريين والاردنيين واللبنانيين تسجل كل يوم. وفي تلك المرحلة ايضاً كانت تقام بين اسرائيل وجيرانها الخطوط الحدودية؛ فكان المجندون الجدد يتعلمون القيام بالدوريات والاستحصال على المعلومات الميدانية والقتال الليلي ... وهي مهمة تلائمني تماماً. كنت قد استعدت كامل قواي، الجسدية والمعنوية على السواء. وإذ كنت اضج حيوية رحت افرض على سريتي الاستطلاعية تحركاً مستمراً، خارج المحاور الكبيرة، ليألف رجالي المناطق المستنقعية والأراضي القاحلة، في جانبي الحدود كليهما. كنت اجهد لأثبّت في اذهانهم ما كان يبدو لي جوهرياً : معرفةً ميدانية وطوبوغرافية اساسية.

كان لواء غولاني معقود اللواء آنذاك للعقيد ابراهام يوفي. وشيئاً فشيئاً تحول الاحترام الذي أوحاه لي، الى صداقة عميقة. كان يوفي، المولود في الجليل الادنى، هرقلَ حقيقياً يطلق عليه رجاله لقب « يوفي الكبير ». وكانت

كتفاه العريضتان وطوله الفارع تبرر تماماً هذا اللقب : فقامته تعلو من عداه بمقدار رأس. وكان ضعيفاً أمام اغراءات المائدة، لكنّ حبه للبلاد والطبيعة، اللذين يعرفهما معرفة مذهلة، كان يفوق كل شيء. وكانت له معرفة تامة بالازهار والاشجار والطيور؛ وعندما تقاعد بعدما كانت له إمرة المناطق العسكرية في الشمال والجنوب اسس في كل انحاء البلاد نظاماً من المحميات والمنتزهات الطبيعية التي كان يشرف عليها بنفسه.

التقت وجهتا نظرنا حول تكتيك دوريات الاستطلاع وتقنيات الاستخبارات التي كنت القنها لرجالي. وفي ١٩٥٠ رقّاني يوفي الى رتبة نقيب ثم ارسلني اتابع دروساً لرؤساء الكتائب في صفرّين. كما تحدث عني خيراً لبنيامين غيبلي.

كان غيبلي احد اصدقاء يوفي العديدين ورئيس استخبارات الاركان العامة. واتفق انه في الحقبة عينها كان يشارك في دروس آمري الالوية في مخيم صفرين العسكري نفسه. دعاني ذات ليلة الى غرفته لمقابلة، فساورني هاجس يبرز اهمية هذا اللقاء بالنسبة اليّ. وفيما كنت سائراً بين الخيم فكرت في انه قد يعرض علي ان ادير الاستخبارات في احد الألوية. وعندما فتحت باب غرفته كنت قد قررت أني سأقبل بلا تردد عرضاً كهذا اذا قدمه الي.

في الواقع، صح توقعي بأن غيبلي يريدني للعمل في حقل الاستخبارات، لكنني كنت متواضع الطموح عندما حضرت تعييني في مستوى اللواء. وهكذا فعندما عرض علي ادارة استخبارات كل منطقة الوسط العسكرية اعتقدت اني وقعت على قفاي، كما لو أن احدهم رفعني من شعري ليرفعني الى السماء السابعة.

كان مقر القيادة العامة لمنطقة الوسط العسكرية يحتل في الرملة بناية قديمة من الحجر يعود تاريخها الى الحرب العالمية الأولى، وكانت الإمرة فيه للجنرال زفي ايالون، وهو رجل بشوش ليِّن العريكة، يدعوه ضباط الاركان

الآخرون « الختيار » مع أنه لم يكمل الأربعين. كان يحدث سامعه بلا مواربة ويذهب مباشرة الى الهدف، فيضع محدثه مباشرة في وضع مريح. وكان يدعم بلا تحفظ من كان يقوم بعمله بكل اخلاص. فالعمل المجدي لم يكن في نظره مبدأ ادبياً فحسب بل معطى مقرراً وأمراً بديهياً.

أمضيت سنة ١٩٥٠ في نشاط عملي مثمر. صرفت جزءاً كبيراً من وقتي أقوم بجولات في المناطق الحدودية وبين الوحدات التي تقوم بأعمال الدورية على امتدادها. وكانت سنة غنية ايضاً بالخبرة : فللمرة الأولى اتابع عن كثب سير العمل في اجهزة القيادة العامة. وفي السنة نفسها أجرى الجيش مناورات كبيرة هي، على حد علمي، الأولى على الصعيد المناطقي. كانت عملية معقدة شاركت فيها وحدات رمزية وحقيقية في آن، وتتضمن تقنيات مستجدة لم تكن القيادة العامة معتادة عليها تماماً. في « العاب » الحرب هذه مثَّل موشيه دايان، آمر منطقة الجنوب العسكرية آنذاك، الفريق المهاجم، فيما تولى الدفاع آمر منطقة الوسط الكولونيل زفي ايالون.

في تلك المناسبة التقيت موشيه دايان للمرة الأولى، وبدا لي للوهلة الأولى انني أمام شخصية فذة وطبع مختلف. كان دايان، على نقيض أيالون ذي الشخصية المحببة والمنفتحة، نادراً ما يكلم احداً ويكاد لا يلقي عليك السلام.

في المرحلة التمهيدية من المناورات اجرت القيادة العامة لكل من الفريقين دراسة ميدانية دقيقة ورسمت الحدود وارست معالم القطاع الذي يشكل رهان المعركة. ودام الاستطلاع نفسه عدة أيام. واصطحب ايالون معه كل ضباط قيادته العامة : طاقم ضخم يحوي مطبخاً نقالاً ومقطورة قيادة وشويحنات وجيبات.

أما دايان فوصل وحيداً. كان يقود بنفسه سيارته ويتفحص الميدان في كل الاتجاهات، مسجلاً كل شيء، متصيداً ادق التفاصيل الطوبوغرافية والعناصر التكتيكية، وباحثاً ايضاً عن الثمار الصالحة للأكل مثل التين والبلح والبطيخ

الاصفر والعنب، وعلى نحو عام عن كل ما يقع تحت يده من ثمار ناضجة كفاية لتؤكل. (في ما بعد، عندما خدمت تحت أمرته، رسمت خارطة ثمار المنطقة العسكرية في الشمال، حيث أشرت بالتدقيق الى أفضل بساتين المنطقة). ولكن فيما كان دايان يفتش كل واد ويستقصي اصغر غابة وبستان، مثل ثعلب الحكاية، كانت قافلة زفي أيالون الفخمة والمربكة تكتفي باستقصاء المحاور الكبرى. وعندما بدأت المناورات كانت القيادة العامة في الجنوب تتمتع بميزة حاسمة.

ما أن أعطيت اشارة الانطلاق حتى حقق جيش دايان تقدماً سريعاً. وإذ استثمر الى الحد الاقصى المعطيات الميدانية التي جمعها دايان نجح في تخطي خطوط دفاع قيادة الوسط وفي تطويق احد الويتها، كانت خطة دايان جريئة، لكنه اهمل العمل الجماعي واللوجيستي. وعندما بدت الطوابير المهاجمة على وشك الانتصار تعطلت عرباتها وتسمرت في أماكنها.

للأسف لم يعرف ايالون الإفادة من تقصير خصمه وتحويله لصالحه. فهذا الذي كان أحد افضل ضباط الهاغانا تردد كثيراً في أثناء هذه المناورة فيما الوضع يتطلب الحسم السريع. كانت مجالسه الحربية، المعقودة في الجوالجي والمرخى الذي كان يخلقه دائماً حوله ويشترك فيه الجميع، تدوم ساعات. فيعطي كل ضابط اركان رأيه ويعبِّر عن شكوكه ويصيغ انتقاداته. وبصفتي ضابط استخبارات دعيت الى تحليل الوضع ثم اعادة تحليله : الطوبوغرافيا، عديد العدو، الزمان، المكان وكل العناصر العامة التي تدخل في تقرير مماثل. كان الوقت يمر مسرعاً، والوضع يترجح ميدانياً. وفي احدى المرات دخل قائد الأركان ايغال يادين الغرفة وصاح: « ولكن ما بكم تجترّون مئة مرة الاشياء نفسها، وفي اثناء ذلك يمكن للأحداث ان تتغير عشرات المرات ؟! » هذه امثولة كان علي ان اتذكرها عندما سأدير بنفسي في ما بعد مجالس الأركان.

كان دايان لا يزال دائماً مسمراً في مكانه، وفيما كان منشغلاً بتعبئة عرباته

وقوداً عمدنا أخيراً الى مهاجمة قواه عند هبوط الليل. وإذ تردد قائد اللواء المكلف بالهجوم بشأن خط سيره طلب نجدة؛ فانبريت لارشاد الطابور عبر عوائق تضاريس الميدان، من تلال ووهاد. وكان علينا أن نقطر مراراً عديدة كلا من العربات لاجتياز سفوح الوديان الأكثر عمقاً. ولا اذكر اني شاهدت آمر اللواء ولو مرة واحدة طوال تلك الليلة. وكانت تلك امثولة أخرى حول القيادة والسيطرة على الوضع. وفي نهاية المناورات وصلت الى اقتناع قوي مفاده ان مكان القائد الجدير بهذا هو الميدان، اذ لا يمكنه أن يتخذ القرارات التي تفرض نفسها الا اذا تابع ببصره مختلف اطوار العملية، خصوصاً اذا كان الوضع معقداً ومبهماً. ولقد تجلت فائدة هذه الامثولة بنوع خاص في سينا عام ١٩٦٧ وفي قناة السويس عام ١٩٧٣. فاذا كنت في مكانك الصحيح وسيطرت على الوضع الميداني وقدت جنودك بنفسك فانهم سيتقدمون وفق خطتك.

عند طلوع الصبح قدت اللواء الى كيبوتز بيت كاما في جوار بئر السبع. لم نقهر دايان لكننا قمنا بهجوم مضاد وحققنا نوعاً من « التعادل ».

بعد انتهاء التمرين اخضعنا دايان لنوع من الحرب النفسية اذ راح يتسلى بتحليل كل العملية من وجهة نظره. وهنا برهن عن موهبته الفنية والادبية عندما رسم على الورق ثعلباً (الثعلب، هو رمز لمنطقة الجنوب العسكرية) يضع قائمته المنتصرة على أسد (رمز منطقة الوسط العسكرية) أدْرَد ومحتضر. وعلّق على هذا الكاريكاتور بجملة مستوحاة من سفر الجامعة، صححها دايان وصاغها على هذا النحو : « ثعلب حي خير من اسد محتضر ». في اليوم الأخير من المناورات حلقت طائرة « پيپر » فوق مواقعنا ورمت آلاف الاعلانات الصغيرة التي تصور الكاريكاتور. لكن رأي دايان في التمرين لم يغير ابداً رأيي. وبقطع النظر عن « البالّوتاج »، أي اخفاق كل من الفريقين في احراز نصر حاسم، كنت اشعر شخصياً بالنصر. ففي الواقع قدت لواء كاملاً اعاد نوعاً ما، بعملية صعبة، توازن القوى بين الفريقين — وكان

هذا بالحري مدعاة لفخري. يا للأسف ! بعد عدة أيام طار مني افتخاري عندما استدعيت الى الأركان وأُفهِمت ان دور ضابط الاستخبارات ليس قيادة لواء. فمحلي كان يجب أن يكون الى جانب آمر الوحدة لكي اصف له الوضع تباعاً بحسب تطوره. لم تكن الملاحظة لوماً؛ ومع ذلك عندما خرجت كنت قد قررت اني لن اكمل طريقي في الاستخبارات.

قبل أن يرسلني ابراهام يوفّي لمتابعة دروس لرؤساء الكتائب بقليل كابدت ازمة ملاريا جسيمة. كان المرض قد دام طوال سنتين في طور الحضانة ثم راح يظهر في شبه انتظام كل خمسة عشر يوماً؛ وكانت كل ازمة تضعفني اكثر من سابقتها. وبعد أن تآكلتني نوبات الحمى العنيفة وكميات الكينا الضخمة التي كنت ابتلعها وجدتني في نهاية ١٩٥١ في حالة من الضعف الأقصى. وإذ خشي الأطباء نهاية محتومة قرروا على نحو حاسم ان السبيل الوحيد للتخلص من المرض هو تغيير مناخ جذري.

قررت اذاً ان آخذ شهري عطلة في الخارج. لم أكن قد خرجت بعد من البلاد، وكان لي في باريس عمي جوزيف؛ وفي لندن اصدقائي دوق سيون (الذي تزوج في ما بعد يائيل دايان، ابنة موشيه دايان)، والبريطاني سيريل كيرن المتطوع في الجيش الاسرائيلي، واسحق موداعي (الذي لفت الانظار في اللطرون)؛ واخيراً في نيويورك عمتي سانا. كل هؤلاء كانوا مستعدين لمرافقتي الى الاماكن السياحية والحضارية التي تستحق المشاهدة. وهكذا توجهت ذات يوم مع ابي الى تل أبيب لشراء أول جاكيت لي وزوجا من « الاحذية الواطئة » — الجديدة بالنسبة الي لاني لم أكن انتعل الا احذية الفلاحين.

عندما استقبلني عمي جوزيف في مطار اورلي لم ير في البدء سوى زيي الذي جعله يمتقع، كما بدا لي. وما كدنا نصل الى المنزل حتى اجبرني على ابدال جاكيتي الجديدة بإحدى بدلاته الفاخرة. وشرح لي انه لا يمكنني أن أتنزه في باريس « محزَّماً مثل فلّاح ». ثم اخذني الى خياطه المشهور بمهارته

في صناعته. فأخذ هذا مقاساتي تحت أنظار العم جوزيف المتيقظة والمرتبكة قليلاً. سار كل شيء على ما يرام بالنسبة الى الجاكيت. ولكن عندما سألني الخياط بتهذيب، قبل أن يقيس البنطلون : « الى اي جهة يلقي سيدي حمله ؟ » ترددت قبل ان اجيب، مما اسخط عمي. اخيراً قلت : « في الوسط ». لم اكن اتصور اطلاقاً ان سؤالاً كهذا يمكن أن يُطرح.

ثم أخذني عمي عند بائع قفازات. كان قد لاحظ حالاً اني لا أحمل قفازاً في حقيبتي، وهو وضع آخر غير معقول يجب وضع حد له حالاً اذا اردت أن أظهر في باريس. وهنا ايضاً ارتكبت حماقة انزعج لها عمي : عندما ارادت البائعة أن تجرب لي قفازاً اكتفيت بمد يدي لها. كيف كان في وسعي ان احزر ان عليّ ان ادخل اصابعي في قوالب جلدية معدة لذلك ؟ وعلى رغم هذين النشازين اكتمل زيي بما يرضي عمي تمام الرضى. ولانني غدوت لائقاً صار في مقدوره أن يزودني مجموعتي تذاكر مترو وباص لأزور باريس. وخلال الاسبوعين التاليين أعتقد اني تجولت في طول باريس وعرضها، بمعيته غالباً واحياناً وحدي. مع العم جوزيف كان البرنامج يتضمن عدداً من المطاعم وعلب الليل. وعندما أكون وحدي أتسكع في الشوارع مندهشاً امام البنايات والمخازن والمتاحف (التي كان والدي قد وصفها لي بتفصيل)، وخصوصاً أمام اناقة النساء المتبخترات في شارعي فيكتور هوغو والشانزيليزيه وهن يرتدين آخر اصول الموضة. وبما أنني قرأت عدة روايات فرنسية من القرن التاسع عشر، كنت ارفع بصري ايضاً الى السقائف واتخيلها مأهولة بفتيات جميلات وساذجات من الأقاليم أو الريف، وهن يتمترسن خلال الليل ضد الملاطفات العنيفة للمالكين الافظاظ. كان كل شيء جميلاً، رائعاً، مثيراً — وشديد الاختلاف عن الموشاف.

غادرت فرنسا الى بريطانيا على متن معدِّيَّة تنقل الركاب بين كاليه في فرنسا ودوفر في بريطانيا، لأمضي بضعة أيام عند اصدقائي؛ ثم توجهت في طائرة « كونستيلاسيون » الى نيويورك حيث كانت العمة سانا تنتظرني. كان

انشغالها الأول تأمين رخصة قيادة لي حتى استطيع ان اتنزه في البلاد على مزاجي. لاقيت بعض الصعوبات في امتحانات القيادة الخطية باللغة الانكليزية، لكن العمة سانا عندما شرحت للفاحص اني قائد سرية في الجيش الاسرائيلي اصابت، على ما يبدو، وتراً حساساً في نفسه فمنحني الرخصة.

ومثلما فعلت في باريس مسحت شوارع نيويورك مسحاً شاملاً وعيناي تحملقان في استمرار في ناطحات السحاب. وعندما أخذت العمة سانا الطائرة الى بالم بيتش استعرت انا سيارتها واتجهت بها الى لويزيانا وتكساس. كنت قد غادرت نيويورك تحت الثلج. ولكن كلما حثثت السير نحو الجنوب كان الطقس يتحسن. أخذني العجب العجاب أمام شساعة هذه البلاد المذهلة، حيث يستطيع المرء أن يقود أياماً وأياماً في اتجاه واحد ويمر بمناخات مختلفة. وكنت أشعر براحة اخّاذة امام مساحات المياه الشاسعة والجسور التي لا تنتهي. لم ار قط في حياتي بدائع مماثلة.

في نهاية كانون الأول (ديسمبر) التقيت العمة سانا في بالم بيتش حيث اثّرت فيَّ كثيراً زينة الميلاد وجو العيد. وامضيت رأس السنة اعرض جسدي لأشعة الشمس الذهبية على الشاطئ قبل أن اكمل رحلتي الى الشمال. اتّبعت الطريق الساحلية فاجتزت جورجيا وكارولين الجنوبية فالشمالية وفيرجينيا؛ وبعد توقف في واشنطن عدت الى نيويورك. وخلال هذه الرحلة أُخذت بلطافة الناس معي وبعملقة كل ما شاهدته.

بعد عودتي الى اسرائيل شعرت أني أنتمي الى المجتمع الراقي، وأهم من ذلك أني تخلصت اخيراً من المالاريا. وهكذا كنت مستعداً لاستعادة خدمتي بعد أن عينت رئيس استخبارات منطقة الشمال العسكرية. وبعد قليل عُين موشيه دايان قائداً للمنطقة نفسها. وعندما قال لي ان ضابط الاستخبارات هو في رأيه امرؤ يعرف ارض المعركة اكثر منه، كنت اعرف أننا متوافقان حول هذا الموضوع على الأقل. وبالنسبة اليّ انا الذي اقتنصت دائماً الفرص

للخروج وحدي الى الميدان كانت ملاحظة دايان ضوءا اخضر لجولات طويلة في التلال وعلى امتداد الحدود. كما كانت بداية العلاقات المعقدة التي ربطت بيننا طوال حياتنا والمبنية على احترام متبادَل ولكن ايضاً على بعض الريبة.

اولى المهمات التي أوكلها الي دايان كانت تنبئ من جوانب عديدة بطابع المهمات اللاحقة. ففي صبيحة يوم من تشرين الثاني (نوفمبر)، وكنت في مقر القيادة العامة في الناصرة، دخل دايان مكتبي وجلس، ومن دون مقدمات روى لي قصة جنديين اسرائيليين كانا قبل عدة اسابيع في دورية استطلاع في منطقة قلقيلية عندما اجتازا الحدود خطأ ودخلا الأراضي الاردنية. فأسرهما جنود الفيلق العربي ونقلوهما الى عمان للتحقيق، واليوم يرفض الاردنيون اعادتهما الى اسرائيل على رغم مساعي الحكومة الاسرائيلية المتكررة أمام الامم المتحدة. وإذ استنفدت كل السبل الأخرى لاسترداد الجنديين اراد دايان أن يعرف رأيي في اختطاف بعض الرهائن الأردنية للمبادلة.

كان لم ينتهِ بعد من عرض المشكلة عندما بدأت احوك في رأسي افضل تكتيك لعملية كهذه. لكنني اكتفيت بالقول لدايان انني سأفكر في الموضوع. وبعد ذهابه استدعيت شلومو هيفر، احد ضباطي، وطلبت اليه ان يحضِّر الجيب لدورية استطلاع على الحدود. كنت أعرف مكاناً على ضفاف الاردن مناسباً في رأيي لمشروع كهذا واريد تفحصه ميدانياً قبل إعداد خطة مفصَّلة.

سرنا بالسيارة حتى جسر « الشيخ حسين » القديم، قرب كيبوتز ماوز حاييم شرق بيت شين. كان احد الجسور الذي استخدمه العراقيون لغزو اسرائيل مجتازين الأراضي الاردنية في بداية حرب التحرير. لكن وحدة اسرائيلية كانت قد دمرته بعملية جريئة، فلم يبق منه الا دعائمه وبعض الروافد الفولاذية الملتوية والصدئة.

بلغنا الجسر فنزلنا من الجيب وتفحصنا الضفة المقابلة من الاردن. على بعد بعض مئات الأمتار من الضفة مركز للشرطة يكاد لا يرى لما يغشاه من

قصبٍ وأعشاب. فقلت لنفسي إنه مكان مثالي لأَسْرِ بعض الاردنيين. وعندما جلسنا تحت شجرة اكاسيا ورحنا نتفحص الضفة الأخرى لاحظت ثلاثة جنود اردنيين، بقيادة رقيب، يتجهون نحونا بين القصب. قلت لنفسي وأنا اراقبهم اننا قد لا نكون في حاجة الى الانتظار واعداد خطة لأن الرهائن الذين نريد اخذهم كانوا هنا، أمام أعيننا. كان ذلك حظاً غير منتظر.

تكوَّن مشروع سريع في رأسي، فنزلت الى الضفة واشرت بذراعي لألفت انتباههم. وفيما كانوا يتوجهون نحوي إقتربت وانا اسير على عارضة معدنية من عوارض الجسر المهدم واتشبَّث بعارضة اخرى فوق رأسي لتأمين توازني. ولأن لا سبب ظاهراً لإثارة ريبتهم (كان مسدسي مخبأ في جيبي وهم اربعتهم كانوا مسلحين)، تقدموا نحوي حتى طرف الجسر ليعرفوا ماذا اريد منهم. ابتسمت وكلمتهم في سرعة باللغة العربية : « نحن نبحث عن بقرة سرقت من الكيبوتز »، فهل في وسعكم مساعدتنا على ايجادها ؟

كنت اعرف أنه سيكون من الصعب علينا السيطرة على الأربعة معاً، فطلبت من الرقيب الاردني ان يتكرم بإرسال احد رجاله الى مركز الشرطة للاستعلام عن البقرة. ولم أكن شديد الافتخار بما سوف افعله بعدما دعوت العريف وتباحثت معه بمودة. واذ ارسل رجلين بدلاً من واحد علمت ان وقت العمل قد حان. فما أن غاب رأساً الاردنيين بين القصب، في الجهة المقابلة من النهر، حتى نهضت. فساور الشك الرقيب والجندي اذ نهضا هما ايضاً. وبحركة سريعة قبضت على الرقيب من حزامه وفككت بيت مسدسه وشهَرْتُه في وجهه.

بعد دقيقة كانت العملية منتهية. ففيما كان شلومو يصوب السلاح نحوهما جردتُهما من سلاحهما. ثم اتيت بالسيارة، فأجلسنا الاردنيين الى جانبي وظل شلومو واقفاً على الرفراف ومسدسه مصوب اليهما. وعلى هذه الصورة دخلنا الناصرة.

بعد نصف ساعة عدنا الى القاعدة. وبعد أن حبسنا الاردنيين في قبو بناية القيادة العامة ذهبت الى دايان لتقديم تقريري. ولأنه كان غائباً تركت له كلمة مختصرة : « موشيه، أُنجزت المهمة. السجينان في القبو. شالوم اريك ».

لما علم دايان بالأمر لم يخف رضاه. لا بل هلل لفكرة ان يستطيع احد اللجوء الى مثل هذه الحيلة. واكثر ما ارضاه هو أنني لم اتردد في استدراج الاردنيين الى الفخ (وإن لم يفصح عن ذلك) وانني لم أجد حرجاً في عدم طلب تعليمات واضحة ودقيقة ــ خصوصاً خطية. وفي الواقع، لم يساورني اي تردد، بل كنت مستعداً حتى الى عبور الأردن عند الاقتضاء لتنفيذ خطتي. ومرة اخرى اقول إنني لم أكن فخوراً لاستغلالي ثقة هذا الرقيب بعد اللقاء الودي الذي حصل بيننا. لكنَّ فكرة واحدة كانت هاجسي آنذاك : اسر هؤلاء الاردنيين لمبادلة رجالنا بهم. وكان دايان يعرف بدقة معنى ما كان طلبه مني؛ ومن جهتي لم يساورني شك في نواياه : فهو لم يكن يأمل طبعاً في ايجاد اردنيين يتنزهون في مناطقنا !

وسرعان ما سأكتشف ان هذا النمط في التصرف، الجديد بالنسبة اليّ، نموذجي عند دايان منذ وقت طويل. فقد كان يستر عادة نواياه بنوع من اللبس، تاركاً هامشاً واسعاً للمبادرة الشخصية والتفسير. وبهذه الطريقة، فإن من يتلقى اوامره ــ انا في الحالة الحاضرة، كما كثيرون غيري في ما بعد ــ كان يأخذ على عاتقه مسؤولية ما ينبغي فعله، مع حرية كبيرة في العمل. فاذا كللت المهمة بالنجاح قطف هو اكليل الغار، وفي حال الفشل لم يكن هو المسؤول، بل أنت.

بعد أقل من سنتين على هذه الحادثة عُين دايان قائداً اعلى للجيش الاسرائيلي تساهال. وكنت في تلك الأثناء على رأس وحدة من صفوف الجيش اعدت لمكافحة الارهابيين. وكان لا بد لميل دايان هذا الى الاوامر الملتبسة، بالاقتران مع عزمي الثابت على حسن انجاز ما ينبغي في رأيي فعله، ان يولد احتكاكات عدة كان لها وقع دولي.

في خريف ١٩٥٢ كان عمري أربعاً وعشرين سنة، وخلفي خمس سنوات من الخدمة في الجيش. ومع ادراكي اني موهوب في حرفة السلاح لم أكن أتوق اليها ابداً؛ ولم يكن يرضيني كثيراً أن أظل مرتدياً الزي العسكري حتى نهاية أيامي. ومثل رجال كثيرين من جيلي كنت قد فوّتت فرصاً عديدة، مما ولّد عندي شعوراً بالاحباط. ففي ١٩٤٧ كنت قد تسجلت في كلية الزراعة في جامعة اورشليم، لكن الحرب التي شوشت كل حياة البلاد اضطرتني الى وأد هذا المشروع. ولم أنقطع منذ ذلك الحين عن التفكير في الذهاب إلى الجامعة؛ وكان والداي عموماً ووالدتي خصوصاً يحثّانني على انتهاج هذا السبيل. ولقد مرت سنوات عديدة، لكن توقف دروسي كان يثير دائماً حزن أمي التي كانت باستمرار تردد على مسامعي ان من واجبي أن أتابع دروسي اذا كان عندي ميل ولو خفيف اليها. وفي الواقع، لم تكن عندي فكرة محددة عن الموضوع، ولكن خلال الفصل الدراسي في خريف ١٩٥٢ قررت أن الوقت حان لأُشمِّر عن ساعد الدرس. كنت قد فكرت من قبل أن أتسجل في برنامج الزراعة في جامعة كولورادو، لكنني هذه المرة ملت الى دراسة الحقوق. واخيراً قررت دراسة تاريخ الشرق الأوسط في الجامعة العبرية بأورشليم.

في تلك الأثناء استقرت غالي ايضاً في اورشليم. وبعد ان انهت دراسة التمريض تابعت تخصصها كمساعدة في التحليل النفسي. وبعد ذلك بقليل توظفت في احد مستشفيات ضاحية اورشليم. كنا منذ سنوات متعاهدين على الحب ولم يكن احدنا يشك في عواطفه تجاه الآخر. ولكن ها نحن نجتمع الآن سوية للمرة الأولى. كانت غالي قد قاربت العشرين ولم تعد تلك الابنة الخجولة التي عرفتها عندما كانت تعمل في بستان خضار مدرستها الداخلية. صارت الآن امرأة ناضجة ذات شخصية باردة التفكير وميالة الى التحليل. وعندما كنت أذهب الى المستشفى لاصطحابها كانت محاطة عادة بمرضى سلوك بعضهم غريب حقاً. ففي وسط كهذا كانت غالي تفرض نفسها بسلطة طبيعية لا تغيب عنها النعومة. وذات يوم، اذ شعرت بحيرتي وانزعاجي

اخذتني على حدة لتقول لي : « لا تعتبرهم كأناس غريبي الاطوار؛ تحدث اليهم كما لو كانوا اولاداً؛ فالأمر بهذه البساطة ». كان الحب الذي توحيه الي مدعوماً ايضاً بإعجابي بشخصيتها. ولم يطل بنا الأمر حتى تحدثنا عن الزواج وعملنا مشاريع في هذا الاتجاه.

ولأننا لم نكن نرغب في حفلة زواج رسمية قصدنا حاخاما عسكرياً أعرفه، فزوجنا في اليوم نفسه : ٢٩ آذار (مارس) ١٩٥٣. بعد ذلك ارسلت برقيات الى والدي في كفرملال، والى عمتي سانا في الولايات المتحدة، والى اهل غالي الذين أتوا من رومانيا بعض مضيّ سنوات على الحرب وكانوا يقطنون في ضواحي حيفا.

كنا متزوجين بلا سقف يجمعنا. وهو أمر لم يكن سهلاً آنذاك. كانت غالي تسكن في المستشفى حيث تعمل، وأنا كنت أتقاسم غرفة وحيدة مع صديق من الجيش كان هو ايضاً قد بدأ دروساً جامعية متأخرة. وكانت مصادرنا المادية أكثر من متواضعة وكدنا نيأس من التمكن من العيش في منزل واحد. وبعد ابحاث مضنية توفقنا في ايجاد ما يناسب ميزانيتنا : غرفة صغيرة مع زاوية مطبخ في الفناء الخلفي لبناية في احدى ضواحي اورشليم. كان المرحاض والحمام يحتلان ما يشبه سقيفة ملاصقة للمطبخ، ندخلها محنيي الرؤوس لانخفاض سقفها. ولقد علمنا في ما بعد أن هذا « المنزل » كان في الواقع قنا بُدِّلت وجهة استعماله. فالغرفة ضيقة تكاد لا تحوينا نحن الاثنين؛ لكننا، مثل الأزواج الجدد، كانت الرفاهية آخر همومنا. لم نكن نفكر الا في سعادة الالتقاء اخيراً سوية — وهي سعادة كانت تجعل من قننا غرفة مريحة جداً، بل رائعة.

مرت الأشهر الستة الأولى من العام ١٩٥٣ كحلم جميل. لم يتسنَّ لنا الزواج اخيراً فحسب بل كنت اختبر الحياة الطالبية بلذة، بعد أن كانت أعمال المزرعة المضنية تصيب طفولتي وكانت الاعمال الحربية سرقت مني شبابي.

فللمرة الأولى في حياتي كنت حراً من كل عقال ومعفىً من كل مسؤولية. بكلمة : حقبة سحرية. ولسوء الحظ، لا تدوم ابداً الأوقات السحرية مدة طويلة.

حوالي منتصف تموز (يوليو) من تلك السنة، فيما كنت منهمكاً في تحضير فحص التاريخ، زارني مبعوث خاص من الكولونيل ميشايل شاشام، قائد فوج اورشليم، الذي كنت ادين بالخضوع له بصفتي آمر لواء احتياطي. فقد طلب مني ان اوقف كل نشاط وأمر عليه.

حدثني شاخام، في مكتبه، عن تجدد نشاط الاغتيالات الارهابية. فمنذ مدة يسيرة اغتيل حارسان اسرائيليان. وهو يرى أن الوسيلة الوحيدة لمكافحة القتلة هي شدهم من مخابئهم وتصفيتهم. كان قائد العصابة المسؤولة عن هذه الجرائم رجلاً يثير الرعب اسمُه : مصطفى الصموئيلي القاطن بقرية النبي صموئيل، شمال اورشليم. وكان موقع هذه القرية في ذروة تلة خلف الخطوط الاردنية يجعل منها حصنا منيعاً تقريباً. ولم يكن شاخام يعتقد بامكانية أنْ تُعهَد مَهمة كهذه الى وحدة نظامية، أياً تكن [illegible] كان الأمر هكذا — قال لي — هل استطيع مع عدة رجال آخرين اختار [illegible] ن ادخل القرية واصفّي صموئيلي وعصابته ؟

في رأيي ان اضطرار شاخام الى التفكير فيّ شخصياً لعملية مماثلة لدلالة على مقدار انخفاض المستوى في جيشنا منذ حرب الاستقلال. في تلك الاثناء لم يكن لـ Yishouv ما يشبه جيشاً قادراً على تحمُّل هذه الحرب. وكذلك لم تكن الهاغانا اكثر من ميليشيا شعبية سرية. وحدهم قدماء الجيش الانكليزي ورجال البالماخ الالفان أو الثلاثة آلاف كانوا قد عرفوا تدريباً حربياً جديراً بهذا الاسم. لكن غالبية رجال الـ Yishouv حملوا السلاح في اثناء حرب الاستقلال وغدا الكثيرون منهم في نهايتها عسكريين حاذقين. وكانت تساهال قد ظلت جيشاً شعبياً، وبعد وقف اطلاق النار عاد كل رجالها او معظمهم الى

بيوتهم لاقتناعهم بأن اتفاقيات الهدنة سوف تتبعها معاهدات سلام وأنهم سيستطيعون اخيراً العودة الى حياتهم السوية ومشاغلهم.

في تلك الحقبة نفسها كان البالماخ، مَعين الجنود المحترفين، قد حُل. ففي اثناء الحرب اعلن بن غوريون الغاء القيادة المستقلة للبالماخ — المعروفة باتجاهها السياسي اليساري — ودمجها في الجيش النظامي. وبعد الهدنة ذهب ابعد من ذلك بتحويله ثلث عديدها الى وحدات احتياط. فترك حينئذ ضباط عديدون من البالماخ زيهم العسكري وعادوا الى منازلهم في الكيبوتزات أو في الموشاف.

ولكن بالاضافة الى التسريح العام للجيش والى الصراعات السياسية كان هناك سبب اعمّ لعدم الفعالية الحالية للجيش. فلقد تبع وقفَ اطلاق النار موجة من الهجرة كثيفة. وفيما كان السكان اليهود يبلغون قرابة ستمائة الف نسمة عندما أعلن بن غوريون الدولة في ١٩٤٨، ارتفع العدد في العام ١٩٥٠ الى مليون نسمة والى مليون ونصف في العام ١٩٥٣. وقد وصل معظم هؤلاء المهاجرين الينا في حالة من الفقر المدقع، وكان قسم كبير منهم لا يحسن القيام بأي شيء، نافع على الأقل. كان كل هؤلاء الناس يتحدثون بمائة وسبع وعشرين لغة، ولم يكن ما يجمعهم باستثناء يهوديتهم. والكثيرون من اللاجئين أو الناجين من مخيمات الاعتقال كانوا قد عانوا اهوالاً احدثت عندهم صدمات نفسية عميقة.

كان من الضروري تأمين ثياب وطعام وسقف في سرعة لكل هؤلاء المهاجرين، فضلاً عن تعليمهم اللغة العبرية وتأمين موارد رزقهم ودمجهم اخيراً في الشعب والدولة. وبعد حرب الاستقلال كانت هذه المهمة الضخمة، التي تكاد تفوق القدرة البشرية، في رأس اولويات اسرائيل، وكان انجازها يتطلب تكريس مواردنا الهزيلة، مشركين في ذلك المجموعة اليهودية في البلاد والشعب اليهودي في العالم. وكانت ضرورات الدمج تتضمن نظاماً من التقشف، فدفع الجيش ضريبة ثقيلة.

تجلى هذا النظام التقشفي في واقع الأمر بنقص كبير في اسلحة الجيش وذخائره بعد الهدنة، ومستوى تدريب لا يفي بالمرام؛ من جهة أخرى، كان التساهال قد عرف إعادة تنظيم في العمق؛ في الواقع، أعيد النظر في بنيته من الاساس. واستثمر الكثير في الرتب العليا والتنظيم على حساب التنشئة العسكرية الاساسية أو المجالات المتخصصة. وكان التساهال، الذي يحتاج الى كادرات ويبذل جهوداً كبيرة لدمج عشرات الآلاف من المهاجرين الجدد، يعي الانخفاض الواضح في مستوى قيادته. وفي سنوات قليلة كان الجيش الاسرائيلي، الذي تعود على الشدة ميدانياً في اثناء حرب الاستقلال، قد تدنت قدرته الى حد عجزه عن شن غارة على عصابة من الارهابيين تختبئ على بعد خمسة كيلومترات من عاصمة البلاد.

وشاعت صدفة مكدِّرة ان يكون على الجيش الاسرائيلي في مرحلة الانحطاط هذه ان يرفع تحدياً متزايداً يوماً بعد يوم : الارهاب الفلسطيني الآتي من البلدان العربية المجاورة. فلم يمض وقت قليل على الهدنة حتى اجتاز الحدود افراد وجماعات صغيرة قادمين من غزة او من المناطق الواقعة تحت الاشراف الاردني، للسرقة بوجه عام ولكن ايضاً لزرع الفوضى في حياة القرى. وسرعان ما اتسمت هذه الاعمال، المرتجلة في البداية، بطابع اكثر جدية. فلقد تضاعف عدد التسللات والاعتداءات بسرعة مذهلة. واعطت السرقات وأعمال التخريب مكانها للسطو المسلح وجرائم القتل وهكذا وجدت اسرائيل نفسها في العام ١٩٥٠ تجابه مشكلة تسلل منهجي لمجموعات ارهابيين منظمين جيداً ويعمل معظمهم آنذاك تحت اشراف الاستخبارات المصرية.

خيم جو من الرعب على البلاد. كان الناس يخشون الخروج مساء. وكانت الانفجارات والطلقات النارية التي تُسمع في الليل تجفلهم؛ وكانت الإشاعات تتناقل وتنقل تفاصيل رهيبة عن العذابات والتشويهات التي يكابدها ضحايا الاعتداءات. في العام ١٩٥١ قتل الفدائيون مائة وسبعة وثلاثين

اسرائيلياً، كلهم من المدنيين ومعظمهم من النساء والأولاد. وفي السنة التالية ارتفع عدد الضحايا الى مائة واثنين وستين. وكانت السنة ١٩٥٣ قاسية بنوع خاص اذ شهدت اكثر من ثلاثة آلاف تعدٍّ متنوعة الاشكال، بمعدل عشرة تعديات في اليوم الواحد. وقُتل في تلك السنة مائة وستون مدنياً.

اخذت موجة الأرهاب بالامتداد. وكانت اسرائيل تلجأ في انتظام الى الامم المتحدة فيما هي تحاول ان تعمل بطرق دبلوماسية اخرى. وبُذلت جهود لتحسين المراقبة على طول الحدود حتى أنه انشئ سلك خاص لِـ « حرس الحدود ». ولكن كان لا بد من الرضوخ اخيراً لحكم الواقع : الطرق الدبلوماسية غير مجدية والحدود طويلة جداً ويصعب كثيراً الدفاع عنها، لا سيما وان قسماً صغيراً منها فقط يحوي حواجز طبيعية. وكانت هذه الحدود قد رسمت على ضوء مواقع القوات المتواجهة عند نهاية حرب الاستقلال. ولذا كانت اصطناعية تماماً وغير معقولة اجمالاً على الصعيد الطوبوغرافي. بكلام آخر، كان يستحيل عملياً احكام سدها في وجه محاولات التسلل. كما أن حملات الاقتصاص من قواعد الارهابيين كانت تنتهي دائماً تقريباً بفشل مذل. فمن عملية الى اخرى ــ بيت سيرا، بيت اوى، انتيس، إدنا، فالامي وعشرات غيرها من الاهداف ــ كانت وحداتنا تبدو عاجزة عن تحديد هدفها في اثناء الليل وغالباً ما تضل طريقها. وفي حالات اخرى، عندما تنجح في تحديد هذا الهدف كانت تكتفي بتبادل بعض الطلقات النارية مع الحراس العرب وتعود ادراجها. وفي افضل الحالات كانت الوحدة تنجح في تفجير بعض المباني المنعزلة في القرية ولكنها تنتهي دائماً بالانسحاب، حاملة معها غالباً بعض الجرحى.

هذا الشعور بالعجز كان يسبب احباطاً عميقاً لميشايل شاخام ويطبعه بلون العجز، حتى بلغ به الأمر اخيراً الى اعتماد طرق قليلة الاستقامة. وهكذا طلب مني في ذلك اليوم ان اجد « وسيلة ما » للنجاح حيث فشلت الوحدات النظامية. ولست اشك في أن شاخام، وهو يعرض المشكلة على هذا النحو،

كان يأمل في أن أجد في طلبه تحدياً ــ ولم يخب أمله فعلاً. فعندما سألني اذا كنت اظن أن في استطاعتي التسلل الى النبي صموئيل وتصفية مصطفى الصموئيلي وقتله، لم أتردد في إجابته بالإيجاب. فقد كنت مقتنعاً بنجاح العملية اذا قمت بها مع سبعة رجال او ثمانية اختارهم بنفسي.

كان الرجال الذين فكرت فيهم جلهم من الرفاق الذين خدموا في وحدتي قبل حرب الاستقلال وبعدها. معظمهم تركوا الجيش لكنهم ظلوا جميعهم مغاوير من الطراز الأول، وكنت أعلم أنهم سيستغلون فرصة « تدبير » مصطفى صموئيلي. اتصلت بهم هاتفياً يوم الجمعة المقبل، وعشية اليوم التالي كان عملاء مخابرات الشاخام قد زودونا المعلومات الضرورية فبتنا جاهزين للعمل.

كانت خطتي بسيطة جداً: بعد هبوط الظلام نجتاز التلة الوعرة في الاراضي الاردنية وندور حول مواقع الفيلق العربي في تلك المنطقة. ولدى وصولنا الى القرية وتحديدنا مركز عصابة الصموئيلي وفق اوصاف عملاء الاستخبارات كان علينا أن نفجّر الباب. وبقليل من الحظ نفاجئ الصموئيلي وعصابته ونرديهم.

تمت المرحلة الأولى من العملية وفق المخطط تماماً. كان مضنياً السير بين تضاريس التلة الوعرة والمؤدية الى رأس قرية النبي صموئيل، لكننا لم نجد أي صعوبة في الاسترشاد والدوران حول مراكز الفيلق العربي، متجنبين الاصطدام باحدى دورياته. تسلقنا التلة من دون ان ننبس ببنت شفة. لكنَّ كلا منا كان يتذكر أن البالماخ فشل في الماضي في احتلال النبي صموئيل لتأمين الدفاع عن اورشليم اليهودية، فلقد صدوا آنذاك وتكبدوا خسائر فادحة.

بعد بلوغنا قمة التلة سرعان ما وجدنا انفسنا أمام البيت الذي كنا نقصده، بعد أن نجحنا في تجنب افراد الميليشيا المحلية. كان البيت في جوار المسجد الكبير المبني فوق قبر النبي صموئيل، على ما يقول التقليد. وكانت بعض

الشموع النادرة تضيء بخفوت بعض النوافذ. ثبّتنا شحنة الديناميت امام الباب الثقيل ثم انبطحنا في انتظار الانفجار.

هنا تعثّرت الأمور: فشكات الديناميت أخذت تصر وتلتهب وبدلاً من ان تنفجر احدثت فرقعة خافتة اعجز من أن تسبب اضراراً في الباب. فاضطررنا الى القاء قنبلتين يدويتين في داخل البيت. لم يصدر اي رد فعل، وبدا واضحاً ان البيت فارغ. لكن الانذار كان قد اعطي واستيقظ الجيران واخذوا يطلقون النار من نوافذ بيوتهم المحيطة. وإذ فقدنا عامل المباغتة لم يبق لنا سوى اطلاق سيقاننا للريح بأسرع ما يمكن.

استطعنا على ضوء الفوضى الناتجة ان نبلغ سفح التلة من دون ان نلفت الانتباه. وكنا نعرف ان المراكز الاردنية غدت الآن مستنفرة؛ فركضنا بكل ما اوتينا من سرعة، وعيوننا مفتحة وآذاننا منصتة لتجنب الدوريات. وعند الساعة الواحدة صباحاً كنا قد صرنا في الأراضي الاسرائيلية، وقد انهكنا التعب وأضنانا. فمن حيث الاداء لم يكن عملنا لامعاً !...

في التقرير المفصل الذي قدمته الى ميشايل شاشام جاءت الخلاصة تقول ان عملية كهذه كان يجب أن توكل الى محترفين حاذقين، مدربين أفضل تدريب ومعتادين على المعارك الليلية. وشددت على وجوب انشاء وحدة خاصة لهذا النوع من المهمات، وتجهيزها بما يناسب من عتاد، وتحضير خطط مفصلة لها للحالات الطارئة، وإسنادها بوحدات دعم وبكل الوسائل الكفيلة بتأمين نجاحها. يلزمنا شيء آخر غير الوحدات العسكرية التقليدية الثقيلة أو الفرق المرتجلة في الحال، مثل الفرقة التي جمعتها في بضع ساعات. في اختصار، نحتاج الى وحدات من خيرة افراد الجيش.

بعد هذا الاختبار التعيس عدت الى دروسي من دون ان أدري ان شاشام تبنى توصياتي حرفياً ورفعها مباشرة الى بن غوريون، مطالباً بانشاء وحدة مضادة للإرهاب، مشكّلة خصيصاً لهذه الغاية وقادرة على الضرب بيد صائبة من

حديد في القرى ومناطق النفوذ العربية التي تُستخدم ملاجئ وحصوناً للارهابيين في غاراتهم القاتلة. وكنت أجهل أيضاً أنه أوصى بتعييني على رأس هذه الوحدة.

الوحدة ١٠١

في نهاية شهر تموز (يوليو)، بعد اسبوعين على غزوة النبي صموئيل، استدعيت الى رئاسة الاركان لمقابلة موردخاي ماكليف، القائد الأعلى للقوات المسلحة الاسرائيلية. اطلعني ماكليف على الانشاء الفوري لوحدة كوماندو وفق الطراز الذي اقترحه ميشايل شاشام وسألني ان كنت مستعداً لتولي قيادتها. بعد برهة قصيرة من التفكير أعطيت موافقتي. غير أنني أضفت حالاً اني آمل أن يُسمح لي بمتابعة دروسي في الوقت المناسب. وجاء جواب ماكليف قاطعاً كالسيف: « لا أستطيع أخذ تعهدات كهذه على عاتقي ».

كنت لا أزال أعيد التفكير في جواب ماكليف وأنا عائد الى منزلي. فهذه الحياة الطلابية التي استسغتها يُطلب مني الآن ان اتخلى عنها حتى قبل أن أتملى منها. ولكن لم يكن هذا كل شيء: فعلى غالي ان تعيش مجدداً أيام القلق التي عرفتها في أيام خطبتنا ايام حرب الاستقلال. يضاف الى ذلك قلق والدَيَّ، الذي لم يطل بي الأمر حتى حزرته في طيات كلماتهما التي تتظاهر بالتشجيع عندما اطلعتهما فيما بعد على التعيين. فهما يعرفان، مثلي تماماً، أن الحياة الخاصة وشجونها هي شيء، ومشاكل الأمن الوطني هي شيء مختلف تماماً.

كان عليَّ قبل كل شيء ان أجد الرجال الذين سيؤلفون هذا الكوماندو الذي اطلق عليه اسم « الوحدة ١٠١ ». ونظرا الى ضعف معنويات الجيش

فلن يتدافع المتطوعون بالمناكب. فالشعور بالعجز كان شاملاً، والجملة التي كانت تتردد على كل لسان هي : « لا نستطيع شيئاً ضد المتسللين ». لذا كان علي البحث عن رجالي من خارج صفوف الجيش. فكرت حالاً ببعض اخوتي في السلاح، الذين خدموا معي طوال سنوات وقد تستميلهم وحدة قتالية كهذه. ثم اعددت لائحة اولى بأسماء الشبان الذين اظهروا شجاعة استثنائية في ارض المعركة أو تميزوا بمآثر خلال حرب الاستقلال. وفي تلك الاثناء كانت اشاعة موضوعها انشاء « شيء ما خارق » تتناقل في صفوف الجيش ــ وسرعان ما جاء متطوعون يطرقون بابي.

شلومو باوم كان الأول. خدم معي في وحدة الاستطلاع غولاني تحت امرة ابراهام يوفيه، وكان الى جانبي في عملية النبي صموئيل. شلومو هيفير، الضابط الذي رافقني لخطف جنود اردنيين عند جسر الشيخ حسين، تبعه عن كثب. ومن بين الاوائل ايضاً مائير هارصهيون ــ وهو الذي سيطلق عليه موشيه دايان لاحقاً لقب « افضل رجال الكوماندو عندنا ». كنت قد سمعت، مثل آخرين، بمآثر مائير. كان عمره ١٦ سنة عندما اجتاز وحيداً الصحراء الاردنية الى المدينة النبطية القديمة البتراء، المعروفة ايضاً باسم « الصخرة الحمراء » التي يقول التقليد عنها إنها الصخرة التي ضربها موسى. وكذلك اجتاز على قدميه صحراء اليهودية، من اورشليم حتى البحر الميت، مستهيناً بالخطر المميت الذي كان يتعرض له حينئذ كل يهودي يقع بين ايدي البدو الاردنيين. كان هذا الرجل، الذي يبدو مستخفاً بالخطر، قوّافاً ماهراً ومتضلعاً في طوبوغرافية البلاد، كأن حس التوجه هو موهبة شبه خارقة لديه. وأتى هارصهيون معه بصديقه شيمون كاهايز، الملقب بـ « كاشا » والذي سيصبح احد المحاربين الاسطوريين في « الوحدة ١٠١ ». وكان هناك ايضاً اسحق جبلي، المسرح من الجيش، وكان قد انخرط في البالماخ في عمر ١٦ سنة. وكذلك زيفلي أميت ويوسيلي ريغيف. وهما مزارعان من ناهالال قرعا ذات يوم بابي ليقولا لي ان الوضع يقلقهما جداً وأنهما يريدان « القيام بشيء ما »...

جاؤوا يقابلونني الواحد في اثر الآخر : المغاوير، الكشافة، الاختصاصيون في المعارك الليلية، وكلهم شجعان ومأخوذون بفكرة انتمائهم الى وحدة منتخبة، ولكنهم محفوزون ايضاً بارادة عنيدة لتصفية عصابات الارهابيين. في بداية ايلول (سبتمبر) كنت قد اخترت من بينهم عشرين رجلاً. وبعد شهر بلغ العدد خمسة وأربعين، وهو ما كنت اعتبره متوافقاً مع معايير الفاعلية القصوى. وخلال الاشهر الخمسة من عمر « الوحدة ١٠١ » لم يتعد عددُها الخمسة والأربعين، وهي اشهر كانت حاسمة في صراع اسرائيل ضد الارهاب.

جعلت قاعدة وحدتي في مخيم سطف العسكري، فوق تلة منعزلة في منطقة اورشليم. هناك اخضعت هؤلاء الرجال الاستثنائيين لأقسى نظام تدريب يمكن تصوره. بدأنا ببرنامج يهدف الى تحسين الاداءات الجسدية والقدرة على المجالدة الى اقصى حد ممكن. وتبع ذلك التمرُّن على استعمال مختلف أنواع الاسلحة، وعلى العراك بالسلاح الأبيض، وعلى تقنيات الاستطلاع والتوجه ليلاً. ودرسنا الغارات الليلية بأدق تفاصيلها : طرائق الاقتراب، تنفيذ المهمة، اوضاع طارئة، تكتيك الهاء وتراجع في نظام. وكنت اشدد دائماً على ضرورة معرفة متعمقة لميدان العملية، خصوصاً نباتاته وطوبوغرافيته.

ولإكمال النظرية كنا نقوم بمسيرات طويلة واستطلاعات ليلية ما وراء الحدود، على أن تُنجز جيداً لتبيان منفعة التوجه ميدانياً. فأنا كنت اعرف بالخبرة الشخصية ان كل جندي، ولو كان الأفضل، قد يعرف كل انواع المخاوف ويطرح الف سؤال وسؤال. واعرف كذلك ان أكثر ما يخشاه الجندي الاسرائيلي هو أن يجد نفسه في المؤخرة، في ارض عربية، متروكاً لذاته. لذلك كنت عندما نخرج للتمرين، وفيما بعد في اثناء العمليات نفسها، آخذ وقتي فنتوقف قبل بلوغنا هدفنا. هناك نقرفص في دائرة ونراقب الأنوار المضيئة في الليل، فاشرح لرجالي طبيعتها ومصادرها المختلفة : الى اليمين،

مثلاً، اضواء القرية الفلانية، اما الى اليسار فانوار القرية العلانية؛ خلفنا اضواء كيبوتز، وهذا الخط الرمادي عند الافق، الذي تعلوه قمم الاشجار، هو الحدود. كان لهذه الشروحات جانب يطمئن الرجال، وآخر يشحذ عندهم حساً مستديماً للتوجه في أثناء التقدم، ممّا يسمح لهم بأن يعرفوا موقعهم في كل ظرف.

جاء اليوم الذي شعرت فيه اننا نستطيع تكليفهم اي مهمة من أي نوع، ليس فقط بسبب لياقتهم البدنية او تدريبهم العسكري بل أكثر من ذلك بسبب روح الاندفاع الذي كان يتقد في داخلهم : فقد كانوا فخورين بأنفسهم وأكثر من ذلك بوحدتهم. لقد صرنا نؤلف الآن فريقاً وثيق الاتحاد، جاهزاً لرد صاع الارهابيين صاعين. ولأن الطرق الدبلوماسية لم تؤد الى نتيجة كانت الحكومة الاسرائيلية تجهد لحل المشكلة بالاقتصاص والتحذيرات. ومن جهتي كنت مقتنعاً أننا صرنا أخيراً في وضع يتيح لنا المجازاة بالمثل.

كانت معنويات « الوحدة ١٠١ » اعلى من اي معنويات شاهدتها حتى الآن. فالتدريب كان قد بدأ يعطي ثماره. وكان الرجال بجرأتهم التي لا حد لها يرتبط واحدهم بالآخرين باخوّة سلاح ملحوظة. وروح الفريق كان يتجلى بمزاج ثابت، صيّاح قليلاً ودائماً مرِح، يضفي على الفريق طابعاً فريداً. لكنَّ هذه الحيوية الفائضة كان لها وجهُها السَّيِّئ، مثل ذلك العراك بالايدي بين بعض الرجال وعدة جنود من الشرطة العسكرية. بيد ان هذا الفائض من الحيوية لم يكن ليزعجني في الواقع. أيشكو الفريق من بعض الفظاظة ؟ هذا افضل ! كنت أعلم ان هذه الوقاحة ستكون مفيدة لما هم مقبلون عليه.

بينما كانت « الفرقة ١٠١ » تتبلور بدّلتُ شيئاً فشيئاً تجوالاتنا الطويلة بغارات صاعقة ضد عصابات عربية كانوا يظنون أنفسهم في أمان في القرى، لا سيما الاردنية، التي تشكل قواعد انطلاق لهم. لقد كانت عمليات محدودة،

لكنَّ كلا منها كان يحقق اهدافه. وسرعان ما ادرك الارهابيون أنهم لم يكونوا في منأى عن التجريح. غير أن هذه النجاحات غالباً ما كانت تترافق مع مآسٍ وتولِّد منازعات، مثلما حدث في قرية قبيّه في منتصف تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٣. فلقد اطلقنا عملاً تأديبياً ضد هذه القرية بعد جريمة فظيعة راح ضحيتها المرأة الشابة سوسنة كايناس وولداها ابنا ثلاث سنوات وسنة على التوالي، اذ ذبح الثلاثة في اسرتهم في ضيعتهم يهود. واثبت تحقيق الشرطة ان السفاحين جاؤوا من قبيّه، القرية الفلسطينية الواقعة قرب الحدود، في منطقة تشهد يومياً أعمالاً ارهابية.

في اليوم التالي للجريمة المثلثة استدعيت الى القيادة العامة لمنطقة الوسط العسكرية في الرملة. كان هناك قائد فوج المظليين وكبار ضباط القيادة ومندوبو الاركان. أعلمنا، قائد المظليين وأنا، ان الاركان قرروا الاقتصاص من قبيه. وتقضي الخطة أن تحتل فصيلة من المظليين القرية فيما « الوحدة ١٠١ » تُلهي القوات الاردنية وتقيم الحواجز لمنع وصول النجدات.

عند نهاية عرض الخطة لم ينبس قائد المظليين بكلمة. ومر بعض الوقت قبل أن يقول إن رجاله ليسوا، في رأيه، جاهزين لعملية كهذه. وأضاف موضحاً أنهم لا يزالون دون مستوى المهمة. وهو جواب قُوبل بصمت من رصاص. من جهتي لم أكن أتصور أن تهربا كهذا ممكن الحدوث. لذلك قطعت على الفور تبادل الآراء، المتسم بنوع من الحدة، بين قيادة المظليين والضباط، باطلاقي هذه الكلمات : « انا مستعد للقيام بالعمل، ويسرني ان اتولى قيادة المظليين « غير الجاهزين »، بالاضافة الى « الوحدة ١٠١ ». قُبل عرضي حالاً واعطي الأمر لقائد المظليين بأن يرسل توا مفرزة من فوجه الى مخيم سطف.

امضيت تلك الليلة في المخيم مع الضباط لإعداد خطط العملية بحذافيرها. وفي اليوم التالي ارسلت مفرزة المظليين (قرابة مائة رجل) وخمسة وعشرين

رجلاً من « الوحدة ١٠١ » الى مكان التجمع ونقطة الانطلاق في غابة بن شيمن. هناك، بين الاشجار، وضعنا اللمسات الأخيرة على الخطة. اعطيت الأوامر النهائية وتأكدت من أن الجميع فهم تماماً أهميـة العمليـة. أفضت في الشرح ان هذه المهمة يجب أن تكون أول رد مهم لنا ضد الرعب العربي. لا أحد يعرف ماذا ستكون فاعليتها ضد جرائم القتل وأعمال التخريب، ولكن في المقابل بدا واضحاً جداً ان موقفنا السلبي وشكوانا بالطرق الدبلوماسيـة لـم تعط شيئاً على الاطلاق. والحال انه لأمر مفروض أن نجد جواباً للارهاب العربي. وهذا الجواب انما هو المهمة الموكلة الينا.

بعد ظهر ذلك اليوم، فيما كنت أتحقق من الخرائط والخطط للمرة المائة، قيل لي ان موشيه دايان يرغب في رؤيتي قبل ذهابي. ناقشنا المهمة على شرفة مكتبه في رامات غان. قال لي : « ارى انك تحمل هذه العملية على محمل الجد ». أجبت : « طبعاً ». فتابع : « اسمع، اذا تبين لك ميدانياً ان الأمر شديد التعقيد اكتفِ بنسف بعض المنازل عند مدخل القرية وعد حالاً بعد ذلك ». فأجبت : « كلا ! إننا نحمل معنا ستمائة كيلو غرام من المتفجرات (TNT). وسننفذ الأوامر التي أعطيناها ».

كانت هذه الأوامر واضحة تماماً. يجب أن تكون قبيّه امثولة ومثالاً. فكلفت بإيقاع اكبر عدد ممكن من الخسائر في صفوف الميليشيات العربية المحلية ووحدات الدعم الأردنية التي قد تهب للنجدة. وكان عليّ ايضاً ان افجر أهم بنايات القرية، وهي قرابة الخمسين. كان ذلك قراراً سياسياً متَّخذاً على اعلى المستويات. إذ كان على الاردنيين ان يفهموا ان الدم اليهودي لن يهرق بعد اليوم من دون قصاص.

يعرف كل الجنود ان الساعات التي تسبق الفعل هي عذاب حقيقي. فالعملية كما يجب أن تتم كانت معقدة بنوع خاص قياساً الى ما سبق ان قمنا به : حواجز على الطرقات والمسالك المؤدية الى القرية، أعمال إلهاء، الخ. يضاف الى ذلك أن تدخُّلاً للفيلق العربي كان اكثر من محتمل. وفيما الرجال

الإغارات الإرهابية على اسرائيل

١٩٥١ - ١٩٥٦

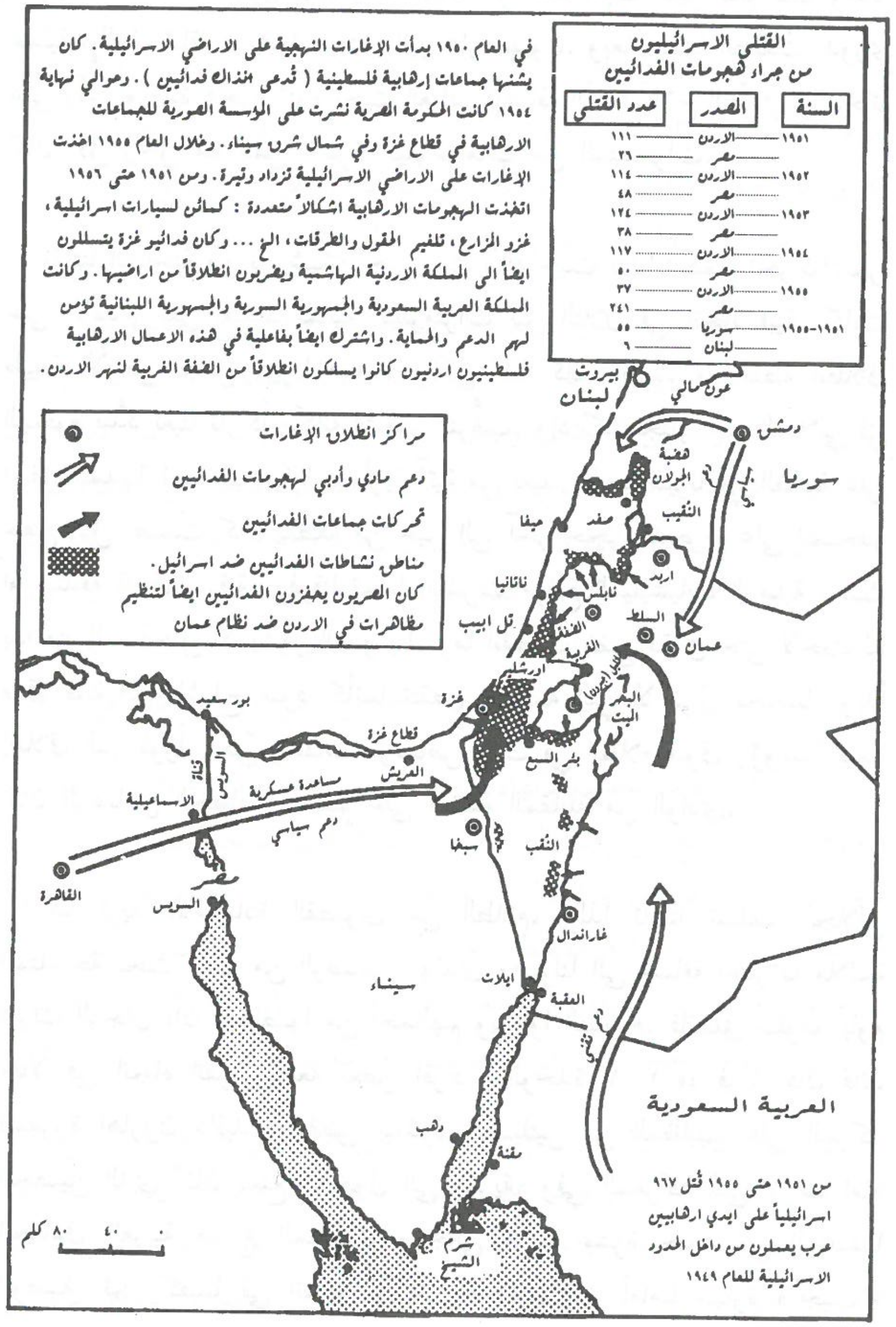

السنة	المصدر	عدد القتلى
١٩٥١	الاردن	١١١
	مصر	٢٦
١٩٥٢	الاردن	١١٤
	مصر	٤٨
١٩٥٣	الاردن	١٢٤
	مصر	٣٨
١٩٥٤	الاردن	١١٧
	مصر	٥٠
١٩٥٥	الاردن	٣٧
	مصر	٢٤١
١٩٥١-١٩٥٥	سوريا	٥٥
	لبنان	٦

يهيئون عتادهم كنت جالساً وظهري الى جذع صنوبرة والعرق يتصبب مني مدراراً وأنا اكتب تقريري للقيادة العامة. وعندما هبط الليل تحركت وحدة عملية الإلهاء شاقة طريقها بقيادة مائير هارصهيون. وبعد ساعة انطلقتُ بدوري على رأس وحدة هجوم تنوء تحت العتاد. فإضافة الى السلاح الفردي والذخائر كان كل رجل منا ينقل عشرة كيلوغرامات من المتفجرات.

نقلتنا الشاحنة من بن شيمن حتى بيت نبّاله حيث نزلنا لنكمل تحركنا سيراً على الاقدام على امتداد ثمانية كيلومترات بين التلال في اتجاه قبية. كانت طبيعة الأرض تجعل سيرنا صعباً، ولكن كنا كلما اقتربنا من نقطة انطلاق الهجوم تبدّد تعبنا تاركاً مكانه لشعور الترقُّب. وإذ كنا نجتاز احد الجلالي في اسفل المدينة انطلقت عيارات نارية آتية من بعيد. تابعنا سيرنا في الظلمة على سفح التل بصمت كان يقطعه من حين الى آخر حجر يتدحرج على المنحدر او صدفة قندق بندقية. وفوقنا تماماً انتشرت مواقع الميليشيات الوطنية بحيث بدا من المستحيل الا يشعر العدو بنا. وما انقضت بضع دقائق حتى لاحت لنا فوق قمة التلة اشباح سود كأنما تتقصى الظلمة التي لا تزال تحجبنا. وبدأ إطلاق النار فوراً. لكنّ رشقات الرصاص مرت في الظلام فوق رؤوسنا فيما كان الرصاص الخطاط يتحطم على الضفة المقابلة من الوادي.

كنا نريد الاستفادة القصوى من الظلام، ولذا تابعنا تسلقنا الجلالي المتدرجة تحت وابل من الرصاص. ولدى وصولنا الى مسافة اعتبرتها ملائمة امرت الرجال بأن يتخلصوا من أحمالهم ويبدأوا الهجوم. فانطلق شلومو باوم حالاً في اتجاه القرية ومعه بعض افراد « الوحدة ١٠١ »، فيما كان قائد المفرزة اهارون دافيدي ينقض مباشرة بفصيلتين من المظليين على المركز الحصين الذي كان يمنع الدخول الى القرية. وفي المعركة التي دارت امام الخنادق العربية صرع المظليون ورجالي قرابة عشرة جنود من الميليشيا الوطنية. ثم ركضنا في اتجاه القرية. وفجأة برزت أمامنا سيارة « جيب »

تحمل جنديين اردنيين عند مدخل القرية. فصرعناهما برشقة سريعة فيما كانت عجلات « الجيب » وفراملها تحدث صريراً اوقف اندفاعها.

نحن الآن في قلب القرية. يسيطر على الشوارع صمت مطبق تعكره فقط موسيقى عربية صادرة من جهاز راديو لا يزال يعمل في مقهى فارغ. وجاءنا تقرير من جنود احد حواجز الطرق يفيد ان مئات القرويين يهربون امامهم على امتداد الطريق. وبدا ان قبّية قد اقفرت كلياً من سكانها.

بدأنا عند منتصف الليل تدمير البيوت الحجرية الكبيرة بالديناميت. وكان الجنود يتقدمون من اطراف القرية نحو داخلها، متنقلين من بيت الى آخر للتأكد من خلوها من السكان. وبعد البحث كانوا يثبّتون شحنات المتفجرات ويشعلون فتائلها. وفي وقت ما وجدنا صبياً صغيراً يرتعد من الخوف وقد اختبأ في زاوية أحد المنازل، فأخرجناه من البيت وجعلناه في أمان. وبعد بضع دقائق سمعنا صراخ اولاد؛ فركض شلومو نحو احد المنازل حيث كانت شحنة الديناميت قد اشعلت، ليخرج بعد عدة ثوان حاملاً بنتاً صغيرة بين ذراعيه. كان هذان الولدان الشاهدين الوحيدين على وجود حياة في القرية.

احتجنا الى عدة ساعات لإنهاء تهديم البيوت. وكنا من خلال الانفجارات وغيوم الغبار نسمع من وقت الى آخر صوت اطلاق اسلحة خفيفة صادرة عن فريق هجوم الإلهاء وراء التلال. وعندما انسحبنا أخيراً التقينا قرب الحدود ضابطاً مرسلاً من قيادة الوسط العامة لاستطلاع سير العملية. فقلت له: « نسفنا اثنين واربعين بيتاً، وترك العدو قرابة عشرة قتلى فوق ارض المعركة: رجال الميليشيا المتمترسين في الخنادق مع جنديَي « الجيب ».

في مخيم ستاف ودعت رجالي وعدت الى منزلي في اورشليم لارتاح. وما مرت ساعات حتى استيقظت على اخبار الاذاعة الاردنية حول العملية. فقد اكد المذيع مقتل تسعة وستين شخصاً جلهم من المدنيين، وخصوصاً من النساء والأولاد. لم اصدق اذني! ... وبعد ان استعدت بالذاكرة كلاً من

مراحل العملية بدأت أعي ما حدث بلا ريب: خلال سنوات لم تترافق ردود فعلنا التأديبية الا بتدمير بعض البيوت المنعزلة البعيدة عن القرى، وهذا في افضل الحالات. فاتفق ان بعض العائلات العربية، لظنها ان الأمور ستسير وفق ما سارت عليه في الماضي، اختارت ان تبقى في مساكنها بدلاً من الهرب مع الآخرين. وهذه البيوت الحجرية الكبيرة، التي يقطنها عادة ثلاثة اجيال من عائلة واحدة، كان في وسعها أن تخبئ بعض الأشخاص في الأقبية والغرف الخلفية، وهؤلاء لم يكشفوا عن حضورهم عندما دخل المظليون وصرخوا ينذرونهم. وهكذا لم تستطع كل احتياطاتنا تجنب هذه النتيجة المأسوية.

اذا كانت الغارة على قبيه، انتهت بمأساة الا انها شكلت مفصلاً في العمل ضد الارهاب. لقد جاءت لتبرهن ان الجيش الاسرائيلي، بعد كثير من الاخفاقات، كان قادراً من جديد على ضرب العدو اينما كان، حتى وراء حدود بلاده. وبالنسبة الى الجيش كان معنى هذه العملية كبيراً جداً؛ فلقد استعاد ثقته المفقودة بعد سنتين من الفشل المتكرر والمثبط.

اهم من ذلك : وجد الشعب الاسرائيلي، بفضل قبيّه، شعوراً مطمئناً بالحماية من القتلة العرب الذين ظلوا حتى ١٩٥٣ يتوصلون الى التسلل الى كل مكان في البلاد تقريباً. والواقع انه يجب التذكير بأن أعمال الارهاب لم تكن تهدف فقط القرى والكيبوتزات الحدودية بل خربت ايضاً في اللد وفتاح تيكفا وحتى في ضواحي تل أبيب. فالبلاد كانت معرضة، لقلة مساحتها، لضرباتهم في كل مكان. وبعد قبيّه ازدادت القناعة بأن الارهابيين سيعدون للعشرة قبل أن يضربوا. فهم باتوا يعرفون ان كل هجوم سيكلفهم غالياً. كذلك شكلت قبيّه انذاراً للحكومتين الاردنية والمصرية، مفاده أن ليس الأرض الاسرائيلية وحدها قابلة للتجريح؛ وكانت كذلك رسالة موجهة الى المسؤولين عن الحكومتين محذرة اياهم من أنهم سيُعتبرون من الآن فصاعداً مسؤولين عن الأعمال الاجرامية التي يقدمون لها دعمهم النشيط ورعايتهم.

بعد انقضاء عدة ايام على عملية قبيّه دعيت الى لقاء بن غوريون في مكتبه

في اورشليم. كان اول لقاء لي معه فبدا علي الانفعال. جلس وراء مكتبه وسألني في البدء عن تفاصيل العملية نفسها. ثم اراد ان يعرف من اكون وما هي تماماً « الوحدة ١٠١ ». وسألني : « من اين اتت ؟ — من كفرملال ». كان اثنان من اصدقائه — ووهلمن وليفي، من مسقط رأسه بلونسك — يقطنان هذه القرية. هل اعرفهما ؟ وماذا عن شباب « الوحدة ١٠١ » الآخرين ؟ من أين جاؤوا. وهل من خطر في ان تتفلت وحدة كهذه من أي رقابة ؟ قلت له من كان اولئك الرجال، من اي كيبوتز واي قرية قد جاؤوا. وأضفت انهم يجسدون افضل ما نملك في البلاد وأنه من المستحيل أن يقوموا بأي عمل من شأنه الاضرار بهذه البلاد. وحينئذ قال لي بن غوريون : « ما سيقال في العالم بشأن قبيّه قلما يهم. فالمهم هو كيف ستفهم في هذه المنطقة من العالم، منطقتنا. أعتقد أننا بفضلها سنتمكن من الاستمرار في العيش هنا ». كنت أعرف أن بن غوريون كان يفكر فعلاً في كل تلك السنوات التي كنا خلالها عاجزين امام ارهاب كلي القدرة، فيما الناس في البلدان الاخرى كانوا يهزون رؤوسهم ويتمتمون تعاطفاً مع الأبرياء. وها قد اصبحنا نملك للمرة الأولى جواباً فعالاً : وحدة ستضطر كل الذين كانوا يرغبون في هلاكنا الى ارهاف السمع واعمال الفكر قبل اقتراف جرائمهم. ولم يكن من مجال لأحد أن يزايد علي في موافقتي على أفكار بن غوريون وكلماته.

« فداء عن كل حياة يهودية »

كان موشيه دايان قد عارض في البدء انشاء الـ ١٠١ قائلاً : « ليس الجيش في حاجة إلى وحدات خاصة لأن على كل وحدة ان تكون قادرة على مهمات كهذه ». ولم يكن هذا رأيي. فعلى الصعيد العملي وحدها وحدة منتخبة ومجهزة خصيصاً لهذه الغاية كانت تستطيع ان تقود الى النجاح أعمال الانتقام والردع التي كان الارهاب العربي يفرضها علينا. غير أني كنت مقتنعاً ايضاً، بصرف النظر عن هذا الاعتبار، انها تشكل مثلاً يُحتذى وتنشّط روح المنافسة بين اقسام الجيش.

في نهاية كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٣ عين دايان رئيساً للأركان. وفي تلك الأثناء كان قد غيّر رأيه : لم يعد يكتفي بتقدير الوحدة ١٠١ حق قدرها بل هو يريد الآن جعلها نموذجاً للجيش النظامي. فقرر فوراً دمج الـ ١٠١ في كتيبة مظليين.

في الواقع كان المظليون يؤلفون في ذلك الوقت نوعاً من النخبة في الجيش، نظرياً على الأقل. كانت اللحمة شبه كاملة بينهم وكانوا يولون انواع الرياضة البدنية اهتماماً خاصاً. فالقفز بالمظلات يتناوب مع التمارين الرياضية. وكانت فرقهم الرياضية تحرز في انتظام عدداً ضخماً من الكؤوس والجوائز والميداليات في المنافسات الرياضية. وكانوا يشربون سوية ويتنافسون سوية في المسابقات نفسها، كما اشتهروا بين افراد الجيش بحيويتهم الجياشة المفرطة.

ولسوء الحظ فان هذه المعنويات الحديدية وغيرها من الصفات لم تُترجم أبداً عملياً في ميدان المعركة. فعلى رغم ميلهم الى التبجح والتحدي لم تكن أدائهم الميداني أفضل من أداء فرق الجيش الأخرى.

كان دايان مستاء جداً من هذا الوضع، وبمناسبة دمج الوحدتين قرر تسليمي القيادة. ولقد اشتهر عنه افتقاده الى الذوق؛ ولذا لم تُدهش احداً الطريقةُ الفظة التي استخدمها مع قائد المظليين، الجندي الشجاع يهودا هاراري الذي كان سجله في الخدمة مشرفاً جداً. كان هاراري يعتبر ان دمج الوحدة ١٠١ في وحدته ــ الاكثر اهمية من حيث العدد ــ يؤهله لتسلم الأمرة، ولكن عندما استدعاه دايان الى مكتبه سأله بلهجة حيادية : « كم مضى لك من الوقت على رأس المظليين ؟ » اجابه : « ثلاث سنوات ». قال دايان : « حسناً، هذا يكفي. اني أنقل القيادة الى اريك ». فكاد هاراري يصاب بالسكتة الدماغية.

في هذه الظروف كان من السهل تصور نتائج تعييني : فعندما دخلت مقر القيادة العامة للمظليين لأتسلم قيادتها كانت ريح التمرد تهب بين الصفوف. وفي اثناء الاحتفال الرسمي للتسلُّم والتسليم في ساحة الثكنة قابلني المظليون بالهزء والصفير. وفي خطاب الوداع شكر هاراري في بادئ الأمر الضباط الذين كانوا قد قرروا أن يتبعوه وطلب منهم أن يتقدموا خطوة الى الامام. كانوا عديدين ! ...

فكرت : اهم شيء هو المحافظة على برودة اعصابي. ولكن لسبب غامض اصبت بما يشبه الدوار الذي انساني اوامر العرض العسكري : وبدلاً من تصريح كنت اريده واضحاً ومصاغاً بلهجة آمرة ابتلعت صوتي. لم أعشق في حياتي الساحات العسكرية واحتفالاتها ... لكن الهزء والصفير لم يسوِّيا الأمر. ومع ذلك سرعان ما استعدت رباطة جأشي وادرت الاستعراض الختامي. وفوراً بعد ذلك بدلت السرايا خارج المخيم تجنباً لكل اتصال غير مفيد في ما بينها، وأمرت بنقل « تلاميذ » هاراري الى وحدات اخرى.

بعد انسحاب ضباط عديدين ونقل الآخرين لم تعد الكتيبة تحوي الا نصف ضباطها، ومنهم اهارون دافيدي الذي غدا الآن ساعدي الأيمن في القيادة العامة. غير أن قرابة نصف الافراد التقنيين المتخصصين — لفّافي المظلات وامناء المخازن — اختاروا البقاء، وهذا حدث لا يقل اهمية عن الأول. وهكذا كان في تصرفي نواة صلبة مليئة بالارادة الطيبة لكتيبة سأعيد انشاءَها. يضاف الى ذلك امتلاكي « سلاحاً سرياً » : رجال الوحدة ١٠١، وهم قرابة اربعين تبعوني واندمجوا بالمظليين.

لم يكن بالأمر اليسير اقناعهم. فمعظم رجال الوحدة ١٠١ كانوا شديدي البعد عن الطراز « العسكري » للجيش النظامي فلم ترقهم فكرة دمجهم في كتيبة المظليين، اذ رأوا فيها خسارة نفوذهم وتلك الاخوة العجيبة التي كانت تجمعهم كأعضاء اسرة واحدة. وعلى رغم تحفظاتهم استطعت اخيراً أن أقنعهم باتّباعي. ولقد كانوا مفيدين جداً للكتيبة التي اغنوها بقدراتهم الجسدية وعزمهم ومهارتهم في المعارك الليلية، وكلها صفات اكتسبوها خلال اشهر تدريب طويلة.

منذ صبيحة التسلُّم والتسليم اخذت بتدريب المظليين وفق الاساليب نفسها التي سبق أن أعطت ثمارها في الوحدة ١٠١. بدأت بالضباط مكلفاً اياهم مهمات استطلاع ما وراء الحدود : مسيرات طويلة من شأنها أن تبلو عزمهم وقوة احتمالهم. كانوا يذهبون اجمالاً فرقاً من خمسة رجال : اثنين في الوحدة ١٠١ وثلاثة مظليين. في البداية كان كثير من هؤلاء ينوءون تحت الجهد. وكنت قد انشأت نظاماً من التقارير وفرضت على كل منهم وصفاً لمهمته وتحليل نقاط الضعف والفجوات، ولكن نقاط القوة ايضاً. وعند نهاية الشهر الأول كان قد اختفى جو العداء تجاهي. فلقد بدأ المظليون يفهمون الأهداف التي كنا نتقصّدها، ويعون ايضاً التحسن الملحوظ في اداءاتهم البدنية، كما يفخرون بانتمائهم الى وحدة فريدة من نوعها. وسرعان ما غدا صعباً التمييز بينهم وبين اعضاء الوحدة ١٠١.

لقد شكلت هذه الوحدة، بطريقة ما، حقل اختبار اطبق اليوم نتائجه على نطاق اوسع. وكنت الاحق شخصياً كلا من العمليات، ليس فقط حتى اتحكم بتنفيذها بل ايضاً لاستخلاص نتائجها، واجهد لإفهام رجالي ان كل شيء قد يكون مصدر معلومات مستمر لكل واحد منا.

كانت التقارير التي تلي هذه العمليات الادوات الأكثر فعالية في هذا التدريب. ففي نهاية كل حملة او كل دورة استطلاع كنت اجمع الضباط والجنود، من آخِر غرّ الى الاقدم عهداً في الجندية، لاجراء تحليل مشترك. وعادة يكون المجتمعون منهكي القوى، ولذا كنا نمنحهم ساعة او اثنتين للاستراحة. فيبدأ القادة بجمع الجنود وادور انا من فريق الى آخر. ثم استدعي القادة لجلسة أخرى اديرها بنفسي. فكان كل من المشتركين يشرح الأوامر التي تلقّاها، والطريقة التي نفّذها بها، والمشاكل التي تعرض لها وكيف حلها. وكنت اشدّد على الضرورة المطلقة للصراحة الكاملة في هذه التقارير. فلكل منا نقاط ضعف ونقاط قوة، وكنت اريد معرفة هذه وتلك بحذافيرها. وكنت اسعى خصوصاً لأفهم كلا من العوامل التي تحدد السلوك على أرض المعركة — سلوكنا وسلوك العدو. لذا كنت افرض ليس الصدق فحسب بل الحقيقة بكل تفاصيلها ومن كل وجوهها.

بفضل هذا النظام كنا نستطيع من عملية الى اخرى ان نعمد الى نوع من التحليل المتواصل لخبرة الجنود والى استخلاص النتائج منه. وكان سلوك الرجال يدرس من كل زواياه، مع انتباه خاص لحالات التأزُّم : ما هي اللحظات الحرجة في اختبار الجندي وفي اختبار القائد وفي العلاقات بينهما ؟ وكيف تحل المشاكل الناجمة عن هذه الازمات ؟

نظمت لائحة بهذه الاطوار الحرجة وجهزت تمريناً خاصاً لمجابهتها. ففي الكمائن، مثلاً، ما افضل تكتيك يجب اعتماده ؟ لا ازال اذكر غارة ليلية تحت قيادتي في السامرة، عام ١٩٤٨. في طريق العودة كنا نتقدم على طول واد قليل العمق الى أطراف الجسم كنت أعلم أن قوات عراقية تحرسه. ولكي أتجنب

هذه القوات قررت ان اخرج من الوادي وان ادور حولهم. وبعد ان تسلقت حافة الوادي واطللت على السهل شعرت بدمي يتجمد في عروقي : امامي تماماً مئات الجنود العراقيين ! كنت مشلولاً تماماً، عاجزاً عن تحريك اي عضل. وإذ سبرت غور الظلمة على نحو افضل فهمت فجأة ان « العراقيين » لم يكونوا غير اغمار شعير محصودة منذ وقت قليل.

هذا الشلل المفاجئ ظل محفوراً في ذاكرتي، ربما بسبب سخافة الوضع. ولكن اتفق لي مرة او اثنتين ان اقع في مكامن قاتلة. لذا عرفت الذعر الذي يستولي عليك عندما تفاجأ بالعدو، والفوضى الفكرية التي تنتابك فيما الوضع يتطلب قراراً سريعاً وذراعاك وقدماك ترفض ان تطيعك. هذا هو بالضبط ما يحسه المرء عند وقوعه في كمين. تتقدم، وأنت على آخر رمق، يقظتك العادية تعوزك. لكن العدو لك بالمرصاد؛ يراقبك واصبعه على الزناد. هو مثل الصياد الذي ينتظر ان تقع فريسته في الفخ. وكل الحظوظ الى جانبه. وفجأة ينقض عليك ويضرب بكل قواه.

ان آخر شيء يتوقعه الصياد في وضع كهذا هو أنه فيما يوشك نابض الفخ بالاطباق على الضحية تنقض هذه فجأة عليه لتنشب اظفارها فيه، أي أن تنقلب الادوار رأساً على عقب، فيغدو الصياد فريسة ! وبعد ان درسنا عدة حالات كمائن توصلنا الى نتيجة مفادها أن أفضل رد هو الهجوم الفوري. ولكن لا يتوفر دائماً رد الفعل هذا للقائد لانه يفقد بوصلته تحت تأثير المفاجأة. لذا يتعين علينا أن نقرر عنه : فندربه المدة الكافية لكي يحصل على رد الفعل الهجومي في وضع كهذا.

وهكذا نظمت لائحة اخرى بالحالات التي تشل التفكير. ومع أنه عرف عنا قدرتنا على التجديد والارتجال فقد عمدنا الى اعداد كتيب يصف الحالات التي يترك فيها التفكير مكانه لرد الفعل الارتكاسي. وفي ما بعد أُدخلتْ تمارين ملائمة على كتيبات تمرين المظليين.

كان النقد الذاتي المستمر يشكل احد مبادئ هذه التمارين فعلى الصعيد العملياتي كنا نمارس كثيراً معارك بالسلاح الابيض. والجنود العرب، مثل كل جنود العالم، لهم نقاط قوتهم ونقاط ضعفهم؛ واجمالاً أنا لم أغمطهم ابداً حقهم. ففي بعض الظروف هم محاربون ممتازون. رماة جيدون ومدفعيون مهرة. كما يمتازون بكل ما له علاقة بالتحصينات والالغام. وهم اذا كانوا جاهزين ومجهزين جيداً يحاربون كالاسود في الميدان، صامدين حتى آخر رجل. كما برهنوا عن ذلك مراراً. ولكن اذا اخذوا على حين غرة يفقدون وسائلهم ولا يحبون العراك بالسلاح الأبيض.

للاستفادة من هذا النقص في الدرع العربي تعلم المظليون تجنب المعركة من بعد لانها سرعان ما تتحول الى معركة مواقع تتلاءم مع مهارة العرب في الرماية ومع تكتيكهم الدفاعي. وهم استوعبوا في سرعة منافع السلاح الأبيض، وكذلك الطرائق الآيلة الى خفض معنويات العدو واستثمار خوفه.

كان هذا التدريب قد اصبح نوعاً من التنشئة المتواصلة على ارتفاع دوريات الاستطلاع والعمليات فيما وراء الحدود. وكان هدفي تعويد المظليين على رد فعل ارتكاسي على كل المستويات. اذ ذاك يغدو أخيراً في حوزة ادارة البلاد السياسية اداة فعالة ضد الارهاب. صحيح ان السبيل السياسي أو الدبلوماسي هو المفضل دائماً، لكنه اذا ظل بلا نتيجة وبقي الجيش الملجأ الأخير فإن على حكامنا أن يعرفوا ان عليهم اللجوء الى تلك الاداة في كل لحظة وبكل حظوظ النجاح.

بالنسبة الي، اعطى دايان تلخيصاً جيداً عن الوضع في خطابه الذي القاه بعد سنة من دمج الوحدة ١٠١ مع المظليين. قال : « نحن لا نستطيع ان نضمن كل مجرى مياه ضد التخريب وكل شجرة ضد القطع. لذلك لا نستطيع منع جريمة قتل عمال في بساتين البرتقال وذبح عائلات في اثناء نومها. لكننا نستطيع ويجب أن نجعل الفاعلين يدفعون غالياً جداً ثمن دمنا ».

غير أن المشكلة، وهي أكثر جسامة، لم تكن تنحصر في مجرد مشكلة انتقام. ففي بداية الخمسينات كان الارهاب الفلسطيني اكثر من ظاهرة مزعجة ــ كان اداة للسياسة العربية. كان الفدائيون آنذاك يقادون من بعد من دوائر الاستخبارات المصرية والاردنية العاملة بالتنسيق في ما بينها. فكانوا يجتازون حدود قطاع غزة أو أراضي تحت السيطرة الاردنية، فيرتكبون اعمالهم الشريرة ويعودون الى قواعدهم. ويتفق احياناً أن يتسللوا ليلاً الى الاراضي الاسرائيلية ليختبئوا طول النهار. وفي بداية المساء ينفذون « مهمتهم » ويعودون الى نقطة انطلاقهم. وبهذه الطريقة كانوا يستطيعون ان يعيثوا فساداً من على بعد ثلاثين كيلومتراً على الاقل من الحدود. وبعض الوحدات الفدائية كانت تذهب الى ابعد من ذلك : تجتاز البلاد، من غزة الى الاردن، لتعود بعد ذلك الى قاعدتها بعد زرعها الموت والرعب. لم يكن هدفهم فقط القتل والهدم بل خفض معنويات الشعب بانتهاجهم زرع الفوضى في طول البلاد وعرضها. وسرعان ما اظهر هذا التكتيك فاعليته : اخذت القرى الحدودية تفرغ من سكانها بشكل ظاهر ووضعت حماية للنوافذ ضد القنابل اليدوية؛ وللتوجه من تل ابيب الى اورشليم كان ينبغي غالباً انتظار تكوين رتل سيارات يبرر حماية عسكرية.

كانت النجاحات المتكررة للارهابيين هي التي دفعتني آنذاك الى قبول امرة الوحدة ١٠١. كان يتعين ايجاد حل للمشكلة وكنت مقتنعاً اننا قادرون على ذلك. لم أكن استطيع تقبُّل عجزنا عن مجابهة الارهابيين، واقل من ذلك ايضاً الرضى بهذه القطائع كأمر محتوم و « التعايش » معها بطريقة ما.

مع الوحدة ١٠١، وفي ما بعد مع كتيبة المظليين، كان لديّ فريق من الجند يستشعرون هذه الأمور مثلي، ومثلي ايضاً مستعدون لكل شيء من أجل وضع حد للرعب. ومع ان الجيش الاسرائيلي كوَّن منذ نشأته وحدات منتخَبة، الا ان أياً منها لم يُظهر، في رأيي، الحماسَ والروح القتالية اللذين كانا يعتملان في نفوس رجال الوحدة ١٠١ ثم كتيبة المظليين. هؤلاء كانوا يعون بقوة

دعوتهم القائمة على اعتماد سياسة رد الصاع صاعين بسرعة وفاعلية حتى أنهم لم يكونوا في حاجة لسماع كلمات السر تطلقها مصالح الحشد عبر الاذاعة، من مثل « كل سكان رامات غان الذي عضتهم امس كلاب مدعوون الى الحضور الى مستوصفات حيهم » او ما يشبهها من صيغ الاستدعاء. فالمظليون المجازون لم يكونوا ينتظرون هذا النداء. فحالما يعلمون من الصحافة أو الاذاعة ان يهوديا قتل بأيدي الارهابيين الفلسطينيين كانوا يعودون فوراً الى المخيم، موقنين بقرب حدوث انتقام.

وغالباً ما تكون توقعاتهم في محلها. فالتسويف ليس من شيمتي، لا سيما عند تكرار الفظائع. فما أن يعلن عن اقل اعتداء حتى اهتف الى رئيس عمليات هيئة الأركان أو الى دايان نفسه لاقترح رداً انتقامياً. وكانت تعابير اقتراحي تتبع عادة هذا النمط : « اسمع، لقد أعددنا خططاً عملياتية ضد بعض الاهداف. وقد انجزنا عمل التعرُّف الميداني، وكل شيء على اتم الاستعداد. والوحدات الملائمة قد تلقت تعليماتها. هل استطيع مهاجمة احد هذه الأهداف ؟ حالاً ؟ هذه الليلة نفسها ؟ اذا نعم، اي هدف اهاجم ؟ ».

كانت هذه الطريقة تلتقي تماماً مع سياسة الانتقام والردع المعتمدة سابقاً من قبل مجلس الوزراء بعد افلاس كل الوسائل السلمية لحل مشكلة غدت مسألة حياة أو موت. فاليوم وللمرة الأولى يأتي واحد ليقول لهم : « هوذا الحل ! » وكانوا لا يزالون يترددون ويتساءلون عن المخاطر وعن عدد الضحايا، ويخشون المضاعفات الدولية. ولكن لم يكن أمامهم خيار؛ وعندما فهموا أن هذه العمليات تدخل في نطاق الممكن لم يُخفوا ارتياحهم واستعادوا املهم.

وقد مورس على الصعيدين العسكري والسياسي نفوذ قوة الردع المضادة للارهاب هذه، أي كتيبة المظليين. وهذا ما كان بن غوريون قد فهمه افضل من أي كان، ومن أجل ذلك استدعاني بعد عملية قبيّه ليقول لي : إن هذه الإغارة ستسمح لنا بـ « متابعة العيش هنا ».

اذا كانت عملية قبيه قد شكلت حدثاً مأسوياً فإنها رسمت ايضاً منعطفاً. فلكي نتجنب مس المدنيين، كما حدث في قبيه، اكتفينا بعدها بأهداف محض عسكرية، على رغم أن الارهابيين كانوا قد انشأوا قواعدهم في الدساكر والقرى العربية، متخذين من سكانها درعاً لهم. وهذا الخيار التحديدي كان علامة في سياسة الردع: فالعمل المباشر ضد الارهاب صار يتجه الآن ضد الحكومات المعتبرة مسؤولة عن التعديات لأنها توفر لمرتكبها قواعد عملياتية على اراضيها.

ولأن الأهداف غدت عسكرية حصراً صارت الغارات اكثر تعقيداً وبالتالي اكثر خطراً. وارهقت القيادة كاهلي اكثر من اي وقت مضى، خصوصاً في اثناء إعداد العملية. ففي هذه المرحلة من الخطة كنت أخلو بنفسي وحيداً في مكتبي. إنها ساعات صعبة تغادرك فيها الثقة بالنفس فتتساءل مائة مرة هل لديك حقا كل المعلومات الضرورية وتتردد أمام الخيار بين أمرين ممكنين. أيهما أفضل ؟ كم رجلاً يلزمنا ؟ كيف نهاجم ؟ أمن الخلف أو الجنب أو الجبهة ؟ واي من ضباطي — وكلهم فاقدو الصبر شوقاً الى الضرب — يتمتع بالصفات المطلوبة لقيادة هذه العملية ؟ ومن هو الأكثر ملائمة لتأمين قوة الدعم ؟ ومَن لن يشترك بتاتاً في العملية ؟ ساعات ضعف، اذاً، اخشى إن اشركت فيها مساعدي أن ازعزع ثقتهم. لذلك كنت أحتفظ لنفسي بترددي وشكوكي.

حالما ارسم الخطوط العريضة لخطتي كنت أدعو ضباط القيادة العامة والاستخبارات والعمليات والمدفعية والمعتمدية العسكرية وأفراد الاتصال والاطباء والهيئات المتخصصة الأخرى. وبعد عرض للفكرة العامة والخطوط الكبرى للخطة كنت اطلب اليهم ان يكملوها باعطائها المحتوى الذي يجعلها عملياتية. بعد ذلك كنا نلتقي في اجتماع اول للتشاور بين الضباط وقادة الوحدات المشتركة في العملية ونوابهم. في هذه المرحلة اشرح المهمة واعطي كلا منهم مهمته الخاصة. ثم يذهب كل ضابط لإعداد خطة الجزء من

العملية المسؤول عنها. وكان كل الفن يكمن في ايجاد الحل الوسط بين توجيهي ومبادرتهم. ولبلوغ ذلك كنت اتجول بين الفرق المنشغلة باعداد خططها؛ اصغي واسرِّب اقتراحاتي. لم أكن أريد قطعاً التدخل مباشرة في تخطيطهم، ولكني كنت أتمسك ايضاً بوضع خبرتي في تصرفهم لكي لا اضطر الى نقدهم لاحقاً بعدما يرسمون تكتيكهم. وعندما كان الضباط ينتهون من عملهم كنت استدعيهم لمجلس عملياتي ثانٍ يصف في اثنائها كل منهم بدقة مهمة وحدته وجدوله الزمني. وكانت هذه الشروحات تعطينا نظرة شاملة واضحة عن العملية ومكوِّناتها، ما كان يسمح لكل المشتركين فيها ان يلاحقوا تتابع مختلف اجزائها وان يعرف كل منهم ما عليه ان ينتظر من الآخرين. واهم من ذلك ايضاً ان كل ضابط كان خلال عرضه يتعهد حيال الآخرين. فأنا أعلم ان الانسان عندما يلتزم أمام زملائه معلناً بصريح العبارة ما يعتزم فعله يكون فعله نوعاً من الطقس الديني يولِّد نتيجة قوية على الصعيد الشخصي. فهو يقوم بما يشبه الوعد وسيفعل المستحيل ليفي به.

عند نهاية هذه السيرورة وبعد اكمال كل الاستعدادات ارقد على سرير واحاول ان اغفو قليلاً. لكنَّ النعاس يتحاشاني وقد هزمته آلاف الافكار المتصارعة في رأسي : هلا نسيت شيئاً ؟ ألم أهمل احد التفاصيل ؟ كانت كل مرحلة تبدو لي معرضة لاعظم الاخطار، تخبئ وراءها كارثة. فأدور واعود الى وضعي الأول في سريري العسكري، مستعيداً مراحل العملية مرات ومرات، تتآكلني طائفة من الشكوك.

ولكن عندما تستلم الوحدات التعليمات الأخيرة من قادتها اقف على شرفة القيادة العامة اراقب الاستعدادات التي تسبق الرحيل. فالجنود رائحون غادون يتفحصون حالة اسلحتهم وعتادهم. وها هم يحملون كل شيء في الشاحنات أو يتجادلون بعضهم مع بعض أو مع القادة. والمعسكر كله يطن كخلية النحل حيث كل نحلة تسعى الى مهمتها. فكل يعرف تماماً ما عليه أن يعمل وكيف يعمل؛ فلقد درب على ذلك طوال شهور. واستطيع أن اقرأ العزم في العيون

فيغمرني في كل مرة شعور بالثقة. انها ظاهرة اتحاد وثيق اتغذى خلالها من ثقة ضباطي وجنودي وهم بدورهم ينهلون من ثقتي بنفسي وبهم، كما المد يستفيد من الجزر وبالعكس. فالقائد الحقيقي يجب أن يتمتع بقوة إلهام لرجاله، غير أني أعرف بالخبرة ان الرجال ايضاً يلهمون بدورهم قائدهم.

اخيراً تحين ساعة صعودنا الى الشاحنات التي تقودنا الى اماكن التجمع، حيث تتشكل للسير نحو الهدف هناك ايضاً تعود الشكوك الى مهاجمتي. السلاح الفردي ثقيل والعدة تحز الكتفين. وفي طراوة المساء احس نَفَسي يتبخّر. واتساءل وأنا أمشي لماذا اقترحت هذه الخطة بالذات وهل الخطة الفلانية الأخرى ليس اكثر أماناً.

لقد خبرت كل هذه الأطوار خلال عمليات عديدة. كانت تتشابه جميعها وفي كل مرة كنت أترجح بين الشك واليقين وكان علي ان اخفي شكوكي وترددي عن قادة الوحدات ورجالهم. لذا كنت أشعر بالراحة تقريباً عندما نصل اخيراً الى المكان المقصود ونقطع الاسلاك الشائكة. ففي هذه المرحلة تقرر النصيب وسبق السيف العزل وفات اوان التساؤل حول الخطة. فالمعركة مزمعة أن تقودنا في ركابها.

انطلاقاً من ١٩٥٤ نفذ المظليون تقريباً كل العمليات التي قام بها الجيش الاسرائيلي. وبطريقة او باخرى كللت كل عملية بالنجاح. وهذا ما اكسبني بنوع خاص جذب انتباه زملائي ... فلقائي الأول مع بن غوريون سرعان ما تبعته لقاءات اخرى. فبت اشعر بالراحة معه عندما كنا نعالج مشاكل مهمة أو حتى عندما تكون زيارتي اياه للمجاملة فحسب. كان يحدثني عن خدمته العسكرية في اثناء الحرب العالمية الأولى، في المفرزة اليهودية التابعة للكتيبة الملكية لقناصة الجيش البريطاني. ويوصيني بقراءة بعض الكتب، ومنها تاريخ حرب البيلوبونيز لتوسيديد. اجهل ما كان يفكر فيه بن غوريون تماماً بشأن « وقاحتي » وآرائي الراسخة، لكن المودة التي كان يكنها لي لم تكن تترك مجالاً للشك.

لم يطل بي الأمر حتى تعلمت على حسابي ان هذه المودة لم تخلُ منافعها من الضرر. ففي اللقاءات على أرفع المستويات، عندما يكون مكتبه مليئاً بالجنرالات وضباط الأركان، كان يدعوني غالباً الى الجلوس الى جواره. ومن مكاني هذا كنت ارى الجنرالات يمرون في عرض أمام « العجوز » لالقاء التحية عليه، وشعرت اكثر من مرة بالحرج من الأسئلة التي كان يطرحها غالباً على بعضهم : « من أنت ؟ »، « ماذا تفعل ؟ ». فمكانتي الممتازة كانت تتطلب مني حصافة ما، لكنّ عمري كان لا يتجاوز الست وعشرين سنة، واللياقات لم تكن تعني لي شيئاً. كنت فخوراً جداً بما أقوم به، فخوراً برجالي المظليين وبطرائق التدريب التي ابتدعتُها وبالعمليات التي قدتها — والباقي كان قليل الاهمية في نظري. ولافتقاري الى الحكمة التي تتحكم في اللباقة أثرتُ في تلك الحقبة غيرة وعداوات دام بعضها عشرات السنين.

لكن مشاكلي مع التراتبية العسكرية لم تتأتَّ فقط من الصداقة التي شرفني بها بن غوريون، بل خصوصاً من كون المظليين يختلفون عن كل الوحدات الاخرى، من تدريبهم حتى تجهيزهم الفردي. وهم يُكلَّفون الآن القيام بكل عملية عسكرية، مفضَّلين على الوحدات التي يقودها ضباط اكبر سناً وأعلى رتبة، مما يولِّد عند هؤلاء شعوراً عميقاً بالاحباط. والأخطر من ذلك أن المظليين هم تحت امرة رجل لم يدخل مدرسة الضباط وله الجرأة ان يدعي ان اساليبه يجب أن يتّبعها الجيش بكامله؛ وهذا الرجل يستطيع الدخول ساعة يشاء عند رئيس الاركان موشيه دايان، وحتى عند رئيس الوزراء بن غوريون. في اختصار، وضع من شأنه توليد المرارة والعداوة تجاهي.

لم يكن الجنرالات يترددون في ابداء شكوى مُرة امام دايان وبن غوريون كلما أثارتهم احدى مبادراتي. وبما أنني لم أكن مستعداً لإغماض العين على بعض ثغرات الجيش كانت تكثر عندهم اسباب الاستشاطة غيظاً. وعلى سبيل المثال، لم أكن أحب الطرائق الشديدة الصرامة لدروس الضباط. وكنت ارى إعادة النظر في الطرائق التعليمية التقليدية وتسديدها، وضرورة أن يدرس

الطلاب الضباط بنوع خاص الحالات الخاصة والعمليات المعاشة، الناجحة أو الفاشلة. وكنت اقول إن هذه الشروحات ستكون الوسائل التي سيستخدمها هؤلاء الطلاب لوضع خططهم الحربية على اجدى نحو ممكن. ومع أني لم اتبع شخصياً دروس الضباط فقد كنت اطالب باعطاء دروس الى الآخرين حول هذا الموضوع. وعندما كان ضباطنا المظليون يعودون من دروس كهذه كنت « اعيد تدريبهم » وفق طرائقنا. وكنا قد ركزنا إعدادَنا الخاص وجهدنا لتعميمه على وحدات الجيش الأخرى؛ حتى أننا طبعنا كتيباتنا التعليمية المختلفة عن كتيبات الاركان. ومن أجل نشر تجديداتنا كنا ندعو ضباط شتى الى المشاركة في اجتماعاتنا ونقاشاتنا. وكان جزء صغير فقط من مبادراتنا هذه تلقى قبولاً عند الاركان، لكنها كانت تبدو لي ذات أهمية كافية لتبرير استمرارنا في هذا النهج. على أن أموراً من هذا النوع ما لبثت أن ولّدت ضرباً من الصراع المستمر بين قسم من التراتبية العسكرية وبيني.

كانت طريقة التصرف هذه تولّد احياناً مشاكل على اصعدة اخرى ايضاً. في ذلك الوقت كان فنحاس لافون قد خلف بن غوريون في وزارة الدفاع، وكان مدافعاً حاراً عن العمل الوقائي. لكنه على غرار عدة وزراء آخرين كان يريد أن تبقى هذه السياسة خفية ما أمكن، لأننا لم نكن في حالة حرب فعلية. ولكن بينما كان رهان هذه العمليات يطال وجودنا نفسه فإن العالم اجمع كان ينظر اليها من زاوية مختلفة تماماً. ولذا فإن هذه الأعمال الحربية القائمة « في ايام السلم » تتطلب حيطة قصوى من جراء اسقاطاتها السياسية. وهكذا فإن لافون كان يريدها محدودة جداً. كان يقول إن على المظليين ان يجتازوا الحدود ويلقنوا العدو « درساً » ويعودوا في اسرع وقت ممكن الى قاعدتهم، من دون ضجة لا جدوى منها. ولأنه يفتقر الى اي خبرة عسكرية كان يستطيع اعطاء اوامر « دقيقة »، مثل امر « قتل خمسة الى سبعة جنود من الأعداء — ولكن ليس اكثر » ؟ وعندما نقتل منهم ثمانية أو عشرة كنت أعلم أن لَوْماً ينتظرني. في هذه الحالات، وعلى رغم ما يحمل لي من مودة، كان يستدعيني

بعد العملية، الى مكتبه او الى منزله، ويطلعني على استيائه بسبب خسارة العدو التي يعتبرها مرتفعة جداً. فكنت احاول أن أشرح له تعقيد هذا النوعم من العمليات وكيف أنها رهن بظروف عديدة ومتنوعة، وخصوصاً غير متوقعة. وقلت له يوماً أن عليه الّا يعتمد علي لإحصاء خسائر العدو في خضم المعركة، عندما تكون حياة جنودنا في خطر ويكون همّنا الوحيد تأمين سلامتهم. واذا كان لا يتقبل هذا الرأي فما عليه سوى البحث عن هدف آخر او العدول عن اي عمل. وهكذا كنت اجدني في انتظام في مكتب وزير الدفاع، مناقشاً بحمية العلاقات بين السياسة وتطبيقها، سياسته هو وتطبيقي أنا.

شكل الهجوم على مقر القيادة العامة للجيش المصري في قطاع غزة، في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٥، احدى اهم العمليات التي قام بها المظليون والتي ستصبح، كما سيتبين في ما بعد، خط تقسيم المياه في شؤون الشرق الأوسط. يشكل قطاع غزة شريطاً من الأرض الصالحة للزراعة يمتد على طول شاطئ المتوسط قرابة سبعين كيلومتراً الى الجنوب من تل ابيب. في العام ١٩٤٨ غدا القطاع ملجأ لقرابة مائتي الف تجمع عدد كبير منهم في مخيمات لاجئين، وكانت حالتهم عند نهاية حرب الاستقلال مدعاة لليأس. كان معظمهم قد لبوا نداءات زعمائهم فغادروا منازلهم وهم مقتنعون انهم سيعودون اليها حالما يفنى كل اليهود. لكنهم ما لبثوا أن فهموا أنّ هذا الاحتمال لم يكن سوى امنية تقية في فم قادتهم. كذلك لم يكونوا يتوسمون اي امل في ان يتوطنوا مصر او اي بلد عربي آخر. واذا حرموا من كل شيء وسدت في وجوههم ابواب المستقبل شكلوا تربة مثلى للارهاب.

على رغم عدة عمليات ضد مواقع مصرية واردنية ظل فدائيو قطاع غزة يواصلون في العام ١٩٥٥ زرع الموت والخراب لا في الجنوب فحسب بل ايضاً في وسط البلاد. فلكل اسبوع حصته من الكمائن وجرائم القتل والتلغيم. في موشاف باطيش، مثلا، انتهت حفلة زواج بمذبحة. وقُتل راكب دراجة قرب رحوبوت. وتضاعفت وتيرة الهجومات وقساوتها. وعندما قتل فريق من

ارهابيي غزة عاملا يهوديا في بستان برتقال في جوار معهد وايزمن العلمي في رحوبوت، قررت الحكومة الضرب، على ان تهاجم وحدة من المظليين اهم قاعدة مصرية في قطاع غزة.

كانت هذه العملية اصعب ما نفذناه حتى الآن. فقطاع غزة هو في الواقع مخيم شاسع يعج بالجنود المصريين وبالفدائيين الفلسطينيين. وكان المصريون قد بنوا مجموعة مواقع فوق ذرى التلال المنتصبة على حدود القطاع الشرقية، تشرف في آن على التجمعات السكنية اليهودية في الشرق وعلى القطاع في الجهة المقابلة. كان علينا اذاً ان نتسلل بين هذه المواقع، ونؤمّن ممرًّا لانسحابنا، ونصد النجدات التي قد تتلقاها القيادة العامة من قاعدة خان يونس، على بعد خمسة وعشرين كيلومترا الى الجنوب الغربي. وفي اثناء عزلنا مخيم القيادة العامة عن باقي قطاع غزة، سيكون على الوحدات المهاجمة ان تتقدم عبر بساتين البرتقال الغضة، المسيّجة بأشجار الصبير الشائكة، قبل أن تبلغ الهدف. وكان ينبغي للهجوم أن يكون عنفه بقدر سرعته الخاطفة حتى يتاح لنا أن ننسحب حاملين ضحايانا قبل أن ينجح المدد في اختراق قوة الصد وفي قطع طريق انسحابنا نحو الحدود.

وكان هناك صعوبة اضافية هي وجود دوريات متواصلة لمراقبي الامم المتحدة في المنطقة الحدودية لاستطلاع علامات تنذر بالمشاكل. فعند أي علامة غير مألوفة ينبئون اداريي المركز في القطاع الذي يخطرون المصريين فوراً بالأمر. ثم ان مراكز مراقبة الامم المتحدة كانت آنذاك في حالة استنفار. فالمراقبون باتوا يعرفون بالخبرة أنه كلما تعرض يهودي للقتل فثمة مخاطر كبيرة بأن تشتعل المنطقة الحدودية. لذا كان يتعين علينا اخفاء تحركاتنا عن اعين المراقبين.

مساء ٢٧ كنت قد وضعت اللمسات الأخيرة على مخططي. وصبيحة اليوم التالي، وكنت اشكو زكاما مزعجاً، استدعيت الضباط الى غرفتي الخاصة وليس الى غرفة اجتماع التعليمات النهائية. بسطت على الحائط الرسوم البيانية

وشرحت اطوار العملية بصوت ابحّ موشوش. قلت لهم أننا سننطلق من الكيبوتز الحدودي كفر ازا. ولكي نخدع مراقبي الأمم المتحدة اليقظين سنظهر بمظهر جنود منطلقين في مأذونية في رفقة فتيات للمشاركة في حفلة ريفية مرحة.

بعد أن أصدرت الأوامر خرجت لمتابعة الاستعدادات الأخيرة. وكالعادة كان هذا المشهد يعطيني معنويات من حديد، اذ اشاهد الرجال يرتبون الاسلحة والذخائر في صناديق الشاحنات بدقة الساعاتي، اخفاء لها عن عين العدو، والفتيات بعضهن في زي المأذونية والاخريات بالتنانير المدنية، وكلهن متأنقات وشديدات المرح كأنهن يتهيأن حقاً لنزهة في الهواء الطلق. وعندما انتهى كل شيء انطلقت الشاحنات متباعدة حتى لا يبدو أنها تشكل رتلا. وقد جلست الفتيات في الشاحنات على نحو يلفت الانظار وهن ينشدن الاناشيد العسكرية والاغاني الغرامية، وقد وضعن أيديهن في أيدي الشبان.

بعد ساعة كانت الشاحنات تلج غابة صغيرة قرب كيبوتز غفيم الذي اخترته كمكان تجمع. هناك تناولنا وجبة الطعام التقليدية التي تسبق الساعة س، وقوامها اللحم والأرز — وحدثتهم عن العملية. شددت هذه المرة ايضاً على أهميتها وعلى الدوافع التي تفرضها وبذلت جهدي لأثير اسئلتهم حتى يستوعبوا تماماً كلا من مراحل العملية. غير أنني امتنعت، وهذا دأبي دائماً، عن مشاطرتهم ملاحظاتي حول نتائج الفشل. فهذا القلق النفسي كنت احتفظ به لنفسي فقط.

عند هبوط الظلام سرنا في طريقنا الى كفر ازا في صمت مطبق. لم يكن في خراج الكيبوتز اي سياج يدل على خط الحدود؛ فقط الثلم الأخير الذي اجتزناه دلنا على اننا اصبحنا في قطاع غزة، بين موقعين مصريين. امرت براحة لبضع دقائق. كنت استطيع قراءة الأفكار على الوجوه الفتية للجنود: « ماذا سأصنع في حال الفشل... ؟ »، « وإذا بقيت الناجي الوحيد... ؟ » شرحت لهم بصوت منخفض مختلف عناصر الحدود والأراضي التي تمتد خلفنا،

وانوار الكيبوتزات، الخ. وكنت أراهم يستعيدون هدوءَهم وثقتهم كلما ازدادت معرفتهم بميدان المعركة.

عندما عاد الرتل الى الانطلاق تفرقت وحدة الاستطلاع الى الامام بقيادة « سوبابو » رئيس السرية والمقاتل المعروف الذي لا مثيل له. فجأة مزق الصمت صراخ بالعربية، تبعه رشق رصاص. وفي ثوان معدودات استطعنا اللحاق بالكشافة وإرداء اربعة جنود مصريين كامنين، كما يبدو، لتغطية المنطقة الواقعة بين الموقعين المصريين الاقربين. ولدى اقترابي شاهدت سوبابو واقفا فوق جثث المصريين وقدمه فوق رأس أحدهم. انا لست متطيراً اجمالاً، ولكن في اللحظة نفسها خطر لي شعور غريب. فرعدت : « توقف ! دع الموتى وحالهم ! »

أوكلت الى فصيلة بقيادة موشيه ينوكاح امر تأمين طريق الانسحاب ودخلنا بساتين برتقال شديدة الكثافة. كانت خطتي اجتيازها لبلوغ الطريق الرئيسية الى غزة. فالى جانبي الطريق على بعد بضعة مئات من الامتار صوب الجنوب يقوم المخيمان العسكريان المصريان الرئيسيان، الأصغر الى اليسار، ومخيم القيادة العامة الى اليمين. كنا نستطيع مهاجمتهما من الخلف اذا استدرنا حولهما. وكان على سوبابو ورجاله أن يهجموا على مخيم القيادة العامة، فيما اناوش أنا العدو في المخيم الثاني بوحدة احتياط. في اللحظة عينها تهاجم القوة الثالثة بقيادة موتا غور (الذي رقي في ما بعد الى رئيس اركان الجيش الاسرائيلي) القوى المصرية المتمركزة في محطة السكة الحديدية في غزة، على بعد عدة مئات من الأمتار من المخيم الرئيسي، في اتجاه الغرب.

قطعنا السياج الفاصل بين بساتين البرتقال والطريق العام. كانت اشجار البرتقال والاكاسيا تبدو كأنها تقوم لملاقاتنا فيما ظلالها تغمر شريط الاسفلت المؤدي الى المخيمين. شاهدت سوبابو يمر بصمت بين الاشجار على رأس رجاله، في حركة دائرية ستقوده الى خلف هدفه. وسيتعين على موتا ان يأخذ موقعاً له بعد عدة دقائق قرب المحطة. اما أنا ورجالي فقد تقدمنا بحذر بين

بساتين البرتقال نحو احد الأبنية المقام الى جانب الطريق والذي منه علينا ان نطلق الهجوم.

جلست القرفصاء تحت احدى الأشجار وتطلعت الى ميناء ساعتي المضيء. وفجأة تفجر صمت الليل إلى آلاف الطلقات وأصوات الرشاشات اوزي: كان سوبابو ورجاله قد اطلقوا اشارة الهجوم ! في اللحظة عينها لم يكن في وسعي ان اعرف ان سوبابو اخطأ انتقاء الهدف وبدلاً من مهاجمة مخيم القيادة العامة وجد نفسه فجأة يهاجم المخيم الاصغر، لكننا علمنا بالأمر في ما بعد. على ان سوبابو ما إن تبين خطأه حتى حاول تصحيح الرماية : ركض على الطريق الرئيسية امام رجاله ليستولي على مخيم الأركان من المدخل الرئيسي. كان عمله ينم عن جرأة نادرة لكنه كان خطيراً ومتسرعاً. إذ ان المصريين استعادوا رباطة جأشهم واخذوا مواقع على بعد عدة أمتار من الطريق وردوا بنار حامية حصدت سوبابو وبعضاً من رجاله.

شاهد اوزي تراخيتنبرغ، احد ضباط سابابو المجزرة الحاصلة فقطّع الاسلاك الشائكة الحامية احدى جهات المخيم وقاد بقية رجاله الى قلب القوى المصرية. فدارت على الأرض معركة عنيفة وقصيرة بين الفريقين بالأسلحة الأوتوماتيكية. لكن المصريين، وقد اخذوا بالمفاجأة وتشتت شملهم، لم يكن لهم اي امل. فمن لم يُقتل أو يجرح منهم هربوا في بساتين البرتقال او اختبأوا في خنادقهم وقد شلهم الخوف.

فيما كان رجال سوبابو يجابهون منطقة القيادة العامة كانت وحدة الاحتياط تسد منافذ المخيم الآخر فيما الوحدة الثالثة تضاعف هجوماتها ضد محطة سكة الحديد. ولن يمضي وقت طويل قبل أن تتمكن من القول اننا حققنا اهدافنا ــ ولكن بثمن خسائر فادحة. شيئاً فشيئاً ضعف اطلاق النار، فكان علينا الآن العمل بسرعة على تدمير المباني. ثم الاهتمام بالجرحى ومغادرة المكان.

كان جنود مصريون مختبئون بين الأشجار لا يزالون يطلقون النار عندما اصدرت امر التراجع. وكنت قد قررت مبدأ صارماً : عدم ترك اي قتيل أو جريح على ارض المعركة. وفيما كان الجنود يضعون شحنات الديناميت في الابنية عملت على تجميع كل الجرحى على قارعة الطريق ثم رفعهم الى احدى الشاحنات المصرية. كنت اراقب العملية فيما المصريون يواصلون الرماية عندما شاهدت رجلاً يسرع نحونا جاراً جسماً من الرجلين. وكان رأس الجثة يتمايل على الطريق، لكنني عرفت فيه فوراً وجه سوبابو الذي لا تزال تكشيرة الموت مرتسمة فوقه. وخلال بضع ثوان عادت الى ذاكرتي صورته قبل اقل من ساعة وهو واقف ورجله فوق مصري قتله في الكمين، فهزتني قشعريرة.

اجتازت الشاحنة بضع مئات من الأمتار على الطريق المنحدرة وتوقفت امام فجوة السياج من حيث دخلنا. كلفت زمرتين حماية القطاع وقطع الطريق على ملاحقين محتملين، ثم امرت بإنزال الجرحى من الشاحنة. فتكونت فرق من اربعة رجال لرفع الجرحى والقتلى بهدوء، من دون أن يستطيعوا غالباً التمييز بينهم. ولقد اعوزتنا المحامل فاضطررنا الى الارتجال بربط قمصان بين بندقيتين. وفي بستان البرتقال على بعد قرابة مائة متر من مكان توقفنا، كان الفريق الطبي قد بدأ يقدم الاسعافات الأولى الى الجرحى ويُعدِّهم للعودة الى ما وراء الحدود. وكنت في آخر اجتماع تعليمات قد شددت صراحة على عدم استطاعتنا الاهتمام بالجرحى قبل نهاية العملية وعلى ضرورة ان يحافظ المصاب على السكينة بعد ان يُعلم احد رفاقه بأنه اصيب. لذا كان الجرحى صامتين كالأموات بين يدي الممرضين. وعندما سألت أحدهم، وهو شاب مصاب بجرح بليغ في بطنه، إن كان لا يزال حياً اجابني لاهثاً : « نعم، لكنك قلت لنا الا نصرخ ».

بعد نصف ساعة انتهى الاطباء والممرضون من عملهم. وقبل ذلك بقليل استلمنا رسالة بالراديو من داني مات، رئيس الوحدة المكلفة عرقلة طريق خان

يونس، يعلمنا فيها ان رتلا من الشاحنات المصرية المحملة جنوداً قد حاولت اختراق الحاجز في اتجاه الجنوب[١]، وان رجاله هاجموهم واوقعوا فيهم خسائر فادحة. أمرت داني بأن يبقى في مكانه الى أن نجتاز خط الحدود. وكان يراودني شعور بأن وحدات مصرية اخرى كانت تختبئ في المنطقة وأنها قد علمت بوجودنا. وبدت لي اسعافات الجرحى طويلة لا تنتهي.

عندما اصبحنا جاهزين اخيراً أعلمت قيادتنا العامة بالراديو : « نحن في طريق العودة، مثقلون جداً ». وبدأ الطابور اجتياز بساتين البرتقال، وعلى رأسه الكشافة وفي مؤخرته وحدة للتغطية. كنا عائدين بثمانية قتلى واربعة عشر جريحاً، معظمهم على محامل نظامية او مرتجلة؛ وبعضهم كان في رحلته الاخيرة على اكتاف رفاقهم.

عدنا من حيث اتينا، وبعد نصف ساعة التقينا السرية التي كنا تركناها في مكانها لتغطية انسحابنا. وفي اثناء استراحة اعلمت يانوكاح بموت سوبابو. لم يتحرك احد، وبدأ الصمت يرن على رؤوس الاشجار. استعدنا سيّرنا نحو الشرق عبر الطريق الضيق الذي يتلوى بين المواقع المصرية في اتجاه الحدود على بعد أقل من كيلومترين أمامنا. تجاوزت الرتل ومررت أمام زيفيلي أميث ويوسيلي ريغيف الحامل كل منهما جثة على كتفيه على طريقة الاطفائيين. وعندما سألتهما هل يستطيعان الصمود حتى النهاية اجاباني : « لا عليك، يا اريك، نحن بخير... » ومع أنهما تركا الجيش منذ بعض الوقت الا أنهما كانا قد الحّا للمشاركة في العملية.

فجأة لعلع رصاص رشاش ثقيل، تلاه ازيز رشيش. فانطلقت رصاصات الاوزي عند رأس الطابور. وشعرت أن دمي يتجمد في عروقي. وعلى رغم الارتباك اخذ الرجال حالاً مواقع قتالية على جنب الطريق. كانت الرماية

(١) هذا خطأ، لأن خان يونس تقع على بعد ٢٥ كلم إلى الجنوب الغربي في المعسكرين المهاجمين، والنجدات الآتية منها يجب أن تتجه إلى الشمال الشرقي — المترجم.

المصرية تكنس الآن في الظلمة الاسفلت في رشقات منتظمة. لم نكن نستطيع معرفة مكان المصريين كما أنهم هم أيضاً لم يكونوا يستطيعون رؤيتنا. واذ خففنا من نيراننا فهمنا بسرعة أن الرماية المصرية هدفها إقامة حاجز ناري يمنعنا من اجتياز الطريق : رشق سريع يليه توقف، ثم رشق ثان، الخ. بعد ان لاحظ رجالنا هذه الوتيرة اخذوا يجتازون الطريق فرقا صغيرة، فيركضون محنيي الظهور وهم يحملون المحامل او الموتى على اكتافهم. واذ تقدمت مع حرس المؤخرة انتظرت الوقت المناسب لاقفز بدوري في ارض مكشوفة، منتظراً في كل ثانية رشقاً مصرياً.

بعد برهة كنا قد تجمعنا في قعر واد صغير بعيد عن الطريق. وقد قُتل مظليان آخران عند اجتيازهما الطريق، فحمل رفاقهما جثتيهما. وكان من المستحيل في الظلمة والفوضى العامة تمييز الأموات من الأحياء، ولكن كان يبدو أننا كنا جميعنا هناك. نظرت حولي لارى الشبان منبطحين ارضاً على سفح الوادي الرملي؛ وشعرت بما يشبه موجة من الإعجاب تغمرني. فلقد اخلوا ساحة المعركة ليس فقط من الجرحى بل ايضاً من رفاقهم القتلى، مخاطرين بحياتهم تحت وابل من النار القاتلة. عددنا انفسنا عدة مرات لنتأكد من أننا لم نترك أحداً وراءنا، وعندما تأكدت من التئام الشمل امرت بالراديو وحدة الحاجز بأن تنسحب من طريق خان يونس. ثم خابرت كيبوتز كفر ازا حتى تأتي السيارات وتنتظرنا على الحدود. وكنا لا نزال نسمع خلفنا، على امتداد الطريق، طلقات نارية عندما بدأنا نسير نحو الحقول المحروثة في الجهة الاسرائيلية.

كان موشيه دايان ينتظرنا في كفر ازا. سأل بلهجة جافة : « كيف جرت الأمور ؟ » اجبته بصوت ابح أننا انجزنا مهمتنا ولكن بثمن خسائر فادحة. فثبت ناظريه في عيني قبل أن يقول بلا مبالاة : « الاحياء احياء والأموات اموات ». ثم استدار وذهب. وكانت غالي ايضاً هناك ـــ اتى بها معه اتسحاق غبلي. فعندما سمعت تقريري بالراديو فهمت تماماً معنى رسالتي عندما قلت

غزوة غزة ٢/٢٨ ـ ١٩٥٥/٣/١

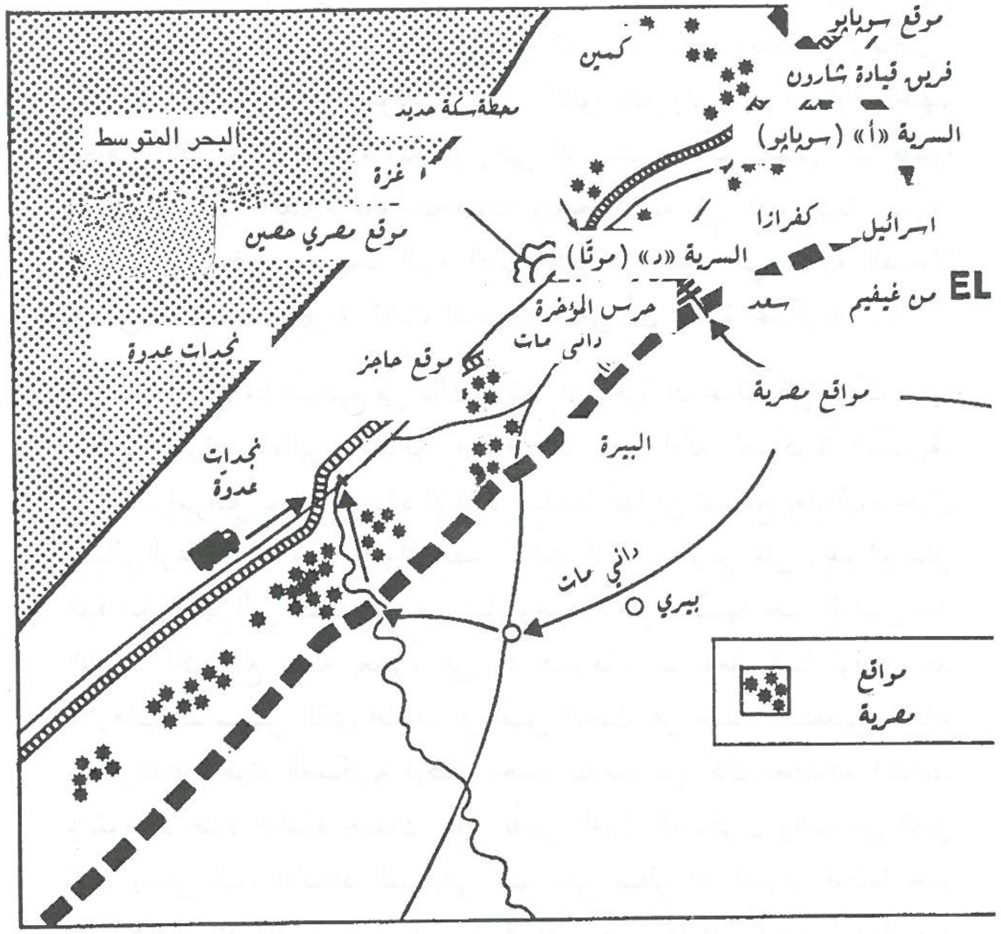

كان الفدائيون الفلسطينيون العاملون تحت الإمرة المصرية والمتمركزون في غزة يزرعون الرعب المتواصل في اسرائيل. وقد جرت غزوة (او عملية السهم الاسود) بعد سلسلة من هجومات الفدائيين المتواصلة والمؤلمة. وهي من اهم الاعمال الانتقامية التي سيكون لها إسقاطات سياسية على المدى البعيد.

اننا « مثقلون ». وبعد برهة قصيرة امضيناها سوية ذهبتُ الى المستوصف لتساعد الأطباء في علاج الجرحى.

كان الجنود جالسين مرهقين في صالة طعام الكيبوتز. والكثيرون منهم الآتون من الكيبوتزات والموشافيم تجندوا قبل ستة اشهر، وبعضهم بوساطتي. وقد كانت هذه العملية معموديتهم بالنار. كانوا يشعرون بأنهم اكملوا واجبهم تجاهي، لكنّ ما قد يستشعرونه من رضى كان يشوبه الألم العميق. لقد فقدوا قائدهم سوبابو؛ الذي كانوا يخشونه ويُعجبون به في آن، كما خسروا أصحاباً وأصدقاء. وصبيحة اليوم التالي اشتركنا جميعاً في جنازة الضحايا الثماني ــ وهذه التجربة كانت اشد ايلاماً من أي عملية عسكرية.

لم يكن اي منا يستطيع في ذلك الوقت ان يحزر ان عملية غزة سيكون لها أصداء كبيرة. فمظليونا نجحوا في ضرب قلب الآلة العسكرية المصرية. وبرهنت اسرائيل بوضوح بهذه الإغارة المذهلة أنها لن تتسامح بعد اليوم حيال أعمال الرعب ضد سكانها وان مصر كانت قابلة للتجريح على رغم الوسائل الدفاعية القوية التي كانت في حوزتها. وهذه الأمثولة فهمها جيدا الرئيس عبد الناصر. لكنه مع علمه بعجزه عن رد هجوماتنا لم يفعل شيئاً لوضع حد للارهاب الفلسطيني الذي اطلقه، بل فضل البحث عن حلفاء مستعدين للدفاع عنه ولتدعيم قوته العسكرية ليكمل حلمه بتدمير من كان يعتقدهم اعداءه. والقوة الوحيدة القادرة حينذاك على تأمين العون العسكري والسياسي الذي كان يسعى اليه، الاتحاد السوفياتي. لم يكن ينتظر الا اشارة. فحققا حلم روسيا منذ مائة عام بالدخول الى الشرق الأوسط. وها قد سنحت لها الفرصة الآن.

اصدقاء واعداء

على رغم الاقتضاب الفظ لملاحظة موشيه دايان في كفر ازا انتظر هذا رجوعنا بقلق شديد. لذا لم افاجأ ان اراه على الحدود، في قلب الليل، والقلق باد عليه ليعرف كيف تطورت الامور.

لكنني كنت أعرف أنه منشغل بمشاكل اخرى، لا سيما مشكلة مائير هار ــ صهيون. كان مائير جندياً موهوباً ربما أكثر من باقي جنود الوحدة ١٠١. وقد ترقى الى رتبة نقيب وعين على رأس وحدة كشافة ــ نخبة النخبة ــ وكانت مآثرة تروى في كل فرق الجيش.

قبل عدة اسابيع من الإغارة على غزة كان هار ــ صهيون قد عاش مأساة شخصية. فاخته الشابة شوشانة (سوسنة) وصديقها اوديد (عُضَيْد) قررا القيام برحلة الى البحر الميت انطلاقا من اورشليم، وهذا يتضمن اجتياز منطقة تحت السيطرة الاردنية. وعندما كان هار ــ صهيون مراهقاً قام بهذه المغامرة مستخفاً بخطر الوقوع بين ايدي الاردنيين او البدو الرحل. وبعد ان ودع الشابان، شوشانة واوديد، اصدقاءهما انطلقا في طريق الصحراء. ومنذ ذلك الوقت لم يشاهدا أو يسمع عنهما شيء. وذهب رجال الكيبوتزات للبحث عنهما. بعد عدة اسابيع سترد الاخبار ان الشابين قبض عليهما البدو وقتلوهما.

ولد مائير هار ــ صهيون واخته في احدى القرى الزراعية التعاونية في

سهل شارون. ومذ تطلق والداهما ارتبط الولدان بمودة متبادلة عميقة. وكانا يتقاسمان ايضاً حباً كبيراً للطبيعة وشغفاً بالرحلات الطويلة عبر المناطق الصحراوية. في العام ١٩٥٠، خلال احدى هذه الرحلات، اجتازا خطأ الحدود السورية وامضيا بعض الوقت في احد سجون دمشق. وكان مائير لا يتعزى منذ تلقيه خبر مقتل شقيقته.

واذ ارهقه الغيظ والألم قرر بعد عدة ايام الثأر لها. كانت خطته ـــ ان صح الكلام عن خطة هنا ـــ ان يترك الجيش ويتقصى اثر قتلة شوشانة. ولما علمت بمشروعه عملت المستحيل ليعدل عنه، لكنني كنت كمن يكلم اصمَّ. اجابني: « اريك، ضع جيداً في رأسك اني سأنتقم، واني لن اعرف الراحة قبل أن يبلغ الأمر مداه ».

اقلقني وضعه فحدثت عنه دايان. لكن دايان وجد نفسه امام المشكلة اعزل مثلي تماماً. وقبل اسبوع من الإغارة على غزة اثرت الموضوع امامه ثانية. وفيما كان دايان ومائير اميت (رئيس العمليات في الأركان) وانا نتجادل على قارعة الطريق في ضواحي ريحوبوت، كان هار ـــ صهيون واقفاً على حدة. ولأن دايان لم يكن يدري ما يقوله له اخذني جانباً ليبوح لي بقوله: « اريك، حاول ايضاً ان تحول مائير عن مشروعه. لكنه ان اصرَّ اريد ان تفعل كل شيء، ممكن بشرياً ليعود الينا سليماً معافى ».

لم يكن مزاج مائير يسمح له بسماع أي شيء. ومع ذلك حاولت مرة اخرى ان احدثه. كنت أعلم أن هذه القصة من شأنها أن تجلب لنا المتاعب، ناهيك عن تعريض حياة مائير واثنين أو ثلاثة من اصدقائه المصرين على الانضمام اليه. وذهبت كل جهودي سدى. ترك مائير الجيش. وقبل رحيله بقليل فعلت ما طلبه مني دايان: اعطيته اسلحة وسيارة قيادة وكل التجهيزات الضرورية، وكذلك أفضل سائق عندي يتسحاق غيبلي. هذا كل ما كنت قادراً على تقديمه من اجل سلامته.

في مساء اليوم نفسه هتف لي دايان ليعرف ما اذا كانت محاولتي الأخيرة اعطت ثمارها. قلت: « فعلت كل ما طلبته مني ... لكنه لم يتنازل حتى الى الاصغاء اليّ. لذا وفرت له كل مساعدة ضرورية.

ـــ هل لا يزال في وسعنا ان نوقفه ؟

ـــ كلا، فات الأوان ».

بعد اربع وعشرين ساعة كان مائير ورفاقه قد عادوا. فبعد ان اقتفوا اثر ستة من البدو ينتمون الى قبيلة قتلة شوشانة واوديد نفسها قتلوا خمسة منهم وتركوا السادس، وهو رجل عجوز، لكي يخبر قبيلته بما حدث.

اذا كان فعل مائير ـــ صهيون هذا يرشح اثراً من العادات العشائرية ـــ قانون الثأر الذي كان البدو يفهمونه جيداً ـــ فان مضاعفاته كانت، على العكس، تنتمي الى القرن العشرين: فالاردنيون تقدموا بشكوى رسمية الى الامم المتحدة فأوقف مائير ورفاقه وسجنوا رهن التحقيق. هذا الوجه الذي اتخذته القضية اخرج دايان من طوره. كان الخوف من التعقيدات التي ستلي ذلك. وكان دايان لا يزال يجهل اني قبل رحيل هار ـــ صهيون كنت مصمماً على « تغطيته » أمام بن غوريون، اذا اقتضى الأمر. كما كنت عازماً على تأمين افضل المحامين له.

حدث كل هذا فوراً بعد عملية غزة التي اثارت هي ايضاً شجوناً في مجلس الوزراء: فالمظليون يحتلون من جديد مقدم المسرح. وكان موشيه شاريت، رئيس الوزراء آنذاك، مغتاظاً بنوع خاص ومحتجاً بصوت عال ان بن غوريون وعده بعملية « محدودة ». ومثل كل مرة نتكبد فيها خسائر فادحة طلبني دايان لاحضر اجتماعاً سرياً مع محرري بعض الصحف لشرح السبب والكيفية.

في تلك الأثناء كانت العلاقات بين دايان وبيني شديدة التعقيد ـــ وهي

ستظل ملتبسة حتى موته. فطالما يتعلق الأمر بالشؤون العسكرية يمنحني ثقته التامة وأبادله بالمثل. لكنه كان يعرف أيضاً اني لم أكن محسوباً من انصاره الخُلَّص ولا أقدِّر خصوصاً عجزه عن تحمل مسؤوليات قراراته علناً.

كانت علاقاتنا اذاً تزداد توتراً. فاذا اتفق له مراراً ان أظهر لي مودة حقيقية فإنه كان يظهر مرات اخرى برودة ظاهرة حيالي. وهاتان الصفتان غالباً ما كانتا تتنازعان سلوكه ... فعندما كان يُشتكى امامه على عدوانيتي كان يدافع عني بقوله: « أفضل جياداً جامحة على ثيران بطيئة ». وكان شديد الوعي لاهمية المظليين في مشروعه لتجديد الجيش ولا يسمح لاحد غيري ان يدير أعمال الاقتصاص او الردع التي كنا نحن الاثنين نعتبرها حيوية. ولكن في الوقت نفسه يبدو كأنه كان يتعمد وضع الصعوبات والمثيرات في حياتي. من ذلك مثلاً انني في صيف ١٩٥٥ وجدتني مسوقاً أمام القضاء لـ « سلوك لا يليق بضابط »، وهذا في وقت يتطلب مني تطور الوضع العسكري كل اهتمامي.

كانت الشكاوى الموجهة اليَّ تتعلق بحادث تافه للغاية، يعود تاريخه لسنة مضت ومر وقتها مرور الكرام. كنت حينذاك قد ارسلت فريقاً من اربعة وعشرين مظلياً لمتابعة دروس رئيس فصيلة. وبعد عدة ايام أُعلمت ان رجالي في حاجة الى احذية جديدة نظراً لتواتر المناورات الميدانية. فأرسلتها فوراً في مركبة يقودها أمين مخزن الكتيبة ومساعده. وبعد مرور يومين وفي اثناء استطلاعي على سير الدروس قيل لي ان الأحذية لم تصل بعد. وفيما رحت اتساءل ما تراه حصل وصل أمين المخزن بعربته. سألته فاعترف بأنه امضى يومين مع صديقته قبل ان يأتي بالأحذية الآن.

استشطت غيظاً وامرته مع مساعدته ان يفرغا الاحذية ويعودا حالاً الى المعسكر. ولدى عودتي اخترت لهما قصاص السجن. لكن امين المخزن رفض الإطاعة قائلاً : « لن اتحرك من هنا، واذا وضعت في السجن بالقوة فإني سأفرّ ». فناولته صفعة تحت تأثير الغضب. وبعد دقيقة كان في السجن.

لكنه في الغد هرب مع رفيقه الى الحقول، كما وعد. وعندما اعادهما رفاقهما اليَّ ارسلتهما الى السجن مقيَّدَين. بعد ذلك بقليل اشتكى عليّ هذا الرقيب الاول الابله الى الشرطة العسكرية بدعوى ضربه وتقييده.

اخذت الدعوى مجراها الاعتيادي فلم تؤخذ على محمل الجد وكاد يهملها النسيان. الى ان مرت سنة كاملة فاعيد احياء القضية بقدرة قادر. وللحكم في الدعوى عينت خصيصاً محكمة عسكرية من ثلاثة قضاة، احدهم عقيد يدعى حاييم بارليف[١].

أخذت القضية منحى جديراً بالدعاوى الأكثر جنوناً في مجموعة أحكام القضاء السورّيالية. وفي الساعة نفسها كان المظليون متورطين في سلسلة من العمليات العسكرية، بعضها على الحدود السورية وبعضها الآخر في الجنوب ضد القوات المصرية. كنت آنذاك في حركة متواصلة، انظم الخطط واحسِّن طرائق التدريب؛ كذلك أقود بنفسي بعض الإغارات، وأزور الجرحى — في اختصار، كنت اتابع واراقب الف قضية وقضية متعلقة مباشرة بالعمليات العسكرية. وتأتيني « قضية » بهذه السخافة في حميا هذه النشاط القوي ! وفي تل ابيب بالذات ! كم من مرة وجب علي مغادرة حدود الى اخرى معرجاً على تل ابيب لاطلب تأجيل جلسة من أجل انجاح عملية جارية ! ... وغالباً ما كنت أُعطى هذا التأجيل — فاصرف نهاراً بطوله في المحكمة. وحالما يُسمح لي بالمغادرة أعود في اللحظة الأخيرة الى الكتيبة لادير إغارة ليلية معقدة بنوع خاص.

وتشاء صدفة غريبة ان تكون غرفة المحكمة الناظرة في الدعوى ضدي هنا ذاتها التي يُحاكم فيها الفدائيون الذين تأسرهم قواتنا. وكلما دخلتها كانت تطالعني على الباب عبارة « محكمة للارهابيين » ! ومن نتائج الصدفة ايضاً ان

(١) رئيس الأركان لاحقاً ثم وزير الشرطة. كما عُرف باسمه « خط بارليف » على الضفة الشرقية لقناة السويس — المترجم.

الجندي الذي أسأت معاملته ــ حسب عبارات الشكوى ــ قتل نفسه بحادث رصاصة طائشة قبل المحاكمة بقليل؛ فمات من دون ان يعرف ان قضيته ستغدو مشهورة. ولأن الشاكي لم يعد من هذا العالم اضطر المحامون الى الاكتفاء بالشهود.

كنت أحاول وأنا جالس على مقعد المتَّهَمين ان أوزع انتباهي بين تمحُّكات المداخلات والمدافعات التي لا تنتهي ومشاكل السُّوقيات (اللوجيستيكا) وتحركات الجنود التي تشغل بالي. وقد استطاعت اجزاء من هذا الجدل البيزنطي الى اختراق الجدار الذي احطت به فكري : صوت المدعي العام المتَّهِم: « هل تستطيع أن تقول للمحكمة المكان الصحيح الذي كنت فيه عند صفع قائد الكتيبة المرحوم ــ تغمده الله برحمته ؟ » او ايضاً بعض تحليقات الدفاع لدى مهاجمته صدقية الشاهد : « هل تستطيع ان تذكر أمام المحكمة اسم صديقك الذي ذهب الى السوريين ؟ ــ اعتراض، يا فضيلة القاضي. ــ الاعتراض مقبول. ــ هل تستطيع ان تقول للمحكمة كم من الوقت مضى على تعاطيك المخدرات ؟ ــ اعتراض ــ اعتراض مرفوض ». هذه المبارزات الخطابية كانت أحياناً مثيرة ولكن غالباً مملة بحيث كنت استطيع بسهولة منع دخولها الى خاطري. وفي نهاية اليوم كان سائقي يلف الطرقات لفاً ليقودني الى حيث كانت الكتيبة تخيم في العراء.

انتهت المحاكمة في نهاية تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٥ بعد ان دامت شهرين. وفي ٢٦ من الشهر نفسه كان المظليون ينصبون معسكرهم قرب بحر الجليل (بحر طبريا)، بعد مرور وقت قصير على عملية ضد السوريين. وعند المساء طلب منا ان نأسر بعض الجنود المصريين لمبادلتهم باثنين من رجالنا اسروا في اثناء هجوم مصري على قرية جديدة قرب نبتزانا في النقب. كان علينا ان نقتحم موقعاً مصرياً محصناً في سيناء وجلب اكبر عدد ممكن من الاسرى.

في اليوم نفسه قطعنا الثلاثمائة وعشرين كيلومترا التي تفصل الجليل عن حدود سيناء وانهينا الاستعدادات الاخيرة لعملية ليلية. ولكن قبل الساعة س بقليل أُعلِمنا أن المصريين اطَّلعوا على وصولنا المداهم وهم في حالة استنفار. لذا أُجِّلت العملية. من جهتي احسست ببعض الانفراج لأن الهدف على كل حال لم يكن يعني لي شيئاً. فقد كان قريباً جداً من الحدود ومن المكان الذي أُسر فيه جندينا. وفي رأيي انه كان ينبغي اختيار مكان اقل بروزاً للاستفادة من مفعول المباغتة.

المكان الذي تصورته في رأسي كان القنطيلا، المركز المصري المتقدم، وهو يقع في مكان منعزل على سفح تلة، على بعد مائة وعشرين كيلومترا الى الجنوب وعشرة كيلومترات من ارض شديدة التضاريس الى الغرب من الحدود. حددت ساعة اللقاء وارسلت المظليين الى قاعدة ميشمار النقب العسكرية. ولم يبق لي سوى ان اتوجه الى تل ابيب لاقابل عساف سيمخوني، مساعد رئيس عمليات الاركان، للحصول على موافقة تبديل الهدف.

كنت أريد معالجة موضوع آخر مع سيمخوني: امس جاء جنديان من الشرطة العسكرية الى القيادة العامة للكتيبة مع امر من المحكمة بتفتيش مكتبي. تساءلت اي نوع من الوثائق، الوثيقة الصلة بموضوع الصفعة، يأمل قضائي في ايجادها في ادراجي. وكنت آنذاك في اشد حالات التوتر من جراء العملية. وهذا الإذلال الأخير انزل عتبة احتمالي الى الصفر ــ وكنت على وشك ان انفجر.

اظهر عساف سيمخوني كل المودة التي كنت انتظرها منه. استمع الي بانتباه كلي عندما قلت له إنني في ظروف كهذه عاجز بكل بساطة عن الاتيان بأي عمل. فالضغط الذي يُمارَس علي كان قوياً جداً، والوضع شديد الخطورة. وقلت وانا اشدد على كلماتي : « اريد ان اكلم دايان حتى يطلب تأجيل الدعوى القضائية الى ما بعد العمليات العسكرية. والا فليتركوني مع

دعواي وليتولّ احد غيري قيادة العمليات ». وافقني سيمخوني الرأي، لكنه قال أنه من الافضل ان يتولى هو نفسه الأمر مع دايان.

غادرت مكتب سيمخوني بشعور من الارتياح. اجهل الى هذا اليوم تفاصيل تدخُّل سيمخوني لصالحي، لكنَّ الأكيد أنه ما عتم ان اعطى نتيجته : بعد عدة أيام أُجِّلت الجلسات؛ ثم الغيت بعد ذلك عناصر الاتهام ببساطة كلية ... واختفت الدعوى بغتة مثلما نبتت !

عرضت خططي على الأركان العامة عند الساعة التاسعة صباحاً وفي الحادية عشرة كنت قد صرت في مشمار النقب اوزع الأوامر على الضباط. وقد تسنى لهؤلاء دراسة الخرائط خلال الرحلة الى ميتزبه قرب فوهة بركان رامون، عند منتصف الطريق نحو المكان حيث علينا ان نلتقي في الساعة الثالثة بعد الظهر. اردت أن تكون كل الوحدات في الموعد في الساعة ذاتها، مع المحروقات والتجهيزات. كما طلبت ايضاً أن يرسم الضباط خططهم الخاصة من أجل تشاور ثانٍ.

في الساعة المذكورة وصلنا الى مكان اللقاء، ولكننا كنا الوحيدين. في تلك الاثناء كانت ميتزبه ــ رامون مكاناً قفراً، باستثناء سقيفتين فارغتين منتصبتين على حافة الفوّهة. (هاتان السقيفتان غدتا بعد ذلك مدينة ميتزبه ــ رامون. دُهشت لهذا التأخر، فتركت في المكان احد المظليين ممن كانوا في رفقتي حتى ينقل التعليمات للواصلين بعدنا. وتابعت سيري نحو الجنوب فاجتزت جبال النقب في اتجاه ايلات. كنت اريد الوصول مهما كلف الأمر الى نقطة انطلاق العملية قبل الظلام. ينطلق وادي باران مباشرة من الحدود ويجتاز سهل كونتيلاّ المرتفع لينتهي عند قدمي المركز المصري الحصين. كنت اعرف طبيعة الأرض، لكنني لم اعد اليها منذ زمن طويل وكنت اريد التأكد من قدرتي على التوجه فيها.

أخيراً وصل الطابور عند الساعة السادسة مساء الى مكان التجمع، وهو

موضع قاحل كثير الحصى، على بعد عدة كيلومترات من حدود سيناء. وكان مشروعي يقضي باجتياز القسم الأكبر من الطريق بسيارات الجيب حيث ارض السهل صلبة، ثم مغادرة العربات والسير على الاقدام حتى الصخرة المهدِّدة التي يشرف على رأسها المركز المصري الذي يحتله في الظروف العادية حامية من اربعين رجلاً. قلت في نفسي إننا بقليل من الحظ نستطيع الاستفادة من عامل المفاجأة، فنأخذ حينئذ حدا اقصى من الأسرى ثم نجتاز الحدود قبل طلوع النهار.

في تلك الاثناء هبط الظلام. طلبت رأي مائير هار ــ صهيون (ذي الحكم الصائب جداً في مثل هذه الأمور)؛ فأجابني انه لا يحب اجتياز السهل في الجيب. ففي الليل السابق كان ضباب كثيف قد غشّى المنطقة، واذا تكرر انتشاره اليوم قد نقع في خطر التيهان. واضاف : في المقابل، اذا تقدمنا سيراً على الاقدام في الوادي لا نستطيع ان نحيد عن هدفنا حتى عند انتشار الضباب، لأن صخرة مركز كونتيلا تشرف على حافته. وكان هار ــ صهيون مقتنعاً بأن سرير وادي باران يصلح لسير المركبات على رغم تربته الرملية الهشة. فهو نفسه اجتازه كله بالسيارة في السنة الماضية في اثناء استكشاف ليلي لمراقبة المركز المصري.

عند الساعة السابعة مساء دخلنا الوادي من الجهة الاسرائيلية. اتبعنا نصيحة هار ــ صهيون فقُدنا على طوله، مناورين بلا انقطاع خشية الغرق في الرمال. ولكن عندما اجتازه هار ــ صهيون كان هناك سيارتان فقط، اما الآن فالرتل يضم سيارات عديدة. فالفرق شاسع، لكننا لم نفكر فيه من قبل.

ازدادت الطريق صعوبة كلما توغلنا في الوادي. وسرعان ما غرقت في الرمال سيارات القيادة والجيب والاسعاف، ما اضطرنا الى النزول لدفعها. كنا كمن يتقدم مترا في اثر متر. المحركات تدور بأقصى طاقتها وتوقّفها لانقطاع الوقود ينتظرنا. وغدا الآن عامل الوقت هو ايضاً دافعاً للقلق.

قررت عند الساعة العاشرة ليلاً ترك المركبات ومتابعة السير على الاقدام. توقفنا بضع دقائق واجرينا تشاوراً ثانياً ثم بدأنا المشي. وإذ بقي علينا اكثر من خمسة عشر كيلومترا قدَّرت ان الهجوم يمكن أن يتم عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل اذا ثابرنا على السير بلا توقف. واذا تم كل شيء على ما يرام نغادر المكان عند الثانية، ويبقى لنا متسع من الوقت لاجتياز الحدود قبل طلوع الفجر.

الليالي باردة دائماً في الصحراء. وإذ كنت اسير على رأس رتلين من المظليين خشيت للحظة ان يقهرني البرد والتعب. ومن وقت الى آخر كنت اسير عكس اتجاه سير الجنود لمراقبتهم. كان كل منهم يبدو على آخر رمق. فهم على الطرقات منذ قرابة ثمان واربعين ساعة من دون ان يذوقوا طعم النوم. وفي هذا اليوم نفسه لم يتسنَّ لهم وقت حتى للأكل. وعليهم الآن ان يطرقوا الرمال على امتداد كيلومترات عديدة ثم يخوضوا معركة قبل أن يعودوا أدراجهم في الطريق نفسه حاملين ضحايا وقائدين اسرى —، وكل ذلك خلال سبع ساعات فقط. كنت قلقاً عليهم متسائلاً هل اغالي في تقدير قواهم؛ وكان مرور الوقت السريع يعذبني ايضاً، إذ فكرت انه اذا حدث في كنتيلا ما ليس في الحسبان يتعثر انسحابنا فيفاجئنا الفجر في سيناء فتقتنصنا الطائرات المصرية على اهون سبيل.

كنت ادير هذه الأفكار في رأسي عندما ابصرت وميضاً خفيفاً في الأفق ناحية القاعدة المصرية. ظننت في البدء انني ضحية مخيلتي أو خدعة بصرية. ولكن اذ ثبَّتُّ بصري اصبح الوميض شديداً ثم تلاشى قبل ان يستعيد بريقه. لم اتوصل الى شرح الظاهرة. فكنتيلا كانت المكان الأكثر عزلة في العالم — وهذا هو سبب اختياري اياها.

بعد وقت قصير ضعف الوميض مجدداً قبل أن ينطفئ تماماً، الأمر الذي اقلقني. ومرت ساعة تلتها اخرى. وعندما لاحظت ان الرجال عاجزون عن متابعة السير امرت بالتوقف لمدة خمس دقائق. في اللحظة عينها انهار الرجال

على الحضيض وغفوا في أماكنهم. وبعد خمس دقائق كانوا على ارجلهم واستعدنا سيرنا.

بعد نصف ساعة كنا منبطحين على الرمل تحت صخرة كنتيلا المنتصبة في الليل ككائن مخيف من العصور الأولى. الى جانبي مائير هار — صهيون وأهارون دافيدي، وخلفنا المظليون في تشكيل هجومي بقيادة رفول إيتان وموشيه إفرون ومرسيل طوبياس، المقاتلين الاشداء ورفاقي في السلاح في عمليات عديدة ... وخلال هذه الدقيقة الأخيرة من التوتر الشديد وضعت يدي على كتف هار — صهيون لاطرح عليه سؤالا كان يلح علي : « ماذا يدفعك الى هذا العمل ؟ ... ما هو حافزك ؟ » ادار مائير رأسه في ايماءة سريعة الى المظليين ودمدم : « انهم يراقبونني ... وينتظرون مني ذلك ... » بعد أقل من دقيقة بدأنا الهجوم.

كانت المعركة قصيرة. والمفاجأة كانت تامة حتى ان المصريين الذين اصابتهم البلبلة لم يبدوا أقل مقاومة. ومما زاد في الفوضى اننا هاجمناهم في اثناء تغيير الحرس. فالوميض الغريب في الافق لم يكن سوى الاضواء الامامية لناقلات الجند الآتين للمناوبة. وهكذا فبدلا من ان نجد أمامنا اربعين جندياً مصرياً وجدنا ثمانين يجهل نصفهم كل شيء عن القاعدة والأرض المجاورة.

عند نهاية العملية اصطحبنا تسعة وعشرين اسيراً ينتمون في معظمهم الى المناوبين الجدد. واحتج احدهم لدى القاء القبض عليه : « نحن لا علاقة لنا بما يجري، فقد وصلنا توّاً ». أما الباقون فبعضهم قتل وهرب الباقون في الصحراء. ومن بين السجناء كان آمر القاعدة الذي نجح في الاختباء بعض الوقت ثم ظهر أخيراً وهو يسأل بالانكليزية : « هل من ضابط هنا ؟ » لم يكن يقبل الاستسلام الا لضابط.

وجدنا في المكان كمية هائلة من السلاح والتجهيزات من أنواع مختلفة كانت مجهولة لدينا. كنا نعرف ان الاتحاد السوفياتي يقدم معدات عسكرية

الى مصر وظننا في بادئ الأمر ان هذه الاسلحة سوفياتية. ولكن بعدما تفحصناها على ضوء النهار تبين انها اسبانية الصنع. وفيما كان الممرضون يهتمون بالجرحى ـــ المصريين والسوريين على حد سواء ـــ كانت الرشاشات وآلات الاتصال تُحمَّل في شاحنتين مصريتين وباقي الاسلحة ترمى من قمة الصخرة.

جرح اربعة من مظليينا خلال الهجوم، منهم اثنان في حالة حرجة. وكان كل الرجال قد تلقوا قبل الهجوم امرا بعدم استخدام أسلحتهم، بقدر الامكان، والاكتفاء بأخذ اسرى. امنون ابوكاي قفز الى احد المواقع وامر المصريين بأن يرفعوا ايديهم. لكنَّ احدهم تمكن من اطلاق النار. ويعقوب ميزراحي انطلق يلاحق فريق من الهاربين الذين تفرقوا في الصحراء. وعندما لاحظوا ان رجلاً واحداً يلاحقهم ارتد احدهم وطعن ميزراحي بخنجر قبل ان يتمكن هذا من إردائه.

وُضع الجرحى فوق محاملهم في شاحنة. فانطلقنا في طريق العودة الطويل. وكان موشيه ليفي، قائد احدى الفصائل (الذي سيصبح في ما بعد قائداً للأركان). قد اوثق يدي القائد المصري رابطاً الوثاق في حزامه، وبهذه الطريقة كان يسير الى جواري. اما بقية الاسرى فكانوا يتقدمون بتشكيلات من اربعة تحت حراسة المظليين. وقبل ذلك أمرت بالراديو أن يرمى لنا بالمظلات صفائح بنزين في مكان قريب من عرباتنا : والآن طلبت ان تُجهَّز طائرتان صغيرتان عند الفجر لنقل الجرحى. ولكني كنت اخشى وأنا ابث الرسالة ان تكون الطائرتان عديمتي الجدوى : فحالة ابوكاي ومزراحي كانت خطرة جداً وكنت اشك في استطاعتهما تحمل مشقات الطريق.

في اثناء السير توقفت مراراً قرب الشاحنة لاطلع على حالتهما. ولسوء الحظ لم اخطئ في تشخيصي اذا فارقا الحياة في اثناء الرحلة.

بعد اربع ساعات من المشي الحثيث خرجنا من وادي باران واجتزنا الحدود. وكانت اشعة الشمس الأولى تبيِّض الافق.

كان هدف عملية كنتيلا اخذ اسرى نبادل بهم اثنين من رجالنا اسرهما المصريون. لكنها لم تكن الوحيدة في نوعها. فكلما اسر اسرائيلي لا نتوانى حتى يُطلق سراحه. فكلنا يعرف ما كان يقاسيه الاسير الاسرائيلي في السجون العربية بظروفها المختلفة والعذابات التي يخضع لها. وهكذا فما ان يقع أحد ابناء قومنا في أيدي العدو حتى الح على وزير الدفاع أو رئيس الوزراء. ولقد خططنا واطلقنا عمليات مماثلة في سوريا والاردن ولبنان ومصر، وكلها ذات هدف واحد : اخذ اسرى للمبادلة. اذكر ان احد مندوبي الادارة في الكتيبة، الذي سمحت له يوما بقيادة دورية استطلاع، وقع بين ايدي الجنود المصريين الذين جعلوه يجتاز الحدود بعد ان طلبوا منه سجائر. فاكثرنا الإغارات (التي عرفت بأسماء الشيفرة « سيجارة ١ »، « سيجارة ٢ »، « سيجارة ٣ » وهكذا دواليك) الى ان بلغ الاسرى المصريون عدداً سمح بتحريره. وعندما جرح اسحق غبلي واسره الاردنيون « التهبت » الحدود لدرجة ان رئيس مراقبي الامم المتحدة آنذاك، وهو لواء كندي اسمه بارنس، لاحظ أنه لم ير قط بلاداً يأخذها جنون مماثل ـــ من أجل رقيب ...

في الواقع، كانت هذه العمليات تطرح علينا مشاكل ادبية دقيقة جداً. فكل إغارة كانت تسبب خسائر بشرية، وهكذا كنا ندفع ثمنا غالياً لعودة كل من جنودنا، وغالباً ما كان عدد الضحايا يفوق عدد الاسرى الذين سنحررهم من السجون العربية. وكانت هذه المسائل تطرح دائماً للنقاش بين الضباط الاسرائيليين. من جهتي كان موقفي من المسألة صريحاً جداً منذ البدء : كنت مقتنعاً ـــ ولا ازال ـــ ان كل جندي يجب ان يكون مقتنعاً في قرارة نفسه انه لن يترك وحيداً في الميدان، اجريحا كان ام اسيراً. عليه أن يتيقن انه اذا وجد في احدى هاتين الحالتين فإن رفاقه سيبذلون كل ما هو ممكن بشرياً لإعادتهم.

كانت عمليات المظليين تحقق اهدافها الواحدة تلو الأخرى : في بيت لقيا وحبّا وازون وخان يونس ودير البلح حيث جرحت في فخذي برصاصة من

رشاش فيما كنت احتفز للقفز الى خندق مصري. وفي الاعوام ١٩٥٤، ١٩٥٥، ١٩٥٦ تم قرابة سبعين عملية، وكل منها اكثر قساوة وتعقيداً من سابقاتها.

كانت هذه السنوات حاسمة في حياتي من حيث النشاط المتواصل خلالها وغنى الخبرات الميدانية. وعلى رغم نجاح هذه العمليات لم اغير رأيي وما زلت اعتقد ان العرب جنود جيدون؛ واليوم علمتني التجارب أننا لكي نهزم الجنود العرب علينا أن نفقدهم توازنهم في البدء. وكان تكتيكي (الذي فرضته علي الضرورة) يقوم على عدم السماح لهم بخوض المعركة وفق تصورهم لها، بل على مفاجأتهم دائماً. مهاجمة احد الجناحين او المؤخرة، او الهجوم من كل الجهات في آن واحد. او ايضاً الدخول الى قلب جهازهم الدفاعي والتفرُّع منه الى كل الجهات. لقد قالت لنا التوراة : « حاربوا بالحيلة ». والحيلة أو الخدعة أو المناورة الحربية يُطلق عليها اسم «tah'boula» باللغة العبرية. وفي كل مرة يجب أن تكون مختلفة، مناورة تفاجئ العدو أو تحط من معنوياته.

خلال تلك السنوات تغير ايضاً رأيي في دور هذه العمليات. فلقد صرت اعتبر أن هدفها ليس فعل اقتصاص ولا حتى ردع بالمعنى الشائع لهاتين الكلمتين. يجب أن يكون الهدف ايجاد نفسية انهزامية عند العرب، بضربهم بلا هوادة وبحيث يصل بهم الأمر الى التخلي عن ارادتهم قهرنا ذات يوم. وكان هذا برهاناً اضافياً اقدمه عند معارضتي مبدأ الإغارات بطريقة غير منتظمة أو مخفَّفة. فإن أعمالاً كهذه ليس فقط قليلة الواقعية على الصعيد التقني بل اني اظل مقتنعاً انه كلما كان علينا أن نجابه العدو يتعين فعل ذلك بنية تكبيده خسائر فادحة عمداً.

كانت هذه المفاهيم تولد خلافات مُرة. كان اميث، رئيس عمليات دايان، وغيره ايضاً يدافعون عن عدم جدوى تكبيد العدو خسائر فادحة. اما أنا فكنت أعتبر أن هدفنا هو تحطيم ارادة العرب خوض الحرب ضدنا وملاشاة رغبتهم

في القتال. هذا، وليست أعمال الاقتصاص في حد ذاتها، كانت الهدف الحقيقي للعمليات العسكرية ـــ وهو هدف كنت أعرف ان بلوغه يتطلب كثيراً من الوقت. ولكن بما ان جيراننا يبدون عاقدي العزم على اصابتنا بأكبر ضرر ممكن باذلين من أجل ذلك كل قوتهم، فلم أكن أجد حلاً بديلاً عن ذلك. فبالنظر الى العدد المتواضع لشعبنا والى ضآلة مواردنا لا نستطيع ان نأمل يوماً في خلق توازن قوى من النوع الذي يسمح عادة لأُمتَيْن عدوتين بالتعايش. فالوسيلة الوحيدة التي في حوزتنا تقوم على اقناع العرب بعدم جدوى الحرب التي لا تجلب لهم سوى الدمار والخراب والمذلة.

العاصفة قبل العاصفة

في بداية العام ١٩٥٥ دفعت الغارات المتواصلة التي قام بها مظليونا، مصرَ الى حافة الازمة. فالضربات المتزايدة شدة ضد جيش عبد الناصر ومصداقيته وضعته في وضع لا يطاق. لكنه بدلاً من ان يوقف الارهاب القاتل الذي كان السبب لتنامي العنف العسكري بين البلدين فضل البحث عن تحالفات خارجية. فبعد عملية غزة بوقت قصير باشر اقامة اتصالاته الأولى بالاتحاد السوفياتي. كان يظن ان الاتحاد السوفياتي قد يؤمن له التفوق العسكري الذي سيسمح له أخيراً بمجابهة اسرائيل في ارض المعركة، كما كان يحلم.

في صيف تلك السنة نفسها اوحى ناصر هذه النوايا باغلاقه مضائق تيران، نقطة الاتصال الوحيدة بين اسرائيل من جهة وافريقيا الشرقية وآسيا من جهة اخرى. ومع ان هذه المضائق هي طرق بحرية دولية فان جمعية الأمم لم تبدِ اعتراضات جدية. وفي نهاية شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥ اعلن عبد الناصر عقد اتفاق مع تشيكوسلوفاكيا يوفر لمصر عدداً كبيراً من الدبابات وسرايا المدفعية والطائرات المطاردة والقاصفة والاسلحة الخفيفة العصرية، وكلها من صنع سوفياتي. وهكذا فقد توازن القوى (كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى قد اعلنتا حظر الاسلحة) وبدت قدرة اسرائيل الدفاعية مهددة.

كان يبدو ان اسرائيل لم تكن تملك اي جواب مباشر لمضادة الاسلحة المصرية الجديدة. على رغم هذا الواقع قررت الحكومة فك حصار المضائق

بعملية عسكرية قام بها لواء ضد شرم الشيخ، المغلاق المصري لمضيق تيران. وكان على كل المظليين ان يشاركوا في العملية : مظليي الجيش النظامي ومظليي الاحتياط ومختلف الوحدات المساعدة ولحظ للعملية أيضاً كتيبة مشاة — وكل هذا بالتنسيق مع البحرية وجيش الجو. هذه العملية من حيث شموليتها كانت ستكون أهم العمليات التي سبق لي ان قدتها.

لكنَّ تعليمات الأركان كانت تخبئ لي مفاجأة مزعجة جداً : فعلى رغم وضعي كقائد فعلي للمظليين، كان رئيس هيئة الأركان قد قرر تفويض ادارة العملية لضابط اعلى درجة. وكانت التعليمات تقول ان العقيد (الكولونيل) حاييم بارليف سيصل فوراً في رفقة قيادته.

وحده موشيه دايان كان قادراً على تدبير « ضرب » كهذا. كان بارليف، بصفته قائداً لاحد الوية المشاة، قد التزم عملياً عدم التدخل طوال سنوات عديدة وكان يتابع كمتفرج العمليات التي كلف بها المظليون تباعاً. إن ما كان يضمره، شكَّل، في نظري، نوعاً من الحدسية. وقد اتيح لي وقت طويل لاخمن نواياه طوال الاشهر الطويلة للدعوى المقامة ضدي والتي كان بارليف احد قضاتها. فقد كانت مماحكاته في اثناء المرافعات هي ما جعل تلك القضية سلسلة طويلة من الازعاج الدنيء.

واحد غيري كان سيتسلم ربما؛ لكنني كنت عاجزاً عن الاستكانة : فمن دون تردد اعلمت دايان بنيتي الاستقالة. وكجواب دعاني الى الغداء في احد مطاعم رحوبوت؛ وأمام صحن حمص وسلطة شرح لي « الأهمية الحيوية » للعملية، مشدداً أنه لن يُقدم عليها من دوني. واضاف انه من دون خبرتي لا يظن أن العملية ممكنة الحصول. واوضح ان تعيين بارليف هو موقت تماماً، وليس وارداً ان يحل مكاني. على العكس : سآخذ انا مكانه بعد العملية ... وبما ان احتمال الاستقالة لم يكن يروق لي كثيراً اقتنعت بكلماته.

لم نحاول قط، بارليف وانا، التظاهر الكاذب بالصداقة. ولكن خلال

الاسابيع الستة التالية وجب علينا العمل سوية على صعيد العملية، وهذا النوع من الأسئلة لم يكن يشغلنا ابداً. فالعمل الذي نقوم به ليس عادياً : فشرم الشيخ تقع على بعد مائتي كيلومتر جنوب ايلات، عند حدود صحراء متعذر عبورها تقريباً. وبما أن التوتر حول اخلاف المضائق اخذ يتزايد كان الاحتمال كبيراً بأن يكون المصريون محترزين، يترصدون اقل اشارة يمكن أن تنبئ عن عملية عسكرية.

كنا قد بلغنا المرحلة الأخيرة من الاستعدادات عندما دلت بعض العلامات ان المصريين يشكون في أننا « نطبخ على نار خفيفة » شيئاً ما. ولم نكن مخطئين : فجهاز استخباراتنا سرعان ما أعلمنا ان العدو اشتمّ مشروعنا فأرسلت تعزيزات قوية الى شرم الشيخ، فغدت حظوظ العملية مشكوكاً فيها فالغيت على رغم الجهود التي بذلناها لاتمامها.

ولكن قبل هذا القرار، وفيما كنا غارقين حتى آذاننا في مخططاتنا، برزت في الافق ازمة اخرى، في الشمال هذه المرة. ففي ١٠ كانون الأول (ديسمبر) من هذه السنة اطلقت مدافع سورية قنابلها على صيادين اسرائيليين في بحيرة الجليل (طبريا). وكان هذا القصف هو الأخير في سلسلة من الاعتداءات السورية ضد الصيد الاسرائيلي في هذه المنطقة.

كان هذا القصف المدفعي القشة التي قصمت ظهر البعير، فقررت الحكومة الاسرائيلية هذه المرة تدمير المواقع السورية. في اليوم نفسه استدعيت الى الاركان العامة لمناقشة العملية. فبدا لي الأمر غريباً : كنت موضوعاً تحت أمرة بارليف، ومع ذلك فأنا الذي استدعيت لا هو. فهمت من عرض دايان ان المقصود هذه المرة هو عملية معقدة وواسعة النطاق قد تتطلب جزءاً مهما من العناصر الملحوظة لشرم الشيخ : زوارق إنزال، مدفعية، جسور عائمة وبنى طرقية للأرض الصعبة وشبكة اتصال محمولة جوا. وبينما كان دايان يعرض لي استراتيجيته لم استطع ان امتنع عن التفكير في ان هذا الوضع

ملائم جداً اذ يوفر لبارليف حظاً ليقود الى المعركة اللواء في عملية معقدة ومع ذلك اكثر بساطة من عملية شرم الشيخ. فهذه مناسبة ذهبية يستطيع فيها إثبات امكاناته.

لكن دايان كان قد قرر غير ذلك. قال لي بما يشبه البسمة : « من الافضل ان تقود انت هذه العملية. انت تعرف الرجال، أليس كذلك ــ والأرض ايضاً؛ وعندك الخبرة اللازمة ». في الواقع، كان في وسعه ان يقول الشيء نفسه تقريباً بشأن شرم الشيخ. لكنّ تلك ربما كانت طريقته في الاعتذار ــ والأرجح انه لعب اللعبة ذاتها مع بارليف. الا اذا كان تصرف تحت تأثير الضغط النفسي : فهذه العملية يجب ان تتم في اسرع وقت ممكن، ولهذا السبب كان مضطراً الى الالتجاء اليّ.

ومهما تكن دوافعه لم اجادله. عدت الى قيادتي العامة واستدعيت الضباط واعطيتهم تعليماتي. لم يطرح احد سؤالا عن الاسباب التي اعادتني على نحو غامض الى الإمرة. وبعد قليل في اثناء جدال حول الطاولة لمحت فجأة بارليف في ركن من الغرفة. كان وجهه ينمّ عن كل ظلال الحرمان والضغينة؛ ولا اظن اني نجحت احسن منه في اخفاء عواطفي حياله.

كانت العلاقات المعقدة بين دايان وبيني تولّد احياناً اوضاعاً مضحكة، مع أنها لم تكن تسليني ابداً في تلك الحقبة، على ما اذكر. كذا الأمر في ما يتعلق بسيارة الخدمة خاصتي، أو ما كان آنذاك يُعتبر سيارة. رسمياً، لم اكن سوى مقدَّم (ليوتنان كولونيل)، وليس عقيداً (كولونيل) كما تقتضي الرتبة التنظيمية لقائد اللواء ــ وهو ما كنته في واقع الأمر. وكانت الكتيبة تعاني هي ايضاً اختلالاً في وضعها النظامي : فعلى الصعيد التقني كانت لا تزال تسمى « الوحدة » مع أنها كانت من حيث العدد اكثر اهمية من كل كتيبة اخرى. ولم تكن هذه الفجوة لتخلو من إحجافات تظهر على صعد عدة : الميزانية، الدعم السَّوْقي (اللوجستي)، عناصر الاستخبارات ومصالح مساعدة اخرى

كنا نحتاج اليها. على صعيد رتبتي كان لي حق التصرف بجيب بدلاً من سيارة سياحية. فنظراً الى العمليات العسكرية المتنوعة في كل مناطق البلاد كنا مدعوين غالباً الى قطع مسافات كبيرة جداً على طرقات غير مزفتة عموماً وعلى دروب ترابية. أخيراً بدلوا سيارتي الجيب بسيارة فورد قديمة من طراز « ابو دعسة »، تستجيب بصعوبة لقواعد سلامة السير، وقد اطلقنا عليها اسم « فورد بالوكالة ».

في ساعات الصباح الأولى من يوم العملية ضد السوريين غادرت قيادتي العامة في منطقة الجنوب العسكرية كان علي أن أُخضع خططي لقيادة المنطقة الشمالية في الناصرة ثم استدعي ضباطي لمجلس حربي قبل ان اصدر الأمر بتجميع اللواء. لكن سيارتي الفورد تعطلت ووجدتني على حافة الطريق يائساً وموقفاً السيارات (اوتوستوب). اخيراً توقفت شاحنة صغيرة. كان الى جانب سائقها امرأة ضابط تعرفت اليها في حرب الاستقلال، لذا لم استطع الا الصعود الى الصندوق لأن حجرة القيادة الضيقة لا تتسع لشخص ثالث. وفوراً قالت لي المرأة الشابة انها لن تستطيع ايصالي الى الناصرة لأنها مرتبطة بموعد مستعجل. اضطربت ووجهي ملتصق بزجاج المقصورة الخلفي الى مجادلتها بشدة حول مسألة اي من الموعدين يحظى بالأولية. توصلت اخيراً الى اقناعها بعد ان اقسمت رسمياً اني غارق حتى اذني في عمليات عسكرية. ومع ذلك وصلت متأخراً الى اجتماع التعليمات. فتساءلت وانا أدخل مبنى القيادة العام أما كان يحسن بي ان احتفظ بالجيب ؟

على رغم طالعي المزعج هذا الصباح تخطى نجاح عملية جنّاشر[1] كل توقعاتنا. حققنا كل اهدافنا وانزلنا بالسوريين خسائر فادحة وأخذنا منهم ثلاثين سجيناً. لكن مدى هذا النجاح اخذ يخلق لنا مشاكل الآن. فدايان تخطى ما كانت تسمح له به تعليمات بن غوريون. وعندما دعاني صبيحة اليوم التالي الى

---

(١) بحيرة جناشر أو بحيرة طبريا أو بحر الجليل — المترجم —

" اوراق الزيتون "

العملية المركّبة التي اذهلت السوريين :
ليلة ١١ -١٢ كانون الثاني (دسمبر) ١٩٥٥

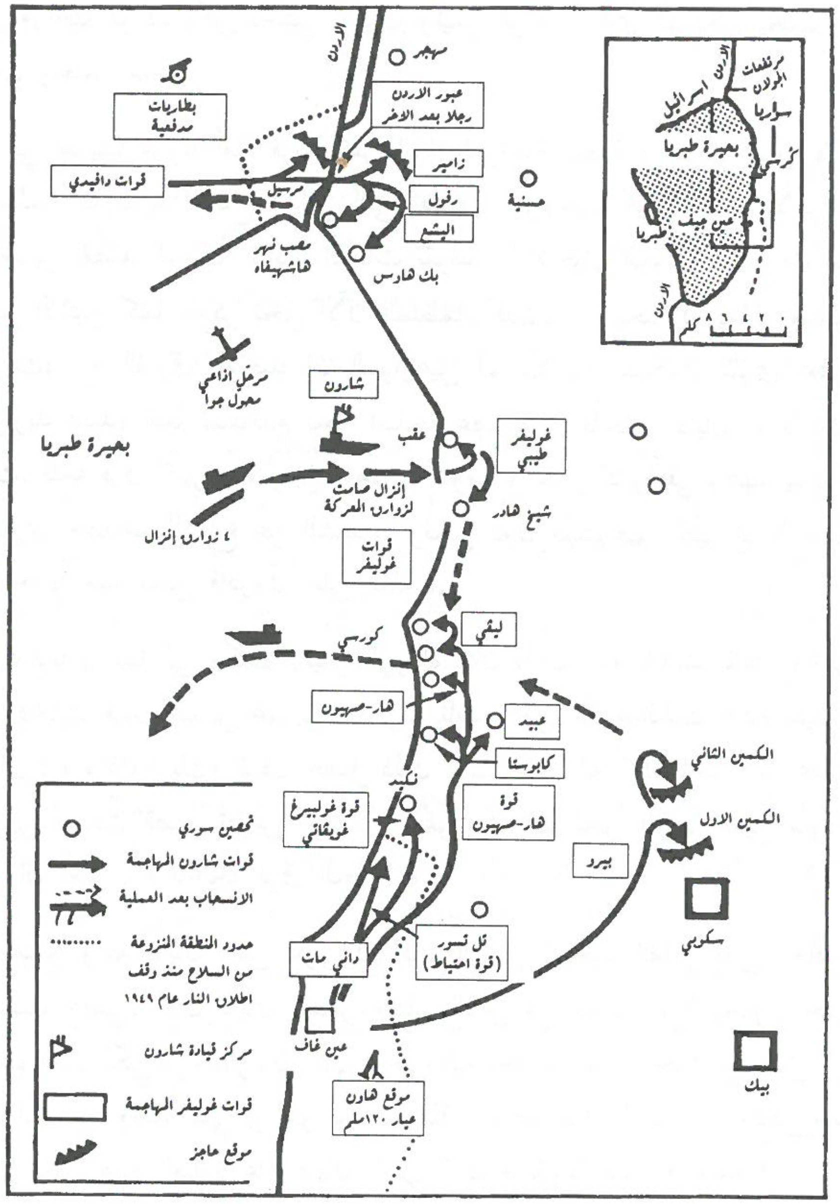

في كانون الاول (ديسمبر ١٩٥٥) لم تعد محتملة هجمات المواقع السورية المحصنة، على امتداد الشاطىء الشرقي لبحر الجليل، ضد الصيادين الاسرائيليين. ولقد برهن النجاح الدوّلي لعملية جناشر ضد السوريين عن القدرة الاستثنائية لمظليي شارون على انجاز عمليات معقدة ضد عدو مدرّب جيداً ومحصّن تحصيناً منيعاً، وعلى الضرب في أي مكان وفي أقصر المهل.

مرافقتي الى اورشليم، « من اجل تقرير » لبن غوريون، كنت اعلم أن الاجتماع لن يكون حفلة طرب. فقد علمتني التجربة ان دايان ما كان ليدعوني الى مرافقته لو لم يكن يخشى غضب رئيس الوزراء الذي لم يكن يحب ان يقف وحيداً امامه.

في طريقنا مررنا أمام قرية كفرطابور المرتبطة بقصة « هَـ ــ شومِر »[1]، المنظمة التاريخية للدفاع الذاتي التي نظمها المزارعون اليهود ضد الاعراب المغيرين بقصد السلب. تبادلنا النكات بقولنا ان الأجيال المقبلة ستتحدث عنا نحن الاثنين كما نذكر نحن الآن المنظمة. قلت: « سيخبرون بمآثر موشيه واريك، مع الفارق الوحيد ان المزارعين لم يكونوا يملكون سوى عصي وبواريد صيد، فيما نستخدم نحن أسلحة عصرية ». فأجاب دايان: « لا اظن ذلك. فثمة فرق كبير بيننا وبين « هـ ــ شومر » الذين كانوا في وقتهم يبذلون قصارى جهدهم للدفاع عن الشعب. ونحن دون مستواهم بكثير اذ لا نفعل الا جزءاً مما نحن قادرون على فعله ».

عندما وصلنا الى مكتب رئيس الوزراء كان دايان يبدو شديد القلق. واتفق اني دخلت قبله وأن بن غوريون اذ رفع ناظريه من مكتبه التقت عيناه بعيني، فسأل : « واذاً، اريك، كيف حصل ذلك ؟ ــ اعتقد انه كان ناجحاً ». اعقب جوابي صمتٌ قصير تفرس خلاله بن غوريون فينا نحن الاثنين بعين سوداء قبل ان يعلق : « ناجحاً فوق الحد ! ».

امتقع وجه دايان. فبن غوريون كان الرجل الوحيد القادر على إخافته، بحسب علمي. كان دايان يحتقر معظم الناس في محيطه ولا يحاول حتى اخفاء ذلك لكن بن غوريون كان يوحي اليه احتراماً عميقاً جداً قد يصل الى حد الخشية. ولقد انبني بن غوريون بجملة « ناجح فوق الحد ! »، ولكن ماذا كان معنى هذه العبارة عند دايان الذي كان مسؤولاً مباشرة امامه ؟

(١) « الحارس » ــ المترجم.

من اورشليم توجهت الى كفرملال. فأحد ضباط لوائي، الذي قتل في العملية، اصله من احدى قرى الجوار، فأحسست ان من واجبي ان اعلن شخصياً نبأ وفاته لأهله. غير أني كنت أهاب ايضاً هذه اللحظة. فعندما يُقتل جندي يُكلف رسمياً باعلان النبأ للعائلة ضباط يسعون جهدهم لمساعدتها في هذه الأوقات المأسوية. واسحق بن مناحيم كان صديق الطفولة، وكان واضحاً ان علي ان اقوم شخصياً بهذا الواجب الشاقّ. لكنني لم أكن أعرف اي موقف اتخذ أمام أهله. وفيما أنا متجه الى منزلهم خالجني الشعور بالرجاء ان يكونوا على عِلْم بالأمر بطريقة أو بأخرى. وفي هذه الحالة لن أكون انا اول نذير شؤم. وبطريقة ما كنت اشعر ربما انني مسؤول عن موته.

فاسحق لم يكن فقط واحداً من اقدم اصدقائي بل ايضاً شاباً من اذكى الشباب الذين عرفتهم واشجعهم. والى ذلك كان مارداً طويل القامة قوي العضل حتى أننا لقبناه بـ« غوليفر » مذ كان فتياً. وهو احد الشبان السبعة الذين اشتركوا في العام ١٩٥٣ في عملية النبي صموئيل. ولسبب ما لم يلتحق بي في الوحدة ١٠١، مع أني دعوته عدة مرات. وهو لم ينخرط في كتيبة المظليين كذلك على رغم علمه أني كنت سأستقبله بذراعين مفتوحتين.

طوال سنوات عديدة شابَ علاقتَنا نوعٌ من البرودة، لسبب ما زلت اجهله. وقبل عملية جناشر بقليل اتصلت به هاتفياً. فبعض قادة سرايانا جرحوا في الاغارات الأخيرة وكنت في حاجة الى ان اجد الى جانبي مسؤولاً يعتمد عليه. لذا قلت له : « غوليفر، عندي مشكلة. لننسَ ما حصل. لا اعرف إن كنت اهنتك بطريقة ما، لكنني لم انو ذلك قط. اليوم أنا في حاجة اليك. تعالَ ». فجاء غوليفر وتسلم قيادة السرية D وقاد الإنزال البحري من الجهة الأخرى للبحرية.

عندما دخلت منزل غوليفر كان أهله قد علموا بالمصيبة قبل دقائق من وصولي. وفيما كنت احاول أن أحدثهما لم تكف والدته عن البكاء. وكانت

تقول بين نحيبين: « كيف استطعت ان تدعه يموت، يا اريك ؟ هو الذي أنقذك من الموت.. هل تذكر ؟... انت تعلم كم كان يحبك... لقد بقي في المؤخرة ليخلص الجرحى...». كانت تتحدث عن معركة اللطرون. في العام ١٩٤٨، عندما بقي غوليفر ببطولة في المؤخرة ومعه رشيّشة يغطي بها انسحاب آشر ليفي وفصيلته. لم تكن حياتي التي انقذها؛ لكن هذا لا يبدل شيئاً. فأمه ترى انه خلص آنذاك حياة كل الجرحى؛ وانه كان ممكناً ان يبذل نفسه عني وعن الآخرين. وأنا تركته يموت ... كانت عيناي المرأة المسكينة، لا تعبر من خلال دموعها عن الغضب أو الملامة، بل عن الم دفين — وعن نوع من عدم التصديق ايضاً. وهي نظرة لن يقيض لي ان انساها ابداً.

كان بن غوريون يفكر في اننا ذهبنا بعيداً في عملية جناشر. على أن تفكيره هذا ليس ناجماً عن نفور من كون يهدد ارض اسرائيل يدافعون عن انفسهم بكل ما ملكت ايديهم. فخلال كل تلك السنة كان عليه ان يجابه ارهاباً وحشياً متزايداً، آتياً من قطاع غزة، مع مباركة عبد الناصر ودعمه النشيط. فزمر الفلسطينيين المشهورين باسم الفدائيين كانوا يزرعون الموت والدمار في جنوب البلاد، مدفوعين من جهاز الاستخبارات المصري. فلقد بدا واضحاً الآن في نظر بن غوريون ان المصريين لا ينوون احترام اتفاقات الهدنة التي تمخّض عنها حرب الاستقلال، ولو من حيث الشكل. ومن الاكيد انه كان يفكر كثيراً في المستقبل — خصوصاً في الاشهر الستة المقبلة، وهي المهلة التي ستتيح للمصريين استيعاب الترسانة الضخمة للاسلحة الجديدة التي استلموها. فبعد مضي هذه الحقبة من الاعداد سيغدو قطاع غزة أكثر من قاعدة للأرهاب الفلسطيني.

بعد مرور عشرة ايام على عملية جناشر استدعيت مجدداً الى الأركان العامة حيث اطلعوني على مشروع عمل حربي مهم جداً ضد قطاع غزة. لم يكن المقصود اقل من احتلال الجزء الشمالي من القطاع بعد تفتيت الجيش المصري في كل هذه المنطقة. وهذه المرة ايضاً استدعيت وحدي من دون

بارليف. واصغيت في انتباه الى دايان يقول لي: « انت تعرف طوبوغرافية الأرض كما تعرف رجالك وضباطك. ونحن نعتقد انك انت، ولا احد سواك، افضل من يقود هذه العملية ». لقد استعمل التعابير نفسها التي سبق له استخدامها من قبل. ومثل المرة الماضية كان للسيناريو الوقع نفسه على بارليف: امتقع لونه. وكان من جراء كل ذلك ان يثبتني في النهج الذي رسمته لنفسي.

قررت في خططي ان أزاوج بين عملية برمائية وانزال جوي وهجوم مشاة. فهذا العمل المتزامن كان يتيح لنا ان نحيط بالمصريين ونطوقهم من الشرق والغرب والشمال. ولما بلغنا في مرحلة التخطيط الى دور المجنزرات، منتظرين الساعة س، الغيت العملية. ومع ذلك لم يتعزَّ بارليف. واذا كنت اذكره هنا فلأن عواطفنا المتبادلة ستسمم ذات يوم جو احداث ١٩٧٣ — ومنها حرب يوم الغفران — التي لم يكن أحد يتوقعها آنذاك.

كان العام ١٩٥٦ ايضاً سنة صعبة. فالارهاب الفلسطيني الآتي من غزة تحت حماية مصر المتعاظمة قوتها يوما بعد يوم راح يزداد جرأة ويزداد معه عدد ضحاياه. فكل الجزء الجنوبي من البلاد، حتى رواقا[1] تل ابيب واورشليم، كان تحت رحمة هجوماتهم الوحشية. فهذه زمرة من الأرهابيين تلقي بعدة قنابل يدوية في موشاف شفير فتقتل ستة تلامذة. وتلك عصابة اخرى تفاجئ فريقاً من المراهقين وتقتل سبعة منهم. واطلقت رشقات نارية على المشاركين في مؤتمر اثري في رامان راحيل فاوقعت اربعة قتلى وستة عشر جريحاً. وقتل عدة عمال في معامل البحر الميت في سدوم، في كمين نصب لهم وهم متجهون الى عملهم. وفي خارج اورشليم طُعنت امرأة شابة وابنتها حتى الموت؛ وبشّع القتلة بجثتيهما وقطعوا ذراعي البنية. فكان الناس عند هبوط الظلام لا يتجاسرون على الخروج من منازلهم، وغدت قيادة السيارة في الليل مغامرة محفوفة بالمخاطر.

(١) Corridor: لسان من الأرض يمتد عبر أراضي دولة أخرى — المترجم.

في مثل هذا الجو قرر بن غوريون سلسلة من الأعمال ضد القواعد المصرية وضد الاردنيين الذين كانت شبكتهم الارهابية مرتبطة ايضاً بقطاع غزة. لكن المصريين كما الاردنيين كانوا قد استخلصوا الامثولات من الإغارات الاسرائيلية خلال السنوات الأخيرة. فغدت عملياتنا ضدهم تزداد صعوبة وتعقيداً كل مرة وتكلفنا ضحايا اكثر. وكان المظليون يعودون من إغارة ليشنوا اخرى ويتحمّلون في الواقع كلّ ثقل هذه الحرب الصغيرة؛ وخلال ذلك كانت الصراعات الداخلية تنذر بقربها بيني وبين دايان.

في ذكل الوقت كان عندي سائق يدعى ايلي اسرائيلي، وهو جندي ممتاز كنت استخدمه ايضاً كعامل اتصال في ارض المعركة. ذات يوم قُرع باب منزلي في بير يعقوب، حيث كنا نقيم حينئذ غالي وأنا، وذلك في ساعة متأخرة من الليل. وعلى سبيل الحيطة لم افتح الا بعد ان تفحصت المكان من النافذة. كان ايلي هو الطارق. اخبرني انه بعد ظهر هذا اليوم ذهب الى رئاسة الأركان لايداع ظرف وسمع صدفة جدالاً بين بضعة ضباط من فريق دايان. وهو اعتبر هذا الحديث من الأهمية بحيث جاء يخبرني به في قلب الليل. وقال انه سمع ما يلي :

« يتملكني الفضول لمعرفة رد فعل اريك عندما سيعلم انه معزول من قيادته ...

— بودي ان ارى رأسه عندما سيُعلن له نقله الى الأركان العامة ».

وكان يتخلل كل ذلك ضحك وسخرية.

في صبيحة اليوم التالي طرقت باب دايان. فخرج مرافقه ليقول لي ان رئيس الأركان منشغل جداً ولا يستطيع استقبالي. فأجبته وانا اخفي غضبي بصعوبة : « اسمع، اود ان اعلم ما يجري هنا ... لقد اخبروني شيئاً يتعلق بي. اذا كان الأمر كذلك فلا اظن أن مكاني هو في الجيش ». فأجابني وقد ظهر الابتهاج على وجهه : « حقاً ؟ قد يكون ممكناً ان لا يوجد مكان في الجيش

الاسرائيلي لضباط مثلك ». فاستدرت على عقبي وذهبت.

في اللحظة نفسها قررت ان اذهب لأرى بن غوريون مع اني كنت دائماً على المحك في هذا النوع من المسائل. فلقد اتيح لي طوال صداقتي مع دايان ان يقسو جلدي حيال طريقته في التصرف. لكنه هذه المرة تصرف بجبانة. لم يكن حتى قادراً على الاتصال بي هاتفياً ليقول لي انه قرر استبدالي. فبعد كل تلك السنوات — ١٩٥٣، ١٩٥٤، ١٩٥٥، ١٩٥٦ — وكل تلك الإغارات والمعارك والجروح وخسائر الاصدقاء — بعد كل اولئك جاء سلوكه يلامس العار.

عندما دخلت الى مكتب بن غوريون كانت دموع الحنق تنفر من عيني اصغى اليّ في انتباه وهو غارق في مقعده المريح. ثم قال إحدى تلك « الكلمات » المقتضبة الخاصة به وحده. ولكن هذه المرة كانت فعلاً كلمة واحدة لا غير : « انتظر ».

— انتظر ؟ ماذا علي أن انتظر ؟

— انتظر فقط.

— ولكن انتظر ماذا ؟

— اسمع ! سأروي لك قصة، قصة صينية قديمة. ذات يوم هلك قروي في البحر. وجد صيادون جثته، فتوجهوا الى عائلته وطلبوا مبلغاً كبيراً من المال لقاء تسليمهم الجثة. فذهب أفراد العائلة يستشيرون راهباً يقطن المنطقة. فقال لهم: « انتظروا ». ثم جاء الصيادون يرونه ويقولون له ان عائلة الميت ترفض دفع الفدية عن الجسد. فما عليهم ان يفعلوا ؟ فقال لهم الراهب ايضاً : « انتظروا ». سألوه : « ماذا ننتظر ؟ ». اجاب : « العائلة. كم من الوقت تستطيع الانتظار من دون ان تدفن والدها العزيز ؟ وانتم الصيادين كم من الوقت تستطيعون الانتظار مع هذه الجثة تهتمون بها ؟ يتعين على الجهتين ان تجد حلاً ما ... ».

كان بن غوريون قد بدأ مكفهر الوجه. ولكن عند نهاية حديثه انفجر ضاحكاً ضحكة معدية انتقلت الي حالاً.

هذا الرجل النابغة، الذي تشغله مشاكل اساسية. ها هو يضحك ملء شدقيه من هؤلاء الصينيين الفاقدين الصبر، العاجزين عن الانتظار ... وسرعان ما زال التوتر وعدت الى منزلي بشعور ان بن غوريون لن يَدَعَهُمْ يفعلون فعلتهم.

بعد عدة ايام قمنا بإغارة في سيناء. وفي طريق العودة كان ايلي اسرائيلي تعبا فاخذ عنه القيادة ضابط استخباراتي. لكن الرحلة في تلك الأيام من نيتزانا عند الحدود حتى بئر سبع كانت جهنمية : اخاديد وجوَر ومنعطفات حادة. ولم يمض وقت طويل حتى نال التعب من هذا الأخير فصدم في احد المنعطفات الخطرة حجراً كبيراً، فانحرف الجيب الى اليسار واصطدمت ببعض الصخور وانقلب علينا.

عندما استعدت رشدي رأيت خيطاً وميضاً من الدخان ينبعث من العربة. ففكرت في خطر التهاب المحرك. ولكن كان يستحيل علي ان اتخلص، فيدي عالقة في الجيب. شددت من كل قوتي فنجحت في تحريرها بعد ان اقتُلع منها بضعة اظفار. لم يكن ايليا والضابط جريحين، لكن عامل الراديو، الذي كان في رفقتنا، ظل محجوزاً تحت العربة. فاضطررنا الى بذل جهد يفوق طاقة البشر لتخليصه، يحثنا على ذلك خوفنا من اشتعال السيارة. وبعد الـ « هاهُ ». الأخير من الاعياء نجحنا اخيراً في سحبه.

كان ايلي اقلّنا تعرضا للأذى، فعاد راكضاً الى نيتزانا طالباً النجدة. وقبل وصول سيارة الاسعاف كان دفق الادرينالين، الذي غزا دمي تحت تأثير الصدمة، قد هبط، فبت اعلم الآن اني مصاب بجرح بليغ : شفتي العليا مشقوقة ويدي مهشمة. كذلك كنت اشعر بألم يكاد لا يطاق في كتفي اليسرى التي قد تكون مكسورة. وعندما وصلنا الى مستشفى بئر سبع فحصني

الطبيب ثم اعلمني انه استلم توا مكالمة من قيادة منطقة الجنوب يسألونه فيها هل يستطيع معالجتي من دون بنج. لكنه لن يقدم على ذلك من دون موافقتي ...

سألت ! « ما الغاية من ذلك ؟ ».

ــ لا اعرف بالتمام. فثمة مشكلة ويريدونك في االقيادة العامة في اسرع وقت ممكن. يتعلق الموضوع بشيء يجب عليهم فعله هذه الليلة ».

بالطبع، قبلت. لكنني كنت منهكاً وموجوعاً لدرجة العجز عن مواجهة اي شيء. وفي اثناء المعالجة وصلت غالي لتكون الى جانبي وترى ماذا عساها تفعل. ثم نقلوني بالسيارة الى القيادة العامة لمنطقة الجنوب، وذراعي اليسرى في الحمّالة وشفتي مقطّبة ومضمدة، وهناك التقيت عدة ضباط ورؤساء مفارز آتين توّاً من الميدان.

تلك الليلة كانت حامية بنوع خاص إن في سيناء وإن في غزة. وكانت قيادة الأركان قد بدأت تلحظ عملية جديدة لليلة المقبلة ــ هذه المرة ضد القيادة العامة الأردنية الواقعة قرب، الحصن القديم للشرطة البريطانية في قرية ضهارية. وكانوا يريدون ان اتولى قيادة هذه العملية، وحسب الخطط ينبغي ان يُشن الهجوم بعد سير على الأقدام. فهل كنت قادراً على ذلك ؟

لم ينبس اي من الضباط ببنت شفة؛ كانوا فقط يرنون الي. وانتهى الأمر بأحدهم الى القول : « ايها السادة، ألا ترون انه ليس في حالة تسمح له بفعل ما يُطلب منه ؟ علينا اذاً ان نتولى المهمة عنه ». ولكن لم يتحرك أحد. أخيراً استلمت الحديث لأقول : « هل تعلمون ان المسافة من الحدود الى الهدف هي قرابة عشرين كيلومتراً ؟ لا اظن انني في حالتي هذه استطيع قطعها على الاقدام ذهاباً ثم ايابا. غير أني كنت اعتقد في البدء ان الخطة تلحظ عملية مؤللة. فاذا كان الأمر كذلك وكان في الامكان تحضير مزنجرة صغيرة مع بعض الطنافس او ما يشبهها، فإني ذاهب ».

فيما كنا نتناقش تحدث معي بالهاتف مائير اميت، رئيس عمليات الأركان. قال لي ان دايان كلفه الاتصال بي ليقول لي انه أعاد النظر في قراره وانه بعد ان وازن الأمور يثبتني على رأس كتيبة المظليين. وظن المتحدث ان من واجبه ان يحدد الأمور اذ قال : « ليس لهذا القرار علاقة بعملية هذه الليلة. موشيه يريد ان تعلم انه غيّر رأيه ... ولكن، في ما عدا ذلك، اريد ايضاً ان تقول لي ... في ما خص العملية ... هل انت قادر على تحمُّل تبعاتها ؟ » رددت على مسامع اميت ما سبق لي ان قلته لضباط الأركان في القيادة العامة : استطيع تولي العملية في مزنجرة صغيرة وليس على قدمي. فأجابني بعد لحظة : « اوكي، سنعمل مثلما قلت ».

كنت غارقاً في مخططات العملية عندما تلقيت مخابرة هاتفية اخرى : بعد اعمال الفكر تقرر ان فكرة الذهاب لم تكن صائبة. ولذا الغي كل شيء. وما أن أُعلمتُ بالأمر حتى طلبت ان انقل الى مستشفى تل هشومر حيث امضيت في فراش حقيقي الاسبوعين التاليين.

قبل خروجي من المستشفى كانت الاتصالات قد بدأت بين الحكومات الاسرائيلية والفرنسية والبريطانية. فبريطانيا العظمى وفرنسا لم تكونا سعيدتين جداً لتأميم قناة السويس، مثلما ان النوايا العدوانية حيالنا لم يكن من شأنها ان تفرحنا. كان الوضع مؤاتياً اذ تقاطعت مصالح الدول الثلاث.

سيناء

اثر مباحثات بين باريس واورشليم جاء ضباط كبار من الجيش الفرنسي يزورون قاعدة كتيبة المظليين. كان الفرنسيون قلقين نوعاً ما من هذا التحالف، وخصوصاً من فاعلية الجيش الاسرائيلي. هل يمكن الثقة بها ؟ وهل ستفي اسرائيل بتعهداتها في عملية مشتركة ما ؟

كان دايان يرى أن في وسع الفرنسيين ان يتأكدوا بأنفسهم اذا جاؤوا وشاهدوا المظليين يعملون في قاعدتهم. هناك سيلتقون ضباط مدرَّبين، مختمرين بسنوات عديدة من الخبرة، متمرسين بكل طرائق الحرب وجنوداً محترفين تماماً خضعوا لأفضل تدريب، تحفزهم روح قتالية نادرة. وكان دايان يعلم أنه يستطيع ان يعرض لهم تشكيلة نصف سرية من الأسلحة والتجهيزات المأخوذة من العدو، وهي شهادة حسية لنجاح مظليينا.

كانت غنيمة الحرب هذه التي حصلنا عليها طوال سنوات عديدة من الأعمال العسكرية مخبأة في غابة صغيرة واقعة في قاعدتنا. ولقد سهرت على حفظها جيداً. مما أثار حفيظة الأركان الساعين الى حيازتها. في هذا « المعرض » كان يمكن التفرج على مزنجرات وجيبات ومدافع مورتر (هاون) وقطع مدفعية وشاحنات وتشكيلة مذهلة من الأسلحة الاوتوماتيكية والخفيفة ـ وكذلك على احصنة : جياد عربية رائعة كنا اتينا بها من الإغارات على مراكز محصنة للشرطة. وكنت قد اعطيت رجالي امراً صريحاً

بعدم تفجير مركز شرطة قبل اخراج الجياد منه مسبقاً. وفي خضم المعركة كانوا اذاً يذهبون ليأتوا بالجياد، التي كانت ترعبها الانفجارات والدخان، فيقودونها ويضعونها في مكان امين. (في اثناء إقامتي سنة في بريطانيا في وقت لاحق أريت صور بعض هذه الجياد لضابط بريطاني، فقال لي مازجاً المزح بالجد : « اذا اكتفيت فقط بعرض هذه الصور الفوتوغرافية للرأي العام البريطاني لربحت كل مودته »). وكان يوجد في المتحف ايضاً الاعلام الكبيرة والصغيرة والرايات والبيارق والشعارات العائدة لمختلف الفرق والوحدات المصرية والسورية والاردنية. ولا يستطيع المرء لدى مشاهدته غنيمة الحرب هذه الا ان يقول في نفسه إن هؤلاء اليهود يعرفون حقاً ما يفعلون ...

أتى الضباط الفرنسيون اذاً لزيارتنا. ما زلت اذكر بنوع خاص الكولونيل سيمون (الجنرال سيمون في ما بعد)، احد الضباط الحائزين على اكبر عدد من مداليات الجيش الفرنسي، وكان قد فقد عينا في المعركة وغطت الندوب جسده. دعوت الى غداء على شرفه حسب الاصول، في حضور كل ضباط الكتائب والمفارز والقيادة العامة. توطدت الصداقة بيننا — وهي صداقة اعدت توثيق عراها بعد سنتين في بريطانيا حيث عُيِّن ملحقاً عسكرياً لبلاده. هناك قال لي : إن زيارته كتيبة المظليين تركت عنده اثراً عميقاً. بيد انه ذكر عنصراً مزعجاً في الزيارة : لم يكن راضياً عن الغداء. سألته مندهشاً : « الم تعجبك أطباق الطعام ؟ » أجاب: « كثيراً، لكنكم أكلتم جميعكم بسرعة فما تسنى لي إكمال غدائي ... »

كانت كل هذه الزيارات مهمة. الفرنسيون يأتون الينا — فتُعقد الاتصالات — والصداقات ايضاً. ولقد احبوا ما شاهدوه. واقتنعوا اننا نحسن صناعة الحرب، وإن عتادهم الحربي سيكون في ايد امينة (كان بن غوريون يجهد حينذاك لعقد صفقة اسلحة مع فرنسا)، وانهم يستطيعون الاعتماد علينا عندما تُنفذ العملية المشتركة.

خلال شهري ايلول (سبتمبر) وتشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٦ بدا كأن الاشتباكات الدموية بين اسرائيل ومصر لا نهاية لها. ففي تلك السنة نصب الفدائيون كمائن للشاحنات والسيارات في كل الجنوب، بتحريض ودعم من المصريين. وركزوا هجوماتهم على مدن المنطقة وقراها : بئر سبع، عسقلان، تصريفين، بيت داجون وغيرها. وعلى رغم إغاراتنا الانتقامية كانت جرائمهم تزداد وحشية المرة بعد الأخرى. ففي موشاف شافير، كما سبق ان ذكرت، قتلوا ستة اولاد باطلاقهم عدة قنابل يدوية على مدرسة القرية. وفي تلك الحقبة عينها أمَّم عبد الناصر قناة السويس. فرأى البريطانيون والفرنسيون في هذا الاجراء تهديداً لطرق امداداتهم البترولية، الحيوية بالنسبة اليهم. وجاءت ردود فعلهم، على غرار امثالها في عز سطوتهم الامبراطورية الاستعمارية، انتفاضة اخيرة لدبلوماسية المدفع.

في مثل هذا الجو العاصف كان بن غوريون يتخبط ليحاول ايجاد حل لمشاكل امن اسرائيل. كان يشعر بأنه مهاجَم من كل الجهات : الاسلحة المصرية الجديدة، تدخل الاتحاد السوفياتي المنذر بالشؤم، احلام عبد الناصر بالقومية العربية التي سيكون هدفها طبعاً « تصفية الكيان الصهيوني » (لازمة خطب الزعماء العرب)، تعديات الارهابيين المتكررة، إغاراتنا الانتقامية والخسائر التي كنا نتكبدها من جرائها. وهكذا لم يكن يشك احد في وشوك اندلاع حرب. وفي محاولة لاستعادة احداث السنوات الماضية كان في وسع المرء أن يتساءل هلا سقطت سياسة الردع التي كانت تنتهجها اسرائيل منذ ثلاث سنوات. وهل كان من شأن خط سياسي آخر أن يوفر السلام والأمن بدلاً من تصعيد العنف هذا ؟ في تلك الحقبة كنت شديد الاقتناع بعدم وجود سبيل آخر — واليوم ما زال اقتناعي اقوى من قبل. فمصيبة الارهاب، التي تتآكلنا منذ ١٩٤٩، كانت مخرِّبة جداً، ولولا سياسة الردع والانتقام لجاءت نتائجها اسوأ بكثير، لا سيما هجر المناطق الحدودية على نطاق واسع. فمعظم القرى الجديدة المبنية في المناطق الحدودية او الصحراوية كان يقطنها

مهاجرون جدد هم آخر الناجين من الجماعات اليهودية المحطمة في اوروبا او آتون من مدن المغرب واليمن وقراهما ومن جبال كردستان ومن بضع دول شرقية اخرى. فنسيجهم الاجتماعي والعائلي مزقته الحرب أو هجرة مؤذية. وهم بعد ان اقتلعوا من مساقط رؤوسهم ليغرسوا في مكان آخر كانوا يتحملون الآن معركة يومية ضارية، ويائسة غالباً، ليحاولوا ان يحتلوا موقعاً في محيط جديد، معادٍ غالباً وناكر الجميل دائماً. كانوا قابلين للتجريح وعاجزين عن بذل ادنى مقاومة لصد هذا الارهاب الأعمى الذي جعل من حياتهم جحيماً حقيقية. وكان هذا الوضع قد ولّد ظاهرة هجرة جماعية من المناطق الحدودية نحو وسط البلاد، اضعفت بدورها المستوطنات الزراعية البعيدة التي يقطنها مزارعون عريقون والتي كانت تكوّن حزام الامان الدائري للبلاد. واوشكت هذه الظاهرة ايضاً على خلق جو من تداعي المعنويات على الصعيد الوطني، بسبب الخراب لحياة البلاد الاقتصادية.

فما العمل في هذه الظروف غير الدفاع عن النفس بكل الوسائل وبكل قوانا ؟ فهذا السبيل كان يترك على الاقل الأمل والاقتناع بأننا سنستطيع الصمود بل الازدهار على رغم كراهية جيراننا المميتة. وحده موقف كهذا من شأنه ان يجعلهم يفهمون ان الدولة اليهودية هي امر واقع يتطلب الاعتراف به وقبوله حتى ولو ازعجهم الأمر.

بيد انه لم يكن اقل صدقاً من هذا القول إن الانتقام لم يَدَعْ حدا للعنف وإن إغاراتنا كلما كانت تتسع كانت تكلفنا اكثر مما تكلف العرب. وفيما كانت المباحثات السرية مع الفرنسيين والبريطانيين تدخل مرحلتها الأخيرة، الحاسمة بالنسبة الى اسرائيل، قمنا بعملية مفصلية تشهد لضرورة حل مختلف وشامل للمشكلة.

في منتصف ايلول (سبتمبر) قتل ارهابيون فلسطينيوّن آتون من الاردن ثلاثة اسرائيليين دروز. وفي ٤ تشرين الأول (اكتوبر) من السنة نفسها قتلت

العصابة نفسها خمسة عمال يهود في مصنع للبوتاس قرب البحر الميت. وبعد ذلك بقليل علمت اجهزة استخباراتنا ان السلطات الاردنية اوقفت وسجنت هؤلاء الارهابيين بتهمة التهريب. فبدلاً من ان تقوم بعمل انتقامي ضد الاردن اعلمنا الملك حسين بهوية القتلة حتى يتخذ بحقهم اجراءات مناسبة. لكنَّ العاهل الاردني اظهر عن هذه « الاجراءات » بمكافأة القتلة فوراً مطلقاً سراحهم. فالواضح انه رأى في تدبيرنا علامة ضعف. وبعد خمسة أيام قتل ارهابيون فلسطينيون في ضواحي قلقيلية وشوهوا عاملين زراعيين يهوديين في بستان برتقال في تل موند الواقع على بعد بضعة كيلومترات من كفرملال. ولقد قطع القتلة في هذه المرة آذان ضحيتيهم. في الماضي غالباً ما شوّه القتلة الجثث بطريقة أو بأخرى — وهي طريقة شرقية صحيحة للتعبير ليس فقط عن كره الضحية بل ايضاً عن احتقار قوي لمن تمثلهم.

على سبيل الانتقام من كل جرائم القتل هذه أُطلقت عملية مختلطة من المظليين، والمدفعية والمدرعات والطيران ضد القيادة العامة الاردنية في قلقيلية. في نهاية العملية حققنا كل اهدافنا ولكن بثمن ثمانية عشر قتيلاً وستين جريحاً، فيما بلغ عدد قتلى الاردنيين مئة وعدد جرحاهم مئتين. وقد كانت هذه العملية اقرب ما يكون الى معركة مواجهة مخطَّطة حقيقية.

كان لعملية قلقيلية نتيجتان مهمتان. الأولى انها أتت ذروة ضغط يمارس لصالح عمل عسكري يتخطى إغارة الانتقام. وكان هذا الضغط ذاته في اساس مشروعين جرى تصوّرهما في كانون الأول (ديسمبر) الماضي : الأول يهدف الى احتلال الجزء الشمالي من قطاع غزة والثاني الى احتلال شرم الشيخ. ولكن غُضَّ الطرف عنهما. والآن، بعد قلقيلية، صار واضحاً ان اي عملية اقتصاص، مهما بلغ مداها أو نجاحها، لن تستطيع بلوغ الهدف المتَّبع : وضع حد للأرهاب. فاذا اردنا اجبار الحكومات العربية على تحمُّل مسؤولياتها يجب البحث عن سبيل آخر.

النتيجة الثانية للعملية كانت على صعيد الكواليس الداخلية. فالعملية اثارت

في صفوف الجيش الاسرائيلي مشادة متَّقِدة ستظل في اصل احد الخلافات الأكثر اهمية (وحسما) الذي عرفته البلاد واستمر حتى حرب الغفران في ١٩٧٣. وفي تشرين الأول ١٩٥٦ كان موشيه دايان ومائير اميث يجسدان الفريق الأول في المشادة، وانا الفريق الثاني.

كانت القيادة العامة في قلقيلية تحتل مبنى ضخماً كان مركزاً حصيناً للشرطة البريطانية في ضواحي المدينة. وعلى بعد بضع مئات من الأمتار فقط في اتجاه الجنوب كانت تنتصب مواقع دفاع قلقيلية. والى الشرق كانت الطريق تتعرج حتى عزون حيث تعسكر وحدات النجدة الأردنية الأقرب. وكان مركز زفّين القائم فوق تلة يسيطر على هذه الطريق، على بعد قرابة اربعمائة متر من المدينة. كانت خنادق هذا المركز آنذاك خالية، لكنها كانت مدعوة لأن تلعب دوراً اساسياً في اي معركة مقبلة للسيطرة على الطريق. لذلك لم يكن ممكناً لأي هجوم على حصن الشرطة سوى أن يكون جزءاً من عملية معقدة كثيرة وشاقة، تتطلب استراتيجية تأخذ في الاعتبار كل العناصر الميدانية. كنت قد اقترحت بنفسي على دايان السيطرة على هذا الهدف، بالاضافة الى الخطة العامة التي كانت تلحظ احتلال المواقع الدفاعية الجنوبية ووضع قوة حاجزة على طريق عزون والسيطرة على تلة زفين لتأمين قوانا ضد أي تهديد قد يتأتى من الطريق. ووُفق على الخطة باستثناء احد عناصرها: لم اكن مخولاً احتلال تلة زفين.

بعد ظهر اليوم السابق للهجوم توقفت في كفرملال لرؤية والديّ. من حديقة الاشجار المثمرة خلف البيت كان يمكن مشاهدة ميدان المعركة جلياً في الليل. بقيت معهما قرابة نصف ساعة، وتركتهما مطمئناً اياهما بكلمات هي كل ما يستطيع ابن ان يقولها لوالديه في ظروف كهذه. كنت اريد بنوع خاص تطمين والدي الذي بلغ به مرض القلب مرحلة حرجة وكان شديد الضعف.

بعد قليل، وفيما المظليون مجتمعون للرحيل، استلمت امراً من قيادة الوسط العامة : يُحذف عنصر آخر من الخطة : الهجوم ضد مواقع الدفاع الواقعة جنوب حصن الشرطة. ولم تعط القيادة العامة سبب هذا التغيير، مثلما لم يتنازل احد ليشرح لي معارضة احتلال زفّين. غير أن ما يبرز من هذين التراجعين هو أن القيادة العامة تحاول أن تحد من اتساع العملية ــ وربما ترجو بذلك خفض عدد الضحايا[1].

عارضت هذه التغييرات بقدر استطاعتي. جادلت واحتججت من دون ان الوك كلماتي لأطلب منهم في النهاية عدم التدخل : فهم ليس عندهم معرفتي العميقة بالهدف وارض المعركة والقوى العسكرية وضباطها. كما كانوا لا يعرفون العدو مثلما اعرفه ولا يعرفون ما ينبغي لنا أن نتوقع منه. ولم يكن عليهم ان يقولوا لي ما كان يتعين عليّ فعله. فدورهم كان ينحصر في تحديد اهداف العملية وتعيين الهدف بقدر استطاعتهم. فاذا وجدوا انهم يحسنون صنعاً باستبعاد هدف فهذا عائد لهم، وليستبدلوه بغيره أو يلغوا العملية. ولكن من غير المقبول ان ينتحلوا لأنفسهم حق فرض طريقة التنفيذ علي. فعلى مستوى الـ « كيف » يجب أن يكون التدخل في تكتيك قائد العملية ميدانياً معدوماً اذا أمكن ... كنت حينئذ مقتنعاً (مثلما لا ازال الى الآن) ان المستوى التراتبي الأعلى يجب ألا يتدخل الا بقدر ما يكون موجوداً في أرض المعركة التي يعرفها عن كثب، أو يكون مشرفاً على تنفيذ الخطة ويستطيع معاينة العمليات وفهم العوامل التي تحتم تلاحق احداثها. ولكن ما من أحد كان مستعدًّا للاستماع ! فالقيادة العامة لا تريد التحرك قيد أنملة. وبالنسبة اليها فانا عنيد مثل بغل، ورأس يابس ... اما أنا، فكنت مقتنعاً ان هذه الخطة كانت

---

(١) ساعلم في ما بعد ان بن غوريون ودايان كانا يخافان ان يحرك الاردن معاهدة الدفاع المشترك مع بريطانيا العظمى اذا كانت العملية واسعة النطاق. من جهة أخرى، كان التعاون مع بريطانيا وفرنسا في حملة سيناء قد بلغ مرحلة متقدمة. وفي هذه الظروف كان كل احتكاك بالبريطانيين من شأنه ان يولِّد إسقاطات مزعجة جداً.

ردیئة ــ بل خطرة جداً. وفي نهاية المطاف، وبعد هذا الجدال المضني، اضطررت الى التراجع والطاعة.

لسوء الحظ جاء تلاحق الاحداث ونتائج المعركة ليبرهن انني كنت على حق. حققنا كل الاهداف الاولية للمهمة، وفقاً للخطة. لكن مراكز العدو الجنوبية أصلت كتيبة موتّا غور ناراً حامية فيما كانت تهاجم حصن الشرطة، فأردت العديد من رجالها. وعرفت وحدة الحاجز مصيراً ارداً عندما كانت تتراجع بعد تدخلها لصد التعزيزات الأردنية الآتية من اسفل طريق عزون. كانت هذه التعزيزات مفصولة عن الكتيبة التاسعة للفيلق العربي، التي كانت الى أشهر خلت بأمرة بيتر يونغ، المغوار البريطاني التي شهرته مآثره الحربية في نارفيك والنروج وديبب وغيرها من معارك الحرب العالمية الثانية. وبعد عودة السلام سعى يونغ وراء المغامرة، ومثل كثيرين من أمثاله وجدها في الاردن. لقد كان رجال كتيبته حائزين على تدريب جيد.

عندما اردت وحدتنا الحاجزة عُشر العناصر المتقدمة الآتية للنجدة ارسلت الكتيبة التاسعة الاردنية فصيلة هاجمت جناح جماعتنا ونجحت في العبور بين القوات الاسرائيلية على الطريق وكيبوتز إيال الواقع الى شمال الحدود. وكان على هذه المناورة ان تحتم الاطوار اللاحقة للعملية. فالاردنيون قدّروا ان وحدتنا الحاجزة بعد اشتباكها بهم على الطريق ستنسحب في اتجاه إيال وانهم سيستطيعون بالتالي اعتراض انسحابها. وهذا ما حدث تماماً. وهكذا فإن الاربعة والخمسين رجلاً من سرية الاستطلاع قد خاضوا ثلاث معارك متتالية ضد التعزيزات الاردنية على طريق غزون وهزموها ثم تقهقروا ليهزموها مجدداً مرتين. لكنهم عندما غادروا الطريق في اتجاه الشمال اصطدموا بالاردنيين المكلفين بمهاجمة جناحهم.

فيما كانت هذه الانباء تردني بالراديو امرت وحدة الاستطلاع ان تصعد مجدداً الى الطريق. عند هذا الحد كان معظم ضباط الوحدة قد جرحوا (بمن فيهم آمرها يهودا رشف)، وكان يبدو إجلاؤها مستحيلاً. وكنت أعرف

بوجود جزء مرتفع من الطريق يستطيعون الاختباء خلفه في انتظار التعزيزات التي كنت استعد لارسالها اليهم. لكن وحدة الاستطلاع تفتقر الى اسلحة ثقيلة ولا يتوفر لها الا رشيشات اوزي ــ بكلام آخر : كانت في وضع حرج. وفيما كانت مدفعيتنا تحمي وحدة الاستطلاع برماية حادّة لقطع الطريق على الاردنيين، أمرت رتلا من المدرعات ان يخترق نحو قلقيليا وان يتقدم على طريق غرون لإخلاء الجرحى. لكن موشيه دايان، الذي كان معي في مركز قيادتي المتقدمة، رفض. كان يشك في ان تتمكن الوحدة المدرعة من إكمال هذه المهمة (إذ كان عليها أن تشق طريقا لها خلال المدينة) وكان يريد أن اوكل المهمة الى رفول إيتان، على رأس كتيبة مشاة.

كان الليل قد تقدم وهذا النقاش مع دايان يجعلني أخسر وقتاً ثميناً، لأنه كان يتعين علينا عند الفجر مجابهة تعزيزات اردنية مهمة. لذا اصررت على ارسال الرتل المدرع. قلت لموشيه : « اسمع، اذا لم نفعل هذا غدا تسلمنا لجنة هدنة الامم المتحدة جثثهم ». وأمرت بتحرك المدرعات فيما كنت اتكلم منفعلاً. فأدار لي دايان ظهره وغادر المركز من دون ان ينبس ببنت شفة.

احتاج الرتل الى ساعتين لكي يصل الى وحدة الصد على الطريق؛ وخلال هذا الوقت كانت سرية الاستطلاع قد اوشكت على فقدان ذخيرتها. ونجح رجالنا تحت نار الاردنيين في الوصول الى العربات المدرعة التي اتجهت توا نحو قلقيليا. ولكن لسوء الحظ لم تنته القصة عند هذا الحد : في اثناء وصول المدرعات كان جنود الكتيبة التاسعة الأردنية قد نجحوا في التسلل خلف قواتنا وفي احتلال مواقع تلة زفين ــ هذه المواقع نفسها التي نهتني قيادة الوسط العامة عن احتلالها، كما كنت اقترحت في خطتي. وهكذا كان الرتل المدرع يتعرض في اثناء انسحابه الى نار جهنمية من جانبي الطريق. وبدت تلة زفين كأنها بركان منفجر يقذف ناراً وحديداً.

بعد ان فوجئ رجال الرتل المدرع مشطوا التلة بكل اسلحتهم واستطاعوا

إكمال طريقهم. واصيبت احدى العربات اصابة بالغة فتعطلت. لكنّ غيابها لم يُلاحظ في خضم الفوضى العامة الا في ما بعد. هل كان ينبغي العودة فوراً الى الوراء لاستعادتها ام انزال الجرحى أولاً ؟ لم يكن آمر الوحدة المقدَّم موشيه براود وضابط الهندسة يرمي بردانوف، الذي كان في رفقة الرتل، على وفاق حول هذه النقطة. فالأول كان يريد انزال الجرحى أولاً قبل العودة الى زفين، فيما كان الثاني يشدد على العودة فوراً.

برادنوف هذا كان شخصية متعددة الجوانب وجندياً فذاً. كان يعاشر بطيبة خاطر الفنانين المتشردين. وهو رجل فيه نوع من الإغواء يثير الفضول، وهذا ما كان يجعله محاطاً دائماً بكوكبة من المعجبات، على رغم شكله « المخيف » نوعاً ما : شعر سميك اسود، لحية سوداء، حاجبان سميكان سوداوان واشعثان، وعينان دائماً مغمضتان. كان قد طلب تسريحه من الجيش قبل عملية قلقيلية، وقبل العملية كان لا يزال في مأذونية التسريح. وإذ سمع ان شيئاً ما يُدبَّر سعى الي بل انتظرني عند مدخل القرية عندما جئت لزيارة اهلي. اراد الانضمام الي فقلت له : « لم تعد مشاركاً في العمليات، فالزم الهدوء ». لكنه لم يبدل رأيه وتبعني حتى مكان التجمع. وما جاء الليل حتى نزلت عند طلبه واوكلت اليه مهمة.

هكذا وجد يرمي نفسه تلك الليلة في العربة المدرعة على رأس الرتل، يتجادل بقوة مع المقدَّم براور. لكنهما كانا لا يزالان يجهلان ان جنود العربة المصابة (باستثناء واحد منهم كان جريحاً) نجحوا في القفز ارضاً وعبور الخطوط الاردنية وايجاد ملجأ امين في الجهة الاسرائيلية من الحدود. اسفر الجدال بين براور وباردانوف عن عودتهما الى زفين في رفقة اربع عربات مدرعة. نجحا في تخليص الجريح وفي قطر المزنجرة المعطلة. ولكن فيما كان براور يشرح لسائقه كيف يستدير على الطريق الضيق اصيب برصاصة قاتلة. وبعد دقيقة سقط باردانوف بدوره.

لم يستطع الجميع مغادرة مكان المعركة الا في ساعات الفجر الأولى. لكن

الخسائر كانت فادحة جداً. وإذ لم اجد يرمي قصدت المكان الذي جمع فيه قتلانا. رفعت الاغطية واحداً بعد آخر وتعرفت الى وجوه كثيرة. كان يرمي تحت الغطاء الأخير، وعيناه هذه المرة مفتوحتان على وسعهما، كما لم يكونا قط من قبل. وهو أحد الثمانية عشر قتيلاً الذين حزّنا عليهم تلك الليلة ــ ناهيك بستين جريحاً. اما الاردنيون فقد ارتفعت خسائرهم الى اكثر من مائة قتيل. وكان ما جرى في قلقيلية اقرب الى معركة مواجهة مخطط لها منها الى اغارة.

كانت المشادة التي أعقبت العملية نموذجاً لاجتماعاتنا : كل واحد يقول بصراحة رأيه في ما حصل. وعلى رغم حضور ضابط من الأركان اعطيت رأيي حول العملية في مراحلها المتعثرة وحللت اسباب التعثر وعندما بلغ رأيي اذني دايان استشاط غضباً واستدعاني الى قيادة الأركان مع كل ضباط كتيبتي.

كانت نية دايان ان يعنّفني أمام كل ضباطي وان يلزمني حدي. استقبلنا واقفاً مع مائير اميث وانبني بعنف على انتقاداتي. ولشد ما دُهش عندما وجد أن كل ضباطي يدعمونني. وأنا من جهتي لم اراع هذين الاثنين. قلت لهما إنهما ارتكبا غلطة رهيبة دفعنا ثمنها غالياً. هذا الاجتماع المرهق، بجوه المشحون بالبغضاء، قد يكون يختصر كل تلك السنوات من العمليات العسكرية ضد العرب ــ وهي سنوات وسمتها ايضاً حرب من نوع آخر بيني وبين عدد من زملائي الضباط.

فيما كنا نلحس جراحنا بعد عملية قلقيلية توجه بن غوريون ودايان وشيمون بيريس الى باريس ليحاولوا عقد محادثات مع فرنسا وبريطانيا العظمى ستسفر عن عمل حربي مشترك ضد مصر.

بعد عودتهم الى اسرائيل في ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) ذهبت ازور بن غوريون الذي اطلعني في اختصار على نتائج اقامته في العاصمة الفرنسية. لقد جرى الاتفاق بالجملة على عملية يحقق فيها كل من البلدان الثلاثة اهدافه

الثلاثة. هدفنا كان سيناء: كان علينا ان نفك حصار مضائق تيران، ان ندمر القواعد الارهابية في غزة وتبديد احلام الرئيس عبد الناصر في زعامة العالم العربي ــ وربما التسبب ايضاً في سقوطه. أما فرنسا وبريطانيا العظمى فيقيمان من جديد سيطرتهما على قناة السويس.

إتفق على التمهيد للحملة بمناورة منسَّقة بعناية. تنزل اسرائيل كتيبة من المظليين على مقربة من قناة السويس، على بعد كاف لإعطاء الانطباع بوجود « تهديد » ضد الممر المائي. في هذه المرحلة توجه فرنسا وبريطانيا انذاراً الى الفريقين، يطلب منهما ابتعادهما من منطقة القناة. فتقبل اسرائيل فوراً. وبالطبع سترفض مصر؛ فتتدخل القوات الفرنسية والبريطانية حينئذ لإعادة تشغيل القناة على نحو سوي. وبعد انتهاء مرحلة فتح العمليات تتابع اسرائيل اهدافها الخاصة بتدمير القوات المصرية في سيناء.

فيما كان بن غوريون يشرح لي الخطوط العريضة للحملة كان مكتبه يطن كخلية النحل. كان مجلس الوزراء قد دعي الى الانعقاد والوزراء سيصلون بين دقيقة واخرى. وبعد بضعة ايام ستحصل احداث سوف تخض العالم. كنت غاطساً في هذا الجو وشاعراً بنفحات التاريخ تمر من هنا.

اخرجني من شطحات خيالي قدوم احدى امينات السر تعلن أن أحد الوزراء لن يستطيع الوصول في الساعة المتفق عليها.

سأل بن غوريون : « لماذا بحق الله ؟

ــ لأن الوزير لا يجد سائقه.

ــ قولي له أن يأخذ تاكسي »، قالها بعنف وهو يضرب الطاولة بكفه.

أمامي هذا الأسد الذي اعاد الشعب اليهودي الى وطنه القديم. وفي الكواليس امبراطوريتان آفلتان، فرنسا وبريطانيا العظمى، تستجمعان ما بقي لهما من قوة وتحشدان قواهما المسلحة. وغداً ستتورطان في شؤون شديدة

التعقيد وجسيمة النتائج للعالم اجمع. وفي قلب كل هذا يأتي هذا الصرير الصغير المضحك : « الوزير لا يجد سائقه ! ».

خرجت وأنا أفكر في أمثال هذه التفاهات. كانت العملية ملحوظة لـ ٢٩ تشرين الأول (اكتوبر). فلم يبق لنا اذاً سوى اربعة ايام لنهتم بكل المشاكل العملياتية. كان قوام العملية الاساسي، في نظري، كون الشرارة التي ستطلق الحملة في إنزال فرق في ممر متلا، على بعد خمسة وثلاثين كيلومتراً فقط من قناة السويس. والهدف الاساسي لهذا العمل، كما رأينا، هو توفير الذريعة للفرنسيين والبريطانيين للتدخل حتى يستطيعوا ــ لكي نستعيد صيغة دايان ــ « ان يغسلوا ايديهم في مياه نظيفة ». بكلمات اخرى، ستكون كتيبة المظليين منعزلة تماماً، في أقصى أرض شبه جزيرة سيناء، الى حين تمكُّني المحتمل من تحقيق الاتصال بينها وبين باقي اللواء.

بالاضافة الى انزال مظليين على اسرائيل ايضاً ان تهاجم على امتداد محاور سيناء الرئيسية. ولكن اذا لم يحترم الفرنسيون والبريطانيون بنود الاتفاق التي تلحظ تدمير المطارات المصرية واحتلال مدينتي القناة ــ بور سعيد وبور فؤاد ــ فان السيناريو سينقلب رأساً على عقب، على نحو مأساوي. وفي هذه الحالة سنكون متورطين في حرب مختلفة جداً عما كنا نتوقعه؛ اذ يتوجب علينا حينئذ ان نواجه وحدنا الجيش المصري القوي، المجهز بأسلحة سوفياتية، وطيرانه الأكثر أهمية من طيراننا.

اذا كان بن غوريون قد عقد هذا الاتفاق مع البريطانيين فهذا لا يعني انه يثق بهم. وكنا نحن اقل ثقة بهم. فما زلنا نذكر جيداً موقفهم حيال اليهود خلال الحرب العالمية الثانية، وكذلك رحيلهم من فلسطين، في ١٩٤٨، عندما اعطوا العرب افضل المواقع الاستراتيجية قبل مغادرتهم. فهم إن لم يقوموا بدورهم في الاتفاق على الوجه الكامل يورطوا مظليِّينا في وضع حرج. وقد قال دايان في اثناء زيارته قيادتي العامة قبل يوم او اثنين من بداية الحملة : « اذا

اتفق حصول ذلك عليك ان تعيد قواك. أنا أكيد انك ستجد السبيل الى ذلك، ولكن ضع في حسابك أنكم قد تجدون أنفسكم وحيدين في سيناء ».

كان علينا ان نحاذر شكوك المصريين بإيهامهم ان تحرك قواتنا يتخذ شكل استعدادات لهجوم مزعوم ضد الاردنيين، وهو عمل قد يبدو معقولاً. فعملية قلقيلية، التي كبدت العدو خسائر ثقيلة، لم يمرَّ عليها الا اسبوعان، والتوتر بين اسرائيل والاردن لا يزال على اشده. فضلاً عن ذلك أنهى العاهل الاردني توا عقد اتفاق يضع جيشه تحت امرة موحدة مع الجيشين المصري والسوري. وفي مثل هذه الظروف قد تفترض مصر بسهولة عملية استعراض عضلات اسرائيلية ضد الاردن.

وهذا الإخراج اوكل تنفيذه ايضاً الى المظليين. فقبل ان اجتاز الحدود كان يفترض باللواء التجمُّع قرب Hatzeva جنوب البحر الميت. من جهتي كنت اعتقد ان هذا الإلهاء عبء إضافي لا جدوى منه، إذ في وسع اي وحدة نظامية اخرى ان يقوم بالمهمة مثلنا فتوفر علينا وقتاً وسيراً يقرب من مائة كيلومتر قبل التلاقي مع الكتيبة في ممر متلاً. ومع ذلك قمنا بالعمل من دون أن نتذمر، لأننا منذ انشائنا لم نرفض اي مهمة، بل اكثر من ذلك قلنا دائماً أننا قادرون على فعل اكثر مما يطلب منا.

امضيت ايام الاستعدادات الأخيرة في « مكتبنا الحربي »، في قاعدة سلاح الجو بتل نوف، وهو غرفة في احد المباني المهدمة وضعها الطيران في تصرفنا. (كانت كتيبتنا قد تحولت منذ امد قصير جداً الى لواء ولم يتأمَّن لها بعد بناء لقيادتها العامة). كانت الغرفة، بجدرانها من الاسمنت المتداعي وسقفها المعدني الشديد الارتفاع، فرنا حقيقيا في الصيف وبراداً في الشتاء. وفي موسم الامطار كان علينا أن ننتقل بين الدلاء الموضوعة هنا وهناك حيث يدلف السقف. كنت أعمل مع فريقي بلا توان. ندرس التصاوير المعلقة على الجدران وهي ترسم لنا مسيرتنا من الحدود الاسرائيلية حتى ممر متلا. لقد ثبَّتْها هناك « عريفة » في الاستخبارات ذات ضفيرة سوداء طويلة: ليلي

شقيقة غالي الصغرى. وفي الخارج كانت السرايات تقوم بتمارينها الأخيرة. ولعلم الرجال بأني احب ان استمع اليهم ينشدون فانهم كانوا يرفعون عقيرتهم بالغناء كلما مروا أمام مركز القيادة؛ وكان في استطاعتي تمييز هذه السرية أو تلك من « نماذج » اغانيها. فالسرية ب تميل الى « استاذ العلوم والآنسة رفقه »، والسرية ث تفضل « كانت ترى ما سيفعل الثور ». أما اغنيتي المفضلة فكانت « طقطوقة ابشالوم آدم »، العريف السابق في السرية أ. كان ابشالوم آدم شاباً موهوباً جداً، وقد يكون في وسعه قيادة الضباط الآخرين. لكن « رذيلة » تهيمن عليه : كان عاجزاً عن عدم السقوط في تجربة « تحرير » نعجة أو بعض الدجاجات احياناً من احدى مزارع المنطقة، ليدعوا اصدقاءه على لحم مشوي. وكلما قبض عليه بالجرم المشهود كنت أنتزع شريطته كعريف لاعيدها اليه بعد سلوك منه يبرر إعادتها. غير أنه سرعان ما يعود الى ممارسة عادته القديمة. وتذكاراً لهذا المد والجزر كانت الفرقة أ تراوح في مكانها وهي تنشد: « ابشا طارت شريطته، ابشا طارت شريطته. المقدَّم نزعها المقدم اعادها ». قد لا يكون بين مظليي تلك الأوقات شعراء ملهمون مثل شعراء البالماخ، ومن الأكيد أنه لم يخرج من بين صفوفهم خطباء وايديولوجيون يُفتخر بهم، لكنهم كانوا يبزون باقي الوحدات بروحهم المعنوية وجديتهم.

عشية عبور الحدود ذهبت الى بئر سبع ازور عساف سيمخوني القائد العام لمنطقة الجنوب العسكرية. عندما وصلت متأخراً الى مقر قيادته العامة كان قد غادر مكتبه. وإذ كنت منهكاً نزعت جراب المؤن والعتاد عن ظهري لأجعله وسادة، ورقدت على ارض الغرفة. عند منتصف الليل ايقظني احدهم وهو يهزني. ومن خلال ظلمة الممشى تعرفت الى سيمخوني. همس يقول : « اريك، لا تنم هنا، انا عائد الى المنزل. تعالَ معي ». وهكذا امضيت آخر ليلة قبل الهجوم في غرفة الضيوف عند سيمخوني، فوق شراشف بيض — وهذا ترف لن اعرفه قبل مرور وقت طويل.

عصر اليوم التالي، ٢٩ تشرين الأول (اكتوبر)، انطلقت من مطار تل نوف ست عشرة طائرة داكوتا ونورد، حاملة كتيبة المظليين رقم ٨٩٠ بإمرة رفول ايتان. اتجهت طائرات نقل الجنود هذه، تحت حراسة المقاتلات الاسرائيلية من طراز ميتيور، الى ممر متلا، على بعد مائتين واربعين كيلومترا خلف الحدود المصرية. وكان قد لُحِظ في البدء ان يقفز المظليون فوق الطرف الغربي للممر، قرب القناة. لكن طلعات طائرات الاستطلاع، التي تمت عشية الاقلاع، كشفت وجود خيم وشاحنات مصرية — مما اضطر القيادة الى تغيير خطتها وإنزال المظليين عند طرف الممر الشرقي، قرب النصب العمودي الفرعوني المعروف باسم « مسلة باركر »، على اسم حاكم بريطاني قديم لسيناء شيدت المسلة تكريماً له[١].

فيما كان أفراد كتيبة رفول إيتان يصعدون الى متن الطائرات كان باقي اللواء يتجمع في وادي فاران حيث كنت جمعت رجالي للإغارة على كونتيلا قبل قرابة عام. وفي اثناء الساعات العشر الأخيرة التي سبقت الهجوم اجتاز اللواء النقب انطلاقاً من مخيمه قرب البحر الأحمر، حيث نظم اخراج هجومه على الأردن. وها هم الرجال يتقدمون حثيثا عبر سيناء. وسيأخذون في طريقهم كونتيلا ثم القاعدتين المصريتين اللتين تسدان طريق متلا : ثمد ونخل، وتضمان قواتٍ مصرية مهمة. غير أنني كنت عازماً على الاستيلاء عليها في اسرع وقت ممكن. فرجال رفول ايتان الثلاثمائة والخمسة والتسعين كانوا وحدهم في الصحراء، وقد تكون قوات مصرية مختبئة خلفهم الى الشمال، أو أمامهم في الممر. وكان عليّ ان اجتاز بأقصى سرعة المائتين والأربعين كيلومترا التي تفصلنا عنهم.

(١) كانت قيادة الأركان تعرف في يوم الهجوم ان هذه الخيم والشاحنات تخص المعتمدية العسكرية المصرية، لا وحدةً مقاتلة، ومع ذلك لم تتنازل وتعُدْ الى الخطة الاصلية، كما لم تطلعني على الوضع.

عندما اجتزنا الحدود طارت تشكيلات الطائرات التي تنقل قوات رفول فوق رؤوسنا، كما لو كانت تؤكد ان الحرب وقعت فعلاً. وكان رتل اللواء يتموّج في سهل كونتيلا، وفيه مئات العربات بينها سرية من ثلاث عشرة دبابة فرنسية خفيفة من طراز آ.ام. اكس (AMX) بقيادة زفي دهود. وكان قسم لا بأس به من الشاحنات والمزنجرات قد زودنا اياه الفرنسيون مؤخراً، فوضعت فوراً في الخدمة مع أنها سلمت من دون قطع غيار. فكنا عاجزين حتى عن استبدال عجلة مثقوبة بأخرى.

في المساء نفسه استولينا على كونتيلا بعد ان ارسلنا وحدة الهجوم الى خلف القاعدة حتى يتسنى لرجالها الهجوم والشمس الضاربة وراء ظهورهم. وقد اعلن الناطق باسم التساهال في الاذاعة خبر « غارة تهدف الى ازالة القواعد الارهابية من سيناء ». وهكذا بدأت المقولة الرسمية بأن الهجوم إنما هو عملية اقتصاص وليس حرباً حقيقية. (في الواقع لم يكن يوجد في سيناء قواعد للارهابيين). في اليوم التالي، مع اشعة الشمس الأولى، كنا نتخذ مواقع هجومية ضد ثمد، وهي واحة للبدو تحيطها حقول الغام وجهاز دفاع محيطي تتولاه سريتان من المشاة المصريين. وكنا قد تركنا في الطريق معظم دباباتنا التي تعطلت مع قرابة ستين عربة اخرى في الكثبان الغادرة والوديان. ففي غياب طريق للعربات كان على جرافات اللواء ان تسحب أو تجر، في بعض المواقع، كل شاحنة ومزنجرة.

بيد اننا كنا حيث يجب أن نكون، وهذا هو المهم. ارسلت اهارون دافيدي على رأس كتيبة للهجوم، والشمس في ظهورهم، فانقضوا على الواحة بحركة التفاف دائرية سريعة اشتركت فيها المزنجرات والجيبات والدبابات — او ما بقي منها. وكانت العربات تثير أعمدة هائلة من الرمل، ينيرها من الوراء ضوء الفجر الساطع. وإذ انبجسنا من بين غيوم الغبار اعدنا تشكيل قواتنا في رتل واحد واخترقنا خطوط الدفاع المصرية، فسقطت ثمد بعد كونتيلا.

ما كادت الطلقات النارية تتوقف حتى حطت طائرات البيبر على الرمال

لتخلي الجرحى، فيما طائرات الداكوتا ترمي وقوداً وعتاداً. فمعظم الصهاريج اضطررنا الى تركها في الوديان، على طريق كونتيلا، لذا جاء احتياط الوقود هذا في وقته. وبما ان المطاردات المصرية تحلق فوق المنطقة لم نستطع تجميع العربات لملئها بالوقود وتوزيع المؤونة عليها. فمعظم عربات القافلة كانت مبعثرة في الوديان وعلى الذرى، محاولة أن تختبئ من النّفاثات المصرية التي تتعقبها ولكنها لا تجسر على الانقضاض على صهاريج الوقود الا مجتمعة.

على رغم هذه الصعوبة اعطيت الأولية لعرابات موتّا غور لارسالها بأقصى سرعة ممكنة الى نخل، على بعد خمسة وستين كيلومتراً الى الغرب. تقع نخل في منتصف الطريق الى ممر متلا، وهي على عكس كونتيلا وثمد تبدو كقرية حقيقية تضم عشرة الى خمسة عشر بناء، منها مركز عسكري يأوي القيادة العامة لكتيبة أو لشرطة الحدود المصرية. في عصر ذلك اليوم كانت معركة نخل على اشدها، وسرعان ما سقطت القرية عند الهجوم الأخير بدعم من المدفعية.

كنت قد تركت الى الوراء سرية مهمتها البقاء في ثمد والسيطرة عليها. وفعلت الشيء نفسه الآن تاركاً في نخل كتيبة بأمرة اسرائيل كوهين. فعلى رغم تقدمنا السريع ونجاح عملياتنا لم أكن قد استبعدت بعد احتمال قفزة خاطفة من قبل البريطانيين والفرنسيين. وفي هذه الحالة كان يتعين عليّ ان أؤمِّن طريقاً لانسحاب قواتنا. اما باقي اللواء فتقدّم بسرعة في اتجاه الغرب نحو ممر متلا ومظليي رفول الذين كانوا ينتظرون على بعد مائة وعشر كيلومترات من نخل. وبما ان هذه كانت العقبة الأخيرة امامنا فان تقدمنا غدا سريعاً جداً.

عند الساعة العاشرة ليلاً اضاء احد انوارنا الكاشفة لافتة كبيرة مرتجلة ومثبتة الى جانب الطريق الصحراوي. قرأنا فيها بالعبرانية : « انتبه، الحدود ». خلفها كانت كتيبة رفول تنتظر، متحصنة في ارض صعبة المسالك فوق

المرتفعات المسيطرة على ممر متلا. لقد احتجنا الى ثلاثين ساعة لتحقيق الاتصال.

في اليوم نفسه عانى مظليو رفول هجومات الطيران الاسرائيلي المتكررة، وكذلك قذائف المورتر يطلقها المشاة المؤللون المصريون الذين اجتازوا الطرف الغربي غير المحروس لممر متلا. ولكن في هذا اليوم ايضاً دمر طيراننا كل عربات الرتل المصري. ووصف الطيارون الخسائر التي وقعت بالعدو، مؤكدين ان مدخل الممر بات حراً ولم يُشاهَد فيه اي حضور مصري مرئيّ.

استناداً الى هذه المعلومات قررت التقدم نحو الممر في ساعات الفجر الأولى. فإنزال كتيبة رفول امام المدخل الشرقي للممر لم تكن تغير شيئاً في مهمتنا. كان علينا أن نؤمِّن السيطرة على طرفي الممر والتمترس فيهما نقلت بالراديو الى القيادة العامة لقطاع الجنوب الرسالة الآتية : « نحن نتقدم وفقاً للخطة »؛ كذلك طلبت ان يكون دعم الطيران جاهزاً عند الفجر. وبعد ان تفقدت المواقع وجدت وادياً صغيراً آخذ فيه غفوة. كان يصعب علي أن اصدق اننا اجتزنا مائتين وثلاثين كيلومتراً في عمق شبه جزيرة سيناء. كنت اشعر كما لو كنا نزال على الحدود.

عند الثالثة فجراً استلمنا برقية من قيادة الاركان تعلمنا أنها لن تتمكن من تأمين مساندة الطيران لنا. اثارت البرقية قلقي. قلت في نفسي : اذا كان الأمر كذلك سنتدبر امرنا من دونهم. وهكذا غفوت على هذه الفكرة. لما استيقظت كان الرتل قد تشكل من جديد، وعند السادسة صباحاً اصبح جاهزاً للرحيل. ولكن في اللحظة نفسها التي شهدت اشارة الانطلاق اعلمتنا برقية اخرى أن مشروعي لاجتياز الممر غير موافَق عليه وامرتني بعدم التحرك. في تلك اللحظة برزت اربع مطاردات مصرية في السماء وحلقت فوق الرتل في مستوى الأرض تقريباً. ارتعبنا وتابعنا مناورات الطائرات التي ما عتمت ان اعملت فينا قصفاً انقضاضياً.

فيما كانت الطائرات المصرية تستعد لانقضاض آخر انطلقت فجأة طائرتا ميتيور اسرائيليتان في اثرها وهما تصليانها ناراً حامية. وما مرت دقيقة حتى اشتعلت طائرتان عدوتان فيما راحت الاثنتان الباقيتان تناوران بيأس للتملص. وبعد بضع ثوان هبطت احداهما مدوِّمة تاركة وراءها خطاً من الدخان. اما الرابعة فلم تعد سوى نقطة تكاد لا ترى في سماء الصباح.

الآن اخذت طائرات اسرائيلية اخرى تحلق فوقنا. اعطاني ظهورها شعوراً لا يوصف بالامان ــ كما لو أن أحد أهل البيت بسط ذراعين طويلتين وقويتين ليحميك. واشار الينا الطيارون ان الممر يبدو خاوياً، لكنهم اعطونا ايضاً معلومات مثيرة للقلق : كان لواء مدرع يتجه نحونا آتياً من بير جفجافة، وهو لا يزال على بعد خمسة وستين كيلومتراً.

قلت في نفسي انه خبر سيئ. كنت اقود الفا ومائتي رجل، وفي حوزتي بعض مدافع الميدان، وثلاث دبابات صغيرة آ.ام.اكس. وعدة مدافع غير مرتدة فرنسية الصنع أُنزلت بالمظلة لرفول. كل ذلك لم يكن كافياً لصد لواء مدرع. كنا وحدنا، بعيداً خلف الخطوط المصرية، لا امل لنا بنجدة ما. والأرض التي تحض فيها رجال رفول كانت مكشوفة تماماً : هضبة شاسعة لا توفر اي وسيلة دفاع طبيعية ضد دبابات ومشاة مدرعين. فلم يبق سوى ان ندخل الممر ونتخذ مواقع دفاعية في الأماكن التي تشكل فيها الاجراف والمضائق عوائق طبيعية ضد دبابات المصريين.

طلبت مرة اخرى من الأركان السماح بدخول الممر. ومرة اخرى جوبهت بالرفض. ولكن اعلموني ايضاً ان القائد العام لمنطقة الجنوب العسكرية قد يأتي شخصياً الى المكان لدراسة الوضع. وفي الواقع سرعان ما اتت طائرة بالقائد ــ الملقب بـ « غاندي ». راجعنا سوية الاحداث الأخيرة وقوّمنا المعطيات الميدانية. وافقني غاندي على نظرتي الى الامور لأنه سمح لي اخيراً أن ارسل الى الممر وحدة استطلاع، شرط الا اتورط في عمل واسع النطاق.

قال : « تستطيع الولوج الى ابعد حد تراه مناسباً، ولكن لا تشتبك في معركة ». كذلك اعلن لي ان دايان نفسه سيزورنا بعد الظهر.

جمعت حالاً وحدة لاستطلاع ما في الممر. كنت اريدها ان تقطع ثلاثين كيلومتراً ونيف حتى طرفه الغربي وتتخذ وضعاً دفاعياً ضد هجوم مصري من تلك الجهة. ويستطيع باقي اللواء أن يدخل بدوره فينتشر على نحو يمكّنه من مجابهة القوى المدرعة العدوة الآتية من بير جفجافة. ولإتمام هذه المهمة جمعت الدبابات الثلاث وسريتي مشاة مدرعتين. واصدرت الى قائد الوحدة موتّا غور امراً صارماً بتجنب اي اشتباك. لم أكن اعتقد أن الوحدة ستصطدم بمقاومة ما في الممر، لأن طيارينا الذين حلقوا فوق المكان في الصباح لم يشاهدوا غير شاحنات مفحّمة. غير أنني أفهمت موتّا غور أنه اذا واجه مقاومة فعالة عليه أن يفك الاشتباك حالاً.

انطلق موتّا. وما توغل قرابة الف وخمسمائة متر في الممر حتى تلقت المزنجرة الأولى وابلا من الرصاص الصادر من مواقع خفية واقعة في أعلى سفوح الممر. قُتل السائق على الفور، وقفزت العربة الى جانب الطريق وتوقفت. تابعت المزنجرة الثانية طريقها قبل أن يجمدها في مكانها رشق من رصاص.

لو عرفت أي وحدة اخرى وضعاً كهذا لانتهى الأمر عند هذا الحد. فالأرجح انها كانت ردت منسحبة لاعادة تقويم الوضع، من دون ان تتورط اكثر. لكن المظليين قدوا من مقلع آخر. فخلال سنوات طويلة من التدريب والتعليم ما وَنَيْتُ أكرِّر على مسامعهم هذا المبدأ: إياكم ان تتركوا في ميدان المعركة رفيقاً جريحاً او قتيلاً. وقد جعلت من هذا المبدأ قانوناً فعلياً، وما تركت مناسبة الا وذكرتهم به. وها أنا اليوم شاهد على نتائج هذه التربية : عندما اصيبت العربتان الأوليان، هجم عليهما المظليون الآخرون، بردة فعل طبيعية، لإخلاء الضحايا. وهذا هو تماماً ما فعله موتّا غور، على رغم الأوامر

بتحاشي المعركة. وعندما انطلق المظليون لمساعدة رفاقهم وجدوا انفسهم في خضم معركة لا ترحم.

لم أَلُمْ قط موتّا غور على عمله هذا، على رغم ما اسفر عنه من نتائج. كنت أعلم أن هذا النمط من الفعل ورد الفعل كان طبيعة ثانية عنده. فضلاً عن أنني كنت مقتنعاً بأنه انما فعل ما كان ينبغي له أن يفعل. يمكن لبعض الافعال ان تبدو غير مبرَّرة حال حدوثها. مثل المخاطرة بحياة عدد كبير لتخليص بعض الجرحى. لكنَّ هذه الأفعال نفسها اذا اعيد النظر اليها في ما بعد قد تفيد معنى آخر. والحال ان جودة جيش ما تبنى دائماً على نظرة بعيدة الأمد. فالمبدأ القائل بعدم ترك رفاق قتلى او جرحى قد رسخ بعمق في قلب جنودنا وروحهم حتى أنهم يبذلون دائماً قصاراهم للعمل به، لأنهم يعلمون أنهم هم أنفسهم لن يتركوا ابداً في ارض المعركة.

إنها قضية تربية، وانه لمبدأ حديدي. لا يترك القتيل ابداً. ولا يتخلى الرفاق ابداً عن جريح. وتلك قيمة ادبية في نظري. يضاف الى ذلك ناحية شخصية ايضاً : كنت اعرف ماذا يعني أن يكون المرء جريحاً متروكاً في ارض المعركة، لأني خبرت ذلك بجسدي؛ وكنت اعرف ايضاً ما يستشعره جريح عندما يهرع رفاقه لنجدته مخاطرين بحياتهم، لأني عشت هذه التجربة أيضاً في الإغارة على دير البلح، عام ١٩٥٤. لذلك لم انظر قط الى هذا الموضوع نظرة باردة من خلال الارباح والخسائر فحسب. فبعض القيم الادبية يجب أن يُحافَظ عليها باستمرار في الجيش. ومن بينها هذا الواجب تجاه اخوة السلاح.

كان موتّا غور قد تورط في مأزق. لكنه واصل تقدمه من دون أن يتردد ولو لحظة. وهكذا وجد نفسه يخوض معركة ضد كتيبة مشال مصرية كاملة، متحصنة في سفوح الممر الضيق وفي مغاور اجرافه التي لم يستطع طيارونا رؤيتها.

فيما كان موتّا غور ورجاله يقعون في الكمين هاجمتنا مطاردات مصرية

ونحن في ارض مكشوفة عند مدخل الممر. كانت من طراز ثامبير ذات الصنع البريطاني والمستخدمة في سلاح الطيران المصري. ومعلوم أن شعارَيْ سلاح الجو البريطاني والمصري يتشابهان الى حد المزج بينهما. ثلاث دوائر مشتركة المركز، زرقاء وبيضاء وحمراء تباعاً عند البريطانيين، ولكن خضراء وبيضاء وحمراء تباعاً عند المصريين. وكان حذري من البريطانيين شديداً لدرجة أنني حتى عندما اطلقنا النار على هذه المطاردات لم أكن مقتنعاً كلياً أنها بالفعل طائرات مصرية.

٣١ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٦. الاذاعة تُعلِمنا ان لندن وباريس اصدرتا انذارهما كما هو متوقع ـ لاسرائيل ومصر على حد سواء. فقبلته اسرائيل ورفضته مصر، كما كان متوقعاً ايضاً. وفي الواقع كان على البريطانيين والفرنسيين ان يباشروا بعملياتهم الحربية، لكنهم لم يكونوا قد تحركوا بعد. وفي اللحظة ذاتها افادتنا تقارير طائراتنا الاستطلاعية ان الرتل المؤلل المصري يتابع تقدمه نحونا.

الوضع خطير. فنحن معرَّضون على نحو كامل في ارض مكشوفة عند المدخل الشرقي لممر متلا. وكان عدد كبير من رجالي قد اصبح عاجزاً عن القتال. وعليّ ان اتخذ اجراءات فورية لإعداد نظام دفاعي ضد رتل العدو المؤلل، الذي يقترب منا كل دقيقة، وكذلك لإخلاء الجرحى. وبما أن المعركة في داخل الممر كانت تزداد اتساعاً ارسلت رفول ودافيدي لنجدة موتّا غور؛ ثم جعلت باقي جنود اللواء في وضع دفاعي على جانبي المدخل الشرقي للممر. كنت أعلم أن هذه التحضيرات غير كافية لمواجهة الخطر الزاحف علينا من الشمال، لكنها على الاقل تزيد من حظوظنا.

في الساعات الأخيرة من بعد الظهر كانت الترتيبات الدفاعية قد انجزت. وخلال هذا الوقت دخلت في جدال مرير مع سلاح الطيران لإخلاء الجرحى. فالطيارون يخشون، في غياب مطار، الا يتحمل الرمل الرخو طائرات غير

البيبر. فاللجوء الى الداكوتا شديد الخطر ... وامام عنادي كُلِّف طيار بالمجيء ليفحص شخصياً طبيعة الأرض؛ وجاء الفحص ليحسم الموضوع: الخطر قليل والمجازفة واجبة. وهكذا بدأت طائرات الداكوتا، الملقبة بـ « احصنة الجر »، تحط في العشية الواحدة تلو الأخرى، لتعود فتقلع فوراً بعد تحميل الجرحى، تاركة وراءها سحابة طويلة من الغبار. انها لمعجزة حقيقية صغيرة ...

في تلك الاثناء كانت المعركة محتدمة في الممر. وفيما كان موتّا غور ورجاله مسمّرين تحت نار العدو استدارت وحدة استطلاع حول المرتفعات اليمنى في محاولة لمباغتة المصريين من الخلف ومهاجمتهم من عُلُ. وبعد ان بلغ الجنود القمة وتحضّروا لنزول المنحدر جوبهوا بوابل من الرصاص الآتي من المغاور والنتوءات في الجهة المقابلة. ولعجزهم عن تحديد دقيق لمصدر اطلاق النار افترضوا انه تحتهم فنزلوا بسرعة في المنحدرات الصخرية. وهناك قُتل العديدون منهم فيما انحصر الباقون بين نيران متقاطعة صادرة عن المراكز المصرية التحتية وعن مراكزهم في المنحدرات المقابلة.

بعد ان احبط المصريون هذا الهجوم استمروا يطلقون النار الى اسفل في اتجاه المظليين الذين كانوا يتلطّون ما امكنهم ذلك خلف اي نتوء أو قَلْع. كان رجالنا لم يجددوا بعد المواقع العدوة، فتشبثوا بمواقعهم وقاوموا بكل قواهم. وفي وقت ما من بعد الظهر تبرع الجندي يهودا كندرور باجتياز الممر بالجيب ليجذب نحوه النيران المصرية، على أمل أن يتيح لرفاقه تحديد مواقعها. وقد جرح جرحاً بليغاً في لعبته هذه مع الموت، لكنه نجح مع ذلك في العودة زاحفاً بعد ان بذل جهداً خارقاً. وبعد اخلائه الفوري توفي بعد وقت قليل في المستشفى. لكنه ضحى بنفسه عبثاً : فالوضع الميداني ظل على حاله.

بعد ان تكبد موتّا غور خسائر فادحة لم يستطع الانسحاب الا عند العصر مع وصول اسحاق هوفي على رأس قوة مؤلفة من دبابتين وبعض المزنجرات. كان هوفي، مساعدي في اللواء، في رفقة موتا عندما انفجر اطلاق النار. لكنه

اكمل هجومه على رأس مدرعاته واجتاز الممر على امتداده حتى فتحته الغربية حيث بقي طوال النهار. وها هو يعود فتغطي دبابتاه الـ آ.ام.اكس. بنيرانهما الغزيرة جنود المظليين متيحة لهم التخلص من الفخ الذي وقعوا فيه.

اذ ذاك حددت المواقع المصرية. وبعد هبوط الظلام ارسلنا وحدتين صغيرتين على طول السفحين الصخريين للممر. وحدة السفح الايمن قادها ليفي هوفش، والأخرى قادها اوديد لادجينسكي. تقدمت الوحدتان ببطء على امتداد الجرف الشديد النتوءات وراحت تُسكت المغاور واحدة بعد الأخرى في معركة بالسلاح الأبيض. وظلت اصداء المعركة تدوّي في الممر طوال ساعتين. وحوالي الساعة الثامنة خف الضجيج شيئاً فشيئاً، مخلّفاً وراءه صمتاً منذراً بالشؤم.

في ذلك المساء كنت في الممر مع قادة مختلف الوحدات، وما زلنا جميعاً تحت وقع الانطباع المضني عن معركة النهار وقلقين مما تخبئه لنا الساعات المقبلة مع وصول الرتل المصري المدرع عند الصباح. وفي اثناء ذلك اعدنا انتشار قواتنا. كذلك امرت بنقل قوات الى الممر بعدد كاف لتصفية ما يكون قد تبقى من جنود مصريين فيه مع طلوع الصباح، واستبعاد اي مفاجأة مزعجة في مؤخرتنا. عزاؤنا الوحيد اننا استطعنا اخلاء جرحانا : اكثر من مائة.

انتهت معركة ممر متلا مع اطلالة خيوط الفجر البيضاء. وقد احصينا في المغاور والتحصينات على جانبي الممر مائتين وستين جثة مصرية. واذا كان ثمة ناجون فلا بد أنهم تسللوا هاربين تحت جنح الظلام. لكننا خسرنا ايضاً ثمانية وثلاثين قتيلاً، ومنهم اوديد لادجينسكي الذي قُتل وهو يرتمي فوق قنبلة يدوية ليخلص حياة ملازمه الأول.

في الشمال ساد أيضاً الصمت المطبق. قامت طائرتا البايبر باستكشاف الصحراء بحثاً عن الرتل المدرع المصري فلم تجدا اثراً له. وجاء ذلك ليؤكد

المعلومات الأخيرة القائلة ان ذلك اللواء استلم في تلك الليلة نفسها امراً بالانسحاب نحو الضفة الغربية للقناة تحسباً للتهديد البريطاني الفرنسي بالتدخل.

في هدوء ذلك النهار شعرت فجأة بتعب كبير. جمعنا قتلانا في جو من الحداد والحزن الفائقين. هؤلاء عرفتهم كلهم تقريباً عن كثب. وبعضهم كانوا يُعدون من افضل جنودنا والمع ضباطنا.

اثارت معركة متلا غضباً كبيراً وانشقاقات عميقة إن في صفوف المظليين او بين الأركان (وخصوصاً دايان) وبيني. واكثر من انتقدني في هذا الأخذ والرد هو موتّا غور. فقد كان عليّ، في نظره، ان اقود العمليات شخصياً بدلاً من أن ابقى عند المدخل الشرقي للممر لتنظيم الدفاع وإخلاء الجرحى. ودايان، من جهته، اشتكى من مخالفتي التعليمات بارسالي قوات مهمة الى المضيق، بدلاً من ارسال وحدة استطلاع واحدة، وكذلك من خوضي المعركة على رغم الأمر الصريح بتحاشيها.

بعد حملة سيناء كُلِّفَتْ لجنة تحقيق الحكم في ما اذا كنت تصرفت وفق الاوامر أو أنني تجاوزتها. من وجهة نظري لم يكن علي ابداً ان اعتذر عما بدر مني. فاذا كنت لم اقد المعركة شخصياً فذلك لأنني كنت اعتبر أهم منها اتقاء الخطر الذي يهدد قواتنا متمثلاً باللواء المدرع المصري الآتي من الشمال صوبنا. ثم أن مساعدي اسحق هوفي وقائدَي كتيبتين هما موتّا ورفول كانوا موجودين آنذاك في المضيق. لذلك كان يمكنني ان اكرس نشاطي لمهمة كنت اعتبر أن لها حق الأولوية في ذلك الوقت : تنظيم اللواء في تشكُّل دفاعي. ولهذا السبب عينه ارسلت قوة مهمة نسبياً الى الممر، ليس بقصد الاشتباك مع العدو بل لاختراقه حتى طرفه الآخر، إذ كان من شأن هذه العملية ان تتيح للواء الانتشار في عمق المضيق، منتظراً بقدم ثابتة الرتل المصري المدرع.

حملة سيناء ١٩٥٦ :
لواء المظليين هو الاول في المعارك

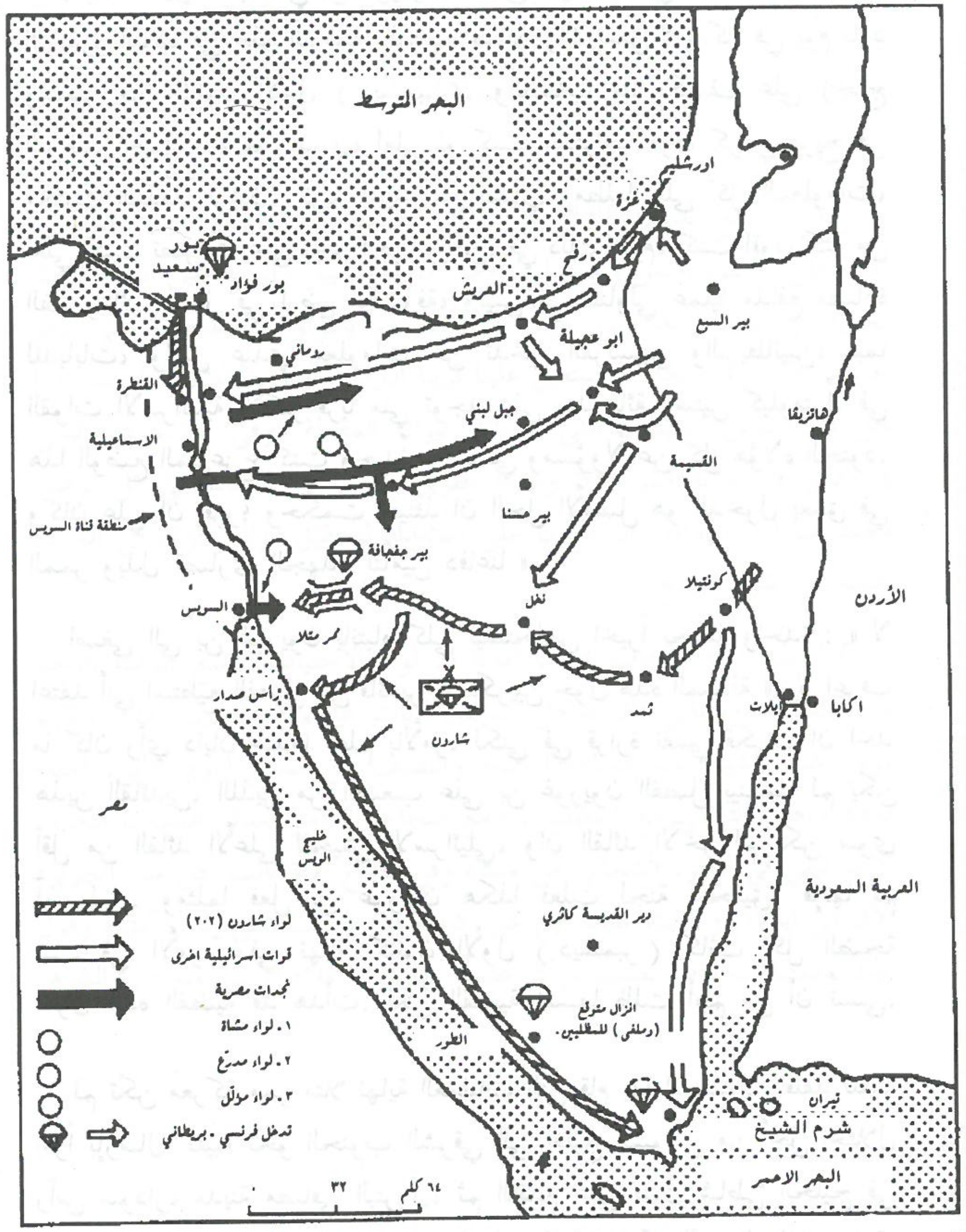

كانت حملة سيناء (عملية قادش) حرباً وقائية هدفها تفكيك القوة العسكرية المصرية المضادة لاسرائيل، وفك الحصار البحري عن مضائق تيران، واحتلال قطاع غزة لتحييد التهديد التنامي للجيش المصري وللارهاب فيه. وقد احتلت قطاع قناة قوات فرنسية - بريطانية. وسجل لواء المظليين ٢٠٢ ـ بقيادة شارون، اعمق توغُّل خلف خطوط العدو.

بعد التحقيق طلب مني بن غوريون ان آتي لأراه. سألني : « اذا كان عليك أن تقرر اليوم، في هذه اللحظة بالذات، فماذا تراك تفعل ؟ » كنا في يوم بارد وممطر من كانون الأول (ديسمبر)، والضباب قد تكشف على زجاج النوافذ. اجبت : « هل تدري، لعلي لو كنت مسترخياً فوق كرسي مريح في مكتبك المدفأ، ارشف كوباً لذيذاً من الشاي ومطلعاً على كل المعلومات، لعلي كنت تصرفت على نحو آخر. ولكن، في ذلك اليوم، كنت اقود اكثر من الف ومائتي رجل في ارض مكشوفة، وليس في متناولي عملياً مدافع مضادة للدبابات، وليس عندي معلومات عن تدخل الفرنسيين والبريطانيين، فيما القوات الاسرائيلية الأكثر قربا مني توجد على بعد مائة وستين كيلومتراً. في هذا الوضع المتزعزع كنت وحيداً مع نفسي ومسؤولاً عن كل هؤلاء الجنود. وكان علي ان اقرر؛ وحكمت حينئذٍ ان الحل الأفضل هو الدخول بعمق في الممر وبذل قصارى الجهد لتأمين دفاعنا ».

اصغى الي بن غوريون بانتباه كلي ليستخلص اخيراً بجملة واحدة : « لا اعتقد أني استطيع الفصل بين قائدين عسكريين حول هذه المسألة ». لا اعرف ما كان رأي دايان عندما أُعلم بالأمر، لكني في قرارة نفسي فكرت ان احد هذين القائدين، اللذين من الصعب على بن غوريون الفصل بينهما، لم يكن أقل من القائد الأعلى للجيش الاسرائيلي، وان القائد الآخر لم يكن سوى آمر لواء. ومثلما فعل بن غوريون هكذا فعلت لجنة التحقيق، فإنها لم تبت في الأمر، وفي نهاية كانون الأول (ديسمبر) كانت كل الضجة حول هذه القضية قد هدأت. لكنَّ القضية نفسها ظلت أهم من أن تُنسى.

لم تكن معركة ممر متلا نهاية العمليات التي قام بها المظليون. فلقد تلقينا امراً بإرسال كتيبة نحو الجنوب الشرقي الى خليج السويس من أجل احتلال رأس سودار، مدينة مصافي البترول، ثم التقدم على طول شاطئ الخليج في اتجاه شرم الشيخ. وفي التاريخ نفسه انزلت كتيبة موتّا غور بالمظلات فوق الطور الواقع على احد سفوح الشاطئ نفسه. وبينما كان المظليون يقتربون من

ضفة قناة السويس كان رئيسي السابق وصديقي القديم ابراهام يوفّيه ينطلق على رأس لواء الاحتياط التاسع للمشاة بسرعة جهنمية متخطياً كل الحواجز على امتداد خليج العقبة. وكان الرتلان يتسابقان للوصول اولا الى شرم الشيخ، هذا الموقع المصري الحصين.

كان الوضع الدولي آنذاك في غليان. فالسوفيات والأميركيون يضغطون بقوة على لندن وباريس واورشليم. ومع أن الفرنسيين والبريطانيين انزلوا قوات بحرية في بور سعيد وبور فؤاد، الا أنهم لم يكونوا قد تدخلوا على نحو حاسم. وكان واضحاً انه سيتعين علينا قريباً أن نقبل وقفا لاطلاق النار — ربما قبل ان نضمن السيطرة على مضائق تيران المقفلة. وفي ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) غادرنا ممر متلا وعدنا بطريق الجو الى قاعدتنا في تل نوف. وصدرت الينا الأوامر بأن نكون على استعداد لتحقيق انزال جوي في المساء نفسه في شرم الشيخ.

كنا على اهبة الذهاب عندما أُفدنا ان لواء الاحتياط التاسع سوف يقتحم شرم الشيخ، وبالتالي فان تدخل المظليين بات عديم الجدوى. وقد استسلم موقع شرم الشيخ عند الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي. احتله يوفّيه وحقق التلاقي مع المظليين. ومع النجاح الكامل لسائر عمليات الجيش الاسرائيلي في الجزء الشمالي من سيناء وفي قطاع غزة باتت كل شبه الجزيرة الآن في ايدينا. وكانت سبعة ايام غير كاملة قد انقضت على إنزال كتيبة رفول ايتان بالمظلات قرب نصب باركر عندما رفعت الاعلام الاسرائيلية على الشرم.

بدايات ونهايات

بعد الغاء عملية الانزال في شرم الشيخ قررت أخذ اجازة قصيرة لزيارة اهلي. كانت غالي آنذاك حاملاً بعد سنوات عقيمة كانت تنذر بأننا لن ننجب ابداً. كنت اتحرق شوقاً الى رؤيتها واتلهف لمشاهدة بيتنا الجديد. في السنوات الثلاث الأخيرة سكنّا في بير يعقوب بيتا ضيّقا لم يستطع حتى احتواء بعض اثاثنا المتواضع في اورشليم. وقبل حرب سيناء بقليل ابتعنا بيتاً في تساهالا، المجمع السكني من بيوت صغيرة مخصصة للعسكريين المحترفين في ضاحية تل ابيب. وكنا منهمكين في الانتقال عندما اشتعلت الحرب، فوجب علي ترك هذه المهمة الصعبة على غالي وهي في شهرها السابع.

هذا البيت الصغير، الذي كان يخص الجنرال حاييم لاسكوف، يعكس جيداً الطبع المتواضع لمن كان يقطنه. وعلى رغم تواضع المسكن كنت اسعد انسان في العالم لأني توصلت اخيراً الى ان يكون لي وزوجتي مسكننا الخاص. لم تكن هذه حال والديّ، خصوصاً والدي الذي كان يأمل في ان نبني مسكننا في كفرملال، بل خصص لهذا المشروع ارضاً رآها مناسبة في احد الكروم الذي كان يحرثه قرب وسط القرية. ولذلك عندما جاء الى تساهالا القى نظرة مستهجنة حوله قبل أن يعلق : « انت ترتكب خطأ. هذا المكان ليس صالحاً. لماذا لا تعود للعيش في المزرعة التي هي منزلك ؟ لا يمكنك أن تعيش بعيداً من الأرض ».

كان ابي مريضاً جداً آنذاك. وقبل الحرب بقليل ادخل مستشفى تل هامشمار ليعود الى المنزل قبل اندلاع المعارك. لذا توجهت مباشرة لرؤية والديّ. كنا سعداء في تلاقينا وفي احاديثنا عن كل شاردة وواردة. كنت أعلم أن والدي فخور جداً لأن ابنه يقود لواء المظليين، وفي سنواته الأخيرة كان فخره هذا مصدر فرحه الأكبر. وفي ذلك اليوم قال لي انه يتهيأ للعودة الى المستشفى فتكوّن لدي انطباع انه يخشى هذه المرة ألا يعود بتاتاً.

امضيت بقية النهار مع غالي في بيتنا الجديد. ثم ذهبت عند بن غوريون الذي كان سألني ان ازوره في مسكنه في تل ابيب. وجدته مسمراً في السرير محموماً. كان متشوقاً لمعرفة تطور الأحداث، لكنه بدا ايضاً شديد القلق. فالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يمارسان سوية ضغطاً عنيفاً على اسرائيل. وفي هذا اليوم نفسه هددتنا موسكو بالعمل من طرف واحد. وكانت الامم المتحدة قد اصدرت وقفاً لاطلاق النار وفرضت انسحاب القوات الاسرائيلية السريع. وكان على بن غوريون، وهو لما يذق طعم النصر، ان يواجه مرارة اضطراره الى التخلي عن ثماره، ومنها القرى التي امر ببنائها على الحدود بين قطاع غزة ومصر.

استغرق اتفاق ترتيبات سحب قواتنا من سيناء شهرين. وقد ملأ الفراغ قوة متعددة الجنسيات من الأمم المتحدة. خلال هذه الحقبة طفت بمظليينا كل ارجاء شبه الجزيرة : تسلقنا كل التلال واجتزنا كل الوديان وصعدنا الى كل الجبال وردُنا كل مجاري السيول. كنت اريد ان يستوعب الضباط الى الحد الاقصى طوبوغرافية الأرض، لوقت الحاجة. وبمساعدة الطيران رتبنا مخابئ طعام وماء للطيارين الذين قد يجدون انفسهم في الصحراء بعد قفزهم بالمظلة. كنا، في سباق مرير مع الوقت، حركةً دائمةً : نشاهد كل شيء ونسجل كل شيء ونشكل اكواما من السجلات الموضّحة بخرائط ورسوم تخطيطية ولوحات وصور فوتوغرافية شاملة لشبه جزيرة سيناء. انا شخصياً لم اكن

مقتنعاً البتة بقدرة منظمة الامم المتحدة على توفير حل ما. وبناء على هذا الاعتقاد فليس ما يمنع من ان نضطر يوماً ما الى الرجوع.

لم اهضم ابداً إخلاء سيناء، وخصوصاً لم استطع استيعاب ترك قطاع غزة والقرى بناها بن غوريون فيه. فالارهاب المستوطن في هذه المنطقة هو من المشاكل الكبرى التي ادعينا حلها بهذه الحرب. كان هدفنا الأول اجبار مصر على تحمل مسؤولياتها بوضع حد للارهاب. وها المصريون يعودون الى غزة ! بكلام آخر، لم نفعل شيئاً ...

في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٦ كنا في اجتماع للضباط مخصص لتحليل حملة سيناء عندما استلمت برقية تعلن ان غالي انجبت صبياً : اعجوبة، في نظري. لقد حلمنا نحن الاثنين بعائلة عديدة، لكننا سرعان ما خففنا من غلوائنا. فقبل سنتين قيل لنا إن غالي لن تستطيع الحمل ابداً. وهذا النبأ ارخى ظلاله على سعادتنا. ولذلك كان فرحنا بالحمل وبانتظار الوضع شديداً. والآن ها انا اسرع الخطى نحو دار التوليد في يافا لاشاهد صبياً بدا لي خارق الجمال، وهذا الصبي هو ابني ! ... كنا نسبح نحن الاثنين في السعادة.

بعد ثلاثة أيام اسلم ابي الروح. كان قد وضع في المستشفى قبل العدوان الثلاثي وكنت اذهب لعيادته بقدر المستطاع، لا بقدر رغبتي، بسبب احداث سيناء ووشوك الولادة. وامس زرته للمرة الأخيرة. قال لي حينذاك شيئاً وجدته غريباً ولكنه سيأخذ كل معناه الحقيقي بالنسبة اليّ في ما بعد. فإذ وجدته راقداً في وضع غير مريح انهضته بين ذراعي وامنت له وضعاً مريحاً. احسسته بين يديّ خفيفاً وضعيفاً مثل ولد صغير، فانعصر قلبي. وهمس لي وهو بين ذراعي : « انه لأمر مؤسف ان اكون موشكاً على الموت. فما زلت في حاجة الى مساعدتي في امور كثيرة ... »

بدت لي تلك الكلمات غامضة وليست في محلها على كل حال. كان عمري ثماني وعشرين سنة، وكنت شاباً وقوياً، حازم الطبع، واثقاً من نفسي

على نحو لا يُعلى عليه. وكنت على رأس لواء المظليين وقد اشتركت في كل المعارك. وكنت في عمر يقتنع فيه المرء أنه قادر على كل شيء وانه خالد وقادر على غزو العالم. فيأتي اليوم والدي، ورجله في القبر، ليوشوش في اذني : « ما زلت في حاجة الى مساعدتي » : كان لهذه الكلمات في نفسي وقع المفارقة. وظللت اتذكرها على مر السنين، وفهمت آنذاك انه كان يعلم جيداً ما يقول وانه كان على حق.

توفي ليلة ٣١ كانون الثاني (ديسمبر). وقد لازمته والدتي طوال مرضه في المستشفى. لكنه في ذلك المساء، اذ استشعر نهايته، طلب منها أن تذهب الى المنزل لتأتي بوصيته. وهكذا تركته وحده. وفي ساعة متقدمة من الليل احس ان ساعته الأخيرة قد دنت، فاستدعى الممرضة الساهرة ليهمس في اذنها كلماته الأخيرة: وداعه لأُمي.

في الواقع، لم أكن أعرفه على حقيقته. ففي طفولتي كنا جميعنا منشغلين كثيراً. ثم حدثت حرب الاستقلال؛ ثم الوحدة ١٠١ والمظليون. ومنذ ربيعي السابع عشر لم اعد اعيش فعلاً في المنزل. قد يكون امراً سوياً الا يقدر الاولادُ اهلَهم حق قدرهم الا متأخرين. وبالنسبة الي، لم تظهر لي العلامات الاولى لهذه الحقيقة، للأسف، الا مع الصدمة التي احدثها فيّ موت والدي.

من جهة اخرى، كانت تلك الأيام غنية بكل انواع العبر والمصائب. ففي نهاية سنوات عديدة من حرب ضروس تبعت حملةَ سيناء، ذروة هذه الحرب، غبطة حقيقية. ولكن مع عودة المصريين التي بدت اكيدة آنذاك، الى قطاع غزة، بدا الافق من جديد مكفهراً. فمنذ ١٩٤٧ لم تكن حياتي غير عمل متواصل ـ والآن ايضاً، في نهاية هذه المرحلة، لم أكن اعرف الراحة. في اثناء النهار أعمل بسرعة لأنهي قبل انسحابنا المشروع الضخم القاضي بمسح طوبوغرافي كامل لصحراء سيناء. وفي الليل تنتابني كوابيس مخيفة لحمتها المعارك وسداها القتلى. وفي الوقت الحاضر جاءت الولادة غير المنتظرة لهذا الابن الرائع ـ فيما كان والدي يصارع الموت ...

بين ولادة ابني وموت أبي أقام بن غوريون حفلة استقبال على شرف كل كبار الضباط الذين شاركوا في حملة سيناء. قبلت الدعوة. وفي وسط كل الضباط المتجمعين سمعت فجأة بن غوريون ينادي بكل قوة صوته : « هل اريك هنا ؟ اين هو ؟ ليأتي ويجلس هنا، قربي ! » ومرة اخرى التقطت الكلمات التي طالما سمعتها في الماضي، وشاهدت النظرات الجليدية يرمقني بها ضباط اعلى مني رتبة وسناً. وبدأ السيناريو نفسه من جديد — وكنت أعرف جيداً مسراه ونهايته. ولكن ما همني ؟ فقد كنت أحب الجلوس بقربه، كما في هذا المساء عندما كنت اراقبه وهو يتكلم.

خصوصاً في اثناء الاستعراض. لان اورنا بورات، احدى فضلى ممثلات المسرح عندنا والمرأة المثيرة للاهتمام، لعبت مشهداً من احدى مسرحياتها؛ وبدا بن غوريون مأخوذاً بالمعنى الحرفي للكلمة، وكان يفترسها بعينيه ويضرب بحركة تلقائية الكرسي المجاورة بايقاع ينمّ فعلاً عن انفعاله الشديد. وعندما اكملت الممثلة اداءها دعاها بن غوريون للجلوس قربه ليتحدث اليها. وفهمت فجأة، للمرة الأولى، ان بن غوريون كان ايضاً كائناً من لحم ودم. فهذا الرجل الكبير، المهتم بكل مشاكل العالم والكَلِف بالفلسفة والعلوم، مَن يشارك في كل مناقشات علمي الاخلاق والسياسة العالميين، ويخوض كلياً معركة من اجل مستقبل الشعب اليهودي، ويواجه التهديدات العربية ... هذا الرجل بان لي على حقيقته : كائناً بشرياً. ففي اثناء اداء اورنا بورات شاهدته يضرب بيده رجل الكرسي، وقد ثبّت عينيه فيها، وفيها فقط، وهو يتحرق شهوة. في ايامنا بات الجميع على علم بعلاقاته الغرامية معها، وليس في الأمر ما يدعو الى الاستغراب. ولكن في تلك الأيام، عندما كنت شاباً، كانت مثل هذه الأسرار في طي الكتمان؛ ذلك ان « اسرار الحياة » كانت في ايام جيلنا تظل محجوبة بخفر. والحال ان احد هذه الأسرار انكشف لي في تلك الليلة بالذات.

بقيت قائداً للواء المظليين حتى خريف العام ١٩٥٧، عندما طلب مني

دايان ان اذهب الى بريطانيا لأمضي سنة دراسية في مدرستها الحربية. قال لي : « في الواقع، لا يهمنا نهجهم، ولهذا السبب لن تكون العقيدة القتالية اساس دروسك. فما يهم هو ان تلتقي اناساً هناك؛ تعلم اللغة وحاول ان تفهم طريقتهم في التفكير واطلع على حضارتهم ونمط عيشهم... ».

في هذا الترتيب من الأولويات كان دايان قد رسم قواعد : خلال الاسبوع على ضباطنا ان يعيشوا في المدرسة الحربية، او المعهد، في منطقة سارّي، مع زملائهم البريطانيين، ليتعرفوا الى عاداتهم واعرافهم ونمط حياتهم. في اثناء ذلك، يتعين على زوجات الضباط واولادهم ان يسكنوا لندن، وفي نهاية الاسبوع يجتمع الشمل فيتذوق الجميع سوية حياة البلاد الفتية : الموسيقى والمعارض والمسرح، المتوفرة في لندن، لتمثُّل الثقافة الانكليزية على افضل نحو. وهكذا استأجرت في نهاية ايلول (سبتمبر) شقة لغالي وغور شموئيل، وكان لا يزال في شهره العاشر ويُبدي منذ ذلك الوقت امارات الفتنة التي ستظل سمة طبعه. أما أنا فاستقريت في حي ضباط المعهد.

كانت الحياة مع الجيش البريطاني اختباراً بارزاً ومختلفاً جداً عن شغب مظليينا وعاداتهم الفظة. استيقظ عند الصباح على صوت يكاد لا يسمع، عندما يزيح الجندي الوصيف ستائر النوافذ لينير الغرفة. وما إن افتح عيني حتى يقف الى جانب سريري حاملاً كوباً من الشاي المغلي فوق صينية — كل ذلك لتخفيف خشونة الإيقاظ. كنت اقفز خارج السرير فيما الوصيف يهتم بإسالة ماء الحمام وفق الحرارة الصحيحة؛ ثم يُخرج بزتي العسكرية مكوية تماماً ليضعها في متناول يدي. وبينما ارتدي ملابسي يسألني اذا كنت سآخذ حماماً في السهرة. واعتقد أني اثرت فضوله عندما قلت له أنني انوي الاستحمام كل مساء. ولا جدوى من القول ان مثل هذا الرخاء كان شيئاً غير وارد في مخيم لوائي. وهذا الجندي الوصيف الشديد التهذيب والمهتم جداً براحتي كان يُعتبر « صغير السن » — على رغم سنواته السبع والعشرين في الخدمة — بالمقارنة مع زميله شيخ الجنود الوصفاء العامل في خدمة آمر المعهد وقد ناهز

سن الخمسة والثمانين ... وهو لا يزال يذكر تماماً كلا من الضباط الذين خدمهم خلال حرب البوورز.

كل تلك الحقبة من نمط العيش على الطريقة الانكليزية كانت لي اختباراً جديداً وغريباً، بدءاً بوصيفي الشخصي، مروراً بلياقة الضباط المرهفة، وانتهاء بنهايات الاسبوع الموسيقية وامسيات المسرح اللندني. كان يتولاني شعور غريب باني منفصم عن ماضي وعائش فصلاً جديداً في حياتي. لذا كنت سعيداً. لكنني كنت ايضاً قلقاً. لقد تركت قيادتي وانقطعت عما كان يشكّل قوتي. وكنت اشعر اني اكثر حرية من اي وقت مضى. على ان هذه السعادة بدأت تغشاها الغيوم في تشرين الثاني (نوفمبر) عندما تلقيت نبأ انتحار نحميا ارغوب، مرافق بن غوريون الأمين. كان يكبرني سناً وقد توطدت صداقتنا طوال عشر سنوات، ومن خلاله تأمّن اتصالي الأول ببن غوريون. كان اميناً بلا حدود لـ « رب عمله » ويعرف جيداً طريقة تفكيره في الشؤون العسكرية؛ وكان من القلائل العارفين ان بن غوريون كان مزمعاً ان يعينني قريباً رئيساً للأركان. فخسرت بموته صديقاً ممتازاً وحليفاً ثميناً في الصراعات التي سيكون علي ان اجابهها قريباً.

لكن هذه الأمور كانت تنتمي الى المستقبل، فيما أنا اعيش الحاضر وقد بهرتني بريطانيا، على رغم انها تعيش عصر انحطاطها. فبعد ان فرّطت في امبراطوريتها لم تحسن ايجاد اهداف وطنية محددة من شأنها ان توحّد الشعب. ولقد كان فشل حملة السويس ضربة قاصمة للبريطانيين زادت شعورهم بالنقص؛ وعلى كل حال هكذا كنت ارى الأمور عندما اجهد لتخمين حالتهم النفسية الوطنية.

كان احد اسرار قوتهم ــ هذه القوة التي اتاحت لهم ان يجتازوا كثيراً من الصعاب ويتحملوا كثيراً من الانتكاسات ــ تعلقهم بالتقاليد. اعرف ذلك من خلال وصيفي وحفلات العشاء مساء الخميس، وفق بروتوكول يجمع الدقة الى التنوّع. كذلك التقيت ــ ولو للحظة ــ الملكة اليزابيت. ففي العام

١٩٥٨ احتفل معهدنا الحربي بالذكرى المئوية لتأسيسه، فشرّفت الملكة الاحتفال بحضورها. وعلى رغم تكرار التفاصيل البروتوكولية للاحتفال اقترفت مع ذلك عثرة في حضورها. فعندما سألتني : « كيف حالك ؟ »، نسيت انه يتعين علي ان ارد ببساطة : « شكراً، يا سيدتي »، وبدلاً من ذلك اضفت : « كيف حالك، يا سيدتي ؟ »، ما اثار استنكار الضباط البريطانيين.

هذا التقليد هو اذاً قوة ايضاً وليس فقط نظاماً للتشريفات واصطلاحاً للياقات. لقد زرت اكثر من مرة متحف الحرب الامبراطوري وشاهدت فيه مختلف الاسلحة التي اعدها البريطانيون استدراكاً لغزو الماني للجزيرة. فمن خلال بنادق العيد والرماح والدبابيس تُستشف شجاعة وعزم فولاذيان، وهما فضيلتان وطنيتان وراثيتان تقريباً. ولقد ناقشت جنوداً فروا من دانكرك، وضباط مشوا في تشكيل استعراضي بين التلال ليجذبوا نحوهم نار العدو وتحويله عن شاطئ الإخلاء. وتذكرت اني سألت هار ــ صهيون ماذا كان يدفعه الى الانقضاض على مدافع العدو. دافعه كان الجنود الذين يقودهم. لذا اجاب : « انهم ينتظرون ذلك مني ». وكان واضحاً ان الضباط البريطانيين تحدوهم العاطفة نفسها، فالجميع ينتظرون منهم الإقدام اولاً، وهذا ايضاً جزء من تقاليدهم.

كان بين ضباط المعهد ومعلميه قادة ومقدّمون رقوا الى درجات اعلى خلال الحرب العالمية الثانية، وبعودة السلام اعيدوا الى رتبهم الاصلية ــ على طريقة الانكليز في التعامل. فرجال اشتركوا في حملات فرنسا او ايطاليا او الصحراء الغربية على اكتافهم شارة عقيد (كولونيل) كانوا مضطرين اليوم الى ارتقاء سلم التراتبية مجدداً. وكان معظمهم يقبل هذا الوضع بمرح.

كل هذا، بالاضافة الى الدروس، كان يثير فضولي. فبعض طلاب المعهد حاربوا في كل جبهات الحرب العالمية الثانية واكتسبوا خبرات تغني المباحثات والمجادلات. ولقد اخترت موضوع التحليل الذي طُلب مني كتابته بعنوان « تدخُّل القيادة العليا في القرارات التكتيكية الميدانية : المقاربتان

البريطانية والالمانية ». وهكذا اتيحت لي فرصة تعميق موضوع كان يشغلني. فالنمط الالماني كان يفرض على ضباط القيادة ان يكونوا في قلب الميدان. وعلى سبيل المثال، كان رومل يصر على الوجود في المكان الذي يتيح له الاستجابة مع وضع طارئ او استثمار فرجة غير منتظرة. بكلام آخر : يجب ان يكون حاضراً شخصياً حيث يستطيع التدخل في القرارات التكتيكية. ففي معركة العلمين كان مع دبابات الخطوط الأولى. في المقابل، اعتنى نظيره البريطاني مونتغمري برسم خرائط المعركة وذهب ينام وهو مقتنع بأنه انجز مهمته. فنحن اذا امام مفهومين مختلفين تماماً حول المسألة.

كان الموضوع يتلاءم تماماً مع اهتماماتي. وإذ كنت غارقاً في اهتماماتي وردت الى ذهني فكرة التوجه الى السير بازيل ليدل هارت لمعرفة رأيه. وليدل هارت انما هو الاستراتيجي الشهير والمعلق العسكري الذي كان لنظرياته تأثير بارز على العقائد العسكرية البريطانية والألمانية على السواء. فارسلت اليه كتاباً الى عنوان منزله قرب مارلو.

لم يتأخر الجواب وجاء كما توقعته : لقد دعاني هارت الى زيارته. وهذا ما فعلته. فوجدت رجلاً ودياً وسعيداً جداً بأن يحاضر طويلاً حول الموضوع. وسجلت هذه الزيارة ايضاً بداية صديقة.

وجد ضباط المعهد البريطانيون عجباً في ان يسمح ضابط اسرائيلي مغمور لنفسه بتبادل الرسائل والزيارات مع المحترم ليدل هارت. وفي اثناء عشاء خميس تقليدي بلباس السهرة تكلم ضباط عديدون في الموضوع. وقال احدهم : « تميل الى الاعتقاد ان ليدل هارت يهودي.

— ابداً. لماذا تظنون ذلك ؟

— حسناً، اي سبب آخر كان في وسعه ان يتيح لك زيارته ؟ ».

لم يكن في الأمر ما يمنع الزيارة، لكن المسألة كانت تشغلهم من احدى نواحيها حتى جعلتهم يعتقدون بوجود علاقات سرية مزعومة بين كل اليهود.

اجبت : « اولاً، ليدل ليس يهودياً. فهو يتحدر من عائلة بارونات انكليزية عريقة. ثم اني لم افعل سوى الكتابة اليه فرد على كتابي. وانا مقتنع بأن ايا منكم لو كتب إليه لجاءه الرد نفسه ».

لم يلحوا، لكني شعرت انهم لم يقتنعوا. فليدل هارت، في نظرهم قد يكون سليل عائلة انكليزية عريقة، ولكن من الممكن ايضاً ان يجري في عروقه دم يهودي ... لا شك أن هذا الجدال الشديد التهذيب يخبئ عندهم وسواساً او قل نوعاً من الخافية اليهودية الإغرابية. وفي هذا السياق اذكر ضابطاً من بين المتقدمين في السن يحمل اسماً فرنسياً هو تييري، كان زملاؤه يعتبرونه هامشياً نوعاً ما. وقد قالوا ذات يوم : « قد يكون يهودياً ». وفي الموضوع نفسه قال لي صديق بريطاني ان بريطانيا العظمى تحوي، في رأيه، خمسة ملايين يهودي. وعندما اجبته أن عددهم لا يتخطى نصف المليون لم يصدق اذنيه. كيف يمكن اذاً ان يبدون موجودين في كل مكان ؟...

ولكن على رغم هذه الفكرة الثابتة عن « السر اليهودي » الذي كان يكدر ضباط الكلية البريطانيين قليلاً أو كثيراً على ما يبدو، فقد كانوا ودودين جداً ومتسمين بسلوك مستقيم دائماً. فالملاحظة العنصرية الوحيدة التي سمعتها خلال تلك السنة لم تكن موجهة ضد اليهود بل ضد العرب. وقد قالها الماريشال مونتغمري في محاضرة القاها ذات يوم في المعهد عندما اعلن ان العرب كانوا « محاربين لمدة عشر دقائق فقط ». فنهضت لأدحض هذا التأكيد وقلت : « لا اعتقد ان الأمر على هذا النحو ». كنت عليماً بالأمر اكثر منه. وفضلاً عن ذلك، اذا كان العرب في نظر مونتغمري « محاربي عشر دقائق » فلربما اعتبرنا، نحن الاسرائيليين، جنود اثنتي عشر دقيقة ...

في نهاية تلك السنة الدراسية استطيع القول أنها لبت كل ما كنت انتظره

منها. كوّنت لنفسي اصدقاء جدداً وعشت اختبارات جديدة. كما اكتشفت طرائق عمل اخرى واكتسبت انماط تفكير مختلفة تماماً. فاستفدت من كل ما قدمته لي بريطانيا العظمى وتعلمت اشياء جمة. وعدت الى بلادي يتملكني شعور واضح اني عشت في المملكة المتحدة مرحلة مهمة من حياتي.

برزت المشاكل بعد عودتنا الى اسرائيل بقليل. ففي المقام الأول طرأت مسألة رتبتي. كنت لا أزال متقدّماً (ليوتنان كولونيل) مع ان قيادة لواء المظليين كان ينبغي ان تأتيني بشرائط عقيد (كولونيل) منذ وقت طويل. وكان يُقال لي وقتئذ ان هذه الترقية حق لي. وكل شيء يتعلق بموافقتي على تعييني الجديد كرئيس مديرية تعليم المشاة. اي نوع الوظيفة التي كنت اخشاها اكثر من غيرها في قيادة الاركان. حينئذ تحققت من انني عدت الى الورطة نفسها، بمكائدها الصغيرة وصراعاتها الخفية نفسها التي كنت اعرفها منذ سنة.

بعد عدة شهور قضيتها في الأركان عينت مديراً لمعهد المشاة. كان ذلك بداية نوع من النفي، من السير الطويل في الصحراء؛ سنوات اربع طويلة من الاحباط قد تطول الى ما لا نهاية، على رغم رغبتي في قيادتي وحدة نشيطة (وربما بسبب هذه الرغبة). عملت كل ما في وسعي لاتخلص مما كنت اعتبره طريقاً يؤدي الى ايواء السيارة في مرأب، ولكن بلا جدوى. حتى انني قصدت دايان الذي كان قد ترك الجيش وتسلم حقيبة وزارة الزراعة. وجدته في حديقته الأثرية، خلف منزله، منشغلاً بمعالجة واحدة من تلك الجرار القديمة التي كان مغرماً بها. وبعد ان سمعني رفع رأسه ورمقني بعينه الوحيدة ثم قال بصوت من فقد صبره : « اريك، لا سبيل امامك للخروج من هنا. عليك ان تنتظر ازمة ما. حينئذ فقط يتركونك تخرج ».

استفدت اذاً من وقتي على افضل نحوه ممكن. طبقت في معهد المشاة كل طرق التدريب المستخدمة عند المظليين. كذلك عينت قائد لواء احتياطي

للمشاة كنت ادربه بكثافة. وفي تلك الحقبة تسجلت في معهد المدرعات. وفي المساء كنت ادرس الحقوق في فرع جامعة اورشليم العبرية في تل ابيب. كنت افضل الهندسة الزراعية، لكن كلية الزراعة كانت تتضمن حضوراً مستمراً للدروس. واذا كانت دراسة الحقوق لا تستهويني في حد ذاتها فإن الحق الدستوري، في المقابل، كان يسحرني. (وقد حصلت اخيراً على اجازتي في العام ١٩٦٦).

كل ذلك كان يشغلني كثيراً، ولكن كان يتملكني إنطباع بأني لا أعمل كفاية. وبدا لي اني ادفع فائدة مرتفعة جداً عن السنوات التي لعبت فيها دوراً شديد النشاط. وعلى رغم انزعاجي من هذا الوضع كنت اعي ايضاً — اقله خلال السنة الأولى او ربما السنتين الأوليين — انه لا يحق لي ان اشكو. فمن يستطيع ان يتباهى مثلي بالفرص العديدة التي اتيحت له وبخبرة تطال سلاح المظليين والمدرعات والمشاة وكلية الحقوق ؟ لذا كنت اصبر على « نفيي » ساعيا الى الخروج منه.

في ربيع ١٩٦٢ اعتقدت ان الفرصة سنحت لي اخيراً : ففي احد طلباتي الدورية لنقلي طلبت وظيفة رئيس قسم عمليات تساهال. وكان زفي تسور، رئيس الأركان حينذاك، وقد رفض طلبي ليقترح علي في الحال إمرة لواء مؤلل. لكنني اصررت على لواء مدرع. ففي تلك الأثناء كانت الدبابات قد بدأت تفرض ذاتها كعناصر راجحة في عقيدتنا العسكرية وكنت اريد الحصول على خبرة قصوى في هذا المجال. ولأسباب لم يشرحها لي تسور رفض طلبي. فوجدت نفسي اذاً ساكناً، فيما تسور ينتظر من جهته على امل اني سأقتنع بعرضه في نهاية المطاف.

في ٢ ايار (مايو) من تلك السنة فقدت كل هذه المشاكل كل اهميتها دفعة واحدة. ففي هذا اليوم عدت متأخراً الى المنزل مصطحباً معي ابني غور من زيارة قام بها لقاعدتنا العسكرية مع رفاقه في صف الحضانة. وعند هبوط

الظلام بدأ القلق يستبد بي : ففي مثل هذه الساعة تكون غالي قد عادت دائماً من عملها كمفتشة لمساعدات التحليل النفسي في وزارة الصحة في اورشليم. وفيما كنت اتساءل ماذا عساه حدث لها جاء جاري موتّي هود يعلن لي الخبر المفجع : في صباح اليوم ذاته قتلت غالي في حادث سير وهي تقود سيارتها الاوستن الصغيرة (ذات المقود الى اليمين) التي شحنّاها معنا من بريطانيا. فقد صدمتها شاحنة صدمة مباشرة، فنقلت الى المستشفى حيث فارقت الحياة.

اصبحت الآن وحيداً مع غور وهو في ربيعه الخامس. كيف اعلن النبأ لصبي في الخامسة، شديد التعلق بوالدته ! كان يثق بها ويسلس قياده لها في كل شيء. وعندما استجمعت اخيراً كل شجاعتي لأخبره بما جرى اجابني غور ببساطة : « لا، لا اصدقك، فماما ما كانت لتتركني ». وكيف انظم حياته في ظروف كهذه ؟ وكيف استعيد انطلاقتي معه فانتزعه من مأساته ؟ لقد اصبح غور فجأة هادئاً جداً ومنغلقاً على نفسه. كنت اقرأ له قصصاً طوال ساعات، مستفيداً من الراحة بين قراءتين لأشرح له واحدثه عما حدث وما يعنيه. ساعات مضنية كان علي ان انتظره خلالها ان يعود من المكان السري الذي لجأ اليه منذ موت امه.

مر الوقت. تعافى غور من الصدمة ببطء، خطوة بعد خطوة. وانه لاختبار رائع ان اشاهده يستعيد شيئاً فشيئاً توازنه ويعود الى ذاته. كما لو ان حزنه بلغ قرارته ليتحطم هناك. وكانت ليلي، شقيقة غالي الصغرى التي أحبها غور دائماً، تأتي لتلازمه وتخدمه كأم. وهذا تماماً ما كان في حاجة اليه. وانتهى به الأمر الى استعادة الوزن الذي فقده. واختفت بالتدرج النظرة البعيدة التي طالما اقلقتني. وذات يوم اصبح من جديد الولد السوي كما كان قبل المأساة.

فاصل افريقي

قرر بن غوريون في تلك الأثناء ان يضع حداً لحرب الاعصاب بين قائد الأركان وبيني، فتدخل لدى تسور حتى يعينني على رأس وحدة مدرعة مهمة. قبل تسور وأوكل الي قيادة لواء. ومع أنه كان لواء احتياطياً الا أنه كان مدرعاً، مع فصائل دبابات، وهذا وحده كان يهمني.

في نهاية ١٩٦٣ حل اسحق رابين مكان تسور في الاركان. وقبل أن يدخل هذا التعيين حيز التنفيذ طلب بن غوريون من رابين ان يجد طريقة ما لسحبي من « البراد » حتى يتيح لي التقدم في مهنتي العسكرية. فعينني رابين اذاً في القيادة العامة لمنطقة الشمال العسكرية التي كانت آنذاك تحت إمرة صديقي القديم ابراهام يوفّيه الشرس. وعندما عرض علي رابين هذا المنصب افهمني ان هذا التعيين يجب الا يخدعني : كان علي أن أتخلى عن كل أمل في أن أستلم يوماً ما امرة منطقة الشمال العسكرية، أو في أن أرقى الى رتبة لواء (جنرال). لكنّ هذا التعيين كان مفصلاً في حياتي، وهذا ما كنت اسعى اليه.

كانت القيادة العامة لمنطقة الشمال بالنسبة الي نوعاً من العودة الى المنزل. فقد خدمت فيها كقائد سرية. وضابط استخبارات. كنت اعرف اذاً معرفة جيدة طبيعة الأرض وطوبوغرافيتها ومشاكلها. واستقبلني ابراهام يوفيه استقبالاً حاراً ودوداً. كان عليه أن يعطي موافقته، حتى بعد تدخل بن غوريون. لكننا

كنا قد عملنا سوية في الماضي وكان يوفيه يعرف أننا خلقنا لنتفاهم. لقد عرفني ضابطاً شاباً للاستطلاع في لوائه، وخدمنا سوية، كل من جهته، في اثناء حملة سيناء عام ١٩٥٦. وكان علينا ان نتلاقى كفريقَي سلاح في ما بعد، خلال حرب الايام الستة.

في بداية العام ١٩٦٤، كانت القيادة العامة في الشمال تجابه ثلاث مشاكل كبرى، منها مشكلة لبنان. ومع أن منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن قد ظهرت بعد الى العلن فإنها بدأت تنظيم شبكاتها، وكانت بيروت على وشك أن تصبح مركزاً مهماً للأرهاب. كانت الحكومة اللبنانية لا تزال متحدة آنذاك، لكنها كانت دائماً ضعيفة وبالتالي عاجزة عن مقاومة تغلغل المنظمات الأرهابية الفلسطينية الأكثر تطرفاً.

وكانت المشكلة الثانية تتعلق بالحدود الاسرائيلية السورية. فمواقع الجيش السوري المحصنة بقوة فوق هضبة الجولان تسيطر على كل سهل الحولة المليء بالكيبوتزات والقرى والتجمعات المدنية. وهذه الحدود المعقدة كانت تتجه الى جانبي خط الفصل في تعرجات ملتوية ومزاجية، مشكلة عشرات الجيوب التي كانت موضوع خصام ومطالبات. بعضها لا تتجاوز مساحته بضعة آرات (الآر يساوي ١٠٠ م٢)، وغيرها كانت اكبر، انما كلها كانت تعد بالعشرات. كان الاسرائيليون يحاولون من جهتهم ان يحرثوا كل هذه الفدادين، غير أن السوريين كانوا عاقدي العزم على منعهم من ذلك، فكان المزارعون والعمال، وكذلك القرى والكيبوتزات، هدفاً يومياً تقريباً لاسلحتهم الاوتوماتيكية ولمدافع المورتر (الهاون).

على رغم هذا التنكيد المستمر كانت اسرائيل تتشبث بمطالبتها بالأراضي المتنازَع عليها. فرهان الصراع يتخطى في نظرنا قطع الأرض القليلة المزروعة هذه : ففي تلك الحقبة كانت الأكثرية الكبرى من الاسرائيليين مقتنعة تماماً ان الشرط الأول لبقائنا بين جيراننا المعادين هو اتخاذ موقف متشدد يمنعنا من التنازل حتى عن شبر من ارضنا لأولئك الذين اقسموا على ابادتنا. وفي ظروف

كهذه كان هذا العناد تحصيل حاصل للجميع في اسرائيل. فاضافة الى المخاطر الجسدية والخسائر البشرية الناجمة دائماً عن هذه الاشتباكات والمناوشات اليومية بالأسلحة الاوتوماتيكية او مدافع المورتر كان هناك وزرها الثقيل على اقتصاد البلاد.

ثالثة تلك المشكلات كانت المشروع العربي لتحويل مياه الأردن. فالقمة العربية المنعقدة في القاهرة في ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤ اتخذت قراراً بحفر قناة من شأنها أن تحول مياه نهري الحاصباني وبانياس — وهما اثنان من ثلاثة روافد مهمة للاردن — الى الأراضي المجاورة لاسرائيل والى نهر اليرموك في المملكة الأردنية الهاشمية. (وهي القمة نفسها التي انشئت خلالها منظمة التحرير الفلسطينية وفيها كتبت شرعة المنظمة التي حددت هدفاً لها تدمير دولة اسرائيل).

اذا كانت مشاكل الحدود بين اسرائيل وسوريا تحمل خصوصاً معنى مبدئياً فان تحويل مياه الأردن كان بالنسبة الينا، في المقابل، مسألة حياة أو موت. فاسرائيل بلد ذو مناخ جاف، يكابد نقصاً مزمناً في المياه باستثناء فصل قصير للامطار في الشتاء. فبالإضافة الى هذه الهطولات تتشكل اهم موارد المياه في اسرائيل من نهر الاردن ومجاري مياه مختلفة وينابيع على امتداد السهل الساحلي ومياه جوفية ممتدة تحت هذا السهل حتى اليهودية والسامرة. وقبل ١٩٦٧ كان نهر الأردن يوفر ثلث حاجات اسرائيل من الماء. وكان المشروع العربي لتحويل مياه الأردن يهدد جذرياً منسوب النهر.

من مواقعنا على امتداد الحدود كنا نستطيع ان نراقب بسهولة تقدم أعمال التحويل. فلقد استقدمت الى المنطقة الجرافات والحفارات والتراكتورات والرفوش الميكانيكية والكاسحات، فضلاً عن مئات الشاحنات الثقيلة الوزن، وكان العمل يجري على قدم وساق. ويلحظ المشروع انشاء انابيب عقفاء ضخمة (سيفونات) وقنوات وقناطر تجتاز الوديان ومجاري السيول.

وكانت وتيرة الأعمال تدل بوضوح ان المهندسين والعمال العرب مصممون على تحقيق المشروع في اسرع وقت ممكن. وفي نهاية خريف تلك السنة كانت الأرض الاسرائيلية تشكو جفافاً لم تشهده من قبل. وكانت أعمال الحفر والردم في الورشة تثير عواصف حقيقية من الغبار. وعلى امتداد مسار الأعمال كان ذرور اسود واغبر يملأ الهواء، باستثناء مرتفع واحد كانت ارضه الصلصالية تكوِّن غيوماً حمراء داكنة.

هذه التلة المسماة تل حمرا، كانت تحزن كثيراً بعضنا، نحن متابعي الأعمال عن كثب. ومع أنها عديمة الأهمية في حد ذاتها الا ان طوبوغرافية المكان الوعرة كانت تضفي عليها أهمية كبيرة. وكان مقدراً لقناة الماء أن تمر بالتمام بين تل حمرا وتلة بانياس الملاحقة لها. ويُعزى حزننا الى كون هذه التلة كانت كلها من قبل في الجهة الاسرائيلية من الحدود. وبعد حرب الاستقلال اعلنت منطقة منزوعة السلاح فلا يمكن بالتالي ان تستخدم الا لغايات مدنية. في ذلك الحين لم يعر احد المكان اهمية، ولأنه لم يكن داخلاً في صلب اي مشروع، فقد اهمل. وبعد مدة ركز فيه جيش الدفاع الإسرائيلي (تساهال) مركزاً صغيراً للمراقبة. لكن السوريين اسروا في العام ١٩٥١ الجنود القلائل الذين كانوا في المركز ليحلوا مكانهم. لذلك كنا نتابع الأعمال بحزن قائلين في نفوسنا انه لولا وجود تلة بانياس لما حفر السوريون قناتهم قط وانه كان في وسعنا تدارك ما هو جار وما قد يؤدي على ما يبدو الى مجابهة مسلحة واسعة النطاق. ولكن فات اوان المطالبة بما أهملناه نحن أنفسنا.

كان اثنان من روافد الاردن الثلاثة يجريان في ارض عربية : الحاصباني في لبنان، وبانياس في سوريا. والثالث هو نهر دان الذي كنا نسيطر عليه كلياً باستثناء بعض منابعه التي كان ينازعنا حولها السوريون.

على أنه كان يتعين الا تصبح سيادتها على هذه المنابع موضوع نزاع. ومن أجل ذلك كان لا بد من احداث تغيير بسيط في شكل هذه المنطقة الرائعة

التي كان يقطنها سبط دان في الأزمنة التوراتية. هنا تتفجر الينابيع الجوفية على سطح الأرض لتشكل حوضاً كبيراً يشير الى ولادة نهر دان. وكان السوريون يطالبون بالضفة الاكثر بعداً للحوض، ومن أجل تجنب اي جدال حول حق ملكية المياه قررنا ان نردم هذه الضفة وبالتالي ان نخفض حجم الحوض ليصبح داخل حدودنا بلا منازع.

بدأنا اذاً، أعمال الردم أمام أنظار السوريين الذين كانوا يتابعون من دباباتهم كل حركة من حركاتنا. ولكن في بداية تشرين الثاني قرروا الانتقال الى العمل قاصفين بالمدفعية جرافاتنا وشاحناتنا. وانبرى لهم الرد الاسرائيلي، ما ولَّد تراشقاً بالمدفعية والهاون والاسلحة الاوتوماتيكية، وهو تراشق اثار دهشتنا أنه لم يكن لصالحنا على الاطلاق.

بعد يومين، في ٣ من الشهر الجاري، عاودنا العمل لنُجابَه مجدداً بالنيران السورية. لكننا هذه المرة كنا أفضل استعداداً. فلقد ارسل الى المكان اسرائيل تال ليطلع رماة الدبابات على التقنيات الجديدة التي تؤمِّن دقة رماية الى مدى احد عشر كيلومتراً (كان مدى رماية الدبابة كيلومترين عادة). وهكذا ما ان فتح السوريون نيرانهم على تجهيزاتنا حتى جوبهوا فوراً برشقات أكثر فعالية بكثير من رشقات اول الشهر. وسرعان ما اتسع النزاع. فعندما استهدف السوريون قصف كيبوتز دان، في الجوار المباشر لمنابع النهر، تدخلت مطارداتنا الجوية مسببة معركة جوية. وبدأ تصاعد العنف يتسارع.

منذ تلك اللحظة لم نترك لهم مجالاً للتنفس. كانت دباباتنا تقصف في انتظام ورشاتهم برمايات بعيدة المدى، حتى أنهم اضطروا في نهاية الأمر الى اخلاء معداتهم الثقيلة وإيقاف أعمال التحويل. وطبعاً كنا في حالة دفاع مشروع عن النفس. لكن سبباً مهماً آخر كان يكمن وراء ردنا: لم يعد في وسع اسرائيل ان ترضخ في موقف سلبي لواقع أعمال تحويل المياه. قد لا يكون في استطاعتي أن أقول متى قررت حكومة اسرائيل التدخل ولا السبب الرسمي لتدخلها. وفي المقابل، فما هو أكيد ان الهجوم السوري في اول

تشرين الثاني (نوفمبر) اعطى الاشارة لسلسلة من العمليات تهدف الى خنق المشروع العربي في اطواره الأولى. وعادة يُعتبر تاريخ ٥ حزيران (يونيو) ابتداء حرب الايام الستة. هكذا هو الأمر رسمياً. ولكن في الواقع كانت هذه الحرب قد بدأت قبل سنتين ونصف، اي يوم قررت الحكومة الاسرائيلية منع تحويل مياه الاردن بالقوة. فابتداء بذاك اليوم نشأ توتر صامت ومستمر على امتداد الحدود الاسرائيلية السورية. ولم يبق الا الشرارة التي ستفجر برميل البارود. وهذه الشرارة تكفل بها الاتحاد السوفياتي.

منذ وفاة غالي كانت ليلي تقوم مقام ام لغور، وشيئاً فشيئاً تحولت الصداقة التي كانت تربط بيننا الى حب عميق غيّر جذرياً مجرى حياتي لأنه ادى بنا أخيراً الى الزواج. وبعد تعييني في القيادة العامة لمنطقة الشمال غادرنا تساهالا الى ناهالال، اقدم موشاف في اسرائيل، حيث استأجرنا شقة في الطبقة الأولى من بيت كان يملكه زيفيليه اميث، اخي في السلاح في الوحدة ١٠١ ثم وحدة المظليين، الذي اصبح يعمل الآن لصالح الموساد (المخابرات الاسرائيلية). في هذه القرية الرائعة الجمال تغلبنا نحن الثلاثة، غور وليلي وانا، على الآثار الأخيرة للصدمة الناشئة عن وفاة غالي. وفي آب (اغسطس) توسعت دائرة العائلة بولادة ابننا أُمري، وهو طفل متين يقظ نقلنا الى السماء السابعة. وكنا نأمل ان يكون الأول بين اولاد عديدين، « سبعة على الأقل » على حد قول ليلي.

لكننا كنا ايضا قلقين : كيف سيتكيف غور مع منزله الجديد ؟ كان يبدو مهموماً بعد انتقالنا من المدينة الى الريف. ولقد سمعت دائماً من يقول في عائلتي ان اولاد الريف متفوقون على اولاد المدينة، وكنت اتساءل عما اذا كان غور سيتمكن من الاندماج بين اترابه في ناهالال. لكني ما لبثت ان تيقنت ان مخاوفي لا اساس لها من الصحة وان عائلتي قد غرست فيَّ فكرة مسبقة اذ سرعان ما اتخذ غور اصدقاء له واندمج بلا مشكلة في الموشاف.

كان يحب الريف بكل اشكاله. لكنه كان مغرماً بالجياد فوق كل شيء. ولذلك فكرنا، ليلي وانا، بأن نقدم اليه في عيد مولده التاسع مفاجأة سارة : حصاناً يكون له وحده. فابتعنا بسرية تامة فرساً رائعة. وفي اليوم نفسه، عند عودته من المدرسة، ارسلته الى الهري بذريعة ما. وعندما عاد كان خداه محمران من الانفعال. وصرخ قائلاً : « يوجد حصان في الهري ». فأجبت : « اعرف ذلك. هي فرس وهي لك ».

لم يغادر غور فرسه قط منذ ذلك اليوم. كان يتجول على ظهرها في كل الحقول والبساتين تقريباً ويرود كل خبايا المنطقة. قبل ذلك بانت عليه صفات قائد؛ كان من افضل تلامذة صفه، محبوباً من كل رفاقه.

كانت حقبة رائعة. حتى أننا فكرنا في الحصول على مزرعة في ناهالال نستقر فيها نهائياً. فرائحة الحقول هذه، التي اتنشقها من جديد، كانت تعطيني رغبة عنيفة في العيش في وسط ريفي، مع هؤلاء الرجال والنساء الذين يكسبون خبزهم بعرق جبينهم. كانت تلك دعوة صادرة عن عمق أعماقي، ولم أكن قد سمعتها الى الآن. واليوم اشتاق الى هذه الحياة. كنت أحب كثيراً الساعات التي اقضيها في ناهالال، وهي نادرة بسبب كثرة مشاغلي.

لن يكون في وسعي ان اقول الشيء نفسه في حياتي في قيادة الشمال العامة. فبعد مرور عام على تعيين تقاعد ابراهام يوفيه ليحل مكانه العماد (الجنرال) دافيد اليعازر الذي سيرقى في ما بعد الى رتبة رئيس الأركان العامة. كان عهد يوفيه بالنسبة اليّ حقبة سعيدة لم أعرف خلالها صراعات ودسائس. فابراهام يوفيه كان رجلاً قوياً، متعدد المواهب، مشعاً ثقة. يتحدر من عائلة ريفية عريقة من موشاف يبنيال، انجبت ثلاثة ابناء من ذوي الاكتاف العريضة كغصون رئيسية في سنديانة عتية. لم يكن يتأثر بالحسد والدسائس؛ يجهلها بكل بساطة. لكن الأمور تغيرت رأساً على عقب مع دافيد اليعازر : عادت بقوة الاجراءات الحصرية والحيل الماكرة والظنون المشككة.

وهكذا احسست في نهاية العام ١٩٦٤ بحاجة ملحة الى الهرب من هذا الجو، فطلبت عطلة غير مدفوعة. واتيحت لي ايضاً فرصة السفر الى افريقيا مع ابراهام يوفيه الذي عين مديراً للمحميات الطبيعية والمنتزهات الوطنية في اسرائيل.

لم يكن السفر في تلك الأيام بالأمر الهين. وكانت اسرائيل تنشئ علاقات وثيقة جداً مع افريقيا، في اطار سياسة مسماة « الاستراتيجية الدائرية » وقوامها تطوير اتصالات وروابط من كل نوع مع البلدان خارج المدار العربي المحيط. لكن السفر الى هذه البلدان يتطلب تحضيراً دقيقاً. وكان المصريون قد عادوا الى سيناء فلم يعد في المستطاع التحليق فوقها. فضلاً عن ذلك، لم يكن من اليسير ايجاد طريق جوية لا تمر في المجالات الجوية للبلدان العربية المجاورة.

استفدنا من طائرة نقل عسكرية متجهة الى انتيبي في اوغندا محمّلة مظلات للاستعراضات المحلية. اقلعت الطائرة من تل نوف، قاعدتي العسكرية القديمة، واتجهت جنوباً مارة فوق ايلات. عند المساء طرنا بسرعة كبيرة فوق الأرض السعودية الداخلة في البحر الأحمر على شكل رأس، وذلك بقصد الابتعاد ما أمكن عن شرم الشيخ في الضفة المقابلة للخليج، حيث كان للمصريين محطة رادار. وعندما صارت الطائرة فوق جبال المملكة العربية السعودية السود كنت في مقصورة القبطان ارشف فنجاناً من القهوة الساخنة. وفيما كنت اراقب القمر الصاعد ببطء امامنا شعرت فجأة بنوع من الكبرياء الساذج. وفي اللحظة عينها قلت في نفسي : بعد كل شيء ليست اسرائيل صغيرة ومعزولة كما يتصور البعض. فرعاياها كانوا يعملون ليلاً فوق اراضي اعدائها. تبخرت الجبال في الليل وطرنا فوق البحر الأحمر محاولين مشاهدة أنوار مرفأ جدة الذي لا بد أن يكون الى يسارنا.

حطت الطائرة عند الفجر في مصوع في بلاد الحبشة. كان ينتظرنا في مطار المدينة فريق اسرائيلي لملء خزانات الوقود. انطلقنا من جديد محلقين

في الأعالي لنمر فوق جبال امهرة التي تزنر العاصمة الاثيوبية اديس ابابا حيث حططنا وتزودنا وقوداً قبل أن نتجه جنوباً. بقرب الحدود الكينية اضطرتنا عاصفة الى الطيران على علو منخفض فوق ادغال ملتفة تتخللها غابات كثيفة؛ ولشدة قربنا من الأرض كنا نخال أننا نلمس رؤوس الأشجار؛ ولم اكن قد شاهدت في حياتي شيئاً مماثلاً. فالمساحات الخضر الشاسعة تتتابع تحت الطائرة تماماً التي كانت تقفز كما لو كانت تستجيب لنداء الأرض. وكنت اقفز بدوري من نافذة الى اخرى حتى لا افوِّت عليَّ رؤية اي شيء.

دخلنا المجال الجوي الاوغندي فوق مكان يُدعى موروتو واكملنا طريقنا نحو انتيبي. هناك وضعت سيارة بتصرفنا وبدأنا نرود البلاد من منابع النيل في بحيرة فكتوريا حتى المحميات الطبيعية الرائعة، مروراً بشلالات موتشيف وبحيرة جورج. وبعد عدة ايام كرست للرحلات السياحية وجدنا انفسنا من جديد في موروتو، المكان الذي طرنا فوقه. هذه المدينة البدائية جداً مرتبطة على نحو عجيب بتاريخ الصهيونية : ففي بداية القرن فكرت بريطانيا في وقت ما في ان تعرض هذه المنطقة على تيودور هرتزل كوطن للشعب اليهودي ــ وهي فكرة لم تلاق لحسن الحظ تأييداً عند الحركة الصهيونية آنذاك.

للتزود بالمعلبات في موروتو وجدنا انفسنا، يوفيه وانا، نقف في الصف امام دكان صغير، وسط فريق من الوطنيين من قبيلة كاراموجو. كانوا كلهم عراة ــ الرجال كلياً فيما اقتصر رداء النساء على حزام حول الحقوين. كانوا يجلسون فوق مقاعد صغيرة ليتجنبوا لسع الحشرات المتكاثرة على الأرض. اذا كنا شاهدنا اشياء جميلة جداً في اوغندا فان موروتو لم تكن من بينها. وابراهام وانا ارتعشنا لمجرد التفكير ان هذا المكان كان يمكن أن يكون البديل عن اسرائيل.

غادرنا اوغندا الى كينيا، حيث طالعنا مشهد طبيعي يأسر الألباب : بحيرة ناكورو، موطن آلاف من طيور النحام الوردية التي تقتات من الرخويات

والقشريات المتوفرة في مياه البحيرة الضحلة. فهذه الطيور الأنيقة بسيقانها وأعناقها الطويلة، تعطي انطباعاً بأنها غيمة وردية وبيضاء تتحرك بلا انقطاع.

ذكرتني بإقامتي في بريطانيا مرتفعات كينيا الشديدة الأخضرار والمرصعة هنا وهناك بمزارع على الطراز البريطاني منذ العهد الاستعماري. لكننا اتينا الى افريقيا لنرى قبل كل شيء المناطق البرية؛ لذا تابعنا سفرنا الى تانزانيا لنزور فيها امبوسيلي وفوهة بركان نغورونغورو. ومحمية نغورونغورو الطبيعية هي الأجمل بين مثيلاتها في افريقيا، بقطعانها التي لا تحصى من الظباء و « الإيميالا »، وغزلانها الطويلة الاعناق، وحميرها الوحشية، وقطعان النو (بقر الوحش)، وغزلان الماء، وجواميس الماء ذات الوبر القاسي الخشن. وتشاهد احياناً بين اكلة الأعشاب هذه لبؤات تسعى الى رزقها. أما الاسود الواعية لامتيازاتها الملكية فتنتظر ان تسقط الفريسة لتتقدم بمهابة وتأكل منها « حصة الاسد ».

تابعنا سفرنا جنوباً وظللنا اياماً لا نرى الا الحيوانات البرية. في منطقة موشي وكيليمانجارو بدا ابراهام يوفيه، بمعطفه الأبيض، سابحا في نوع من الانخطاف لفرط عبادته الطبيعية التي اسرته لدرجة أنه لم يعر انتباهاً لملاحظتي عندما قلت له بين المزح والجد أنني لن اكون مستاء إن صادفت ايضاً بعض الناس ...

بعد الكيليمانجارو عدنا الى كينيا لنتوقف في تسافو، اكبر المنتزهات الافريقية. في العادة يمضي الزوار الليل في فنادق سياحية أو عائلية. غير أننا نصر على البقاء في الدغل فأعطيت لنا الفرصة في تسافو حيث استأجرنا كوخا قرب مورد ماء. وبعد ان تناولنا طعاماً معلباً انتظرنا فرصة ورود البهائم للشرب.

وصلت عند غياب الشمس فوق شفق احمر داكن قطعان « الإيميالا » والنو والظباء والحمير الوحشية الناهقة بعصبية. وكانت الخنازير البرية تقفز بغطرسة

لدى اقترابها من ضفة الغدير، فيما كانت عائلة هزبرية تقترب بخطوات ملكية، متجاهلة سائر الورّاد. كنا نحن الاثنين مصعوقين منذهلين تماماً، وقد عقدت الدهشة لسانينا. وهل تستطيع الكلمات وصف هذا المشهد الذي كنا جزءاً منه ؟ وظللنا صامتين حتى بعد دخولنا الكوخ، ونمنا تلك الليلة من دون أن نتبادل كلمة.

في الصباح كنا نستعد للرحيل بسيارتنا عندما لفت انتباهنا ضجيج غريب، واذا ثلاثة كركدنات هائجة في الدغل ليس بعيداً من العربة. غادرنا الطريق للبحث عن نقطة مراقبة فضلى. وبعد ان استقر بنا المقام في مكان آمن شاهدنا ذكرين يتخاصمان حول انثى كركدن تنظر اليهما غير مبالية. وبعد عدة دقائق انتهى صراع الجبابرة واختفت الانثى في الدغل مع الذكر الغالب. اما غريمه المغلوب فظل مكانه خائباً هائجاً، وبعد برهة اتجه متثاقلاً نحونا. ادرت المحرك حالاً وانطلقت فيما كان ابراهام يطل برأسه من النافذة ليأتكد ان البهيمة لا تلاحقنا.

غادرنا تسافو واتجهنا نحو نيروبي لنجتاز الحدود الى الحبشة. غير ان فتنة قبلية قرب الحدود الصومالية اضطرتنا الى تعديل برنامجنا، وبدلاً من السفر بالسيارة ركبنا الطائرة الى اديس ابابا حيث رتبنا ما تبقى من برنامج سفرنا. في ذلك العهد كان هيلا سيلاسي لا يزال امبراطوراً مطلقاً وكانت اسرائيل تلعب دوراً لا يستهان به في البلاد. فضباطنا يدربون الجيش الحبشي الذي تابع عدد كبير من كبار ضباطه تدريبهم في اسرائيل. وكان خبراؤنا الزراعيون ايضاً يعملون مباشرة مع الفلاحين الوطنيين، فيما كان مهندسونا المعماريين والصناعيين يساهمون في انماء البلاد.

كانت العلاقات بين البلدين تتخطى مجرد التعاون التقني أو الزراعي. فالمعروف ان هيلا سيلاسي يلقب بـ « اسد يهوذا »، يعتبرون انفسهم متحدرين من الملك سليمان وملكة سبأ. وفي احاديثنا معهم كانوا جميعهم

يُلمحون الى هذه « السلالة »، من المثقفين الى عامة الشعب والفلاحين. فهذا التقليد مترسخ بعمق في وجدانهم الوطني.

ثمة علاقة خاصة اخرى لهويتهم : مزيج غريب من اناقة مرهفة هي ثمرة مدنية عريقة ومن توحش اصيل. هذان الوجهان للحبشة يتعايشان في توازن مقلق، كما بدا لاعيننا حيثما حلت. على سبيل المثال، دعينا ذات يوم الى زواج ملكة جمال الحبشة الجديدة. كانت الحفلة فخمة. وكان الرجال والنساء يتسمون بجمال أخاذ. وكان كل هؤلاء الناس يتحركون باناقة ووقار يعزوان ظاهراً الى تقليد قديم. ولكن فوق موائد المأدبة المليئة بما لذ وطاب علقت اجسام ضخمة معلقة بأكياس من الكتاب الأبيض، فبدت كتماثيل مغطاة قبل حفلة الافتتاح. لم يكن عندي اي فكرة عما يمكن ان تكون هذه الأجسام. وعندما دخل المدعوون غرفة الطعام، سحب الانذال بغتة الغشاوات الكتانية كاشفين عن شقق ضخمة لثيران مذبوحة حديثاً، ودعي كل من الضيوف الى اقتطاع ما يستطيبه من قطع لحم.

تقدم الحبشة مواقع عديدة جديرة بالزيارة : هرار، غوندار، اسمرة، كيرن، وهما اسماء لا ازال اذكرها لفرط ما قرأتها في طفولتي في اثناء غزو الطليان للحبشة عام ١٩٣٦، وبعد ذلك عندما دخل البريطانيون السودان عام ١٩٤١، محققين انتصارهم الأول في الحرب العالمية الثانية.

اتجهنا اولاً الى غوندار الواقعة في سلاسل الحبشة الوعرة. واجتزنا الجبال عبر طريق ضيق متعرج ذي منعطفات حادة، يتنقل بين سفوح حلوة وقمم يشرف شفاها على وديان عميقة تقطع الانفاس. ويروي تاريخ هذه الطريق وامثالها من الطرقات التي بناها الطليان في البلاد قصة آلاف العمال الحبشيين الذين سقطوا في المهاوي وماتوا. كنت أقود السيارة على هذه الطريق الخطرة ويداي تعرقان لمجرد قبضهما على المقود.

قابلنا على هذه المرتفعات القاسية آلاف الفلاحين الطويلي القامة. كلهم

كانوا يرتدون سراويل وأثواباً، ويستندون الى عصي طويلة، كأنهم يسيرون نحو هدف محدد. الى اين هم ذاهبون في هذه المنطقة القاحلة ؟ وليست القرى والبلدات اقل كآبة من المشهد، بأكواخها البائسة حيث عبثاً يفتش المرء عن اثر ما للمدنية الحبشية القديمة او حتى عن اقل تأثير ايطالي كما في مناطق اخرى.

لكن بعض اولئك المواطنين الأصيلين في غوندار اثاروا اهتمامنا بنوع خاص : يقولون إنهم يهود. ولغتهم نفسها، الأمهرية، تتضمن كلمات ذات وقع عبراني — منها كلمة امهرية نفسها، إذ ان بادئتها ام تعني « شعبا » في اللغة العبرية، و هار تعني « جبلا ». ويطلق على قطاع الطرق الذين يعيثون فساداً في هذه الجبال اسم شيفتا الذي يذكّر بكلمة شيفيت العبرية ومعناها « قبيلة ». حاولنا التحدث اليهم، بقدر ما استطعنا الى ذلك سبيلا، نظراً الى الصعوبات الكبيرة في التخاطب معهم. وعندما علموا اننا يهود فوجئوا وتأثروا كثيراً في آن — وهو تأثر مصبوغ بالحنين. احتاروا كثيراً في امرنا وجهدوا لكشف طبيعة العلاقات بيننا وبينهم. واكثر ما أثار اهتمام فكرة وجودنا بين ظهراني قبيلة يهودية فسلت منذ آلاف السنين من الأرومة الرئيسية للشعب اليهودي، ومع ذلك ظل افرادها يحتفظون بذكرى اصولهم ويوثقون علاقاتهم بماضيهم. ولقد ساهمت بعد عدة سنوات في إجلائهم الى اسرائيل. وهم كانوا يظنون ان البحر الأحمر انما هو نهر قد يقودهم مباشرة الى اورشليم.

غادرنا غوندار في اتجاه اسمرة، عاصمة اريتريا، عبر طريق متعرج تقطعه تراكتورات فيات الضخمة قاطرة « تريلات » محمّلة. وفي هذه البلاد التي تكاد تخلو من كاراجات يتعين على كل سائق ان يتحايل لتصليح سيارته، ومن وقت الى آخر كنا نصادف احد هذه التراكتورات متوقفاً في ما يشبه الفناء الى جانب الطريق، وسائقه يعمل بروية على اصلاح عطل ما فيه.

في اوغندا وكينيا كان في تصرفنا سيارة اوستن ميني، اما الآن فنسير في فولسفاكن بيتل عتيقة، اعارتنا اياها السفارة الاسرائيلية في اديس ابابا. وعندما

طرأ عطل عليها وعجزنا عن اصلاحه اشرنا الى شاحنة قطرتنا. صعد ابراهام الى مقصورة السائق وبقيت أنا وراء مقود الفولسفاكن لتوجيهها.

كان لا يزال من السهل قيادة السيارة المقطورة في الغسق. ولكن مع اشتداد الظلمة صارت القيادة عملاً شاقاً. مرت ساعة ثم اخرى، فشعرت بغثيان ناجم عن غاز عادم الصوت. وبعد ذلك اعطت البطارية علامة الاستنفاد واخذت الاضواء الكاشفة تخف تدريجاً قبل أن تنطفئ تماماً. لم اعد ارى شيئاً امامي. وكانت الشاحنة تنعطف تارة الى اليمين وطوراً الى اليسار وفق متعرجات الطريق، ما كان يضطرني الى حشد كل حواسي للمناورة وراء المقود و « الالتصاق » بقطر الشحنة. حاولت تنبيه يوفيه الى وضعي الحرج بإطلاق المنبّه، فلم يصدر عن منبه السيارة سوى ازيز ضعيف ما لبث ان تلاشى بدوره. في تلك الأثناء كانت الشاحنة تزيد من سرعتها، وبدا الآن انها تتدحرج كالبرميل في نزلة مسلّطة. قاومت بكل قواي حتى لا استسلم للذعر الذي اخذ ينتابني ـــ انزلت زجاج النافذة وصرخت بكل قواي فيما الغبار وغاز العادم يغمرانني، ولكني عبثاً. لم يسمعني احد. لم أكن أفهم ماذا رأى يوفيه. وبعد برهة كففت عن الصراخ توفيراً لقواي، مكرراً على نفسي وجوب المحافظة على رباطة جأشي. وهكذا تابعنا السير على هذا المنوال من منعطف الى آخر فيما كابل القطر يرقّص الفولسفاكن على شفا ما بدا لي انه الهاوية. وانصبت كل جهودي حينذاك على عدم فقدان السيطرة على القيادة، قائلاً في نفسي ان الشاحنة لا بد ان تتوقف في النهاية. لكن هذه الكتلة الضخمة من الحديد كانت تندفع بقوة في قلب الليل البهيم، ساعة في اثر اخرى.

كنا بدأنا السير في الخامسة بعد الظهر؛ ولما توقفت الشاحنة في اسمرة كانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلاً. خرجت من السيارة مرتخي الساقين منهكاً ثائر الأعصاب الى اقصى حد. وما كاد يوفيه يفتح الباب حتى صرخت في وجهه : « ماذا جرى يا ابراهام ؟ » فارتسم على وجهه الذهول والارتباك

الشديد. « اريك، شكراً لله انك بخير. كنت تعباً جداً. ومع ذلك ظللت مستيقظاً ... الى ان غلبني الرقاد ».

أمضيت اليوم التالي في غرفتي في الفندق حتى استعيد زمام امري. وصبيحة اليوم التالي زرنا مدينة كيرين، على بعد قرابة مائة كيلومتر شمال اسمرا. هناك، قرب الحدود السودانية، دخل البريطانيون الحبشة للمرة الأولى في ١٩٤١. قصدنا ميدان المعركة وحاولنا ان نتخيلها، بفضل ما ارتسم في ذهنينا من صور بعد قراءتنا وصفا لها في السنوات الماضية. كذلك دخلنا المقبرة البريطانية هناك، وهي واحدة من مئات المقابر العسكرية التي تنبئ عن اوج الامبراطورية البريطانية قبل انحطاطها. ووجدنا بين القبور شواهد جنود من اللواء الاسرائيلي « ارض اسرائيل »، الذين قاتلوا في وحدة المغاوير البريطانية ٥١. وهم مثل اخوانهم في السلاح البريطانيين لم يحظوا بالرقاد الأخير في وطنهم.

ثم توجهنا لزيارة هرار المشهورة بتحصيناتها التي خيّبت آمالنا. كنا نظن أننا سنشاهد اسواراً تذكر بأسوار اورشليم، لكنها على رغم روعة منظرها ونقيشاتها المثيرة للاهتمام كانت اقل ارتفاعاً وضخامة من اسوار عاصمتنا. ولما اقبل المساء صعدنا اليها لمراقبة الضباع الراكضة تحتها.

بقي علينا أن نزور نهر اواش، الذي يعتبر من اكثر الأماكن الجديرة بالمشاهدة في الحبشة. يجتاز هذا المجرى المائي صحراء الداناكيل ليختفي فجأة في الرمال. قيل لنا ان المكان الذي يبتلع مياه اواش يحتوي الكثير من ينابيع المياه الحارة والكبريتية. وتفترض احدى النظريات ان هذه الينابيع قد يمكن، ان تُعزى الى الظاهرة الجيولوجية نفسها التي تسبب الاختفاء الفجائي للنهر. والمنطقة الصحراوية المجاورة تقطنها قبيلة الدناكيل، وهم بدو يتنقلون بقطعانهم من الأبل، وقد عرفوا ببدائيتهم وقساوتهم، ما يجعل السياح يحجمون عن زيارة هذه المنطقة التي يعتبرونها خطرة.

فقبل وصولنا الى هناك بقليل قُتل طيار بريطاني اضطر الى الهبوط في الصحراء، فذهب ضحية تقليد دناكيلي يقول إن أجمل هدية يقدمها الخطيب الى خطيبته هي خصيتا عدو، فتبرزهما هذه فوق جبينها مبدية على هذا النحو امتنانها للشرف الرفيع الذي نالها. لذلك خصي الطيار التعيس الحظ قبل ان يموت نزفاً. وقد تدخل الجيش الاثيوبي مقاصصاً بعنف وقسوة افراد القبيلة.

بيد ان كل هذه القصص المحزنة لم تكن لتستطيع اقناعنا بالعدول عن مشروعنا. ففي نهاية المطاف لم نأت الى افريقيا كـ « سياح » بالمعنى الشائع للكلمة. فلقد سبق لنا أن قرأنا مؤلفات عن البشر والأماكن الذين كنا نريد مشاهدتهم، ودرسنا بالتفصيل الخرائط الملائمة ـــ وهو ما يدخل ضمن اهتماماتنا المفضلة. كنا نعرف تماماً الى اين نحن ذاهبان. ثم اننا لن نبقى سوى ساعات قلائل في الصحراء الحقيقية. وفي اختصار، كانت تلك المخاوف تبدو لنا سخيفة. ولم نتقبل من النصائح سوى واحدة لم نجادل فيها هي قبولنا اخذ مرشد معنا، وهو شاب من احدى القرى المجاورة، بالاضافة الى سائقنا الحبشي.

للوصول الى اواش نترك الطريق العام لنأخذ دربا ترابياً يؤدي بعد اربعين كيلومتراً الى المكان الذي يختفي فيه النهر. وكنا كلما توغلنا في الدغل نصادف اعداداً اكبر من الدناكيل. كانوا كلهم مسلحين ببنادق ايطالية قديمة وبرمح وبخنجر مزين معلق في الحزام. الرجال المتزوجون يجمّعون شعورهم بوساطة « معجونة » مصنوعة من الوحل اليابس وبراز الحيوانات، لكن العزاب يتميزون عنهم بشعرهم الكث العصي المخضب باللون الأحمر. وبدا عدد ذوي الشعر الأحمر هؤلاء مرتفعاً على نحو ملفت في صفوف حراس القطعان وسائقي الجمال. ووقع اختيارنا على حوض مياه ساخنة مشهورة، حيث يقال ان الامبراطور هيلا سيلاسي نفسه كان يجيء احياناً للاستحمام. وكنا كلما توغلنا في قلب الصحراء اشتد شعورنا بالوحدة. اخيراً وصلنا بلا عائق الى

المكان المقصود الذي بدا لنا مقفرا. وبعد ان نزعنا ثيابنا فوق مقعد خشبي قديم الى جوار الحوض سبحنا في المياه المكبرتة قليلاً.

كانت لذيذة فاترة مهدئة. ومع ذلك لم نكن نشعر بالامان. فلم يكن في المكان نفس حية غيرنا، ووحدها اصوات بعيدة لجلاجل الجمال كانت تقطع صمتا بدا كأنه من رصاص. لكننا كنا نشعر بأن عيونا خفية تراقبنا. وكان مكان اختفاء النهر يقع مباشرة بعد الحوض. فاذا نظرنا الى بعد امتار كنا نشاهد النهر، وبعد ذلك كان فجأة يختفي ... « يتبخر » ! استسلمنا لدفء المياه ونحن نتمعن في ما تراه اعيننا ليُحفر في حافظتنا ـــ فيما كنا نلعن سهونا الذي لا يُغتفر : لم نحمل معنا اسلحة من سفارتنا في اديس ابابا. لكن كل شيء كان صامتاً، باستثناء جلاجل الجمال البعيدة. وبعد ان ارتدينا ثيابنا صعدنا الى السيارة ونحن سعيدان باستلام الطريق. حاولنا ان نحزر المجرى الخفي للنهر من خلال الاحواض ذات البريق المعدني والتي كانت تضع حدا لرتابة الطريق.

شاهدنا فجأة حول احد هذه الأحواض، وهو من اكبرها، مئات الجمال تشرب، تحرسها شابات رائعات الجمال من قبيلة الدناكيل. كن عاريات الصدور، وتقتضيني الحقيقة ان اقول ان عينيَّ وعينَيْ ابراهام كادت تخرج من اوقابها. خففنا من اندفاع السيارة ليتسنى لنا التملي من هذا الجمال، لكننا تذكرنا ان هذه المخلوقات الناعمة الجميلة كن ايضاً خطيبات محتملات للمحاربين ذوي الشعور المصبوغة الذين سبق ان مررنا بهم. قال يوفيه : « لا بد انك تعرف ان هؤلاء الجميلات واولئك الشبان الحمر الرؤوس لا ينقصهم لعقد قرانهم سوى شيء ... نملكه أنت وأنا ... »

لم تمض دقائق حتى غص محرك السيارة وتوقفت عن السير. فقفزت سريعاً من الباب، ويوفيه من الباب الآخر. وانزوى السائق والدليل متكتلين فوق مقعديهما كما لو انهما يرغبان في الاحتجاب عن العيون. حاولت فحص المحرك بدءاً من الحارق (الكربوراتور). ثم تفحصت بعد ذلك على نحو

منهجي كل اعضائه الأخرى لعلي اجد سبباً لتوقفه. وكان بضعة محاربين دناكيل قد بدأوا يتجهون نحو السيارة بمشية تنم عن عدم اكتراث.

على من يجد نفسه في وضع كهذا ان يُظهر انه غير خائف وان يظل، على العكس، هادئاً جداً وواثقاً من نفسه. وليتجنبْ ايضاً اصدار اي اشارة من شأنها ان تُظهره متحدياً أو ان تشير الى وجود شيء، يتحفز للدفاع عنه في السيارة ... شيء ثمين ومرغوب فيه ... كنت احاول ان اعطي هذا الانطباع الظرفي منشغلاً تحت غطاء المحرك بكل العمليات المطلوبة : تنظيف مختلف القطع، فكها ثم إعادة تركيبها، كل هذا في نوع من الحمى. ولكن كان كل ذلك من دون جدوى : فالسيارة لم تعد اليها الحياة.

انتهى بي الأمر الى ايجاد العطل : قطعة كهربائية يتعين تغييرها اذ يتعذر تصليحها. اتفقنا بسرعة على قرار عودة احدنا الى القرية لجلبها. وتسرعت وقلت : « سأبقى في العربة مع السائق وسأحاول ان ارتجل شيئاً ما ». فيما كان ابراهام يبتعد مع الدليل تابعت فحص المحرك، الأمر الذي لم يمنعني من رؤية السائق ينتقل الى المقعد الخلفي وينطوي على نفسه كالجنين.

كنت الآن وحدي. حقدت على نفسي لكوني ميكانيكياً سيِّئاً — واكثر من ذلك، لتورطي بغباوة في هذا المأزق. استعدت في ذاكرتي كل المعارك وكل الحروب التي خضتها — في الاردن وسوريا ومصر. كنت قد حاربت على كل الجبهات وجرحت — ولكن دائماً من اجل قضية هي قضيتي. وها أنا الآن اجد نفسي وحيداً في هذه الصحراء، مجازفاً بخسران حياتي من اجل لا شيء. وبدا لي الأمر غير قابل للتصديق.

ولكن على الرغم من هذه الأفكار المشؤومة التي كانت تعتمل في رأسي وانا اتظاهر بالعمل على اصلاح السيارة كنت ارسم خطة في رأسي. « سأعمل » حتى غياب الشمس في المحرك محاولاً جذب الانتباه اليّ. وبعد هبوط الظلام سآخذ السائق ونحاول ان نغادر السيارة من دون ان يرانا احد.

فاذا كان في نية الدناكيل الاقتراب من السيارة فسيفعلون ذلك في اثناء الليل. وقد ولى الاصيل وحل الغسق، وبعد قليل يحين اوان الهرب خفية. فجأة سمعت صوت محرك من بعيد، ثم شاهدت اضواء قافلة من السيارات تنزل في الطريق الترابي. عندما دنت منا قفزت لاوقفها. كانت ثلاث شاحنات اعملت كوابحها بعنف. قفز رجل الى الأرض وصرخ بي بالانكليزية : « ماذا تفعل هنا ؟ هل معك مسدس ؟

— كلا.

— اذاً، ماذا تفعل هنا ؟

— تعطلت سيارتي. من أنت ؟ »

كانوا فريقاً صحياً يكافحون ضد الملاريا. وعندما قلت لهم إني لست وحيداً وان رفيقي ذهب الى القرية مع دليلنا بدا كأنهم لا يصدقون ما يسمعون ! وصرخ رئيس الفريق : « كيف امكنك فعل شيء مماثل ؟ هذا ليس معقولاً. لن نجدهما حيِّين. اين تظنون أنكم تعيشون لتتصرفوا على هذا النحو ؟ » قطرنا سيارتنا بالشاحنة الثالثة وعدنا للبحث عن ابراهام. سرنا قرابة عشرين الى خمس وعشرين دقيقة تحت سماء بدأ يغشاها الظلام. وفجأة، يا للاعجوبة، ميّزنا في الظلمة رجلاً طويل القامة عريض المنكبين، وفي رفقته مراهق، يسيران في اتجاه القرية. وعندما صعد ابراهام الى مقصورة القيادة اخبرني انه خلال سيره لم يكف عن صفع نفسه ذهنياً لأنه تركني وحدي.

اتخمنا من صحراء الداناكيل فعدنا مباشرة الى اديس ابابا. لقد مضى على وجودنا في افريقيا خمسة اسابيع وفكرنا نحن الاثنين انه آن اوان العودة. وقيل لنا في السفارة الاسرائيلية ان طائرة اسرائيلية هي على اهبة الحط في دجيبوتي واننا نستطيع العودة فيها، يمكننا الذهاب الى دجيبوني في طائرة داكوتا تعمل على الخطوط الجوية الداخلية في الحبشة. وعندما وجدنا احدى هذه الطائرات المتجهة الى دجيبوتي قيل لنا انها ملآنة بالقات، وهو نوع من النبات المخدر

يستهلكه اهل البلد في انتظام. وقبلوا بنقلنا على متن الطائرة ان قبلنا ان نجلس فوق حزم القات التي حلت مكان المقاعد.

انتظرنا في دجيبوتي بضعة أيام امضيناها في التسكع على الشاطئ وفي بازارات المدينة. واخيراً عدت الى المنزل محملاً برماح قبائل الماساي، وبخناجر قبيلة الدناكيل، وبأقواس وأسهم لغور، وبجواهر وعينات اخرى من الفنون الحرفية المحلية لليلي. واكثر من كل ذلك كنت محملاً بكل الصور والمغامرات الأفريقية التي عشتها ولن انساها ابداً.

الحرب في الصحراء

عند رجوعي الى القيادة العامة علمت ان رئيساً جديداً عُيِّن في اثناء غيابي. كنت لا ازال متسلماً مهماتي، ولكن عليّ الآن تقاسمها مع « شريك ». وهو وضع غريب بل مزعج وشديد الحساسية؛ وفي عودة الى ايام زمان قدرت اكثر واكثر السنة التي خدمت في اثنائها تحت امرة ابراهام يوفيه.

منذ ذلك الحين وحتى ١٩٦٥ تعلمت ان امشي على رؤوس اصابعي في حقل ملغَّم بالمشاكسات والمؤامرات. ثم أُعلمت في احد ايام تشرين الأول (اكتوبر) اني على وشك ان انال ترقية. غادرت حالاً القيادة العامة وعدت الى منزلي في انتظار تبليغي الرسمي بترقيتي. من المفروض ان تصل هذه في اي يوم، كما قيل لي، ولكن لسبب خفي كان يبدو ان اسحق رابين يريد ارجاءَها الى اجل غير مسمى. في تلك الأثناء بقيت في منزلي اتقلب على جمر الانتظار، وقد دام هذا ثلاثة اشهر ونصف. غريبة ظاهرة الانتظار، وبت اعرفها لأني عانيتها يُخيَّل اليك ان كل الناس تراقبك : الزملاء والاصدقاء والخصوم، وكلهم يتساءلون « عما سيحدث » ومتى. الجميع يستفهم عن حالتك النفسية وعن معنوياتك، ولكن لا يزورك احد ولا يتصل بك احد بالهاتف. يتركونك وحدك في منزلك تجتر افكارك.

كانت ليلي رفيقتي الحقيقية خلال هذا « المنفى » وقدمت لي دعماً رائعاً وتعزية قوامها المحبة والحنان اللذان لا حد لهما. وعلى رغم هذا التشجيع لم

يكن الانتظار وظيفة براتب من دون عمل. مع أنه كان في وسعي القيام بامور عديدة وتسويتها. ولكن من أين لي الصبر ؟ كنت كل صباح اسرج فرس غور وامتطي جوادي ونخيِّل سوية عبر تلال الجليل الأدنى. استمريت هكذا أياماً عديدة، وعلى رغم محبتي لركوب الخيل وشغفي بالطبيعة فان اهدار الوقت على هذا الشكل كان من شأنه ان يخرجني عن طوري.

أخيراً جاء اليوم الموعود : دعاني رابين لمقابلته ـــ وهي مقابلة مباشرة جداً ان لم تكن فظة، إذ لم يراع رئيس الأركان جانبي بل قال لي رأيه الصريح في طريقة عملي وعدد لي الأخطاء التي ارتكبتها، ملمحاً الى علاقاتي مع الجنرال دافيد اليعازر في قيادة الشمال العامة. وبعد أن أرهقني بالاتِّهامات كنت انتظر أن يقول لي أخيراً إنه بناء على ما تقدم يرفض ترقيتي.

ولشد ما كانت دهشتي عندما سمعته، بعد ان انتهى من تعداد ذنوبي، يقول إنني على رغم كل ذلك قد رقيت الى رتبة عميد وعينت رئيس فرع التدريب في الأركان. وبالاضافة الى ذلك اوكلت اليّ قيادة فرقة عسكرية احتياطية.

كانت سعادتي على قدر دهشتي. وكان ينبغي الاحتفال بالحدث. وقد تولت ليلي المبادرة فنظمت حفلة انس وسمر جمعت عندنا كل اصدقائنا في القرية. كان قلبي في عيد وقد احطت بامارات المودة وباقات الزهور. وبعد مدة قصيرة عدنا الى تساهالا لاكون اكثر قرباً من قيادتي العامة الجديدة. ولم تنقض ستة اشهر حتى ولد لنا ابننا الثالث، غيلاد يهودا. وهكذا كان حلمنا بعائلة كبيرة في طريقه الى التحقيق ...

في ١٤ ايار (مايو) ١٩٦٧ حضرت في اورشليم العرض العسكري للذكرى التاسعة عشرة لعيدنا الوطني. وانتشرت إشاعات فوق المنصة تقول ان القوات المصرية اجتازت قناة السويس ودخلت الى سيناء.

كان هذا النبأ مدعاة للدهشة. فحتى ذلك الوقت كانت الجبهة المصرية هادئة تماماً. وكانت قوات الامم المتحدة منتشرة على طول الحدود، ولم يعد

ارهاب قطاع غزة يظهر الا نادراً. ثم انه لم يحصل اي صراع بين الجيش المصري وتساهال. فمنذ خمس سنوات كانت قوات الرئيس عبد الناصر متورطة بعمق في حرب اليمن التي لا تنتهي، حيث كان الريِّس يساعد الفريق الماركسي. وفي حال كهذه لم يكن في وسعه ان يخوض معارك حدود معنا.

بيد ان التوتر كان ظاهراً خصوصاً على الحدود السورية، وبدرجة اقل في الشرق من الجهة الأردنية. فمنذ اشتباك ١٩٦٤ حول مشروع تحويل مياه الأردن تفاقمت الأعمال العدائية بين اسرائيل والاردن. كانت جماعات من الارهابيين الفلسطينيين تأتي من قواعدها في سوريا وتضاعف هجماتها ضد قرانا، وكانت تمر في اغلب الاحيان عبر اراضي الأردن ولبنان. والمدافع السورية كانت من مواقعها المحصنة في الجولان تدك بقنابلها في انتظام قرانا وكيبوتزاتنا الحدودية، محاولة هكذا تعطيل الاعمال الزراعية في سهل الحولة. وقبل شهر من هذا التاريخ اضطرت طائراتنا الى التدخل ضد هذه المواقع بعد ان اوقعت مدفعيتها خسائر فادحة في جانبنا. وتصدت المقاتلات السورية لمقاتلاتنا، واسفرت المعركة الجوية عن إسقاط ست طائرات ميغ، منها اثنتان في ضاحية دمشق. وكنا نعلم ان السوريين، لعدم استطاعتهم قبول عجزهم امام الطيران الاسرائيلي، يجرون مفاوضات مع الرئيس عبد الناصر طلباً لدعم عسكري. كما كنا نعلم ان الاتحاد السوفياتي يعطي سوريا ومصر « معلومات » مختلفة تماماً حول حشود قوات اسرائيلية على الحدود السورية، بهدف واضح هو حض الرئيس عبد الناصر على الاقدام على عمل عسكري. ولكن لم يكن احد يظن ان الدكتاتور المصري سيترك نفسه يندفع في هذه المغامرة.

بعد يوم او اثنين من دخول القوات المصرية سيناء كنت في النقب مع فرقتي الاحتياطية المولج بها تأمين سلامة القطاع الاوسط للحدود. كنا قد استدعينا الى خدمة العلم، ولكن لم يحدث شيء حتى الآن. وعلى رغم تفاجُئنا بعبور القوات المصرية القناة وانتشارها الا ان الطرفين كانا يبدوان في تلك

المرحلة يعيشان نوعاً من التوافق. فاذا كان الرئيس عبد الناصر يركز قواته في مكان ما فقد كنا من جهتنا مستعدين لكل احتمال. ولم يكن يبدو الوضع خطراً في نظري، فاسرائيل الآن ليست كما كانت في العام ١٩٥٦، ناهيك بالعام ١٩٤٨. لم نعد أمة ناشئة طريّة، وجودها نفسه على المحك. فاسرائيل موجودة في العالم اجمع، ولنا اتصالات وعلاقات دبلوماسية مع معظم البلدان، وقد اثبتنا كفاءتنا على حل مشاكلنا.

كنت اشغّل وحداتي ليلاً نهاراً. وجاء لواء مدرع يدعم لوائي المشاة في فرقتي التي باتت تستند الآن الى مدفعية. وخضع الرجال والضباط لتدريب مكثف. كان على الجميع، كل صباح، ان يركضوا ويقفزوا ويزحفوا ويمارسوا تمارين اخرى لتحسين لياقتهم البدنية. وكان رد فعلهم، الجسدي والمعنوي على السواء، يتخطى توقعاتي : فالفرقة برمتها توحي العزم والثقة. ولم أكن اشك في قدرتها على الفوز في ميدان المعركة.

لم تكن الامور بهذا الوضوح على المستوى الاعلى. فمنذ بدء الاحداث لاحظت نوعاً من التشويش والتردد عند الاركان. كنت اجهل السبب ولكني كنت اعاني النتائج يومياً على الأرض. فعلى سبيل المثال نُقلت وحدتان اضافيتان، كانتا قد الحقتا بفرقتي، الى مكان آخر. وكانوا يتقاذفون بفرق كاملة من مكان الى اخر، فما تكاد تستقر هنا حتى يأتيها الأمر بالتوجه الى مكان آخر. كل ذلك كان يخلق مناخ تردد وشك يشد الاعصاب ويتلفها. وعبثاً كنا نحاول البحث عن الاطمئنان الهادئ المرتبط بأهداف محددة بوضوح ومدركة كما يجب. فالجيش لا يعطي الانطباع بأنه يعلم بما يفعل.

في تلك الأثناء اخذ الضغط المصري يزداد. وفي ١٩ ايار (مايو) ١٩٦٧ خضع يو ثانت، الأمين العام للامم المتحدة، للمطالب الناصرية بسحب قوات الامم المتحدة من شبه جزيرة سيناء؛ وفي ٢٢ ايار (مايو) اعلن الريس اغلاق مضائق تيران امام السفن الاسرائيلية ــ وهو عمل كانت اسرائيل قد اعلنت منذ وقت طويل أنه يشكل اعلانا للحرب. وفي ذلك التاريخ كان قرابة

مائة الف جندي مصري واكثر من الف دبابة قد انتشروا في سيناء. لكن الحكومة لم تكن قد اتخذت اي قرار واضح يتعلق برد فعلنا.

هتفت الى رابين لأنقل له قلقي من هذه الفوضى الدائمة ومن تحركات الفرق غير المتناسقة. فأجبت بأنه مريض في سريره. وسرت اشاعة بأنه منهار عصبياً. وبعد بضعة ايام قام رئيس الوزراء ليفي اشكول بزيارة القيادة العامة للجنوب، وفي رفقته ايغال آلون وزير العمل ومن المع جنرالات حرب الاستقلال ايضاً. كان الجميع يعلمون ان آلون ينتظر تعيينه وزيراً للدفاع مكان ليفي اشكول الذي يحتفظ أيضاً بهذه الحقيبة. وحضر رابين أيضاً، وهو محاط بكبار ضباط الجبهة. كان الاجتماع محبطاً. بدا الجميع مؤمنين بأننا غير قادرين على مجابهة الجيش المصري دفعة واحدة، ولذا يتعين علينا محاربته على مراحل لتقليص مدى الصراع. علينا في المرحلة الأولى من هذه الاستراتيجية ان نقتصر على غزو قطاع غزة مع منطقة محدودة واقعة غربها. في ما بعد نكون قادرين على مفاوضة مصر واجبارها على اعادة فتح مضائق تيران مقابل اعادة غزة اليها.

وقف اسرائيل تال، قائد الفرقة المعسكرة مقابل غزة، ليشرح خطة هذه العملية. كان تال احد الجنرالات الاكثر موهبة الذين عرفتهم البلاد في تاريخها العسكري، فضلاً الى كونه خبيراً معترفاً به عالمياً في موضوع المدرعات والدبابات. كان قادراً على فك دبابة الى الف قطعة واعادة تركيبها. (في ما بعد هو الذي سيستنبط ويرسم خرائط المركابا، افضل دبابة اسرائيلية للمعارك). ولكن عندما كان عليه ان يعرض افكاره علانية فإنه هوسه بالتفصيل الدقيق كان غالباً منفراً.

تلك كانت حالته في ذلك اليوم، فبدلاً من ان يعرض الخطوط العريضة لخطته امام اشكول انطلق في تعدد لا ينتهي للمصطلحات التقنية ولمواصفات افواج الدبابات ومهماتها : « ان وحدة الدبابات الاقليمية الـ ٣٣٤ (غاشاب في المصطلح العسكري العبري)، بما فيها السوبرشير من المحوّلة والمسلحة

بمدافع من عيار ٧٦ ملم قادرة على خرق تصفيح الدبابة السوفياتية ت ــ ٣٤ في الموضع الفلاني عندما تكون زاوية الرمي من ٤٥ درجة، وبما فيها ايضاً دبابة باتون م ــ ٤٨ ... » والحبل على الجرار. كنت جالساً قرب اشكول، وعندما تحدث تال عن غاشاب انحنى رئيس الوزراء نحو آلون وسأله همساً وباللغة اليديّة : « ما هذا، غاشاب ؟ » ثم عندما وصف اسرائيل تال مدافع ٧٦ ملم وقوة خرقها لدبابة ت ــ ٣٤ بزاوية معينة شاهدت القلق يرتسم على وجه اشكول ثم سمعته يهمهم : « وماذا يحدث اذا كانت هذه الـ ت ــ ٣٤ غير موضوعة وفق الزاوية الصالحة ؟ » وكلما تمادى تال في الكلام ازداد اشكول قلقاً.

عندما اعطاني رابين الكلام جهدت لاكون ايجابياً وموجزاً بقدر الامكان. قلت لرئيس الوزراء ان تساهال قادر، في رأيي، على هزم الجيش المصري هزيمة نكراء. « لا اشك في ذلك لحظة ... » وحذرت من حرب على مراحل. فبعد توقف المعارك قلت أننا سنجد انفسنا في موقف ضعيف. فاذا رفض المصريون مطالبنا سيخضعنا الاميركيون والروس لضغوط لا تحتمل. (في هذاالصدد ذكرت اني كنت شاهداً على الضيق الذي انتاب بن غوريون بعد حملة سيناء). وسيزداد ضعفنا السياسي يوماً بعد يوم. ربما ان معظم الرجال سيكونون تحت السلاح فإن البلاد برمتها ستُشل حركتها. فاستراتيجية المراحل المتتابعة قد تكون مشؤومة فضلاً عن انها غير ذات جدوى.

في نهاية الاجتماع قابلني اشكول وجهاً لوجه برهةً قال لي في اثنائها : « اريك، لقد نطقت بكلام غير مسؤول ! مع أنك انسان مسؤول ... » وبعد حرب الايام الستة اسرَّ لي انهم امطروه بنصائح و « تقديرات » يقول معظمها ان كل ما كان يمكننا توقعه انما هو احتلال قطاع غزة. فكيف كان في وسعه ان يفكر خلافاً لمثل هذه النصائح و « الآراء المسؤولة » !؟ صحيح ان القرار الذي كان على اشكول اتخاذه لم يكن سهلاً بل شديد الصعوبة، ولكن كلما

كانت الحيرة تعذب رئيس الوزراء كان الشعب يفقد ثقته ــ وهذا كان بلا شك الخطر الاكثر جسامة الذي كان يهددنا.

بعد عدة ايام تثبّت على ما يبدو انطباع الرخاوة والتردد الصادر عن اشكول عندما وجه خطاباً مذاعاً الى الامة. فبدلاً من ان يجابه الازمة بثقة وعزم لا يلين نمَّ خطابه عن تردداته وشكوكه. تلعثم على نحو مؤسف وتعثر في كلماته، مكوِّناً لدى المستمعين صورة رجل يفتقد الثقة بنفسه وتتأكله الحيرة. وما أنهى خطابه حتى كانت ازمة زعامة الأمة قد بلغت ذروتها.

في المساء نفسه استدعي قادة فرق الجبهة الجنوبية الى مركز عمليات الاركان في تل ابيب. وقد اجمعنا ثلاثتنا ــ ابراهام تال وابراهام يوفيه (الذي استدعي كاحتياطي) وانا ــ على القول إن ساعة العمل قد دنت. فقد عملنا طوال اسبوعين مع قواتنا ولم يساور ايَّاً منا شك في قدراتهم القتالية. وفي مقابل عدم فاعلية قادتنا السياسيين وترددهم كان شعورنا انه يتعين علينا أن نتحمل الجزء الأساسي من العبء، وكنا نحن الثلاثة قد عقدنا العزم على تحمل هذه المسؤولية.

يقع مركز عمليات الاركان العامة في مكان محصّن تحت الأرض. هناك التقينا اشكول وايغال آلون واسحق رابين وغيرهم ايضاً. وبعدما أنهى اشكول عرضه حول الوضع فهمنا جميعاً انه كان محبطاً. كان يبدو اعزل ضائعاً كما لو كان يبحث عمن يستند اليه. سألنا رأينا: يوفيه وماتّي بيليد، القائد الأعلى للمعتمدية العسكرية، وانا؛ واجبنا بثقة تامة واندفاع مطمئن: « انها ساعة العمل. فكل يوم يمر يعطي القوات المصرية وقتاً للانتشار والتحصُّن ». كنا نعلم ان الجنود المصريين كانوا جميعاً آتين من منطقة دلتا النيل الأخضر، ومع ان بلادهم محاطة بالصحراء الا انهم كانوا يخشونها ويتجنبونها. ونحن كلما تماهلنا في خوض المعركة اتحنا لهم فرصة التكيف مع الأرض. فكل يوم يمر كان يسمح لهم بأن يرتاحوا لوجودهم في سيناء ويتعرفوا الى المكان والى طريقة الحرب فيه.

كنت مقتنعاً بوجوب اطلاق عملية معمَّمة ونبذ فكرة الاستراتيجية الممتدة على مراحل. فجميعنا يعرف كم هو صعب شن حرب، لكنّ هذه الحرب كانت مفروضة علينا، والمماطلات من شأنها أن تفاقم الامور فقط.

شددت على ان تحليلا للوضع من جميع نواحيه لا يترك لنا الا خياراً واحداً : المبادرة بالهجوم ـــ واننا في الوضع الحالي للامور لقادرون على سحق الجيش المصري بلا مشكلة. اضفيت على كلامي كل ما استطعته من اقناع وحماس. تحدثت عن الخطر الذي يهدد الشعب إن فقد ثقته بنفسه. كما تحدثت عن ارتكاس الردع الذي ظللنا سنوات عديدة نفرضه على العرب؛ وفي الوقت الحاضر يوشك هذا البناء النفسي الهش ان ينهار في ليلة.

دام الجدل ساعات هيمنت عليها الرصانة التي تفرضها الظروف. وفي نهاية الاجتماع اخذني رابين على حدة وقال لي : « في الوقت الحالي لا يوجد غير عنصر واحد يستطيع ان يكون على مستوى الوضع ـــ وهو الجيش. من أجل ذلك ثقيلة هي المسؤولية التي تقع على عواتقنا. فكل شيء يتعلق بنا حالياً. كل شيء ! ».

لم يقل رابين مباشرة استحالة اتهام اشكول والزعماء السياسيين الآخرين بالتردد والشك الا أنني فهمت ذلك من حديثه. وقلت في نفسي ان موقف السياسيين المتردد يعزى خصوصاً الى التلبك الظاهر في موقف العديد من قادتنا العسكريين. فلقد ظللت سنوات طوال اردد لكبار الضباط الا يعتمدوا على زعمائنا السياسيين لدفعنا الى العمل. كنت اقول « إن المستوى السياسي يجب أن يكون حراً في انتقاء خيارات عدة وحرا في تقرير عمل دبلوماسي او عملية عسكرية. ويقوم دورنا على اعطاء الحكومة حرية الخيار والقرار هذه. للزعماء السياسيين حرية تحديد الاهداف الوطنية ولنا ان نبين لهم أنها أهداف ممكن بلوغها. وهنا يكمن واجبنا ». والحال أن المستوى السياسي بدا اليوم فاقداً كل ثقة بنفسه ـــ والخطأ في ذلك انما يعود قبل كل شيء الى القادة

العسكريين الذين لم يُظهر هذا الثبات الذي كنا نحتاج اليه بيأس في تلك الساعة الحاسمة.

قبل أن يخرج اشكول طرح علي سؤالاً : هل تعيين موشيه دايان في وزارة الدفاع من شأنه ان يقلب الوضع ويرفع المعنويات ؟ ما رأيي في الأمر ؟ لم يكن في هذا السؤال ما يمكنه أن يدهشني. فايغال آلون كان قد فقد كل حظ باستلام هذه الحقيبة. وكان تعيين دايان امراً واقعاً بالفعل. وكنت أعلم أيضاً ان دايان دار على وحدات جبهة الجنوب، وإن يكن ذلك بصفته الشخصية وكمدني (وابنته يائيل أُلحقت بوحدتي كمراسلة عسكرية). قلت لاشكول : « سأجيبك بصفتي قائداً عليه أن يقود رجاله الى المعركة، وبهذه الصفة لا يهمني أن أعرف من يكون وزير الدفاع. ولكن بما ان الأمر يتعلق بدايان اقول لك اني اقدره كثيراً، شخصياً فضلاً عن صفاته كجندي. اما معرفة ما سيكون وقع تعيينه على طريقة محاربة قواتي فيمكنك ان تعين بيبا ايدلسون [احدى رئيسات حزب العمل المسنات] على رأس وزارة الدفاع. انت او دايان او بيبا ايدلسون كلكم سواء بالنسبة اليَّ من هذه الناحية ». وهذه هي الحقيقة بعينها. كان في وسع اشكول ان يكسب المعركة؛ أما تال ويوفيه وانا فكنا سنظل نقاتل بالطريقة ذاتها تحت امرته أو امرة غيره.

بعد الاجتماع اخذنا طائرة ليلتحق كل منا بقواته، يحدونا اقتناع حميم بأن كل شيء اصبح منذ الآن بين ايدينا. وفي الايام التي تلت اخذنا نسطر مخططاً تلو آخر. وفي تلك الأثناء تبدلت استراتيجية المراحل (مع الاحتفاظ بمبدأها) وكان علينا أن نهاجم ليس فقط قطاع غزة على عرض الجبهة. كان على فرقة اولى ان تخترق الحدود، يليها بعد اثنتي عشر ساعة فرقة اخرى. هنا ايضاً قاومت بكل قوّتي هذا التكتيك في اثناء مجادلات لم يكن يبدو عليها انها ستنتهي. اكدت ان عدم مهاجمة الجيش المصري دفعة واحدة ينطوي على تبديد للقوى والوقت.

كان امر المعركة يتغير كل يوم. وكانت تُؤخذ مني وحدات لتضاف الى

فرق اخرى. وطوال كل تلك المرحلة جهدت لأجعل من فرقتي بؤرة اطمئنان وثقة بالنفس. وكلما كانت تؤخذ مني وحدة كنت اعيد نشر قواتي على ضوء الوضع الجديد. لم اقل قط : « اذا لم توضع هذه الوحدة أو تلك تحت تصرفي فلن اكون مسؤولاً عن فشل مهمتي ». كنت اكتفي بتكييف مخططاتي مع ما يواجهني من حالات. وكلمتا السر عندنا هما التدريب اليومي والنظام. واكثر من أي وقت مضى كنت أثق ثقة عمياء بقدراتنا وبانتصار قواتنا. وتقوى ايضاً هذا الاقتناع يوم اسرنا خمسة مصريين، بينهم ضابط، تاهوا واجتازوا الحدود خطأ. ولدى استجوابهم تركوا لدي انطباعاً بأنهم ضالين وجهتهم وعاجزين عن تحديد معسكرهم. فالصحراء لا تزال بيئة عدوة يخشونها كثيراً.

يوم الجمعة ٢ حزيران (يونيو) استدعينا من جديد، يوفيه، وتال وانا، الى تل ابيب. وجدنا هذه المرة في غرفة فرع العمليات المجهزة تحت الأرض كل اعضاء مجلس الوزراء المصغر، بمن فيهم دايان بعد ان عين وزيراً للدفاع. كنت جالساً الى يساره وسربت اليه خفية كلمة خربشت فوقها : « موشيه، يبدو لي انهم لا يزالون متمسكين بمخطط المراحل. اظن ان واجبنا الاقلاع عن كل صيغة عملية لا تبيد زهرة القوات المصرية. ان قطاع غزة ليس هدفاً ذا قيمة ». اجابني على قفا الورقة : « اريك، طلبت من اسحق ان نجتمع هذا المساء لدراسة الخطط ».

في اثناء الاجتماع عبر عدة ضباط من الأركان عن وجهات نظرهم وقدموا بعض الاقتراحات. ولكني هذه المرة ايضاً جابهناهم حزمة واحدة، يوفيه وماتي بيليد وانا. نهض ماتي بيليد ليقول بتعابير واضحة وحازمة أنه من الحيوي الهجوم فوراً. وشدد على اننا لا نستطيع ان نسمح لأنفسنا ابقاء كل البلاد في خدمة العلم الى ما لا نهاية. ومن جهتي رددت أننا كنا قادرين تماماً على اتمام مهمتنا وانه يتعين علينا أن نظهر عزمنا على الحفاظ على مصداقية ردعنا على المدى البعيد. وما قلناه لاشكول منذ عدة ايام رددناه أمام الحكومة المصغرة وبكلمات اكثر ثباتاً.

في المساء نفسه طلب الينا أن نضع خططنا في تصرف اسحق رابين واركانه ــ في حضور دايان. كان ذلك بالنسبة الي بمثابة ريح باردة تهب في الخماسين. فبعد الكثير من البلبلة والأوامر والأوامر المضادة تُعطى اخيراً فرصة شرح استراتيجيتنا العامة ووضع اللمسات التفصيلية الأخيرة فيها. وكنا عندما غادرنا الاجتماع ان الخطط باتت الآن واضحة وكذلك فعالة بقدر الامكان. ومنذ تلك اللحظة كنا جاهزين للانقضاض عند الاشارة الاولى.

مثلث سيناء الجنوبي ارض جبلية خائنة ذراها كاسنان المنشار وكثبانها وحشية. ولا يوجد سوى في شمال شبه الجزيرة عدة طرق ودروب تجتاز الصحراء من قناة السويس حتى الحدود الاسرائيلية. وفي هذا الجزء الشمالي من سيناء انشئت اهم التحصينات المصرية. وعشية حرب الايام الستة كان خمس فرق من اصل سبع فرق مصرية معسكرة فيه. اهمها لواءا رفح والعريش في الشمال، ولواءا ابو عجيلة وقسيمة على امتداد الطريق الرئيسية الممتدة خمسين كيلومترا في اتجاه الجنوب. وكان يظن ان المصريين سيهجمون انطلاقاً من هذه القواعد الاربع. فهذه كانت تشكل في الواقع خطاً دفاعياً يستند الى استحكامات شديدة التحضين ووحدات مشاة ودبابات هجوم ومدفعية. ويوجد وراء هذه الاستحكامات قوتان ضاربتان. فثمة فرقتان مصريتان اخريان تنتظران على مقربة من كونتيلا، في الجنوب، جاهزتين لاختراق النجف.

في مواجهة هذه الحشود المصرية كانت اسرائيل تملك ثلاث فرق : فرقة تال، وفرقة يوفيه وفرقتي. وكانت خطتنا الشاملة تلحظ هجوماً عاماً من مختلف القوى في صباح ٥ تموز (يوليو). كان على سلاح الطيران ان يدمر في البداية تجمعات الطيران المصري ومهابطه. وفي الساعة نفسها تنقض دبابات تال على رفح في اتجاه العريش على الشاطئ. ومن جهتي اندفع بقواتي نحو ابو رجيله وقسيمة، على المحور الاوسط. أما فرقة يوفيه، الواقعة بيننا، فستجتاز رمول وادي حاردين المفترض فيها أنها غير قابلة للاختراق، عازلة

هكذا ميداني المعركة في الشمال والجنوب، لتنقض بعد ذلك على الفرق العدوة المتمركزة في داخل سيناء.

لحظت مناورة يوفيه لمفاجأة العدو لأن هذه الرمول كانت تعتبر منذ زمن طويل عاصية على الاجتياز. وكنت لا ازال اذكر اننا عند اخلائنا سيناء بعد حملة ١٩٥٦ لاحظنا ان العربات يمكن أن تتقدم في هذه الحالة انزلاقاً، على رغم كل الظواهر. وقد تضمن الكشف الطوبوغرافي المفصل الذي قام به المظليون آنذاك هذا الوادي الواسع. فبعد ان بحثنا في الملفات وجدنا الخرائط المرفقة بوصف يقول إن سرير الوادي يسمح فعلاً بمرور عربات محرّكة.

ان الهدف الأول لكل معركة في الصحراء كان دائماً السيطرة على الطرق والدروب. هكذا كانت الحال طوال ثلاثة آلاف سنة وهكذا هي الآن. قد تستطيع فرقة ان تتقدم في العراء بعض الوقت، ولكنها في غياب الطرق ستعجز عن تأمين تزويدها بالمؤمن والدخائر والوقود؛ ومن دون تزويد يغدو كل تقدم مستحيلاً. وغالباً ما تصاب آليات الجيش باعطال في الأرض الوعرة. (في العام ١٩٥٦ اضطررت الى ترك ست دبابات من اصل ثلاث عشرة دبابة، فضلاً عن ستين شاحنة، نتيجة أعطال ميكانيكية). ثم ان السير على غير هدى يكلف كميات ضخمة من الوقود، ولا تستطيع الصهاريج اتّباع العربات العملياتية في العراء الخالي من الطرق والدروب. كما أن الصهاريج الطائرة لا تستطيع هي ايضاً تلبية الحاجات. صحيح ان للعربات المجرورة — وتلك المتعددة لنواقل الحركة تهيئ طواعية كبيرة في التحرك على الصعيد التكتيكي، لكن تقدم الجيش على المستوى الاستراتيجي يتطلب طرقات.

كان اذاً الهدف الأول لفرقتي فتح المحور المركزي، اي الطريق الموصلة بين بئر السبع والاسماعيلية. ويوقف خط سيرنا تحصينا في أبو عجيلة وقسيمة — هما في الواقع تجهيزان دفاعيان مستقل واحدهما عن الآخر لكنهما يتساندان وتحتلهما الفرقة المصرية الثانية. كانت استحكامات ابو عجيلة تقطع الطريق مباشرة، فيما كانت استحكامات قسيمة تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً الى

الجنوب الشرقي. ويفرِّق بين الموقعين المحصنين ارض منقوبة. وفي اثناء حملة ١٩٥٦ هاجمت القوات الاسرائيلية من الجنوب واحتلت اولا قسيمة. غير انها اصطدمت بمقاومة عنيفة في ابي عجيلة : ثلاثة ايام من المعارك الدامية لم يتراجع المصريون في نهايتها الا لنفاد احتياطهم من ماء الشرب.

كانت القيادة العامة المصرية في قسيمة، لكنَّ التشكُّل القتالي الاكثر تهديداً كان في ابي عجيلة، حيث تمر الطريق الآتية من الاسماعيلية. وعلى هذا، فاذا استوليت على قسيمة اولاً سيتعين علي لاحقاً ان اجابه المصريين في ابي عجيلة. ولكن اذا سقطت ابو عجيلة اضمن لنفسي التحكم بالطرقات المارة وراء قسيمة، ما يضع القوات المصرية في وضع لا يطاق. وهكذا باتت من المسلمات مسألة اين توجه الضربة الأولى. ولكن كيف تنفذ هذه الضربة، فتلك قصة اخرى.

كان المصريون قد اعادوا منذ ١٩٥٦ بناء تحصينات ابي عجيلة وفق النظام السوفياتي القائل بالخط الدفاعي المستقيم. فعلى بعد قرابة خمسة وعشرين كيلومتراً من حدودنا تجتاز طريق الاسماعيلية مرتفعاً رملياً طويلاً يُدعى حَدَب أُم قَطَف. وقد اعدَّ المصريون فيه ثلاث شبكات من الخنادق المتوازية التي تقطع الطريق. وكان كل من هذه الخنادق، المحفورة شمال الطريق في كثبان رخوة وجنوبها في قمم مسننة وتلال خفيضة مشرمَّة، يمتد بطول عدة كيلومترات ويحوي بطاريات مدفعية ومخازن ذخيرة وممرات جانبية للاتصالات. والى الشرق من الخندق الأول يمتد حقل مزروع الغاما. ويدافع عن الموقع المحصن لواء من المشاة كما تحمي طوبوغرافية الأرض جنبيه، فيشكل حاجزاً منيعاً.

على بعد كيلومتر او اثنين خلف الخنادق تمركزت وحدة احتياط متنقلة تضم اكثر من ثمانين دبابة مستعدة للهجوم في كل اتجاه، مشكلة نوعاً ما الحسام المكمل للتحصين الدفاعي. والى جنوب الدبابات غابة حقيقية من المدافع : ثمانون فوّهة ١٢٢ ملم و ١٣٠ ملم، ذات مدى اطول من مدافعي.

وكانت هذه القوات المتمركزة في مواقعها الدفاعية محجوبة عن النظر، شرقاً وشمالاً، بمواقع محيطية، كما كان يحمي جناحَها كتيبة مشاة مدعومة بدبابات ومدفعية ومتخندقة في مكان حصين اطلقنا عليه على سبيل الاصطلاح اسم « اوكلندا ».

لهدم ابي عجيلة كان يجب التعرف الى نقاط ضعفها واستثمارها. يضاف الى ذلك أن القوات المتحصنة فيها متمرسة بالمعارك الدفاعية. لم يكن عديدها يقل كثيراً عن عديدي، لكن قوة نيرانها كانت في المقابل تفوق ما عندنا. كذا كنا بعيدين عن النسبة الحسابية القائلة بوجوب اطلاق ثلاثة جنود مهاجمين مقابل جندي واحد مدافع، وهي نسبة تعتبر عموماً حداً ادنى في هجوم ضد مواقع محصنة سلفاً. وبالنتيجة كان يجب أن يُركز تكتيك المعركة على تكثيف قوة الضرب وعلى المفاجأة وعلى المناورة. وكان علي ايضاً ان اهاجم ليلاً وفق تكتيكنا التقليدي الهادف الى تقليل مفعول التفاوت في القوات ومفعول المواقع المحصنة.

في العام ١٩٥٦ هاجمت قواتنا من الجنوب. هذه المرة قررت ان آخذ المواقع من الشمال والغرب والشرق. ففي استدارتنا حول المواقع في الشمال نفاجئ المصريين ونستطيع ان نبلغ بسرعة الطرق التي تمر خلف ابي عجيلة وقسيمة. من جهة الأخرى، لم ارد لاسباب سياسية ان اقطع اتصالي بفرقتي يوفيه وتال. فعندما سيفرض علينا وقف اطلاق النار الذي لا بد منه يجب ان تكون كل المناطق الواقعة تحت سيطرة قواتنا مترابطة مشكلة منطقة كبيرة واحدة.

كان المخطط الذي فكرت فيه يلحظ هجوماً متناسقاً عن كثب بين مختلف عناصر قوانا ضد خنادق العدو وتجمعات دباباته ومدافعه. فتُشن الهجومات من الشمال، ومن الغرب (في ظهر ابي عجيلة) ومن الشرق (مواجهة)، لخلق سلسلة من المفاجآت وبحيث ان كل وحدة مهاجمة تحمى جناح الاخرى. واذا كانت العملية تعتبر في نهاية المطاف شديدة

التعقيد فان دور كل لواء سيكون على العكس بسيطاً شاقاً ولكن بسيط. وسر النجاح يكمن في تنسيق وثيق جداً بين مختلف الوحدات المهاجمة.

لذلك طالبت بخطة مفصلة جداً، على مستوى الفرقة اولا ثم على مستوى كل من رؤساء الوحدات. لقد قرأت في ما بعد كتباً عن الحروب الاسرائيلية حيث صوّرني كتّابُها من دعاة الارتجال، قائلين اننا استطعنا بفضل هذه الصفة ان نهزم العرب. وفي احد هذه الكتب اطلق علي لقب « ملك الارتجال ». لا ملك ولا امير ... : فأنا لا أرتجل اطلاقاً ! وقد يكون العكس هو الصحيح بالحري. لقد اعتبرت دائماً ان من واجبي ان ارسم خططاً كثيرة التدقيق تأخذ في الاعتبار ادق التفاصيل وآخر المواقع، وتشكل كل وحدة مهاجمة على ضوء المشاكل المحددة المدعوة الى مجابهتها.

اشدد هنا على الدقة البالغة في التخطيط، ليس لأنها تؤمن حداً اقصى من الفاعلية ومن رأيي، ولكن لأنها تُلزم أيضاً كل مرؤوسيك. اذ يجب ان يعلم هؤلاء بكل تفصيل طوبوغرافي وان يدرسوا كل موقع وان يعرفوا كل جندي عليهم ان يجابهوه. بهذا فقط يستطيعون أن يقوِّموا الوضع ويقرروا عقلانياً (وليس حدسيا) ما يجب ان يتخذوه من اجراءات. تستند آنذاك قراراتهم على معارفهم. وانا أعرف أيضاً بالخبرة ان من يرسم خططه لاحظاً فيها أدق تفصيل قبل اشتداد وطأة المعركة، تتوفر له في خضمها على رغم متغيرات الوقائع الميدانية، حظوظ اكبر للتنفيذ، أقله في الخطوط العامة للخطة.

كان هذا المبدأ حيوياً بنوع خاص لعملية معقدة جداً مثل عملية الاستيلاء على ابي عجيلة. فخطة كل قائد وحده يجب أن تكون واضحة جداً حتى يعرف كل من زملائه ما يفعله الآخرون : ما هي اهدافهم وكيف ينوون بلوغها. وبعد ان يعرض كل قائد التعليمات ويحللها يعلم كل واحد الخطة في مجموعها بكل تفاصيلها وكذلك الدور الخاص الذي يلعبه هو فيها، فضلاً عن ادوار كل من زملائه. اخيراً يعلمون جميعهم أني اعتمد عليهم لانجاز مهمتهم بأقل تدخل ممكن من قبلي، تاركاً لهم الصلاحيات التكتيكية ميدانياً.

كان اول شيء علينا فعله لاحتلال قسيمة ان نستخدم المكر ــ وقد لحظت خطتي هذا الدور للواء اوري بايداتز. وكنت أنوي بعد ذلك ان أعزل ميدان معركة ابي عجيلة. فخصصت قوة مؤلفة من دبابات ورشاشات مؤللة ومدافع هاون لتتجه الى الجنوب وتقطع الطريق على كل النجدات التي قد تأتي من قسيمة. وهذه القوة التي يقودها مائير اميث قد تشكّل دعماً لنا عندما نغدو جاهزين للتقدم في هذا الاتجاه. اما في الشمال، فسأوجِّه ضد اوكلند، الذي يحمي الجناح الشمالي لابي عجيلة، لواء مدرعاً تدعمه افضل دباباتي السنتوريون البريطانية، بقيادة ناتكي نير. وبعد أن يستولي نير على اوكلند يبلغ في حركة التفاف دائرية مؤخرة ابي عجيلة، فيترك فيها وحدات حاجزة قبل أن يكمل سيره في الطريق المؤدي الى جبل لبنى حيث ركز المصريون وحداتهم الاحتياطية. حينئذ ستكون السنتوريون في وضع يسمح لها بمهاجمة القاعدة من الخلف.

وهكذا بعد عزل ميدان المعركة كان علينا أن نتضافر جميعاً لاختراق المواقع المصرية بكل عمقها. وسيكون ذلك البعبولة، الصدمة التي تفكك مقاومة المصريين. فينزل لواء المشاة بقيادة كوتي آدم حتى الطرف الشمالي للخنادق المصرية مروراً بكثبان الرمل المشهور عنها انه يتعذر اجتيازها. في هذا الوقت يركز آمر مدفعيتي، يعقوب اكنين، كل القوة النارية للفرقة على الخنادق المواجهة تماماً لهجوم كوتي لتغطيته، وبذلك يتجمد كل رد مصري على هذا الهجوم المباغت. والى يمين كوتي تُنزل طائراتُ هيليكوبتر لواءَ داني مات المجوقل فينقض انقضاضاً مباغتاً على مواقع مدفعية العدو، مسكتاً المدافع المصرية الطويلة المدى. وما ان يخترق المشاة شبكة الخنادق حتى يجتاز لواء الدبابات بقيادة موردخاي زيبوري حقول الالغام لهجوم على جبهة ضيقة. وفي الساعة نفسها تهاجم السنتوريون بقيادة ناتكي الدبابات المصرية من الخلف وتستوي على الخنادق من جهة المؤخرة. ويجب ان تحصل كل هذه العمليات ليلاً لزيادة تشويش العدو.

تلك كانت خطة معقدة، لكنها ترتكز الى مفاهيم شرحتها وعلمتها طوال سنوات عديدة، اي منذ ١٩٥٣ خلال خدمتي مع المظليين : الالتحام بالسلاح الابيض، قتال الليل، هجوم المظليين المفاجئ، الهجوم من الخلف، الاختراق على جبهة ضيقة، التخطيط الشديد الدقة، مفهوم العلاقات بين القيادة العامة والقيادة الميدانية. صحيح اني اقود للمرة الأولى فرقة في وقت الحرب، لكن كل هذه المفاهيم كانت قد اختمرت عندي قبل ذلك بكثير ولم يكن فيها من جديد عليّ. كل ما في الأمر اني جمعتها في كل متماسك وطبقتها بدراية.

في ٤ حزيران (يونيو) وقبل ان اغادر مكان الاجتماع الأخير كتبت رسالة اخيرة لليلي.

حبيبتي

جميعنا يعلم ما ينتظرنا هنا منذ ما يقرب ثلاثة اسابيع. فهذا الأمر قد يحدث في كل لحظة، وهو لا مرد له. واذا لم نقم به فوراً نتعرض للإفناء، خصوصاً منذ دخول قوات عراقية الاردن. انتِ تعلمين، طبعاً، وتفهمين ان لا خيار آخر امامنا. عليك ان تحافظي على برودة اعصابك وتسهري على اولادنا الثلاثة الرائعين، ثالوثنا. هل تعرفين اولاداً يشبهونهم ؟ انهم مدهشون وانت خارقة. ولكن ظلي هادئة تماماً خلال بضعة ايام. يجب أن تعلمي ان من الأمور الأساسية كون هذه المعركة تقع على عاتق القادة الأكثر حنكة، ومن أجل ذلك من المهم أن اكون هنا. افكر طوال الوقت فيك. أحبك وأعزك. سأعتني بنفسي لأني أعلم أن أناساً رائعين ينتظرونني في المنزل. سأتصل بك غداً الا اذا منعتني ظروف قاهرة. حافظي على معنوياتك. علينا جميعاً ان نتسلح بمعنويات عالية.

الكثير الكثير من القبلات، لك ولغوري وعمري وغيلاد.

حبيبك اريك

في تلك الليلة نفسها غادرنا مكان التجمع لنتجه نحو نقطة الانطلاق عند الحدود. نمت ساعتين راقداً على الرمل قرب احدى مصفحات القيادة العامة. عندما استيقظت كان الرجال منشغلين بتحضير طعام الصباح. تمددت على الحضيض ورحت استمع الى عاملي اللاسلكي في الفرقة. كان الجميع يكلمون الجميع، وبدت كل وحدات تساهال غارقة في مناقشات ذات محاور متعددة. شبكة اتصال واحدة كانت صامتة: شبكتنا: كما لو أننا لسنا هنا. وعند الساعة الثامنة صباحاً جاء الأمر الذي كنا ننتظر جميعاً : « الى الامام » !

في هذا الصباح نفسه احتللنا المراكز المتقدمة التي تحمي شبكات الخنادق المصرية. ومر سرب من المطاردات الاسرائيلية فوق رؤوسنا في تشكيل هجومي فقوبل باطلاق نيران غزيرة من المدافع المضادة للطائرات. اصيبت احدى الطائرات ووقعت مدوِّمة، واذ شاهدتها طلبت فوراً ابعاد سلاح الجو، ليس لأني كنت ضد دعم جوي محدود بل لأن مثل هذا الدعم لم يكن ضرورياً هنا الآن. ففي جعبتنا سهام اخرى نرشق بها العدو، ولا فائدة اذاً من تعريض طيارين عزيزين.

عند منتصف الليل كنا قد احتللنا آخر المراكز المصرية المتقدمة الى الشرق. والى الجنوب كانت القوة المتربصة بالنجدات المصرية قد اخذت موقعها مقابل قسيمة. وفي تلك الأثناء كانت الكتيبة المدعومة بدبابات السنتوريون تهاجم تحت امرة ناتكي موقع اوكلند، محور الجناح الشمالي المصري. وعلمت من جهازي اللاقط انها تصطدم بصعوبات جسيمة، من دون ان تطلب مع ذلك مساعدتي؛ ولذا لم اتدخل. وعند الساعة الرابعة فجراً حقق ناتكي ما عقدته عليه من آمال : كانت دباباته تحتل الموقع المصري وتنظف جيوب المقاومة فيه.

بعد ان تحدَّد هكذا ميدان المعركة انتشر باقي الفرقة الى الامام للهجوم

الرئيسي. وقفت فوق كثيب منخفض اراقب تحركات قواتي على امتداد الطريق القديمة الضيقة التي كان شقها البريطانيون وغدت الآن نصف مخرّبة : الدبابات، المدفعية، سلاح الهندسة، المشاة، المعتمدية ـــ كل هذه التحركات كانت تتحكم فيها القيادة العامة للفرقة، المتمركزة فوق نتوء استراتيجي. وصل لواء المشاة بقيادة كوتي آمد بسيارات مدنية اوقفت الآن جانباً حتى لا تعقل الجنود المتقدمين في صف طويل يبدو ممتداً حتى الافق.

غادرت مرصدي لاتابع عن كثب سير العمليات. كانت دبابات شارمان العملاقة بقيادة زيبوري تتقدم نحو مراكزها الهجومية المباشرة. يليها لواء كوتي للمشاة : رتلان لا نهاية لهما من الجنود الذين تلفح وجوههم رمال الكثبان التي تحركها الريح. وسرعان ما يغادرون الطريق ليلتفوا نحو الشمال بحركة ملتوية واسعة قبل ان ينطلقوا للهجوم على الطرف الايسر لشبكة الخنادق.

بينما كانوا الجنود يمرون من أمامي كنت اراقب وجوههم التي تضفي عليها لوناً ذهبياً اشعة الشمس الغاربة. وهم شاهدوني معسكراً في وسط الطريق ومنذهلاً مما ينمّ عنهم من ثقة وتصميم. وكالعادة في مثل هذه المواقف شعرت حيال هذه التظاهرة الصامتة بمعنويات من حديد.

عند الغسق صعدت الى سيارتي واتخذت موقعاً فوق احد الكثبان على مقربة من الشريط الشائك وحقل الالغام المصرية، ورحت اراقب منه خرق الدبابات خطوط الاعداء. وفيما كنت انتظر الساعة س استلمت رسالة من سلاح الجو اذا ارجأت الهجوم الى الغد. فكرت في الأمر بضع دقائق قبل ان اجيب : « كلا، نهاجم هذه الليلة ».

عند الساعة العاشرة ليلاً كانت كل فوهات مدافعنا تصب حممها على الطرف الشمالي للخنادق. وتحت نيران التغطية هذه هجم مشاة كوتي فيما

مظليو داني مات (الذين انزلتهم قبل قليل طائرات الهليكوبتر على كثبان الشمال) انقضوا على موقع مدفعية العدو. وكان ناتكي قد زود دباباته السنتوريون وقوداً قبل ان تقتحم الآن مؤخرة المواقع المصرية فاتحة نار كل مدافعها ورشاشاتها. وقد اخبر في ما بعد احد الضباط المصريين الأسرى أنه اعتقد انه يشاهد حية من نار ممتدة تنقضّ عليهم.

كنا في مركز القيادة ملتصقين بشبكات الاتصال. وكان ضباط العمليات متجمهرين امام كل من الآلات الأربعة أو الخمسة، محاولين متابعة سيل الرسائل والحوارات عن المعركة، الصادرة عن مختلف الوحدات. فجأة سمعت ان كتيبة الطليعة من دبابات شيرمان لا تجد الدبابة المصممة خصيصاً لشق طريق في حقل الالغام. اصبت بالذعر ! فكل شيء كان منسَّقاً بعناية : نهاجم مواجهة ومن الجانبين ومن الوراء، والمظليون يطغون على مواقع المدفعية؛ بدا كل شيء يسير بدقة الساعة السويسرية. وفجأة هذه الثغرة : اختفت كاسحة الألغام ! هلا اكون نسيتها في مكان ما ؟

كنت أعلم أن ساسّون، آمر كتيبة الطليعة في لواء دبابات زيبوري، سيجد بكاسحة او من دونها الطريقة لتنفيذ مهمته على الوجه الأكمل. وقد اثبتت الساعات التالية صحة توقعي. فسرعان ما وُجدت الكاسحة. ولكن عندما انفجر بها لغم وجمدها في مكانها لم يفقد ساسون برودة اعصابه : اخترق حقول الالغام مستخدماً الطرائق الحرفية القديمة. ثم تابع هجومه قائداً دباباته الشيرمان الى قلب الخنادق المصرية.

بينما ساسون وباقي لواء زيبوري يهاجمون على طول الطريق متقدمين نحو الغرب استلمت رسالة من ناتكي الذي كان اخترق مؤخرة الجهاز الدفاعي المصري المتجه شرقاً. يشكو نتكي في رسالته ان قذائف مدفعية تجبهه من الأمام من دون ان يستطيع تحديد مصدرها. لذا امرت زيبوري بإسكات مدافعه ثم سألت ناتكي اذا كان لا يزال يُقصف. فأجاب بنعم. حينئذ قلت

له : « تستطيع الإطباق عليهم قدر ما تريد. فهم المصريون »[1].

بينما كانت المعارك تتوالى استلمت رسالة اخرى من قيادة الجنوب العامة تسألني عما اذا كان احد الوية يوفّيه يستطيع استعمال الطريق في تقدمه نحو داخل سيناء. اعطيت موافقتي مرفقة بتعليمات لوحداتنا تقول ان اربعاً منها فقط (من تلك المتمركزة جنوب الطريق) يستطيع متابعة اطلاق النار على المصريين من فوق دبابات يوفيه وهي تجتاز حقل الالغام. وهكذا تسنى لنا ان نشاهد في خضم المعركة، حدثاً نادراً في تاريخ الحروب، هو مشهد لواء دبابات يمر سالماً بين نارين متقابلتين.

قرابة الثالثة او بعدها بنصف ساعة سمعت عبر جهاز الالتقاط صوت داني مات، قائد المظليين، يطلب بيأس حوامات لإخلاء جرحاه. وكان جهاز القيادة يلح بلا انقطاع في معرفة مواصفات ارض الإنزال. فكل المنطقة كانت مضاءة بالانفجارات والقذائف، ولم يكن في وسع الطيارين التمييز بين دخان المظليين ودخان الوقود المشتعل.

في هذه المرحلة كانت عرباتي القيادية، التي تتبع عن كثب القوى المهاجمة، قد صارت داخل جهاز الدفاع المصري. لذا غدا في استطاعتي ان ارشد مباشرة الحوامة بين الكثبان التي انسحب اليها داني مات بعد إسكاته مدافع المصريين. لكنّ اليعازر كوهين، قائد الحوامة الملقب بـ « شيتا »، لعجزه عن تلمس سبيله في الزحمة المسيطرة على الأرض. وجد افضل طريقة لتحديد موقع المظليين. فبينما كانت باقي حوامات تشكيلته تدور في مكانها راح هو يغط تباعاً الى جانب كلٍ من الوحدات الاسرائيلية ليسأل، كما

---

(١) بعد عدة دقائق اصيبت عربة ناتكي المصفحة اصابة مباشرة بقذيفة مصرية، فسُحقت ساقاه. اخلي حالا واخضع تباعاً لثماني عشرة عملية جراحية جنّبته بتر ساقيه لكنها لم تعُد اليه قدرته على المشي. غير انه بعناد جموح ناضل ليظل في الجيش، وفي ١٩٧٣ كان على رأس لواء دبابات تميز بنوع خاص خلال حرب الغفران.

يسألون على الطريق، عن المعطيات التي كان يريد الحصول عليها. وطال به الامر حتى السابعة الا ربعا من الصباح لكي يجد المظليين ويبدأ باخلاء جرحاهم.

قرابة العاشرة او الحادية عشرة ضعفت المعارك لتتوقف بعد قليل، باستثناء عمليات التنظيف الاخيرة في شبكة الكيلومترات الطويلة من الخنادق. وعند الظهر ران صمت عميق على المكان فرقدنا جميعنا امام دباباتنا ومصفحاتنا، يكاد يقتلنا التعب. تعب مصحوب بعاطفة رضى جياشة. الرضى على انجازنا مأثرة تُذكر. فخسائرنا لم تتعد الاربعين قتيلاً وقرابة مائة واربعين جريحاً، لكن كل التحصينات المصرية باتت بين ايدينا.

كانت مهمتنا فتح المحور المركزي في سيناء لقواتنا، وقد انجزناها. اعطيت التعليمات الضرورية لقطع الطريق المؤدية من قسيمة شرقا الى ممري متلا والجدي مروراً ببير حسانه. في بداية الامسية كنا قد سمعنا الانفجارات الآتية من قسيمة : وتبين فلي ما بعد ان المصريين كانوا آنذاك منشغلين بتحطيم كل شيء ليستعجلوا الهرب.

امضينا كل النهار في ابي عجيلة في انتظار الاوامر. ولم اعرف اسباب هذا الانتظار الا في ما بعد: بنتيجة تغييرات طرأت على خطة الهجوم الشاملة في سيناء لم تكن قيادة الاركان قد مررت بعد التحركات المقبلة لفرقتنا ! اخيراً تلقينا الأمر بالانطلاق جنوباً وباجتياز الصحراء في اتجاه نخل الواقعة على الطريق المؤدي من كونتيلا الى قناة السويس. عشية الأعمال الحربية كانت الفرقة المصرية السادسة معسكرة قرب كونتيلا على وشك ان تدخل النقب لتعزل ايلات عن باقي البلاد. ولكن بما أن ابا عجيلة سقطت وقسيمة هجرت فإن الفرقة السادسة راحت تقاتل متراجعة على امتداد طريق متلا، هذه الطريق نفسها التي اجتزتها بسرعة جنونية في ١٩٥٦ لاحقق الارتباط مع مظليي رفول ايتان امام الممر. فاذا توصل المصريون الى بلوغ الممر قبل ان نهاجم فقد يعرقلون تقدمنا نحو القناة.

انضممنا الى اللواء الذي تولى عملية الاخراج في قسيمة. وما كدنا نبدأ هذا السباق مع الوقت للحاق بالمصريين المنسحبين حتى بدأت المشاكل بالتدفق. فالوادي الذي كنت أنوي اجتيازه للتوجه جنوباً كان لا يزال موحلاً بعد الامطار المتأخرة في هذه السنة. وفيما كنا منشغلين بالمناورة لمغادرة الوادي بعد محاولة غير ناجحة لاجتيازه تعرضنا لنار كثيفة من الصواريخ احدثت بلبلة كبيرة في صفوفنا. فدباباتنا وعرباتنا المصفحة كانت متمركزة في ارض ضيقة نسبياً، وهي تجاهد للتخلّص من الوحول؛ واقل ما يمكن قوله ان هذا القصف جاء في اسوأ الاوقات. وفي لحظة ما قفزت على غطاء محرك عربتي والقيت عليه بكل ثقلي في محاولة لتقويمه ـــ او اقله لاعطاء مثل عن الهدوء الذي يجب أن يخيم بدل الفوضى ...

فيما كنا نعيد تنظيم صفوفنا امرت الألوية ان تأخذ طريقاً اخرى ابعد قليلاً الى الشرق. لكنَّ مشكلة اخرى طرأت : ظهر طابور دبابات الى الغرب منقضاً علينا وفاتحاً كل حمم مدافعه. عرفناه فوراً: كان لواء من فرقة يوفيه، مر في ابي عجيلة خلال المعركة. والارجح انه تابع تقدمه غرباً ثم انحرف الى الجنوب والشرق على امل شبيه بأملنا : قطع الطريق امام المصريين المتهالكين للوصول الى ممر متلا : وعندما شاهدنا رجال اللواء من بعيد ظنونا الفرقة العدوة التي يتعقبونها فهاجمونا بقوة.

حاولنا تحذيرهم بالراديو لكننا فشلنا من دون ان نتمكن من معرفة السبب. وتفاقمت الامور بسرعة لدرجة ان احدى كتائب المدفعية المواجهة لخط رميهم تلقت قذائف خطرة. وبدأ آمر لواء المدفعية بتوجيه مدافعه تحسباً لمعركة ضد الدبابات، وهو يواجه معضلة مؤلمة : الرمي على قوات اسرائيلية او التفرج مكتوف اليدين على تدمير فوجه. امرته الا يطلق النار، لكنني كنت اسمعه عبر جهازي اللاقط انه يتكبد خسائر : رددت مرتين : « لا تطلق النار ! » ثم امرت ضابط عملياتي اسحق بن آري ان يركب الجيب ويتوجه لملاقاة دبابات يوفيه ليطلعهم على سوء تقديرهم الخطر. كانت المهمة تتطلب

معركة ابو عجيلة
في حرب ١٩٦٧

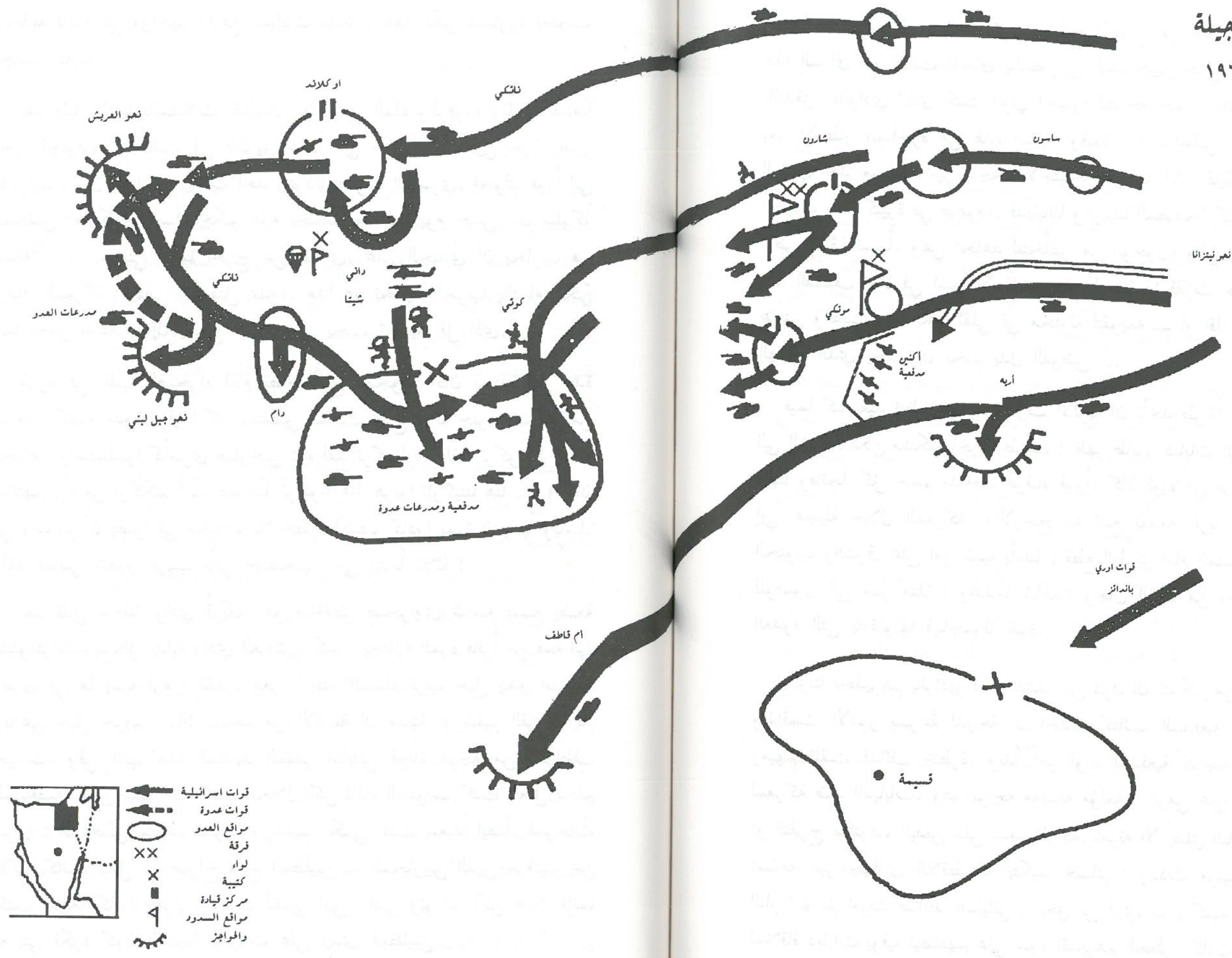

شجاعة نادرة في مواجهة مدافع الدبابات الفاغرة فاها. لكن المناورة نجحت فجنبتنا كارثة.

بعد قليل تلقينا بالمظلات كميات مهمة من الماء والوقود، وتابعنا تقدمنا نحو الجنوب. لاحظت في الطريق عدداً من جنودنا متحلقين حول اسير مصري. ولدى اقترابي شاهدت احد جنودنا يضرب المصري. فحولته فوراً الى المجلس العسكري حيث حكم عليه بخمسة وثلاثين يوم حبس. ان سلوكاً مماثلاً كان يجعلني دائماً اخرج عن طوري. على الجندي ان يحارب في ميدان المعركة. وبتالي ان يقتل عدوه. هذا هو تحديد الحرب بالتمام. لكنّ هذا العدو نفسه ما إن يصبح اسيراً حتى يجب تجنيبه اقل اذى.

مررنا في قلب الصحراء امام نظام دفاع مهجور، كان يحتله قبل عدة ساعات كتيبة عدوة. وفيما كنا نستقصي المكان خرج ثلاثة جنود مصريين من مخبأهم واستسلموا كأسرى صارخين : « لقد تركونا ... لقد تركونا ! ... » سألتهم : « من ترككم ؟ — ضباطنا. تركونا هنا. هربوا تاركيننا هنا ... » كان في وسعهم أن يظلوا في مخبأهم بلا خطر، لكنهم كادوا يموتون رعباً ويأساً. ولقد انتابني شعور غريب بأني اصطحب معي ايتاماً ثلاثة !

بعد قليل دخلنا وادي قُرَيَّة، وهو منخفض صحراوي شاسع يتسع بضعة كيلومترات ويشكل بداية وادي العريش الكبير. يجتازه المرء قافزاً من قمة الى اخرى في ما يشبه ارض القمر. ومررنا عند المساء قرب جبل يبدو عدوانياً ويدعى جبل حريم. هناك سمعنا من الاذاعة ان مدينة اورشليم القديمة قد حررت. وفي قلب هذا المشهد المقفر انتابتني فجأة موجة من العواطف المتناقضة. ومن بينها خيبة امل. فخلال كل تلك السنوات كنت اتعلل بحلم سري : ان احظى بشرف تحرير اورشليم. لكنني كنت سعيداً ايضاً. فموجات الاثير كانت تنقل لي صراخ فرح المظليين — المحاربين الذين عرفتهم عن كثب عندما كانوا بامرتي. وقلت لنفسي انني حتى ولو لم اكن هناك فإنما تعزيني فكرة كون المدينة تحررت على ايدي المظليين.

بعد منتصف الليل بقليل توقفنا في جوار شمال نخل. فبعد عرباتنا عطلتها الالغام. لذا قررت الاستراحة حتى الغد. وهكذا يتاح لي ايضاً ان املأ العربات وقوداً وانصرف الى دراسة الوضع في وضح النهار.

شققنا طريقنا عند الفجر عبر حقل الغام، متسائلين لماذا يخيم صمت الموت على القاعدة المصرية أمامنا. عند دخولها فوجئنا بان هذا المعسكر المحصَّن الذي كان يحميه لواء من قبل مهجور تماماً. كل شيء لا يزال في مكان : الخيام المنصوبة، المدافع المتحركة المعدَّة للانطلاق، المدفعية المقطورة ومدافع المورتر المخبأة في مواقعها المحمية جيداً ولا ينقصها غير إشعال الفتيل. كل شيء في مكانه، باستثناء الجنود. والارجح انهم شاهدونا نقترب منهم فتركوا كل شيء وهربوا. اطلقنا على المكان اسم « اللواء الشبح ».

حطت حوامة الاستكشاف التابعة لفرقتي في جوار نخل لتسلمني رسالة : هناك فرقة مدرّعة آتية من كونتيلا تتجه نحونا، يتعقبها عن كثب احد الويتنا الذي سبق له ان امّن الدفاع عن حدود النقب وألحق الآن بقيادتي. فرتبت لواء دبابات وكتيبة رشاشات آلية مدعمة ووحدة الاستطلاع في الفرقة لنصب كمين للمصريين الهاربين. ولكن ما إن بدأت المعركة حتى تعطلت سيارة القيادة مع كل آلات الاتصال. فقطرتها باحدى الدبابات بكبل، من دون ان ادري آنذاك اني عشت سابقة لا مثيل لها في تاريخ الحروب : قيادة المعركة وأنا مقطور. ولقد وقعت الفرقة المصرية السادسة مباشرة في فخ قاتل بعد ان واجهها لواء الدبابات من الامام والرشاشات الآلية من الجناح وتعقبتها قوة اسرائيلية. وكان المشهد امام نخل صورة كاملة لوادي الموت. فعلى امتداد كيلومترات كانت الصحراء مغطاة بدبابات محطمة وعربات مدرعة تحترق. وغطت الجثث الأرض. وكنا نشاهد هنا وهناك زمراً من الجنود المصريين وايديهم خلف رؤوسهم. ولم ينته هذا المشهد الجهنمي الا في المساء. ولم يبق من الفرقة المصرية السادسة الا ذكرى حزينة.

الحملة الصاعقة على سيناء - حزيران ١٩٦٧

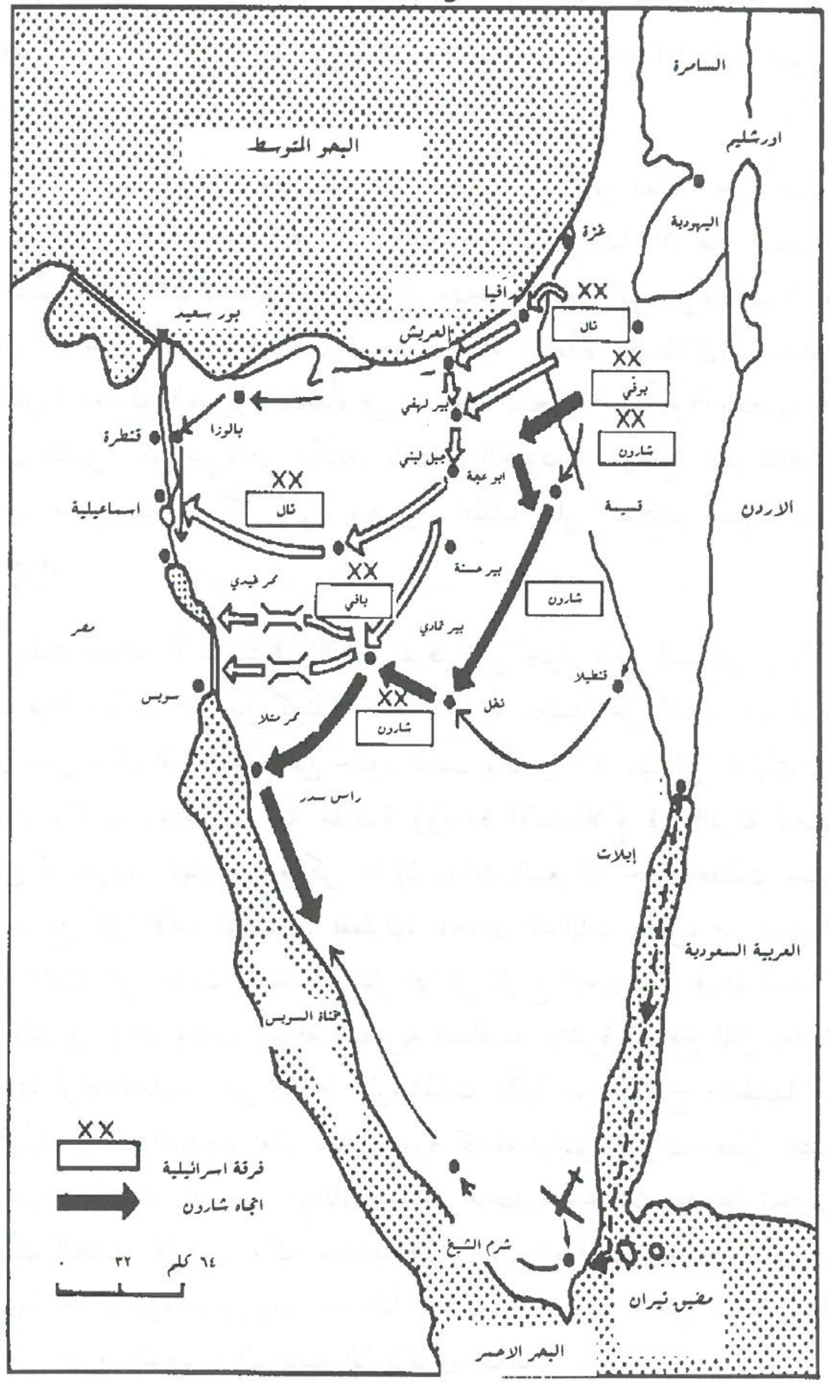

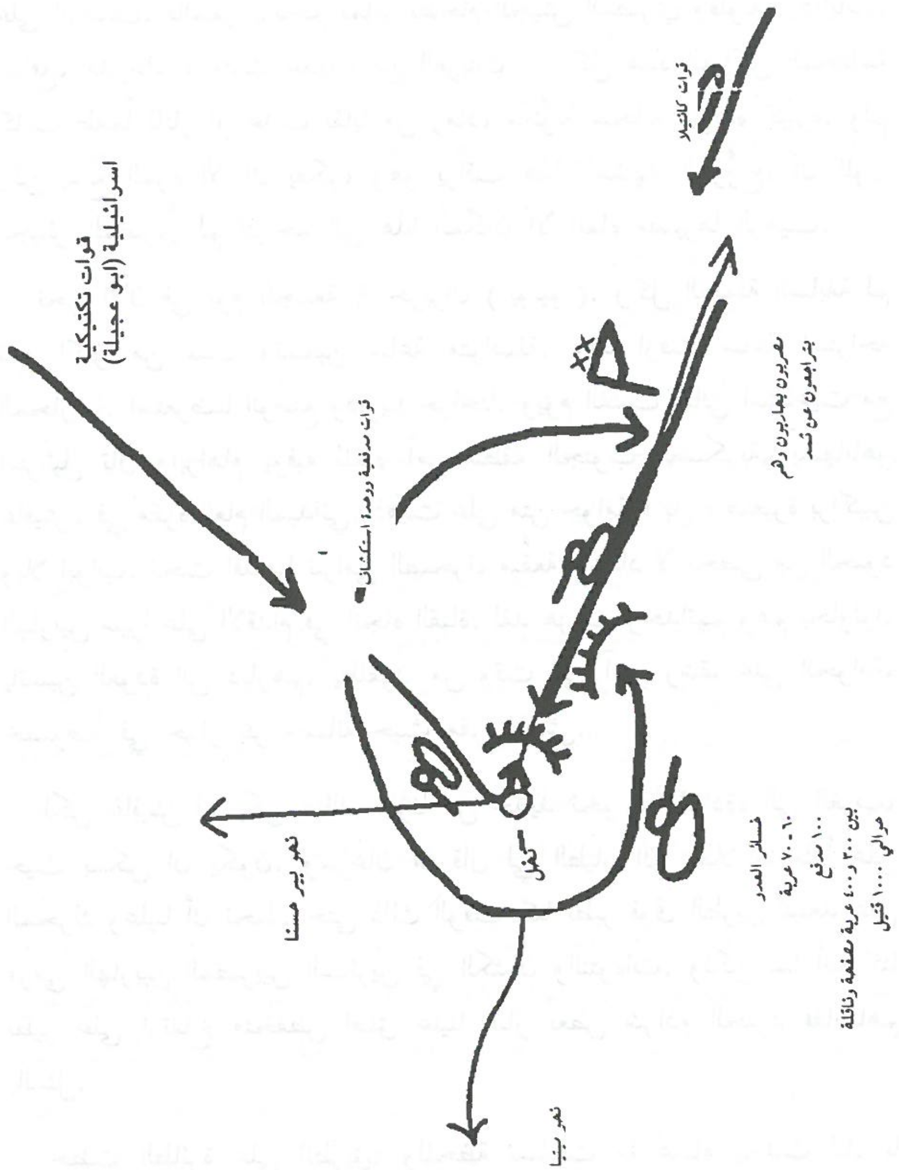

في اليوم التالي اتجهنا نحو ممر متلا ووجدتني تماماً في المكان نفسه الذي خاض فيه المظليون قبل احدى عشرة سنة معركة دامية. كان المشهد يعصى على الوصف. فالممر يزدحم تماماً بطحام الجيش المصري وفلوله : دبابات، مدافع، مدرعات، مئات عديدة من العربات ... كل هذه الهياكل المحطمة كانت طعماً للنار او غدت بقايا من رماد، مكوِّنة سحابة سوداء كبيرة. ولم يكن يسع المرء الا ان يفكر، وهو يراقب هذا المشهد المروِّع، ان فلول الجيش المصري لم تتزاحم الى هذا المكان الا للقاء مصيرها الرهيب.

نحن الآن في يوم الجمعة ٩ حزيران (يونيو). وكل الحملة السابقة لم تدم اكثر من ست وتسعين ساعة متواصلة. وقد ازفت ساعة استراحة المحارب. استعرضنا الوضع وداوينا جراحنا. ويوم السبت التالي استدعيت مع اسرائيل تال وابراهام يوفيه للقاء آمر منطقة الجنوب العسكرية، يشهاباهو غافيش، في مقره العام الميداني. ذهبت على متن حوامة « بل » صغيرة براكبين وبلا ابواب. تحت اقدامنا تترامى الصحراء مبقَّعة بأعداد لا تحصى من الجنود الهاربين سيرا على الاقدام في اتجاه القناة. لقد هزمت وحداتهم وهم يحاولون يائسين العودة الى ديارهم. يطلقون من وقت الى آخر رشقا على الحوامة، خصوصاً في جوار بئر حسانه حيث مقر غافيش.

لكن غافيش لم يكن هناك. طرنا من جديد نحو بير ثمادة، الى الغرب، حيث يمكن ان يكون. وسرعان ما قال لي الطيار ان عطلاً ما طرأ على المحرك وعلينا أن نحط. حتى ذلك الوقت كنا نطير فوق الطريق لنبتعد على مرمى الهاربين المصريين السائرين في الكثبان والنتوءات. ولكن بما أننا كنا نطير على ارتفاع منخفض اطلق علينا النار بعض شراذم الجنود فقابلناهم بالمثل.

حطت الطائرة على الطريق، وللحظة تساءلت ما عساه يحدث لنا. يا لسخرية القدر القاسية : قبل اقل من ساعة كنت في امان بين افراد فرقتي، والآن اجدني وحيداً متروكاً بين مئات المصريين المسلحين واليائسين.

وخطرت ببالي مغامرتي في صحراء الدناكيل عندما تعطلت سيارتي. كنت جالساً القرفصاء في الطريق اجتر أفكاري عندما ظهرت حوامة كبيرة في السماء. فاطلقنا قنابل دخانية. مر الطيار اولا فوقنا كما لو أنه لم ير شيئاً. ولكن ما مرت بضع ثوان حتى اتجهت الطائرة صوبنا بحركة بطيئة.

قبل أن تحط الآلة كان بابها قد فتح وقد قفز منه صديقاي ابراهام يوفيه واسرائيل تال ! لم أكن قد شاهدتهما منذ بداية الهجوم. فتعانقنا بسعادة واسترخاء المجهدين. وفي أسرع من لمح البصر استقرينا في الطائرة متجهين نحو موعدنا مع غافيش.

من قيادة غافيش العامة توجهنا نحو تل ابيب حيث كان ينتظرنا رابين. وعلمت ليلي بقدومي — لست ادري كيف. فكانت في استقبالي في المطار مع غور. مفاجأة رائعة، على رغم الاستحالة المادية للبقاء سوية ولو لحظة.

عندما قادتني ليلي بالسيارة نحو الأركان العامة بدت لي الشوارع غريبة عجيبة، كما لو أن الأسابيع القليلة التي امضيتها في النقب وسيناء فصلتني عن المدينة. لم أكن قد عدت الى البيت منذ اكثر من شهر، وهذا الانتقال المفاجئ من الصحراء الى المدينة افقدني توازني. لكن وجود ليلي وغور اعاد الي مودة منزلي وعائلتي. وهناك، حول نخل، يخيم الجنود الذين شاطرتهم تجربة الحرب واهوالها ومسؤولياتها الجسيمة وانفعالاتها.

كان لقاء الأركان مع رابين سلسلة من التهاني والمدائح الحارة. وفي اليوم نفسه انتهت عملية الجولان بانهيار كامل للدفاعات السورية. لقد احرزنا على كل الجهات انتصارات جاوزت اهدافنا الاصلية. وقبل ان اغادر مكتب رابين عينني قائداً أعلى لمنطقة سيناء حيث لا تزال تنتظرنا مهمات عديدة: تنظيف الجبهة وتجميع السجناء ووضع ادارة للمنطقة. طرنا في « سوبر فريلون » مسترخين طوال الرحلة على ارض الطائرة وقد اسندنا رؤوسنا على اكياس المؤن. وعندما حطت بنا الآلة في بير جفجافة كان الظلام قد حل. نزل تال

ليختفي حالاً في الليل متجهاً نحو مقره العام. وبعد ربع ساعة انزلنا يوفيه بين ذراعي ضباطه الذين كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر. ثم هبطت الطائرة في نخل حيث مقر قيادتي. كنت اشاهد من نوافذ الطائر النقاط الحمر : النيران التي أشعلها الهاربون المصريون ليتدفأوا. وفي نخل كانت الصحراء سوداء كالليل. غير أن هذه الظلمة بدت لي ودودة: القيت نظرة حولي على خيام فرقتي فراودني شعور أنني اعود الى منزلي.

استعادة الانفاس

لدى عودتي الى سيناء كانت تنتظرني مَهَمة مُهِمة وعاجلة: تجمع آلاف المصريين التائهين في الصحراء والجاهدين بيأس لبلوغ القناة والعودة الى ديارهم. مَهمة خطرة ايضاً. فهؤلاء الناجون يفتقرون الى الطعام والماء والرؤساء. وبالاضافة الى تعرضهم الى شمس حزيران (يونيو) والرمال اللاهبة كانوا عرضة لكمائن بدو سيناء، الذين لم يكونوا يتوانون عن قتلهم لسرقة اسلحتهم. وفي صراع الهاربين مع القدر المميت كانوا قادرين على الايذاء.

حاولنا أن نأسر اكبر عدد منهم لنحشدهم قرب البالوزا في شمال سيناء حيث لا يموتون عطشاً ولا يتعرّضون لاذى البدو. وفي امكنة تجمعهم كان الماء يوزع عليهم مع أن تقنينه كان عاماً يطال حتى جنودنا. فكنت ترى الجنود الاسرائيليين يقفون في الصف مع الاسرى المصريين امام الحنفيات (الصنابير) الشحيحة. كان من السهل ترك المصريين يقلعون شوكهم بأيديهم ليعودوا الى القناة. وكان ذلك سبيلاً اكيداً لتصفية قسم كبير من الناجين من الجيش المصري. غير أننا كنا مجمعين تقريباً على رفض هذا الاحتمال لدواعي ضميرية، مع أن أيّاً منّا لم يكن ليجهل مصير عائلاتنا وجيراننا لو أن المصريين انتصروا علينا : كان الشعب اليهودي سيعرف حينئذ مذبحة جديدة.

من طبيعة الحرب ان يقتل الجندي عدوه. ولكن ما ان يصبح العدو تحت رحمة آسره حتى يغدو هذا الاخير مسؤولاً عن حياته ورفاهيته. عليه ان يعالجه ان كان جريحاً، مثلما يعالج جرحاه، وان يعامله مثلما يأمل من العدو ان يعامل اسراه. هذه هي المبادئ التي سددت سلوكنا تجاه الناجين المصريين.

في البدء فكرنا في جمع اكبر عدد ممكن منهم لنبادلهم مقابل حفنة الجنود الاسرائيليين المأسورين. ولكن سرعان ما وجدنا أنهم أكثر من ان تستطيع العناية بهم، لذلك قررنا الاحتفاظ بالضباط فقط. اما الجنود العاديون فقد جُمعوا ونقلوا الى مدينة القنطرة الواقعة على الضفة الشرقية للقناة التي اجتازوها على متن مراكب ارسلتها السلطات المصرية. لم يحصل اتفاق بهذا الشأن بين البلدين بل نوع من الموافقة الضمنية التي اتاحت لآلاف الجنود الفلاحين ان يعودوا الى منازلهم سالمين، حتى ولو اجتاز بعضهم مائة وخمسين كيلومترا الى مائتي كيلومتر في الصحراء.

عندما علم السجناء أننا نعيد الجنود العاديين الى بلادهم « اختفى » الضباط بسحر ساحر، كما لو أن شرائط الجيش المصري تبخرت فجأة. وبما أن البزات الرسمية كانت ممزقة وسخة والسجناء لم يحلقوا ذقونهم منذ اسبوعين. كان يستحيل التمييز بين ضابط وجندي. اخيراً وجدنا علامة — علامة وحيدة — تتيح التمييز دون خطأ ممكن : كان الضباط يلبسون سراويل داخلية حريرية. أما رجالهم فسراويلهم قطنية خام. هذه التراتبية في السراويل كانت تشكل في نظرنا، نحن المعتادين على الديمقراطية، شيئاً مذهلاً ولّد في صفوفنا طائفة من الدعابات والنكات. وهكذا فإن كل فريق من الناجين كان يؤمر اولاً بانزال البناطلين، فمن يرتدي سروالاً حريرياً يرسل الى مخيمات السجناء، ومن يرتدي سروالاً قطنياً يأخذ وجهة القناة.

في بير جفجافة حيث نقلت موقتاً مقري العام كان الهواء ينقل رائحة الموت. فريح الصحراء كانت تنقل نتانة ميادين المعارك، على رغم بعدها، حيث تنبعث رائحة الجثث المتحللة. كذلك اتتنا الريح ايضاً بسحابات من

الذباب الاسود من مسافات قد تتجاوز بير جفجافة الى مناطق القتال الملأى بالجثث.

بعد إقامة قصيرة في سيناء عدت الى منزلي، وخلال هذه الأيام القلائل نظمت المشاكل التي لا تطيق تأخيراً، قبل أن اتفقد الاماكن التي حاربت فيها في اثناء حملة سيناء عام ١٩٥٦. وكانت الحوامة الآتية لنقلي الى المنزل مكلفة ايضاً نقل ضابط في سلاح الهندسة فقد رجلاً ويداً وهو يفكك حقل الغام مصرية. خرج الطيار من مقصورته ليحييني. وعلى رغم الظلام تعرفت حالاً الى شيتا، قائد السرب الذي كان قد أنزل في أبي عجيلة المظليين المكلفين مهاجمة مواقع المدفعية المصرية، قبل أن ينجز تلك المأثرة العظيمة باخلاء الجرحى.

وها هوذا شيتا نفسه واقفاً أمامي، على المطار، وسط فريق من الأطباء والممرضين المنشغلين بتحضير المهندس المصاب لنقله، وإذ به ينفجر فجأة باكياً. وفيما الاطباء يقومون بعملهم اخبرني وهو يغص بالعبرات انه علم الآن ان اخاه قتل في المعركة. ولقد شاهدته بعد ان ازدحمت بنا الطوافة يقودها والالم يعتصر قسماته. وكان الضابط المهندس ممدَّداً فوق محمله الى جانبي، ووجهه اغبر كالرماد، تلفه شبكة من الانابيب موصولة بالامصال الموضوعة على رف معدني فوقه. لم تكن عودته عودة المنتصرين المجيدة بل كانت بالحري تذكيراً مؤلماً جداً بالثمن المر للانتصار.

كانت ليلي تنتظرني في مستشفى تل هاشومير لتأخذني الى المنزل في تساهالا. اخيراً سأذوق طعم الراحة الحقيقي بعد حرمان مديد. غير أن حلمي هذا تبدد في اليوم التالي بعدما اتصل بي فنحاس سابير، وزير المال، ليسألني ان اذهب في رحلة جمع تبرعات، مقرونة بحملة إعلام، الى هونغ كونغ واستراليا ثم اعرج على ايران في طريق العودة. سألت من دون حماس : « متى تريد ان اذهب ؟ » فجاء الجواب : « امس » !

قبل ان اركب الطائرة حرصت على القيام بزيارة قصيرة، مع ليلي وغور، لمدينة اورشليم القديمة ثم للسامرة واليهودية. كانت الطرقات مزدحمة بالسيارات وبارتال طويلة من المشاة؛ وحيثما توقفنا كان علي ان اقابل بوح الجمهور بعواطفهم ببوح مماثل. لم ار في حياتي قط حشداً منفعلاً بهذا القدر كالحشد الذي شاهدته في اريحا او في مقبرة جبل الزيتون القديمة او عند حائط المبكى وغيرها من الأماكن اليهودية المقدسة والمحظّرة رؤيتها على اليهود منذ ما يقرب من عشرين سنة.

غير أن هذه الزيارة كانت خاطفة كلمح البصر تقريباً قبل سفري الى الخارج. لذا وعدت نفسي لدى عودتي برحلة عائلية قصيرة الى هذه المناطق والمواقع. سنتناول فطورنا في حبرون (الخليل) وغداءنا في اورشليم وعشاءنا في سيشام قبل الحرب كان يتفق لي ان آخذ غور الى قمة جبل صهيون لنراقب سوية مدينة اورشليم القديمة. كنت ادله على المواقع المختلفة : الحي اليهودي القديم المهجور، جبل الهيكل، حائط المبكى واسوار المدينة. واقول له : « هل ترى ؟ كل هذه الأماكن هي لنا حتى ولو لم تكن بين ايدينا. هي ملكنا ».

بعد بضعة ايام قصيرة جداً في نظرنا جميعاً ركبت طائرة ٧٠٧ تابعة لخطوط عبر العالم متجهة الى بومباي وهونغ كونغ. كنت اول جنرال اسرائيلي مبعوث في مَهمة الى الخارج بعد النصر حالاً. وفي كل محطة كان جيش من المراسلين الصحافيين يمطرونني بالف سؤال وسؤال عن الحرب وجيش الدفاع الاسرائيلي والحكومة الاسرائيلية والمستقبل وامور عديدة غيرها. وسرعان ما تحول سفري الى ما يشبه المؤتمر الصحافي الدائم. ومن هونغ كونغ دهبت الى استراليا بطائرة نفاثة تابعة لشركة كوانتاس. تحدثت في سيدني وملبورن وكانبيرا واديلاييد ومدن استرالية اخرى امام ضباط الجيش وجمهور من المستمعين اليهود. وعلى رغم الحفاوة التي قوبلت بها اني اتجهت كنت انتظر عودتي إلى منزلي على أحر من الجمر. فخلال

السنوات الطوال لخدمتي في الجيش غالباً ما كنت غائباً عن المنزل ... واليوم، بعد هذا النصر الكبير، كنت احس بحاجة لا تقاوَم الى ان اكون في داخله اشاطر اهل بيتي عواطفي. وكلما اتصلت بليلي هاتفياً كانت تعلن لي وفاة صديق قديم أو ابن له صرع في المعركة. واكثر ما احزنني خبر وفاة يائير تلزور. كنت اعرف يائير وعائلته منذ اربع عشرة سنة، وبالتحديد منذ مثل امامي كأحد المتطوعين الاوائل في الوحدة ١٠١. ولقد قاد في اثناء الحرب كتيبتي القديمة من المظليين. واخبرتني ليلي ان مائير قتل في حقل ألغام. في هذا الجو من الحداد كان ابتعادي عن المنزل يشق علي اكثر ايضاً.

في طريق العودة عرجت مجدداً على هونغ كونغ. ونزلت في فندق شبه الجزيرة (بينينسولا) ذي الطراز الاستعماري، وهو يخص عائلة خضّوري اليهودية المشهورة بثرائها وقد هاجرت من العراق وكانت تساعد اسرائيل مالياً منذ عشرات السنين. في بداية الثلاثينات موَّلت هذه العائلة بناء معهد الزراعة الذي يحمل اسمها في الجليل الأدنى. كانت الأزمة الاقتصادية في أوجها آنذاك، فثار ثائر المزارعين اليهود ضد البريطانيين الذين خصصوا نصف هبة خضوري لبناء مدرسة عربية مماثلة في طولكرم. وطوال سنوات عديدة لم يهدأ غضبهم ضد هذا التصرف الارعن الذي أقدمت عليه سلطات الانتداب. وعلى رغم قضم ميزانية معهد خضوري فإنه ما لبث أن اشتهر في طول البلاد وعرضها، ومن بين طلابه القدماء نستطيع ان نذكر امثال ايغال آلون واسحق رابين. واليوم يحصل لي الشرف النزول ضيفاً على آل خضوري ـــ مقروناً بلذة زيارة هونغ كونغ على نحو افضل من المرة السابقة. واكثر ما اثّر فيَّ في هذه المدينة مشهد الاعداد الغفيرة من صغار الصينيين الذاهبين صباحاً الى المدرسة. وفي نظراتهم المعبرة ذلك الشغف الكبير بالتعليم والتعطش الى المعرفة الذي يميز ايضاً الاولاد اليهود.

في هونغ كونغ طرت الى طهران حيث امضيت اربعا وعشرين ساعة لا تُنسى. كرست معظم النهار للتنزه في شوارع المدينة في رفقة ملحقنا

العسكري في ايران يعقوب نمرودي. في شارع تجار السجاد حاصرنا التجار اليهود في البازار بعد ان تعرفوا الينا. جلسنا على كومة من السجاد محاطين بمئات التجار وهم يغمروننا بالقبلات والبركات. ففي نظر يهود ايران، على غرار اخوتهم في استراليا والجالية الصغيرة في هونغ كونغ، كان هذا الانتصار لجيشنا مصدر وحي روحي وعزة وعزاء عظيم.

بعد عودتي الى البيت قررت أن اجوب بعمق ارجاء اليهودية والسامرة مع ليلي وغور. وكانت جماهير الاسرائيليين لا يزالون يزورون هذه المناطق لاكتشاف مواقع مثقلة بالمعاني في تاريخنا وتراثنا، بعد ان منعوا من دخولها منذ ١٩٤٨. وكانوا ما ان يتعرفوا علي حتى يتحلقوا فوراً حولي لتهنئتي او مباركتي — او للمزح معي. في تلك اللحظات كنت انظر الى غور في عينيه، ومع أنه لم يكن يقول شيئاً كان وجهه يعبِّر عن سعادة فائقة ممزوجة فخراً. ومن جهتي كنت اشعر وانا اراقبه بفرح عارم يعوّضني كل تلك السنوات التي كنت في اثنائها شبه غائب عن البيت، ويعوضه كل التعاسة التي قاساها بسبب بعدي عنه. وتأسفت لأن جيلاد وعمري ليسا كبيرين كفاية لكي ينعما هما أيضاً بهذه السعادة.

بعد تسريح رجال الاحتياط عدت الى الاركان العامة رئيساً لفرع التعليم. عمدت الى دراسة منهجية لحرب الأيام الستة هذه، محللاً كل معركة وكل عملية مع الضباط ذوي العلاقة. واعدت تمثيل سياق الحوادث طوراً بطور لاستخلاص كل الامثولات الممكنة.

كذلك امضيت اياماً بلياليها في السامرة وفي صحراء اليهودية لدراسة معطياتها الاستراتيجية والطوبوغرافية. وبصفتي مسؤولاً عن التعليم بادرت الى نقل مختلف المعاهد العسكرية الى السامرة. في الواقع كنت باشرت بعملية النقل هذه قبل اسابيع عندما كنت لا ازال في سيناء. فاذا علمت بتحرير اليهودية والسامرة ارسلت فوراً بالهاتف تعليماتي الى قائد معهد المشاة اطلب اليه ان يغادر قاعدة ناتانيا ليستقر في مخيم للجيش الاردني احتللناه، ليس بعيداً

من سيشام. ذلك كان اول معهد انقله على هذا النحو. وبعد عدة اشهر نقلت عدداً مهما من هذه القواعد العسكرية : معهد المشاة، معهد الهندسة العسكرية، معهد الشرطة العسكرية، قسم من معهد المدفعية، والجزء الأساسي من معهد تدريب المجندين الجدد والمظليين، وغيرها ايضاً.

ان فكرة نقل المعاهد العسكرية الى اليهودية والسامرة لم ترق بطبيعة الحال للجميع، وكان عليّ ان اخوض معارك كلامية عاصفة مع سائر ضباط الاركان. وكان بارليف، خصمي الدائم الذي عين آنذاك رئيساً للأركان، يعارض بشدة نقل الانشاءات والتجهيزات العائدة لقاعدة التدريب، فيقول « ان ذلك سيكلفنا ملايين الجنيهات »، فارد عليه بان « ذلك ممكن، لكن للنقل اهمية تفوق المال بكثير ». في نهاية المطاف انتهى الأمر بالجميع الى الموافقة وربحت الجولة.

كانت شهور عديدة قد انقضت على وقف اطلاق النار، واذا لم يكن قد تكوّن في رأسي بعد فكرة محددة عن الحل السياس لهذه المناطق، الا ان موقفي حول بعض النقاط كان واضحاً. فمن المهم قبل كل شيء، لتوطيد الامن في هذه المناطق، ارساء نقاط ارتكاز يهودية متينة فيها، وفي اسرع وقت ممكن. وكانت هذه النظرة تنطلق من مسلَّمةٍ تقول ان هذه الأراضي هي جزء مكمل لأرض اسرائيل احتله العرب عام ١٩٤٨ وعلينا الآن ان نعود اليه.

لم يكن المقصود ابداً أخذ الاراضي الزراعية من العرب. فالمناطق المزروعة الخصبة لم تكن تهمني، فضلاً عن اننا لم نكن في حاجة اليها. في المقابل، كانت مفترقات الطرق والمرتفعات المشرفة على هذه المناطق ذات أهمية حيوية لنا. فتلال السامرة تشرف من عَلٍ على الشريط الساحلي الضيق لاسرائيل. وانا ترعرعت في ظل مدن عربية مثل قلقيلية التي كانت قواعد هجوم للجيوش العربية وللعصابات التي ظلت ترهب المزارع والقرى اليهودية طوال عشرات السنين.

ليس من الضروري ابداً ان يعيش المرء تجربة شخصية كتجربتي او ان يكون نابغة عسكرياً ليعرف اهمية هذه المناطق الاستراتيجية. فثلثا الشعب الاسرائيلي يعيشون في الشريط الساحلي التي تحيطه هذه المناطق إحاطة السوار بالمعصم. وفي هذا الشريط ايضاً يتركز الجزء الأساسي من البنية التحتية الصناعية لاسرائيل، ومنها المولدات الحرارية ومطارنا الدولي الوحيد. فهذا المجمَّع الواقع في قلب البلاد قابل للتجريح بسرعة ومعرَّض لتعديات الارهابيين الذين يسهل عليهم اجتياز الحدود واقتراف جرائمهم والعودة الى مركز انطلاقهم بليلة واحدة فقط. ثم ان شريطنا الساحلي يقع ايضاً على مرمى مدفع من تلال السامرة. وحسب معايير الجيش الاميركي يتوفر لهذه المنطقة الاستراتيجية، قلب اسرائيل النابض، حتى العمق التكتيكي الذي يجب ان يتوفر للواء، ناهيك بجيش. القادة العسكريون الاميركيون يفكرون عادة في أعماق ابعد مدى.

ان ضرورة الحضور الاسرائيلي في هذه المناطق لا ترتهن في مفهومي لاي حل سياسي. فما كان يبدو لي واضحا بصرف النظر عن كل حل سياسي لاحق هو حتمية وجوب السيطرة على المنطقة الجبلية المشرفة على المنطقة الساحلية، وذلك لاهداف ثلاثة : تأمين سلامة الشريط الساحلي الضيق، والدفاع عن السهل الممتد على طول نهر الاردن، وضمان حماية اورشليم، العاصمة الابدية للشعب اليهودي. فهذا هو الحد الادنى الذي لا يمكننا التخلي عنه، وانا لم اقبل قط — واشدد على ذلك — فكرة التخلي عن ارض حيوية لوجودنا. والحال ان هذه التلال الصخرية ومفارق الطرق الاستراتيجية هي فعلاً ذات اهمية حاسمة بالنسبة الينا.

لذا كانت مَهمتنا الأولى تأمين سيطرة ميدانية فعلية. انا اتحدر من عائلة يمكن وصفها بأنها « صهيونية براغماتية » (ذرائعية)، وهم أناس فهموا انه في هذا العالم غير الثابت الذي يسوده العنف لا يمكن المخاطرة بوجود الشعب اليهودي بالاستناد الى « قصاصات ورق ». فبقاؤنا لا يمكن ان يرتهن فقط

بالثقة بحسن ارادة الغير؛ علينا أن نرسي هذه الثقة على « وقائع »، على إنشاء البلاد والدفاع عنها. واذكر انني في سنوات لاحقة، بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٨١، عندما كنت اتفاوض مع المصريين، كان يتفق لي غالباً ان اتصل هاتفياً من القاهرة بأمي للسؤال عن أحوالها. ومع علمها بأن المخابرة كانت مراقبة كانت تقول لي بلكنتها الروسية البارزة : « لا تصدقهم، لا تضع ثقتك بقطعة ورق ! » هذا هو تماماً ما كنت اشعر به في سنتي ١٩٦٧ و ١٩٦٨. فمهما كانت طبيعة الاتفاق الذي تفكر في الحصول عليه، ومهما كانت قيمته، كنت عاقد العزم على فعل كل ما كان في وسعي لإرساء وقائع من شأنها ان تؤمِّن لنا سيطرة استراتيجية.

وهكذا نقلت المعاهد العسكرية وقواعد التعليم. وطوال وجودي على رأس مصلحة التعليم احتللت معظم القواعد العسكرية الاردنية القديمة ومراكز الشرطة القائمة خارج المدن، وكانت كلها تحتل دائماً أهم المواقع الاستراتيجية. ولا عجب في ذلك، فعندما كان الاردنيون يحتلون اليهودية والسامرة انتقوا مواقع قواعدهم العسكرية وفق هذه المعايير التي تمليها الاعتبارات الاستراتيجية اياها. في بعض هذه الاماكن امَّنت حضوراً عسكرياً ثابتاً، وفي البعض الآخر — ونتيجة تقييدات في الموازنة العامة أو خلافات في وجهات النظر مع قيادة الاركان — اكتفيت بمخيمات موقتة. غير أني احتللتها كلها.

حاولت كذلك ان اقنع موشيه دايان بأن يبني مساكن لعائلات الضباط المفصولين الى هذه القواعد. اعجبته الفكرة، لكنه رفض ان يكافح من اجل ان تتبناها الحكومة، مثلما يفعل دائماً عندما يتعين عليه أن يأخذ موقفاً علنياً. كان دايان مستعداً للموافقة على نقل المعاهد الحربية لأن الأمر يتعلق بالجيش؛ وكانت موافقته تكفي في هذا المجال. لكنَّ تنشيط حياة مدنية يهودية في اليهودية والسامرة كان يُعتبر تجديداً ينبغي للحكومة ان توافق عليه. وهكذا لم يفعل دايان شيئاً لتحقيق هذا المشروع مع أنه وافق على المبدأ.

كنت اعرف بالخبرة ان السبيل الوحيد لتأمين الدفاع على نحو دائم عن المناطق ذات الاهمية الاستراتيجية الكبيرة والواقعة تحت سيطرتنا هو الاستيطان فيها. فحدود البلاد رسمت دائماً وفق الوضع الجغرافي للقرى والمدن التي بنيت فيها؛ لذا كنت ادافع عن وجوب بقائنا اوفياء لهذا المبدأ.

عندما كنت أُبرز محاسن وجهات النظر هذه كان الاطراف المتحاورون معي يجيبونني غالباً بأن اقامة مستوطنات من شأنها ان تعقّد الحلول. فكنت اجيب بأن الوضع معقد في كل حال، وما دام الأمر كذلك فاننا نرتكب خطأ باقتراحنا حلولاً سهلة. إن الاساسات والظروف لحياة اسرائيل كدولة ليست سهلة ابداً : فشريطنا الساحلي الضيق جداً (كما ذكرت)، ووضعنا السكاني، وعدوانية جيراننا، ومشاكلنا مع الارهاب، كل اولئك وغيرها من الوقائع ايضاً تجعل حياة اسرائيل معقدة الى اقصى حد. ونتيجة لذلك، كنت مقتنعاً — وما زلت الى اليوم — بضرورة ايجاد ظروف لا تتيح لنا الا البحث عن حلول في العمق عندما قد يتعين علينا أن نقاوم ضغطاً ما. بكلام آخر، نحن لا نستطيع ان نقبل في لحظة ضعف بالوقوع في تجربة الاستسلام والقول : « انظروا، ليس لنا في هذا المكان ما يدفعنا الى البقاء، واسهل الامور هو في الواقع الابتعاد عنه». كنت أقول بوجوب خلق وضع يمنعنا من قبول حل سريع وسهل بُت في أمره، لأن أي حل من هذا القبيل لن يتوافق مع الحقيقة الاسرائيلية.

الحل الأول المقترح رسمياً لحل قضية اليهودية والسامرة ليس بالبسيط وُلد في دماغ ايغال آلون الخصب، الذي كاد ان يعين قبل الحرب وزيراً للدفاع ويمارس الآن وظيفة مساعد رئيس الوزراء. كان آلون رجلاً موهوباً جداً، وما إن وضعت الحرب اوزارها حتى تصوّر حلا خيل اليه انه يصلح اساساً لاتفاق مع الاردن. ولانه يسعى الى من يتبنى معه مشروعه المعروف بـ « مشروع آلون » دعاني الى بيته.

يستند مشروع آلون الى المبدأ الآتي : تضم اسرائيل قطاعاً من الأرض على

امتداد نهر الاردن، من وادي بيت شيان شمالاً حتى حبرون (الخليل) جنوباً، مع ترك ممر بين المملكة الأردنية ورام الله. بهذه الطريقة تستطيع اسرائيل مراقبة غور الاردن ومنع دخول القوات الاردنية والعراقية والسورية الى اليهودية والسامرة. وفي الوقت ذاته تصبح الأراضي منزوعة السلاح وموضوعة تحت الادارة المدنية الاردنية.

المشروع مهم في حد ذاته؛ إنه على الأقل اول مشروع جامع — بل المشروع الوحيد. كنت اقدر آلون كثيراً لجرأته على صياغة مشروع مماثل واستعداده لفرضه. لكن الواقع ان هذا المخطط يشكو نقاط ضعف خطرة. فاسرائيل لم تنجح قط في اغلاق حدودها السابقة في وجه الارهابيين. وكانت الحدود بين اسرائيل واليهودية — السامرة (الضفة الغربية) تمتد قبل الحرب على طول اكثر من ثلاثمائة كيلومتر، وكانت طوبوغرافيتها الشديدة التضاريس مكسوة بنبات كثيف.

في رأيي ان جيشنا النظامي الصغير لم يكن قادراً على ضمان الأمن، حتى عندما امتنع الاردنيون في وقت ما عن مساعدة الارهابيين، بل حتى عندما حاولوا منعهم بعد ان تعرضوا لسلسلة من الأعمال الانتقامية الاسرائيلية. وعلى الرغم من ان الجيش الأردني كان ينشر في تلك المناطق ستة الوية فإنه فشل في هذه العملية. وهذا ما شددت عليه أمام آلون : « حتى عندما كانت القوات الاردنية تحتل هذه المناطق الحدودية لم تنجح في القضاء على الارهابيين ». وتأتي خطته لتطيل حدودنا حتى اربعمائة كيلومتر، زائدة على الحدود القديمة تلك الجديدة الناجمة عن ضمنا شريط غور الاردن ومضيفة جبهة جديدة الى الجبهتين القديمتين. فضلاً عن ذلك، يتعين علينا السهر على سلامة ممر حبرون. فاذا كنا لم ننجح قط في منع اجتياز حدودنا القديمة كيف سنتمكن من حماية الحدود الجديدة ؟

اكرر انني قد قدرت دائماً ايغال آلون حق قدره. كنت احترم ذكاءه وابداعيته. ولكن عندما كنت انظر الى الخرائط التي ستوضح افكاره وارى

خطوطنا الحدودية تطول كنت عاجزاً عن دعم مشروعه الذي يولّد لدي انطباعاً بأنه من شأنه أن يوجد عداوة بين بلدين متجاورين يعيشان بتفاهم منذ اجيال ــ فبالأولى بين اسرائيل والمملكة الاردنية. الى ذلك، كان يبدو لي ان الون، من خلال مشروعه، وكثيرين غيره يقللون من أهمية الطاقة الكامنة للارهاب الفلسطيني وقدرته على إلحاق الاذى بنا. كان يظن البعض ان الارهاب الاردني سيخف تدريجاً كما حصل في قطاع غزة بعد معركة سيناء في ١٩٥٦. لكنّ الذين يفكرون هكذا كانوا في رأيي يخدعون أنفسهم بقوة، حتى ولو لم يكن يستطيع أحد، بمن فيهم أنا، أن يتكهن آنذاك بالنمو المتصاعد للشبكات الارهابية وانشطتها بدعم نشيط من الدول العربية والاتحاد السوفياتي.

اعتقد ان رد فعلي على مشروع آلون اصاب صاحبه بالخيبة لكنه لم يثنه عن عزمه وسعيه لتمريره. ولقد نجح في ذلك مع حزب العمل الذي تبنى المشروع. فاقيمت مستوطنات وعُرض على الملك حسين حل سياسي، بلا طائل. فالعاهل الاردني كان آنذاك حليفاً للرئيس عبد الناصر، وبهذه الصفة بادرنا بالعداء على الجبهة الوسطى. وهذه الغلطة كلفت مملكته اقتطاع اليهودية ــ السامرة. ومع ذلك لم يتردد في رفض مشروع آلون الذي يعيد اليه الادارة المدنية في هذه الأراضي. وكان رد الملك حسين ان هذا الحل المعروض « غير مقبول على الاطلاق ».

بيد ان الشك في مستقبل اليهودية او أي مشكلة سياسة اخرى لم تستطع اخفاء الفرحة في تلك الايام. فالبلاد برمتها بدت كأنها تعيش وتعيِّد العهد الاكثر سعادة في تاريخها. وكنت انا اول المهللين. كان احساسنا جميعاً أننا تحررنا من الحبل المعقود حول عنقنا قبل ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧. قبلا كان الشعور السائد هو هشاشة هذا الشريط من الأرض الضيقة التي تعيش فوقها، وعدم ديمومة وجودنا ما دامت اعصابنا مشدودة من جراء الخطر المستمر للهجومات الارهابية فضلاً عن شبح حرب حتمية. وما زلت اذكر جيداً ما احسسته في

اليوم الاول او الثاني من الحرب، عندما اعلنت الاذاعة أن الأردنيين يقصفون تل أبيب، وان كريات شاوول ــ القريبة جداً من تساهالا، قد أصيبت أيضاً. ولما عدت بعد الحرب الى المنزل شاهدت الملجأ ضد الغارات الجوية واكياس الرمل التي ملأها ونضدها ليلي وغور ووالدتي (التي جاءت من الموشاف لتستقر عندي). ولقد شاهدت في تل ابيب المكان الذي اصابته القذائف الاردنية. لم يكن مصدرها المدفعية الثقيلة لأن الوقت لم يُتَحْ امام الاردنيين لاستخدامها. ولكن عندما تعلم ان القصف يطال هيكل المكان الذي يقيم فيه اولادك ــ لا قرب الحدود بل في قلب البلاد ــ تدرك ماذا يعني أن تعيش في جزيرة صغيرة معزولة في وسط محيط من الأعداء.

الآن زالت كل هذه الهواجس دفعة واحدة وبما يشبه المعجزة، لتترك مكانها عاطفة لا تُقاوَم من الارتياح والنشوة. لم يكن ذلك كل شيء، بل كان هناك ذلك الاحساس بالعودة، الذي يخامرني بقوة : صار في وسع المرء أن يزور كل هذه الأماكن والمواقع الضاربة جذورها في التاريخ والمحمَّلة بوشائج تعلقنا بهويتنا الوطنية. كان ظاهراً ان الجميع يعيشون حالة إثارة مستمرة وشكر لا حدّ له. كنا جميعاً كأننا مُلهَمون.

هذه الأحاسيس كانت اكثر شدة عندي من تلك التي عرفتها إثر حرب الاستقلال. آنذاك خالجني شعور ان نصرنا لم يكن كاملاً. لقد نجونا بجلدنا وانشأنا دولتنا. لكننا دفعنا غالياً ثمن ذلك ولم يكن المستقبل مشرقاً أمامنا. ثم ان هذا الاستقلال المكلِّف جداً كان شديد الهشاشة، والإبقاء عليه يكلفنا صعوبات ضخمة. والآن، بعد تسع عشرة سنة، بدا كأن العالم برمته ينفتح امامنا.

ومع أن عملي في الأركان كان يأخذ معظم وقتي الا انه لم يكن عملاً محموماً كما في الشهور السابقة، فكان يتاح لي ترف البقاء في البيت. صار عمري الان ابن ثلاث سنوات وكاد الصغير جيلاد ينهي سنته الأولى. وغدا الآن في وسعي ان اكرس لليلي ولأولادنا الثلاثة كل الوقت الذي حرمتهم منه

سابقاً. وقد صرت الآن اكثر هدوءاً. كانت ذكرى اصدقائي الذين قضوا في المعركة لا تزال حية. وعلى رغم هذه الفواجع، عندما يعرف المرء ان تضحيتهم بحياتهم لم تكن بلا طائل بل في سبيل قضية شريفة وامر اساسي، تخف المصيبة ويبدو طعمها اقل مرارة.

قضيت اذاً اياماً هادئة بل هنيئة. وكنت اصرف مع ليلي ساعات طويلة نركب الخيل مع غور الذي غدا فارساً مكتملاً. وفي المساء كنت اشاركه وحدي الركوب وادعه يجري امامي حتى يظل تحت مراقبتي. وكنت اظنني الانسان الاكثر سعادة في العالم مع عائلة كهذه. وابن كهذا. احب أن أشاهده وسط رفاقه، واراقب بفخر وفرح تفتُّح صفاته التي تنم بلا شك، في براعمها الأولى، عن قماشة قائد. والى ذلك، كان صبياً شديد الحسن ! باختصار، ولد رائع من كل الوجوه، كأنه هدية اسرتها الي السماء على نحو عجائبي.

في العام ١٩٦٧ وقع عيد رأس السنة العبرية في ٤ تشرين الأول (اكتوبر). ومثل كل الأعياد الرسمية اليهودية يبدأ رأس السنة عشية يوم العيد، وفي صبيحة ذلك اليوم ذهبت ليلي بالسيارة الى تل ابيب لتبتاع بعض الهدايا. كانت الساعة قرابة التاسعة وكنت جالساً على سريري ارد على اصدقائي الذين اتصلوا بي لمعايدتي. ولم ينقطع رنين الهاتف في تلك الساعات الصباحية. وكنت لا ازال ممسكاً بالهاتف عندما دخل غور الغرفة. وسمعته وانا شارد الذهن يعلن لي انه سيخرج ليلعب. وقال لي قبل أن يترك الغرفة وبعد ان قام بحركة ممتعة ــ حركة ولد كبر في محيط عسكري ويحب الجيش ــ « انه في الفناء أمام البيت ».

بعد دقيقة او اثنتين، وكنت لا ازال ممسكاً بالهاتف، سمعت طلقاً نارياً في الخارج. رميت السماعة على السرير وخرجت راكضاً. شاهدت اولاً في الفناء جيلاد ضمن حاجزه، وبجانبه عمري. ثم شاهدت غور. كان ممدداً على العشب، وفي عينه جرح بليغ، وكل وجهه غارق في الدم. والى جانبه بارودة صيد قديمة رديئة اهداها اليّ صديق. والتفت الي عمري الواقف قرب حاجز

اخيه الطفل ليقول لي : « لقد قال للصبي الا يصوِّب ... غور قال للصبي الا يصوب هذه ابداً ».

حملت غور وتوجهت الى السيارة؛ حينئذ تذكرت ان ليلي اخذتها. بقيت في مكاني كأني سُمِّرت اليه. ثم سمعتني اطرق باب جارتنا ببنينا، زوجة قائد سلاح الطيران موردخاي هود، طالباً العون : سيارة تنقلني الى العيادة، وانا اشد غور الى صدري.

توقف أحدهم وبعد دقيقة عُقد لساني أمام الطبيب الذي كان يفحص غور. وكنت قد شاهدت العديد من الجروح في حياتي بحيث لم يعد من داعٍ ليقال لي إن الأمل مفقود. فلقد عرفت ذلك منذ شاهدت غور على العشب. لكن الانسان مطبوع على التعلق بحبل الامل كما يتعلق الغريق بقشة عائمة. وعندما قال لنا الطبيب ان ننقله فوراً الى المستشفى قفزنا الى السيارة وجلست في المقعد الخلفي وانا اشد غور الى قميصي القانية. وبدت لي المسيرة كأنها دهر. توفي بين ذراعي قبل ان نصل الى مستشفى تل هاشومير.

لما عدت الى المنزل كانت ليلي هناك. حاولت ان تتصل بي في البيت، ولكن بما ان السماعة ظلت على السرير منفصلة عن الآلة لم تستطع مكالمتي. اخيراً اتصلت بمكتبي فأخبروها بالحادث. ولقد كان علينا ان تقرر مراسم الدفن السريع عشية عيد رأس السنة، قبل مغيب الشمس بحسب الشريعة اليهودية.

اردنا نحن الاثنين ان يرقد بجوار امه. لكن هذا الأمر كان يطرح مشكلة. فعند وفاة غالي طلبت ان تدفن قرب المقبرة العسكرية، وكان قبرها موجوداً في واحدة من حكرات الأرض النادرة التي لا تزال خالية في ذلك المكان. فلكي أتأكد من إمكانية دفنه هناك توجهت الى المقبرة في رفقة شلومو غورين، كبير حاخاميي الجيش. القينا نظرة على الازهار الرائعة النامية أمام قبر غالي الرخامي والتي اتيت بها من الشمال. وقلت لغورين : « هنا، اريد ان يرقد بسلام هنا ».

بدا الحاخام غورين مثقلاً بالألم. كان واحدنا يعرف الآخر منذ سنوات. ومن جهتي، كنت في حالة من البلادة الكاملة، عاجزاً عن التفكير في اي شيء او الاحساس به. وعندما نظر غورين الى القبر همس بصوت حزين: « لقد اخذته معها ».

بدأ الطقس الجنائزي في مستشفى تل هاشومير. وُضع غور في تابوت من التنّوب. طلبت ان يزاح الغطاء لاشاهده مرة اخيرة. ثم وضع التابوت فوق سيارة قيادة للجيش تقدمت الموكب الحزين، بصفة الفقيد ابن جندي. فالجيش كان كل حياتي، ولذلك كان ايضاً كل حياته. كان يحب ركوب سيارات القيادة والجيب، وتذكرت فجأة ان آخر مرة شاهدته فيها وهو على قيد الحياة، عندما خرج ليلعب، كان يؤدي لي التحية العسكرية. وتبع سيارة القيادة موكب طويل، ربما الف شخص — كما بدا لي — على رغم فجاءة المأساة. وقال لي احدهم ان النبأ اذيع في الراديو.

امام القبر تذكرت دفن غالي قبل خمس سنوات. كنت قد القيت آنذاك كلمة قصيرة للمناسبة، قلت فيها بنوع خاص: « الشيء الوحيد الذي استطيع ان اعدك به هو أنني سأعتني بغور افضل عناية ». وها أنا عاجز عن إسكات هذا الصوت في رأسي، القائل لي إني لم افِ بوعدي. ففي ظروف كهذه عصاني التفكير لكن هذا التأنيب كان يثقب دماغي: لم أُولِهِ العناية الكافية، لم اكرس له انتباهي الكافي.

بعد الدفن عدنا، ليلي وانا، الى البيت. وللمرة الأولى في حياتي كان عليّ أن اجابه شيئاً كنت عاجزاً عن التغلب عليه. كيف استمر في الحياة بعد الآن؟ كنت موسوساً بكل الاشياء التي كان في وسعي فعلها: لو لم اتكلم كثيراً على الهاتف في ذلك اليوم، لو اوليته المزيد من انتباهي، لو شددت اكثر على خطر البواريد. الف « لو » و « لو » تدور في رأسي في ما يشبه رقصة السربندة. وكانت ساعات الليل هي الأكثر مشقة إذ كنت عاجزاً عن الرقاد، معذباً بصورة غور على العشب. وكنت امضي مع ليلي ليالي كاملة في البكاء.

في اثناء النهار كان عملي يفرض علي متابعته والاستغراق فيه، ما يؤمّن نوعاً من الراحة. وفي البيت كنا لا نزال قادرَين على إسكات المنا عندما لا نتحدث عن غور. لكن اقل كلمة تذكّرنا به كانت تسكب دموعنا. فلم يكن العزاء يعرف الى قلبينا سبيلاً بدلاً من الألم والحداد اللذين لا يتركان لنا وقتا للراحة.

وفكرت ان الامور تسير هكذا في اعنتها. فهذه المآسي تعقب ساعات الفرح والسعادة. ابي توفي بعد معركة سيناء، مع ان التشبيه هنا ليس في محله. وهذه المرة كنت فعلاً عائداً منتصراً. لقد اتممنا كل ما كنا نتمناه بل اكثر، وحللنا كل المشاكل التي كانت تبدو غير قابلة للحل والتي هددت حياة الأمة. فتلال السامرة وجبالها التي أشرفت على بساتين طفولتي وعلى الخنادق التي حفرها مزارعو كفرملال خلال سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٨، كل تلك المرتفعات التي اعرفها جيداً غدت الآن بين ايدينا. فبأي صدفة مشؤومة جاءني صديق من قرية ضائعة بين تلال السامرة مهدياً الي تلك البارودة التي تدك من فوهتها بالبارود والخردق والكبسون — بارودة لم تعمل منذ قرابة دهر؟ وهو هذا السلاح ما قتل الكائن الأحب الى قلبي في العالم!

تذكرت قصة التوراة المعروفة في سفر القضاة عن يفتاح الجلعادي هذا القاضي المحارب الذي سار على رأس اليهود عندما تهددهم العمونيون في القرن الثاني عشر قبل المسيح. فعندما وصل اعداؤه الى ميدان المعركة جمع رجاله ونظمهم في تشكيل قتالي. ثم قبل ان يعطي الأمر بالهجوم اقسم قائلاً: مخاطباً يهوه: « إن دفعتَ بني عمون الى يدي فكل خارج يخرج من بيتي (...) يكون للرب أصعِده محرَقة ». وعندما آب يفتاح الى بيته « فاذا ابنته خارجة للقائه بالدفوف والرقص ولم يكن له ابن او ابنة سواها » وهكذا انقضت عليه هذه المصيبة الرهيبة في نشوة انتصاره. والأسوأ من ذلك هو ان هذه المأساة كانت النتيجة المباشرة لهذا الانتصار.

ينتهي الأمر بالناس الى ان يجدوا في مكان ما قوة احتمال المصيبة ثم التغلب عليها. هذا ما يفعله الآخرون، وهذا ما فعلناه اخيراً ليلي وانا. نفكر في

الاشياء الحسنة، في ساعات السعادة، في كل ما اتاح إغناء حياتنا، اكثر مما نفكر في ما من شأنه تدميرها. بعد مرور سنة على المأساة، أوجد العديد من رفاقي في السلاح، ممن عرفوا غور، كأساً للبطولة مخصصاً للفرسان الصغار، « تذكاراً لغور، بن اريك، الفارس المنقطع النظير الذي كان يحب الجياد ». تعطى هذه الكأس كل سنة للرابح في سباق للخيل يجري بين صبيان اليهود والعرب على السواء. وفي الذكرى الأولى لوفاة غور جاء عديدون من اصدقاء ليلي واصدقائي — واكثر منهم من اصدقائه هو — يختلون على ضريحه. ولا يزال البعض يتابعون هذا التقليد عشية رأس السنة بعد مرور عشرين سنة على وفاته.

ولأن الذكريات لا تنحصر فينا فحسب اقول دائماً في نفسي ان هذه الخسارة لم تكن خسارتنا فقط. فغور كان ولداً موهوباً جداً. اتيح له الحظ ان يترعرع تحت جناحَي التاريخ وان يعيش الاحداث الكبيرة والعديدة لحياة بلادنا. وكان قد التقى معظم قادتها وتعرف شخصياً الى معظمهم. وان من يخسر ولداً لا يستطيع ان يمنع نفسه من التساؤل من وقت الى آخر عما كان سيصبح هذا الولد لو ظل على قيد الحياة. وكيف سيغدو وقد بلغ مبلغ الرجال. صحيح أن حزننا كان قبل كل شيء شأناً خاصاً، لكنه كان يتخطى البعد الشخصي. لأننا بموت غور بكينا كل ما كان ممكناً ان يصير.

خط بارليف

على رغم العلاقات غير الودية التي كانت تربطني بحاييم بارليف منذ البداية دعمته ليخلف اسحق رابين على رأس هيئة الأركان في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨. كان الخيار بينه وبين عازر وايزمان، وبلا تردد لم أكن أريد وايزمن رئيساً للأركان. لقد ظل سنوات طويلة قائداً اعلى لسلاح الجو ورئيس مصلحة العمليات منذ ١٩٦٦. وكنا اصدقاء منذ وقت طويل. كنت اقدر كثيراً ذكاءه، وخصوصاً الفاعلية التي ابداها ببنائه قوة جوية عصرية. لكنني كنت اعرف ايضاً انه يفتقر الى الحزم والصلابة، وهما صفتان اساسيتنا لقائد الأركان العامة في جيش الدفاع الاسرائيلي. ولم انس مشهداً شهدته في مقر القيادة العامة لسلاح الطيران تحت الأرض، في أثناء مبارزة جوية بين مطاردات مصرية واسرائيلية. فعندما كانت طائراتنا تسيطر عن قرب على المطاردات المصرية امر وايزمان الطيارين بالراديو : « اتلفوها، انزلوها ». ولكن ما إن دارت المطاردات المصرية فجأة رأساً على عقب حتى هتف وايزمان في الجهاز من دون ان يسترد حتى أنفاسه: « قوموا بنصف دورة، بنصف دورة ! » وهكذا، على رغم علاقاتنا الحسنة، مارست كل او اوتيت من نفوذ لصالح تعيين بارليف.

وسرعان ما وجدنا انفسنا، بارليف وانا، يتربَّص واحدنا بالآخر كما الكلب والهر. ووقع الخلاف هذه المرة حول قضية استراتيجية : كيف ننظم دفاعنا اذا

ما حاول المصريون اجتياز قناة السويس ؟ بدأ الجدال بعد نهاية العمليات العسكرية بقليل عندما بدأ المصريون سلسلة من الرشق المدفعي المكثف، مقرونة بكمائن ضد قواتنا المعسكرة على الضفة الشرقية للقناة. في ما بعد، في بداية ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧، كان الملوك والرؤساء العرب المجتمعون في الخرطوم قد اتفقوا على ما دعي « سياسة اللاءات الثلاثة » : لا للمفاوضات مع اسرائيل، لا للاعتراف باسرائيل، لا للصلح مع اسرائيل.

كانت النتيجة العملية والمباشرة لمؤتمر الخرطوم تصعيد جهود الحرب المصرية التي كانت حتى ذلك الوقت متقطعة وتجريبية. وفي منتصف ايلول (سبتمبر) وزّع المصريون مدفعيتهم الثقيلة، مستهلين بذلك تراشقاً مدفعياً عبر القناة؛ وفي ٢١ تشرين الأول (اكتوبر) اغرقت صواريخ مصرية الغواصة الاسرائيلية ايلات، التي كانت تقوم بأعمال الدورية في المياه الدولية، مع طاقمها المؤلف من سبعة واربعين رجلاً. وعلى سبيل الانتقام دمرت مدفعيتنا، بعد اربعة ايام، المجمع البترولي والبتروكيمي الواقع في ضاحية مدينة السويس.

ثم عادت الأعمال العدائية الى وتيرتها السابقة، الممكن احتمالها نوعاً ما، ولكن خلف هذا الهدوء النسبي كانت مصر تعمل بسرعة شديدة على اعادة بناء جيشها وطيرانها، مع مساعدة كثيفة من الروس. بتجهيزات شديدة التعقيد. وكان كل هذا العتاد الحربي يُرسَل مرفقاً بمستشارين عسكريين سوفيات، بالمئات اولا ثم بالالوف، حتى غدا الروس، الذين ادخلهم الرئيس عبد الناصر الى الشرق الأوسط للمرأة الأولى في ١٩٥٥، متورطين الآن حتى آذانهم في المجهود الحربي المصري. وفي تلك الأثناء كانت الفرحة العارمة في اسرائيل آخذة في الهبوط، وبدا واضحاً للجميع ان قناة السويس ستصبح الآن حدوداً متفجرة.

في العام ١٩٦٨ تسلم بارليف تقريراً من الفريق الذي كلفه دراسة المشكلة، بادارة الجنرال ابراهام ادان. وخلاصة التقرير ان على تساهال ان تبني خطاً حصيناً على طول القناة كرد على قصف المصريين المدفعي المتواصل

وعلى مشاريعهم الهجومية. ويقول المشروع ان على هذه التحصينات ان تحمي قواتنا من المدفعية المصرية وتؤمِّن لنا في الوقت نفسه مراكز مراقبة متقدمة. وفي حال الهجوم تكون هذه التحصينات فاعلة لوقف زخم القوات المصرية على خط الماء ولمنعهم من إقامة رأس جسر في شبه جزيرة سيناء. وهي مدعوة ايضاً للعب دور سياسي : ابراز السيطرة الاسرائيلية من الواقع على كل سيناء.

هذا كان، في اختصار، المفهوم الاساسي للتقرير المذكور. من جهتي فهمت فوراً ان خط التحصينات هذا كان خطأً مريعاً. فعلى الصعيد السياسي، لم يكن الوجود الاسرائيلي في اقصى حدود سيناء يضطرنا الى العسكرة على امتداد القناة. كان في وسعنا أن نختار، بعد تفحص عميق لكل معطيات المشكلة، مكاناً او اثنين — على ضفة البحيرة المرة الكبرى مثلاً — لا نتعرض فيهما مباشرة الى القذائف المصرية. وما كان اهم من ذلك ايضاً أننا ببنائنا هذه التحصينات نحصر انفسنا بدفاع سكوني (ستاتيكي). وهكذا تشكل قواتنا اهدافاً مثالية ثابتة لا تبعد اكثر من مائتي متر عن الخطوط المصرية، وتُراقب في استمرار مواقعنا وكل من تحركاتنا، كما تتعرض دورياتنا الاستكشافية وقوافلنا المحملة مؤونة وذخيرة للكمائن والالغام وقذائف المدفعية. وفي حال هجوم مصري تشترك فيه مختلف القوات يجري إسكات مصادر نيراننا على طول الضفة أو تدميرها بالدخان والنار. وستكون هذه المواقع معزولة حتماً، ما يقتضينا مجهوداً ضخماً لإخلاء رجالنا بدلاً من ان نستثمر قوانا في الهجومات المضادة.

بالاضافة الى ذلك، بيَّنتُ ان معركة دفاعية لا يمكن ربحها على خط خارجي. انها حتمية عندما تكون للدفاع عن كيبوتزات وادي بيت شان او عن الحائط الغربي للهيكل (حائط المبكى) او عن ضواحي تل ابيب. ولكن في الحالة الحاضرة تتحصن قواتنا بقوة على بعد نحو ثلاثمائة كيلومتر من حدودنا، وهذه المواقع لا تسمح لنا بخوض معركة دفاعية حسب الاصول :

ليس على خط متقدم بل في العمق. ومن أجل معركة كهذه ليست القناة سوى وسيلة؛ صحيح أنها تشكّل سدّاً مهماً، بل هي عنصر اساسي في استراتيجيتنا الدفاعية الشاملة، لكنها يجب الا تضطرنا ابداً الى التشبث بصفتها.

لذا اقترحت تنظيم دفاعنا على الخط الطبيعي للتلال والكثبان الموازية لخط الماء ,والواقعة على قرابة عشرة كيلومترات الى الشرق، مشرفة بذلك على الشريط السهلي المحاذي للقناة. وقد يمكن تشكيل خط دفاع ثان، من قواتنا المتحركة من الاحتياطيين، على بعد خمسة وعشرين او ثلاثين كيلومتراً من القناة، على سفوح الجبال التي يقود ممراها — متلا والجدي — الى داخل سيناء. وبين القناة وخط الدفاع الأول تتجول دوريات متحركة في استمرار، متجنبة المواقيت المنتظمة تداركاً للكمائن وتجنباً لوقوعها اهدافاً للرماة المهرة وللمدفعية المصرية.

اذا حاول المصريون عبور القناة قد نسمح لهم بتقدم يترجح بين كيلومتر واحد وكيلومترين اثنين في داخل سيناء. وهذا ما يسمح لنا بعد ذلك بمناوشتهم وتحديد نقاط ضعفهم، فنكون حينئذ قادرين على اطلاق هجوم بموجات متتابعة، وهو تكتيك نبرع فيه.

غير ان اختلاف الرأي بين بارليف وبيني راح يتفاقم، خصوصاً بعد هجوم كبير مباغت للمدفعية المصرية في ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٨، كلفنا خسائر. فبلغت علاقاتنا، التي لم تكن حسنة ابداً، عتبة الانفصال. وفي احد اجتماعات الأركان الدورية يوم الاثنين تبادلنا كلمات قاسية بشكل حاد. ولم يكن ذلك بالنسبة اليّ سوى مجابهة مزعجة اخرى من المجابهات التي كنت فيها مع الأقلية ان لم أكن وحيداً. لكن هذه المصادمة كانت في نظر بارليف القشة التي قصمت ظهر البعير. وفي مساء اليوم نفسه طلب عقد اجتماع جديد ليحشد مؤيديه في جبهة متحدة ضدي ويحطم نهائياً المعارضة التي أحمل لواءها.

عند دخولي قاعة الأركان لاحظت فوراً موشيه دايان محاطاً بمساعديه، والى جانبهم جلس بارليف وكل منتقديّ الأكثر قساوة. كان الإخراج يُفصح عن النوايا فقلت في نفسي ان لا سبب ان انتظر خاضعاً كخروف يساق للذبح. فاذا كانت هذه نواياهم فان من مصلحتهم ان يعدّلوا السيناريو. والا فاني ارسلهم الى الجحيم واغادر القاعة. وعندما جلست كان التوتر كحد السكين.

نهض أولاً الجنرال يباشاهو غافيش، والقائد الأعلى لمنطقة الجنوب العسكرية وأحد أهمّ القائلين بـ« خط بارليف »، ليهاجمني بعنف ليس فقط على الصعيد المهني بل ايضاً على الصعيد الشخصي. وكان لا يزال يؤنبني عندما انتصبت لاقاطعه واقول له : « كنت اظن أننا اجتمعنا لنناقش منافع خط بارليف ونقاط ضعفه. هذا هو سبب هذا الاجتماع، كما أعتقد، ولن اتباحث الا في هذا الموضوع لاشرح لكم مرة جديدة كم هو خطِر وغبيّ هذا المشروع. ولكن اذا بلغت بكم السذاجة حد الاعتقاد اني سأظل مكتف اليدين لأُرهَق بالاسئلة في « محكمة الاصدقاء »[1] فانكم مخطئون كثيراً.

قاطعني دايان قائلاً : « اريك، لقد استدعيتَ الى اجتماع اركان، وليس لك ان تقرر ما يُناقش فيه.

— ربما، لكنك إن ثابرت على هذه اللهجة فستحضر الاجتماع من دوني ».

ساد الصمت بعد ان جلست. استعاد غافيش كلامه باللهجة السابقة نفسها. فنهضت من جديد لأقول اني لست مستعداً للمشاركة في هذا الاجتماع على الشكل الذي يجري فيه، وتوجهت الى الباب. وسمعت خلفي صوت دايان ينبر بقسوة : « اريك، هذه ليست طريقة تصرف ... عد فوراً. عد. » خرجت صافقاً الباب من دون ان اسمع بقية كلامه.

(١) نوع من المحاكمة يخضع له احد اعضاء الجماعة في كيبوتز أو موشاف على طريقة «النقد الذاتي» الشائع في البلدان الشيوعية.

مشيت في الرواق بخطى واسعة عصبية، وانا اكثر اقتناعاً من قبل اني على صواب وانهم على خطأ. لم يكن يساورني اي شك في ان خط بارليف سيقودنا الى كارثة. ولكن عندما حلت هذه الكارثة بعد اربع سنوات لم تساورني اي رغبة في التباهي.

في كل هذه المناقشات كان يقف الى جانبي ويعبر عن موقفه بصراحة الجنرال اسرائيل تال، رفيقي في السلاح في حرب الأيام الستة، وخبيرنا الكبير في الدبابات. اما سائر الضباط الكبار في الأركان فكانوا يدعمون بارليف. لذا كان من مصلحة هذا الأخير أن يقفل النقاش ويتخلص مني في نهاية الأمر.

ثم جاءتني تلك المخابرة الهاتفية من أحد ضباط الإدارة يستعلم مني عما اذا كنت ارغب في اخذ اجازاتي المتراكمة « قبل ان اترك الجيش ام افضل قبض قيمتها مع المعاش ».

ذهلت لهذا السؤال، فأجبت : « لكنني لست في وارد ترك الجيش !

ــ حقاً ؟ لكنَّ عقدك تنتهي مدته بعد شهر ...

ــ اسمع، لا رغبة عندي اطلاقاً في مغادرة الجيش. ارسل لي فقط الاستمارات فأملأها للسنوات العشر المقبلة ».

لم يطل الوقت حتى استلمت الاستمارات ووقعتها. كنت قد اهملت تماماً هذه الاجراءات الشكلية، واظن أن هذه هي حال الكثيرين من الضباط الذين امتهنوا حياة الجندية. ولكن بعد هذه الاشارة الأولى لم أُفاجأ كثيراً عندما رفض رئيس الأركان حاييم بارليف ان يجدد عقدي.

لم افاجأ، ومع ذلك لم تصدق اذناي !

قد نكون على خلاف عميق حول قضايا مهنية. ولكن أن يبلغ الأمر حد إجباري على ترك الجيش لمجرد ان ادلي بنصيحة لا يريدون سماعها ــ مع

أنها ليست فقط مبررة بل ايضاً نافعة وفي محلها ــ فذلك يتخطى الخلاف الشخصي الى ما يشبه غريزة تدمير ذاتي.

بادرت فوراً الى مراجعة دايان. لكن دايان لا يتغير: اشجع الجنود في ارض المعركة، وجبان رعديد عند اخذ قرار علني. قال لي : « بارليف لا يريدك، ولست ارى كيف يمكنني أن أتدخل ».

بعد دايان طلبت مقابلة غولدا مائير التي خلفت في تلك الأثناء اشكول على رأس مجلس الوزراء. ومع أنها لم تتراجع قط امام اي مجابهة علنية فقد اجابتني مثلما فعل دايان : « انا اتجنب التدخل في هذا النوع من المشاكل ».

امامي اذاً طريق مسدود. فبعد اجابتي دايان ومائير المخيبتين للآمال لم اعد اعرف الى من أتوجه. ومع شعوري بأن كرامتي مُسَّت لم يكن امامي غير الاذعان للحقيقة : هيئة الأركان لا تريدني وستبلغ اليّ ذلك قريباً. وعندما فهمت أن الأمر لا مفرّ منه بدأت اتساءل عما استطيع عمله في الحياة المدنية. لم أكن رجلاً يستسلم بسهولة، ولكن إن اجبرت على ترك الجيش يتعين علي ان اواجه المستقبل. كنت في الحادية والأربعين من عمري وما زال امامي وقت طويل قبل ان اتقاعد على كرسي مريح.

كلما فكرت في امر مستقبلي كانت السياسة تراودني. فلدي، مثل الجميع، طروحاتي؛ وعام ١٩٦٩ كان عام انتخابات. وكان عند آنذاك صديقان مخلصان في عالم السياسة، اتناقش معهما من حين الى آخر. الأول هو بنحاس سابير، وزير المال واحد الزعماء الأكثر نفوذاً في حزب العمل. وكان هو الذي ارسلني؛ بعد حرب الأيام الستة مباشرة، ادور على الجاليات اليهودية في استراليا وهونغ كونغ. وكان يسكن كفرسافا، على مقربة من مزرعة اهلي، وكنت اعرفه منذ طفولتي.

الثاني كان جوزف سابير (على رغم اسمه لم يكن يمتّ بصلة نسب الى فنحاس)، رئيس الحزب الليبرالي. وهو ايضاً صديق قديم يتحدر من عائلة

مزارعي حمضيات في بتاح ـــ تيكفا، المدينة القريبة ايضاً من كفرملال. كانت عائلته تمتلك بساتين برتقال جميلة جداً، وكنت في طفولتي غالباً ما ارافق ابي عندما يزورهم في مزرعتهم لشراء طعوم لمزرعتنا.

كان جوزف قد قال لي منذ سنوات ان افضل ما افعله عند تركي الجيش هو ممارسة السياسة. « انت تريد التأثير في الناس ولك افكارك الخاصة بك في ما يتعلق بحدود الدولة وغير ذلك من المسائل. وعندك كل ما يلزم لخوض غمار السياسة. فَكِّرْ في الأمر».

عندما ادركت انني عاجز عن الخروج من الطريق المسدود طلبت مقابلة مع جوزف سابير. وبعد ان شرحت له وضعي قلت له إنني منفتح على اقتراحاته. فما داموا لا يريدونني في الجيش فسأمارس السياسة. وكنت مصمماً منذ زمن بعيد على الانتماء الى الحزب الليبرالي (الذي انضم قبل بضع سنوات الى حزب حيروت الوطني المعارض بقيادة مناحيم بيغن).

اذا كان جوزف سابير صديقاً صدوقاً منذ وقت طويل الا ان صداقته ليست هي ما دفعني الى صفوف حيروت. شكلياً كنت عضوا في حزب العمل. لقد ترعرت في مزرعة جماعية حيث الجميع ينتمون الى حزب العمل، بمن فيهم والديَّ لكن هذان كانا محازبين هامشيين. وعلى قدر ما تسعفني الذاكرة كانا دائماً يرفضان الخط العام المفروض من الحزب. وكان يحلو لوالدي ان يقول لي : « لا احد في منأى تلقائي عن النقد. اياك أن تسلِّم بأمر لا تتأكد منه ». وغالباً ما كان يشدد على حق الجميع في الحكم على كل شخصية سياسية وكل قضية مرتبطة بالدولة، بمعزل عن الخط الايديولوجي للحزب. وكان يدافع امام الجميع عن مقولة عدم قبول ما لا يبدو مقبولاً.

في مناخ كهذا ترعرت. لكنّ افكاري السياسية، قبل أن ارقى الى رتبة كولونيل (في ١٩٥٨). لم يكن من شأنها أن تهمّ احداً أو تقلقه. وتغيرت الامور بعد ترقيتي. ففي تلك الأيام كان يفترض بكل ضابط يصل الى رتبة

كولونيل ان ينخرط ضمناً في حزب العمل. هكذا بهذه البساطة كانت تجري الأمور. وطوال كل السنوات التي تولى حزب العمل السلطة في اثنائها كان تسييس الجيش امراً سوياً. هكذا كان الأمر دائماً وهكذا سيكون في المستقبل استدلالاً مما يجري في الحاضر. ولم يكن يخطر على بال احد ان يضع هذه « القاعدة » على بساط البحث. ولهذا السبب كان من الطبيعي حالما رقيت الى رتبة كولونيل ان اصبح عضواً في حزب العمل، حاملاً « البطاقة الحمراء » للماباي (الحروف الأولى من «حزب العمل» لأرض اسرائيل)، اقله شكلياً ولم تظهر الى العلن بوادر صراع عميق بين حزب العمل وكتلة حيروت ـــ الأحرار الا في نهاية الستينات. وكان موضوع الصراع الحل السياسي الواجب اعتماده لمشاكل الأراضي المحتلة خلال حرب الأيام الستة: هضبة الجولان، اليهودية والسامرة، وقطاع غزة. ومنذ ذلك الوقت غدت آرائي حول الموضوع اكثر وضوحاً وراحت تقترب اكثر فأكثر من المواقف المعلنة لحيروت ـــ الأحرار.

هذه كانت حالتي النفسية عندما ذهبت اقابل جوزف سابير. استمع الي بكل انتباه ليطرح علي في النهاية بعض الاسئلة : هل انا مزمع فعلاً على ترك الجيش ؟ الا يمكنني ايجاد وسيلة للخروج من هذا المأزق الناجم مباشرة عن علاقاتي مع بارليف ؟ فإذا كان موقفي لا عودة عنه فإنه يقترح عقد اجتماع بينه وبين ميناحيم بيغن وبيني لدرس امكانياتي على الصعيد السياسي.

لم تكن تربطني بمناحيم بيغن علاقات وثيقة، لكنني كنت اعرفه منذ وقت طويل. وفي الوقت كانت عائلتانا على معرفة متبادلة منذ القرن الماضي. فلقد سمعت مراراً عديدة من يخبر ان جدتي « اشرفت » على ولادة مناحيم بيغن في برست ـــ ليتوفسك. وعندما كنت ضابطاً عاملاً عالي الرتبة اتيحت لي مناسبات عديدة للقائه والتحدث معه. وبعد حرب الايام الستة جاء يزورنا في سيناء.

ظل بيغين من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ على رأس حيروت، الحزب المعارض

تقليدياً للماباي العمالي في الكنيست (البرلمان الاسرائيلي). ولكون بيغين وريثاً لحركة زئيف جابوتينسكي التعديلية كان مع حزبه عرضة لسهام النقد الدائم من حزب العمل الحائز على الأكثرية. وبلغت الفظاظة ببن غوريون حد رفض التلفظ باسم بيغين في الكنيست، مكتفياً بأن يشير اليه بالصيغة المكرسة : « النائب الجالس الى جانب الدكتور بادر ». غير ان بيغين ثابر على رأس المعارضة وانتهى به الأمر الى ربح الشرعية التي كان بن غوريون يعمل المستحيل لعدم اخفائها عليه. فعندما ألَّف ليفي اشكول حكومة الاتحاد الوطني عشية حرب الايام الستة عين فيها بيغين وزير دولة (بلا حقيبة). والآن، في ١٩٦٩، لا يزال بيغين عضواً في الحكومة مع حليفه السياسي جوزف سابير.

التقيت بيغين وسابير في اورشليم في فندق الملك داود. كان الجو بليلا في الغرفة المبرَّدة التي تشرف نوافذها على اسوار مدينة اورشليم القديمة. وكان اللقاء ودياً. ولكن كلما استطال كنت أحس عرقاً بارداً يتساقط على عنقي. في السنوات اللاحقة صارت علاقاتي مع بيغين اكثر وثوقاً وحرية. ولكن في ذلك اليوم كنت اشعر بانزعاج في غرفة الفندق تلك في اورشليم. فمع ان لهجة بيغين كانت ودية كان ثمة شيء في حديثه يحرجني، وخصوصاً طريقته في النظر الي. قد يكون ذلك قوة حضوره الطاغي. ففيما كان يتكلم غمرني شيئاً فشيئاً شعور غريب بأني مندفع نحو عالم لا يخضع لسيطرتي. واظن ان هذه الظاهرة تعزى الى التناقض بين سنواتي الطويلة في الخدمة الفعلية في الجيش على ارض صلبة كنت اعرف كل مداخلها ومخارجها، وهذا العالم المجهول الذي ازمع ان اخوض فيه. لقد اعتبرت نفسي دائماً رجلاً حراً واثقاً من نفسه، لكنّ هذه المغامرة الجديدة التي سأتنازل في سبيلها عن كل ما عرفته واحببته كانت تعكرني اكثر مما كنت اعترف به في قرارة نفسي.

وأكثر ما أثار اضطرابي بيغين نفسه. كان يتحدث عن اخذي على لائحة جيروت ــ الأحرار الانتخابية ويعدني بأنه في حال فوز حزبه سأجلس معهما في مجلس الوزراء ــ اي كان يقول تماماً ما كنت أتمنى أن أسمعه في الواقع.

وفيما كان يتكلم بدأت اعي القوة الصادرة عن هذا الرجل، وما يتحلى به من حزم. وانتابني شعور بأن عينيه كانتا تلجان الى باطني من خلال نظارتيه السميكتين.

في وقت ما حاولت ان المح الى اني قد اكون مفيداً لهذه اللائحة الانتخابية على صعيد وسائل الاعلام. فمثل سائر الجنرالات كنت محط أنظار الصحافة بسبب ماضيّ العسكري، وكان معظم الصحافيين يؤيدونني خصوصاً بعد حرب الايام الستة. كان لي اذا عدد لا بأس به من الأصدقاء بينهم وبين رؤساء تحرير صحفهم، من المشهورين. وكنت قبل هذا الاجتماع في فندق الملك داود التقيت بعضهم. فوعدني غرشوم شوكن، مدير الجريدة الصباحية هآرتس الشهيرة ورئيس تحريرها، بدعم بلا تحفظ. أطلعت بيغن على الأمر بكل بساطة يشوبها قليل من الفخر الساذج. غير أني كنت « فقط » قد نسيت ــ او انني لم أكن أعي الأمر حينذاك ــ ان هذه الجريدة كانت دائماً مناهضة بعنف لبيغين (كما ستغدو مناهضة لي بدوري في ما بعد). وعندما تحدثت عن دعم شوكن تكهرب الجو، فرمقني بيغن بنظره النفّاذ قبل أن يقول ببطء : « دعم ؟ سيعطي دعمه ؟ لمن سيعطي دعمه ؟ » في اللحظة نفسها أحسست كأن انسكاباً جديداً من العرق البارد يسيل فوق عنقي.

على رغم هذا الكرب الخفيف الذي لا يوصف توبع النقاش على نحو سوي، وتقرر اخيراً ان نتعاون في سبيل قضية واحدة. بعد ذلك امر بيغن خادم الفندق، بلباقة تليق بهذا السيد الكبير، ليأتي بزجاجة كونياك فاخرة على شرف اتفاقنا. ولكن ما ان رفعنا اقتراحنا حتى أحسست فجأة بأني غدوت سجيناً؛ كما لو حجز علي مع انسان يوحي اليّ تخوفاً لا استطيع شرحه.

في المساء نفسه عدت بالسيارة الى تساهالا. اوقفني في الطريق جندي يعمل « الستوب ». ومثلما يحدث دائماً في حالات كهذه دخلنا بعد دقائق في

جدال حاد. اخبرته أنني قد اترك الجيش على الأرجح للانتقال الى الحياة السياسية. ومن دون ان يعير شرائطي او شهرتي اهتماماً (« وقاحة » محض اسرائيلية) اجهد المظلي نفسه بالقول اني سأقترف خطأ لا يغتفر وانه يتعين علي ان ابقى في الجيش مهما غلا الثمن.

قبل وصولي الى بيتي كنت قد قلت في نفسي الف مرة انني في الواقع تورطت في مأزق وخطوت الى داخل عالم مجهول شديد الخطر. وكانت ليلي تنتظرني في السرير. رفعت الغطاء فوق رأسي قبل ان اقول : « ليلي، اشعر بحاجة الى من يحميني ». اذّاك قررت الا اسير قدماً في هذا السبيل.

هذ لا يعني انني وضعت نفسي في موقف حساس جداً. الم اعطِ موافقتي عندما ضربت كاسي بكأسي بيغين وسابير ؟ كان عليّ ان اتصرف بسرعة. ان اكتب اولا لجوزيف سابير لاشرح له لماذا أعود عن قراري. ولكن ماذا عساي استطيع ان اقول له في الواقع ؟ هل اقول له انني لو كنت مطمئناً الى وضعي في الجيش لشعرت بعدم قدرتي على ايجاد روابط ذات قيمة مع السيد بيغين ؟

صبيحة اليوم التالي صدرت الجرائد بعناوين كبيرة على الصفحة الأولى: « شارون على لائحة حيروت ــ الأحرار ». كانت هذه الأحرف الكبيرة تتراقص امام ناظري عندما ارسلت رسالة اعتذار الى جوزف سابير، وثانية اقصر ورسمية الى بيغين. وحينئذ تدخلت يد القدر : ففيما كنت اسطر الرسالتين كان فنحاس سابير، الرجل القوي في حزب العمل ووزير المال، موجوداً في الولايات المتحدة. وعندما اطلع على عناوين الصحافة الاسرائيلية انفجر غاضباً ثم اتصل هاتفياً ببارليف، العضو العمالي الابرز في الجيش، يسأله ان يؤدي حساباً. (وفنحاس هو من اطلعني على الأمر لاحقاً). ما عساه فعل بارليف بالحزب ؟ هل كان يجهل أننا في خضم معركة انتخابية صعبة بنوع خاص؟ الم يفكر في ان شارون قد يقدم دعماً قيماً للائحة حاروت ــ الأحرار ؟ هل أصبح بارليف مجنوناً ؟ وكان مسك الختام ان سابير امر

بارليف ان يتدبر امره ويكف عن اي نشاط الا ذاك المؤدّي الى اعادتي الى الجيش وتخليصي هكذا من ايدي « العدو ».

تجاه هذا الاحراج ارتجل بارليف حلاً. اعادني اولاً الى الجيش، ولكن لعدم وجود وظيفة مناسبة شاغرة كلفني مهمة خاصة جداً : السفر في العالم الواسع والتجول في الولايات المتحدة وفي بلدان صديقة اخرى. هناك القي محاضرات وازور المخيمات والمعاهد العسكرية ــ في الواقع، استطيع ان افعل كل ما يحلو لي. وزودني الجيش بتذكرة طيران دولية تقول ادارة شركة العال إنها أكبر تذكرة قطعتها لراكب. المكان الوحيد الذي لا تخولني هذه التذكرة حق النزول فيه هو اسرائيل.

خلال الاسابيع السبعة أو الثمانية التالية تجولت فعلا في عدد كبير من البلدان. فقمت بجولة محاضرات في الجامعات الاميركية، وزرت القواعد العسكرية الأميركية، وقابلت كبار ضباط الجيش الأميركي. ثم انتقلت الى المكسيك فاليابان وهونغ كونغ. وخط العرض ٣ في كوريا. ولم اعرِّج على اسرائيل سوى مرة واحدة، قبل الانتخابات في مناسبة رأس السنة العبرية، لأختلي على ضريحي غالي وغور. ثم عدت حالاً الى الطائرة.

في تشرين الثاني (نوفمبر) اعطت الانتخابات بريقاً جديداً للجيش ولخارطة البلاد السياسية. ووضعت في السلطة التنفيذية حكومة اتحاد وطني من وزرائها ميناحيم بيغن وجوزف سابير. وكذلك عازار وايزمن الذي انضم الى حزب بيغين. ونقل بيشاياهو غافيش من قيادة جبهة الجنوب العسكرية ليعين في الأركان. فشغر هكذا مكانه الذي عُينت فيه في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٩. وكانت حرب الاستنزاف في اوجها آنذاك.

حرب الاستنزاف

في نهاية ١٩٦٩ كانت حرب الاستنزاف اخطر المشاكل الثلاث التي كان على قيادة الجنوب ان تواجهها. وكان يليها في الأهمية الحدود الاردنية بين البحر الميت وايلات. فمنذ حرب الايام الستة كانت القوات السعودية معسكرة في هذا القطاع، على امتداد وادي عربة، وكانت تتواطأ مع الارهابيين المتسللين في استمرار الى الأراضي الاسرائيلية. والمشكلة الثالثة — بالنسبة اليَّ لم تكن هذه المشاكل تشكل سوى جبهة واحدة — كان قطاع غزة حيث كان نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية يتزايد في استمرار ويتبلور بتصاعد سريع للعنف، لا سيما ضد السكان العرب في القطاع. ومنذ تعييني قائداً لمنطقة الجنوب العسكرية كانت بؤر العنف الثلاث، بالنسبة اليّ، تحدياً عليّ ان اجابهه.

عندما تسلمت وظيفتي الجديدة كانت حرب الاستئناف مستشرية منذ سنتين. من جهة، لم تكن هذه الحرب المقنَّعة تهدد وجود اسرائيل نفسه، لأنها تجري بعيداً من قلب البلاد الحيوي، الذي عرف للمرة الأولى حياة سوية. فالبلاجات وارصفة المقاهي كانت تعج بالناس الذين يتذوقون اخيراً هذا الترف النادر في اسرائيل : السلام. ولكن من جهة اخرى كان جنودنا على امتداد القناة يواجهون الموت في استمرار.

كان خط بارليف، من منظور تاريخي، ثمرة الصدفة اكثر مما كان نتيجة

خطة مُعدَّة. ففي نهاية حرب الأيام الستة توقف الجنود الاسرائيليون عند الضفة الشرقية لقناة السويس. وبعد اسبوع او اثنين اضطروا الى التخندق اتقاء لنيران المواقع المصرية المواجهة.

في اثناء الحرب عارض موشيه دايان تقدم قواتنا بحجة أنّ علينا ان نتوقف عند خط ما على بعد عدة كيلومترات من القناة. كان يرى انه ينبغي لنا ان نظل قريبين من القناة لصد كل محاولة مصرية لعبورها، ولكن بعيدين منها نوعاً ما على أن تأخذ الحياة مجراها السوي على الضفة المقابلة. غير أنه بنتيجة الظروف ومجرى العمليات العسكرية عند نهاية الحرب اضطر الى ترك قواتنا تتقدم حتى الضفة الشرقية. لكنه مع بقائه نظرياً على رأيه القائل بانشاء خط محصن على بعد مسافة معينة من القناة امتنع عملياً عن اعطاء الأوامر بإعادة انتشار القوات المتمركزة على ضفة القناة الى الخط المذكور.

وهكذا في غياب نظرة شاملة وبعيدة المدى وجدت قواتنا نفسها معرَّضة للنيران المصرية من دون حماية أو ملجأ، فقررت من تلقاء نفسها بناء المعاقل. واتسعت الانشاءات الدفاعية مع مرور الوقت وغدت مصطنعة اكثر فأكثر متحولة الى خط محصَّن حقيقي. في العام ١٩٦٨ تعرضت مواقعنا لاطلاق نار كثيف من المدفعية الثقيلة، سبب لنا خسائر جسيمة. بعد ذلك صار الانسحاب او البقاء قضية كرامة، ولذلك كثر الجدال حول وسائل حماية الخط الذي فرضته الأحداث كأمر واقع لم يتوفر بديل عنه.

لم يحصل اول نقاش في العمق حول الدفاع عن سيناء الا عند نهاية العام ١٩٦٨ بعدما تكبدت قواتنا خسائر كبيرة على ضفة القناة. وتمحض الجدل عن قرار ليس فقط سنبقى حيث نحن بل سنبني ايضاً اثنين وثلاثين موقعاً محصناً يكون كل منها نوعاً من القلعة المصغرة القادرة على الصمود في وجه القذائف المدفعية الأفقية. وصرفت اموال طائلة لبناء الشبكة الدفاعية المعتمدة على نظام من السواتر الرملية العالية على امتداد القناة، والغرف المحصنة تحت الأرض، ومزالق الدبابات، ومخازن التموين والتذخير، وطرقات الدورية، الخ.

وكان المفروض بهذا المجمَّع ان يؤمِّن لنا السيطرة على الممر المائي.

هذا هو النظام بعينه الذي انبريت دائماً انتقده قبل تعييني على رأس قيادة الجنوب العسكرية، بل وبعد ذلك. ونظراً الى معارضتي القصوى لمبدأ خط بارليف نفسه أما كان ينبغي لي ان استقيل ؟ هذا السؤال طرح علي مراراً عديدة، وما توانيت مرة على الرد ان المشكلة لا تكمن في استقالتي او عدمها. فأنا اعتبر ان من واجبي ان اقوم بكل ما في وسعي للتأثير على القرارات المتخذة في الدوائر العليا، ولا يمنعني فشلي من ان اظل جندياً منضبطاً. فمهمتي تقوم على تنفيذ الأوامر الصادرة الي، وعلى الوجود حيث يجب أن أكون للقتال، مثل كل جندي آخر. ومن الطبيعي القول، بعد هذا، ان لا نية عندي للتخلي عن افكاري بل سأستمر في بثها حتى تنتصر ...

توبع اذاً الجدال حول مفهوم الدفاع عن سيناء، وثابرت بالطبع على دفاعي عن اغلاق العدد الأكبر من قطاعات خط بارليف والاستعاضة عنها بمواقع دفاعية على التلال الواقعة الى الشرق. وفي احدى مراحل المناقشات، في ربيع ١٩٧٠، شاركت في اجتماع عقد في بير جفجافة حيث تتجمع معسكرات عديدة وقاعدتنا الاساسية في سيناء. كان حاضراً بارليف وعدة ضباط من الاركان، بالاضافة الى موشيه دايان. وكالعادة أُهملتْ كل براهيني. ثم اجرينا دورة تفقد في احد التحصينات المواجه لبور توفيق والمعروف باسم « الرصيف ».

كانت المدفعية الثقيلة المصرية تقذف علينا حممها في تلك الأيام. ولكي لا نُظهِر حضورنا بسحابات من الغبار اضطررنا الى ترك عربة القيادة على بعد مسافة من الحصن والسير على الأقدام. وكان دايان قد كسر رجله قبل عدة ايام وهو يقفز من حوامة. لذا كان يستند في سيره الى الجفصين ويمشي بصعوبة زائدة. وكان « الرصيف »، مثل باقي التحصينات، محجوباً عن النظر بحائط سميك يلتف حول حوش داخلي — وفي اللحظة عينها عند اجتيازنا السور بدأت القذائف المصرية تنهمر كالمطر.

عندما صفرت القذائف الأولى فوق رؤوسنا تهافت الجميع للاحتماء في الغرف المحصنة تحت الأرض، باستثناء دايان الذي انبطح على الأرض لعجزه عن الركض. وبصفتي قائد القطاع لم أكن استطيع ان اسمح لنفسي ان اترك وزير الدفاع نفسه على هذا النحو من دون اي حماية. لذلك تمددت قربه. وفي هذا الوضع بالذات، عندما كانت القذائف تنفجر حولنا، تلفت دايان صوبي وقال لي : « اريك، هذا النظام خطأ فادح. عليك أن تقنعهم بتغيير مفهومه من اساسه ».

بادلته نظرته واجبت : « موشيه، منذ ساعة تقريباً شهدت بنفسك كيف كان يجري النقاش حول الموضوع. انت تعلم أنني لن اتوصل الى اقناعهم. مُرْهُمْ فيطيعون.

— لا، انا اعرف أنه سينتهي بك الأمر الى اقناعهم. يكفيك الا تتراجع عن موقفك ».

اخيراً توقف القصف المصري. فنهضنا وبعد ان نفضنا الغبار عن ثيابنا ذهبنا نتفقد التحصينات.

الخطأ الأساسي للمفهوم الذي اوحى خط بارليف وضح ايضاً في اثناء حوار قصير مع فريق من الصحافيين زاروا التحصينات على امتداد القناة خلال صيف ١٩٧٠، بعد وقت قصير على وقف اطلاق النار الذي تم اخيراً. فعندما وصفت لهم نظام الدفاع (من دون ان اسمح لنفسي بأي إلماع من طرف خفي أو نقد)، سألتني حنَّة زمّر، رئيسة تحرير دافار، الصحيفة الناطقة باسم حزب العمل : « كيف تستطيعون من هنا الاشتباك مع المصريين ؟ — بمساعدة الطيران والمدفعية والدبابات ». فألحَّت : « وأين هي الطائرات ؟ » اجبت : « في قواعدها في اسرائيل وفي سيناء ايضاً ». وتابعتْ : « واين الدبابات والمدفعية ؟ — مدفعيتنا هي على بعد قرابة عشرة كيلومترات الى الشرق، ودباباتنا هي الآن منتشرة في تشكيلات قتالية. بعضها على بعد ثمانية

كيلومترات والاخرى على بعد ثلاثين كيلومتراً ». فلاحظت السيدة زمّر قائلة : « في هذه الحال، ماذا تفعلون انتم هنا ؟ » فأجبت : « هذا هو بالتمام موضوع نقاشاتنا ».

خلال السنوات الثلاث لحرب الاستنزاف لم يطلق المصريون مدافعهم بلا انقطاع، اذ لا جدوى من ذلك. فقنبلة واحدة تنفجر كل ساعة في قلب التحصينات، حيث ينشغل جنودنا باصلاح الاضرار وتحصين المواقع، كانت اكثر من كافية لشل حركتهم. وكانت هذه المبارزات المدفعية اليومية، بالاضافة الى اطلاق المدفعية الثقيلة من حين الى آخر والى الكمائن والغزوات ضد دورياتنا وعربات تموينا، تكلفنا ارواحاً غالية جداً.

من المهم أن نسجل، خصوصاً عندما نفكر في حرب لبنان، أن احزاب المعارضة آنذاك لم تحاول أن تحرز كسباً سياسياً باثارتها موضوع مئات الضحايا التي سببتها حرب الاستنزاف تلك. (فعندما تم وقف اطلاق النار في آب (أغسطس) ١٩٧٠ كانت خسائرنا على امتداد القناة قد بلغت ١٣٦٦ اصابة، منها ٣٦٧ اصابة مميتة). وكان واضحاً للجميع ان الجيش الاسرائيلي سيظل هناك حتى توقيع معاهدة سلام حقيقية. وهذه الضريبة الفادحة كانت تعتبر آنذاك كجزء من المجهود الكلي الذي تبذله اسرائيل للوصول الى تسوية سياسية مع مصر. وهكذا ففيما كانت تجري نقاشات محمومة حول مشاكل تكتيكية وحول افضل صيغة لتأمين الدفاع عن سيناء كان هناك وفاق تام على المستوى السياسي حول الاحتفاظ بمكتسباتنا العسكرية حتى تحقيق الاتفاق. وهي هذه الوحدة الوطنية ما سمحت لنا ببذل هذا المجهود العظيم الذي كان يقتضيه الوضع.

ولكن فيما كانت لائحة القتلى تطول برزت الى الوجود امام انظارنا حركة احتجاج شعبية ضد سياسة الحكومة. وبدأ كل شيء بسلسلة من الرسائل التي وجهها الى رئيسة الوزراء غولدا مائير طلاب الصفوف النهائية في بعض المدارس الثانوية. واذ نشرت في الصحف اثارت تحركات عميقة في الرأي

العام. كما لعبت على خشبة المسرح تمثيلية نقدية لاذعة عن حرب الاستنزاف، عنوانها ملكة المغطس، لكن الرقابة منعتها لأنها « تنسف معنويات الشعب ».

ومع ذلك لم يفقد جنود خط بارليف معنوياتهم. فأنا لم اسمع قط اقل شكوى او تذمر منهم. فالشعور العام الذي كان سائداً بينهم هو، في جوهره، ما يلي : اذا كانت تضحياتنا تسمح للبلاد بعيش حياة سوية فنحن مستعدون لبذلها. واكثر من ذلك كان مئات الجنود يتزاحمون للتطوع في الخدمة في تلك المواقع البعيدة. وكذلك الضباط كانوا يتنافسون للحصول على مركز قيادي في تلك المواقع البعيدة والمحاصرة.

ابطال الحرب الحقيقيون هم اولئك الجنود المجهولون الذين عاشوا اشهراً طوالاً، ليلاً نهاراً، في حصونهم تحت القصف وقذائف العدو المتواصلة. لكنهم لم يكونوا وحدهم. فثمة فرق عديدة من المدنيين كانوا يعملون في تشغيل الجرافات والرفوش الآلية وغير ذلك من التجهيزات الثقيلة لبناء خطوطنا الدفاعية وتدعيمها في استمرار. فهؤلاء ايضاً كانوا معرَّضين دائماً لنار العدو، ومع ذلك بذلوا بلا حساب وبشجاعة وبطولة لا يقلل من قيمتهما عدم تسليط الأضواء عليهما في حينه.

وكان الحاخام الأكبر للجيش، شلومو غورين، يزورنا في استمرار. يصلي مع الجنود ويقضي الليل معهم. وعندما يتفق وجودي هناك كنت أُفاجأ بنفسي اصغي باذن الى الطقس الديني وبالأخرى الى انفجارات القذائف حولنا. سيظل سراً بالنسبة اليَّ كيف كان هؤلاء الجنود يستطيعون ان يصلوا بصفاء. وهو صفاء كان غورين يفقده امام وفاة بعضهم. فلقد شاهدته ذات يوم يحفر الأرض بيديه ليستخرج جثث بعض الجنود الذين دفنتهم في حصنهم قذيفة سوفياتية من عيار ١٥٢ ملم. اخرج الجثث الواحدة تلو الأخرى، رافضاً اي عون واي حضور الى جانبه؛ وشاهدته مغشى بالرمل، يعمل تحت روافد صغيرة قد تتحطم في اي لحظة. غير ان كل هذا لم يكن جديداً على الحاخام

غورين. ففي العام ١٩٤٨ خاطر بحياته في المنطقة المحايدة في اللطرون ليأتي بالجثث من ميدان المعركة. كذلك جمع وارجع الجثث من قرى غوش اتزيون وكيبوتزاتها بعدما سقطت في يد العدو.

كان دايان يزورنا مراراً، مظهراً الشجاعة التي عرف بها. وكان يتفق لي، وانا اراقب كل هذا النشاط في هذه الحصون المحاصرة حولي، ان افكر انني منذ عدة اشهر تقريباً كنت على وشك ان اغادر الجيش وانطلق في حياة سياسية جديدة، وان جوزف سابير وبيغن يشاركان من جديد في مجلس الوزراء مع حليفهم الجديد عازر وايزمن — وانني ربما كنت اصبحت وزيراً مثلهم.. فأقول لنفسي حينئذٍ إنني أكثر سعادة لكوني جنرالاً عاملاً أخوض المعارك أكثر مما لو كنت وزير دولة.

عندما اطلق المصريون حربهم الاستنزافية كانوا يراهنون على الحساسية المفرطة عند الاسرائيليين لخسارة أرواح بشرية، ويأملون في تكبيدنا ما يكفي من خسائر تجعل الوضع لا يطاق في نظر الشعب. وكنا على علم بما يراهنون عليه ولذلك فعلنا المستحيل لنبرهن أن مصر هي اكثر عرضة للتجريح منا وان قصفهم المتواصل سيرتد عليهم. صحيح ان قوة نيرانهم على طول القناة كانت اقوى من قوتنا، لكننا لم نكن نحصر الرد بالقصف المدفعي. ففي ١٩٦٩، قبل ان اتولى قيادة الجبهة، كانت قواتنا قد نجحت في القيام بغارات مثيرة. في ٢٩ تموز (يوليو) قامت وحدة من الضفادع البشرية بغزو جزيرة غرين وتدميرها، وهي نوع من الحصن واقعة على الطرف الشمالي لخليج السويس، فيها رادار وبطاريات مدفعية مضادة للطيران تسيطر على المجال الجوي. وفي ٩ أيلول (سبتمبر) من السنة نفسها شنينا غارة واسعة النطاق على طول الضفة الشرقية للخليج. فلقد نقلت قوارب انزال الى تلك الضفة دبابات وعربات مدرعة من صنع سوفياتي كانت أُخذت من العدو في حرب الأيام الستة. وناوش هذا الرتل الصغير القوات المصرية خلال اكثر من عشر ساعات. وتقدم خمسين كيلومتراً على منحدر شاطئ الخليج وفاجأ القوات المصرية

في هذا القطاع، منزلاً بها خسائر جسيمة، منهم جنرال مصري ومستشار سوفياتي برتبة جنرال أيضاً. وعندما اطلع جمال عبد الناصر، وكان مريضاً، على هذه الوقائع أصيب بنوبة قلبية.

ولكي نبين جيدا للعدو ما قد تكلفه حرب الاستنزاف هذه هاجمت طائراتنا، ابتداء من ١٩٧٠، أهدافاً عسكرية في العمق المصري. وسرعان ما ظهر للجميع ان مطارداتنا تستطيع من دون اخطار كبيرة ان تخترق الدفاع الجوي المصري. غير ان هذه الغزوات في قلب مصر نفسها كانت لا تزال غير كافية لاقناع عبد الناصر بايقاف الاعتداءات. على العكس، توجه مرة اخرى الى حلفائه السوفيات متوسلاً إليهم أن يزودوه بالوسائل الكفيلة بمتابعة إهراق الدم في المعسكر الاسرائيلي.

في بداية ربيع ١٩٧٠ اعطاه الروس الحل بارسالهم اليه شحنات كثيفة من صواريخ سام ٣ المضادة للطائرات، وكانت حينذاك من اكثر الاسلحة تقنيةً وقد أرفقت بفرق من الخبراء السوفيات الذين يشغلونها. وكذلك اعلمتنا دوائر استخباراتنا ان طائرات ميغ ٢١ عديدة موجودة في مصر يقودها طيارون سوفيات. وفي شهر حزيران (يونيو) من تلك السنة كان اصبح لدى الجيش المصري قرابة مائة طائرة من هذا الطراز يقودها طواقم سوفياتية كاملة فتؤمن له حماية جوية قوية. كانت تلك اول مرة يشارك فيها عديد حربي سوفياتي مشاركة فعالة في حرب الشرق الاوسط. ولقد امتنعت اسرائيل عن كشف هذا السر امام الجمهور العريض، وكذلك فعل الاتحاد السوفياتي من جهته. غير ان الدور الجديد الذي بدأت تلعبه موسكو في الصراع كان يثير القلق على رغم سريته. فها ان خمسة عشر الف عسكري سوفياتي من مطلقي الصواريخ والتقنيين والمستشارين والطيارين يسيطرون الآن على الشريان الرئيسي التقليدي لاوروبا الغربية والذي يصل القارة الاوروبية بالخليج الفارسي: وكان على اسرائيل ان تجابه عسكرياً، لاول مرة في تاريخها، احدى القوتين العظميين.

كانت غاراتنا الجوية قد شكلت حتى الآن جوابا فعالا ومثيرا على القصف

المدفعي المصري وعلى العمليات التي يقوم بها المغاوير (الكوماندوس) على خطوطنا على طول القناة. لكن وصول السوفيات غير تماماً المعطيات الميدانية. فقواعد الصواريخ التي كانت تحمي في السابق عمق البلاد المصرية حُركت الآن ببطء نحو القناة. وكانت طائرات الميغ ٢١ تقوم بطلعات استكشافية لحماية المجال الجوي فوق القاهرة، موسعة بالتدريج منطقة طيرانها في اتجاه الشرق. ولم يكن قد صدر رد فعل اميركي على هذا الوضع الجديد، لذا اعطيت في البدء اوامر لطيارينا بتجنب المجابهات المباشرة مع المطاردات السوفياتية، ولكن مع مرور الوقت انتهى بنا الامر الى ادراك ان اسرائيل لا تستطيع امام هذا الخيار الا ان تُظهر موقفا حازما. فعندما نسمح للطائرات والصواريخ السوفياتية ان تحمي ليس فقط العمق المصري بل ايضا منطقة القناة نجازف بخسارة خطوطنا بان نفرض على الرئيس عبد الناصر ايقاف حرب الاستنزاف — كما نجازف بتعريض دفاعنا للخطر.

لذلك ضاعفنا قصف المواقع المصرية. وفي ١٢ حزيران (يونيو) عبرت قواتنا القناة الى الضفة الغربية شمال القنطرة وحطمت في اثناء الليل المواقع العدوة على جبهة تمتد ٣ كيلومترات. وفي ٢٥ و ٢٧ تموز (يوليو) حصلت مناوشات بين مطارداتنا وطائرات الميغ السوفياتية، وفي ٣٠ من الشهر نفسه جابه طيارونا مباشرة العدو فاسقطوا خمس طائرات ميغ يقودها روس من دون ان يخسروا اي طائرة.

كان الوضع بالغ الدقة والحساسية. من جهة لم نكن نستطيع غض النظر عن وضع تصير فيه الجبهة محمية بغطاء جوي سوفياتي يسمح للمصريين بمواصلة قصفهم المدفعي والاعداد بهدوء لما كان الرئيس عبد الناصر يسميه « مرحلة التحرير ». ولكن من جهة اخرى كان الصدام المباشر مع القوى السوفياتية يحمل في طياته خطر خلق ظروف جديدة تماما، لا يجسر احد على استباق اخطارها.

في ٧ آب (اغسطس) لاح حل لهذه المعضلة عندما قبلت اسرائيل ومصر

اقتراحا اميركيا بوقف المعارك. واراح وقف النار هذا الفريقين كليهما. فالاسرائيليون كانوا يتكبدون ضحايا يومية على خط بارليف، والقوات المصرية المعسكرة على امتداد القناة كانت تتكبد هي ايضا خسائر فادحة من جراء الضربات المتكررة لمطارداتنا ودباباتنا ومدفعيتنا.

في ٨ آب (اغسطس) خرج الاسرائيليون والمصريون من تحصيناتهم السفلية، بتردد في بادئ الامر، مثل حيوانات تخرج من اوجارها بعد نوم الشتاء الطويل، طارفين بعيونهم تحت ضوء الشمس الباهر. كان جنودنا الواقفون على قمة تحصيناتهم يراقبون على الضفة الاخرى للقناة المصريين الواقفين هم ايضا فوق ملاجئهم. وبدا واضحا ان كل فريق كان يجهد لتفحص الفريق الآخر المواجه بفضول، وكانت المفاجأة ان الاعداء في هذه الجهة او تلك كانوا يبدون في نظر الجهة المقابلة أناساً مثلهم...

ادهشت موافقة الرئيس عبد الناصر على وقف اطلاق النار الجميع. ولم تمض ساعات قلائل حتى كشف النقاب عن سرها : فخلال الاشهر الاخيرة كان الروس يدفعون الى الامام، خطوة خطوة، منصات اطلاق صواريخ سام ٣، موسعين هكذا مداها في اتجاه القناة. وكان نقل المنصات هذا قد شكل الهدف الاول للطيران المصري الذي تحول الى « مدفعية طائرة » محاولا ان يوقف تقدم المنصات (الامر الذي كلفنا سقوط عدة طائرات). وفيما كان وقف اطلاق النار يدخل حيز التنفيذ كانت صواريخ سام ٣ وطواقمها تُنقل الى الشرق. وبدا واضحا ان المصريين والروس قبلوا هذه الهدنة ليس بهدف التوصل الى حل (كما اقتضت ذلك وزارة الخارجية الاميركية) بل كحيلة تسمح لهم باعادة انتشار صواريخ سام ٣ الى الامام من دون ان تتعرض — مؤقتا على الاقل — لهجومات الطيران الاسرائيلي. كان عملا يصعب مضاهاته على صعيد الاستخفاف وقلة الحياء.

وهناك نقطة مفصلية اخرى : ما ان يعاد انتشار الصواريخ حتى يغدو المجال الجوي فوق القناة محظرا على طائراتنا من طراز فانتوم وسكايهاوك،

فيستطيع المصريون اعادة قصفنا بكل بطاريات مدافعهم من دون ان نستطيع هذه المرة ان نرد عليهم. بالاضافة الى ذلك، يستطيعون استكمال استعداداتهم بلا خوف من عقاب. واذا قرروا عبور القناة لا نستطيع ان نستخدم طيراننا لإيقافهم. فإذا قبلنا بهذا الوضع على مضض نكون قد قبلنا خَوْضَ حرب جديدة لا مفر منها.

كان الوقت يعمل ضدنا : لذلك اسرعت قيادة الجنوب والاركان العامة الى فتح باب النقاش حول الاجراءات الواجب اتخاذها. من جهتي أوصيت بعمل حازم قاطع. بينت انَّ علينا أن نجتاز القناة قرب القنطرة وان نهدم قواعد صواريخ سام في المنطقة ثم ننسحب، محتفظين مع ذلك برأس جسر صغير على الضفة المصرية، على ان نعلن نيتنا صراحة بعدم التوغل اكثر حتى لا نشعل حرباً شاملة، مع الاشتراط بعدم قبولنا نشر صواريخ إضافية. وقبلت الخطة التي عرضتها ووافقت عليها قيادة الاركان.

بدأت للمرة الاولى دراسة النواحي العملية لعبور القناة بالقوة. تفحصت بدقة المواقع الاكثر مناسبة، ومنها القنطرة في القطاع الجنوبي. وحرصت على انتقاء مواقع تكون فيها قوة العبور والانزال البحري محمية بعامل طبيعي — بالمستنقعات العاصية على العبور عند القنطرة وبخليج السويس عند مدينة السويس. وهكذا تزيد قوة الانزال من حظوظها في اجراء اختراق محدود للجبهة — وهو ما اوصيت به دائما.

من بين هذين الموقعين فضلت القنطرة حيث تمتد الى شمالها وغربها بحيرات ومستنقعات من شأنها أن تؤمن حماية اوسع من تلك التي يوفرها خليج السويس. فضلا عن ذلك. يسهل اكثر الدفاع عن رأس الجسر في تلك المنطقة. وفي جنوب القنطرة يتقدم احد سواعد النيل حتى يتصل بقناة ري من المياه الحلوة، موازية لخط المياه البحرية في القناة. ومثلما تحمي المستنقعات الجناح الايمن لقوة الانزال البحري كذلك تحمي قناة الري جناحها الايسر. وعندما يستقر رأس الجسر في القنطرة يهدد معظم الجيش المصري المعسكر

في الجنوب. ومع ان موقع القنطرة قد لا يكون المكان الايسر للوصول الى الضفة الاخرى الا انه يقدم اجمالا فوائد تكتيكية لا تُنكر.

بيد ان الحكومة صوتت ضد عبور القناة على رغم توصية الاركان. وكان جوهر قرارها انّ علينا الاكتفاء بوقف اطلاق النار والسماح بنشر قواعد الصواريخ، اقلقني هذا القرار كثيراً، ففي نظري كان ينطوي على ضعف خطير. وكثيرون غيري شاطروني عاطفتي، حتى اني استلمت رسالة مطولة حول الموضوع من مناحيم مندل شنرسن، الحاخام المبجّل للجماعة اليهودية الهسّيدية في لوبافيتش، وكان هذا الحاخام قد ارسل الي اثر وفاة ولدي غور، في ١٩٦٧، رسالة تعزية مؤثرة، ومنذ ذلك الوقت توطدت بيننا اواصر الصداقة القلبية.

كان حاخام لوبافيتش قد اظهر دائما اهتماما عميقا بتنوع مذهل من المواضيع المرتبطة باسرائيل التي كان على علم عميق بشؤونها. وقال في رسالته انه يشعر بالقلق الشديد بشأن الوضع على طول القناة. ومن جهة اخرى، اعتبر خط باريلف بمثابة كارثة وثمرة لعقيدة حربية عفا عليها الزمن، على طراز خط ماجينو، ولا يمكن قبولها، « في عصرنا المتميز بالنفاثات والقوات المحمولة ». وتابع يقول : لكن قرار مجلس الوزراء بعدم الرد على نقل الصواريخ الى هذا القطاع مثير لقلق اكبر لانه ينمّ عن ضعف متنامٍ عند الطرف الاسرائيلي. وهو ضعف لن يتمخض الا عن نتائج سلبية. وجاء أيضاً في الرسالة: « في البدء كانت الامور رهن مشيئتنا، لكنها فرضت علينا اخيرا. فمنذ سنة او اثنتين كان القرار في يدنا. ومع ذلك فان الحكومة اعلمت اصحاب العلاقة ان اسرائيل مستعدة لاعادة الاراضي « المحتلة » بدلا من ان تقول « الاراضي المحرَّرة ». كان ذلك خطأ، وخصوصاً علامة ضعف. وان الحكومة الاسرائيلية بامتناعها عن الرد على نقل صواريخ ارض — جو الى منطقة القناة تستكين الى هذا الموقف الجبان.

بما انني لم اكن اتابع الشؤون السياسية في تلك الحقبة لم اكن استطيع

الحكم هل هذا القرار من حكومتنا كان محتوما. لكنه قرار يقص اجنحتنا من وجهة النظر العسكرية المحضة — وبعد ثلاث سنوات كلفنا وضعاً كارثياً ادى بنا الى خوض حرب كيبور.

ومع ذلك بدأ الجيش في جو كهذا يدرس بالتفصيل التحضيرات لعملية انزال بحري على الضفة الاخرى. قبل كل شيء كان ينبغي ايجاد مكان ملائم للتمرين — وهي مشكلة لم تُحلّ الا بعد ستة عشر شهرا. فعبور القناة عملية واسعة النطاق وشديدة التعقيد، تتطلب تخفيا واقعيا على الصعيد الميداني. وقد انتهى بي الامر الى ايجاد موقع يلبي نوعا ما الشروط المطلوبة، وهو سد الرويفة الذي كان حاكم شبه جزيرة سيناء البريطاني قد شيده في العشرينات على مقربة من ملتقى الطرف في ابي عجيلة. كان هذا السد قد كون بحيرة اصطناعية تحبس المياه المتدفقة من وادي العريش في موسم الامطار القصير في تلك المنطقة الصحراوية. فوسعنا البحيرة وبنينا مماشي على ضفافها من اجل ان نوجد اصطناعيا الظروف الطوبوغرافية للقناة. وبعد انهاء الاعمال لم يبق لنا سوى الصلاة لاستنزال المطر.

اجهل ما اذا كانت هذه الصلوات استجيبت ام ان عاملا آخر تدخل لصالحنا — فالواقع هو ان موسم الامطار في تلك السنة كان غزيرا فالقت السماء بسيولها. وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ حضر مناورتنا الكبيرة الاولى كل الطقم السياسي الحاكم وكبار ضباط الجيش، بمن فيهم غولدا مائير وموشيه دايان. وللمرة الاولى اعطي لنا ان نحضر شخصيا تلاحق العمليات في اثناء عبور حقيقي للقناة. فضلا عن ان العملية يمكن ان تدخل في خططنا اذا عمد المصريون الى القيام بعملية انزال بحري على ضفتنا.

عندما انتهت حرب الاستنزاف في آب « اغسطس » ١٩٧٠ بحثنا، مرة اخرى، عن افضل صيغة لحماية سيناء. وهنا ايضا كنت على خلاف عميق مع معظم ضباط الاركان. لكن موشيه دايان، وقد زادته هذه الحرب خبرة، كان يصرح اكثر فاكثر انه سيسحب كل قواتنا من منطقة القناة. وكان

تفكيره يجمع البساطة الى المنطق: إذا بقينا حيث نحن نجازف بإشعال مجابهة مسلحة جديدة سيعقبها حتما ضغوطات دولية. فاغلاق قناة السويس كان يسبب مشاكل جسيمة للملاحة. وفي المقابل، اذا سمحنا لمصر باعادة فتحها فاننا قد نشجع الرئيس على احترام عملية السلام معنا.

غير ان دايان، مع اقتناعه بسلامة هذا التفكير الذي كان يحلو له صياغته بتصريحات ملائمة، كان يتجنب، كعادته، ان يأخذ موقفا واضحا. ونتيجة لذلك لم تُحلّ المشكلة اطلاقا واكتفي بحل يقضي ترميم خط بارليف الذي احدثت فيه المدفعية الثقيلة المصرية اضرارا فادحة، ولكن عدم تجهيز الحصون والمواقع وتزويدها عديدا بشريا. (في الواقع، تسنى لي خلال السنوات الثلاث التالية ان اعدم ١٤ حصنا من خط بارليف بملئها رملا.) وفي موازاة اعمال الترميم هذه باشرنا ببناء سلسلة تحصينات (اطلقت عليها اسم « قلاع » تمييزا لها عن « الحصون ») على طول التلال الممتدة شرق القناة.

بنيت في هذا الخط الجديد مراكز قيادة ومراقبة، ومواقع اطلاق نار، وقواعد لوحدات احتياط متقدمة، واوكار مدفعية. كذلك اطلقت مشروعا كبيرا لبناء طرقات رئيسية وفرعية من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب، لتوصل القناة بالقطاعات الخلفية. فالعمليات المتحركة من شأنها ان تؤمّن لنا افضل تكتيك دفاعي، ومن هنا ضرورة وجود طرقات لتحرك سريع للقوات ولتموين الاماكن المهددة او ذات الاهمية التكتيكية الكبيرة. فضلا عن ذلك، كنت قد اصبحت مقتنعا بانه في حال حدوث حرب جديدة يتعين علينا ان نعبر القناة لوضع حد للمعارك. وهذا ما كان يفرض ايضا وجود الطرقات من الشرق الى الغرب.

كان المقصود اذاً ورشة بناء هائلة. وبما ان الوضع كثير التقلب وقد ينقلب جذريا في كل لحظة، كان علي ان انهي الاعمال في اسرع وقت ممكن بتسييرها على قدم وساق. لذلك حركنا مئات الشاحنات والجرافات لتنقل الى قلب الصحراء آلاف الامتار المكعبة من البحص. وقد بنيت نقاط

مراقبة لسير الآليات، وفي كل مساء كان قادة المهندسين وآمروا القطاعات العسكرية يقدمون لي تقريرا شخصيا عن سير العمل في اليوم نفسه. وسرعان ما غدت المنطقة الممتدة بين القناة وممر متلا ورشة بناء واحدة شاسعة تطن كخلية نحل.

ولكن فيما كانت شبكة الطرقات تبدأ بالظهور فوق رمال الصحراء بدأ قطاعان آخران من الجبهة الجنوبية يستأثران بانتباهي.

إرهابان

يتاخم الحدود الاسرائيلية الاردنية بين البحر الميت وايلات منخفض جيولوجي قاحل يعرف بوادي عربة. ويقع جزء واسع من هذا الوادي تحت مستوى البحر — ينخفض سطح البحر الميت قرابة ٤٠٠ متر عن سطح المتوسط. تحرق شمس الصحراء هذه المنطقة طوال السنة، باستثناء بعض العواصف النادرة في الشتاء، التي تتجمع سيولا تغمر الوادي. غير ان لهذا الامتداد لوادي الاردن جمالا خاصا به. فهذه المنطقة الموشاة باشجار الاكاسيا، الشائكة الصفراء وبادغال الصحراء تحوي في الواقع ارضا قابلة للزراعة وقادرة على اعطاء الغلال اذا تأمنت لها مياه الري.

تخترق وادي عربة الطريق التي تربط شمالا البلاد الصناعي بمرفأ ايلات وبالجزء الشرقي من النقب. ومنذ انشاء الدولة سال دم يهودي غزير على هذه الطريق الرئيسية. فهي تقدم للارهابيين الآتين من الاردن الظروف المثلى لوضع الغام ونصب كمائن؛ وغالبا ما كانت تُهاجم العربات الآتية من ايلات او المتوجهة اليها، ويُقتل ركابها. وكانت بعض الكيبوتزات والقرى الزراعية التعاونية الصغيرة المنشورة على طول هذه الطريق تشكل مراكز امامية في الصراع ضد الصحراء من اجل تحويل هذه المنطقة المقفرة الى ارض خصبة. وكانت مجموعات الرواد الصغيرة تلك، بالاضافة الى شركات البحر الميت لاستثمار البوطاس الواقعة على مرمى مدافع المورتر من الحدود، تشكل في

تلك الأثناء اهدافا مفصلة للمتسللين. ويضاف الى هذين الهدفين خط انابيب النفط الذي بذلت من اجل انشائه جهود تفوق طاقة البشر ليصل خزانات الوقود في ايلات بمدينة عسقلان على شاطئ المتوسط. واثر اقفال قناة السويس في ١٩٦٧ اصبح خط الانابيب هذا شريانا حيويا يؤمِّن حاجات اسرائيل الى الوقود، كما ينقل بترول الخليج الفارسي وآبار سيناء (التي حفرتها اسرائيل) نحو بلدان اوروبا الغربية. وبالطبع كان ارهابيو منظمة التحرير الفلسطينية يخربونه في انتظام.

كانت تلك المنطقة تكوِّن نوعاً من الارض المحايدة، وهنا تكمن المشكلة الرئيسية في حمايتها فبعض وحدات الجيش والشرطة الاردنية تقيم في الطرف الآخر من الحدود، لكنها في الواقع تتعاون مع الارهابيين مسدية اليهم دعما نشيطا. وكان لواء سعودي يحرس جبال البحر الميت المقفرة تماما. (فالوحدات السعودية كانت موجودة في استمرار في تلك المنطقة. وفي عام ١٩٤٨ حاربت الى جانب الجيش المصري، وفي ١٩٦٧ ارسلت المملكة العربية السعودية قوات الى الجبهة الاردنية. وكان على السعوديين ان يحاربوا في ١٩٧٣ تحت القيادة السورية. كان يحلو للصحافة العالمية ان تصف المملكة العربية السعودية بـ « الاعتدال »)، وذلك اللواء غير المندفع اطلاقا لمثل هذه المهمة كان اقل اهتماما من الاردنيين بحراسة الحدود.

ينبغي القول ان السعوديين لو ارادوا تولي مهمتهم بجدية لما تسهلت الامور امامهم. فالحدود نفسها تتعرج في اتجاه شمالي جنوبي في قلب منخفض عربة. وكانت الطريق تمتد بمحاذاة الحدود غربا ولا تبعد عنها اكثر من بضع مئات من الامتار، على الاكثر سبعمائة وخمسين مترا وعلى بعد عشرين الى خمسة وعشرين كيلومترا شرق الحدود تنتصب جبال مؤاب المشرفة على تلال ادوم. عند هبوط الظلام كان الارهابيون يغادرون قواعدهم في الاراضي الاردنية. وفي اثناء النهار يختبئون على مقربة من الحدود، وفي الليل يخرجون ويضعون الالغام وينصبون الكمائن ويقصفون بالهاون (المورتر) القرى والمؤسسات

الكيمية. وبعد اقتراف اعمالهم السيئة يبقى لهم الليل بطوله ليعودوا الى قواعدهم في الجبال. وكانت هذه الهجومات القاتلة قد تتابعت طوال سنوات حتى اصبحت جزءا من الحياة اليومية للقرى الحدودية.

قادتني دراسة متعمقة لطرائق عمل الفدائيين الى الاستنتاج بسرعة ان الدفاع الاكثر فاعلية ضد اعمالهم هو الهجوم. في المقام الاول يجب الحيلولة بينهم وبين بلوغ الحدود. واذا رغم كل شيء استطاعوا اجتيازها يجب منعهم من العودة سالمين الى جبالهم. من اجل ذلك كان ينبغي اطلاق عملية من الجهة الاردنية من الحدود، وهي منطقة صحراوية غير مأهوله، باستثناء بعض المعسكرات الاردنية والحاميات السعودية.

بعد اقرار خطتي انتقلت الى العمل. وبسبب خبرتي القوية التي اكتسبتها مع المظليين ارسلت الى جبال مؤاب وادوم دوريات استكشاف لاقامة مراكز تنصت ونصب كمائن لزمر منظمة التحرير الفلسطينية. ولم تمض ليلة حتى اضطر هؤلاء العريقون في ممارسة الارهاب الى الاعتراف بان شيئا ما هو على وشك ان يتغير في القطاع، ليس لمصلحتهم على وجه التحديد. لقد تبين لهم فجأة ان خطوط انتقالهم لم تعد امينة اطلاقا، ففقدوا بسرعة من جراء ذلك ثقتهم بنفوسهم وحرية حركتهم؛ فهم الآن معرَّضون لان يُفاجأوا في كل لحظة من دون ان يدروا من اين يأتيهم الهجوم او ما اذا كان ثمة من يقتفي اثرهم. وهم الذين كانوا يصطادون دائما فرائس سهلة المنال — مدنيين عزلا — اصبحوا الآن ملاحقين بمطاردين محنكين.

لقد اظهرت دورياتنا منذ اللحظةالاولى فاعلية كبيرة. كانت تفاجئ دائما قتلة منظمة التحرير الفلسطينية وتصرعهم؛ ولذلك سجلت هجومات الفلسطينيين تراجعا مذهلا. لكنني لم اكن راضيا تماما عن الوضع. فلم يكن هدفي التخفيف من حدة المشكلة لاجدني اواجهها من جديد بعد شهر. كان على منظمة التحرير ان تعي جيدا اننا اصبحنا منذ الآن على ارض

واحدة، واننا سنبقى فيها طالما دعت الضرورة، وان كل محاولة لاستئناف هجوماتها في المنطقة هي بمثابة انتحار.

ولاقناع الفلسطينيين بصدق نوايانا كان علينا ان نؤمّن حضورا دائما في الجبال. ولكن كان ثمة عائق : طرد السعوديين من وادي عربة ودفعهم الى عمق الاراضي الاردنية، والا اضطرت دورياتنا الى الاكتفاء بغارات سريعة ومحدودة. وبما ان الحاميات السعودية كانت تحمي النقاط الاستراتيجية الاكثر اهمية، لا سيما الطريق الوحيدة التي كانت تربط تلك المنطقة بحشودات القوات الاردنية في شمال المملكة. كان على قواتنا ان تعمل خلف خطوط العدو، مع كل ما يحمل هذا الوضع من عدم ثبات.

لحسن الحظ لم ننتظر طويلا لمجابهة السعوديين. ففي اذار (مارس) ١٩٧٠ هاجمت منظمة التحرير بمدافع المورتر مؤسسات البحر الميت انطلاقا من صافي، القرية الاردنية المهجورة والواقعة شرق احواض التبخير. ففي هذه القرية المشرفة على المؤسسات الكيمية نبع ماء عذب — وهذا نادر في المنطقة — ولذا كانت قاعدة متقدمة ومفيدة جدا للارهابيين. ومن جهة اخرى كانت القوات السعودية معسكرة في القطاع وكان وجودها مُطَمْئِنا لرجال منظمة التحرير الذين كانوا على قناعة باننا لن نجسر على الرد في حال الاشتباك تحاشياً للتورُّط مع القوات النظامية السعودية.

ولربما كان السعوديون يفكرون التفكير ذاته؛ وفي هذه الحالة لا بد انهم فوجئوا، كما فوجئ الارهابيون، عندما تساقطت عليهم في ليل ٢٠ اذار (مارس) قذائف المورتر، وتلاها هجوم من قواتنا. كانت معركة صافي، بين وحداتنا من جهة ورجال منظمة التحرير والجنود السعوديين من جهة اخرى، قصيرة وانتهت بسقوط القرية بين ايدينا.

في الساعات الاولى من صبيحة اليوم التالي بدأنا بشق طريق تربط صافي بالمنطقة الصناعية في البحر الميت. وانتهى العمل بعد ثلاثة ايام، وتأمَّن الاتصال،

فغدت قواتنا قادرة الآن على البقاء في صافي لمدة طويلة نسبيا. بقينا ثلاثة اشهر في تلك القرية التي جعلتها الصدفة على المحور الشمالي الجنوبي من الجهة الاردنية من الحدود، وبما ان هذه النقطة الاستراتيجية كانت بين ايدينا لم اعد اخشى عملا اردنيا او سعوديا ضد قواتنا الاستكشافية في الجبال، وصار في وسعي ان ادعمها وان اقدم مراكز المراقبة نحو الداخل واجعل كمائننا اكثر عمقا في الاراضي الاردنية، على قمم سلاسل جبال ادوم وفي بطون اوديتها. وبات الآن على المتسللين ان ينطلقوا الآن من مكان اكثر بعدا من الحدود. بكلام آخر، صار نور النهار يفاجئهم في وادي عربة حيث لا مكان يختبئون فيه. وخلال كل ذلك كنت ادعم المنطقة الحاجزة على امتداد الحدود بحقول الغام، وبشريط شائك، وبممرٍّ من الرمل الناعم بعرض عشرة امتار كان يُمشط كل يوم فتظهر فيه آثار اقدام كل من يحاول اجتياز الحدود.

كنا نلقي القبض على الارهابيين تارة في الجبال وطورا في وادي عربة نفسه. لكن آثار الاقدام في الشريط الحدودي الرملي كان يسبب لنا مشكلة عويصة. فيما انه كان علينا ان نقوم باعمال الدورية على طول قرابة مائة كيلومتر من الحدود غالبا ما كان يتفق ان الآثار التي نجدها لم يمض عليها الا بضع ساعات. وبالطبع كانت الحوامات تشارك في البحث عن المتسللين، لكننا سرعان ما فهمنا ان الطريقة الاكثر فاعلية كانت في اقتفاء الاثر على ظهر الجمال.

عرضت هذا المشروع على بدو النقب فلقي نجاحا فاق كل توقعاتي، لاننا جمعنا في وقت قليل مئات المتطوعين الذين جذبتهم فكرة الخدمة كمتعقبين وكشافة في فرقة جمّالين. وليتصورنَّ المرء المشهد : كل هؤلاء البدو على ظهور الجمال، متعممين بكوفية صفراء، يقومون باعمال الدورية في الصحراء كما فعل اجدادهم طوال اكثر من الف سنة، وعلى بعد عشرات الكيلومترات منهم تجري في الوقت نفسه على امتداد قناة السويس معركة بين صواريخ

سام الموجهة بالرادار وطائرات فانتوم ف ــ ع مجهزة الادوات الالكترونية الدقيقة والاكثر حداثة...

بالطبع ادخلنا بعض التحسينات على الطرائق القديمة لقوافل الدورية في الصحراء. فقد كان يتفق احيانا ان جنودنا المشاة او المؤللين يكتشفون آثار اقدام على بعد خمسين او ثمانين كيلومتراً من وحدة الجمّالين الاقرب اليهم. ومع ان الجمل سريع، فقد كان يلزمه ساعات للوصول الى المكان. لذلك تخيلنا وطبقنا نظاما اسميناه « جمال في حالة تأهُب ». دربنا الجمال على السفر في سيارات قيادة مفتوحة، وفي عربات موحدة الشكل والتجهيز عند وحداتنا الصحراوية. وعندما كان يُعلن لنا بالراديو ان آثارا شوهدت في مكان ما كانت عربات القيادة ترسَل حالا اليه، وكل منها تنقل جملا نائما على منصة خاصة وراءها. وتبدأ المطاردة على ظهر الجمل... وكان اولئك البدو كشافة لا مثيل لهم وصيادين بالفطرة، واكثر فاعلية اجمالا من زملائهم اليهود. فما ان يشتمّوا اقل رائحة اثر حتى ينتهي بهم البحث الى ايجاد فريستهم.

مع تضافر العمل بين عملياتنا في الجبال ومراقبة الحدود المشددة وعمليات فرقة الجمال سرعان ما القينا القبض على معظم الارهابيين الذين كانوا يعيثون فسادا في العربة. وبعد حصولنا على هذه النتيجة اتفقنا مع الاردنيين على سحب قواتنا من صافي مقابل الوعد بمنع زمر منظمة التحرير مستقبلا من الحاق الضرر بنا. واذ حصلنا على هذا التعهد من الملك حسين نفسه انسحبنا من القرية في نيسان (ابريل) ١٩٧٠. وبعد رحيلنا ارسل الاردنيون رتلا مدرعا كبيرا استولى على القرية وهو يطلق النار في كل اتجاه لينشر بعدئذ بيانا يقول إن الاسرائيليين قد « طردوا » منها. وهذه التمثيلية المضحكة لم تضايق ابدا الشعور بالرضى الذي احسسناه كلنا لانه منذ خريف ١٩٧٠ عاد الهدوء الى الحدود من البحر الميت الى ايلات.

سألني صحافي ذات يوم اذا كنت اظن ان الجنرالات الاسرائيليين كانوا مختلفين عن الآخرين. اجبت انه على الصعيد العسكري الصرف يتساوى

جنرالات افضل الجيوش : فهم تلقوا جميعهم افضل تنشئة ممكنة وتمرنوا على فن الحرب واظهروا شجاعتهم بوجه عام. لكنَّ الجنرالات الاسرائيليين يتحملون مسؤوليات اوسع من تلك التي يتحملها زملاؤهم في الجيوش الاخرى. فالجنرال الاسرائيلي الذي يأمر جبهة ما يعتبر عادة ان مهمته تشمل اكثر من الصعيد العسكري. فهو يأخذ على عاتقه ايضا المشاكل الزراعية، وتطوير موارده المياه، وحسن سير الشبكة المدرسية، ودمج المهاجرين. فهو نوعا ما المدبِّر، المدير، المستشار المتطوع لكل ما يمت الى حياة المنطقة بصلة. ومعظم هذه المهمات لا علاقة لها بواجباته الرسمية، لكنه يقوم بها بكل رضاه. فهو يعلم ان السلطات المحلية او سكان التجمعات الريفية والمدنية التابعة لمنطقة امرته سيطلبون العون من اليد العاملة ومن التجهيزات التي تكون في تصرفه.

واذ كان الامر كذلك فاني لم أُفاجأ عندما تلقيت ذات يوم مخابرة هاتفية من منطقة العربة تقول لي ان جليدا ليليا يهدد بتدمير موسم البندورة المبكر، وهي زراعة خاصة بتلك المنطقة[١]. في الليلة نفسها جمَّع المعتمد العسكري كل العجلات المتوفرة ــ ليوزعها على مزارعي المنطقة. واذ كومت واحرقت احدثت بؤر حرارة خلصت الموسم. كانت ليلة تذكر، ولكن لم يجد احد غرابة في ان يُطلب من آمر كل الجبهة الجنوبية ان يحل مشكلة كهذه فيما كنا غارقين حتى أذنينا في حرب ضد مصر أو منظمة التحرير الفلسطينية.

ضمن اطار هذه المهمة عينها دعوت اليّ، في الاسبوع نفسه عندما تسلمت قيادة جبهة الجنوب. كبار موظفي وزارة الزراعة والشركة الوطنية لمياه ميكوروت ووزارة الاشغال العامة من اجل كشف عام لموارد المياه في المنطقة الشرقية من النقب. وقد سمحت لي هذه المقابلة بتحديد مواقع المياه الجوفية غير المستثمرة، خصوصا في منطقة العربة القاحلة وفي وقت لاحق بعد وضع حد لاذى منظمة التحرير سمحت هذه المياه الجوفية بريّ مساحات واسعة

(١) تنضج الخضار في وادي عربة ووادي الأردن في واخر الشتاء ــ من دون ان تكون موضوعة في خيام النايلون، فتسمى بالبواكير وتباع باسعار عالية ــ المترجم.

من الارض لزراعة بواكير البندورة والبطيخ وتشكيلة كبيرة من الثمار والبقول الخضر، وساهمت في ايجاد قرى جديدة. وكان ذلك الاختبار الاكثر اثارة للحماس خلال خدمتي كآمر للجبهة الجنوبية، وهو انجاز لا ازال افخر به اليوم كلما اجتزت العربة بسيارتي وتذكرت ما كانت عليه تلك المنطقة الحدودية من جدب وخطر ارهابي وكيف غدت اليوم بستاناً مزهراً.

وفيما كنا نخوض صراعا ضد الارهاب كانت منظمة التحرير تُغرق الاردن تدريجيا في ازمة جسيمة. ولم يكن في الامر ما يثير العجب بالنظر الى دعم الملك حسين لزمر الارهابيين في جنوب المملكة القاحل. وسيكون عليه ان يدفع الثمن غاليا في ١٩٧٠ عندما سيضطر الى الصراع من اجل حياته ضد منظمة التحرير الفلسطينية.

ولاضطرار العاهل الاردني الى الانحناء امام ارادة الدول العربية الاخرى، وجد نفسه في صيف ١٩٧٠ عالقا في الفخ. وفي ٩ حزيران (يونيو) حاول رجال عرفات اغتياله. وفي الاشهر التالية اخذ التوتر يتفاقم بين الجيش الاردني ومنظمة التحرير الفلسطينية ليبلغ ذروته في الاول من سبتمبر (ايلول) عندما حاول الفلسطينيون مرة اخرى اغتيال الملك. وهذه المرة هاجم الارهابيون موكبه في قلب عمان. فنشبت معركة بين المهاجمين والمدافعين. ونجا الملك حسين بفضل برودة اعصابه في اثناء المحاولة إذ اعاد حشر رجاله ليقوموا بهجوم مضاد.

في ١٧ ايلول (سبتمبر) ضرب الملك ضربته الكبرى مقتحما المخيمات الفلسطينية في شمال عاصمته. وقد افلت زمام الامور فسحق الجيش الاردني بلا شفقة الوحدات المقاتلة في منظمة التحرير، قاذفاً من دباباته ومدافعه ورشاشاته[١] المؤللة حمم نار جهنم. استولى الرعب المجنون على رجال عرفات

(١) ما زلنا نجهل الى اليوم عدد الفلسطينيين الذين قتلوا في هذه العملية، لكنّ تقديرات حذرة تشير الى ثمانية آلاف قتيل.

فهربوا طلبا للنجاة، ودخل معظمهم سوريا. واجتاز عدة مئات منهم الحدود هربا الى الاراضي الاسرائيلية. وتلقت قواتنا الامر بتسهيل دخولهم والقاء القبض عليهم، وحُظِّر عليها ارغامهم على العودة الى الاردن، واكثر من ذلك قتلهم حتى ولو كانوا اقدموا على عمليات قتل عديدة في اسرائيل.

لم يرد السوريون ان يكونوا شاهد زور على المجزرة المرتكبة ضد الفلسطينيين، فهددوا الملك حسين في ١٨ ايلول (سبتمبر)؛ وفي اليوم التالي انتشرت العساكر السورية على طول الحدود الاردنية؛ وفي صبيحة ٢٠ الجاري دخلت الاردن ارتالٌ من الدبابات السورية في اتجاه مدينة اربد وغيرها من مراكز القوة العسكرية الفلسطينية.

لم تكن كل هذه الاحداث تجري في فراغ سياسي. فقتل الفلسطينيين على يد الجيش الاردني والتوتر المتصاعد بين المملكة الهاشمية وسوريا كانا قد ولدا سلسلة من التدابير والتدابير المضادة اولا عند الحكومة الاميركية التي تقيم علاقات وثيقة مع الملك حسين ثم عند موسكو التي كانت تدعم في آن واحد سوريا ومنظمة التحرير التي اصبح وجودها نفسه مهددا.

ولكون اسرائيل حليفا للولايات المتحدة في المنطقة فانها كانت تلعب دورا رئيسيا في الاستراتيجية السياسية الدولية للرئيس ريتشارد نيكسون، وخصوصا في سياسة مستشار الامن القومي هنري كيسنجر. ولكن مع غزو السوريين الأراضي الاردنية لم نعد نحسب عاملاً اساسياً في المعادلة بل ان الجيش الاسرائيلي وقوته الجوية سيكون لهما الآن اهمية فاصلة في السياسة الاميركية. فبقاء الملك حسين على المحك، ووحدها القوات الاسرائيلية تستطيع ايقاف الارتال السورية المدرعة التي اصبحت تحتل شمال الاردن.

في ٢١ ايلول (سبتمبر) طلبت الولايات المتحدة من اسرائيل ان تعبئ قواتها؛ وهذا ما فعلناه بارسالنا سرا وحدات الى وادي بيت شان، مهددين بذلك جناح الارتال السورية. ولكن على رغم حذر تحركاتنا كانت دمشق

قد أُعلِمت بحشد قوات اسرائيلية، وكان القادة السوريون يفقهون جيدا معنى هذه الحشود؛ ولكون السوريين لا يرغبون كثيراً في المخاطرة بمجابهة مباشرة عادوا ادراجهم الى بلادهم، وفي ٢٣ ايلول (سبتمبر) غادرت آخر دبابة سورية الاراضي الاردنية.

بعد يومين كان هنري كيسنجر يوجه مذكرة رسمية للحكومة الاسرائيلية، هذا نصها : « انسحبت القوات التي غزت الاردن الى داخل الاراضي السورية، حسب آخر المعلومات الجديرة بالثقة. اننا نعتقد ان التدابير التي اتخذتها اسرائيل ساهمت الى درجة كبيرة في هذا الانسحاب. لذا نقدر حق قدره الجواب الاسرائيلي السريع والايجابي على مسعانا »[١].

اعتبر الاميركيون والاردنيون حل هذه الازمة بمثابة نجاح. وكذلك ابتهج معظم الاسرائيليين لما آلت اليه الامور. باستثنائي انا. كانت هيئة الاركان، قبل اصدار امر التعبئة، قد حللت بكل دقة الخيارات المتاحة لاسرائيل، وفيما كان معظم ضباطها مع الرد ايجابيا على الطلب الاميركي، كان اقلية — انا منها — ترى عدم التدخل.

كانت اسرائيل، في رأيي، معرضة لخطرين متميِّزين : الاول فوري، والآخر طويل المدى. فاذا تُرك السوريون اولا يهزمون جيش الملك حسين تصبح الاردن دولة فلسطينية — وهي ما كانته بالفعل من كل وجهات النظر، باستثناء اسمها. ففلسطين (او ارض اسرائيل) كانت تمتد في الماضي الى جانبي نهر الاردن، لكن البريطانيين قسموا في ١٩٢٢ البلاد الى قسمين ليقدموا القسم المعروف آنذاك بعبر الاردن الى حلفائهم، العائلة الملكية الهاشمية الآتية من المملكة العربية السعودية. وفي ١٩٧٠، كان ٧٠ الى ٨٠ في المائة من

---

(١) هنري كيسنجر، سنوات البيت الأبيض بوسطن، ليتل، براون، ١٩٧٩، ص: ٦٣١.

الشعب الاردني مؤلفا من فلسطينيين؛ وكانت الشخصيات الاكثر بروزاً في حياة الاردن السياسية والثقافية فلسطينية الاصل؛ وكذا الامر بالنسبة الى قوات البرلمان الاردني والى الوزراء الاكثر اهمية وحتى الى معظم رؤساء الحكومات في عمان. فلو انزلت منظمة التحرير الفلسطينية الملك حسين عن عرشه لاصبح الاردن رسميا كيانا سياسيا فلسطينيا.

من الاكيد ان تطورا كهذا من شأنه ان يطرح مشاكل جسيمة : فستكون اطول حدودنا مع بلد عربي راديكالي مدعو الى ان يصبح دائرا في فلك الاتحاد السوفياتي. لا يتعين على المرء ان يكون كاتبا بارعا ليفهم ما كان يعني هذا الامر لنا. فاسرائيل انهت توا عقد وقف اطلاق النار مع مصر. لذا كنت لا ازال اتذكر تردداتنا كلما كان علينا ان نتّخذ قرارا، لسبب وحيد هو ان الاتحاد السوفياتي متورط بعمق في هذه الحرب. فكم من مرة فكرنا في عملية ممكنة ضد صواريخ سام التي يشغِّلها خبراء سوفيات، ثم اعدنا النظر في قرارنا ؟ وكم من الشكوك كان علينا ان نتغلب عليها قبل ان ندخل المعركة مع المطاردات السوفياتية على طول القناة ؟ في الاردن : فخبرتي كقائد عام لجبهة الجنوب والمعركة المتواصلة التي خضتها ضد الارهاب الفلسطيني كانتا تنبآنني بهذه المخاطر.

لكن الخطر الآخر الذي يتوجب علينا مجابهته، حتى ولو كان سينفجر في وقت لاحق، هو المشكلة الفلسطينية التي لا بد ان تتفاقم مع الوقت؛ هذا ما كنت اقوله لزملائي في الاركان. فاذا كان الخطر الاول يبدو اكثر مداهمة على المدى القصير، فاني لا اشك في ان المشكلة الفلسطينية هي ما ستصبح على المدى البعيد آلة حقيقية. فاذا اتيحت لنا اذا فرصة حلها بايجاد دولة فلسطينية رسمية، فاني ارى وجوب ان ننتهز فورا هذه القصة ولا نفوّتها.

عندما فصّلت هذه القضية أمام زملائي في الأركان كانوا يتساءلون والشك باد على وجوههم حول قبول الفلسطينيين في عمان بوجودنا على نهر الأردن.

فكنت اجيبهم : « اني لا اظن ذلك ولو للحظة، لكنَّ المشكلة حينذاك ستنتقل الى رسم الحدود والى مشاكل تتعلق بالاراضي. ولا نعود نبحث آنذاك في الهوية الفلسطينية وفي حق الفلسطينيين بالتعبير السياسي ».

مع ذلك لم اكن ابخس حقَّ البراهين المضادة التي، بالاضافة الى القضية الفلسطينية، كانت تستند ايضا الى قضية علاقاتنا مع الولايات المتحدة، وهي قضية خطيرة جدا. ولكن فيما السياسة الخارجية الاسرائيلية كانت تأخذ في عين الاعتبار متطلبات وجودنا نفسه، فان البيت الابيض يسترشد في الحالة الحاضرة مصالحه الجغرافية السياسية. فاذا طرحت المشكلة على هذا النحو فان مسألة الاختيار بين هذين الخطين لا تعود مطروحة بالنسبة الي.

من هذا المنطلق قاومت دائما تدخلا اسرائيليا في الاردن. وكذلك دايان. لكن الاكثرية كان لها رأي مختلف، وهكذا اخذت الامور المجرى المعروف. واليوم ايضا، مع مضي الزمن، لا ازال مقتنعا بان اسرئيل اقترفت آنذاك احد الاخطاء الاكثر جسامة في تاريخها القصير ــ والاسوأ ان هذه الغلطة لا نزال ندفع نتائجها الآن.

كانت قناة السويس ووادي عربة اثنتين من مناطق القتال الثلاث العائدة لقيادة الجنوب العامة. اما المنطقة الثالثة، قطاع غزة، فقد كانت، الاكثر إثارة للمشاكل. فعلى الجبهتين الاخريين كانت الامور واضحة على الاقل : كان عندي خطة محددة لتأمين الدفاع عن سيناء ضد هجوم ممكن في كل لحظة للجيش المصري، وهذا على رغم التباين في وجهات النظر بيني وبين الاركان. وكان تنظيف وادي عربة يتطلب معيارا جيدا من الحكمة، لكننا في هذه المنطقة الحدودية غير المأهولة كانت امامنا خيارات لحلول عسكرية معقدة نوعا ما. وهذا ما لا ينطبق تماما على قطاع غزة. فمشكلتها الاساسية ــ الارهاب الفلسطيني ــ كانت تبدو للوهلة الاولى عاصية على كل تحليل.

في ١٩٦٧، عندما احتلت القوات الاسرائيلية قطاع غزة، كان عدد سكان

القطاع اربعمائة الف نسمة، منهم قرابة النصف لاجئون او ابناء لاجئين هربوا من اسرائيل خلال حرب الاستقلال. وكانت القوات المصرية والفلسطينية الموجودة في القطاع قد تفككت في اثناء حرب الايام الستة، لكن جماعات سرية استطاعت الهرب وراحت تعيث فساداً وهي مختبئة في خضم السكان وبين الثمانين الف فدان من بساتين الحمضيات الكثيفة.

كان بعض هذه الخلايا مكوَّناً من قدماء محاربي المنظمات الفدائية في الخمسينات، ذات المرجعية المصرية والتي سببت خراباً كبيراً في جنوب البلاد ووسطها. ولكن منذ ذلك الحين برز جيل جديد من الارهابيين. فالآن سيطر على الوضع رجال عرفات في منظمة التحرير الفلسطينية، وكذلك رجال جورج حبش في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وهو مستقل ينسق مع منظمة التحرير الفلسطينية على المستوى التكتيكي.

عند نهاية الستينات كانت هذه الجماعات تحاول ان تنتهج طرائق الفياتكونغ في حرب العصابات. وكانت تستلهم ايدلولوجيا بنوع خاص نظريات نغوين غياب حول الثورة الشعبية. وقد انشأت شبكة من القيادات العامة المحلية، على غرار متمردي فيتنام الجنوبية. ومن موقع القيادة هذه كانت ترسل دعاة الى الاوساط الشعبية لتطوِّع وتشغِّل خلايا سرية صغيرة مكلَّفة القيام باغتيالات او في لغتهم، مكلفة بتنفيذ « مهمات ». وكانت مراكز القيادة هذه تراقب شبكة الخلايا، وبدورها كان يديرها ملاك اقليمي يتلقى الاوامر والمعلومات والمال والاسلحة من اركان منظمة التحرير والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الاردن ولبنان وسوريا ومصر. ولتأمين هذا التزود وهذه المعلومات الاساسية لنشاط المنظمتين، كانت تتسلل الى قطاع غزة بالبحر وحدات صغيرة ومبعوثون سريون يُنزلون الى الشاطئ اسلحة وذخائر ومتفجرات، وايضا قتلةً محترفين بل قادة محنَّكين ــ باختصار كل ما يلزم منظمة حرب عصابات لكي تظل عاملة فتطلق عمليات منظمة. وكل هذه الاغتيالات وجرائم القتل والمذابح

كانت موجهة ليس فقط ضد اليهود بل ايضا ضد العرب المحليين الذين اصيبوا باكبر عدد من الضحايا.

كان موشيه دايان وزير الدفاع مسؤولا عن كل المناطق الخاضعة للادارة العسكرية، بما فيها قطاع غزة. وكان من اولى اهتماماته اعادة الحياة السوية الى الناس في القطاع — والمقصود بذلك خصوصا السماح لهم بان يستفيدوا من الخدمات العامة الاسرائيلية؛ فكان يمنحهم حرية التحرك ويفتح امامهم سوق العمل الاسرائيلية ويوفر لهم بنوع عام حظوظا لتحسين مستوى حياتهم. لم يكن يتوقع على الاطلاق ان يعلن سكان هذه المناطق — ولو على سبيل التظاهر — انهم سعداء تحت السيطرة الاسرائيلية. لكنه كان يظن ان عرب اليهودية، السامرة وقطاع غزة سيقتنصون الفرصة للاستفادة من سياسته، ما يتيح لهم ان يتعايشوا بسلام نسبي مع اليهود، في انتظار الحل.

هذه الاهداف بالذات هي ما اراد الارهابيون وأدها. لذا كان يضاعفون جهودهم لتخويف العرب من التعامل مع اليهود اكثر من اجتهادهم في تسبيب الاذى للاسرائيليين. لان نظرة دايان الى الامور كانت صائبة.

فانطلاقا من ١٩٦٧ عرف العرب ثورة اقتصادية حقيقية واضطروا الى الاعتراف، على رغم كراهيتهم للسيطرة الاسرائيلية، بان ظروف عيشهم لم تكن قط افضل مما هي الآن. بكلام آخر، لم يكونوا المحرومين(١) المثاليين الذين كان يحلم بهم عرفات وحبش.

فقد استخدم هذان الأخيران، الارهاب لقلب هذه المعادلة. ومنذ ١٩٦٨ عرف قطاع غزة سلسلة من الاعمال الهمجية — اختطاف، تعذيب، قتل — المخطط لها لإرعاب الناس واجبارهم على التخلي عن كل ارادة، ولو ضعيفة،

(١) ترجمة desperados الاسبانية، وتعني الشعب المسحوق الذي ينتظر سانحة لتثور ثائرته على حاكميه فتلتهب الثورة في ظهرانيه كالتهاب النار في الهشيم — المترجم.

للتعايش السلمي مع اسرائيل او على قبول فرص متاحة كانت قد غيرت الحياة جذرياً في كل قطاع غزة. وكان يتفق للارهابيين ان يهاجموا هنا وهناك جنوداً أو مدنيين اسرائيليين، لكنَّ هدفهم الاول كان أُناساً عرباً وجدوا عملا او امكانيات دراسية في اسرائيل، او كانوا يستفيدون من الخدمات الطبية الاسرائيلية، او كانوا يرفضون الانخراط في الخلايا الارهابية لرغبتهم في العيش بسلام فحسب. وكانت العبوات الناسفة توضع في الباحات وسيارات الأجرة الجماعية التي تنقل عمالاً عرباً الى عملهم في اسرائيل. وعائلات باكملها كانت تخضع للارهاب والابتزاز. وعندما سرت اشاعة ان فتيات هوى عربيات يقدِّمن معلومات لاجهزة مخابراتنا تم اغتيالهن بمنهجية ووحشية. وانصبت موجة عنف على كل المنطقة.

بما ان هدف هذه « الحملة » هو تخويف الشعب كان قتلة منظمة التحرير والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يلجأون الى الاساليب الاكثر ترويعا لقتل ضحاياهم. ومع ان منظر الجثث المشوهة والمعذبة غدا امرا يوميا الا انه كان كل مرة مؤلما. وفي كل مرة كان يعتري المرء شعور بانه يستحيل التفكير في بشاعات اكثر رعبا.

ولذا تصاعد الخلاف بين دايان وبيني. كان يرى ان وجودنا في غزة يجب ان يكون حذرا بقدر الامكان. كان يقول إن الامر لا يعنينا وليست القضية قضيتنا. ولن ينجح رجالنا ابداً في لجم عنف العرب المتبادل. وبدلا من المجازفة بحياة الجنود الاسرائيليين افضل « ان اتركهم يتذابحون » حسب قوله.

رفضت قطعا هذه النظرة الى الامور. فعندما اخذنا على عاتقنا ادارة هذه المنطقة قبلنا ضمنا بان نضمن حياة سكانها وامنهم، اكانوا يهودا ام عربا. هكذا رددت على دايان واضفت : اذا رفضنا تحمل هذه المسؤولية ولم نضع حدا للارهاب فسيأتي يوم يُقتل فيه اليهود مثلما يُقتل العرب اليوم.

بدأ جدالي مع دايان حول هذا الموضوع فورا بعد تعييني قائدا اعلى

لمنطقة الجنوب العسكرية. في نهاية ١٩٦٩. ومنذ البدء لم استطع قبول الطريقة التي تُعالَج بها الامور، وقررت في قرارة نفسي ان احل مشكلة الارهاب في قطاع غزة. ولكي اكون دقيقا اقول اني فكرت في ذلك بلا انقطاع، غير انني لم استطع ان اكرس نفسي لهذا الحل على الصعيد العملي، اذ كنت اكاد اجد الوقت الضروري لمعالجة مشاكل حرب الاستنزاف ووادي عربة. ولكن عندما كنت أفكر ولو قليلاً في وضع غزة كنت أُحسُّني أعزلَ لفرط ما هو معقّد. فالمنطقة مكتظة بالسكان وبساتين الحمضيات الكثيفة. وكان من السهل جدا على الارهابيين ان يندسوا بين السكان ويختبئوا بين البساتين. وما اكثر الاهداف التي كانت في متناول يدهم. ولم تكن عندي اي فكرة عن طريقة لمقاربة المشكلة.

في بداية ١٩٧١ كان وقف النار سائدا على طول القناة، وكان بناء التحصينات وطرق الوصول على وشك الانتهاء؛ وكذلك كدنا ننجح في اعادة الهدوء الى وادي عربة. ولكن في قطاع غزة كان العنف يبلغ اوجه على نحو لا مثيل له. كيف نعالج المشكلة؟ هذه المسألة كانت لا تزال تضعني على نقيض مع دايان. لكنَّ اعتداء وقع في ٢ كانون الثاني (يناير) من تلك السنة كان القشة التي قصمت ظهر البعير ودفعت دايان الى التدخل. ففي ذلك اليوم كانت تزور غزة عائلة من المهاجرين الجدد الآتين من انكلترا: دافيد وبريتي ارّويو مع طفليهما وابيغايل. وبعد دقيقة من ايقاف سيارتهما انفجرت قنبلة على مقعدها الخلفي فقتلت على الفور الولدين وجرحت الام جرحا بليغا.

اثر هذه الحادثة كان دايان في جولة تفتيش في بير جفجافة. اخذته على حدة وقلت له: «موشيه، اذا لم تباشر العمل الآن ستفقد السيطرة على قطاع غزة بلا ادنى شك». كنا نتجادل بعنف حول هذا الموضوع منذ سنة وظل كل منا متشبثا بموقفه. وهذه المرة لم يحصل اي خصام بيننا. رمقني دايان لحظة قبل ان يقول: «تستطيع البدء بالعمل».

بعد كل المناقشات والمنازعات واتفاقنا في الرأي على تعقيد هذه المهمة وصعوبتها لم يبق سوى هذه الكلمات الثلاث «تستطيع البدء بالعمل» التي كانت تعني لي الكثير. ومنذ سنوات كثيرة سابقة، عندما كنت على رأس فوج المظليين، قال لي دايان: «هل تدري لماذا اوكل كل هذه المهمات اليك من دون غيرك؟ ذلك لانك لا تطلب ابدا اوامر خطية. ضابط غيرك يطلب توضيحات محددة ومكتوبة. ولكن معك لا لزوم لذلك. انت تفعل ما يطلب اليك فعله فقط». مرت عشرون سنة على قوله هذا ولم يتغير شيء. فكل قائد آخر غير دايان كان يصوغ اوامره بدقة ومعطيات العملية المطلوبة. لكن دايان كان يكتفي بان يومئ اليّ ايماءة قد تكون غالبا تحريك رأسه وكان هذا يعني، كما في السابق: «افعل كما ترى الامر مناسبا. اذا نجحت فنعما النجاح لك وللجميع، ولكن اذا فشلت لا تأتِ تطلب دعمي».

الآن أُجابهُ للمرة الأولى مشكلة غزة على نحو جدي. والقضية هنا ليست عسكرية مألوفة، بل على العكس تماما. علينا ان نجد ونصفي سبعمائة او ثمانمائة ارهابي متغلغلين بين اربعمائة الف شخص. وذلك من دون ان نسبب معاناة للمدنيين. وكان ثمة نقطة اتفاق مطلق بيني وبين دايان: السماح للشعب بان يحيا حياة سوية بقدر الامكان. فهذا الهدف يحمل معنى عميقا على كل المستويات السياسية والعملية والادبية. بكلام آخر، كان ينبغي لي تنظيف قطاع غزة من قياداته العامة وخلاياه الارهابية من دون ان اوقف مجرى الحياة السوي.

وبديهي القول انني لن استطيع تجنب اللجوء الى القوة العسكرية. انما المهم ان اسلك هذا المسلك الوعر بحذر زائد متجنبا الاجراءات التي قد تخلط بين الابرياء والمذنبين.

بعد ان طرحت المشكلة على هذا النحو لم يكن عندي اي فكرة حول طريقة حلها. لذلك لم يبق امامي سوى ان ابدأ دراسة متعمقة لمشاكل غزة.

كنت اعلم انني ما ان اطلع في العمق على مشاكل المنطقة حتى تأتيني الافكار المناسبة لحلها.

كرست الشهرين التاليين للتردد المتواصل على القطاع وبساتينه ومخيمات لاجئيه. كنت انهض فجرا واتزود فطوراً خفيفا ومطرة ماء وأبدأ بالتجوال من منطقة الى اخرى، وفي رفقتي رئيسا استخباراتي وعملياتي. ويوما بعد يوم، وعلى نحو منهجي، فتشت كل متر مربع في كل مخيم لاجئين وفي كل بستان حمضيات. وكنت اعلم منذ حداثتي ان طرائق مزارعي الحمضيات العرب تختلف عن طرائقنا. والآن صرت اراقب عملهم باهتمام جديد. لاحظتهم يستخدمون آباراً يشغِّلها دولاب، مثل الآبار التي لا تزال محفورة في ذاكرتي. وكنت اراهم وهم يسقون الارض ويركشونها، وفي اثناء قطاف الثمر. وكنت لاحظت ان المزارعين العرب يقلِّمون ويشحلون اشجارهم اقل مما يفعل اليهود، ويتدخلون اقل منهم اجمالا في عملية النمو الطبيعية للاشجار. وهذا ما يعطي هذه البساتين الجميلة، ولكن الكثيفة جدا والمفرطة النمو. ولذلك كان يصعب على الوحدات العسكرية اجتيازها، وتبعا لذلك كانت تشكل مخابئ مثالية.

هذه الكثافة في البساتين نجدها على الصعيد البشري في مخيمات اللاجئين. فوسط هذا الجمع الحاشد كان من الصعب جدا، ان لم يكن من المستحيل، التمييز بين رجل ينتمي الى منظمة التحرير الفلسطينية ومدني آمن. كنت اتجول كل يوم في المخيمات وفي مدن القطاع. في الاسابيع الاولى احسست فعلا بعجزي الكامل امام هذا العمل الجبار الذي تعهدت انجازه والنجاح فيه وفيما بعد تبدد هذا اليأس شيئا فشيئا ليترك مكانه الخطوط الاولى لخطتي.

كنا نعرف ان المقرات العامة لمنظمة التحرير الفلسطينية مخفية في غرف محصنة تحت الارض وفي البساتين وفي بيوت في قلب مخيمات اللاجئين. وكنا نعرف ايضا ان منظمة التحرير تستند الى شبكة متواصلة من الاتصالات بين القيادة العليا خارج غزة وفروعها المحلية، وكذلك بين هذه الفروع والخلايا. وعندما بدأ مخبرونا السريون بالتعرف الى بعض الارهابيين قلت في نفسي

اننا إن استخدمنا النهج السديد قد نستطيع ملاحظة تحركاتهم، فاذا تتبعناهم ينتهي بنا الامر الى اكتشاف غرفهم المحصنة ومخابئهم الاخرى.

كان علينا اذا، في بادئ الامر، كشف كل مشتبه به وكل تحرُّك غير سوي. وهذا فن قائم بذاته، يتطلب معرفة عميقة للحياة اليومية. ولا يستطيع اي جندي اسرائيلي ان يعرف معرفة متعمقة كل قطاع غزة. وفي المقابل لا بد لوحدة معينة ان تكون قادرة على التآلف مع منطقة محدودة ومحدَّدة، بما فيه من بيوت سكن مع سكانها، وما فيه من آبار واشجار وشبكات ري، وفي اختصار بكل بناه. وبعد ان تسجل بدقة عادات الحياة اليومية في هذه المنطقة سيكون من السهل عليها نسبيا ان تلاحظ التحركات والحركات غير المعتادة او النادرة، والوجوه الغريبة، والتجمعات المتعذر تعليلها، ومعالم احداث دخيلة على السياق العام.

فيما كانت تتشكل خطتي جمعت عددا محدودا نسبيا من وحدات المشاة من ذوي المستويات الجيدة وبدأت ادرب رجالها على ضوء ما كنت اطلقت عليه اسم « حرب عصابات مضادة للارهاب ». قسمت اولا قطاع غزة الى « مربعات من ١٥٠٠×١٥٠٠ مترا واحيانا من ١٥٠٠×٣٠٠٠ متر، واقعة على طول تخوم طبيعية. اعطيت كلا من هذه المطلعات الرباعية رقما قبل ان اضعها تحت مسؤولية زمرة من الجنود قائلا لهم : « هذا المربع هو مشكلتك الوحيدة. فمهمتك تقوم على معرفته تمام المعرفة، وان تكتشف وتردي كل ارهابي موجود فيه ».

لم يكن في تعرفنا كتاب تعليمات او مراجع، وكان يتعين عليّ ان ارتجل « من العدم » واعلمهم كل شيء فيما اعلم نفسي. ولكي اتأكد من ان نواياي قد فهمت جيدا اهملت التراتبية لاتوجه مباشرة الى ضباط الصف من عرفاء ورقباء. في البدء، بعد استماعهم الى عرض لافكاري، كانت اسئلتهم تنم بوضوح عن عجز مساو للعجز الذي احسسته قبل شهرين. كانوا يقولون لي : « حسنا، نحن مسؤولون عن هذا المربع، ولكن كيف نجد الارهابيين ؟ »

فاجيبهم : « ثمة عائق ناجم عندكم عن كونكم في معظمكم من سكان المدن ولا تستطيعون التمييز بين شجرة ليمون حامض وشجرة رمان. وهذا النوع من الاشياء هو ما يتعين عليكم فعلا تعلمه ».

ما زلت اذكر اليوم الذي كنت اقف فيه على مرتفع في مواجهة بساتين البرتقال الخصبة الخاصة برشاد الشوّا، مختار غزة وأحد أكبر الملاكين العقاريين في القطاع (والذي كان يؤمّن ايضا الاتصال بين منظمة التحرير الفلسطينية المحلية والعالم الخارجي، وهو امر كنا لا نزال نجهله آنذاك)، سألت رؤساء الزمر : « ماذا تشاهدون ؟

ــ ماذا تريد ان تقول ؟ اننا نشاهد بستان برتقال.

ــ حاولوا تمييز التفاصيل، ماذا ترون في هذا البستان ؟.

ــ حسنا، فيه ايضا بعض اشجار البلح.

ــ جيد. ولكن لاحظوا جيدا هذه الاشجار بالذات.

ــ حسنا. لقد قطعت قمة شجرتين منها. قد تكون شجرتين عتيقتين....

ــ جيد جدا. عندما سندخل بستان البرتقال توجهوا اولا الى هاتين البلحتين.

ــ لماذا ؟.

ــ لانه علينا الا نترك اي هدنة للارهابيين، في المدن كما في الحقول. نحن نعلم انهم سيختبأون في البساتين. فعندما يخرجون من مخابئهم القديمة عليهم ان يتوجهوا الى مكان ما. قد يقترح احدهم : « نلتقي في بستان برتقال رشاد الشوا ــ نعم، ولكن اين بالضبط ؟ فهذا البستان كبير جدا. ــ حسنا، تحت البلحات. ــ ولكن يوجد اكثر من واحدة. ــ تحت البلحتين المشحلتين عند قمتهما ». وتابعت اقول : انهم يتنقلون بلا توقف. يلزمهم نقاط سقوط، « علب بريدية » سرية، مخابئ متفق عليها حيث يجدون رسائل

وتعليمات؛ وكذلك نقاط تزود. ولا بد لهم ان يشيروا الى كل هذه الاماكن. فاي وسائل سيستعملون ؟ يعطون تفصيلا يكاد لا يلحظ ولكنه ينفر في السياق العام للمشهد. ولهذا السبب، اذا شاهدتم شجرتي ليمون حامض في بستان برتقال، تفحصاهما جيدا. واذا لاحظتم شجرة ميتة بين اشجار خضر سجلوا ذلك ».

علمتهم تدريجا ان يضعوا انفسهم مكان الرجال المطاردين وان يراقبوا قسمهم من هذا المنظور. ودربتهم على تقنيات ميدانية مختلفة: ان يكونوا في حركة دائمة، الا يناموا ابدا في المكان ذاته، الا يدعوا الروتين يسيطر عليهم، ان يجددوا بلا انقطاع. قلت لهم ان الفكرة القائدة هي ان يخلقوا كل يوم وضعا جديدا بالنسبة الى كل ارهابي. امضيت سبعة شهور متواصلة في قطاع غزة، ليلا نهارا، معلما ومدربا بلا انقطاع، وفي حركة مستمرة. وذات يوم قطفت الثمار الاولى لجهودي.

مرت هذه العملية بثلاثة اطوار رئيسية. في الاول اعدت الجنود الى المدن والمخيمات التي كان دايان اخرجهم منها قبل عدة اشهر. واقمت في داخل المخيمات نظام دوريات ثابتة تغطي كل حي وكل زقاق. وبالطبع حاول الارهابيون مهاجمتهم. لكن الجنود كانوا مدربين جيدا ليس فقط على السلاح الابيض بل ايضا على تقنيات المطاردة.

وهكذا كان كل منهم يحمل في سيره حبلا الغاية منه كشف احدى الخدع التي يفضلها رجال منظمة التحرير الفلسطينية على ما يبدو : كانوا يبنون في البيت حيطا كاذبا ليختبئوا في الفراغ المحدث خلفه، داخلين من السقف. فبعد ان يقذف الارهابي قنبلته كان يختفي في احد هذه البيوت؛ فيطوق جنودنا البيت ويفتشونه عبثاً. ولكان في وسعهم ان ينسفوه لعلمهم ان من يبحثون عنه مختبئ فيه. لكنَّ ذلك كان سيكون منافياً لسياستنا: المحافظة على المدنيين واملاكهم. وهنا كان الحبل يدخل في اللعبة. كان الجنود يستعملونه لأخذ المقاسات الخارجية والداخلية للبيت. وعندما يوجد فرق بين المقاسين

ينحصر العمل في ايجاد الحجرة السرية التي كان يحتمي فيها عدّة ارهابيين. لم يصل بنا الامر الى قياس كل البيوت، اذا كان يكفي انتقاء بعضها عشوائيا. فكان الخبر ينتشر بسرعة فيعلم به الارهابيون فيضطرون الى مغادرة مخابئهم في محاولة للهرب ــ وهذا هو تماما ما كنا نريده.

بالاضافة الى هذه الحبال كان يوضع في تصرف كل زمرة سلم قابل للطي. ففي اثناء دورية في حي معين يتوقف رجالنا غالباً امام بيت مشبوه؛ وبدلا من قرع باب الحوش المغلق كانوا يلقون السلم على جدار السور وينظرون من وراءه ما يجري في الداخل، من دون ان ينطقوا كلمة. وسرعان ما كان اهل البيت يرفعون عيونهم ليشاهدوا جنديا يراقبهم. معظمهم كانوا يبدون دهشتهم، لا اكثر. ولكن اولئك الذين يؤمنون حمى لاحد الارهابيين كان يستبد بهم الذعر بسرعة ــ وكذا الامر بالنسبة الى الهارب.

بعد ان فهم رجالنا المبدأ اظهروا عن مقدرة في الاستنباط وراحوا يتنافسون لاكتشاف حيل جديدة. مثلا، كانوا يستقرون على سطح ليراقبوا بيسر التحركات في داخل احواش البيوت. او كانوا يتسلقون الاشجار في الاماكن التي من عادة العمال الزراعيين ان يأكلوا منها. فعندما يرفع احدهم عينيه بعد القيلولة او بعد قضاء حاجة طبيعية يلتقي نظره بنظر جندي اسرائيلي. فينتشر النبأ كلهيب البارود، وتزيد عليه وتضخمه المخيلة الشرقية : لم يروا جنديا اسرائيليا واحدا جاثما فوق شجرة، بل مائة، بل فوجا بكامله... وسرعان ما لوت كل اشجار قطاع غزة تحت ثقل الجنود ! بعض الاختراعات كانت مسلية ــ لكن نتائجها لم تكن اقل جدية من غيرها. في اختصار، احس الارهابيون بانهم واقعون في الفخ في المخيمات. وبدأوا يدركون انهم لن يستطيعوا الاحتماء فيها بعد الآن.

كان تواتر الاصطدامات المسلحة مع الارهابيين رهنا بشعورهم بالعجز. وكنا نتكبد خسائر، لكن الخط البياني للإرهابيين المصروعين صعد كالسهم وسرعان ما بلغ حدا منذرا بالخطر عندهم. وهكذا كنا ندخل الطور الثاني.

قام الطور الاول على فرض وجودنا في المخيمات وطرد رجال منظمة التحرير الفلسطينية منها. ومن الآن فصاعدا اصبحوا في ارض مكشوفة وكانوا يجهدون لمجابهتنا وسلاحهم في ايديهم. كان ذلك غرورا بلا جدوى حتى قبل ان يجربوا ! فما ان جربوا حتى فهموا بسرعة الاختباء اجدى لهم، خصوصا في تحصينات تحت الارض مموهة في بساتين الحمضيات.

كان اخراجهم من هذه المخابئ مهمة شاقة. فالتحصينات تحت الارض تكاد لا ترى. ويلزم لاكتشافها حس مخبر سري، فضلا عن معرفة دقيقة بالمنطقة التي كنت افرضها على كل جندي. لكن هذا الحس لا يُنقل بالعلم، فاما تملكه واما لا تملكه.

ما زلت اذكر كمينا كلفنا حياة احد جنودنا. عندما كنت اتفحص في رفقة مالك الارض العربي البستان الذي وقعت فيه جريمة القتل اصطدمت بوتر معدني منشَب في الارض. عندما سألت العربي عنه اجابني بانه وضع لتحديد الحدود بين بستانه وبستان اخيه. وكان احد افضل ضباطنا يسير الى جانبي. لم يرف له جفن عندما سمع الجواب على سؤالي. وعندما اختليت واياه قلت له : « لن يجعلني « اقبض » هذه القصة ــ انه مولود هنا. وهو واخوه يستطيعان التعرف الى كل شجرة وعيناهما مغمضتان. لقد مرت خمس وعشرون سنة على اشتغالي في بستان حمضيات ابي، وما زلت الى اليوم آخذ على عاتقي بنجاح تحديد بداية ارضنا وبداية ارض جارنا في قلب الليل ».

عدنا الى الوتد لنتفحص الارض بعمق اكثر، فميزنا دربا يكاد لا يرى وهو يتلوى بين الاشجار. وكان يُرى بوضوح ان احدهم ازاح اغصان الاشجار السفلى من الجانبين لتسهيل المرور. وصلنا بسرعة امام سياج حيث تبين لنا ان احد اوتاده البس علبة معدنية فارغة. وبعد بحث قصير وجدنا قسطل تهوئة لغرفة محصنة تحت الأرض، قرب شجرة خروع. وما مرت دقائق حتى كانت الدورية التي ترافقنا تجد مدخل المخبأ وتقتل الارهابيين الاربعة المختبئين فيه.

كان على مشاتنا اذا ان يلعبوا دور رجال التحري. ها هم يجدون آثار موقد مغطاة بالرماد. ففي اثناء الفطور يشعل العمال الزراعيون عادة نارا يتحلقون حولها ويشربون الشاي بالنعناع ويتشاركون في طعام الصباح في نوع من الأكل الأخوي. فإذا بحث الجنود جيداً يجدون بسهولة آثار هذه النيران. وهي في بعض الاحيان تغطى بالرمل او بالتراب ثم تمشط ويمشط حولها إخفاء للاثر. وعندما كان الجنود يتفحصون الارض بانتباه ينتهي بهم الامر غالبا الى اكتشاف قسطل تهوئة تحصين جوفي كان شاغلوه قد غادروه لوقعة الغداء التقليدية حول النار.

مع الوقت تعلم الجنود حيلا عديدة. لكن ذلك لم يكن كافيا. فمن اجل جمع حد اقصى من المعلومات نكّرنا جنودا يسهل الظن بانهم عرب — وهو امر صعب جدا على اليهودي : إذا يوجد لهجات عديدة في العربية، فضلا عن التعابير والايماءات النموذجية بكل منطقة. غير ان الامر ممكن لانه سبق لنا فعله في الماضي، لكن التنكر الكامل قد يقتضي سنوات، بينما الوقت يحشرنا.

لذا قررنا انشاء وحدات مختلطة من اربعة رجال او خمسة، منهم اثنان او ثلاثة يهود واثنان او ثلاثة عرب واحيانا بدو او دروز، او حتى ارهابيون القينا عليهم القبض ووافقوا على التعاون. كان دور العرب يقوم على التكلم، فيما انيط باليهود مهمة تغطيتهم والتدخل وقت الحاجة. وكانت هذه الفرق تجوب كل المناطق.

استخدمت كل الخدع الممكنة والتي تخطر على الخيال. من ذلك ان « ارهابيينا » انفسهم وجنودنا المتنكرين — سُربوا الى قطاع غزة بمركب آت من لبنان ومطارد من حوامات وفرق استقصاء؛ كنا نأمل هكذا بان يحاول الارهابيون الحقيقيون الاتصال بهم. وهذا ما حدث. كما اتفق لنا اكثر من مرة ايقاف سائق سيارة عمومية بتهمة السرعة الزائدة. فيجلس رجالنا في السيارة لدورة تفتيش في المخيمات بحثا عن ارهابيين مسلحين لا يترددون

في قتل العمال العرب الذاهبين للعمل في اسرائيل. كما اطلقنا في الاسواق رجالاً من «باعة الثمار والبواكير»، وفي مقاهي الرصيف رجالاً من شاربي القهوة التركية، وفي الشوارع رجالا متنكرين بمكارين يقودون حمارا. واحيانا كان « ارهابيونا » يلقون القبض على مشتبه به، فيسحبونه خارج بيته ويتهمونه بالتعاون مع اليهود. فيدافع عن نفسه مثل العفريت، مقسما انه « لم يتعاون معهم قط... ويشهد رئيسه على ذلك... » وهكذا نضرب عصفورين بحجر واحد، لاننا نوقف ايضا رئيس خليته. وكانت هذه الطريقة تسبب احيانا اوضاعا غير منتظرة : يركض اعضاء عائلة المشتبه به الى مركز الشرطة القريب او الى مركز عسكري، صائحين في الجهات الاربع ان الزوج او الابن خطفه رجال منظمة التحرير الفلسطينية؛ لان العائلات كانت تعرف ان هؤلاء — الحقيقيين — عندما يأتون لأخذ احدهم فان احدا لن يعود يراه. وفي احدى المناسبات بنى « ارهابيونا » حصنا تحتيا شغلوه « جديا ». كانت مخيلتنا تعمل بلا توقف لايجاد خدع جديدة، واضعين كل اليوم الارهابيين في أوضاع غير متوقعة، ما كان يحيِّرهم ويضطرهم الى الخروج من سريتهم.

لكنني استعملت ايضا طرائق مباشرة اكثر. فرجال منظمة التحرير كان يحلو لهم اختيار مخابئهم الجوفية تحت اسيجة الصبَّير الممتدة على طول طرقات غزة وفي بساتين عديدة. ترتفع هذه الاسيجة بسهولة ثلاثة امتار واكثر. ولانها سميكة ومحمية باشواك خطرة جدا تمنع الدخول اليها، تغدو عمليا غير قابلة للاختراق. فضلا عن ان انابيب التهوئة المخبئة فيها تتعذر رؤيتها.

من جهتي كنت مستعدا لاقتلاع اسيجة الصبير من كل قطاع غزة للوصول الى الملاجئ التحأرضية وشاغليها. لكن حاكمنا المدني كان على خلاف معي حول هذا الموضوع. كان يقول ان عملية كهذه تجمع الضرر الى عدم الجدوى؛ وكلما خربت احد هذه الاسيجة كان يذهب الى دايان يشكو في (الادارة المدنية لقطاع غزة كانت مرتبطة مباشرة بوزير الدفاع)، فيأمرني دايان بايقاف العملية حالاً.

كنت اجد هذا الموقف خاليا من المنطق تماما. فتصفية اسيجة الصبير لا تحدث اي ضرر حقيقي لبساتين الحمضيات، وجودا وانتاجا. ونحن من جهتنا متورطون في عملية ضد الارهاب على نطاق لم يسبق له مثيل، وبالاصح ضد قتلة من اردأ نوع، يعذبون بفرح اخوتهم العرب ويبيتون لنا المصير نفسه بالطبع. لم اكن سعيدا جدا باحداث بعض الاضرار في البساتين، مهما كانت طفيفة. ولكن بالنظر الى الهدف الذي نسعى اليه يجب الا تعطى الاولوية لهذه الاسيجة، اقله في نظري.

لذلك اعطيت تعليمات لرؤساء الكتائب أنه لدى بحثهم عن مشتبه به في منطقة معينة عليهم ان يصطحبوا معهم دائما جرافة. وهكذا عندما يصل الجنود الى مكان مثير للريبة ليس عليهم الا ان يحفروا المكان. وقد ظهرت هذه الطريقة ايضا فعالة. فعندما بدأت الجرافات تبرز الى العيان المخابئ الارضية هرب المختبئون في التحصينات الارضية المجاورة وقد استبد بهم الذعر لخوفهم من ان يُطمروا احياء.

اتخذت كذلك اجراءات امن اخرى. كانت المخيمات تُشغل مساحات ضيقة نسبيا، لكن الكثافة السكانية فيها كانت ضخمة. وقد انشأتها الامم المتحدة في العام ١٩٤٩ لايواء اللاجئين من حرب الاستقلال، الذين رفضت مصر دمجهم. في الواقع، لم يُعمل شيء لصالحهم خلال تسع عشرة سنة من الاحتلال المصري[1] ومع مرور الوقت كبرت العائلات واضافت غرفا وسقائف مائلة، خالقة اختناقا لا يترك بين الاكواخ، سوى ممرات ضيقة عرضها ثلاثة اقدام او اربعة. وهذه المتاهة كانت مثالية للارهابيين. لذا عمدت الى توسيع الشوارع

(١) كذلك الاردن، المسيطر على مخيمات اليهودية، والناصرة بالاضافة الى مخيمات اللاجئين الى ارضه نفسها، حذا حَذْوَ مصر في الامتناع عن عمل شيء لحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، مفضلا تركهم ينتنون في المخيمات من اجل ممارسة ضغط مستمر على اسرائيل. واعتمد لبنان وسوريا الموقف اللإنساني نفسه.

تسهيلا لعمل دورياتنا. واقتضى ذلك مسح عدد كبير من الاكواخ واعادة ايواء ساكنيها.

شرحت كل هذه الاجراءات للجنة وزارية اتت خصيصا الى غزة لتطلع بتقويم مختصر للصراع المناهض للارهاب. وفي تلك المناسبة اقترحت انشاء بعض القرى، كنوع من « العوائق » اليهودية، لتقسيم قطاع غزة. هكذا اوصيت ببناء تجمع سكني يهودي بين مدينة غزة ودير البلح، وآخر بين دير البلح وخان يونس، وثالث بين خان يونس ورفح، ورابع غرب رفح — وكلها على غرار مستوطنات اليهودية والسامرة، على ارض اميرية. اخذت الوزراء الى تلة مرتفعة لأشرح لهم على الطبيعة ما كنا في حاجة اليه. فاذا اردنا في المستقبل ان نسيطر على هذه المنطقة باي شكل كان علينا ان نؤمِّن منذ الآن وجودا يهوديا. والا فلا مبرر ذا قيمة لبقائنا هنا في الظروف الصعبة. وأضفتُ : فضلا عن ذلك، من الضروري التفكير في انشاء منطقة حاجزة بين قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء، تقف سدا في وجه عصابات المتاجرة بالسلاح — وايضا من منظور تسوية عتيدة مع مصر.

أبدى الوزراء ارتياحهم لما أُحرز من نجاح؛ كذلك اظهروا موافقتهم على مشروع القرى الجديدة. وعرضت عليهم اقتراحا ثالثا هو نفسه كنت قد عرضته شخصيا على رئيس مجلس الوزراء في حينه، ليفي اشكول، بعد حرب الايام الستة — وما رفضه. قلت لايغال ألون واسرائيل غاليلي وللآخرين انني ارى انه آن الاوان لحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين واني مستعد ان آخذ الامر على عاتقي.

يقوم جوهر خطتي على التخلص من مخيمات اللاجئين، مهما كانت. ومع ان الامم المتحدة تسندها ماديا وعلى رغم النمو الاقتصادي والتعليمي الملفت للنظر الذي عرفته المخيمات منذ ١٩٦٧ فانها لا تزال تسبب لنا مشاكل خطرة — وهذا ما ستفعله ايضا في المستقبل. وتكون اسرائيل هي الرابحة اذا ألغتْها الى الابد؛ وهذا امر قابل للتحقيق، في رأيي.

حددت فكرتي فقلت للوزراء ان ما بين المائة والستين الف لاجئ القاطنين في المخيمات يجب اسكان سبعين الفا في المدن التي سنبنيها في هذه المنطقة، مكرسين للمشروع الموارد الضرورية لبناء مساكن وتأمين حياة سوية لهم. ونسكن سبعين الف لاجئ آخر في مدن اليهودية والسامرة. وهذا ممكن التحقيق من دون صعوبات كبيرة. يتعين فقط ان نؤمِّن لهؤلاء الناس شروط سكن لائقة، وتنشئة مهنية وكل ما يلزم من اجل دمجهم على نحو متناغم في بيئتهم الجديدة. في اختصار، علينا ان نهدف الى اعادة المهجر الى حياة سوية وكسر الحلقة الجهنمية «فقر/يأس» التي كانت نصيبه منذ ١٩٤٩.

وشرحت فكرة اخرى: لنبرهن عن حسن نيتنا وعن تعلقنا بالقيم الادبية اوصيت باختيار عشرين الى ثلاثين الف لاجئ من قطاع غزة، ممن لم يكن لهم اي اتصال مع منظمة التحرير بل ربما كانوا هم انفسهم ضحايا الارهاب، لإسكانهم داخل حدود اسرائيل قبل ١٩٦٧: في الناصرة وعكا والرملة وامكنة اخرى، حسب قدرة هذه الاماكن على الاستيعاب. في الواقع، لا خسارة من قيامنا بهذه البادرة؛ بل على العكس، لا ينتج منها الا الربح. (بالمناسبة، لا اعتقد ان هؤلاء اللاجئين يستحقون اي حق بالعودة. فوضعهم هو نتيجة حرب هم انفسهم شنوها؛ وقد ظلوا في المخيمات بسبب رفض البلدان العربية دمجهم في مجتمعاتها، فيما كانت اسرائيل تستقبل في ذلك الوقت بذراعين مفتوحتين قرابة مليون يهودي اضطروا الى الهرب أو نفوا من مواطنهم في الدول العربية).

لن يكون امرا سهلا تصفية مخيمات اللاجئين — وهي تتطلب ايضا وقتا اقدره بقرابة عشر سنوات. غير انه كان بودي ان اعتقد ان المشروع قابل للتنفيذ اذا بادرت اسرائيل الى تبنِّيه وساعدت في انجاحه دول اخرى ومنظمات دولية. يضاف الى ذلك ان مشروعا كهذا، باطلاقه ورشة في قطاع البناء وخلقه اعمالا جديدة، انما يعد بنهضة اقتصادية.

بالاضافة الى تصفية المخيمات قلت ايضا للوزراء ان الوقت قد حان لتسوية مشاكل اللاجئين البعيدة المدى، مثلا التعويضات عن الاملاك العقارية. وكان الموقف التقليدي لاسرائيل هو الآتي: بما اننا استقبلنا قرابة مليون لاجئ يهودي من البلدان العربية، فان من واجب العالم العربي ان يمتص اللاجئين العرب. وبما ان المهاجرين اليهود — على غرار اللاجئين العرب — تركوا املاكهم وراءهم، يجب اعطاء التعويضات وفق مبدأ المعاملة بالمثل. ولكنني اضفت: مع ان موقف اسرائيل من هذا الموضوع لا يشك احد بنزاهته، اقترح ان نتخطى مبدأ المعاملة بالمثل فنقبل بتلبية المطالب المشروعة لعائلات لاجئين فلسطينيين منذ اللحظة التي يستقرون فيها بطريقة ثابتة في بلدان اخرى. ولست اشك في امكانية ايجاد صندوق مخصص لهذه الغاية، واذا كان يتطلب المشروع رؤوس اموال كبيرة فاننا نستطيع جمعها من مصادر مختلفة، بما فيها الجاليات اليهودية في الخارج.

لكن سيناريو ١٩٦٧ تكرر في ١٩٧١: لم استطع اقناع غولدا مائير، رئيسة الوزراء الحالية، مثلما عجزت في الماضي عن اقناع ليفي اشكول. على صعيد الامن، قُبلت اقتراحاتي بلا تحفظ وبحماس تقريبا: توسيع الممرات في المخيمات وانشاء مستوطنات يهودية. لكن الوزراء لم يريدوا سماع شيء عن ايجاد حل لمشكلة اللاجئين، وخصوصا لإقامة قسم منهم في الاراضي الاسرائيلية. لا بل استدعيت الى مكتب دايان ليسمعني ان مشروعي فاسد من اساسه وان قبوله قد يخلق سابقة خطرة من التنازلات الاحادية الجانب تخالف سياسة الحكومة التي تطالب بتسوية شاملة للقضية.

لم ارفض طَرْحَ دايان كلية. اذ كان صحيحا ان موقف اسرائيل الرسمي كان يستند الى وقائع والى منطق اكيد، فيما تفترض اقتراحاتي سيرورة معقدة من شأنها ان تثير مشاكل حقيقية. غير اني لم افقد اقتناعي بصوابية هذه الاهداف حتى ولو كانت الحكومة تفكر بطريقة اخرى.

يمكن اختصار نجاحي الاكبر في قطاع غزة على الوجه الآتي: بعد سبعة

اشهر من الحضور — من تموز (يوليو) ١٩٧١ حتى شباط (فبراير) ١٩٧٢ عاد سكان هذه المنطقة، الى الحياة السوية. وخلال هذه المدة قتلنا ١٠٤ ارهابيين واوقفنا سبعمائة واثنين غيرهم — في الواقع، كل الذين كانوا يُعيثون فسادا في المنطقة. (وكان آخرهم رئيسهم العسكري زياد الحسيني الذي انتحر في بيت رشاد الشوا، مختار غزة، حيث كان يختبئ)، ودفع الشعب لقاء هذا النجاح ثمنا يكاد لا يذكر، قتل مدنيان من غزة خطأ خلال هذه الاشهر السبعة: امرأة استخدمها الارهابيون درعا بشريا في اثناء تبادل اطلاق نار، ورجل اطرش قتله رجالنا خطأ بعد ان انذروه بالوقوف — ولم يسمع !.

خلال هذه المدة عينها نجحنا في تثبيت الهدوء الذي بذلنا الكثير من الجهود من اجله. والقرى اليهودية التي بنيناها قطعت الطريق على تهريب السلاح الآتي من شبه جزيرة سيناء. كذلك نجحنا في قطع دابر التسللات عن طريق البحر. وقد تطلبت هذه المهمة إقامة نظام شديد التعقيد لتسجيل قوارب مئات الصيادين في قطاع غزة ومراقبتها. وكانت العملية قسرية جدا وقد ازعجت الصيادين كثيرا. لكنها وضعت اخيرا حدا لتهريب السلاح بحرا.

وثمة صعوبة اخرى تغلبنا عليها : المجابهات بين جنودنا والطلاب، وهو موضوع شاق منذ بضع سنوات. كنت قد اعطيت تعليمات قاسية جدا لرجالنا حول الموضوع، وحرمت عليهم دخول المؤسسات المدرسية. فالقضية في نظري قضية مبدأ. ولكن تجنُّباً لرمي الطلاب حجارة على جنودنا ولاقدامهم على اعمال استفزازية اخرى استدعيت كل الاهل الى اجتماعات في المدارس لأشرح لهم سياستنا. قلنا لهم انهم مسؤولون شخصيا عن اولادهم. وشرحت قائلا اننا لن نقبل بان يرشق التلاميذ حجارة على رجالنا او بان يضرب رجالنا التلاميذ. فاذا شوهد تلميذ يرشق جنديا بحجر فان اباه او اخاه البكر سيتحمل نتائج هذا العمل : يُعطى رغيفا ومطرة وغطاء رأس وبعض الدراهم الاردنية وراية بيضاء، ويرافقه الجنود حتى الحدود الاردنية؛ حيث يعيّنون له المدينة الاردنية الاقرب التي يتعين عليه الذهاب اليها.

وهذا ما عملناه. طردنا، في مناسبتين مختلفتين، اقل من ثلاثين شخصا؛ وهو ما كان يلزمنا لاعادة النظام. لم يعد العساكر مضطرين الى ضرب التلاميذ او اطلاق النار عليهم؛ والتلاميذ لم يعودوا يلقون الحجارة على الجنود. لقد اثمرت اجتماعاتنا، فسمعنا اكثر من مرة في شوارع غزة اهلا يعنفون اولادهم بقسوة، فلا أحداً يرغب في ان يُطرد نحو الاردن ولا يبدو ان أحداً يطيق سوء سلوك ولد من نتائجه الطرد.

كنت راضيا بوجه عام عن نجاحاتنا في غزة. لقد اعدنا السلام الكلي لمنطقة كانت تحت رحمة عصابات ارهابية (وحقبة الهدوء هذه دامت مدة طويلة لان غزة لم تعد تعرف عمليا اعمالا ارهابية طوال السنوات العشر التالية). وللحصول على هذه النتيجة، كان علينا ان نستنبط حلولا في استمرار، واكثر من ذلك: ان نعقد العزم على محاكاة الارهابيين لردِّ كيدهم الى نحرهم. وكان علينا ايضا ان نكافح ضد خمول الجيش وضد ميل كل جيوش العالم، الذي لا بد منه، الى التقيُّد بالاوامر الصارمة وبالروتين، وهما صفتان على العسكريين ان يتخلصوا منهما كما من ثياب رثة حالما يتدربون مجددا كـ « محاربي عصابات ضد الارهاب »، كما أسميتهم، اي كجنود غير نظاميين قادرين على خلق « وضع جديد لكل يوم ولكل ارهابي ».

قبل يوم الغفران كنت اظن ان العملية المناهضة للارهاب في قطاع غزة تشكل احد الاختبارات النموذجية في مهنتي كجندي. ومن الاكيد انها كانت اكثرها اهمية؛ فهي أعادتني بطريقة ما الى نقطة انطلاقي : تركيز التكتيك في حرب العصابات. كما برهنت لي كذلك انه من الممكن ايجاد حلول لأكثر المشاكل قساوةً وتعقيداً، مهما بدت هذه الحلول بعيدة عن السراط المستقيم. وفوق كل ذلك، برهنت هذه الحملة المضادة للارهاب — اقله بالنسبة الي — ان الارهاب ليس داء لا شفاء منه، وان الشعب مهما مُورِسَ عليه من تخويف، يستطيع التخلص من قيود منظمة التحرير الفلسطينية التي تعتبر التخويف بمثابة الاداة الشرعية لسياستها.

في احد ايام شباط (فبراير) ١٩٧٢ كنت جالسا ارتاح في منزلي واتتبع جريدة التلفزيون. فجأة سمعت موشيه دايان يعلن ان « الوسائل التي استخدمها الجنرال اريبل شارون في قطاع غزة برهنت انها الاشد فعالية » وان « عمليته المضادة للارهاب في هذه المنطقة قد لقيت نجاحا خارقا ». وفيما كان يكمل تقريظه تحولت مفاجأتي الى الريبة. كنت اعلم كفاية كم ان دايان شحيح بالثناء، خصوصا امام الجمهور.

راودني الشك فاتصلت حالا بالهاتف بقيادتي العامة وقلت لرجالي ان يكونوا مستعدين لشيء غير مألوف. وفي صباح اليوم التالي تلقينا امرا بنقل مسؤولية قطاع غزة من قيادة الجنوب العامة الى قيادة الوسط العامة. كنت اعرف كيف افسر رسالة دايان هذه. فهي تعني في لغته : لقد قمت بعمل جيد فافرح بذلك. ونجحت في تصفية الارهابيين واعادة مجرى الحياة السوية في هذه المنطقة. نرفع لك قبعاتنا. ولكننا اليوم نسلم هذه المسؤولية الى آخر...»

الوداع

كانت الضفة المصرية لقناة السويس في سنتي ١٩٧١ و ١٩٧٢ مسرح نشاط محموم في ظل وقف اطلاق النار. ومن جهتنا كنا نتابع عن كثب اعمال بناء تحصينات خرسانية، وبناء مواقع مدفعية، ونقل الصواريخ، وإعداد اماكن انزال بحري لسيارات برمائية. وفي بعض القطاعات اقام المصريون على ضفتهم ستائر رملية ترتفع الى اكثر من ثلاثين مترا. وعلى رغم مزالق مدفعيتنا وتحصيناتنا الخاصة كنا نعلم اننا عرضة للمراقبة في كل لحظة وان حركاتنا وسكناتنا الاقل اهمية كانت محصاة علينا. وكانت قواعد البطاريات المصرية المرتفعة تهدد كل منافذنا؛ فكنا نشعر اننا عراة تماما امام انظارهم ومدافعهم، مع أن قذائف المدفعية والكمائن توقفت.

كنا نستطيع ايضا مشاهدة الوحدات المصرية الخاضعة لتدريب مكثف. كانت تكرر بلا انقطاع تقدم الدبابات والمشاة حتى ضفة القناة، وتنشر تجهيزات ثقيلة وتبني جسورا، معيدة تمثيل اطوار انزال على الضفة الاخرى بكل تفاصيلها. ولكي يحل المصريون المشكلة، التي تطرحها عليهم سواترنا المنحنية السطح كانوا يتمرنون منهجيا على ثقب حواجز التراب والرمل بواسطة نوافير ماء قوية. وفي جنوب القنطرة، حيث تفترق القناة الى فرعين لتلتف حول جزيرة البلح الاصطناعية، انشأ المصريون نماذج من سواترنا الحاجزة ومن تحصيناتنا من اجل مناوراتهم للعبور. وهكذا تسنى لنا مئات المرات مشاهدة التمرين

ذاته : تشطيط القوارب، ثقب السواتر الحاجزة، جسور مرمية فوق الضفتين ومرور الجنود المصريين الى سيناء.

ما كان يقلقني بنوع خاص هو الترتيب والنظام اللذان يبدوان سائدين في اثناء هذه المناورات. والضباط الحاضرون ميدانيا صاروا اكثر عددا مما كانوا في الماضي، وفاعليتهم لا تدع مجالا لاي شك. وكانت حركاتهم تنمّ عن عزمهم، وكان اقل تفصيل يُظهر أنَّ كل شيء مخطط له ومنظم بدقة. وكنت لاحظت ان ازياء الجنود الميدانية تتجاوب كفاية مع ظروف المحيط والوانه في مختلف القطاعات لتؤمِّن تمويها جيدا. وفي اختصار، بدا واضحا ان المصريين تغيروا جذريا منذ حرب الايام الستة. واصبحنا الان حيال عدو يحفزه هدف محدد جيدا، وهو قادر تماما على تحليل المشاكل وحلها، ودائب على بلوغ اهدافه من دون ان يهمل اقل تفصيل. كنا بعيدين جدا عن « جيش سروايل الحرير » الذي عرفناه منذ خمسة اعوام.

وكانت هذه التغييرات قد بدأت تظهر في حرب الاستنزاف. فلقد لاحظنا آنذاك ان الكمائن والغارات المصرية على ضفتنا تجعل دائما تجاه مراكز المراقبة عندهم (كانت هذه الاعمال تتبع نسقا لا تحيد عنه حتى اننا كنا نعرف مسبقا الاماكن التي ستنطلق منها الهجمات). ومن جهتي، كنت اشعر ان هذا التصرف يدل على مشكلة المصريين : فقدان المبادرة. فعندما يعمل المغاوير المصريون في مواجهة مراكز المراقبة كانوا يشعرون بانهم ملاحقون ومراقبون، فلا يمكنهم ايجاد ذرائع لانسحابات او خيبات غير مبرَّرة.

فهمت من ذلك ان المصريين كانوا يعرفون نقاط ضعفهم ويجهدون لمعالجتها. كانت تلك مقاربة جديدة لم اعهدها فيهم في الماضي، وهي تدل في نظري على تغيُّر عميق في ذهنيتهم العسكرية؛ وهذا التغيُّر بدأ يُترجم نتائج ملموسة. ومع ان وقف اطلاق النار وضع حدا لغارات مغاويرهم كنا لا نزال نجد آثاراً لمرورهم بضفتنا. إذ كان رجالهم يعبرون القناة تحت جنح الظلام ليتعرفوا

عن كثب على مواقعنا ثم يعودون الى قواعدهم. فاداءات كهذه تبرهن عن تقدم لا نستطيع انكاره.

لم يكن من شأن ملاحظاتنا ــ ملاحظاتي الخاصة وملاحظات ضباط آخرين من قيادتي العامة ــ الا ان تؤدي الى نتيجة وحيدة : ان المصريين يستعدون جديا لعبور القناة. ولهذا لم اشك في جدية نوايا الرئيس انور السادات عندما وعد في العام ١٩٧٢، وهو يلقي خطابه التقليدي في رمضان، قائلا : « سأباركم السنة المقبلة في سيناء ». (كان السادات قد خلف في رئاسة الجمهورية الرئيس عبد الناصر الذي وافاه الاجل قبل سنتين). وعلى عكس معظم الاسرائيليين اعتبرت العرب دائما جديين كثيرا، ينتهي بهم الامر اجمالا الى تحقيق ما يقصدون عمله. صحيح ان عنصر الوقت عندهم لا يخضع للمنطق الغربي، لكنهم في نهاية المطاف يترجمون اعمالهم الى افعال. وفي الحالة الحاضرة لم اكن اشك لحظة في انهم سيهاجمون عندما يرون الوقت مناسبا لذلك.

لكنَّ هذا الرأي لم يكن يلقى قبولا عندنا، فبعد حرب الايام الستة ساد الاعتقاد وفي اسرائيل ان العرب عاجزون عن خوض حرب حديثة؛ وايضا ان التفوق الاجتماعي والتكنولوجي والصناعي في اسرائيل كان بيِّنا بحيث لا يترك لهم اي امل في امكانية ردم الهوة. ألم تعلن غولدا مائير نفسها ان « مجرد فكرة ان يستطيع الجيش المصري عبور القناة هو اهانة للعقل ! » ؟ من جهتي، لم ابخس المصريين قط قدرهم، وجاءت خبرتي على الجبهة تدعم هذا الرأي.

اهانة ام لا للعقل، كنا نتابع استعداداتنا الخاصة فيما المصريون يتدربون. انتهينا من بناء طريقين استراتيجيتين موازيتين للقناة ــ الواحدة على طول سلسلة التلال على بعد ٨ كيلومترات الى ١٢ كيلومترا الى الشرق (طريق المدفعية)، والثانية على بعد خمسة وعشرين كيلومترا الى الوراء (الطريق الجانبية). فاذا اضفنا اليهما الطريق التي بناها البريطانيون على طول مجرى الماء (المعروفة باسم الشيفرة « ليكسيكون ») نحصل على شبكة مواصلات

كافية في الاتجاه الشمالي الجنوبي. انطلاقا من هنا رسمت سلسلة من الطرق الصغيرة المتجهة شرقا وغرباً لتصل الطريقين الموازيتين بالقناة. وكانت كل هذه الشبكة تسمح لنا بان ننقل قوات بسرعة نحو اي قطاع كان. والواقع ان نظاما كهذا للدفاع المتحرك هو النموذج الذي كان علينا اتباعه في رأيي.

انتهينا من بناء خط التحصينات على القمم والكثبان شرق سهل القناة. في اثناء ذلك كنت اتابع معركتي الشخصية ضد حُصَيْنات خط بارليف. كانت القضية خاسرة، ومع ذلك توصلت بإلحاحي الى اغلاق عدد لا بأس به منها، اي اربعة عشر حصينا من اصل اثنين وثلاثين، وهو ما يُعتبر نجاحا بالغا اذا اعتبرنا ان مؤيدي خط بارليف لا يزالون الاكثرية. فاكثر ما كنت اخشاه هو ان تتحول هذه الحصينات الى فخاخ مميتة في حال هجوم مصري، ما يضطرنا الى دفاع ستاتيكي ومجزّأ. هذا وانني كنت احتفظ في أدراج مكتبي بخطط احتياطية جاهزة لإخلاء الحصينات عند الإشارات الاولى لعبور القناة. لكن وقتي كقائد اعلى لجبهة الجنوب كان يشرف على نهايته — حوالي منتصف ١٩٧٢. وكنت اتساءل كيف سيتصرف خلفي؟.

في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ ترك حاييم بارليف مكانه لدافيد اليعازر على رأس الاركان. كان اليعازر يلقب بـ « دادو » في اوساط الجيش، وهو من انصار بارليف. خدما سوية في ما مضى في صفوف البالماخ، ومنذ ذلك الحين لم ينفصلا. وفي احد ايام الصيف من تلك السنة اعلمني اليعازر انهم كانوا ينتظرون استقالتي...

لم يكن عمري آنذاك الا خمسة واربعين عاماً، لكنه عمر التقاعد في الجيش كما حدده موشيه دايان عام ١٩٥٤، انطلاقا من المبدأ القائل ان الضابط في عامه الخامس والاربعين يظل شابا ليتخذ له مهنة اخرى، وآخذا ايضا في الاعتبار ان هذا الاجراء من شأنه ان يساهم في ضخ دم جديد ديناميكي في اوساط الجيش عبر الضباط الشباب ذوي الدينامية الجياشة والافكار الجديدة.

وظلت هذه القاعدة سارية المفعول حتى بعد رحيل دايان من هيئة الاركان. غير انه في نهاية الستينات تغيرت الامور. وعلى رغم ذلك افهمني ألعازر بوضوح انه ينتظر رسالة استقالتي. وفي الواقع، كنت واحد من بين أواخر الضباط الكبار الذين تركوا الزي العسكري وفقا للتعليمات القديمة.

كنت قد واجهت بجدية امكانية عمل جديد. كنت لا ازال اجهل ما ساعمل، لكنَّ شيئا كان اكيدا : لن اعمل لحساب احد. وخطرت السياسة على بالي كواحدة من السبل الممكنة. لم اكن قد نسيت « غزلي » العابر مع مناحيم بيغن في العام ١٩٦٩، وكان عالم السياسة يثير فضولي. لكن مشروع « العودة الى الارض » والحياة في وسط ريفي كان يبتسم لي اكثر. فالزراعة كانت، الى جانب مهنة السلاح، النشاط الوحيد الذي كان يلائمني اكثر من غيره والذي كان يستطيع ارضائي.

ولكن لم تكن عندي اي رغبة في العودة الى المزرعة العائلية في كفر ملال. فالنظام الجماعي السائد في الموشاف لم يكن يعني لي شيئا. كنت اتوق الى العمل في ارضي الخاصة لافعل ما يحلو لي. وكانت ليلي توافق بلا تحفُّظ على مشروعي؛ غير ان همي الوحيد كان ان اجنب نفسي التجربة المذلة التي يعانيها الكثير من الجنرالات المتقاعدين : بعد تركهم الجيش كانوا يمضون نهاراتهم في مقاهي الرصيف في تل ابيب، على امل ان يُعرض عليهم عمل ما. ولقد ظلت تقول وتردد على مسمعي طوال سنوات : « عندما ستعود الى الحياة المدنية اريد ان استطيع إجابة طالبيك على الهاتف : انه في الحقول... سيعود لطعام الغداء او ايضا : خرج على حصانه، سيكون هنا في المساء... ».

وضعت هذه الخطة في رأسي وبدأت ابحث. وبعد ان جبنا البلاد طولا وعرضا وجدنا اخيرا مزرعة معروضة للبيع في احدى المناطق البرية في شمال النقب — وهي منطقة كان معظم الناس سيجدها قاحلة.

هنا وهناك كانت بعض « الاشجار المعزولة والجافة تجهد للبقاء في ارض عاقة. وكانت الوديان العميقة جافة تماما. لكنّ النباتات التي تنمو فيها وشقوق جوانبها تُظهر بوضوح ان سيولا عارمة تثور فيها شتاءً فيبلغ منسوبها مترين الى مترين ونصف المتر. استهالني هذا المكان فورا بجماله الوحشي وتبايناته العنيفة وطقسه المتطرف. وكان احد صهيونيي استراليا قد ابتاع هذه الارض قبل عدة سنوات ليحقق حلمه بان يشاهد ابنه راعياً في اسرائيل. لكن المزرعة عرفت بدايات صعبة. وفي الخمسينات كانت المنطقة ضمن نطاق عمليات الارهابيين المتسللين من قطاع غزة، مما أوقف نموها. وفيما بعد، عاد الابن وزوجته الى استراليا نتيجة صعوبات مالية. وهكذا فلئن كانت المزرعة لا تزال تعمل الا انها كانت في حالة يرثى لها.

في نظري، إن ما جذبني إلى هذا المكان، وحشته ورهبته. فما كدت أحوطه بنظري حتى شعرت بانفعال شديد : فالمزرعة تقع قرب الطريق المؤدية الى كيبوتز روحاما، حيث بدأت مهنتي العسكرية قبل سبع وعشرين سنة. شاهدت مجددا البئر القديمة في وسط الحقل، حيث كانت فصيلتنا تأتي لتشرب. وكذلك الوديان والتلال نفسها ومجاري السيول التي تآكلتها عوامل التعرية، وكل ما شكّل معها مسرح تمريناتنا. كانت كل المنطقة تبدو شبيهة بما الفته في صيف ١٩٤٥. وقد اتخذت قراري بان هذا المكان هو فعلا ما ابحث عنه فيما كنت اتجول في جواره.

ولكن كيف الحصول عليه ؟ لقد ورثت عن والدي قيما روحية حقيقية يرغب فيها كل ولد، ولكني لم ارث قرشا واحدا ! لان هذا القرش كان دائما ذاك الذي يصل الشهر المقبل بالشهر المنقضي. ولقد قضيت عمري كله في خدمة العلم وعشت بالطبع من المرتب المتواضع للضابط المحترف. ولم نكن قد ادخرنا اي مبلغ . واليوم بعد ان جُلْتُ على المصارف اكتشفت ان مواطنا بسيطا مثلك ومثلي لا يستطيع في اي حال الحصول على قرض

شخصي لشراء مزرعة. وحدها الكيبوتزيم والموشافيم(١) تستطيع الحصول على قرض مماثل. اما ان يبلغ الادعاء بفرد ان يرغب في ممارسة الزراعة على نطاق واسع، فذلك خرق للعادات المترسخة. وفي هذه الحال لا يمكن اعطاؤه قرضا ماليا.

اخيرا انبرى لمساعدتي صديق تعرفت اليه قبل عدة سنوات في رامات غان. ففي عام ١٩٥٤ تبنت هذه المدينة فوج المظليين. وبصفتي قائدا عاما له ربطتني صداقة مع احد مؤسسي المدينة ومختارها، ابراهام كرينيتزي. كان من انصار الفردانية المجاهدين، وقد ابدى نشاطا زاخرا لا يعرف الكلل حتى يومه الاخير، قبل ان يقتله حادث سيارة وهو في عمر خمس وثمانين سنة. وكان احد امناء السر القدماء لمخترة رامات غان، وهو رجل اعمال اسمه ميشولام ريكليس، قد ساهم آنذاك، بمبادراته وهباته معا، في بناء مركز ترفيهي للمظليين في هذه المدينة.

بعد ان خدم ريكليس في اللواء اليهودي التابع للجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، قصد الولايات المتحدة لانهاء دروسه. هناك شيد امبراطورية مالية حقيقية حتى غدا شخصية اسطورية في عالم الاعمال. ومع انه مواطن اميركي كان يتابع عن كثب كل ما يجري في اسرائيل، بلده الاصلي الذي ظل متعلقا به. وعندما اخبرته اني ساترك الجيش لاكرس نفسي للزراعة لم يبد عليه الفرح. قال لي : « لا اعتقد ان في وسع اسرائيل ان تسمح لنفسها بالتخلي عن خدمات رجال مثلك ومثل عازار وايزمان ». (كانت تربطه ايضا صداقة بعازار وايزمان). وتابع : « ولا اظن ان رجالا مثلكما يجب ان يهتموا باشغال خاصة ويتخبطوا بمسائل مالية. بودي ان اساعدك ».

بعد هذا عرض علي ريكليس قرضا بقيمة مائتي الف دولار بلا فوائد، « لمساعدتك على شراء هذه المزرعة ». لكنه وضع شرطا : « اعتقد انه من

(١) جمع كيبوتز وموشاف.

الخطأ ان تكرس باقي حياتك للزراعة. فاذا كنت مصرا تحول الى مزارع، وهذا القرض يسمح لك بتحقيق مشروعك. لكنني اطلب منك ايضا ان تفكر في طريقة تساهم فيها في بناء الدولة. واريد ان اتيح لك الامكانية لكي تقرر كيف تساهم في الشأن العام بافضل طريقة ممكنة ».

عندما صار الشيك في جيبي رحت اسعى الى قرض من اربعمائة الف دولار اضافية حتى اشتري كل الملكية، وعندما تأكد لي اني لن احصل على هذا القرض من السوق المحلية توجهت الى مصرف في شيكاغو دشن حديثا فرعا له في اسرائيل. كان رئيس مجلس ادارة الفرع رجل يدعى صموئيل ساكس، وهو قبطان احتياطي في البحرية الاميركية وممول يهتم كثيرا ببلادنا. قبل ساكس ان يضع في تصرفي المبلغ المطلوب. وكما كانت العادة آنذاك في اسرائيل كان علي ان افي القرض بالدولار، وفي ذلك مجازفة[1] لم اتردد لحظة في قبولها. كنت سعيدا ومفعما بالعرفان.

حدث كل ذلك في اثناء الاشهر الاخيرة من خدمتي في الجبهة الجنوبية (بما انني كنت عشية تقاعدي سمحت لنفسي بترتيب بعض الشؤون الشخصية). ومن وقت الى آخر كنت اذهب مع ليلي لزيارة المزرعة والتنزه في التلال والبحث في مشاريع المستقبل. ونقلنا الى المزرعة احصنتنا الاربعة. وبدأ الحلم يتجسد امام اعيننا وكنت فريسة تلهف ملؤه الحماسة وانا ابدأ حياة جديدة بعد كل تلك السنوات التي قضيتها في الجيش، وهو الشعور ذاته الذي انتابني في نهاية دروسي الثانوية عندما كنت مقتنعا ان شيئا ما سيغير جذريا مجرى حياتي.

هذا الانتقال اللطيف من حياة الجندية الى حياة الزراعة، كما كنت اخطط له، انقلب رأسا على عقب في ايار (مايو) ١٩٧٢ عندما وردتنا معلومات من اجهزتنا السرية تقول ان مصر تستعد للمبادرة بهجوم واسع النطاق لعبور

(١) المجازفة ناجمة عن انخفاض العملة الاسرائيلية المتواصل في تلك الايام ـــ المترجم.

القناة. وعندما تبين بعد الفحص والتدقيق ان هذه المعلومات قابلة للتصديق انتقلت مع القيادة العامة للجنوب الى بئر سبع في سيناء[1]. استدعينا وحدات اضافية ووضعنا اللمسات الاخيرة على خططنا وقمنا بسلسلة من المناورات واتخذنا كل الترتيبات حتى تكون القيادة العامة برمتها على اتم استعداد. كذلك جمعنا التجهيزات الضرورية لعملية برمائية في القطاع الشمالي من القناة، قرب البالوزا : طوافات، جسور عائمة، تجهيزات هندسية ثقيلة وكل ما قد نحتاج اليه.

تقع البالوزا على بعد ثلاثين كيلو مترا شرق القنطرة. وهي تشكل مع الاسماعيلية احدى النقطتين الحارتين لعملية عبور القناة. وفي آب (اغسطس) ١٩٧٠، عندما خرق المصريون اتفاق وقف اتفاق النار ونقلوا صواريخهم، صممت خططا مفصلة جدا لانزال مائي في القنطرة، وقمت بعدئذ بتجربة العملية بكاملها. كنت اعرف تماما تطوراتها؛ فاذا حاول المصريون عبور القناة كنت انوي مفاجأتهم بانزالنا الخاص.

قررت في الوقت الحاضر ان أرسم خطة مفصلة لعبور ثالث محتمل شمال البحيرة المرة الكبرى في قطاع المصب (الدفرسوار). وكنا قد شققنا هناك طرقا تسمح بايصال القوات والتجهيزات لكن السواتر الترابية الحاجزة التي اقامها المصريون هناك كانت تشكل مشكلة عويصة. واذا كانت السواتر على ضفتنا لا تصل الى ارتفاع سواتر المصريين، الا انها كانت سميكة جدا لانها مخصصة لتصلح كحاجز دفاعي وتمنع في الوقت نفسه انزالا بالزوارق البرمائية. ولعبور القناة في ذلك المكان كان علينا قبلا ان نخترق حواجزنا. ولكن كيف ؟ ذاك كان السؤال.

(١) هذا ما ورد حرفيا في الاصل، ونعتقد ان ثمة خطأ ماديا وهو « في النقب » بدلا من « في سيناء »، الا اذا كان الكاتب اراد القول انه انتقل مع قيادته العامة لجبهة الجنوب من بئر سبع الى سيناء ـ المترجم.

من اجل حل المشكلة غيّرت بنية احد السواتر بحيث يبدو على ما هو من الضفة المصرية مع انه من جهتنا صار اقل سماكة وتكوُّما؛ هكذا نستطيع هدمه بسهولة وقت الحاجة. ولكن كان هناك مشكلة اخرى : اذا كان الساتر ظل محافظا على مظهره الخارجي من الخارج فكيف نستدل على الجزء الذي عُدِّل من الداخل ؟ فقد تضطر قواتنا الى اجراء عملية الانزال هناك في الليل وفي خضم المعركة وجلبتها وتحت وقع القذائف المدفعية الجهنمية — هذا اذا اغفلنا عوامل اخرى لا يمكن التكهن بها مسبقا. فكيف ستجد قواتنا هذا المنفذ لتعبر منه ؟.

بعدما تفحصت القطاع جيدا لاحظت كومة من الآجرِّ الاحمر كان معدًّا لمشروع مصري اهمل منذ وقت طويل. فاعدنا انشاء الساتر الترابي مستعينين بالآجرّ ثم رتبنا ما يشبه الفِناء (الحوش، الملعب) المغلق ذا الارض الصلبة، بطول كيلومتر واحد تقريبا وعرض عدة مئات من الامتار. وكان يمر في هذا الفناء من جانب الى آخر طرق وصول لتسهيل سير العربات. ولكون هذا الفناء محاطا بخطين من كل جانب، كان الفناء يبدو للمراقب الخارجي كأنه جزء من هذه التحصينات، او ربما كأنه بني لهدف ما لم يتحقق قط. ولكن في معركة انزال كان هذا الفناء يصلح كساحة للتجمع توفر حماية فعالة للرجال والدبابات وتجهيزات الجسور النقالة.

فيما كنا نستقدم قوات دعم ونجري مناورات كان المصريون يراقبوننا بكل انتباه. اعتقدنا آنذاك انهم إذا كانوا قد فهموا جدية استعداداتنا، فقد قرروا تأجيل هجومهم. فاذا كان الامر كذلك نكون قد جنبنا الفريقين، اقله مؤقتا، انفجار حرب في سيناء.

من نتائج حالة الطوارئ انني طرحت مجددا مسألة التحصينات على بساط البحث. ففي اثناء لقائنا مع رئيس الاركان دافيد اليعازار طرحت السؤال الآتي : في حال هجوم مصري شامل ماذا يتوجب علينا فعله بخصوص

التحصينات التي يتحصّن الجنود فيها ؟ ولكي اكون اكثر دقة، اي اوامر علينا اصدارها لهؤلاء الجنود: أن يحاربوا، أو أن يتقهقروا ؟

من ناحيتي قلت بوجوب إخلاء التحصينات فوراً؛ فإذا لم نُخْلِهَا نجازف بتبديد قواتنا في محاولتنا الدفاع عنها او اخلائها في خضم المعركة. فاذا عبر المصريون القناة ستلاقي دباباتنا صعوبات ضخمة للوصول اليها. فضلا عن ذلك، تصبح طرق الوصول اليها تحت رحمة مواقع المدفعية المصرية المركزة على دكات رمي مرتفعة. ومع ذلك سيغدو من المحتم علينا ان نحاول الوصول الى التحصينات، وبالتالي نجازف كثيرا بتكبد خسائر ضخمة من اجل مجهود لا جدوى منه. وبعد النقاش قررنا انه في حال حرب شاملة يتلقّى جنود التحصينات أمراً بالقتال وهم يتقهقرون منسحبين. في ذلك الوقت كنت اظن انني حولت هذا الموقف الى مبدأ، غير اني كنت مخطئا. لان هذه الاوامر لم تُعطَ بعد خمسة اسابيع، إثر الهجوم المصري.

كلما كانت تنخفض حدة التوتر كان موعد تركي الجيش يقترب. وهذا يعني انه يتعين علي ان احضر الاستعراضات والحفلات ومراسم الوداع التي ترافق مغادرة جنرال الجيش. لكنَّ رأسي لم يكن متفرغا للاعياد. فلقد نجحنا في بلبلة المصريين وتشويش خططهم. لكنني كنت أخشى ان يقدموا قريبا على محاولة جديدة. لذلك طلبت من رئيس الاركان ان يرجئ رحيلي سنة. ومثلما توقعت رفض « دادو »[١] فيممت وجهي شطر دايان، مثلما فعلت مراراً في الماضي في مناسبات مماثلة. فرفض دايان، كعادته، التدخل ونصحني بمراجعة رئيسة مجلس الوزراء غولدا مائير. وهذه بدورها ابلغت الي بصراحة ان القرار يعود الى وزير الدفاع بعد رفض رئيس الاركان طلبي، وانها لا تتدخل ابدا في هذا النوع من الشؤون.

(١) اسم الدلع لدافيد اليعازار — المترجم.

تبينت نوعا من السخرية في لهجة غولدا مائير. فانا على غرار كل الذين يعرفونها او يخيل اليهم ذلك، كنت أُكِنُّ احتراما كبيرا لقوة شكيمتها وشجاعتها. فهي من نواحٍ عديدة تجسد المرأة اليهودية في كل فخارها. لكنني كنت اعرف ايضا انها ملتزمة قضية حزبها (العمل) الذي كانت دائما من وجوهه البارزين. فعندما كانت تسأل، كعادتها، « هل هو من جماعتنا ؟ » — وهي تعنيني بذلك — لا بد ان يأتي الجواب سلبيا. لذلك لم اعلل نفسي بآمال كاذبة عندما قابلتها. ومع ذلك لم أُقِرَّ بعد جوابها بأنّي قد هزمت، اذ كنت عازما على طرق ابواب اخرى.

تعود محادثتاي الاخيرتان مع دايان حول هذا الموضوع الى صباح ١٠ تموز (يوليو) والى ١٥ منه قبل عدة ساعات تقريبا من المراسم التي يتعين علي فيها ان انقل رسميا قيادة منطقة الجنوب العسكرية الى خلفي الجنرال شموئيل غونن، المعروف بـ « غوروديش ».

في العاشر حاولت مجددا دفع دايان الى تغيير رأيه. قلت له : موشيه، انا مقتنع انت مقبل على ارتكاب خطأ جسيم. اذا نشبت الحرب، وهذا شديد الاحتمال، سيتبين لك ان غونن لا يملك الخبرة المطلوبة لخوضها.

— اسمع، اريك، لن نخوض اي حرب هذه السنة. قد يمكن الا يملك غونن خبرة غنية، لكنَّ الوقت اللازم سيتاح له لاكتسابها....

بعد بضع ساعات قليلة كانت ليلي وابنانا جالسين على المنصة الرسمية فيما كنت استعرض حرس الشرف. انها لحظة احتفالية مؤثرة، تمثلت فيها كل الاسلحة وراياتها خفاقة. في نهاية الاحتفال عدنا بالسيارة الى مسكننا وقت الخدمة في بئر سبع، حيث كنا نسكن منذ تعييني قائدا لجبهة الجنوب. (كنت قد ابتعت المزرعة، لكن بيت السكن المهجور منذ وقت طويل كان غير صالح). بعد ظهر اليوم نفسه وقَّعتُ كل الوثائق التقليدية التي تحررني

من الجيش. ثم نزعت بزتي العسكرية وارتديت بنطلونا عتيقا وخفَّيْن وتوجهنا الى المزرعة لنشاهد قطيعا من الخراف ترعى على سفوح التلال.

في اليوم التالي بدأت العمل بجد. كان الامر الاكثر الحاحا، في نظري، هو تدرُّبي على التقنيات والطرائق الزراعية الجديدة المعتمدة في الربع الاخير من هذا القرن. فعندما غادرت مزرعة والديّ لم يكن عندنا آلات زراعية تقريباً وكنا لا نزال نستعمل الخيل للحراثة. ومع اني تابعت كل التطورات الزراعية كان عليّ الآن ان اطبق في الحقل ما كان حتى الآن مجرد نظريات.

خالجني شعور اني اعود الى البيت. اخذت كمشة تراب : انه من نوع lœss، وهو طَمْي جيري اصفر شديد النعومة، لا يذكرني البتة بالتراب الصلصالي الاحمر الذي عرفته في حداثتي. فَتَّتُّهُ بين اصابعي فذرَّى الريح ذرورَه. كان كل شيء اصفر حولي في قيظ الصيف هذا : الارض والغبار الذي يغشّي الحقول : كل شيء كان مختلفا، ولكن في الوقت نفسه كان يبدو لي مألوفا. وفجأةاحسست كم انا سعيد، وفهمت انني مهما افعل في المستقبل، مجذَّر في هذه الارض هنا.

بعد عدة ايام اقمت سهرة وداع صغيرة في الحديقة المجاورة لشقتنا، دعوت اليها كل الضباط الكبار في الاركان ومعظم وجهاء المنطقة وبعض البدو الذين كنت اقمت معهم علاقات ودية خلال الاربع سنوات الاخيرة. وفي خطاب قصير مرتجَل ذكرت ان جزءاً مني يأسف لترك الجيش لاني اعتبر انه ما زال في استطاعتي المساهمة في امن البلاد. ويبدو اني افرطت في مدح نفسي لان احدى الجرائد الكبرى في البلاد صدرت في اليوم التالي وعلقت على كلامي بالقول : « عندنا العدد من الضباط القادرين على المساهمة في امن البلاد، وليس فقط ارييل شارون ».

كان علي كذلك ان احضر سهرة رسمية اكثر، هي مأدبة العشاء التقليدية التي يدعو اليها رئيس الاركان على شرف كل جنرال يترك الجيش. ويتضمن

البرنامج عادة موسيقيين ومغنين وكلمة رئيس الاركان. ثم تُدعى « الضحية » الى القاء كلمة. وقبل الحفلة بقليل كنت مدعوا الى عشاء وداع القائد الاعلى لسلاح الجو، الجنرال موردخاي (موتّي) هود. كان هذا الرجل الشجاع والقريب من القلب جاري، وقد قاد قوانا الجوية خلال حرب الايام الستة. ولقد شعرت بانزعاج عندما شاهدته يصعد الى « منصة الاعدام » ليلقي خطابه. وكانت ليلي قد قالت بالمناسبة : « هذا شيء لن اسمح لهم بان يفعلوه بك ». ولذا قررت ان اوفر على نفسي هذه المكابدة.

وهكذا عندما طلب مني ان احدد التاريخ الذي يلائمني لعشاء الوداع اجبت باني افضل عدم اجرائه. واذا اصروا عليه يستطيعون ان يرسلوا لي الى البيت ساعة الحائط التقليدية التي يهدونها في المناسبة. وبدلا من العشاء افضل ببساطة ان آتي الى احد الاجتماعات الاسبوعية — الثلاثاء — للاركان لاودع زملائي في جو بعيد عن الرسميات.

وهكذا صار. كان موشيه دايان حاضرا. بدأ الكلام يتمدح بعبارات حارة ومآثري في الخدمة. وعلى رغم سخريته المعتادة وكل خلافاتنا ونزاعاتنا — وآخرها حصل منذ اسبوع تقريبا — شعرت هذه المرة ان مدائحه تصدر من اعماق قلبه. وذكرني بان ما كنا نتقاذفه من ثورات غضب لم يكن يعبر الا عن جزء من عواطفنا المتبادلة.

في نهاية الاجتماع اخذت دايان على حدة لاقول له انني كنت اود لو عُهدت اليّ امرة احدى الفرق المدرعة الاحتياطية. قلت : « اذا لُبِّيَ طلبي هذا على الاقل سأشعر بارتياح اكثر نظراً الى الوضع على الجبهة المصرية ». في الواقع لم اكن اتوقع ان يوافق دايان على طلبي لعلمي بأن قبوله بتعييني يثير سخط دافيد اليعازار. ولشد ما كانت دهشتي كبيرة عندما اجابني دايان بانه سيهتم بالامر — وهذا ما فعله، على رغم ما كلفه تدخله من جهود وصراع كان في غنى عنها. ولم انسَ فعله. ولكن الحق يقال انني حتى لو اردت اعلانه لما كان دايان سمح لي بذلك.

الليكود

في اسرائيل يتمتع كبار الضباط المتقاعدين بميزة اخرى ذات شأن : ينظم الجيش للضابط المتقاعد مؤتمرا صحافيا، مقدما اليه الفرصة النادرة بان يتأمل بصوت عال وامام الجمهور في اختباراته، وبان يعبر عن افكاره على الصعيد العسكري، وبان يقول بنوع عام كل ما يختزنه في قلبه. ولكن عندما سألني الناطق باسم الجيش ان احدد له تاريخ مؤتمري الصحافي شكرته قائلا انني لا ارى ضرورة له، واضفت اني اهتم شخصيا بالدعوة الى مؤتمر صحافي عندما ارغب في ذلك.

في الوقت الحاضر كرست نفسي كليا لاعمال المزرعة. كنا في عز الصيف وانشغلت بحزم كومات القش. ولم اخترع البارود يوم اكتشفت بنفسي ان شغل الارض هو حافز ممتاز للفكر. هل هو هذا الزواج السعيد بين الهواء العليل والجهد الجسدي، الذي لا يتطلب اي مجهود فكري، الذي ينشط تدفق السوائل الحيوية ؟ مهما يكن من امر، كنت اتأمل وانا راكب على تراكتوري ما قد يمكنني فعله في الحقل السياسي. كان سهلا علي ان أُنتخب في الكنيست. ولكن الواقع ان مهنة السياسة قلما كانت تجتذبني؛ ومن جهة اخرى، ان انتمائي الى احد الاحزاب لن يكون ذا تأثير على الشؤون الاسرائيلية.

كان يسود الشعور آنذاك ان النظام السياسي الاسرائيلي مجمَّد تماما. ولذا بدا واضحا ان سياسة معارضة لا جدوى منها على الاطلاق. حينئذ قلت

لنفسي انني قد استطيع ادخال بعض تغييرات جذرية على النظام نفسه. ولكن أيّ تغييرات ؟.

كانت المشكلة تتلخص تحديدا بان السلطة كانت بين يدي حزب العمل منذ ما يقرب خمسا واربعين سنة. فهذا الحزب سيطر اولا على الوكالة اليهودية ثم على الدولة. وعلى رغم النظام الديمقراطي الاسرائيلي كانت كل محاولة لازاحته عن السلطة يبدو محكوما عليها بالاخفاق. لذا لم تعرف البلاد معارضة حقيقية، الشرط الاساسي للديمقراطية.

كان لا بد لمفاعيل هذا النظام ذي الحزب الوحيد ان تظهر عاجلا او آجلا، وفي الواقع كنا نشاهدها تطفو شيئا فشيئا على السطح. فقد باتت شؤون الفساد السياسي اكثر تواترا وتفاقما عما قبل. وبدأ يُسمع للمرة الاولى هدير معارضة شعبية، لا سيما في صفوف المهاجرين من افريقيا الشمالية ومن البلدان الآسيوية. فهؤلاء لم يكونوا يطيقون اليد الحديدية لحزب العمل واجهزته الحكومية المسيطرة على مختلف الاصعدة في البلاد : العمالة والسكن والقروض الرهنية وتعليم الاولاد وغير ذلك من العناصر الاساسية في وجودهم. وهناك وفرة في الخدمات الادارية الموازية لخدمات المؤسسات الحكومية، يتعيش منها موظفون لا حصر لهم اعضاء في الحزب، ضاغطين بثقلهم على معظم اجهزة الدولة الاقتصادية والاجتماعية. وكان جيل بكامله قد أقرَّ كأمرٍ واقع لا مردَّ له، تفرُّد حزب العمل بتنظيم حياة البلاد وفق نظرة اشتراكية. واليوم تُهاجم هذه المُسَلَّمة بعنف. لكن الأحزاب الصغيرة الاثني عشر التي تتنافس على اصوات الناخبين لم تكن تستطيع ان تقدم حلا سياسيا بديلا او ان تتجاوب بفاعلية مع الاستياء الشعبي.

والى انقلاب عواطف الجماهير جاءت حرب يوم الغفران تزيد من بعض التصدُّعات — وهي الاولى — في التوافق الوطني حول امن البلاد. ففي ذلك الوقت وجه فريق من طلاب المدارس الثانوية تلك الرسالة المشهَّرة

بالايقونات(١)، والتي اصبحت شهيرة، الى رئيسة الوزراء غولدا مائير، فيما كان احد المسارح يعلن عن مسرحية ملكة الحمام، في اول اشارة ثقافية الى التمرد على الزعماء السياسيين والعسكريين الذين كانوا الى الآن لا يُمَسُّون. ولن يمضي وقت طويل حتى تتحطم الصورة المميزة لاسرائيل، المتراصّة اساسا، في العالم؛ او هي آخذة الآن بالتفكك امام اعيننا...

قادتني تأملاتي الطويلة الى الانكباب على فكرة محددة : جمع كل هذه الاحزاب الصغيرة في جبهة متراصة واحدة، لها من القوة ما يسمح لها بتحدي حزب العمل والاحزاب الدائرة في فلكه، في الانتخابا الشعبية.

ولكن نظراً إلى الخصومات العنيفة أحياناً بين مختلف الافرقاء، لم يكن لفكرتي هذه حظ كبير بان تؤخذ على محمل الجد في اوساط السياسيين الاسرائيليين المجرَّبين. فجهلي التام بالعالم السياسي كان يطمس ما قد يكون في فكرتي من لا عقلانية — والمفارقة في ذلك ان هذا الجهل كان ورقتي الرابحة المفضلة. اذ كلما فكرت في الامر كلما اقتنعت بان تحالفا كهذا هو السبيل المنطقي الوحيد لتكوين معارضة جديرة بهذا الاسم.

بعد ان اخرجت مشروعي نوعا ما من شرنقته قلت في نفسي انني قد اكون ربما رجل الساعة — ما يدل، عندما افكر فيه، على ان سذاجة طموحي لا يعادلها الا سذاجة الفكرة الاساسية. كنت ارى في ذلك رهانا من شأنه ان يحركني بكليتي. فاذا تحقق مشروعي فسيلعب دورا حاسما في حياة البلاد السياسية.

وبدلا من ان اعرضه على مناحيم بيغن او على احد قادة المعارضة الأخرى، ارتأيت انه من الافضل عرض خطوطه الكبرى في مؤتمر صحافي. فبإعلان

(١) يعني الكاتب بالايقونات هنا زعماء وحزب العمل، لا سيما رئيسة مجلس الوزراء غولد مائير — المترجم.

مشروعي على الجمهور يكون عنصر المفاجأة الى جانبي؛ واذا توصلت الى ان اربح هكذا رضى الجمهور والصحافة أُصبحُ في موقع قوة في تخاطبي مع بيغين والآخرين. اما اذا خذلني الجمهور فساعرف انني كنت مخطئا وان فكرتي لا تستند الى الدعم الشعبي.

في نهاية شهر تموز بعت طنين من القش المُيَبَّس. وسمح لي مردود هذه البيعة ان استأجر قاعة في بيت سوكولوف، بيت صحافيي تل ابيب، لمؤتمري الصحافي. وبعد اسبوع صعدت الى المنصة امام حشد من الصحافيين ملأوا القاعة. وبدا لي جليا ان كل مطبوعة صحافية ارسلت مندوبها. فمن دون ان يُعرف موضوع المحاضرة كنت قد أثرتُ الفضول — خصوصا، على ما اعتقد، بسبب سمعتي كمتمرد، وايضا لان الحدث كان استثنائيا في حد ذاته. فحتى ذلك الوقت، كلما عقد جنرال متقاعد مؤتمرا صحافيا كان مكتب الناطق باسم الجيش ينظم له مؤتمره. فاذا كنت أخللت بالقاعدة فلانني قد أُعالج موضوعا قد يملأ اعمدة الصفحة الاولى — بكلام آخر، اشتمَّ الصحافيون دويًّا...

بعدما عرضت الخطوط الكبرى لمشروعي عن تحالف المعارضة وشرحت كم ان هذا التحالف يبدو لي ضروريا، فهم معظم الصحافيين أن توقُّعهم في محله : في صباح اليوم التالي عنونت كل الصحف اقتراحاتي : بعضها كان ضدها والبعض الآخر معها. والامر الاكيد هو انها كانت تهمُّ الجميع.

في اليوم التالي ذهبت مع ليلي والاولاد الى شاطئ هاروبا، بين رفح والعريش، لتمضية النهار. هذا المكان ذو جمال استثنائي ببلحه الغني بالتمر، الذي يكاد يلامس الموج. تمددت على الرمل الناعم وانا استمع بأذنٍ ساهية الى جهاز راديو كان احد السابحين قد نسيه مفتوحا. فجأة قفزت اذ سمعت من يذكر اسمي. كان احد السياسيين يعلق على مؤتمري الصحافي، متوقِّفا عند سذاجتي السياسية بكلمات تثير الشفقة عليَّ. ففي نظره « لم يكن شارون الا ولدا في السياسة ».

شعرت فجأة، وانا ممدد على الرمل بسروالي الداخلي، بحرج، كأنني عار. ليس فقط كنت في مكان عام حيث يستطيع كل انسان التعرُّف اليّ، بل ايضا كنت اوصف كـ « ولد سياسي » اطلق فكرة غير لائقة. اردت ان اتغطى، ان اختفي. كانت تلك المرة الاولى التي يسخر فيها مني امام الجمهور، وكنت مقتنعا ان كل الموجودين على الشاطئ يراقبونني بشفقة او ازدراء. في الجيش، على رغم خلافاتي مع زملائي، كان الجمهور يحميني دائما. فاذا كان صحيحا ان الزي العسكري يجعل الضابط يعيش تحت ما يشبه المراقبة الدائمة بحيث يُحكم في استمرار على سلوكه، الا ان الصحيح ايضا ان هذا الزي يشكل له سترا قويا يحميه من سهام الجمهور. طبعا لم اكن اطمع في الاستفادة من هذه الحماية في حياتي المدنية، ولكن بين ذاك وبين ان أعرض هُزْءَةً لكل الناس فرق كبير !...

وثمة سبب آخر نفَّرني من اقوال المعلق السياسي : كنت لا ازال اجهل ما اذا كانت فكرتي حول المعارضة ستؤخذ على محمل الجد — وفي الواقع، لا شيء يؤكد نجاحها. فأي من رؤساء الاحزاب المعارضة سيتنازل ليبحث في مشروع كهذا مع جنرال متقاعد، لا تربطه علاقات بأي حزب ولا يمكنه ان يدّعي انه يشكل دعما انتخابيا ؟ وهكذا كان ثمة مجازفة بأن أبدو ساذجا سياسيا كبيرا. ولكن، من جهة اخرى، كان يفصلنا عن الانتخابات ثلاثة اشهر ونصف فقط، وكان كل زعيم من زعماء المعارضة يبحث بعصبية عن اي ورقة سياسية رابحة. فقلت لنفسي ان الناخبين لو اظهروا اهتماما ما بفكرة المعارضة الموحدة تحت علم واحد فلا بد ان يتحدثوا عنها. وكنت مستعدا ان اراهن ان هؤلاء الرؤساء السياسيين سيولونها آنذاك انتباها ما.

بعد ان اقنعت نفسي رحت ادور على « اسياد » مختلف الاحزاب : سيمحا ارليخ والدكتور ريمالت عن الاحرار (في تلك الاثناء كان يوسف تامير قد انسحب من الحياة السياسية)، شموئيل سابير من الوسط الحر، ايغال هوروفيتز عن حزب رافي، موشيه شامير وابراهام يوفيه عن حركة اسرائيل الكبرى،

وبالطبع مناحيم بيغن. قبل كل منهم ان يقابلني، ممّا اتاح لي ان اعرف على الاقل ان تفكيري الاصلي كان مصيبا. في البدء اظهروا حذراً بل شكًّا، لكن أيًّا منهم لم يستطع ان يسمح لنفسه ان يبعد فورا مشروعي عن مبدأه بالذات او ان يتجاهل اسقاطاته المحتملة.

هذه المفاوضات مع مختلف الاحزاب كانت جدية، لكنَّ الجميع كانوا يعلمون ان مفتاح المشكلة كان بين يدي مناحيم بيغن. ومع ان حركته، الحيروت، لم تحصل ابدا على اكثر من ١٥ في المائة من الاصوات، فهذا لا يمنع انها اقوى احزاب المعارضة وافضلها هيكلية. وكان التحالف الذي عقدته حركة حيروت مع الاحرار سنة ١٩٦٥ قد قواها على نحو ملحوظ. فاذا قبل بيغن التشكيلات الصغيرة الاخرى التابعة للاقلية، فان هذه لا بد لها ان تفكر مرتين قبل ان تقول لا. اما اذا رفضها هو نفسه فان جوابها لن يكون له اي اهمية.

في السنوات الاخيرة كانت معرفتي ببيغن قد توطدت اكثر. كنت ازوره من وقت الى آخر في شقته في تل ابيب، وبعد تعييني كقائد لمنطقة الجنوب العسكرية جاء يزورني في سيناء. ومع انه رئيس حزب ووزير في الحكومة وشخصية سياسية معروفة عالميا، كان يعيش حياة متواضعة جدا تبلغ حد الشك. فهو منذ نشاطه السري كان يحتل مسكنا صغيرا في الطبقة الارضية من شقة عادية المظهر. كان اثاث المسكن عتيقا يكاد يكون تالفاً. ومن بين الكراسي القليلة الموضوعة في تصرف الزائرين يصعب ايجاد واحد لا تكون رجله او متكأه مكسورا.

لم يكن عنده مكتب، فقد كان يستعمل للقراءة والتأمل طاولة عرجاء يسندها الى احد جدران غرفة الجلوس. وكان من الواضح جدا ان الرفاهية هي آخر اهتمامات الرجل، ناهيك بالبذخ !...

ما زلت اذكر يوم جاء يلقي محاضرة في بئر سبع كيف دعوناه، ليلي

وانا، الى العشاء في منزلنا. في البدء ترددنا : فمع ان شقة العاملين في الجيش صغيرة الّا ان لوحات فنية تزين جدرانها، ومزهريات مليئة بالزهر تنتصب على الطاولات، ومقاعد مريحة تتوزع فيها. كنت أخشى الا يبدو له نمط عيشنا متسما بالفخفخة قياسا على نمط العيش الذي اعتاده.

كانت لا مبالاة بيغن هذه بالرخاء المادي سمة خلقية يتقاسمها مع زعماء عديدين من جيله لم يكن عندهم الوقت للاهتمام برفاهيتهم الشخصية التي كانت لا تعنيهم بشيء. كما كان يشاطر الرعيل الاول من زعماء البلاد اعجابهم العميق بالجنود اليهود. بن غوريون، مثلا، كان له الشعور نفسه. كانت تبهرهم نوعا ما مجرد فكرة ان يكون اليهودي محاربا.

لقد قيل وكتب الكثير عن حب بيغن للابهة العسكرية ولصفات القوة. ومن السهل الهزء بهوس كهذا. انما لكي نفهم جيدا رجالا مثله يجب ان نتذكر انه نشأ في بلدان عرف فيها اليهود احط انواع الاذلال والاضطهادات، من دون ان يستطيعوا الدفاع عن انفسهم ضد جلاديهم. في احد نصوص الكاتب عاموس اوز نقرأ عن مهاجر جديد آت من غيتو[1] اوروبي انه كان يتصفح مجموعة صور عن معارك الدبابات في سيناء. واذ خلبت لبَّه ارتال لمدرعات اليهودية، تصوّر ما كان سيحدث لو وصلت هذه الدبابات بسحر ساحر الى ابواب فرصوفيا او الى فيافي روسيا. ان هذه الشخصية في رواية عاموس اوز تسمح لنا بان نتصور ما كان يفكر فيه بيغن حتما : لو ان جيشا يهوديا وجد آنذاك كم من مأساة ومذبحة كنا تجنبنا ؟! لكان اليهود استطاعوا على الاقل أن يدافعوا عن حياتهم دفاعا يكلف المعتدي غاليا. وانا ما زلت اذكر انفعال بن غوريون الشديد عندما تحدث ذات يوم عن الطيارين اليهود والمظليين اليهود والضباط اليهود ــ كما لو ان وجودهم بالذات كان نوعا من الاعجوبة.

(١) الغيتو Ghetto كلمة ايطالية كانت تعني قديما حيا في مدينة يجبر اليهود على السكن فيه حصرا ــ المترجم.

ان صورة يهود مدججين بالسلاح هي في نظر ابناء جيلي امر طبيعي جدا. لذلك كان يبدو لنا انبهار بن غوريون وامثاله مفارقة تاريخية فيها الكثير من الرومانسية. فموقفنا تجاه الطيارين او الجنود اليهود خال من الهوى؛ واذا كنا نعجب بهؤلاء الجنود او اولئك الطيارين فمن اجل شجاعتهم وقيمتهم الذاتية وليس لانهم يهود. ولكن في نظر بيغين وبن غوريون، كان المحاربون اليهود ظاهرة استثنائية في حد ذاتها، تستدعي فيهم شيئا عميق الجذور.

كانت محادثاتي مع بيغين حول تحالف احزاب المعارضة (الذي اطلقنا عليه اخيرا اسم ليكود « الاتحاد ») توقظ احيانا بعض الاصداء والذكريات الشخصية التي لا علاقة لها بموضوع نقاشنا : في اليوم الرهيب الذي فقدنا فيه غور، مثلا، جاء بيغين الى مستشفى تل هاشومير ثم سار في الموكب الجنائزي. ويُذكر ان المأساة حدثت في اليوم السابق لرأس السنة العبرية، وهو يوم يزخر بالنشاط، وقد وصل بيغين متأخرا. وعندما انطلق الموكب الحزين تسنى لي ان الحظه عبر زجاج سيارتي. وكان واقفا على الرصيف والحزن العميق مرتسم على سيمائه. وهو لم يرني وانا لم اكشف له ابدا هذا التفصيل. لكنني لن انسى صورته ابدا. وبعد ذلك بسنوات عديدة. عندما كان كل منا مأخوذا بصراعاته الخاصة، وحتى عندما يتفق لي ان احقد عليه لسبب ما، فان هذه الذكرى كانت تُميل دائما كفّة الميزان لصالحه.

لم اكن حديث العهد كليا في مناقشاتي السياسية معه؛ لا بل كنت قد كسبت بعض الخبرة على امتداد السنين. ولم احسب قط حزب حيروت مؤيدا له او لحزبه. فبيغين، على غرار هرتزل وجابوتينسكي، كان ينتمي الى تقليد « الصهيونية السياسية »؛ ومثلهما تماما كان يؤمن بقوة الكلمة وشرعية الحق الدولي. ومن هذا المنطلق كان يولي التعبير والتصريحات والاتفاقات الرسمية اهمية من الدرجة الاولى. كان كل السائرين في هذا التيار الصهيوني المأخوذ بفن الخطابة يؤمن بفضائل الاعمال السياسية والفعل. وكان مقاربته هذه مناقضة

تماما « للصهيونية الذرائعية » التي ميزت والديّ. فالشيء الاساسي في نظر الصهاينة الذرائعيين هو ايجاد امور واقعة ميدانية : نقب مساحة اضافية من الارض، تخفيف مستنقع جديد وشراء بقرة اضافية. كانت كلمة السر عندهم : « تكلم اقل واعمل اكثر ».

كان حديث بيغين المنمق لا يثير حماسي. في المقابل، كنت اوافق على معظم آرائه من حيث محتواها : موقفه من ارض اسرائيل، حقوق اليهود، الكرامة اليهودية، حياة اليهود. فهذه القيم كانت تلقى صداها في قناعاتي، حتى وان كنت لا اقدر تماما صياغتها الكلامية.

وخلاصة القول ان الثنائي المؤلف من بيغين ومني لم يكن على قدر من الغرابة. فقد صار يعرف الآن واحدنا الآخر على نحو افضل من معرفتنا المتبادلة في ١٩٦٩، لكن احداث صيف هذه السنة ولدت ايضا بعض التوترات في علاقاتنا. فبيغين بات يعرف الآن اني لن اقبل ابدا بإطاعته مغمض العينين. هو لن يجد حليفا اكثر امانة وعنادا مني في ما خص القيم التي اؤمن بها، ولكن عليه ان يعرف انني لست من صنف « بني نعم نعم ». وبعد ان فهم هذه الحقيقة لا بد انه تساءل الى اي حد اشكل حليفا سياسيا مريحا.

تلك كانت الخلفية عندما سألني بيغين ذات يوم في المرحلة النهائية من مباحثاتنا : « اريك، هل ستتبعني في هذا الامر حتى النهاية، نعم او لا ؟ » وجاء جوابي الايجابي يكوِّن مفصل التحالف : لقد قبل بيغين في ذلك اليوم مبدأ الليكود.

ولكن اذا كانت موافقة بيغين شرطا اول لمواصلة المباحثات، فان علاقاته مع الكثيرين زعماء المعارضة الآخرين كانت لا تزال تشكل عوائق جدية.

---

(١) الذرائعية pragmatisme مذهب يرى ان قيمة النتائج العملية للفكر السياسي هي التي تحدد قيمته، لان حقيقة الفكر او الرأي يقررها نجاحه على الصعيد العملي — المترجم.

ولكي يسير مشروعنا الى غايته كان لا بد من ان نجمع تحت راية واحدة رجالا حاربوه بعنف — لا سيما شموئيل تامير زعيم الوسط الحر.

كان تامير احد قدماء « عائلة محاربي » بيغين، الايرغون تزفاي لايومي. وقد سبب تامير في الخمسينات، عندما كان هذا المحامي اللامع نجما صاعدا في حزب حيروت، مشاكل جسيمة لذوي النفوذ في مجرى سياسة الدولة العاملين من وراء الاحداث، وكان ازعاجه « للمؤسسة » اليهودية سبباً في بناء شهرته. فقد تولى الدفاع في دعوى تجمع الشهرة الى المأساة ودامت سنوات طويلة، وبرهن ان الوكالة اليهودية بدت بالحري فاترة في تخليصها الجالية اليهودية في المجر من الفناء في اثناء المجزرة الكبرى. وتسبب احتجاجه بكراهية دائمة واجهه بها حزب العمل، لا سيما بن غوريون الذي وصفه بـ « زارع الشقاق في في اسرائيل ».

وبالطبع ربح مودة بيغين. لكن تامير لم يكن محاميا لامعا فحسب، بل كان يضمر طموحا لا حد له لم يكن ليخفيه حتى ولو كانت الظروف لا تسمح باعلانه. وبما انه كان موهوبا اكثر من اعضاء حيروت الشباب بدا واضحا انه سيكون خليفة بيغين. غير انه بدلا من ان ينتظر تسلمه صولجان الملك وفق الاصول ارتكب في العام ١٩٦٥ خطأ تحدي بيغين على زعامة الحزب. وقد رأى بيغين، الذي لم يسمح قط بمعارضة داخلية، في هذا التحدي خيانة حقيقية.

اخيرا اوقفت محكمة حيروت نشاط تامير الذي اضطر الى ترك الحزب لانشاء حزب خاص هو الوسط الحر. لكن الروابط الوثيقة التي كانت تجمع بيغين وتامير من سنوات عديدة لم تنقطع مع ذلك، وإن كان يكمن الآن تحتها شيء من الكراهية.

في هذه الظروف، كان التعاون بين الرجلين، على رغم تطابق وجهات نظرهما السياسية، اصعب تحقيقا من جمع بن غوريون مع اخصامه السياسيين

اللدودين. فالنواة الصلبة في حزب حيروت، المكوَّنة من اولئك الذين برهنوا عن ولاء مطلق لبيغين، اي رفاقه في المقاومة السرية وبعد ذلك في نفيه السياسي، لم تكن تستطيع تحمُّل فكرة اعادة النعجة الضالة الى حظيرة الحزب.

ولكن لكي يستجيب الليكود للدعوة التي حددناها له كان لا بد من انخراط تامير فيه. وفي ذلك الوقت كان علي ايضا ان ادخل الى التحالف قسما من حزب العمل بقيادة ايغال هوروفيتز الذي سيتسلم فيما بعد وزارتي المالية والصناعة. ولكن فيما كان الوسط الحر عند تامير يميل الى اليمين كان جماعة هوروفيتز ذوي ميول يسارية وبالتالي اعداء لدودين لحيروت بدليل انهم كانوا في الماضي يُتبعون اسم بيغين (عندما يضطرون الى نطقه) بصفة « فاشستي ».

وكانت جماعة هوروفيتز القليلة العدد من بقايا حزب رافي الذي اسسه بن غوريون في ١٩٦٥ بعد طرده من حزب العمل (المسمى ماباي آنذاك) رفاقُه القدماء بعد صراع مرير. وكان حزب رافي قد دشن حياته الانتخابية بعشرة مقاعد في الكنيست. ولكن في ١٩٦٩ كان الكثير من نوابه اللامعين قد تركوا صفوفه، ولم ينجح بن غوريون وهوروفيتز هذه المرة الا في الحصول على اربعة مقاعد فقط؛ وفي السنة التالية ١٩٧٠ انسحب بن غوريون نهائيا من الحياة السياسية. واصبح رافي بعد هذه الانسحابات عنصرا قليل الشأن في الحياة السياسية، وإن كان لا يزال مهما من حيث ان انضمامه الى الليكود يفتح ثغرة في اصوات الناخبين التقليديين لحزب العمل.

من جهة، كان يبدو ان حظوظ مثل هذا التحالف ضعيفة جدا ان لم تكن غير محتملة، وذلك بسبب الخلاف التاريخي بين أنصار بن غوريون وأنصار بيغين. ولكن، من جهة أخرى، لم تكن مواقف رافي، المتعلقة بمسائل ذات اهمية وطنية مثل حدود البلاد والسلام والامن الوطني وما شابهها، بعيدة جدا من مواقف حزب حيروت. ولذلك ملت الى التفاؤل على رغم

المظاهر التي لا تشجع كثيرا على المحاولة. وغدت المسألة الآن ان اجعل بيغين والآخرين يشاطرونني الرأي.

كرست شهر آب (اغسطس) للتفاوض مع مندوبي الاحزاب الاخرى المعنية. في الصباح كنت اعمل في الحقل؛ وبعد ان استحم اقفز في سيارتي واتجه الى تل ابيب لاقابل هذا او ذلك حسب مفكرة مواعيدي. واتفق لي اكثر من مرة ان اجد نفسي وجها لوجه حول طاولة المفاوضات مع اثني عشر او اربعة عشر مندوبا موطدي العزم على تحقيق مطالبهم الخاصة ويتكلمون طبعا في وقت واحد. كان يصعب علي في بعض الايام ان اعتقد اني وقعت في هذا المأزق بملء ارادتي، واكثر من مرة اردت ان اترك كل شيء. في الصباح الباكر كنت اتنزه مع ليلي على ارضنا متمتعين بالصمت المطبق وبجمال تلال النقب الوعرة. وعند العودة الى المزرعة كنت اسبح في افكاري : الست مزمعا ان ارتكب خطأ ؟ فالحياة هنا، في هذا السكون، افضل بكثير من المشاكل السياسية. غير اني كنت اعود دائما الى تل ابيب بعد الظهر واغرق حتى اذنيّ في ما كان يبدو لي عُقَدا حقيرة ومساومات سوقية لانتزاع مطلب من هنا ومقعد من هناك.

وكانت كلما مرت الاسابيع يزداد موقعي قوة تجاه بيغين. وكنت اقول مازحا اني مدين بذلك لرجلي اكثر من اي شيء آخر. وبما اني كنت اعمل في الحقول لابسا خفَّيْن من الصندل، كان غبار دقيق اسود يستقر في داخل جلدي حتى ان الحمام الذي آخذه قبل توجهي الى المدينة لا يزيل الانطباع بان قدمي سوداوان. فاذ كنت جالسا قرب بيغين خلال جلسات مفاوضاتنا رحت اتابع نظرته الى قدميّ (وهما في نعل اي صندل) وتساؤله : كيف يستطيع المرء ان يأتي مباشرة من الحقل الى لقاء سياسي ؟ هذا السؤال ما كانت غولدا مائير وبن غوريون ليطرحاه لان الامر سوي في نظرهما، لكنه غريب في نظر بيغين.

ولم يكن ذلك الشيء الوحيد الذي يدهشه فيَّ. هناك ايضا ابو رشيد،

حارس المزرعة الشركسي، وهو رجل شديد الذكاء وصديق قديم للعائلة وقد بلغ من العمر عتيا. كلفته ان يبقى قرب الهاتف لاستلام الرسائل في اثناء وجودي في الحقل، وهي تتعلق في معظمها بمفاوضاتي السياسية. وكان ابو رشيد يتكلم جيدا بالعبرية ولكن بلكنة عربية بارزة. وبما انه يجهل كتابتها كان ينقلها صوتياً بحروف عربية.

كان بيغين يتصل بي غالبا شخصيا. في الاوقات السوية لم يكن يتاح للاسرائيليين من طبقة بيغين واهله التحدث الى عربي الا في مناسبا نادرة. وهكذا فكلما اتصل بيغين بي وسأل من المتكلم كان يجيبه صوت يصدر من الحنجرة : « ابو رشيد. انت تتحدث مع ابي رشيد. من انت ؟ » ثم يسأله ان كان يريد توجيه رسالة الى اريك. فكان بيغين يترك رسالة وهو يتساءل من تراه يكون هذا المتحدث الغريب. واذ لم يستطع كتمان فضوله سألني ذات يوم : « من هو ابو رشيد هذا الذي يرد علي ؟ » لم استطع مقاومة الميل الى مداعبته فاجبت : « ابو رشيد ؟ آه ! انه مستشاري السياسي وملحقي الصحافي ». فهم بيغين اني امزح، ومع ذلك بدا له الامر غريبا. لذلك كان من عادتي ان اقول ان شيئين اقنعاه بالسير في مشروعي : قدمَيَّ وأبا رشيد. وهذه المزحة، مثل معظم المزحات، كانت تتضمن ايضا جزءا من الحقيقة.

رشحتُ دماً وماءً طوال هذه الاسابيع الطويلة من المفاوضات لاقنع بيغين بفتح هذا التحالف امام خصومه السياسيين، خصوصا هوروفيتز وتامير، قلت له : « انه لامر اساسي ان يدخل هوروفيتز الليكود؛ وسيكون من الخطأ الفادح الا تدعو تامير. فهو دم من دمك ولحم من لحمك. فهو ان ظل خارجاً جذب بعضاً من انصارك. في المقابل، يجب أن يكون ايغال هوروفيتز معنا لاننا بفضله نستطيع ان نطال فئة جديدة من الناخبين. فأُولئك الذين يصوِّتون تقليديا لحزب العمل سيرون ان اعضاء بارزين في حزبهم قد انضموا اليك، فيسهل عليهم نفسياً ان يقدموا على اعطائك اصواتهم ».

كانت الاستراتيجية الاساسية للمشروع توحيد كل التشكيلات التي تؤلف الليكود وتجزئة حزب العمل. وفي رأيي ان هذا اهم بكثير من عدد المقاعد التي سنستطيع تأمينها لكل تشكيل — وهي المسألة التي من اجلها كان اعضاؤها يتقاتلون مثل الكلاب والقطط. ولكن كان علي مع ذلك ان اعترف بان بيغين كان ملتزما ادبيا حيال كل الذين دعموه ورافقوه في نفيه السياسي طوال عشرات السنوات. فهؤلاء الرجال دفعوا غاليا ثمن ولائهم للحزب وزعيمه. ولانهم كانوا يُصنفون اعداء لحزب العمل كانوا يجدون صعوبة في ايجاد عمل ويُستَبعدون بوجه عام من وظائف الدولة ولا يستطيعون الارتقاء في الجيش الى الرتب العالية. وكانت سياسة تسكير الابواب هذه سهلة على حزب العمل، فهو منذ قرابة خمسين سنة يمسك بكل خيوط اللعبة السياسية ويسيطر على المجتمع الاسرائيلي. لذا كان بيغين يشعر انه مدين بدين مقدس لرفاقه الاوفياء، وهو دين كان ينوي الوفاء به عند استلامه السلطة. وكان يخاف ايضا انه في حال حصلت الاحزاب الاخرى في التحالف الجديد على حصة كبيرة في قالب الحلوى الانتخابي، اي مقاعد نيابية اكثر مما هو متوقع، يفقد القوة الكافية التي تسمح له بالحسم. لذلك كان عليه ان يساوم حول كل مقعد نيابي مع شركائه الجدد.

من جهتي لم يكن عندي اي واجب سياسي ولا دَين لاحد. وتبعا لذلك حاولت غير نادم ان احصل على تنازلات من حيروت، مما اثار غضب العصبة الملتفة حول بيغين. غير ان الدكتور مناحيم بادر لجم جماحهم. كان واحدا من قدماء اعضاء حيروت المحنكين واقتصاديا مشهورا وكاتبا خصبا، يتميز بشخصية قوية غنية الجوانب. في احد الاجتماعات تبنى بادر قضيتي اثر هجوم شنه علي احد زملائه. قال لهم: «ماذا يدهشكم ؟ اريك ليس عضوا في الحزب الليبرالي، كما انه ليس من انصار تامير، حتى انه ليس منا. فالحزب الوحيد الذي يدعمه هو الليكود».

بفضل مساعدة بادر الخبير بتهدئة النفوس استطاع بيغين الحصول على

اتفاق حول الاستراتيجية الشاملة والبدء بالمرحلة العملانية. فقبل ان يدخل بيغين المعمعة بكل ثقله لم يتخط المشروع الطور الاختباري — ومع أني لم اعرف ذلك في حينه لم تتخط ايضا الصراعات بين الاحزاب، حتى ذلك الحين، المناوشات البسيطة. ولكن منذ بدأ الليكود يأخذ شكلا وغدا حقيقة سياسية خاضت الفئات المختلفة التي ستشكله معركة مريرة في سبيل تنازع المقاعد النيابية في الكنيست، والترشيحات على القائمة الانتخابية، والحقائب الوزارية العتيدة، ما كان يجعل من لقاءاتنا مشادات مريرة لا تنتهي.

كانت الاجتماعات تتم احيانا عند بيغين. لكنها في غالب الاحيان كانت تُعقد في مقر حيروت حيث تستمر المجادلات حتى ساعة متقدمة من الليل. وكانت امينة سر تامير الجميلة تأتي بسندويشات ومشروبات لتضعها في جانب وحيد من الطاولة : امام سيدها. وفي مقر حزب رافي لم تكن الصراعات اقل حرارة. ومن حسن الحظ ان ايغال هوروفيتز، المحامي عن قيم الجماعية، كان يزود الجميع بمثلّجات وبشوكولا ساخنة ويؤمِّن توزيعها بنفسه.

تتابعت المحادثات المحمومة سبعة اسابيع. ولكي احفز دينامية الاتفاق كنت اعمل مع الصحافة التي حصلت اخيرا على دعم ثمين منها. فكانت الصحف تنشر افتتاحيات لصالح مبدأ الليكود، ضاغطة بذلك على نحو غير مباشر على الاحزاب لتتحد — لا سيما ان انتخابات الهستدروت كانت على الابواب.

من الناحية الرسمية تمثل الهستدروت النقابة الكبيرة التي تضم العمال الاسرائيليين، لكنها في الحقيقة، اكثر مما يوحي به اسمها. في الواقع تتغلغل هذه المؤسسة القوية في كل المجتمع الاسرائيلي عبر تأثيرها الاقتصادي (تسيطر على ٣٠ في المائة من الحياة الاقتصادية في البلاد) وشبكة خدماتها الاجتماعية المتشعبة ونقاباتها العمالية بحصر المعنى. وحتى ١٩٦٥ ظلت الهستدروت اقطاعا حصريا للاحزاب المنادية بالاشتراكية، على انواعها، لكنها فتحت ابوابها لاحقا امام كل الاحزاب السياسية. وبما ان الاكثرية الساحقة من العمال الاسرائيليين

ينتمون الى الهستدروت فان الانتخابات التي تجدد قياداته هي مؤشّر مهم لسبر الانتخابات التشريعية.

في العام ١٩٧٣ حُدد موعد الانتخابات في ١١ ايلول (سبتمبر) وكان ينبغي للوائح الشطب الانتخابية ان تنجز قبل هذا الموعد بثلاثة اسابيع. وفي نهاية شهر آب (اغسطس) عقد اتفاق بين حيروت والاحرار ورافي وحركة ارض اسرائيل. التشكيك الوحيد الذي ظل خارج الاتفاق هو حزب شموئيل تامير : الوسط الحر. فلقد عجزتُ عن اجراء تسوية بشأنه لوقوعي بين مطرقة مساومات تامير التي تضرب بلا هوادة وسدّان عداوة المخلصين لبيغين له.

كنت اعمل بلا ملل، وبعد ظهر يوم الاستحقاق قدَّمتُ في اللحظة الاخيرة، بعد استنفاد كل مواردي، عرضاً اخيرا لانهاء القضية. كان حزب حيروت مستعدا لقبوله، لكن تامير لم يتزحزح قيد انملة عن مواقفه، اذ كان لا يزال مترددا ازاء السبيل الذي عليه انتهاجه. اتصل بالهاتف من الطبقة الرابعة في مقر حيروت، حيث كنا مجتمعين، طالبا زوجته روث (راعوت) المؤتمنة على اسراره. فجاءت حالا وانفرد الزوجان، محاطَين باركان الحزب، للتشاور. كانت الدقائق تمر ببطء فيما الصحافة في الطبقة الرابعة عشرة، تنتظر بياننا.

فجأة رأيت تامير ينهض ويسير بخطى ثابتة نحو قرص الدرج (لم نعلم قط ان كان المصعد القديم للبناية في حالة جيدة). حالا حزرت انه قرر رفض عرضنا وانه يريد ان يكون السبّاق الى اعلان رفضه للصحافة، وبتعابيره هو، مستبقا تعليلي لاستبعاد الوسط الحر عن الليكود، انا من يعرف مداخل القضية ومخارجها. لذ كان يتعين علي، مهما كان الثمن، ان اسبقه واتحدث قبله الى الصحافيين.

كان تامير قد سبقني بنصف طبقة عندما انطلقت اصعد الدرج وراءه. وعند كل منعطف كان يلتفت الى الوراء ليرى ان كنت اتقدم. كنت اسرع منه، وفي مكان ما قرب الطبقة الرابعة عشرة نجحت في الوصول اليه؛ لكننا

كنا عاجزين، نحن الاثنين، عن استعادة تنفسنا السوي : كنت على حافة الغشيان وكان شامير، من جهته، يلهث بقوة حتى اني خشيت عليه ان ينهار من جراء سدّة في الشرايين. ومن الناحية الاخرى لباب السلم كانت الصحافة تنتظر بياننا.

أعطيت نفسي صمتاً دام بضع ثوان حتى اذا استعدت ما يشبه النظم السوي اعلنت للصحافيين ان السيد تامير فصم اتحاد المعارضة لقصر نظر سياسي وموقف انتحاري حيال مصالحه ذاتها... استعملت التعابير نفسها التي كان تامير يخشاها، على ما يبدو. اذ ما ان استعاد نظمه حتى ادلى ببيانه الخاص، مشددا على اهمية ان يحتفظ الوسط الحر باستقلاله. ولكن مما لا شك فيه ان تصريحه التالي لتصريحي فَقَدَ كل مفاعيله.

في الواقع، فهم تامير حالا خطأه في الحساب. فَرَدُّ فِعْلِ السياسيين كان سلبيا جدا، وفي الليلة نفسها غير رأيه واقر بان لا خيار له غير الانضمام الينا. ولقد جاء قراره متأخرا بالنسبة الى انتخابات الهستدروت، لكنَّ الوقت كان لا يزال يتسع امامه للانضمام الى الليكود من اجل الانتخابات التشريعية.

عرض علي زعماء كثيرون الانضمام الى حزبهم وطرحت المسألة عدة مرات خلال المناقشات. لكنني كنت مصرا على البقاء فوق الخلافات. اولا لانني خلال هذه المرحلة نفسها لم ار في انشاء الليكود سوى خطوة اولى. ففي مرحلة لاحقة سيكون هذا التحالف مدعوا الى الذوبان في حزب موحد. ولبلوغ هذا الهدف كان الحفاظ على استقلالي امرا اساسيا. ثم اني لم اكن اميل للخضوع لنظام حزب وخطه. ومع ذلك فلم تكن تلك كلمتي الاخيرة. غير انني كنت مصمما في كل حال على اتخاذ قراري تلقائيا على ضوء وعيي الكامل وبعيدا من كل ضغط. ولم اكن بنوع خاص اريد ان ارى انضوائي الى احد الاحزاب متبوعا بفشل المفاوضات لانشاء الليكود.

بعد الكثير من الاخذ والعطاء انتهى بي الامر الى الانضمام الى الاحرار،

ولكن بعد ان قبلت كل الاحزاب التي تكوِّن الليكود فكرة انشائه واقرتها باتفاق موقَّع طبقا للاصول الواجبة. وقد تم ذلك في ١٤ ايلول (سبتمبر)، وبعد اسبوع صرت بين صفوف الاحرار رسميا. وفي اليوم نفسه عُينت رسميا على رأس القيادة العامة لحملة الليكود الانتخابية لخوض الانتخابات التشريعية التي حُدِّد موعدها بعد شهرين.

كنت مزمعا الآن ان اصبح سياسيا محنَّكا. واذا كانت المفاوضات لانشاء الليكود نوعا من الدراسة الممهدة لدعوتي السياسية الجديدة فان ادارة الحملة الانتخابية الوطنية كانت بالتأكيد جامعتي السياسية. فلقد تعلمت خصوصا، على حسابي، أنّ السياسة ابعد من ان تكون وظيفة براتب بلا عمل لاناس آتين من آفاق اخرى، وخصوصا لمن جاء من عالم العسكر. فكثير من قدماء الضباط المحترمين الاسرائيليين يجربون حظهم في السياسة، لكنهم يعودون عامة عن قرارهم بسرعة. والآن بتُّ اعرف لماذا.

الحياة العسكرية معركة دائمة، مثلها في ذلك مثل السياسة. ولكن على رغم كل صعوباتها وما تخبئه احيانا من مرارة الا انها تخضع لبعض القواعد والمبادئ. في المقابل، لا تعرف السياسة اي قاعدة؛ كما انها تجهل الاحساس بالتزام الحدود واحترام التراتبية. وعندما يدخل الضابط السابق هذه الحلبة يكون عادة قد عرف انتصارات باهرة وانكسارات مؤلمة، وعاش ساعات مثيرة وعانَى إرهاقاتٍ عميقةً، وعرف احساسا مسكرا من الثقة بالنفس ولحظات « ملهمة »، كما عرف الخوف الكريه والرعب الفظيع، وكذلك يكون قد اتخذ قرارات حاسمة وتولى مسؤوليات تتعلق بها حياته وحياة رفاقه.

ومع ذلك فان هذا الانسان نفسه هو من يدخل الى عالم السياسة ليكتشف انه هنا لا يملك غير فم ليتكلم ويد لينتخب تماما مثل جاره على هذه الطاولة او ذلك الكرسي. وهذا الجار قد لا يكون عرف او عاش حدثا موجبا العبرة او مأساويا. فهو يجهل قِمم الوجود ولُجّاته. وهو لم يطرح ايا من

اعماله على محك النقد، ولم يكن عليه ان يتخذ قرارات مصيرية تتوقف عليها حياة الغير. وهذا الرجل — ويا للعجب ! — له ايضا فم ليتكلم ويد لينتخب.

هكذا كنت ارى الامور، وهكذا يراها نوعا ما كبار الضباط الذين ينخرطون في عالم السياسة. ولست اريد القول بكلامي هذا انهم خالون من الحس الديمقراطي. ففي بلادنا نتمثل الديمقراطية مع حليب الام. ولكن فَهْمَ الديمقراطية وقبولها شيء، واحترام القوانين على الصعيد السياسي شيء آخر. في البدء تشعر بما يشبه الصدمة عندما تفهم ان كل ما قد استطعت انجازه في حياتك لا اهمية له البتة هنا. وعليك مثلا ان تجادل فلانا الذي لم يخدم قط في الجيش. وعندما يأتي دوره للكلام يثبت بصره فيك ليعلن كل ما كان في وسعك قوله انت بنفسك. وهو يعلنه بالطريقة الاكثر سذاجة، واحيانا بطريقة فظة. وعند ساعة القرار يساوي صوتُك صوتَه تماما.

لا جدوى، على ما اظن، من الايضاح انني احترست حتى لا أظهر هذه العواطف. ولكنني كنت مندهشا في باطني. كانت صفوف الليكود تضم عديدين ممن لهم ماضٍ عسكري. ولكن لم يكن الامر كذلك في مختلف مراتب الجهاز السياسي. هنا لا يحسب احد حسابا لكوني قفزت في الخنادق او جرحت او خضت معارك شديدة التعقيد. هنا عليَّ ان اشارك في لعبة جديدة تجري على ملعب آخر. ولم يكن عليَّ ان ارزح امام الظروف المتغيِّرة، فما يهم من الآن وصاعدا هو أن أتغلَّب على هذه المفاجأة الاولية واتخلص مهما كان الثمن، من الانسان القديم الذي كنته كما لو كان سِقْطَ متاعٍ، وأقبلَ الحقيقة الجديدة.

كنت على وشك ان انجح في تحوُّلي هذا الصعب عندما استلمت، في الاول من تشرين الاول (اكتوبر)، اتصالا هاتفيا من القيادة العامة لمنطقة

الجنوب العسكرية. كانت حالة الطوارئ قد اعلنت ويريدون ان يسألوني رأيي في معلومات سريّة. فهلا أوقفت كل نشاط وحضرت الى مكتب فرقتي الاحتياطية ؟ كنا في ٥ تشرين الاول (اكتوبر)، قبل اربعة ايام من الانتخابات التشريعية التي سيدشن الليكود حياته السياسية بخوضها.

يوم الغفران، ١٩٧٣

المكالمة الهاتفية من القيادة العامة جاءتني بعد ظهر الجمعة، في عز ضوضاء لا توصف في مقر الليكود. كنا على ساعات معدودات من السبت الذي يحدد ايضا في هذه السنة دخول يوم كيبور، اليوم الكبير او يوم الغفران، وهو الاكثر احتفالية وخطورة في السنة اليهودية. وعلى غرار كل زملائي في العمل كنت انشط لتصريف الاعمال العادية في الحملة الانتخابية حتى اعود الى منزلي قبل بدء الصوم.

لكن هذه الدعوة كانت نذيراً بان الانتخابات عاجلة الى هذا الحد. وحالما تلقيتها فكَّرت بالاتصال هاتفيا ببغين، ولكن هل أُزعجه عشية يوم الغفران ؟.. لذا تركت تعليمات لبعض زملائي، وبعد ان رتبت اوراقي، توجَّهتُ الى المنزل. حال وصولي اتصلت بالقيادة العامة لقيادتي لاستوضح الوضع؛ ثم اتصلت بضابطي المكلف بالاستخبارات يهوشوعا ساغاي، الذي رئيس مصلحة الاستخبارات طوال الحقبة التي قضيتها آمراً لجبهة الجنوب. وصل بسرعة الى بيتي، محملا بمجموعة ثقيلة من الصور الجوية وغيرها من الوثائق. اكتفيت بنظرة واحدة لاعرف ان المصريين حشدوا قرب الضفة كل تجهيزاتهم لعبور القناة. فالامر يتعلق الآن بوضوح بنَشْرٍ للقوى مختلفٍ من حيث اهميته عن التمارين والمناورات التي كنا معتادين عليها.

سألت : هل عدلوا خطة نشر قوانا كما تركتها قبل تركي جبهة الجنوب ؟

جاء الجواب سلباً : « لقد بقيت الخطط على حالها... » ما يعني بالكلام المفيد ان احتياطينا من الدبابات موجود على بعد خمسة وثلاثين كيلومترا على الاكثر، وان التحصينات ــ تحصينات خط بارليف الشهيرة ــ ستُخلى حالما يهاجم المصريون، واهم من كل ذلك ربما ان هجوماتنا المضادة كانت مؤمنة بكل القوة المرغوب فيها. فتهجم الدبابات مثل « قبضات حديدية »، في تشكيلات قتالية من مستوى كتيبة على الاقل لتحصل على النتيجة الفضلى. اطمأننت واتصلت هاتفيا بشموئيل غونين لاعلن له انني جاهز واقول له اني اعتبر معلومات اجهزتنا السرية دامغة ونهائية : فالحرب ستندلع بين لحظة واخرى.

ولانه في تلك الاثناء لم يطرأ جديد قررنا ليلي وانا ان نمضي يوم الغفران في المزرعة مع الاولاد. في صبيحة اليوم التالي كنا اذاً في تلال النقب الجميلة، نتمتع بمشهد الجياد والخراف تسرح وتمرح، وننعم بالصمت المطلق الذي هو سمة مميزة لهذا اليوم. حوالي الساعة العاشرة لفتت انتباهي سيارات مختلفة الاطرزة، بينها شاحنات، تمر على الطريق بالقرب من المزرعة ــ وهي ظاهرة غير مألوفة في عيد الغفران. وفي الساعة نفسها تقريبا جاء جيران الكيبوتز المجاور ينبئوني ان العديدين من اولادهم دعوا لخدمة العلم.

دخلت المزرعة فدق جرس الهاتف : قيل لي ان اتوجه فورا الى القيادة العامة لجبهة الجنوب. وتساءلت هل هجم المصريون بهذه السرعة ؟ ثم اتصلت بسيمباح إرليخ لاطلعه على خطورة الوضع واقول له في نهاية الامر اني ساكون في الجنوب لمدة غير محدودة. لذا ينبغي ايجاد بديل مني على رأس الحملة الانتخابية. وبسرعة قادتني ليلي ومعها الاولاد بالسيارة الى القيادة العامة لفرقتي، هذه الفرقة الاحتياطية نفسها التي حصل لي موشيه دايان على قيادتها على رغم معارضة دافيد اليعازار القوية.

خلال الاشهر الثلاثة التي انقضت على تركي الجيش كنت ازور هذه الفرقة في انتظام، وقد اجريت مؤخرا مناورات على الصعيد العالي. ولمعرفتي

بأَهليَّة ضباط القيادة العامة لم أفاجأ أبداً أن أرى عند وصولي ان كل شيء يسير على ما يرام وان التعبئة تتم بنظام وهدوء. كانت الاذاعة صامتة يوم العيد، لذا عمدت الوحدات الى الاتصال بالرجال بالهاتف او ببعث مراسيل الى بيوتهم، كما ارسل سعاة الى المجامع حيث كانوا يؤدّون الصلاة. وقبل ان اصل الى القاعدة كان قد سبقني كثيرون.

ذهبت بعد الظهر الى القيادة العامة لجبهة الجنوب؛ وفيما كنت اجتاز الباب اعلنت صفارات الانذار عن اول هجوم جوي. بدأت اشعر بجو الحرب المشدود. فالجنود والضباط الذين يسيرون في مماشي المعسكر كانوا يبدون قلقين؛ كنت اعرف كثيرين منهم خدموا تحت امرتي طوال ثلاث سنوات ونصف ــ لذا كنت اشعر بانني عائد الى بيتي. ومع اني كنت حينذاك غارقا تماما في الحملة الانتخابية تحققت الآن من شعوري بأني افضل حالا في المجال الحربي مني في المجال السياسي.

كان الجميع منشغلين في القاعة الكبرى بتحليل كتلة من المعلومات. وعلى رغم التقارير المتناقضة احيانا كان هناك شيء واضح : في هذه اللحظة بالذات يجري المصريون هجوما واسع النطاق على طول القناة. كانت مراكز المراقبة الواقفة على طول الجبهة تفيد عن اطلاق مدفعية ثقيلة وغارات جوية وزوارق إنزال عديدة ترسو على ضفتنا. وكنا لا نزال منكبين على هذه التقارير عندما أعلمنا ان السوريين يهاجمون بعنف وان دباباتهم تنقض على هضبة الجولان. كانت الساعة الثانية بعد الظهر وبضع دقائق في يوم هذا العيد الكبير الذي كان يجب ان يكون تحديداً نهارَ هدوءٍ وخشوع. لقد تركت اسرائيل تُفاجأ بطريقة او بأخرى. والحرب انفجرت على جبهتين. وللمرة منذ ١٩٤٨ كان اعداؤنا هم الذين اخذو المبادرة.

بعد ان شاهدت كل ما كان يجب مشاهدته عدت الى فرقتي. وأَخذَتْ موجة الاحتياطيين تكبر شيئا فشيئا والقاعدة تعج الآن كأنها خلية نحل. فتحت المستودعات والمخازن وتهافت الاحتياطيون امام ابوابها لاستلام الاسلحة

والعدة. وفي مواقف الآليات كانت محركات الدبابات والشاحنات تهدر فيما الميكانيكيون منشغلون بالتحقق ان كل اجزائها هي على ما يرام. كانت الفرقة تتأهب للحرب، ومع ذلك بدا الامر وكأنه غير واقعي، كما لو ان المرء لا يزال لا يصدق انها نشبت. زرت مخازن الاسلحة والعتاد الواحد تلو الآخر؛ كان الرجال يجادلون المسؤولين عن المخازن، الذين يشدِّدون على ملء الاستمارات بعناية وتفصيل قبل تسليم الاسلحة. وسرعان ما احتدم اللغط، وبلغ الأمر بأحد المسؤولين انه وقف في عرض الباب ليمنع الداخلين. فهو على رغم صفارات الانذار المدويّة كان عاجزا، مثل كثيرين، عن التخلص من رتابة (روتين) ايام السلام.

جمعت قادة الالوية وضباط القيادة العامة لاطلعهم على الوضع. ثم تابعت مختلف اطوار تسجيل الرجال وحشدهم. كان الجميع يسرعون كي تكون الوحدات جاهزة للانطلاق بلا تأخير. فالقناة تبعد مائتين وخمسين كيلومترا من المعسكر، وينبغي الوصول اليها في اسرع وقت ممكن. ولا يتوفر للمواجهة في الجبهة بكاملها سوى فرقة عاملة بقيادة الجنرال ابراهام (« البرت ») ماندلر مع مائتين واربع وتسعين دبابة. في مواجهة قواتنا هذه نشر المصريون خمس فرق مشاة وثلاث فرق مؤللة وفرقتين مدرعتين. ويبلغ عدد دباباتهم الكلي اكثر من الف واربعمائة دبابة. وقبل ان تصل القناة قواتي وفرقة الاحتياط التي يقودها ابراهام أدان، يتعين على ماندلر ان يخوض اذاً معركة دفاعية ضد عدو يفوقه عددا على نحو كبير.

كان علي أن أختار صيغتَيْن لاجتاز سيناء، فُضْلاهما هي نقل الدبابات فوق منصات ضخمة مصممة خصيصا لذلك، تقطرها الجرارات. ولكن كان ينبغي لنا انتظار عدة ساعات قبل وصول هذه المنصات المتحركة — وهي ساعات يمكن ان تكون حاسمة. وكنت اخشى فوق ذلك احداثا طارئة قد تخسّرني عددا من الدبابات. ففي خضم هذه الفوضى العامة قد يقرر قائد أحد قطاعات الجبهة، وهو في فورة اضطرابه، انه في حاجة الى دبابات ليواجه

وضعا حرجا في نظره. فاذا ارسلت دباباتي محمولة فوق المنصات اجازف بان اراها تتبخر على الطريق : دبابة من هنا، دبابتان من هناك... اما استعادتها فأصعب من البحث عن قشة في كومة من التبن.

يستحيل حصول امر كهذا عندما تجري الدبابات سوية في تشكيلة سرايا وكتائب، يقودها طاقمها الذي يتلقى اوامره من ضباطه. وعلى رغم مخاطر الصعوبات الميكانيكية قررت ان العب ورقة الوقت والسيطرة على آلياتي بارسالها على جنازيرها. لذا اصدرت امرا لكل سرية ان تتجه الى القناة حالما تكمل استعداداتها. وحددنا خطوط السير ونقاط التجمع. كان على الفرقة بكاملها ان تكون ظهر الغد ٧ تشرين الاول (اكتوبر) على مقربة من مركز قيادة القطاع الاوسط لضفة القناة، في تاسا.

فيما الاستعدادات تدخل طورها الاخير جلت في المعسكر مارا بين الجنود المنهمكين في تنظيف العتاد وترتيبه، او المنشغلين بتفقد الدبابات والمجنزرات والجيبات وبتحميل الذخائر، وذلك باندفاع وكفاءة ينمّان عن النوعية الجيدة لتدريبهم. وخلال مروري من فريق الى آخر لتبادل بعض الكلمات مع الجنود والضباط تبين لي ان معنويات الفرقة ممتازة. وكنت قد تلقيت معلومات اكثر عن مدى الهجوم المصري وخطورة الوضع على خط القناة، لكنني كنت آنذاك بعيدا من الظن بان عددا كبيرا من رجالي لن يعودوا معنا بعد انتهاء الحرب قرابة اسبوعين ونصف بعد اليوم.

خلال بعض الظهر طلبت مرارا عديدة الجنرال غونن بالهاتف. ونظرا الى تضارب المعلومات الآتية الينا من الجبهة حرّضته على ترك مركز قيادته في بئر سبع عندما يتاح له ذلك والتوجه الى سيناء. فقد كان من الواضح في نظري انه ملزم بإقامة الاتصال مع قواتنا المتقدمة والحضور شخصيا الى ميدان المعركة ليتاح له على نحو صحيح تقويم الوضع.

غير ان اجوبته افهمتني بوضوح انه لا ينوي قبول نصائح — لا سيما

نصائحي. ويجب القول ان وضعنا كان حرجا نوعا ما على صعيد التراتبية. فمع ان غونن — « شموليك للمقربين اليه » — يأمر منطقة الجنوب العسكرية كان اثنان من جنرالات الفرقة الثلاثة الموضوعين تحت امرته اكثر خبرة منه واعلى درجة. في الماضي خدم غوفن تحت اوامر ادان الذي صار اليوم تحت امرته. كذلك خدم تحت اوامري، وكان الى ثلاثة اشهر خلت يقود هذه الفرقة نفسها التي أُوكلت الي. وعلى رغم خدماته الممتازة كقائد لواء مدرع (خلال حرب الايام الستة تميز تحت اوامر اسرائيل تال) كنت لا اثق بكفاية خبرته على الصعيد العالي. ولقد تحدثت الى دايان عن شكوكي في اثناء لقائنا الاخير، قُبَيْلَ مغادرتي الجيش. ولربما امكن فَهْم حساسيات غونن تجاه النصائح على ضوء هذه المعطيات التراتبية. ولم يكن ذلك نذير فأل على كل حال.

بعد ان اطمأنيت الى ان استعداداتنا تجري على نحو سويّ من دون عقبات عدت الى منزلي لأحزم امتعتي وأُودع عائلتي. بعد ذلك قدت بدلا من سيارتي الجيب شاحنة مدنية صغيرة فوقها لوحة اعلانية لسخانات الماء « كارن اور » بالطاقة الشمسية. كانت عربتي الشخصية حينئذ في مرآب فرقتي لتُجهَّز بهاتف ميداني، ولكني لم اعد استطيع الصبر. وهكذا اخترت هذه الشاحنة الصغيرة من بين مئات العربات المدنية — سيارات خاصة وشاحنات — التي اتى بها الاحتياطيون الى مخيم التجمع بعد ان صادروها من اصحابها.

قافلة السيارات التي تنقل القيادة العامة للفرقة الى سيناء كانت مؤلفة من عربات غير متجانسة : سيارات سياحية، شاحنات نقل، شويحنات من كل الاعمار والاطرزة. وفي طليعها شويحنة « كارن اور » هذه، التي يقودها صاحبها الذي يعمل في تركيب سخانات الماء الشمسية. هل كان عالما بالمكان الذي نقصده ؟ ربما لا، ولكن لا بد ان يكون حدسه قد قال له إنه في الاتجاه الصحيح، وهو كان يثق برفاق دربه. كان صديقي القديم زيفيلي اميث جالسا معنا، محشورا بين السائق وبيني. كلما كان يحدث امر ذو شأن في

اسرائيل يكون اميث في الخارج، في مهمة لحساب الموساد؛ وكان يلزمه يوم او اثنان ليجدني. ولكن اتفق له هذه المرة ان كان في البلاد، فما ان سمع بالتعبئة العامة حتى هتف يطلبني ويترك لي رسالة مع ليلي : « قولي فقط لاريك ان ينتظرني ».

بعد ساعتين كان عندي، وقد جاء مرتديا بزة عسكرية بالية، كان يستخدمها منذ ايامنا الحلوة في صفوف المظليين. ولانه لم يتمكن من ايجاد حذاء عسكري على مقاسه كان ينتعل حذاءه المدني. ووجدت ليلي في قعر احدى الخزائن حذائي القديم يوم كنت اقود المظليين، فانتعله. كذلك انضم الينا اوري دان، الصديق الدائم هو ايضا. كان كاتب تحقيقات كبير لمجلة الجيش الاسبوعية، وبهذه الصفة اشترك في معظم عمليات المظليين منذ انشاء وحدتهم. وبعد ان ترك الجيش اصبح احد المراسلين العسكريين والسياسيين الاكثر بروزا في البلاد وصار يلاحق الاحداث في العالم اجمع. واليوم عليه ان يغطي العمليات لمجموعة من الصحف.

جرت بنا السيارة طوال ساعات في بحر من الشاحنات والمجنزرات والدبابات المخلوطة بالسيارات المدنية والاوتوكارات وغيرها من العربات العسكرية، في ما يشبه جيشا شعبيا حقيقيا متدفقا نحو الجنوب. كنا نشاهد من وقت الى آخر دبابات مهجورة على قارعة الطريق. فقد عجز طاقمها عن اصلاحها فتركوها في مكانها وتابعوا سيرهم بالستوب. لن تترك هذه الدبابات وقتا طويلا، فانا اعرف ان وحداتنا المدرعة خلفنا تصطحب معها فرقا من الميكانيكيين ما ان يشاهدونها حتى يصلحوها ويدخلوها الموكب. لذلك لم افاجأ كثيرا عندما تبين لي في صباح اليوم التالي ان عدد دباباتنا ازداد.

توقفنا مرة او اثنتين محاولين الاصغاء الى الراديو في خضم الضوضاء، ووصلنا الى بير جفجافة فجر اليوم السابع من تشرين الاول (اكتوبر). كانت بير جفجافة قاعدة قيادة كل سيناء، وقد تغيرت كثيرا منذ نقلت اليها للمرة الاولى قيادتي العامة بعد حرب ١٩٦٧. لم يكن الموقع آنذاك

اكثر من مجموعة من الاكواخ الحقيرة، وقد غدا اليوم مدينة صغيرة للحامية تستطيع ان تفتخر بشوارها العديدة المغروسة اشجارا على الجانبين. عندما دخلت قاعة الحرب تحت الارض في بير جفجافة شعرت بمرور ما يشبه التيار الكهربائي : قبل ان انبس ببنت شفة وقف كل الضباط كرجل واحد وقد ظنوا للوهلة الاولى انني استلمت قيادة الجبهة.

لم يفتني شيء مهم من اخبار المعركة على رغم بقائي خمس ساعات او اكثر في الشويخة من دون هاتف ميداني. وجدت في المكان كتلة من المعلومات المتوافرة، وهي في معظمها مشوّشة بل متناقضة. لم يكن احد على علم بما كان يجري حقا على الجبهة، ولم نجد من سبيل لتحديد الموقع الذي انطلق منه هجومهم الرئيسي — هذا اذا كان حصل فعلا. وفي غياب صورة واضحة كيف يُحدد تكتيك لهجوم مضاد، وما هي المواقع التي يتعين علينا احتلالها ؟.

في تلك الاثناء غادر غونن بئر سبع الى دبيلة، المركز المتقدم الذي امرت بتشييده فوق جبل كنسته الرياح، على بعد قرابة خمسة وثلاثين كيلومترا الى الجنوب الغربي من بير جفجافة. طلبته بالهاتف لاعلن له وصولي ولاقنعه ايضا مرة اخرى، ان ينتقل في طوافة ليطّلع بنفسه على الوضع في الجبهة. ظل غونن صامتا على الطرف الآخر من الخط : لا ريب في انه متوتر جدا. فقواتنا في الخطوط الاولى تلقت ضربات قاسية. وقد وردت الينا تقارير عديدة عن وحدات فُقِدَ الإتصال بها كليًّا، وعن حصون مطوَّقة. كان يبدو على غونن انه ينظر الى الاحداث كسلسلة من الحرائق الممتدة بسرعة وهو عاجز عن اطفائها لعدم توفر القوات الضرورية.

حاولت ان افهم ما كان يجري حولي فعلمت بعض الاشياء المثبطة للعزم. واولها ان الطيران لم يكن على قدر المقام بالضبط، اذا صح القول... فبعد وقف اطلاق النار في ١٩٧٠ نقل المصريون صواريخ ارض جو الى القناة. وقد تركناهم يفعلون، واليوم ندفع فاتورة غلطنا، وهي باهظة الثمن ! ولم تُنشر وحدات الدبابات على طول القناة، كما كانت تلحظ الخطة. في المقابل،

كان قرابة مائتين من دباباتنا، من اصل ثلاثمائة دبابة لفرقتنا في سيناء، على بعد مائة كيلومتر تقريبا من القناة، فلم تستطع من هناك الرد فورا على عبور المصريين القناة.

اسوأ من ذلك : لم يصدر امر باخلاء تحصينات خط بارليف. ونتيجة لذلك اغرقت الموجة الاولى من الهجوم المصري بعضها وكانت معارك دموية تدور حول تلك التي لم تسقط بعد في يد العدو. كان جزء من لواء المشاة الاحتياطي في اورشليم يدافع عن خط بارليف. ومنذ الساعات الاولى لبعد ظهر يوم امس كان الناجون من الحامية لا يزالون يطلقون استغاثات يائسة.

استجابة لهذه الاستغاثات ارسلت فصائل دبابات من قوات الطليعة لمساعدتهم، بعد ان قامت وحدات صغيرة منهم بجهود يائسة منذ امس لمجابهة المهاجمين. ولدى تقدم الدبابات نحو القناة جوبهت بنيران جهنمية من الدبابات المصرية ومن الصواريخ المضادة للدبابات المثبتة فوق السواتر الحاجزة في الدفاعات المصرية مقابل ضفتنا؛ وحتى تلك التي نجحت في التخلص من القذائف والصواريخ وقعت في كمين وحدات مسلحة بالـ آر. بي. جي. وبصواريخ ساغر المضادة للدروع، التي كانت تنتظرها في جوار التحصينات. غير ان بعضها نجحت مع ذلك في مقاومة العدو وفي شق طريقها حتى خط بارليف.

من مآسي تلك الليلة الاكثر هولا مأساة الاحتياطيين الذين عبثا توسلوا ان تخلصهم من فخ التحصينات — اقول عبثا لان طواقم الدبابات كانوا يحملون اوامر صريحة جدا : عدم إخلاء المدافعين بل الاكتفاء بمساعدتهم ومحاولة فك الطوق عن المحاصرين منهم. ونجحت بعض الدبابات في إخلاء الجرحى، وبعضها الآخر انقض على الخطوط المصرية في جهد لا جدوى منه لصد العدو. وطواقمها التي منيت بخسائر رهيبة حاربوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا، كذلك عرف المصير نفسَه اولئك الذين انطلقوا في الموجة الثانية من الهجوم.

كانت القيادة العامة للجنوب، بممارستها هذا التكتيك المسمى « اطفاء

الحرائق »، تتحدى كل قواعد العقيدة الحديثة لمعارك الدبابات. فبدلا من ان تطرح في المعركة اكبر عدد ممكن من هذه القبضات الفولاذية كانت تضمنُ بها باستخدامها بالنقّاطة؛ وبدلا من استثمار القدرة الكامنة في مدرعاتها بمناورات وعمليات مفاجئة اطلقتها ضد اهداف ثابتة عبر طرق وصول معروفة، ما اتاح للمصريين انتظارها بقدم ثابتة لتعمل فيها تحطيما على هواها. وفي هذه الظروف كانت جهود الطواقم، مع ابدائها شجاعة تفوق طاقة البشر، تبلغ حد الجنون وبالتالي لم تكن مجدية إذ قتلوا جميعهم تقريبا. ففي اليوم الاول خسرنا ثلثي الثلاثمائة دبابة المتوفرة في الخطوط الاولى.

عندما غادرت بير جفجافة متوجها الى القيادة العامة للقطاع الاوسط في تاسا كان كل ما ذكرته قبلا قد وضح تقريبا. انها لفضيحة في حد ذاتها ان يُترك اولئك الرجال لمصيرهم في مخابئهم الحصينة تحت الارض. ولكن ان تُرسَل دبابات على هذا النحو لمساندتهم فذلك ينمّ بوضوح عن حالة من الهلع وعن عجز عن « قراءة » ميدان المعركة. فبدلا من ان نركز قوانا في هجوم مضاد يمتاز بفعالية قوته السريعة الصاعقة جزّئناها في عمليات محدودة وبلا نتيجة. كان هذا الرد، في نظري، تحديا للعقل وشيئا لا يصدق. فمهما يكن الوضع متزعزعا، فإننا كنّا على قرابة مائتين وخمسين كيلومترا من حدودنا، وهذا الواقع كان يتيح لنا الوقت لنركّز قوانا ونوجه ضربة كبيرة للعدو. هل من المعقول ان تكون القيادة العامة غير عارفة بالوضع الميداني ؟ هذه الفكرة اخذت تفرض نفسها علي شيئا فشيئا.

عند عودتي الى قطاع تاسا استعدت شجاعتي عند رؤية دبابات الفرقة وقد بدأت بالوصول. وما اقبل الظهر حتى كانت معظم الوحدات محتشدة في المكان المتفق عليه. كنت اشاهد بوضوح، من احد مراكز مراقبتنا المتقدمة، قذائف المدفعية تغطي كل جبهة القناة. وبدا ان المصريين اقاموا رؤوس جسر في المياه الضحلة على امتداد القطاع، من دون ان يقدموا على هجوم شامل. بكلام آخر، كانوا لا يزالون على الضفة الغربية، لكنهم صدوا هجومنا المضاد.

وقفت على احد الكثبان ورحت اتابع المشهد المتطور امام ناظري. وكنت من حين الى آخر أُوقف احدى دباباتنا او عرباتنا المارة امام مركز المراقبة لأتحدث الى الضباط. وذهلت للتعبير الغريب المرتسم على وجوههم : لم يكن خوفا بقدر ما كان ذهولا. ففجأة حدث لهم ما لم يعرفوه قط من قبل، هم المحاربون الذين تربوا على الغلبة، وإن تكن انتصاراتهم غير سهلة دائما. وها هم الآن تحت وقع الصدمة : المصريون يعبرون القناة تحت اعيننا ويتقدَّمون فيما نحن نتراجع متقهقرين — كيف أمكن ذلك ؟.

امام هذه الوحدات المنهزمة استعدت ذكرى مشهد حدث في منطقة القناة قبل اسبوع تماما. فيوم السبت السابق لعيد الغفران كنت موجودا في سيناء لاخذ فيلم مخصص للدعاوة الانتخابية. كان معي ليلي وعمري وغيلاد؛ وبعد أخذ الصور تغدّينا على ضفة القناة. كان المصريون في الجانب الآخر يعملون بلا ملل على رفع سواترهم اكثر فاكثر، تماما مثلما كانوا يفعلون قبل ثلاثة اشهر في اثناء زيارتي الاخيرة هذا المكان. وكان احد المصريين يوجه الينا من وقت الى آخر ايماءة ما على سبيل التحية. وقد انضم الينا العديد من جنودنا ليأكلوا على الضفة؛ وجلس غيرهم الى جانبنا يتسامرون بهدوء. كان المكان يبدو هادئا على رغم كل هذا النشاط العسكري. لكنني قلت للجنود قبل ان اغادر المكان : « انصحكم بالتزام الحذر. فالوضع يبدو هادئا، لكنَّ كل شيء قد يتغيّر في لحظة ». عند قولي هذا الكلام لم اكن افكر في احتمال حدوث حرب بل في الفترات الهادئة التي كانت تسبق وقف النار وكان يتخللها بين وقت وآخر اطلاق قذائف غير منتظرة ومميتة.

لكنَّ وقف اطلاق النار خُرق اليوم فعليا. فتواردت الى خاطري الخطوط الرئيسية لخطة عمل وفرضت نفسها على افكاري. كان المصريون قد احرزوا نجاحا ذا قيمة؛ عبروا القناة وصدوا هجوماتنا المضادة. فلا بد ان يكونوا واقعين تحت نشوة نجاحاتهم الاولى. في المقابل، كانت معنويات رجالنا المحاصرين في مخابئهم تحت الارض او المتقهقرين منهارة نوعا ما. فهذا الجيل لم يعرف

نكبات حرب الاستقلال التي عاشها جيلي وتغلب عليها. مَن يستطيع ان يتكهن برد فعل جيش منهزم ؟ فآلاف المصريين صاروا الآن في ضفتنا، ورؤوس جسورهم تتدعم من ساعة الى اخرى بالقوات والتجهيزات. والطريقة الوحيدة الآيلة الى « كسرهم »، حسب التفكير السليم، هي اطلاق هجوم عنيف كاسح من فرقتين على الاقل. ولكن كان يتعين المبادرة بسرعة والهجوم ما دامت رؤوس الجسور لا تزال ضعيفة وقابلة للتجريح.

وهذا الهجوم، كما كنت اتصوره، يجب ان يبدأ حالما يصبح في وسع فرقة ابراهام ادان العمل بتنسيق كامل مع فرقتي، اي في الغد. وحتى ذلك الوقت، ثمة اشياء اخرى ينبغي انجازها. فمراقبة الوضع على الجبهة اقنعتني بان اخلاء رجالنا العالقين في فخ خط بارليف كان لا يزال ممكنا. كنت انوي ان اقوم ليلا بهجوم مركَّز على قطاع مصغَّر، هجوم ينجزه رتل على الاكثر بقصد تحقيق اهداف محددة جدا. كان في وسعنا اطلاق حمم كل مدفعيتنا الى الجهة الاخرى من القناة والتقدم برتل الدبابات في اضيق ممر ممكن، وإقامة الاتصال بالمدافعين عن التحصينات، الذين يفلتون حالما نشير اليهم في اثناء الهجوم. لم اكن اشك في ان عملية كهذه قادرة على تخليص رجالنا. فضلا عن انها قد تقضي على رؤوس الجسور المصرية وتمنع تمتينها، ولو موقتا.

عدت بهذه الخطة، المصاغة بوضوح في ذهني، الى القيادة العامة في تاسا. في الساعات التي تلت، وحتى الساعة الثانية بعد الظهر، اتيح لي ان اتحدث الى امنون رشف، المقدم الشاب الذي كان يقود لواء الدبابات التي كانت في الطليعة وتكبدت خسائر جسيمة. بعد الليلة الرهيبة التي مرت عليه كان تعِبا حتى الموت، لكنه حافظ على برودة اعصابه وكان قادرا على وصف اختباراته مع المشاة المصريين بكل تفاصيلها. وقد قدر ان ١٤ دبابة، وربما عشرين، كانت لا تزال صالحة للعمل من اصل مائة دبابة تضمها وحدته...

كذلك حاولت الاتصال بحاميات التحصينات لاعرف وضعهم وهل هم

قادرون على الخروج بوسائلهم الخاصة. وقد كرر جهازُ ارسال حصن هيزايون، المطوق قرب جسر الفردان، رقم شيفرتي مرارا عديدة : « اربعون، اربعون، تعرَّفنا الى صوتك. نحن نعلم... نعلم انك ستسحبنا من هنا. رحماكم، ارسلوا الينا العون ». كان ما نسمعه دفقا مشوَّشا من كلمات وتضرعات صادرة عن احتياطي قُتل كل رؤسائه. واستمر هذا الصوت يترجّانا هكذا طوال الايام الثلاثة التالية حتى أُخرس جهاز البث نفسه؛ فحامية هيزايون قتل جميع افرادها او أُسروا.

اتصلت بغونن لأقول له رأيي في قدرتنا على تخليص الناجين في التحصينات. فهذا واجبنا كجنود. واضفت انها مسألة ادبية. لكنه لم يقبل عرضي، بل اجابني : « ليس من وسيلة لاخراجهم من هناك. فعملية كهذه ستكلفنا خسائر لا نستطيع ان نسمح بها بعد تلك التي تكبّدناها ». اصررتُ مكررا ان الامر ممكن واننا لا نستطيع الا ان نحاول. كنت اسمع صوت جهاز حصن هيزايون كرجع صدى.

الوضع لا يطاق. في حصن هيزايون قُتل الضباط وجرح بعض المحاربين الآخرين. وحصن بوركان مقابل الاسماعيلية كان مطوَّقا. لكن قائده مائير وايزال، النقيب الاحتياطي، كان ينقل الينا معلومات واضحة ومتماسكة عن تحركات المصريين. وحصن ماتزمِر، في اعلى الطرف الشمالي للبحيرة المالحة الكبرى، كان صامتا. اما لاكيكَن الواقع على ضفاف البحيرة في اتجاه الجنوب فلم يكن قد هوجم بعد فأمرت رجاله بان يغادروا المكان تحت جنح الظلام.

بعد رفض غونن اتصلت مباشرة بموشيه دايان. وصفت له الوضع واستعجلته بقدر الامكان. وبعد جدل طويل قال لي دايان ان اجتماعا سيُعقد هذا المساء عينه في دُبَيْلة، عند السابعة مساء، وهناك فقط يمكن اعطاء موافقة على عملية كهذه. اتصلت مجددا بغونن لأقول له اني ساطرح المسألة في هذا الاجتماع. اجابني هذه المرة انني استطيع اتخاذ كل الاستعدادات الضرورية للعملية، مضيفا

انه يحظِّر علي الإقدام على اي عمل قبل قرار دُبَيْلة، وإن طوافة ستمر وستنقلني في المساء.

في تلك الاثناء اصبحت منطقة تاسا خطرة اكثر فاكثر. فمنذ بداية بعد الظهر شوهدت طوّافات مصرية تطير في القطاع منزلة وحدات مغاوير مكلفة بتشويش نقاط تمركزنا ومواقع قيادتنا. ولقد استطعنا اسقاط بعضها وارسلنا دوريات استطلاع لتأمين سلامة القطاع، ولكن لم يكن احد يدري ما يحصل تماما. في ظروف كهذه اعتبرت حط الطوافة على مدرجنا مجازفة، فأعلمت قيادة غونين العامة انني سأنتظرها في مكان آخر بين الكثبان المجاورة.

قبل قليل من موعد وصول الطائرة صعدت الى سيارة جيب آخذا معي جهاز راديو ومصطحبا الرقيب اول موّتي ليفي، الصديق الذي يعمل معي كسائق طوال سنوات عديدة. وسويةً وضعنا علامات يسترشد بها الطيار ليحط؛ ثم رقدنا على الرمل وانتظرنا. ازفَّت ساعة الميعاد ولا شيء في الافق ومرّ وقت طويل ايضا ولم تحضر الطوافة. فجأة قلت لنفسي ان الطيار يكون اخطأ وحط في مدرج تاسا، كما كان متفقًا من قبل. فقررت العودة على رغم الخطر. قاد موتي السيارة ورحت انا من مقعدي اسبر غور الظلمة واصبعي على زناد الكلاشنكوف.

ولكن لا احد في تاسا، فتعين علينا ان نعود ادراجنا. كنا على اتصال بالراديو مع قيادتي العامة التي اتصلت بقيادة الجنوب حيث قيل لها ان الطوافة « في الطريق ». انتظار جديد ونحن ممدَّدان على الرمل. كانت الحرارة قد انخفضت، لكن الرمل لا يزال حارا ناعم الملمس بعد ان امتص حرارة النهار. وانتظرنا على هذا النحو قرابة ساعتين قبل ان نشاهد الطائرة تصل اخيرا.

صعُب علي التصديق ان في الامر خطأ؛ ففي نظره كان التأخير مدبَّراً. فالظاهر ان غونين علم باتصالي بدايان فتأكّد له انني اذا حضرت الاجتماع قد اضطرهم الى اتخاذ قرار : تخليص الرجال العالقين في فخ التحصينات

المميت او تركهم لمصيرهم. كان ممكنا ان يأخذ الجدال منحى عنيفا، ولتجنُّب ذلك جعلوني انتظر عدة ساعات في الكثبان.

عندما انزلتني الطوافة في جبل ام حشيبية، حيث حفر مركز دبيلة، كانت الساعةُ العاشرةَ ليلا. والليل بهيم لا اثر فيه لنور. والى الغرب تدوّي المدافع وتنير البروق خط الافق البعيد. وإذ اقتربت من مدخل المركز المحصَّن تحت الأرض، والغارق في العتمة، شاهدت شخصين يخرجان وهما يتجادلان، فعرفت فيهما رئيس الاركان دافيد اليعازر واسحق رابين العائد منذ وقت قصير من واشنطن حيث يعمل سفيرا لاسرائيل.

عرفني اليعازار فورا واعلن لي ان الاجتماع مقبل على نهايته. لقد ناقشوا برنامج الغد ولم يبق علي الا النزول الى الملجأ لاسمع من فم غونن نفسه ما تم اقراره. فاجبت اليعازار ان كل ما شاهدته هذا النهار في الجبهة اقنعني بوجوب اجراء هجوم مركّز من فرقتين على الاقل. فاجابني : « لا نستطيع ان نسمح لانفسنا بذلك، لان القوة الوحيدة التي نملكها حاليا بين هذا الموقع وتل ابيب هي فرقتك ». قلت : « لا يستهدف المصريون تل ابيب وليسوا يملكون الوسائل لذلك. هدفهم هو القناة وخط الكثبان : ثمانية الى عشرة كيلومترات في سيناء. وهم لا يستطيعون السماح لانفسهم بالابتعاد خارج مظلة حماية صواريخهم ارض جو ». حاولت ان اقنعه ان جهدا مركزا يتم الآن من شأنه ان يهدم رأس الجسر الشمالي للجيش المصري الثاني؛ فيتاح لنا بعد ذلك ان نمزق اربا جيشهم الثالث في الجنوب. وإذ كاد يبلغ النقاش حده وضع رابين يده على كتفي وقال لي : « إريك نحن نعتمد عليك لقلب الوضع ». ثم ودعني الاثنان قبل ان يختفيا في الظلمة.

نزلت الى الملجأ حيث كان غونن. كررت له ما قلته لاليعازار، مقترحا ايضا ان نرد على الهجوم المصري بعبورنا القناة فورا في قطاع القنطرة، وان نتخذ هذا القرار حالا ونستعد للانزال بالتصاقنا اكثر فاكثر بضفة القناة في

تلك المنطقة. فاجابني بلهجة جافة ان الخطط قد جهزت ولا يمكن تغييرها. وحدد بقوله إن فرقة ادان، الموجودة حاليا في القطاع الشمالي، ستقوم غدا ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) بهجوم مضاد. ستهجم من الشمال الى الجنوب، في موازاة القناة، ولكن على مسافة ثلاثة كيلومترات الى الشرق من الخط المائي، تجنُّباً لصواريخ ساغر التي ركزت قواعدها فوق السواتر الترابية المصرية. خلال ذلك تحتشد فرقتي منذ الفجر شمال غرب تاسا لتهاجم من الجنوب الشرقي الى الشمال الشرقي من اجل دعم هجوم ادان. ولكن عليَّ ألّا اتحرك قبل اشارة الهجوم في الصباح الباكر. وبالنسبة الى التحصينات لم تُلحظ اي عملية خاصة. واضاف : على كل حال، اذا نجح الهجوم نكون قد انجزنا اتصالا معهم.

مرة اخرى كررت على مسامع غونين انه ينبغي حتما الهجوم بفرقتين على الاقل. لكنه كان متحفظا لدرجة اني رأيت من العبث الالحاح اكثر. وبدلا من ان اجادله اخذته على حدة لأُكلِّمه مني اليه : « شموليك، اصغ اليّ جيدا، لقد تركت الجيش نهائيا لأتبعَ طريقا آخر. ولست عائدا لأحتلَّ مكانك. كل ما اريده هو هزم المصريين. وحالما ننتهي منهم أُحيِّيك وامضي. شموليك، انت تستطيع ان تربح هذه الحرب، هل تسمعني ! يمكنك انهاءها منتصرا. كل ما عليك فعله هو تركيز قواك لهزمهم. لست عدوك... وليس عليك ان تنافسني. احتفظ بقواك للمصريين ». هزَّ رأسه علامة موافقة وفتش عن كلماته ليصوغها. لكنّ كلماته لم تقنعني.

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، حالما وصلت تاسا، جمعت ضباطي. عرضت لهم الوضع على ضوء انوار الجيب وبعض المجنزرات، ودرسنا الخرائط سوية. قلت : سننطلق في الرابعة حتى نصل الى حيث يُطلب منا عند مطلع الفجر. كانت صواريخ فروغ المصرية تشق السماء عاليا فوق رؤوسنا متجهة صوب احد مراكزنا للمراقبة الجوية. راقبتها لحظة فذكّرتني بالكرات الحمر للمدفعية العربية ذات ليلة معتمة على جبهة النطرون، قبل خمس وعشرين سنة.

لم يدم سوى لحظة هذا الاجترار للماضي. انهيت اجتماع التعليمات ونمت حالا في مكاني. وهناك، على الرمل، حلمت بوضوح نادر اني اشترك بمناورة ضخمة في سيناء... ثم نهضت قافزا. كانت ساعتي تشير الى الرابعة الا بضع دقائق. في اللحظة عينها بدأت محركات المجنزرات والدبابات تزأر. قفزت والنعاس يغالبني الى عربتي المدرعة وانطلقت الى المكان المتفق عليه على ضفاف القناة، حيث عليّ ان انتظر اوامر مركز قيادة منطقة الجنوب.

عند تباشير الفجر اصبحنا فوق المرتفع الذي يُشرف على سهل القناة. وامامنا الى البعيد كانت غيوم ضخمة من الغبار تشير الى ان المصريين مزمعون ان يبدأوا هجوما واسع النطاق انطلاقا من رؤوس جسورهم. وقد بدأنا نميز ارتال الدبابات والمشاة المتقدمين نحو الشرق؛ وكنا نشاهد ايضا وحداتنا تلتحم بها وتحاول يائسة صدَّ تقدُّمها. وعلى بعد قرابة مئة متر منا انفجرت قذيفة رافعة الى السماء بحركة لولبية سريعة زوبعة من الغبار. ولم تمض ثوان حتى انفجرت اخرى محدثة صوتا يصمُّ الآذان، ولكن هذه المرة خلفنا كما لو انها تعلمنا اننا واقعون في حقل رماية المدفعية المصرية. فغيرت اماكنها المجنزرات الخمس التي استعملها كمركز قيادة ميدانية. وبعد دقيقة او اثنتين نجحت المدفعية المصرية في معرفة مكاننا مجددا. وعند كل توقف كانت القذائف تصفر في آذاننا. كان الامر واضحا : لا بد ان يكون في الجوار خبراء لتصحيح الرماية. لذلك ارسلت دورية استطلاع تمشِّط القطاع. وبعد بضع دقائق سمعنا تبادلا قصيرا بالاسلحة الآلية وظهر رئيس الدورية من وراء تلة وهو يلوِّح لنا بمنظار سوفياتي الصنع اخذه من احد المراقبين المصريين الثلاثة الذي نجحوا في التسلل خلف خطوطنا.

دقائق معدودة مرت قبل ان تصل رسالة من قيادة الجنوب العامة تأمرنا بألّا نهاجم. في المقابل، علينا ان نصد التقدم المصري في قطاعنا وننتظر انتشار قوات ادان المهاجِمة، واذ ذاك تصلنا تعليمات جديدة.

عند الساعة الثامنة صباحا كانت قد اتسعت معركة المدفعية والدبابات

ضد موجات الهجوم المصري. وواضح ان مهمتي كانت تقوم على الاحتفاظ بالمرتفع الموجود في قطاعنا ثم على اعطاء دعم تكتيكي لاحق لأدان، او على الهجوم في اتجاه الجنوب، وفق تفسير سير المعركة من قبل القيادة العامة للجنوب. كنت انتظر بفارغ الصبر اشارات قوات ادان المفترض فيها ان تتقدم وفق محور شمال — جنوب، في موازاة القناة.

لم ار هذه القوات الا الساعة العاشرة الا ربعا. لكنها لم تكن تتقدم، كما كنت افترضت، على طول الجبهة وعلى بعد عدة كيلومترات شرق القناة. كانت غيوم الغبار التي ترتفع من ارتال أدان تبرز في الافق على بُعْدٍ قدَّرتُه بين احد عشر واربعة عشر كيلومترا من خط القناة. كنت اراقب المشهد من نقطة مراقبة على السفح الغربي لقمة هابراغا؛ ففوجئت اولا ثم اكتئبت عندما شاهدت دبابات ادان تندفع جنوبا فتمر عند مؤخرتنا وتستدير الى الغرب متجهة نحو المصريين. كانت القوى المشتركة في المعركة مخفّضةً نسبيا قد لا تتعدى الكتيبتين، وهي تنقضّ بشجاعة مثيرة للعجب تحت وابل من المدفعية المصرية. لم يكن هجوما تقوم به فرقة، بل لم يكن هجوما مركّزا. ولذلك لم يكن له اي حظ بالنجاح. لكنَّ الوقت لم يكن لليأس. في الحادية عشرة الا ربعا وردني من قيادة الجنوب العامة امر بالاستفادة من « نجاح » ادان والهجوم في اتجاه الجنوب. بتحديد اكثر، كان مفترضا فيَّ ان اعيد كل فرقتي الى الطريق الجانبية الممتدة خلفنا على بعد ستة عشر كيلومترا منا، ثم التقدم من هناك نحو الجنوب على امتداد قرابة مائة كيلومتر لاحتلال رؤوس الجسر المصرية المستقرة على الضفة الشرقية من القناة، ليس بعيدا من مدينة السويس. وكانت فكرة القيادة تبدو كما يلي : بما انه افترض ان ادان قد قطَّع الجيش الثاني المصري إربا، سأتمكن انا من فعل الشيء نفسه بالجيش الثالث الذي لا يدري حتى الآن ما حل بالجيش الثاني.

كل ذلك كان يبدو لي غير واقعي. فاولا لم يُحرز ادان اي نجاح (بعد عدة ساعات سنعلم ان قسما من قواته ابادتها الدبابات ووحدات المشاة المصرية

المضادة للدروع). ثم ان فرقتي كانت تحتل مرتفعا ذا اهمية استراتيجية حاسمة، فاذا تركته سيكلفنا استرداده الكثير، واذا فشلنا في ذلك يتعين علينا التخلي حتى عن فكرة القيام باي هجوم في هذا القطاع من القناة. اخيرا، ان الادعاء باننا قد نستطيع ان نشق طريقنا الى القناة جنوبا وان نجد جسورا مصرية سالمة انما هو خلط بين رغباتنا والوقائع. وحتى لو نجحنا في تسجيل هذه المأثرة فانه من المعروف ان الجسور المصرية صممت لمرور دبابات خفيفة من صنع سوفياتي وبالتالي لا تتحمل دباباتنا الثقيلة. وفي اختصار، لم اكن اتوصل الى سبر غور هذا السر الذي جرى تصوره في ملجأ الاركان العامة ؟.

عندما تلقيت امر التقدم نحو الجنوب اتصلت فورا بغونن. لم أَتلعثم وانا اقول له إن ما يطلب مني فعله هو خطأ فادح قد تكون نتائجه بمثابة كارثة. قلت له : « ادان لم يحرز اي نجاح، ولست ارى اي نجاح يمكننا استثماره ». ثم اعلمته بالتلال التي نحتلُّها وحددت الاجراءات التي نتخذها لإيقاف تقدُّم المصريين. وقلت له « ان حظوظ الاستيلاء حتى على جسر مصري واحد هي عمليا لا شيء ». ونصحته هذه المرة ايضا بان يأتي الى الجبهة ليطّلع على الوضع اذا كان لا يثق بكلامي.

جوابا على كلامي وبخني غونن حسب الاصول وهو يصرخ عبر الجهاز : اذا لم اخضع للاوامر سأُعفى من قيادتي.

وحالا !، كررت قولي من دون ان اضطرب : « حسنا، تعال الى هنا وانظر بنفسك ». فصرخ غونن : كلا ! انت مفصول، ومنذ هذه اللحظة ».

فكرت لحظة وقلت لنفسي انني لا استطيع الا الإطاعة. لذلك امرت قواتي باخلاء تاسا والتوجه نحو الجنوب. لكنني حرّفت قليلا اوامر غونن، فبدلا من قطع كل اتصال بالموقع تركت فيه وحدة استطلاع تابعة للفرقة، مهمتها احتلال هاتين التلتين اللتين كنت اعتبرهما مهمتين جيدا من الواجهة الاستراتيجية. سمينا الاولى « حمادية » والثانية « كيشوف ». كانتا تنتصبان الى

جانبي طريق اكافيش التي تؤدي الى القناة قبل خمسة اشهر، مع « باحته » المسوَّرة بحائط، وسواتره الحاجزة المفرَّغة من الداخل. كنت ارفض ببساطة ان اترك للمصريين السيطرة على هذين المرتفعين. فان فعلت ذلك نخسر تماما كل حظ لنا ببلوغ ذلك القطاع من القناة، فضلا عن اننا نشرِّع لكل ريح امكانية الوصول الى تاسا، مركز قيادة قطاع الوسط.

بعد ان اخذت كل الاجراءات الضرورية للإمساك بهاتين التلتين توجهت جنوبا على رأس ما تبقى من قوات : مائتي دبابة مع منصات نقلها، كل مجنزرات الفرقة وبقية التجهيزات. كان الامر واضحا في نظري : كنا على وشك اقتراف اسوأ الاخطاء، لكنني كنت مصمما على التقدم بسرعة، كما أُمِرت. لم يكن في وسعي ان افعل شيئا لتلافي الوضع — واذا كان عليّ ان اضرب في الجنوب فسأفعل ذلك بأسرع واقوى ما يمكن.

بعد ثلاث ساعات ونصف كنت قد صرت على مقربة من ممر الجدي، على بعد ثمانين كيلومترا الى الجنوب، عندما لحقت طوافة بالرتل وحطت قرب عربتي. نزل منها ضابط ارتباط قيادة الجنوب العامة واخبرني بكلمات قليلة ان هجوم ادان فشل... فالقوات الاسرائيلية لم تعبر القناة، كما ادى تقرير خاطئ في الساعات الاولى من النهار. وليس فقط لم نصد المصريين بل ان فرقة ادان تكبدت خسائر فادحة. وفي الساعة الحالية يتقدم المصريون نحو المنطقة التي اخليناها. لذا نُؤمر بالعودة حالا الى نقطة انطلاقنا لمساعدة ادان واستعادة التلتين الاستراتيجيتين بقدر الامكان.

كيف اجد الكلمات لاعبر عما خالجني آنذاك من شعور ؟ ان كنت استطعت كظم غيظي والتصرف بسوية فلان الغضب شل قواي كليا. حصل هذا في ٨ تشرين الاول (اكتوبر). قبل ذلك بيومين سحب كل رجال فرقتي من منازلهم ومعابدهم. وفي اقل من اربع وعشرين ساعة انضموا جميعهم الى وحدتهم واجتازوا اكثر من ثلاثمائة كيلومتر حتى وصلوا منطقة القتال. كان ذلك اداء جديرا بالثناء ومأثرة يعجز عن الاتيان بمثلها جيوش العالم.

وفي الليل السابق تسلم الرجال اوامرهم وانتشروا قبل طلوع الفجر مستعدين للمعركة. واليوم إذ يتوجب عليهم دعم معركة فاصلة بددوا وقتهم وهم يسيرون بغباوة في الصحراء. كان لوني مخطوفا من كثرة الغضب عندما امرت مئات العربات بالاستدارة للسير في الطريق التي أتت منها.

عند ملامح الغسق وجدنا انفسنا عند اللتين اخليناهما هذا الصباح. كانت كيشوف وحمادية لا تزالان بين ايدينا بفضل الكتيبة التي ابقيتها فيهما، وقد قتل قائدها بِنزي كرمِلي في اثناء المعركة. لكن التلال الثلاث الواقعة شمال حمادية اصبحت الآن بين ايدي المصريين. في المساء نفسه تكبدنا خسائر فادحة في اثناء محاولتنا استعادة المواقع الاساسية في قمة التلال، وقد احتدمت حول المرتفعات معركة بالدبابات حتى ساعة متقدمة من الليل.

اليوم الثامن من تشرين الاول (اكتوبر) كان يوما اسود لجيشنا آذى قواتنا في الصميم. لم نحصد في اليومين الاولين من الحرب سوى هزائم، ولكن كان لا يزال من السهل نسبيا ان نتذرع خلالهما بظروف مخفِّفة : معلومات استخباراتية غير كافية وغير دقيقة، تقديرات مغلوطة من وزير الدفاع موشيه دايان، اخطاء مجلس الوزراء. غير ان احداث ٨ اكتوبر لم يكن مسؤولا عنها سوى الجيش نفسه.

لقد انقلب ظهر المجن للجيش الاسرائيلي نتيجة اخطاء تكتيكية فادحة، بالاضافة الى رضى ذاتي عند قادته تحول تدريجا بعد ١٩٦٧ الى الصَّلَف. فبعد حرب الايام الستة وانتصاراته الباهرة بات الكثيرون من كبار الضباط مقتنعين بان الدبابة هي السلاح المطلق. ألم يُشاهد المشاة العرب ينهزمون هاربين كالارانب امام ارتال الدبابات ؟ هل يعود الفضل في الهزيمة العربية لتكتيك كبار ضباطنا ام لاداء قواتنا ؟ هذا السؤال لم يحظ بكبير اهتمام ما دامت الدبابات قادرة على سحق العدو وتأمين النصر...

على ضوء هذا المفهوم اصيب الجيش الاسرائيلي بعد ١٩٦٧ بما يشبه « هوس

الدبابات »المَرَضِيّ«. فاهملت اجزاء الجيش الاخرى : المشاة، القوات المحمولة، المدفعية. وأُنزلت من محمل الجد عقائد قتالية ثابتة مثل حاصل القوات/ الجهد المركَّز، كما لو أنّ جنرالاتنا وزَّعوا الادوار مرة تغني عن سواها : على الدبابات الاسرائيلية ان تنقض وعلى المشاة العرب ان يهربوا في حركة كبيرة من الخوف المرعب. إن اخطاء غونن، كما حللها ادان في ما بعد، تُعزى الى واقع انه لم يكلف نفسه عناء القيام بتقويم الوضع ووثق تماما بحسه. وكان حدسه « مبنيا على اختباراته السابقة مع المصريين الذين كان يكن لهم احتقارا كبيرا[1] ».

لم يحتكر غونن وحده هذا الخطأ في الحكم. من هنا تلك الصدمة العميقة في ٨ تشرين الاول (اكتوبر) عندما لم تنهزم القوات المصرية امام الدبابات الاسرائيلية. والعكس هو الصحيح : فالجنود المصريون الذين واجهونا في ذلك اليوم كانوا، ربما، اول مشاة في العصر الحديث مجهزين ومدربين ليقاوموا الدبابات بل ليصلوها نارا قاتلة باسلحة مصممة خصيصا لذلك. فدبابات ادان من طراز سنتوريون وباتون اصيبت من بعيد بوابل من صواريخ ساغر وغيرها من الاسلحة المضادة للدروع. ومَن نجح من قواتنا في محاربة العدو وجها لوجه وجد ذاته مطوقا بجماعة من المصريين الذي يواجهونه بصواريخ ساغر وبازوكات الـ آر. بي. جي. كان يقود هجومنا نايك نير باثنتين وعشرين دبابة فاشتعل منها ثماني عشرة دبابة. ولم يستطع الباقون شق طريقهم حتى بعد ثمانمائة متر من القناة الا بعناد بطولي قبل ان يأمرهم نير بالتقهقر ومواصلة اطلاق النار.

من جهتي كان ذلك النهار بمثابة نقطة تصدع. كنا نملك نحن الاثنين، ادان وأنا، قوة كافية لهدم رؤوس الجسر المصرية أمامنا. كانت لا تزال قابلة للتجريح وبعيدة من ان تشكل المواقع الدفاعية القوية التي كوَّنتها في ما بعد

(١) ابراهام ادان، **حرب يوم الغفران**، نيويورك، ريتشاردسون وستايرمان، ١٩٨٦، ص : ٣٣.

عندما اطلقنا اخيرا هجوما متفقا عليه في ١٥ تشرين الاول (اكتوبر)، اي بعد سبعة ايام. كان على غونن او احد ضباط الاركان ان يأتي الى ميدان المعركة، ليقدر بام العين الوضع ويفهم ما يتعين فعله. ففي تلك المرحلة كان ينبغي الهجوم بفرقتينا معا. وبدلا من ذلك اكتُفي بهجوم ادان غير المنسق كفاية والمفتقر الى قوات وعتاد. وانا امضيت ذلك النهار بطوله اقود سيارتي واسير بلا جدوى خلف الخطوط، وكانت النتيجة تلك الهزيمة الساحقة التي اطالت الحرب قرابة اسبوعين وسببت لنا خسائر ضخمة كنا نستطيع تفاديها. بعد ذلك رحلت « املي » بالمكبِّر كل امر استلمه من قيادة الجنوب العامة، واقرأه مرتين وثلاث مرات، وانا مقتنع ان ابراهام ادان والبرت ماندلر (قائد قطاع الجنوب) فعلا الشيء نفسه، ربما مع اعتماد الكتمان اكثر مني.

في المساء نفسه اتصلت هاتفيا بموشيه دايان لاطلعه على الكارثة. كان على علم بها بعد ان فهم اسبابها. وقبل ان اتصل به كا قد اوصى رئيس الاركان دافيد اليعازار ان نتبادل الادوار غونن وأنا، فيستعيد غونن قيادة الفرقة وانا قيادة منطقة الجنوب العسكرية. لكن اليعازار رفض في تلك الليلة نفسها هذا الاقتراح. سيبقى كل في مكانه، لكن ضابطاً آخر سُعين فوق غونن وتوضع قيادة منطقة الجنوب تحت مراقبته. ولم يكن هذا الضابط غير وزير التجارة والصناعة آنذاك، رئيس الاركان سابقا، حاييم بارليف نفسه. كنت لا ازال محتدما غيظا بعد حوادث النهار وكان هذا التعيين هو آخر شيء احتاجه لاهدأ. كان بارليف وحده ينقص في هذا التعقيد من الدسائس والحسابات السياسية الصغيرة. لم تكتمل الباقة الا به... وعلي الآن ان اتحمله هو ايضا. فتكوّن لدي انطباع باني وقعت على وكر زنابير. وقلت لمن كان معي في عربتي ان الوضع كان يذكّرني بسقوط الجمهورية الاسبانية. فالجمهوريون الاسبان بشقاقهم وخناجرهم الموجهة من الواحد الى ظهر الآخر قدموا الجمهورية الى فرانكو. بددوا قواهم بصراعات داخلية بدلا من ان يواجهوا العدو كرجل واحد. وفي تلك المرحلة كنت اشعر اننا نحذو حذوهم.

عبور القناة

كان يوم الثامن من تشرين الاول (اكتوبر) كارثة حقيقية وكابوسا لرجال الدبابات. اطلقنا في المعركة احدى اشهر وحداتنا فلم يكتف المصريون بصدها بل عمدوا الى نتف ريشها. بعد النصر كانت التحاليل والتعليقات المسماة عقلانية تتمتع بحظوة الجماهير التي كانت يحلو لها التأكيد ان قرارا ثاقب البصر كثيرا اتخذته تلك الليلة القيادة العسكرية العامة بعد تحليل واعٍ وبعيد النظر للوضع الميداني، وهو قرار خلص الى الخطة الآتية : اتخاذ موقف ساكن من شأنه ان يجذب القسم الكبير من الوحدات المدرعة المصرية من الضفة الاخرى للقناة؛ سحق القوات العدوة بمعركة دفاعية يليها عبور قواتنا القناة لترسو على الضفة الغربية التي سيكون دفاعها ضعيفا آنذاك. لسوء الحظ ان هذا السرد البَعدِيّ للاحداث يريد تجاهل ما حدث فعلا. والحقيقة هي ان محنة ٨ اكتوبر اغرقت القيادة العليا للجيش في حالة من الذهول حتى انها لم تعد تدري ما ينبغي فعله باستثناء « الصمود ».

هذا الموقف اخرجني من ثيابي، مثله مثل معظم قرارات هذه الحرب. لم اكن استطيع قبول هذا الموقف الانتظاري الذي يعطي المصريين، في رأيي، حرية التصرف الكلية لتدعيم رؤوس جسورهم وخطوطهم الدفاعية : ان نبقى هكذا مكتوفي الايدي ونسمح لباقي قواتهم بعبور القناة !... فالبداهة عينها تأمرنا، على عكس ذلك، بمهاجمتهم وخبر نقاط ضعفهم والبحث عن ثغرات

يمكن استثمارها. ولست ابالغ قطعا اذا اكدت ان ثقتي بقيادة الجنوب العامة او بالاركان كانت شبه معدومة في تلك المرحلة؛ فالاثنان كانا في نظري عاجزين عن « قراءة » ميدانية ملائمة.

ومع ذلك خضعت للاوامر، وفي اليوم التالي ٩ تشرين الاول (اكتوبر) اعطيت في ساعات الصباح الاولى رؤساء الويتي الثلاثة — امنون رِشِف وحاييم أَرَز وطوبيا ربيب — تعليمات للاكتفاء بالدفاع بهدف وقف تقدم القوات المصرية المتوقع. لكنني كنت انتظر منهم ان يبرهنوا من تلقاء انفسهم عن روح مبادرة خلاقة. ففي هذه المعركة الدفاعية المتحركة المائعة، الخاصة بسلاح الدبابات، عليهم ان يقتنصوا كل سانحة ليستعيدوا على قمم التلال المواقع التي اخليناها امس. في تلك الليلة نفسها تحدثت مطولا بالهاتف مع وايزل، قائد السرية في حصن بوركات مقابل الاسماعيلية. قلت له : « كل شيء يتعلق بك. حاول ان تفك الطوق عنك والهرب لتبلغ حاموتال (وهي تلة واقعة على بعد قرابة عشرة كيلومترات شرق القناة). وانا ساعمل المستحيل لتنتظرك دبابات هناك ».

فجر اليوم التالي كانت عدة دبابات وعربات مدرعة من لواء امنون رِشِف تنطلق بقيادته في اتجاه تاليسمان، الطريق المتجهة من الغرب الى الشرق والمارة امام حاموتال. في اللحظة عينها كانت المعركة محتدمة في المنطقة. وكانت قوات طوبيا ربيب تحاول جاهدة صد هجوم مصري مشترك بين سلاحي الدبابات والمشاة. ونتج من ذلك تحطيم ثلاث عربات مدرعة في وحدة امنون رشف بصواريخ وقذائف. لكن احدى الدبابات نجحت في ايجاد الناجين، الذين هرّبهم بروكان بدم بارد مثير للاعجاب، واخلائهم. وهكذا برز من غبار المعركة مارد فولاذي محاط بعنقود بشري من ثلاثة وثلاثين ناجياً، كأنه مارد آت من عالم آخر. والى الجنوب قليلا من المكان كانت قوات اخرى من لواء طوبيا تنصب كمينا قرب حمادية للواء الدبابات المصري الرابع عشر، محطما اندفاعه. وفي اثناء احتدام المعركة امرت بهجومات موضعية نحو تحصيني

تِلفيزيا ومكشير لأُخفِّف ضغط المصريين الكبير عن حاموتال وعن مؤخرة حمادية حيث كانت تنتشر مدفعيتنا وحيث اخفينا الجسر الكبير ذي الاسطوانات الفولاذية الذي كان ابتكره اسرائيل تال. وابعد من ذلك في اتجاه الجنوب كانت كتيبة استطلاع ترود سهل القناة من دون ان يجد اقل اثر للعدو.

عندما لفَّ الظلام ارضَ المعركة وصلت كتيبة الاستطلاع الى طريق لِكسيكون، على بعد بضع مئات من الامتار من ضفاف البحيرة المرة الكبرى، من دون ان تصطدم باي مقاومة. تقدمت الدبابات بحذر في اتجاه الشمال واقتربت من الضفة العليا لبحيرة الدفرسوار، ليس بعيدا من المكان حيث اعادت في ايار من هذه السنة نفسها السواتر الترابية و « الفناء » المحاط بجدار توقعا لعبور محتمل للقناة. ولم تصادف في طريقها اي وجود مصري...

عند هبوط المساء كنا قد تأكدنا من وجود « ثغرة » مفتوحة بين الجيش المصري الثاني في الشمال والجيش الثالث في الجنوب. وكانت هذه الثغرة فرصة مثالية يجب عدم تفويتها. والمصريون لم يلاحظوا تغلغل وحدتنا الاستطلاعية؛ وكانت الطريق المؤدية الى القناة، المفتوحة على مصراعيها، تومئ الينا على ما يبدو.

عند السادسة والنصف من صباح اليوم التالي اتصلت بغونِن لاعلمه اننا كنا على ضفة القناة. قلت له : « شموليك، نحن على ضفة الماء. نستطيع لمس مياه البحيرة ». لكنه لما علم اين توجد كتيبة الاستكشاف انفجر صارخا. بعد عشرين دقيقة جرى اتصال هاتفي جديد. شرحت له احوالنا الاساسية وكيف استولينا على المرتفعات بعدما ألْحقنا بالمصريين ضربات موجعة. قلت له إن وضعنا يسمح لنا الآن بان نضع في الماء طوافات هجوم البالوزا ونستعد لعملية التجسير. وفي المختصر، كنا في هذه المرحلة قادرين على تنظيم صفوفنا لعبور القناة. ونستطيع في موازاة فرقة ادان ان نحتل كل القطاع ونبلغ الضفة الاخرى. فاذا كانت هذه هي الظروف لماذا ننتظر ان يكتشف المصريون

« الثغرة » لسدها. في القطاع الشمالي يتعين علينا خوض معركة قاسية لنصل الى القناة، بينما هنا كان العبور في متناولنا.

هذه المرة كان رد فعل غونن اكثر هدوءا. اخبرني ان استخبارات قيادة الجنوب تلقت معلومات جديدة عن نشر القوات العدوة في القطاع. وان الوضع لا يدعو الى التفاؤل. وانه سيفكر في الامر.

في السابعة والربع مساء اتصل بي مساعد غونِن، اوري بن آري. قال لي ان المسألة حُلَّت واننا لن نهاجم. وطلب مني ان اسحب القوات من خط القتال واترك مواقع متقدمة كنا نجحنا في احتلالها خلال النهار. فلن نضغط على المصريين بل نشتبك معهم فقط لصدهم — واذا كان علينا ان نفوت فرصة سانحة فاننا سنفوّتها...

بعد ساعة هتفتُ للاركان محاولا الاتصال باسرائيل تال — « تاليك » — مساعد رئيس الاركان، الوحيد الذي يستطيع في رأيي ان يتفهم الوضع؛ لم يكن تال في مكتبه، فتحدثت اذاً الى ضابط الاركان الصديق دوف صيون. رسمت له لوحة عن الوضع : نحن في جوار القناة وقد اخترقنا رأس الجسر المصري، ويُطلب منا الآن ان نتراجع. انا لا افهم هذا المنطق. فلو كنا احرزنا نجاحا كهذا اما كنا قفزنا فرحا ؟ فلماذا لا نخترق حالا الآن ؟ « من الضروري ان يطّلع تاليك والآخرون على الوضع. قل لتاليك اني اريد التحدث اليه باي ثمن. قل له اني اصر على ذلك ». لكنني كنت كمن يصرخ في صحراء.

كنت اعلم مسبقا ان كل براهيني لن تأتي بنتيجة. لذلك امتثلت اخيرا للتعليمات : سحبت قواتي من القناة واعتمدت تكتيكا دفاعيا محض، منتظرا ما سيفعله المصريون. وهكذا صبرنا طوال اربعة ايام — من ١٠ الى ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) — اربعة ايام من الهجومات المصرية المحصورة ومن المحاولات المتكررة لانزال وحدات مغاوير بالطوافات. وقد صددناها كلها على امتداد الجبهة لنبيدها بعد ذلك باسقاطنا الطوافات ومطاردتنا المحاربين الذين نجحوا في الهبوط.

لم تكن خسائرنا فادحة كثيرا. ولكن خلال أيام الانتظار هذه قتل الجنرال البرت ماندلر في عربته اذ اصابته قذيفة مباشرة فيما كان يتحدث باللاسلكي الى غونين. كان ماندِلر ضابطاً لا مثيل له وقد شعرنا جميعنا بقساوة فقدانه. واستُبدل بكالمان ماغِن الذي كان حتى اللحظة، قائداً لقطاع القنطرة.

كانت هذه الايام، التي اكتفى فيها معظم قادة الجيش بصد الاندفاع المصري ومناوشة ارتاله المدرَّعة؛ شديدة الاحباط بالنسبة اليّ. وطبعا لم اكن قط مقتنعا بصوابية هذا التكتيك الدفاعي. فكل يوم يمر كان خطأً في نظري. وكنا نشاهد كل يوم المدرعات والمشاة يدعمون رؤوس الجسر المصرية. ومن مواقعنا نستطيع متابعة نمو الوية الدبابات وتمتين مواقعهم الدفاعية وانهماك واضعي الالغام باعمالهم.

كانت الخطة الآن واضحة جدا : انتظار هجومهم وكسره ثم القيام بهجوم مضاد. وهي خطة يجب ان تعكس في رأيي، اذ كلما تركنا المصريين يحشدون قواتهم ويدعمون دفاعهم يكلفنا اكثر اختراق خطوطهم لاحقا. فضلا عن ان الوقت، خصوصا، يعمل ضدنا. ففي الشمال صُدَّ السوريون من هضبة الجولان في ٩ تشرين الاول (اكتوبر) واخضعوا لضغط مستمر من القوات الاسرائيلية التي كانت تتابع تقدمها في الاراضي السورية. كان السوريون في ضيق شديد بعد ان راهنوا على لعبة حظ وخسروا. لكنَّ المصريين بلغوا على جبهة سيناء اهم اهدافهم. ولذلك لم يكن عندهم اي سبب للتوغل اكثر في سيناء ـــ الا ليخففوا من الضغط الاسرائيلي على السوريين. لذلك كنت اخشى ان يُفرض علينا وقف لاطلاق النار في مستقبل قريب جدا.

كل هذه المعطيات لن تؤدي في نظري الا الى نتيجة واحدة : استعادة زمام المبادرة والهجوم. ليس في هذا اليوم او ذلك بل الآن. لذلك استنجدت بكل الميالين الى عمل فوري يقوم على مهاجمة المصريين في الحال وتفكيك رؤوس جسرهم، وعلى طردهم وبلوغ القناة. كنت مقتنعا ان الامر ممكن تماما واننا نملك القوات الضرورية لوضع حد للمعارك. ولكن ما من أحدٍ

مستعدٌ للاستماع إليك. فحاييم بارليف كان يعطي الانطباع بان الاركان لا يزالون يخشون هجوما على تل ابيب. وكنت اظن اني اعيش مجددا سيناريو حرب ١٩٦٧ حينما كان قادة الجيش يفتقرون الى الثقة. وكنت اشعر ان اسرائيل تال هو الضابط الوحيد العالي الرتبة الذي كان يدير لي اذنا صاغية، وكذلك موشيه دايان. لكنني لم اكن استطيع الوصول الى هذا الاخير الا نادرا؛ وعلى كل حال لم تكن الكلمة الاخيرة تعود له. كما ان نفوذ تال في الاركان لم يكن حاسما. في ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) قلت له : « اسمع يا تاليك، يجب ان تفهم. كنا نستطيع كل يوم ان نقضم قطعة كبيرة من القوات المصرية... وكل يوم يمر هو يوم ضائع. ولن يمضي وقت قصير حتى يُفرض علينا وقف اطلاق النار فنجد انفسنا عالقين في الفخ، وهذا ما يؤسف له فعلا ! ».

لم يتسنَّ لي معرفة واقع الاحداث الا بعد سنة : في ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) اوصى قائد الاركان دافيد اليعازار بوقف لاطلاق النار بعد ان حكم ان القوات الاسرائيلية المحاربة، خصوصا السلاح الجوي، هي قريبة جدا من الحالة الحرجة. لكنَّ كيسنجر اعتبر ان ايقاف المعارك في تلك المرحلة سيضع اسرائيل والولايات المتحدة في موقف ضعف على طاولة المفاوضات اللاحقة. لذلك طالب بان ترفض الحكومة الاسرائيلية طلب وقف اطلاق النار ليتاح للجيش الاسرائيلي تحسين مواقعه. وفي اثناء اجتماع مجلس الوزراء اعلن دايان انه اذا كان اليعازار يوصي بوقف للنار فلا سبب اطلاقا لان يتدخل كيسنجر في قرارا الحكومة. اخيرا نجح التقويم الخاطئ وغير المبرَّر لأليعازار في اغراق مجلس الوزراء في بلبلة عميقة وفي جعله يقبل توصيته. بيد ان المصريين رفضوا العرض وتلقت فرقتاهما المدرعتان، الرابعة والحادية والعشرون، امرا باجتياز القناة والانتشار في سيناء في هجوم كبير.

يوم الاحد في ١٤ تشرين الاول (اكتوبر)، الساعة السادسة والثلث صباحا، هجمت القوات المصرية المتمركزة امام رؤوس جسرها على خطوطنا.

وفي كل قطاعات الجبهة تقدم المصريون في السهل الرملي المحاذي للقناة ووجوههم الى الشمس الصاعدة من وراء مواقعنا. وقد علمنا في ما بعد ان ذلك الهجوم تمّ بطلب من السوريين من اجل فك الطوق الاسرائيلي عنهم في الشمال. اجتاح السهل قرابة الف دبابة، معظمها ت ــ ٥٥ و ت ــ ٦٢ سوفياتية الصنع. واعتقد امنون رشِف من مركزه امام حمادية انه يشاهد سيلا من الفولاذ يغمر الصحراء.

في الساعات الاولى من عصر ذلك اليوم كان سهل القناة تحت مواقع امنون رشِف وحاييم إرِز مرقّشا بالحمم الفولاذية : مئة الى مئة وخمس وعشرين دبابة من الفرقة الحادية والعشرين المدرعة كانت تلتهب كالمشاعل أو تجدها مطروحة ارضا كالبهائم النافقة في الصحراء. وتلك التي نجت من المجزرة كانت تعود القهقرى منسحبة الى مواقع دفاع فرقة المشاة السادسة عشرة. واقتصرت خسائرنا على اربع دبابات : ثلاث من لواء امنون وواحدة من لواء حاييم.

تكرر السيناريو نفسه امامنا في الشمال حيث اوقفت قوات ادان الفرقة المؤللة الثالثة والعشرين، وفي الجنوب حيث صد كالمان ماغِن هجومات الجيش الثالث المندفع نحو ممر متلا. وعندما انتهى كل شيء كان قرابة مائتان وعشر دبابات مصرية قد حطمت في اكبر معارك دبابات في التاريخ. كان ذلك نصرا مبينا، لكنّ رؤوس الجسور العدو كانت لا تزال سليمة. واكثر من سبعمائة دبابة لا تزال منتشرة خلف دفاعات المشاة المجهزة تجهيزا ثقيلا بالمدفعية والاسلحة المضادة للدروع.

بعد هذه الهزيمة النكراء التي حلت بالمصريين ولّى الى غير رجعة هَوَس التكتيك الدفاعي عند قادة الجيش، فقررت هيئة الاركان انه حان الاوان للتقدم؛ وسمحوا لنا في الليلة نفسها ان نعبر القناة. فعرضت حالا خطتي على بارليف والضباط الاركان الذي وافقوا عليها. كان على فرقتي ان تخترق الخطوط المصرية وتُعدّ ممرًا حتى القناة وتثبّت نقطة عبور مقابل الدفرسوار على الضفة الشرقية، في المكان المحدد الذي دخلته كتيبة الاستكشاف قبل

ستة ايام ووجدته خاليا من المصريين. وكان على مظلّيي لواء داني مات ان يرسوا على الضفة الغربية بقواربهم المطاطية المنفوخة التي هي في طريقها اليهم. وبعد ان يحتلوا القطاع يُنشأ جسر بين الضفتين يمر عليه لواء دبابات حاييم إرِز. كذلك سيؤتى الى المكان بالجسر الكبير المركب على اسطوانات ليوضع في المكان المعَدّ له.

ويجب ان تجري كل هذه العملية في ليل ١٤ ــ ١٥ ــ تشرين الاول (اكتوبر). وعندما يوضع الجسر الاول في محله تقضي مهمتي بتأمين الوصول الى الممرّ والدفاع عنه. وتعبر فرقة ادان القناة الى الارض المصرية حيث تتقدم جنوبا على طول الضفة الغربية للبحيرة المُرة الكبرى حتى مدينة السويس.

في ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) دعوت عند الساعة السادسة صباحا ضباط فرقتي لاجتماع في تاسا. ولكن فيما كان امنون وحاييم وطوبيا وداني مات والآخرون يتجمعون، كانت عدة مطاردات مصرية تحلّق فوق مركز القيادة ملقية بقنابلها ومطلقة رشاشاتها حوله. وحتى لا اقدم لطائرات العدو هدفا ثمينا كهذا (كل ضباط الفرقة) انتظرت زوال الخطر فلم نجتمع الا بعد ساعة لنعرض خطة المعركة. وكانت المعلومات التي أُبلغت الينا تقول إن « الثغرة » بين الجيشين الثاني والثالث لا تزال مفتوحة، ما يبرهن على ما يبدو ان المصريين لم يكتشفوا حتى الآن وجودنا. في شمال هذه الثغرة طريقان من الشرق الى الغرب كنت انشأتها في اثناء الاعمال الكبرى عام ١٩٧٠، احداهما ــ اسميناها « اكافيش » بلغة الشيفرة ــ تصل تاسا بضفة البحيرة المرة الكبرى. وعلى بعد ثمانية كيلومترات شرقي القناة تمتد الثانية ــ « طرطور » ــ في موازاة اكافيش والى الشمال منها، وقد أُنشئت خصيصا لقطر جسر الانابيب الى القناة، وهو جسر فولاذي يزن قرابة ستمائة طن. وتنتهي هذه الطريق فوق الفناء المحاط بجدران والذي كنت اعددته في ايار (مايو) كمكان تجمُّع في اثناء عبور القناة.

هاتان الطريقان، أكافيش وطرطور، تحدّدان سيرنا نحو القناة. وعلينا ان

نأتي عبرهما وعبر منطقة الرمال جنوبا بفرقتين، إضافة الى كل تجهيزات عبور القناة. والى الجنوب من اكافيش توجد منطقة « الثغرة » غير المحمية بين الجيشين المصريين، الامر الذي يعطينا هامشا واسعا للمناورة. ولكن عند الطرف الشمالي للثغرة كانت طرطور تلف حول محيط رأس الجسر الذي اقامه الجيش الثاني وكان جوارها محميا جيدا.

هناك اقام المصريون قاعدة كبيرة محصنة — « ميسوري » —، موطَّدة في قطاعها الجنوبي الغربي بدفاعات « المزرعة الصينية »، وهي مركز اختباري زراعي بني قبل عدة سنوات بتجهيزات يابانية. كانت هذه المزرعة الصينية، بتشبيكات اشجارها وقنوات ريها الجافة تماماً، تقطع طرطور ووصلة الطريق بين طرطور ولِكسيكون الممتدة من الشمال الى الجنوب في محاذاة ضفة القناة. وقد حوَّلت اقنيةُ الري العميقة واكوامُ التراب المتجَمِّعة من الحفريات، أرضَ المزرعة الى مركز دفاعي طبيعي يتيح للرشاشات والاسلحة المضادة للدبابات ان تسيطر على كل القطاع. وفي اثناء بطالة الجيش الاسرائيلي طوَّرَ المصريون اقنية الري وسواتر التراب ليجعلوا منها شبكة محكمة من خطوط النار القاتلة. وكان يحرس هذه المنطقة المحصنة فرقة المشاة السادسة عشرة وفرقة المدرعات الحادية والعشرون — تلك التي عانت ما عانته يوم ١٤ تشرين (اكتوبر) على يد قواتنا.

بموجب الخطة التي شرحتها لضباط الفرقة علينا ان ننطلق مساء ونخوض المعركة الرئيسية في اثناء الليل. فيهاجم لواء دبابات طوبيا ربيب ميسوري من الشرق في ما يشبه الهجوم الجبهوي الذي ينتظره المصريون. لكن هذا الهجوم سيكون في الواقع لإلهاء المصريين وجذب انتباههم وقواتهم. في الوقت نفسها يتقدم لواء امنون رشف في خط معقوف نحو الجنوب الغربي فيدخل الفسحة الحرة بين الجيشين المصريين ثم يلتف شمالا ليهاجم القاعدة المصرية من الخلف. وسيكون على اللواء، في هذه المرحلة، ان يحقق ثلاث مهمات : حماية الفناء في مكان الإنزال، دفع المصريين الى الشمال، وفتح طرطور واكافيش

من الغرب الى الشرق — اي مهاجمة القوات المصرية فيهما من الخلف. وبعد ان تتحرر الطريقان يتقدم لواء مظليي داني مات نحو الفناء مع القوارب ويجتاز القناة. وما ان يُقام رأس الجسر حتى تعمد قوات الهندسة الى التجسير بين الضفتين.

كانت هذه العملية معقدة على صعيد الفرقة الواحدة وتذكّر في خطوطها الكبرى بمعركة ابي عجيلة. وكان على قواتنا ان تهاجم ليلا من الامام ومن الخلف وعلى الجناح في آن واحد وفي كل عمق الخطوط المصرية. ولكن على رغم تعقيد الخطة في مجملها كانت المهمات سهلة وواضحة على صعيد الالوية — بسيطة لكنها قاسية جدا. في ما بعد، عندما سألت الضباط رأيهم فيها، اجابوا بان المهمة بدت لهم جنونية، لكنهم لم يشكوا في امكانية القيام بها على وجه حسن.

فيما كان كل ضابط يعمل على خطته كانت عناصر الجسور تغادر قاعدتها في الخطوط الخلفية للجبهة في اتجاه الخطوط الامامية. جُمِّع جسر الاسطوانات الكبير خلف حمادية لتقطره ست عشرة دبابة من لواء حاييم أرز، وهي عملية مضجرة حتى الموت وقاسية وصعبة في آن لان القافلة لا تستطيع التحرك إلّا في خط مستقيم ولا التغلب على تضاريس الارض مهما كانت بسيطة. وكان اللواء السابع قد دُرب خصيصا على هذا النوع من المهمات، لكنه كان يحارب آنذاك على الجبهة السورية. وهناك تجهيزات اخرى — طوافات مصمَّمة خصيصا لتُجمع قطعها — كانت محجوزة في عرقلة السير الضخمة التي تسد الطريق بين بالوزا وتاسا. وحتى القوارب القابلة للنفخ، والتي ستنقل مظليي داني مات في الموجة الاولى من عبور القناة، لم تكن قد وصلت الى مكان التجمُّع.

حوالي الساعة الواحدة بعد ظهر هذا اليوم — ١٥ اكتوبر — تسلمت مكالمة من اركان منطقة الجنوب تسألني هل نحن في حاجة الى يوم اضافي لنستعدَّ للهجوم ام اننا جاهزون حقا للعمل في الليلة نفسها. واذ كنت اعي

التعقيد التنظيمي الكبير لعملية كهذه لم اكن متيقنا من استطاعتي وضع الجسور في المهل المحددة. في المقابل، كنت استطيع ضمان تأمين رأس جسر في الضفة المقابلة؛ لذا قررت ان اسرع، على رغم كل شيء، لاستفيد من عامل المفاجأة. فكل تمهُّل قد يوقظ ريبة المصريين الذين لن يلبثوا ان يطرحوا على انفسهم اسئلة عما هو جار عندنا. اضافة الى ذلك، كانت ثقتي بمعطى الاوامر محدودة في هذه الايام التي يبدو ان شعارها هو « لا تتحرك بل دع الامور تجري في اعنتها ». فاليوم، وفي هذه اللحظة بالذات، يُسمح لنا بعبور القناة. ولكن غدا قد يتغير السيناريو.

غير انني طلبت من قيادة الجنوب العامة ان تؤمِّن السير بين بالوزا وتاسا. كانت كل فرقة ادان تسير على هذه الطريق الضيقة، وكذلك القوارب التي كنت انتظرها لعبور القناة. لكن الفوضى العارمة كانت تسيطر على الطرقات ولم يكن هناك ممثل للقيادة العامة لينظم الوضع ميدانيا ويسهِّل السير بموجب نظام الافضليات. فادان مثلا لم يكن يُفترض فيه عبور القناة هذه الليلة، بعكسي انا ! ومع ذلك حدث امر لا يُصدَّق : اوقفت القوارب جانبا لتنقل في ما بعد. فضلا عن ذلك، لم يكن المظليون قد وصلوا؛ وقد تركت زوارقهم القابلة للنفخ، في مكان ما من الصحراء، عاجزة عن التقدم في الموجة المتلاحقة من العربات والسيارات من كل نوع. لكنني كنت اثق بهم ثقة مطلقة. وكنت اعرف جيدا داني مات (كان داني ضابطاً للمظليين منذ الخمسينات، وهو الذي قاد الهجوم ضد المدفعية المصرية في ابي عجيلة) واعرف رجاله منذ عشرين سنة. وكنت اعلم انه ورجاله سيجدون الوسيلة للوصول على الوقت. ومع ذلك لم يخفَّ قلقي؛ لم اكن افهم ما كانت تفعله قيادة الجنوب العامة : لماذا لم تؤمِّن التنسيق بين الفرقتين المهاجمتين ؟.

في وقت متأخر من بعد الظهر سرت في الطريق مع قيادتي العامة المتنقلة. كانت البلاد تحتفل في ذلك اليوم بعيد الحصاد، المشهور في التوراة، وخلال توجهنا نحو الجبهة مررنا امام عشرات الاكواخ المرتجلة والمبنية بما تيسَّر من

وسائل. تصنع اكواخ الحصاد تقليديا من اغصان الاشجار وتزين بثمار الموسم. ولكن في سيناء كانت صناديق الذخيرة وسلال القصب تشكل مادة البناء الرئيسية، وقد زينت وغطيت باغصان هزيلة قطعت من ادغال الصحراء النحيفة.

وصلنا الى جنوب الطريق أكافيش، قرب البحيرة المرة الكبرى، عند الغروب. شاهدت من نقطة مراقبتي لواء امنون يتقدم على امتداد الكثبان البيض العالية المنتصبة الى يساري. كانت الصحراء ذات جمال اخّاذ وتوحي بانطباع الطهارة. اظن ان لورنس العرب هو من قال إن الصحراء هي انظف مكان في العالم — وهو على حق في قوله. وينتهي الامر بالرمل الابيض ان يغش كل شيء مع مرور الوقت. وفي ضوء الغسق المائل سريعا الى الظلمة كان رتل الدبابات يتعرّج على امتداد التلال المتماوجة. تختفي من وقت الى آخر لتعود الى الظهور، كأنها كائن غرائبي مستقل. كان امنون يحارب منذ اليوم الاول للحرب. وقواته هي التي منيت بخسائر فادحة عند اول رد لقواتنا على عبور المصريين القناة. والآن كان على هذه الوحدة عينها — لواء الدبابات الرابع عشر — ان تنظف ضفة القناة لتحضِّر للعبور.

تسبق اللواءَ الرابع عشر وحدةُ استطلاع يقودها ضابط شاب يُدعى يؤاب بروم استدعي من الولايات المتحدة حيث كان يتابع دروسه. ويتعين على اللواء ان يندفع وراء مؤخرة المصريين ويتقدم في اتجاه الشمال والشرق، فاتحا الطريقين اكافيش وطرطور امام لواء المظليين وزوارقهم المطاطية وامام الجرافات والحفّارات التي ستزيل السواتر الترابية من الفناء.

عند الساعة السابعة مساء كنت اشاهد ميدان المعركة بكامله يتأجج شيئا فشيئا. في الشرق تلغي نيران طوبيا وضوضاء هجومه توتر الانتظار. وخلفي ينهي امنون حركته الدائرية ويهاجم في الشمال. ولم يمض وقت طويل حتى مر امامي على طول الطريق اكافيش مظليو داني مات كاشباح داكنة. وخلف داني مرت الطوافات وتبعتها الحفّارات الثقيلة الحركة. فجأة خففت قافلة الآليات والسيارات تقدمها، مترددة حول الوجهة التي عليها اخذها. نزلت

الى الطريق مع عربات قيادتي الاخرى لارشد القافلة الى الفناء. وتلقينا آنذاك قذائف مدفعية مصدرها المزرعة الصينية، لكنها لم تكن، لحسن الحظ، دقيقة لحسن الحظ ولا كثيفة بحيث تمنع تقدم القافلة.

في تلك اللحظة عينها تحول كل القطاع حول ملتقى طرطور بِلكسيكون الى مجمرة هائلة. وقبل ان ندخل الفناء شاهدنا الى يميننا نشوب معركة وحشية بين وحدة الاستطلاع والقوات المصرية المحاولة قطع الطريق. وعلى بعد بضع مئات من الامتار كانت العربات تنفجر وتحترق فيما عربات القيادة العامة تمر امام العوّامات المعرَّضة للقذائف المنفجرة من كل صوب. ومن دون ان يلاحظنا احد دخلنا خلف سواتر الحماية في الفناء. لم نكن نعرف بَعْدُ ان وحدة الاستطلاع كانت قد منيت بخسائر فادحة من جراء صواريخ صاغر والاسلحة المضادة للدبابات.

قرابة الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي كانت طليعة المظليين تصعد الى القوارب المطاطية وتعبر القناة. ولما صاروا على الضفة الثانية وجدوا القطاع خاويا تقريبا، ففوجئوا ايما مفاجأة. وبعد ان اقاموا جسرهم نقلوا بالراديو كلمة الشيفرة : « اكابولكو » (« مَهمة منتهية »).

في تلك الاثناء كان رتل دبابات امنون رِشف يتابع تقدمه نحو الشمال عندما وجد نفسه وراء المركز الاداري للفرقة المصرية السادسة عشرة. وما كاد رجالنا يعون موقعهم حتى اضاءَ القطاعَ آلافُ الانفجارات. وفي خضم هذا التلاحم الرهيب كان الجنود والعربات المصريون يحاولون الهرب، فيما الدبابات والمدفعية والرشاشات تغطي بنيرانها الكثيفة ظلال المدرعات الاسرائيلية. وسمعنا بالراديو صوت امنون الهادئ يروي اداءات دباباته الباتون : « مدى الرماية اربعون مترا... مدافعنا تكاد تلامس مدافعهم... ضربنا ضربة مباشرة في مركز الفرقة العمليّاتي ». وهكذا اجتاز امنون، وهو يحارب، ثمانية كيلومترات نحو الشمال، بينما تعليماتنا تقضي بان يكتفي بممشى عرضه اربعة كيلومترات. لكنه تحت الضغط الشديد انسحب ببطء عبر بعض الطرق المختصرة وجمَّع قواه.

في الفناء الشهير كانت النقّابات تجاهد بقوة لهدم الجدران، وكان عليّ أن أدلَّهم على حجارة الآجر التي تشير الى المكان حيث فُرِّغَت السواتر بنوع خاص. والآن اخذت تحفر بانفعال صوب الاسوار فيما فريق الهندسة تضع في المكان تجهيزات التجسير. واتخذت وحدة من المقاومات الارضية (DCA) موقعا لها على الساتر استعداداً للهجومات الجوية المنتظرة في الصباح. وكانت بعض وحدات لواء دبابات حاييم ارز تتجمع في المكان المسوَّر وتتحرق شوقا الى الاتصال بالمظليين في الضفة الثانية. وكانت الطريق اكافيش مفتوحة، وعبرها سيصل المظليون والطوافات والدبابات الى الفناء. لكنَّ محور طرطور — المزرعة الصينية كان لا يزال مغلقا تماما.

كانت طرطور طريقا حيويا للعملية. عبرها فقط يستطيع الجسر الجبار ذو الاسطوانات ان يُقطر حتى القناة. فضلا عن ان امتداد طرطور حتى الضفة أُعِدَّ خصّيصا كمنصة اطلاق لهذا الجسر. في تلك الاثناء نجحنا في السيطرة على المفترق الاساسي لطريقي طرطور ولكسيكون. ولكن فيما كانت قوات امنون تقصف طوال الليل المزرعة الصينية تبين اننا لا نملك القوات الكافية لطرد العدو من طرطور. وفي الوقت الحالي على الاقل لا نستطيع الاعتماد الا على أكافيش من اجل توجيه القوات نحو موقع عبور القناة.

انار فجر السادس عشر من تشرين الاول (اكتوبر) المشهد الاكثر روعة الذي قُيِّض لي رؤيته في حياتي. فطوال كل هذه الليلة خاض لواء امنون، الذي يضم عدة وحدات مظليين وبقايا وحدة استطلاع يؤاب بروم واحدى كتائب طوبيا وكتيبة اخرى لحاييم إرز، معركة في هذا القطاع ضد خيرة الفرقتين المصريتين. كنت اصغي الى تقاريرهم بالراديو حابسا انفاسي فيما السنة اللهيب وبروق المعركة تنير السماء من الجهة الشمالية. لكن كل القيادة العامة لفرقتنا كانت منشغلة بالعمل وملتزمة انجازه بقوة بحيث اننا لم نعِ تماما مدى المعركة وقوتها وعنفها القاتل. وعندما شحبت السماء تكشَّف المشهد عن مئات ومئات العربات المشتعلة او المفحَّمة. أُتلفت خمسون من

دباباتنا، وتبعثر حولها فوق رمال الصحراء مئة وخمسون دبابة مصرية محطمة، ومئات العربات المدرعة والجيبات والشاحنات الملتوية. وهنا وهناك دبابات اسرائيلية ومصرية حطمت الواحدة الاخرى على بعد امتار معدودة، وقد التحمت انابيبها في صراع مخيف وجها لوجه. وحول الدبابات وفي هياكلها المحطمة جثث طواقمها... وإذ دنوت شاهدت اجساد الجنود المصريين والاسرائيليين مختلطة في وضعها الاخير قبل الموت : قفزوا سوية من الهياكل الفولاذية الضخمة وهي تحترق، وسوية قتلوا. ولن يستطيع لسان ابدا ان يصف هول هذا المشهد، ولا رسام ان يصور ما حدث. وفي هذه الليلة نفسها سقط قرابة ثلاثمائة من رجالنا وجُرح مئات آخرون. وكانت خسائر المصريين اكثر فداحة ايضا.

في ذلك النهار طلع فجر لا مبالٍ على هذه اللوحة شمال المكان الذي نحن فيه. وفي اللحظة ذاتها تقريبا لفتت اعيننا صورة اخرى اخّاذة، من نوع آخر، ولكن هذه المرة في جوار القناة. فالجرافات هدمت بعد لأي ما تبقى من سواتر ترابية، فاتحة الفناء صوب القناة. والآن ها مصر تمتد امام انظارنا مباشرة نحن الواقفين على بعد مئتي متر من خط الماء. كنا امام الفتحة المحدَثة في السواتر، مأخوذين بالاشجار والنباتات الوافرة، في ضفتنا صحراء قاحلة ورمال وغبار. ومن جهتهم اشجار نخيل وبساتين مخضوضرة... بدا لنا اننا نشاهد الفردوس.

في تلك الليلة نفسها عَبَرَ كل لواء المظليين بقيادة داني مات، وسرعان ما لحقته عربات مدرعة وثمانٍ وعشرون دبابة تابعة لحاييم إرز، منقولة على اطواف ومنذ شططت مدرعات حاييم اندفعت غربا وهي تحصد الوحدات المصرية التي صعقتها المفاجأة وتدمر المواقع التي شاء سوء حظها ان توجد في طريقها. وعند الساعة التاسعة اعلمتنا الوحدة المهاجمة انها نجحت في هدم خمس منصات صواريخ ارض — جو، ممزقة على نطاق واسع المظلة الجوية المصرية التي حمت حتى الآن هذه المنطقة ضد هجمات طياراتنا. وقد عمدت

مدرعاتنا الآن الى تنظيف المنطقة، مُجْهِزة على الوحدات الاخيرة التي كانت لا تزال فيها. وهي لم تَلْقَ أية مقاومة؛ ففي الواقع، كانت المنطقة الممتدة غرب القناة خاوية تماما. وسمعنا في اللاسلكي صوت حاييم : « نستطيع بلوغ القاهرة ». وأُعلمنا ان داني مات لم يكن يتعرض الى اي ضغط وان وحدات المظليين تتقدم نحو الشمال على طول ضفة القناة، مسكتة المواقع المصرية التي كانت لا تزال تصادفها من وقت الى آخر.

انا موجود في الفناء منذ عشية امس. لكنني الآن عاجز عن مقاومة تجربة القيام بزيارة قصيرة الى « افريقيا » على متن الاطواف التي تنقل الدبابات. بعد ان تفحصت وضع قواتنا في الارض المصرية عدت سريعا. وقد اصبح الفناء الآن المركز العصبي للقطاع. فحظ رجالنا رهن بقدرتنا على ابقائه مفتوحا وبأداء دوره المخصص له. لكن سرعان ما اصبح الفناء يضيق حتى الاختناق بكتل القوات والمدرعات ومختلف التجهيزات التي تراكمت فيه في انتظار عبور القناة.

وفي هذا الفناء كما امام فتحة القناة كان مهندسو الجيش يعملون ضد الساعة، منظمين السير، موسعين الفجوة، ناقلين الدبابات والرجال والتجهيزات على الاطواف الى الضفة الاخرى. ولم يكن المصريون قد اكتشفوا بعد مناورتنا الإلهائية وحضورنا على الضفة الغربية. ولذلك لا خطر يهدد الفناء الآن. في تلك الاثناء كانت قواتنا تتذوق مأثرتها على الضفة المقابلة. لم تكن تستطيع ان تأمل في خطوط افضل. والآن ينبغي ايصال اكبر كمية ممكنة من القوات والعتاد الى الضفة الاخرى، وفي اسرع وقت ممكن، قبل ان يتمالك المصريون انفسهم. هذه اللحظة نحن ننتظرها منذ طلقات النار الاولى في هذه الحرب.

كنا في ذروة هذا النشاط المحموم عندما وردنا من قيادة الجنوب العامة امر محيِّر وغير معقول بحيث انني للوهلة الاولى لم اصدقه. يقول الامر ان كل النشاط المتمحور على عبور القناة يجب ان يتوقف فورا. ويجب عدم ارسال اي شيء الى الضفة الاخرى : لا دبابة ولا حتى جندي واحد. فوفقاً

لتصوُّر القيادة العامة للجنوب كنا مقطوعين ومطوَّقين من القوات المصرية.

كانت الساعة التاسعة صباحا. قوَّمت الوضع قائلا في نفسي إن قيادة الجنوب العامة ليس عندها ادنى علم بما يجري على الارض. لقد مرت اثنتا عشرة ساعة ونحن على القناة ولم يأت احد ليشاهد كيف تجري العمليات. صحيح اننا لم نبلغ كل اهدافنا في تلك الليلة، ولكن ما من سبب يبرر ايقاف عبور القناة. على العكس : لا يزال عنصر المفاجأة يعمل لصالحنا. وتلك كانت اللحظة الوحيدة للاستفادة منه. ولقد حصلنا اكثر مما كنا نتوقع في الضفة الثانية. لم نكتف بانشاء رأس جسر بل ان دبابات حاييم كانت تعمل على بعد نيف وثلاثين كيلومترا غربي قناة المياه. وكان داني مات منشغلا بتنظيف قواعد اطلاق الصواريخ في الشمال وقد هدمنا بطاريات المدافع المضادة للطيارات في ذلك القطاع. وفي شرق القناة كنا نسيطر على الفناء وعلى شمال القناة وجنوبها؛ وفي الفناء كانت الاطواف ذات المحركات تُحَمَّل وتوضع في الماء بكل حرية.

لكن الوحدات العائمة التي كنا ننتظرها لانشاء جسر على القناة لم تكن قد وصلت بعد. لقد حُشرت في عرقلة السير الهائلة، في مكان ما بين فرقتي وفرقة ادان. كنت اعلم ان قيادتي العامة في المؤخرة كانت تفعل كل ما هو ممكن بشريا لتخليصها وفتح الطريق امامها. وكنت على علم كامل بالصراعات بين رجال ادان ورجالي حول الاولويّات. وكنت اشكو من ان قيادة الجنوب العامة لم تكلف احدا تنظيم السير تجنبا للفوضى والعرقلة. وكنا لا نزال نصارع لتأمين الممر المتسع اربعة كيلومترات. لكن الطريق الرئيسية اكافيش كانت مفتوحة امام السير وإن تكن قذائف العدو تطالها بين حين وآخر، تتنقّل عليها موجات متواصلة من الرجال والتجهيزات، وعبرها كنا نخلي في ذلك الوقت مئات الجرحى. في المقابل كانت طريق طرطور لا تزال غير سالكة لاننا على رغم المعارك الدموية التي تتابعت طوال الليل لم ننجح في طرد المصريين من المزرعة الصينية.

ذاك كان الوضع على الارض. ولكن خلفنا في القيادة العامة للجبهة كانت الامور تُرى بمنظار آخر. فطوال فترة الصباح كانت اجهزة الراديو تطلق نداءات مسعورة : « انتم معزولون ! انتم مطوَّقون ! » كان الهلع يأخذ بخناقهم حول رأس الجسر الذي يبدو تهديمه، في نظرهم، وشيك الوقوع. غير اني كنت في وسط الميدان وما شعرت قط بأني معزول. وقد ارسلت المعدات والتجهيزات والوقود والقوات والدبابات الى وُجهتها. ونجحت في اخلاء جرحاي. صحيح ان اكافيش لم تكن اوتوسترادا حديثا لكن من فضائلها انها كانت مفتوحة.

في اثناء ذلك كانت اطواف الانزال تعمل بلا انقطاع ومن دون تدخُّل اي كان. فعلى رغم التعليمات التي استلمتها بألَّا اتابع عبور القناة، كانت القوات والدبابات الموجودة على الضفة الاخرى في حاجة الى مؤونة وذخيرة ونجدة. وكان عندي هناك جرحى وقتلى عليَّ اخلاؤهم. لذلك تابعت الاطواف ذهابها ومجيئها بين ضفتي القناة على رغم التعليمات. وكان المصريون في حالة صدمة حتى انهم الآن، بعد مرور ثماني ساعات على عبور عناصرنا الاولى، لم يكونوا قد وعوا بعد ما يحصل لهم. لم يهاجموا رأس الجسر ولم يحاولوا ايقاف دبابات حاييم إرِز التي كانت تتابع تقدُّمها بكل حرية وهي تطلق النار على كل ما يبدو لها مشبوها.

لقد وصلنا الآن الى المرحلة الحاسمة من المعركة. وكان علينا ان نقرر : نستثمر عبور القناة أو لا ؟ وعبثا انتظرت ان يأتي غونين او بارليف الى الفناء ليطلعا بنفسيهما على الوضع. لو جاء احدهما لكان اول شيء لاحظه اننا لم نكن لا معزولين ولا مطوَّقين؛ وان الممرّ، حتى وان قل عرضه عن اربعة كيلومترات، هو حقا ممرٌّ يلبِّي حاجاتنا. ولاقتنع بعد ذلك ان توسيع هذا الممرّ هو مهمة اصعب من ان تقوم بها فرقة واحدة عليها في الوقت نفسه ان تدعم رأس الجسر في الضفة الغربية. ولكن على بعد كيلومترات عدة خلفنا، هناك فرقة سليمة تماما — فرقة ادان — تنتظر. لو كنت انا

القائد الاعلى للجبهة لأمرت احدى الفرقتين (فرقتي او فرقة ادان، لا فرق) ان تجتاز القناة وتتعهد الضفة الغربية. ولكنت احتفظت بالفرقة الثانية على الضفة الشرقية لتوسيع الممرّ. ولو عبر ادان القناة لتسنى له وضع لواء حاييم ومظلييه تحت قيادته ووضع احد الويته تحت امرتي. ولو كنت انا مَنْ عَبَرَ لكنت اخذت لواء مرتاحا من الوية ادان وابقيت تحت امرته احد الويتي. كان ثمة طرق عديدة للتصرف. ولكن من اجل ذلك كان على بارليف وغونِن ان يحضرا الى ميدان المعركة ويقررا بانفسهما — او البقاء في المؤخرة واعطائي حرية العمل الضرورية. لكنَّ ايا من هاتي الامكانيتين لم يستثمر.

بدلا من ان يأخذا هذا القرار سمعتهما يصرخان منذ الفجر اننا كنا في خطر مميت. ولقد شددا بشكل فظيع على ان اذهب الى مركز القيادة لطرح المسألة على بساط البحث. لكنني اجبتهما ان المعركة التي كنا نخوضها آنذاك كانت قاسية بحيث لا تسمح لي بمغادرة قطاع المعارك، ولو دقيقة، اقله من وجهة نظر المعنويات، ناهيك بالاسباب العملياتية والقيادية. وكررت مرارا: تعاليا الى هنا وشاهدا الوضع باعينكما ». ولكن أحداً لم يرد أن يستمع إليَّ.

في تلك الاثناء وصلت الى الفناء كتيبة الدبابات الاولى التابعة لادان، وهي جاهزة للعبور. ولم يكن رجالها قد علموا بعد ان العملية قد اوقفت. عندما اقتربوا كنت واقفا امام فتحة السواتر المتثائبة. وكان المكان يعج بالعربات من كل الانواع حتى ان نصف ضباطي كانوا منشغلين بتنظيم السير. وبينما كنت اتباحث مع قائد الكتيبة فُتح برج احدى الدبابات واطل منه جندي شاب هو ابن هلال كرمِلي، ضابط الاتصال عندي. تعانق الاب والابن طويلا وتسنى لهما تبادل بعض الكلمات قبل ان ارسل الكتيبة الى الشمال لاخفف قليلا الضغط عن امنون.

بعد ساعة تلقيت رسالة تقول ان كتيبة ادان ابتليت بعنف وان ابن هلال كرمِلي قد جُرح. قلت لهلال ان يتوجه فورا الى المكان ليرى ما حدث. لم يطل به الوقت حتى عاد. كانت حالة ابنه حرجة: جرح في العمود

الفقري وكان عاجزا عن تحريك رجليه. وقد اخلي فورا مع جرحى آخرين. وبعد ان انهى هلال تقريره صعد الى عربته وعاد الى عمله من دون ان ينبس بكلمة. في الايام التالية حرضته على اخذ يوم او يومين اجازة لزيارة ابنه وزوجته، لكنه رفض الابتعاد عن الجبهة التي لم يغادرها الا بعد انتهاء المعارك.

كان مكان هلال الى يساري في عربتنا المدرعة من طراز م — ١١٣؛ كنت اراقبه من طرف عيني وانا اعلم الجميع بما يخالجه من شعور. وهو لم يكن الوحيد الذي جرح ابنه، فابن داني مات كان ضابطا في سلاح الدبابات في لواء امنون، وهو ايضا جرح. وهناك آباء آخرون فقدوا ابناءهم في ميدان المعركة، وابناء فقدوا آباءهم. وكان بعض رجالنا قد شهدوا حرب الاستقلال. واليوم، بعد مرور ربع قرن، كان ابناؤهم يحاربون الى جوارهم. وكانت هذه الظاهرة تضفي على هذه الحرب بُعْداً مأسويا — كما لو ان المآسي كانت تنقصها ! وقلت لنفسي ان هذه الحرب يمكن ان تُسمى « حرب الآباء والابناء ».

كنا قادرين على إخلاء الجرحى. اما القتلى فلم نكن نملك الوسائل الضرورية لعملية اخلائهم بانفسنا. فقبل اخلاء القتيل يجب التعرف الى هويته قبلا، وهذه في حد ذاتها مهمة صعبة جدا. كان على احدهم ان يحدد مَن مِن هؤلاء الشبان مصري ومَن اسرائيلي، والاصعب في ذلك ان القتلى كانوا منطرحين ارضا وواحدهم بين ذراعي الآخر. اعلمت القيادة بالراديو عن صعوباتنا وعن حاجاتنا. ولكن لم يأت احد ليفعل ما يتعين فعله، مثلما لم يكلف احد نفسه عناء المجيء لدرس الوضع ميدانيا. اللازمة الرتيبة تدوي دائما في جهازي اللاقط انني معزول ومطوق...

قلت لضباطي في اثناء توقف ظرفي لحدة القتال ان كل هذا الهلع المسيطر على قيادة الجنوب تذكرني بما حدث قبل عشرين سنة في اثناء مناورة كانت تقوم بها قيادة الشمال العامة. كان لواء احتياطي في موقع دفاعي، ولواء آخر من الجيش العامل يهاجم بقيادة عساف سيمحوني. اعطى سيمحوني

اشارة الانطلاق وارسل فصيلة تقطع الطريق خلف مواقع الدفاع، وعندما لاحظ قائد القوات المدافعة ان طريق انسحابه قطعت ارسل الى قيادة المناورة العامة رسالة بالراديو فحواها ما يلي : « انا مطوَّق. ماذا عليَّ ان افعل ؟ » فاجابه موشيه دايان من مركز القيادة : « قد لا تكون مطوقا. فلربما كانت فصيلة سيمحوني هي المطوَّقة ».

من جهتي لم اشعر قط اننا مطوَّقون. بل العكس هو الصحيح : فنحن من عزل المصريين. كنا خلفهم وكنا نهددهم وليس العكس. جميعنا كان يعرف هذه الحقيقة ويحسها ايضا. و كانت المعنويات ممتازة في مركز القيادة، والجو يميل الى الهدوء والتفاؤل. وكانت المحبة والود يسيطران عليه حتى في اللحظات الاكثر صعوبة. فلا توتُّر نفسيًّا لا جدوى منه، وخصوصا لا هلع. ولقد قلت لضباطي بعد انتهاء المعارك انني كنت فخورا، اكثر من اي شيء آخر، بعدم اضطراري الى الصراخ في اي لحظة، والى رفع صوتي في حالات نادرة جدا. فلقد برهنوا جميعهم عن كفاءة مهنية وعن ثقة مطلقتين.

مع ذلك كنت اشعر ان وجودي الشخصي على الارض بين قوات الطليعة كان ضروريا. قد نقرأ في ايامنا هذه ان القادة العسكريين سيلبسون في المستقبل بلوزات بيضاء اذ ليس عليهم الا ان يكبسوا على ازرار في المراكز العملياتية القائمة على تكنولوجيا متقدمة، بعيدا من ميدان المعركة. لكنَّ الواقع يثبت لنا العكس : فنيران المعركة الآن هي من القوة بحيث ان الوضع الميداني قد ينقلب رأسا على عقب في لحظة. فلقد شاهدت بأم العين على ضفاف القناة سرية دبابات تختفي في اقل من دقيقة. وطُوق فوج بكامله وأعمل في جنوده قتلا قبل ان يتسنى لهم اعلام القيادة العامة بالامر. في مواقف كهذه لا شيء يحل مكان حضور القائد في الجبهة عينها وفي خطوطها الاولى. فهو لا يستطيع الوثوق بالمعطيات التي تصله بالطرق العادية : لا بالاستخبارات ولا بالقيادة العامة للعمليات ولا بالادارة العسكرية. ليس لان المعلومات هي غير صحيحة، بل لانها لا تصل ابدا في اللحظة المناسبة. فقوة النار وعدد

الفرق الخائضة المعركة والسرعة القصوى في التغييرات الحاصلة ميدانيا هي بعض العوامل التي تجعل المعلومات قديمة حتى قبل ان تنقل. يجب بكل بساطة ان يكون القائد موجودا في خضم المعركة حتى يتابع الاحداث من مصادرها وفي اللحظة عينها التي تقع فيها.

الى ذلك ثمة سبب آخر : كنت اقود فرقة، ما يقتضيني اتخاذ قرارات واعطاء اوامر غالبا ما تحمل في طياتها الموت والحياة. طبعا لم يكن الجنود والضباط الخاضعون لامرتي يطلبون او ينتظرون مني ان اشاطرهم كل المخاطر والمحن التي يكابدونها. لكنَّ شعورا كان ينتابني دائما انهم يشعرون بامان اكثر عندما اكون بينهم، مشاركا في مشاكلهم وجاهة وليس كمَنْ ينقل تعليماته من مكان ما بعيد من دون ان يفهم الاحداث الجارية ميدانيا ويقوِّمها. كانوا يعلمون ان اوامري، مهما تكن الصعوبات والاخطار التي تتضمنها، تنبع من معرفة شخصية ومباشرة. ولذلك كانوا مستعدين ان يفعلوا كل ما اطلبه منهم مهما تكن الاخطار.

يثبت تحليل هذه الظاهرة صعوبات المهمات العديدة المطلوبة اليوم من قائد اعلى في ميدان المعركة. فهو يتعين عليه في آن ان يعطي اوامر ويصغي الى شبكات الاتصال المهمة ويجهد في جمع الاحداث المربكة، المعقدة والمتغيرة.

هكذا على الاقل جرت الامور على ضفتي القناة. فالعدو موجود في كل مكان، حتى في الجو. وكانت كلٌّ من عرباتنا مجهزة بثلاثة رشاشات تطلق النار بلا انقطاع. ونحن انفسنا، ضباط القيادة العامة، نجحنا في اسقاط خمس طائرات مصرية. فمن موقعنا في الفناء (« فناء الموت »، كما سماه بعضهم) وجدتني غالبا خلف رشاش اطلق منه النار. واعتقد انني لم احرق طوال حياتي العسكرية قذائف بقدر ما احرقت منها خلال هذه الايام الخمسة عشر. وكنت كلما صعدت الى مركبة اعنى بتفقد القنابل اليدوية لعلنا احتجنا اليها. وقد اصبح الامر ارتكاسا عندي.

كان في استطاعة السادس عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ان يرسم

بسهولة انتصار أسلحتنا. لكن هذا لم يحدث. اذ على رغم الجهد الفائق قدرةَ البشرِ والذي بذل في الليل الفائت اوقف تقدمنا بايدينا. وذلك اليوم من بين ايام عدة — تبدد سدى. فبدلا من الاستفادة من عنصر المفاجأة كان علينا ان ننتظر. وكان لا بد ان يفهم المصريون اخيرا انهم وقعوا في الفخ؛ وقد استجابوا تبعا لذلك. بدأوا بضغط شديد وثابت على دبابات حاييم ارز على الضفة الغربية للقناة، وشيئا فشيئا اضطر حاييم الى الالتجاء الى محيط المظليين الدفاعي.

طوال كل نهار السادس عشر من الشهر منعنا من تقوية رأس جسرنا على الضفة الغربية. في تلك الليلة رقدت على وقاء دبابة حار، وقد انهكني التعب وتعكر مزاجي فاصبح لا يطاق. وباكرا في صبيحة اليوم السابع عشر ايقظني ضجيج الاطواف الاضافية التي تعمل باندفاع ذاتي وقد قطرت الى الفناء. وهو مشهد نادر نوعا ما: فبفضل هذا الطراز من الاطواف بعددها الكافي صار في وسعنا الآن تجميع الجسر. ولربما غدا في وسعنا، بعد حصلنا عليها، ان نقنع اخيرا بعض رؤسائنا بارسال قواتنا بسرعة الى الضفة الاخرى من القناة، حتى ولو فقدنا الانتفاع بعنصر المفاجأة.

ارسلت الاطواف ببطء الى داخل الفناء، نحو ثغرة السواتر، حيث المهندسون يضاعفون جهودهم ويسارعون وتيرة عملهم. في اللحظة عينها انهال علينا وابل من قذائف المدفعية المصرية. وفي الدقيقة عينها تقريبا كان سرب من طائرات الميغ يحلق فوق الفناء وينقض عليه مهاجما محوِّلا المكان الى جحيم حقيقي. وقد ظل جنودنا خارجا تحت هذا الوابل من النار والفولاذ، مستمرين في إرشاد القافلة. ودخلت ارتال اخرى الى الفناء — مع انه لم يعد من متسع في الفناء مع كل الدبابات والشاحنات التي حشرت فيه. وقفز ضباط من القيادة العاملة المتنقلة من عرباتهم للمساعدة على تأمين السير. وعمل غيرهم مع المهندسين الذين يجمعون الاطواف ويضعونها في الماء — وكل

ذلك تحت وابل لا ينقطع من الفولاذ. فمئات القذائف تنفجر على كل القطاع الذي يتسم بفوضى لا توصف.

كنت اتناقش مع زيفيلي اميت المنشغل بتنظيم مناورات العربات قرب منصة اطلاق الاطواف عندما مر فجأة فوق رأسينا طائرات ميغ منقضة بعمق لتحدِّد اهدافها. وبينما كانت الطائرات تبتعد محدثة ضجة مُصِمَّة صرخ بي زيفيلي ان اصعد الى العربة م — ١١٣. قفزت الى المقعد وجلست وراء رشاش ثقيل في اللحظة عينها التي عادت فيها الطائرات لالقاء قنابلها. وعندما عادت الى الهجوم انفجر القطاع برمته كأنه العاب نارية ضخمة. وكانت تكتكات رشاشاتنا الخمسة عشر تتجاوب مع بطاريات المدافع المضادة للطائرات المركزة حول المكان. ولم ينقص هذه الضوضاء سوى انفجارات القنابل المصرية.

ومع ذلك استطعت ان ارى في هذه اللوحة المستخرجة من جحيم دانتي ان ثمة من يخلي الجرحى وينقلها الى المحطة الطبية. ولفت نظري محملاً شاهدته في طرف عيني؛ فهمت، من خلال الحذاء البني اللون الخارج من تحت الغطاء، ان منتعله هو من المظليين. لم يكن ذلك الا تفصيلا او قل انطباعا عابراً لم أَعِهِ الا فيما بعد. ففي تلك اللحظة لم احزر ان هذا الحذاء، كان حذائي، ذاك الذي اعطته ليلي لزيفيلي عندما مر بنا يوم التعبئة العامة.

اصبحت المطاردات العدوة الآن اكثر عددا وضاعفت المدفعية المصرية من حدتها. امرت بوضع سيارات قيادتي العامة الخمس في ركن آخر من الفناء. كان زيفيلي يعمل على الاطواف امام الفتحة المشرعة على القناة، يساعده صديقي موتي وسائقاي الآخران؛ كان المصريون يصبون جام غضبهم على هذا المكان بالذات. وفيما كنا نحاول ان نشق طريقا لنا في الفناء اهتزت عربتنا من جراء انفجارات القذائف. شعرت بالم عنيف في جبيني. وخلال لحظة شاهدت دما ينفر حولي وسمعت احدهم يقول: « تلقى صديقنا صدمة ». لكنني فتحت عينيَّ حالا وفهمت ان رأسي صدم زجاج عربتي الامامي؛ وكان الجرح سطحيا على رغم الدم الغزير الذي خرج منه.

كان عليّ ان ابعد بسرعة عربات القيادة واخرجها من الفناء. كانت النار كثيفة لدرجة ان هوائياتنا التوت وبتنا على وشك فقدان السيطرة على الراديو. لذلك امرت بنقل العربات حتى منطقة الدخول، حيث في اللحظة عينها كانت تتقدم دبابات اخرى وهي تقطر عناصر اطواف، وبينها دبابة اشتعلت فيها النيران. عند رؤيتي ذلك تحققت من امر مهم : اذا كانت القذائف تتساقط في الفناء مدرارا ففي خارجه تلقى العربات قصفا مباشرا افقي المسار. اخذت منظاري المقرب لاراقب ملتقى الطريقين الواقع على بعد بضع مئات من الامتار، وصعقت لدى رؤيتي المصريين يطلقون هجوما مضادا بالدبابات المدعومة بالمشاة، وانهم يتجهون صوبنا في خط مستقيم.

كانت الساعة من احرج الساعات. كان في وسع هذه الدبابات ان تسكّر الفناء خلفنا. وكانت كل القوات المتوفرة عندي آنذاك تنحصر بالعربات المدرعة الخمس م ١١٣ — عربات قيادة الفرقة. فخاضت قيادتنا العامة المتجولة المعركة اذاً عند نقطة التقاء الطريقين. وفيما انا منطلق اتصلت بالهاتف بامنون الذي كان يحاول في اليوم نفسه، مع طوبيا، ان يصد الهجوم المصري المضاد الذي تقوم به شمالنا الفرقتان ١٦ و ٢١ مجتمعتين، فيما كان أدان يساعد على تصفية اللواء الـ ٢٥ المدرع العدو الذي كان يتقدم آتيا من الجنوب. طلبت منه ان يرسل فورا نجدة دبابات الى مفرق الطرق.

كنا نسير في خط مستقيم عندما شاهدنا الى يسارنا عربة م — ١١٣ تحترق قبل ان تنفجر. وكان الى يميننا حقل الغام وضعناها بانفسنا منذ سنوات. لدى اقترابنا من العربة الملتهبة كنت اتكلم باللاسلكي (الموصول الى الشبكة الخارجية) مع امنون. ولكن بما انني كنت واقفا كنت استطيع ان اتابع جيداً خط سير العربة. وهكذا ففيما انا اتكلم مع امنون وجهت السائق صارخاً : « الى اليمين » واذ رأيت انه انعطف اكثر من اللزوم واوشك ان يدخل حقل الالغام صرخت به : « الى اليسار، ايها السائق، الى اليسار ! » وقد علمت في ما بعد ان اوامري الصارخة أربكت العاملين على اللاسلكي

على طول الجبهة وحتى في قيادة الجنوب حيث كانوا متصلين بالشبكة؛ ظنوا أن أمراً خطيراً حدث لي. فطوال الحرب اعتادوا على اللهجة الهادئة والموزونة لاوامري وتعليماتي — وها هم يسمعونني اصرخ ملء حنجرتي.

في اقل من دقيقة وصلنا الى المفترق ونحن نطلق نيران رشاشاتنا. وقد نجحنا في الصمود حتى وصول دبابات امنون. عند ذاك انسحبنا واستعاد راكبو العربات الخمس تنفسهم السوي. كانت تلك استراحتنا الاولى منذ ان انقضت علينا المطاردات العدوة عندما كنت اتناقش مع زيفيلي — وكان لديّ انطباع بان سنة مرت منذ ذاك فيما الفترة الحقيقية تكاد تبلغ ربع ساعة.

كنت لا ازال محتاراً لماذا لم تكن دباباتنا موجودة عند ملتقى الطريقين. فهل تركتُ هذا المكان الحيوي القابل للتجريح من دون اي دفاع ؟ كيف امكن ذلك ؟ وتذكرت فجأة ان قيادة الجنوب اعلمتني في الليلة السابقة بانها سوف تطلق هجوما لفتح طريق طرطور. وبما ان الهجوم يتبع محورا من الشرق الى الغرب أُمِرنا بابعاد دباباتنا عن حقل الرماية. وها اني اعي الآن ان احدا لم يخبرنا، في تلك الليلة نفسها، ان الهجوم فشل. وفي الواقع، كانت تلك العملية الاكثر هولا في هذه الحرب : كُلفت كتيبة مظليين اقتحام المزرعة الصينية من دون معونة اي مصفحة. انه امر يكاد لا يصدق ! كأن هؤلاء الرجال ارسلوا الى الموت لان مهمتهم تكاد تكون عملية انتحارية. ولقد قتل عُشرهم بين خنادق الجهاز الدفاعي المصري. وعندما تخلص الناجون اخيرا لم يجر اعلامَنا بما حدث هناك؛ ولذلك لم نُعِدْ دباباتنا الى ملتقى الطريقين. وهذا ما يفسر غيابها عن ذلك المكان الاستراتيجي.

فيما كنت استعيد شريط الاحداث ادركت فجأة ان زيفيلي وموتي لم يكونا في عربتنا. لقد ظل الاثنان الى جانبي طوال ايام الحرب الاحد عشر وكان وجودهما قد اصبح جزءا من نفسي. ثم تذكرت بذهول اننا تركناهما خلفنا في جحيم الفناء. انتابني قلق شديد فسألت الذي حولي ان كان احد شاهدهما. في الواقع كان الكثيرون من ركاب العربة على علم بان زيفيلي

قتل في اثناء القصف، لكنهم اخفوا الامر عني. كانوا يعلمون بالصداقة الحميمة التي تربطنا منذ قرابة عشرين سنة ويخشون ما قد يكون لمعرفتي بموته من تأثير سلبي فيّ وقد احسنوا صنعا في ذلك. ففضلا عن هذه الصداقة كان هنالك ايضا تلك الوحدة الشهيرة التي هي من نصيب القائد. بالنسبة الي كان زيفيلي اكثر من ضابط ممتاز. كنت احب ممازحته والتباحث معه في امور شتى؛ وكانت له موهبة اعادة الصفاء الى نفسي عندما اكون مشحونا؛ ولم يكن عليَّ في وجوده ان اظهر على غير ما انا حقيقة. وعندما اخبرني احد الضباط ان زيفيلي قد جرح واخلي فهمت حينئذ انهم يخفون عني أمراً ما، اذ ربما كان جريحا غير انه من الاكيد انه لم يَجْرِ إجلاؤه، لان عملية الاخلاء لم تبدأ بعد.

تابعت سؤال الناس حولي فيما احد الممرضين يعالج جرحي الذي كان يؤلمني في جبيني. في اللحظة نفسها شاهدت باتسي هِن. كان باتسي ضابط استطلاع وواحدا من افضل الجنود الذين عرفتهم خلال حياتي العسكرية. وكانت وحدته مكلفة تصفية رجال الكوموندوس المصريين الذين حاولوا منذ اليوم الاول التسلل خلف خطوطنا وزرع الفوضى في مؤخرتنا. فبعد ان قلت له ان عندنا جرحى عديدين في الفناء طلبت منه ان يسهر شخصيا على اخلائهم في اسرع وقت ممكن، وكان عليه ايضا ان يبحث عن زيفيلي وموتّي ويعلمني حال ايجادهما.

بعد قليل سمعت صوت موتي في اللاسلكي. قال انه يعلم بانشغالي عليه. كان يشكو جرحا بالغا لكنه حي. وفي تلك اللحظة عينها كان يتم اجلاؤه. لقد عمل موتي سائقا تحت امرتي سنوات طويلة. وكنت اعرف زوجته وولديه الحدثَيْن واحبه كثيرا. وقد آلمتني فكرة تركه في الفناء. لكنني لم احظ بعد بأي معلومة حول زيفيلي.

بعد ذلك بقليل طُلب مني في صبيحة ذلك النهار المليء بالمصائب ان احضر اجتماعا للقيادة العامة في مركز واقع في الصحراء على بعد بضعة

كيلومترات من القناة. صعدت الى مركبتي وتوجهت في طريق أكافيش، هذه التي كان يُظن انها مقطوعة خلفنا. كان ينتظرنا في مركز التنسيق بين كثبان الرمل موشيه دايان وحاييم بارليف ودافيد اليعازار وابراهام ادان. لم ينطق احد كلمة عند اقترابنا، باستثناء دايان الذي استقبلني بتحية ودية : « شالوم، اريك ». ولم اكن قد التقيت احدا منهم منذ ١٤ تشرين الاول (اكتوبر)، اليوم الذي خاضت فيه فرقتي معركة عبور القناة وحدها من دون اي دعم آخر. والآن لا كلمة ولا يد ممدودة، بل صمت مطلق.

اخيرا فتح بارليف فمه ليقول بلهجة هادئة وهو ينتقي كلماته بعناية : « الهامش كبير جدا بين ما وعدت به من فعل وما فعلته ». في اللحظة عينها شعرت بتعب عظيم. بعد كل هذه المعارك الفظيعة وخسائرنا الفادحة، وفيما قتلانا لا يزالون يزرعون ارض المعركة التي اختلط فيها الحابل بالنابل لاننا عاجزون عن اخلائهم — يأتي هذا الفريق من القادة المتصنعين في زيهم العسكري الانيق، وهم حليقون ونظيفون اكثر من اللزوم — وعندما سمعت هذه الجملة « الفرق كبير جدا بين ما وعدت به من فعل وما فعلته » قلت في نفسي ان الجواب الوحيد على ذلك هو صفح بارليف على وجهه. لقد شعرت بحاجة لا تقاوم الى توجيه صفعة اليه.

لا ازال حتى هذا اليوم اجهل كيف استطعت السيطرة على اعصابي. والواقع انني لا بدلا من ان اصفعه كززت على اسناني وصمتُّ. وبعد صمت جديد فتحوا النقاش ليقرروا ما كان عليهم تقريره قبل يومين. سيكون الجسر العائم جاهزا قريبا. ونستطيع في الوقت الحاضر الانتقال الى طور عبور القناة. تدافع وحدتي عن الفناء وتؤمِّن حرية المرور في الممرّ وتتقدم نحو الشمال على طول الضفة الغربية للقناة في اتجاه الاسماعيلية، وكذلك نحو الغرب : قرابة خمسة وعشرين او ثلاثين كيلومترا في اتجاه القاهرة. وتجتاز فرقتا ادان وكالمان ماغِن الجسر وتتجه نحو الجنوب الى جوار ضفاف البحيرة المرة الكبرى حتى مؤخرة الجيش المصري الثالث.

كانت المباحثة قصيرة. في نهاية الاجتماع صعد غونن وبارليف واليعازار الى حوامتهم واختفوا. وعاد ادان الى فرقته بعربته المدرعة. واصبحت اذاً وحيدا مع موشيه دايان الذي بدا واضحا ان الاجتماع لم يعجبه. ومع ذلك لم يقل شيئا. اخبرته ان زيفيلي، وهو من ناهالال، موشاف دايان، قد جرح واني ارجو ان يكون ما زال على قيد الحياة. وسألني عن جرحي في رأسي. نوع من التبادل الانساني على كل حال...

لم يكن في نية دايان ان يغادر المكان؛ طلب مني ان آخذه الى القناة ثم الى الضفة الاخرى. وبعد ان اتخذ مقعده في العربة بدأ يحدثني عن الضرورة الملحة لارسال قوات الى الضفة الثانية. كان يعلم ان الأطواف تعمل منذ ثلاثين ساعة، وان الجسر لم يكن قد جُمع بعد، وان احدا لم يعبر بعد القناة باستثناء دبابات حاييم وبعض الآليات الاخرى التي اختلستها لأعوِّض له خسائره. كان دايان خارجا عن طوره لاننا نتعثر في مكاننا. قال لي : « يجب تفعيل الامور باي ثمن والبدء باجتياز القناة. نحن نخسر وقتا ثميناً ». فجأة عاد الى ذاكرتي جدال معه في فناء احد حصون خط بارليف في اثناء حرب الاستنزاف. لقد قلت له آنذاك : « موشيه، ما عليك الا ان تأمر ».

هكذا ظل دايان الى جانبي ساعة ونصف. سوية عبرنا القناة وراقبنا تلاحق عمليات رأس الجسر. وبدا واضحا ان دايان اتخذ قرارا بعد ان اطّلع شخصيا على الوضع. فعند الرابعة والنصف من بعد ظهر ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) كان الجسر قد تجمعت قطعُه ولكن لم يجتزه احد بعد. وفي ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم، بعد ان عاد دايان الى مركز قيادة الجنوب، اعطى امرا مباشرا لبارليف بنقل القوات فورا الى الضفة الاخرى من القناة. ولم تبدأ قوات ادان بالعبور الا قبل منتصف الليل بنصف ساعة، اي بعد ثمانٍ واربعين ساعة من العبور الاول وبعد مرور سبع ساعات على تجهيز الجسر. بكلام آخر، كان الجسر هناك ولكن لم يضع احد رجله عليه. وحتى بعد العبور ظلت دبابات ادان على الضفة الاخرى تنتظر صباح الغد قبل ان تبدأ الهجوم.

المعركة التي قررت مصير الحرب

العبور المفاجىء لقناة السويس من قِبل فرقة شارون في ١٩٧٣

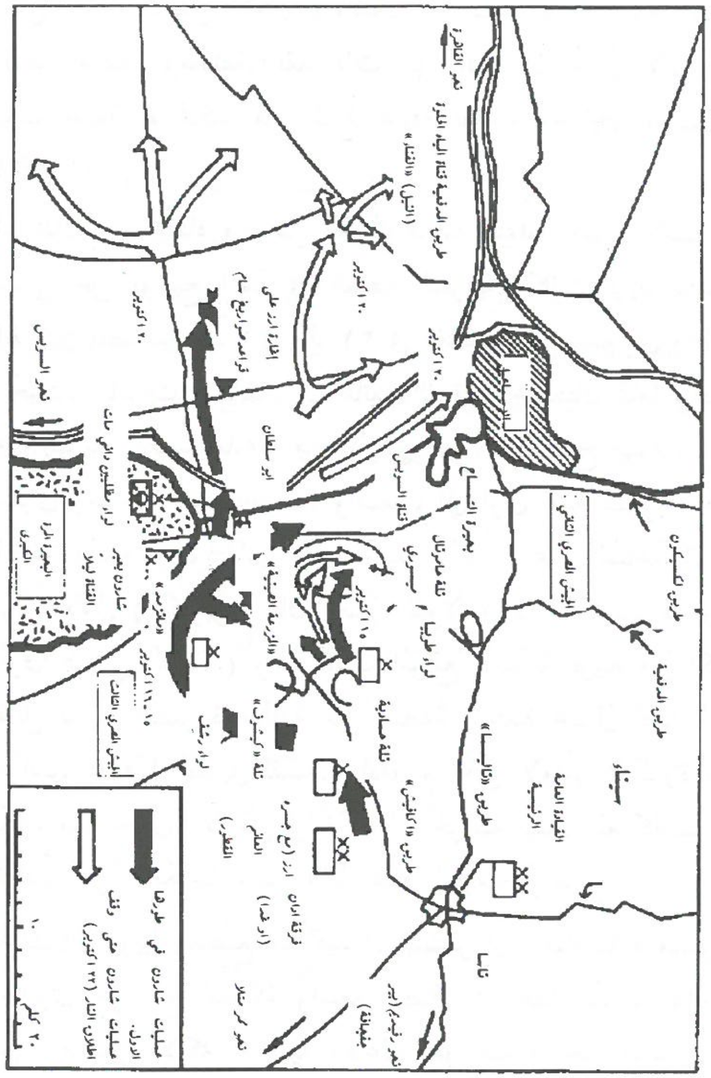

لم يكن الجيش الاسرائيلي يستطيع تحاشي نصر عربي في حرب الغفران (حرب اكتوبر) الا بعبوره قناة السويس وتهديد مؤخرة القوات المصرية في سيناء. كفلت فرقة شارون بهذه المهمة، فهاجمت في مساء ١٥ تشرين الاول (اكتوبر). واجتاز لواء مظليين القناة على متن قوارب، مستفيداً من «الثغرة» غير المحمية بين جيشي العدو، الثاني في الشمال والثالث في الجنوب. وبعدهم عبر القناة لواء دبابات فوق اطواف. وليس بعيدا من هنا - في قطاعي «المزرعة الصينية» و«ميسوري» كان باقي الفرقة يخوض المعركة الاكثر دموية التي عرفها الجيش الاسرائيلي في تاريخه.

من البدهي القول إن المصريين اتيح لهم الوقت خلال هذين اليومين ليفهموا انهم في وضع لا يُحسدون عليه. ولذا فعندما هاجم ادان انطلاقا من رأس جسرنا وجد امامه عدوًّا مستعدا للمحاربة : وما كان يسهل علينا فعله في ١٦ او حتى ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) غدا هذا اليوم — ١٨ اكتوبر — قضية معقدة ومكلفة. لقد بات على ادان ان يشق الآن طريقه مقابل مجابهات عنيفة لم تمكنه من بلوغ هدفه بعد اربعة ايام انتهت باول وقف لاطلاق النار.

فيما كان ادان يعبر القناة ويخوض معارك قاسية ليتقدم جنوبا كانت قيادة الجنوب تحضني على توسيع الممرّ في الضفة الشرقية. كانت تريد بالتحديد ان اهاجم الفرقتين المصريتين الـ ١٦ والـ ٢١ في قاعدتيهما في مسيوري واطردهما منها. وقد اجبت، كالمرات السابقة، ان هاتين الفرقتين محصنتان تماما ومحميتان بحقول الغام ومجهزتان بكمية مذهلة من الآر.بي.جي. وصواريخ صاغر، سلاح المصريين السري ومفاجأة هذه الحرب. واضفت اني ارى عدم ضرورة الهجوم في هذه المنطقة وعدم وجود اي خطر يهدد ممرّنا. (عند الساعة الواحدة في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) كان الجسر الفولاذي ذو الانابيب قد ركب في مكانه فوق ضفتي القناة.) واذا كانت المواقع المصرية قريبة من اكافيش فاننا في المقابل نسيطر بصورة مطلقة على المنطقة الممتدة جنوبي هذا الطريق عدة كيلومترات، بما فيها الطريق نفسه. واذاً، لم تكن الاوامر المتكررة لقيادة الجنوب ترتكز، مرة اخرى، الا على قراءة خاطئة لخريطة ميدان المعركة — وهي غلطة لم تكفَّ عن ارتكابها منذ بداية هذه الحرب وطوالها.

قلت كذلك إن طوبيا يستطيع بالتأكيد ان يستمر في « مناوشة » ميسوري، ولكن لا جدوى من فتح معركة واسعة النطاق في هذا المكان. والعكس هو الصحيح : فالعمل الاكثر منطقية وفاعلية هو التقدم نحو الشمال، على طول الضفة الغربية، خلف المواقع المصرية. فاذا زحفت قواتنا نحو الاسماعيلية خلف خطوطهم، سيشعر المصريون انهم مهددون لدرجة انهم لن يفكروا بمهاجمة طرق مواصلاتنا.

في الواقع هذا ما كنا قد فعلناه. فالمواقع المصرية المحصنة خلف السواتر الترابية راحت تتساقط تباعا في ايدي مظليينا الذين رفعوا فوق كل موقع، كما كنتُ امرتهم، علما اسرائيليا ضخما حتى يتسنى للمصريين الموجودين على الضفة الشرقية للقناة ان يتابعوا تقدُّم قواتنا في مؤخرتهم. وقد اعطى هذا العمل النتيجة المطلوبة : استولى الرعب على المصريين وهم يرون ان طريق انسحابهم قد سدت.

ولكن مع ان قوانا صارت في مصر نفسها تتقدم نحو الجنوب والغرب والشمال، مدعومة بسيل لا ينقطع من المؤونة والمدد، كانت قيادة الجنوب تعاند في وجهات نظرها ولا تزال تأمرني بمهاجمة ميسوري بقوة. لم اعد افهم شيئا ! لذلك احتججت واشتكيت — وحاولت إلغاء الامر بكل الوسائل الممكنة. ورددت قائلا إنها عملية لا جدوى منها وتبديد للارواح، ولكن عبثا. واضطررت في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ان اخضع واطيع.

صباح الهجوم كنت اقف على ساتر على الضفة الغربية اتابع تحركات دبابات طوبيا ومدرعاته وهي تهجم على المواقع المصرية. شاهدتها تدخل الى عمق المواقع الدفاعية ثم تصطدم بسد من قذائف الآر.بي.جي. ومن صواريخ صاغر وغيرها من الاسلحة المضادة للدروع — قبل ان تلتهب الواحدة تلو الاخرى. كل الذين كانوا يراقبون المشهد كانوا شديدي التأثر. فخلال الاسبوعين الاخيرين من الحرب شاهدنا كل شيء، ومُنينا بخسائر فادحة في الأرواح، ولكن كل معركة خضناها، حتى الاكثر دموية، كانت ضرورية. وعندما يكون للمهمة ما يبررها يُقبل ضمنا الثمن المدفوع لانجازها، مهما ارتفع. ولكن ما كان يحدث هنا، تحت انظارنا، لم يكن له اي معنى — كان انتحارا حقيقيا. وذاك المشهد امرضني، وهو الى اليوم لا يزال يثير مرارتي وسخطي.

في المساء نفسه امرتني قيادة الجنوب باطلاق هجوم جديد. ومرة اخرى فعلت المستحيل حتى يُلغى الامر. ذكَّرتهم اني موجود على الارض وفي موقف

جيد يسمح لي بالحكم على الوضع. فاذا كانوا لا يريدون تصديقي فليأتوا ويشاهدوا بانفسهم. (حتى هذا اليوم لم يكونوا قد اتوا الى الجبهة. في المقابل، كان دايان يزورنا كل يوم، بما فيه ١٧ تشرين الاول (اكتوبر)، عندما كان الوضع على الجبهة جهنميا. لكنه الوحيد الذي فعل ذلك). ثم ان هجوما يقوم به لواء واحد ضد ميسوري لا بد الا ان يبوء بالفشل.

اجابوني بان علي، هذه المرة، ان انقل قوات من الضفة الاخرى للقناة. بكلام آخر، كان مفروضا فيّ استعمال قوات غارقة حتى الاذنين في عمليات حاسمة على الضفة الغربية، والاتيان بها الى الضفة الشرقية لرميها في معركة لم يكن من لزوم لخوضها، واكثر من ذلك للدخول فيها من جديد.

لم يكن، في رأيي، من موقف استراتيجي اردأ من هذا الموقف. لكنني اعتقد ان في الامر ما يتخطى استراتيجية رديئة. فخلال كل تلك الحقبة كنت اقترح ان ينصب الجهد الاساسي في الضفة الغربية في اتجاه الشمال، خلف الجيش المصري الفاني، وليس بالضرورة في اتجاه الجنوب، خلف جيش العدو الثالث. واعلم ان بارليف واليعازار كانا مقتنعين بان اقتراحي هذا توجيه مصالح شخصية، لان ألْويتي هي التي سوف تتوجه شمالا. علما ان اتجاها كهذا كانت تمليه في الواقع اسباب عملياتية ممتازة.

في المقام الاول، كانت ثلاثة ارباع قواتنا في سيناء موجودة في الجبهة الشمالية. وتبعا لذلك، كنا نستطيع ان نمارس على الجيش المصري الثاني ضغطا اقوى مما تستطيع فعله على الجيش الثالث. ومن جهة اخرى، كانت قوات الاحتياط المصرية محتشدة امام القاهرة، ومن هناك كانت تستطيع ان تهدد جناحنا في حال تقدمنا جنوبا (وهو ما حصل فعلا) وليس في تقدمنا شمالا. ثالثا، كانت قواعدنا الجوية اقرب الى الشمال وتستطيع بالتالي ان تقدم دعما جويا اكثر فعالية. اخيرا، كان علينا في كل حال ان نتقدم نحو الشمال لنوسع رأس جسرنا.

حتى هذا اليوم لا استطيع ان اتخلص من الشعور بان من بين الاسباب

التي دفعت الاركان العامة الى مهاجمة الفرقتين المصريتين، السادسة عشرة والحادية والعشرين على الضفة الشرقية للقناة، في سيناء، ليس اعتقادها بأن الممرَّ كان ضيقاً جداً، بل إرادتها التأكد من ان تبقى قواتي على الضفة الشرقية. كانوا مستعدين للسماح لي بالتقدم نحو الشمال، ولكن من دون ان يعطوني قوات كافية لافعل ذلك بفاعلية. انني اعي جسامة ما اقوله الآن. انما في ذلك الوقت تكوَّن لديّ انطباع واضح جدا بان الخلافات في وجهات النظر التي جعلتني في السنوات الاخيرة في مواجهة الاركان (بارليف واليعازار)، اضافة الى الحسابات السياسية، كان لها وزن ذو شأن في القرارات العسكرية المتخذة حينئذ. وهذا الاحساس لم يخف مع الوقت.

امام ذهاب جهودي سدى لاقناع هيئة الاركان بالعدول عن العملية ضد ميسوري اضطررت الى الاتصال اخيرا بدايان لاشرح له الوضع. فبعد ان استمع الى قضيتي، أمَرَ مباشرة قيادة الجنوب بالغاء هذا الامر. وهكذا عشية وقف اطلاق النار اعفيت من معركة جديدة دموية لم يكن مقدَّراً لها الا الفشل الذريع.

بعد الحرب كان لا بد لهذه الاحداث ان تعطي ثمارا مرة المذاق. فيوم ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) هذا ظل محفورا في ذاكرتي. ومن بين كل الاخطاء المأسوية والمعارك القاسية لحرب الغفران اكثر ما يراود خيالي الهجوم على ميسوري. فقد امرت لواء طوبيا بالهجوم وانا اعلم علم اليقين ان الكثيرين من هؤلاء الرجال سيلقون حتفهم بلا جدوى. وهذا امر كان علي عدم القيام به على رغم الاوامر التي تلقيتها. كنت اعلم بالغريزة انني ارتكب خطأ باطاعتي هذه الاوامر. وبعد التفكير العميق في الامر لاحقا صرت على يقين عميق انه كان يتوجب علي، على الصعيدين الادبي والشرعي معا، عصيان الامر.

وهذا هو تماما ما قلته في مقابلة مع جريدة معاريف في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤. واضفت ان اولئك الذين أعطوا هذا الامر لم يفهموا الوضع

كما كان سائدا على الطبيعة. واذا كانوا يريدون تخطي القرار التكتيكي لقائد الجبهة، اي قراري، كان عليهم واجب المجيء الى ميدان المعركة ليطلعوا على حالة قواتنا وحالة العدو والطوبوغرافيا ومعنويات الجنود ـــ بكلمة، ليدرسوا كل عناصر المعركة. ولم اكن اقبل تدخُّل رؤسائي في قرارات تكتيكية قبل ان يروا ما ارى. فلو فعلوا ذلك ثم رفضوا وجهة نظري لكنت انسجمت مع قرارهم. ولكن بما انهم لم يأتوا الى الميدان فاني لم اكن استطيع قبول تدخلهم هذا. واذاً كان عليّ ان ارفض تنفيذ امر كنت اعرف انه خاطئ، وكان عليّ ان اقبل المثول امام محكمة عسكرية، بجرم العصيان.

هذا التصريح اثار عاصفة حقيقية. هوجمت من كل الجهات بتهمة عصيان الاوامر. واكثر من ذلك، كنت اجسد التمرد. واتسم الجدل حول هذا الموضوع بالانفعالية الشديدة حتى ان لجنة اغرانات المكلفة التحقيق في الحرب عالجت فورا تهمة العصيان بينما كان المطلوب التحقيق في ظروف الايام الثلاثة الاولى.

اوضحت حيثيات لجنة التحقيق اجتهادات القضاء العسكري. وقد ورد فيها انه من النادر ان يكون المرؤوس مقتنعا في اثناء المعركة ان رئيسه ما كان ليعطي امرا ما لو عرف الوقائع السائدة ميدانيا. ولكن ان حدث ذلك يحق للمرؤوس اللجوء الى كل اجراء متفق عليه من اجل تغيير هذا الامر. اما في ما يتعلق بالاخلال بالنظام، فان الضابط الذي يقبل بالمثول امام محكمة عسكرية بدلا من ان يطيع امرا معطى يعتبره خاطئا انما يستجيب للاصول العسكرية. وخلص التقرير الى القول: « في رأينا ان فكرة الجنرال شارون، كما عرضها، متطابقة مع اصول النظام العسكري ! »[1].

(١) من المسائل الاخرى التي كان على لجنة اغرانات معالجتها حادث ٨ تشرين الاول (اكتوبر). كان ابراهام ادان قد اكد انني في ذلك اليوم تلقيت امرا بان اضع تحت امرته كتيبة دبابات وانني رفضت نقل الكتيبة. وقد حكمت اللجنة ان هذه التهمة كانت خالية من اي اساس.

جبهة سيناء في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر)
عندما أوقفت القوات الاسرائيلية تقدمها

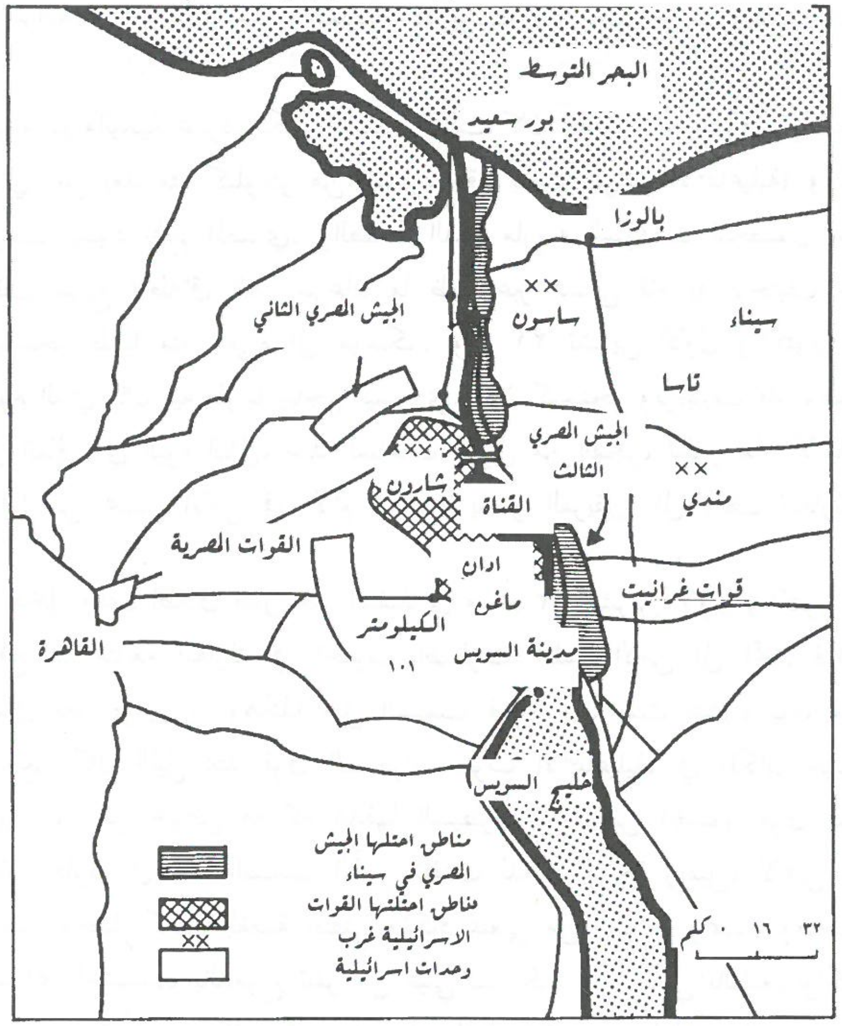

كان طوبيا قد اطلق هجومه المجهَض على ميسوري في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر). وكان قد اتيح لأدان وكالمان ان ينظفوا الارض حول الضفة الغربية للبحيرات المرة وباتا على وشك قطع الجيش المصري الثالث عن مؤخرته. وقبل ذلك بستة ايام كان [الرئيس انور] السادات قد وصف عبور القوات الاسرائيلية القناة بانها « عملية تلفزيونية » وإخراج تَمَّ لإحداث نتيجة دراماتيكية عابرة. لكنَّ جيشهم الثالث كان آنذاك شبه مطوَّق، وكانت قواتي على بعد مئة كيلومتر من القاهرة وقد بلغت أبواب الاسماعيلية؛ وكان الرعب يسود المخيم المصري. والضغط الذي مارسه السوفيات للحصول على وقف سريع لاطلاق النار سرعان ما ظهر عبر مسعى قام به بريجنيف مع كيسنجر طالبا منه المجيء الى موسكو. وفي ٢١ تشرين الاول (اكتوبر)، اليوم الذي كان فيه طوبيا يهاجم ميسوري، كان كيسنجر وبريجنيف قد توصلا الى اتفاق. في اليوم التالي، عند الساعات الاولى من الفجر، تبلور هذا الاتفاق قرارا من مجلس الامن في الامم المتحدة يدعو الفريقين الى وقف المعارك.

دخل وقف اطلاق النار حيز التنفيذ في مساء ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) (مع ان متابعة المعارك في الجنوب اضطرت مجلس الامن الى اتخاذ قرارا اضافي بعد يومين). وهكذا حل الصمت فجأة بعد ست عشرة يوما من الجحيم. كان الليل يمتد فوق الصحراء جنوب الاسماعيلية، في المكان حيث انتهينا توا من خوض معركة هدفها السيطرة على بعض الجسور فوق قناة المياه الحلوة. في هذا الصمت الآسر تلفنت لداليا، زوجة زيفيلي، لاعلن لها موت زوجها. كانت الغصة تخنقني وتكاد تمنعني من الكلام. وعندما وضعت السماعة احسست بالدموع تنفر من عيني — بكاء على زيفيلي بالطبع، ولكن ايضا على الآخرين. لقد شاهدت هذه المرة الكثير من المذابح التي يفوق هولها كل ما شاهدته في الحروب الاخرى. وفي هذه اللحظة على الاقل كان من الصعب علي ان اتخيل كيف يمكننا ان ننسى هذه المآسي.

وبرّرت لجنة اغرانات تبريرا تاما الاجراءات التي اتخذتها في ذلك الوضع لاتجنب تنفيذ الاوامر التي تلقيتها، بما فيها لجوئي الى وزير الدفاع طلبا لتدخله. وبعد كل هذه المجادلة بررت اللجنة ايضا قراري الغريزي بعدم اطاعتي حتى الامر الاول بالهجوم بمقدار ما كنت مستعدا ان ادفع ثمن هذا الرفض بقبولي ان أُقاضى امام محكمة عسكرية. لكنَّ كل تبريرات العالم لم تغيِّر شيئا في واقع ان رجالا قد ضُحِّيَ بهم وانني اشاطر في هذه المسؤولية.

سياسي ومزارع

وراحت تمرّ الأسابيع. لم أكن أجرؤ بعد على مغادرة الجبهة على الرّغم من اعلان وقف اطلاق النّار. فعندما كان يتعيّن عليّ زيارة بعض الأماكن، كنت أحتاط حتى لا يدوم غيابي أكثر من بضع ساعات، فأعود تحت جنح الظلام. فبعد كلّ ما جرى لم أعُدْ أركن الى أحد. في المساء أستقلّ سيّارتي وأمضي بها حتى الدبابات المرابطة في الخط الأمامي حيث أمكث وأراقب مواقع العدّو بالمنظار الليلي السوفياتي « الضوء النجمي » الذي كان قد أُخذَ من المصريين.

في باديء الأمر، كان يمزّق سكونَ الليل طلقات مدفعيّة وأسلحة آلية اعادتنا بالذكرى الى حرب الاستنزاف. وفي تلك الاثناء أخذ رجالنا يتمركزون وينظّمون أنفسهم في مزارع المنغا وبساتين البرتقال الممتدة على طول ضفة القناة، قانعين بما توفرّه لهم ظروف المكان من راحة. وبعد ان استنفدوا مواردهم المحلية المؤلّفة من لحم القطيع السائب والسّارح في المواقع المتقدّمة، أخذوا يحسنون طعام الجراية المشترك بحوش طرائد من البطّ والإوز. وغالباً ما أمضيت الليل أتحدّث إليهم وأحرس الخطوط. وفي الصباح أخلد الى النوم ساعة أو اثنتين قبل أن أكرّس يومي لزيارة الجنود ووضع الخطط في حال استئناف المعارك. وتواترت حالات الإنذار حتى أننا تساءلنا: هل انتهت الحرب

حقاً ؟ كنت مصمّماً، في حال نشوب الحرب من جديد، أن أضع خططي بأدق تفاصيلها.

في غمرة هذه الرتابة اليومية كنت استرجع الأحداث واسترسل في طرح أسئلة وأسئلة على نفسي : ترى كيف حلّت بنا تلك المأساة ؟ كيف سمحنا بحدوث ما حدث ؟ قبل خمسة وعشرين عاما، أيّام حرب الاستقلال، لم نفقد قطّ طمأنينتنا، وإن ليومٍ واحدٍ، مع أن وجود اسرائيل كان مهدّداً. كيف وقعنا في مثل هذا المأزق نحن الذين كنّا نخوض المعارك على بعد ثلاثمئة كيلومتر من منازلنا ؟ لكم كانت ضارية هذه المعركة، لكنّ ضراوتها لم تولّد فيّ، ولو للحظةٍ واحدةٍ، شعوراً بإبادةٍ شاملة وشيكة الحصول. كنت أعي تماما هشاشة موقفنا في الجولان كما في سيناء، لكنّ هذا الموقف أشد حرجا في الأشهر الستة الأولى من حرب الاستقلال. مرّة اخرى، أسائل نفسي : ترى ماذا حدث ؟ بعد إنعام النظر في مختلف جوانب هذه المسألة، خلصت الى الاستنتاج ان معنوياتنا اذا كانت صمدت في العام ١٩٤٨ امام المحن فلأننا عزمنا، في تلك الفترة على المضيّ قدماً. كان ألوف الناجين من المجزرة الجماعية ينتظرون في مخيّمات المهجرين في أوروبا وقبرص، ومع ذلك كنّا نعرف أننا سائرون على درب الاستقلال الوطني، نحو إقامة دولة اسرائيل، وتوفير عيش محترم للجميع. كان وجود المجتمع اليهودي يتصف بالهشاشة، لكننا كنا على اقتناع كلي بأن هذه الحرب لا تمثّل سوى مرحلةٍ مررنا بها على تلك الطريق التي لا بدّ أن توصلنا الى مستقبلٍ افضل.

واستنتجت اننا بتنا لا نعرف تماما الى أين نحن متجهون، وان أهدافنا لم تعد واضحة تمام الوضوح ــ ولعلّ سبب المأساة التي نعيشها يكمن هنا ــ ألفان وستمائة قتيل، يا لها من فاجعة ابتُلي بها شعب بلغ عدده عام ١٩٤٨ ستمائة ألف يهودي، إنّما الاكثر مأساوية هو أن يقع ألفان وستمائة قتيل في حين فقدنا كلّ مرجع وأحبطت طموحاتنا. لا بدّ من طرح بعض الأسئلة الجوهرية الآن وقد تمكنّا أخيرا من تنفس الصعداء لأننا استطعنا،

في نهاية المطاف، قهر العدوّ : ما هو مستقبلنا ؟ ما هي مثلنا العليا وحوافزنا ؟ ما هو هدفنا القومي ؟.

كلما توجّب علي مغادرة الخطوط والذهاب الى بير جفجافة أو تلّ أبيب كنت أستقلّ الطائرة المروحيّة من مهبط الطائرات في فايد، غرب البحيرات المرّة. ولكم كدنا نلامس الأرض في بداية طيراننا، ذهاباً وإياباً، لتفادي صواريخ الأرض — جوّ المصرية. ولدى هبوط الطائرة، قلْ اننا نلاصق المدرج كمن يحاول كسر طوق مخيّم محاصر. وعلى بعدٍ يقلّ عن مئة كيلو متر من القاهرة نصبت قوّاتنا خيمها. ومع رسوخ أقدامنا في منطقة العدوّ كان لا يزال العالم بأسره على اعتقاد بأننا نحن المحاصرون. وتمثّل في نظري هذه الصورة الخاطئة وضعَ اسرائيل العام : كانت ظافرة ولكنْ محاصرة مخنوقة. هذا ما شعرت به تماماً بعد بضعة أشهر لدى عودتي من الخارج. ففيما كانت الطائرة تتجه نحو مطار بن غوريون، أحسست فجأة أنني أعود الى بلدٍ منهك محاصَر، إلى وطنٍ بلاه الزمان وأمعن، وطن فقد راحة باله. لم أكن أقوى على التخلّص من شعورٍ رائعٍ بثّته فيّ رحابة المدى واختلجني قبل سنوات وأنا أحلّق في رفقة ابراهام يوفيه فوق البحر الأحمر في اتجاه افريقيا. على يسارنا وفوق الآكام السود كانت تسطع أنوار جدّة، في حين انبسطت أمامنا افريقيا على امتدادها. يا لها من هنيهة مميّزة، ان كان لها من وجود، هنيهة يصعب محوها، تنضح شباباً، وقوّة، وثقة. كم يختلف هذا الشعور عن ذاك الذي انتابني كما انتاب كثيراً من الناس بعد حرب الغفران !.

بدأ المصريون بالاستعداد لهذه الحرب قبل نشوبها بكثير. فقد كانوا ينوون إعلانها في شهر أيار (مايو) من تلك السنة، وهم لم يرجئوا هذا التاريخ إلّا بسبب اعتبارات عسكرية بحتة. فالسياسة الداخلية الاسرائيلية لم تحتلّ مركزاً مهماً في خططهم، مع أنّ الانطباع السائد في النفوس لم يكن يوحي إلّا بنقيض ذلك؛ فالحملة الانتخابية بلغت اوجها في تشرين الاول (اكتوبر) ولم يعد من الممكن الفصل بين السياسة والحرب.

حتى تشرين الأوّل (اكتوبر)، اي في بداية الحرب، كنت منغمساً حتى أذني في السياسة وطبعا تركت كل الاهتمامات غير العسكرية عندما اعلنت التعبئة العامة، غير ان السياسة لم تتركني وشأني. في أثناء الحرب لمس الجميع بُعدَهَا السياسي، حتّى في الأيّام التي كانت فيها أرواحنا رهن نهايتها. ومن الناس مَنْ أمعن في إدراك هذا البعد أكثر من غيره. لم آتِ بجديدٍ ولا بمستهجن في جمعي السياسة الى القيادة العسكرية؛ فحاييم بارليف كان وزيراً في الحكومة، وكذلك موشيه دايان واسحق اربين وغيرهما من القادة العسكريين ارتقوا درجات السياسة كلّها لان النظام سعى في استمرار الى وضع ضباطٍ ينتمون الى حزب العمل في مناصب الجيش المرموقة. فإذا بي أقلب المعهود رأساً على عقب بصفتي رئيسا عسكريا ورجل سياسة جاء من بين صفوف « العدوّ ».

وسرعان ما أبدى حيالي زملائي العسكريون، وجميعهم تقريبا اعضاء فاعلون في حزب العمل أو مشمولون برعايته، تعارضا عميقا. ولا بدّ لي من القول إنه لم تكن تربطني بمعظمهم علاقات مهنية مميّزة أو وطيدة. فمن جهة، كنت أملك خبرة هي حصيلة ربع قرن من الخدمة العسكرية، ولائحةً بخدمات مؤثرة أسديتها، كنت اعرف أن خبرتي هذه كانت شديدة الجدوى وأشعر إن خصومي يعون هذا الواقع.ولكن ما لا ريب فيه هو انني كنت أشكّل، من جهةٍ اخرى، خطراً سياسيّاً.

في أثناء الانتخابات السابقة، أي انتخابات سنة ١٩٦٩، كان لفنحاس سابير، وهو أحد أبرز قادة حزب العمل، مآخذ على رئيس هيئة الأركان بارليف لأنّه حشرني في موضع يمكّنني من خوض حملة انتخابية « ضدّنا » (على حدّ تعبيره الحرفي)، أي ضد الحزب الذي استأثر بالسلطة دائما. فساوره قلق ألحّ عليه لمّا وضعتْ فرقتي من دون سواها، رؤوس الجسر وعبرت قناة السويس؛ تلك الفرقة التي حازت، في ذلك الوقت، لقب « فرقة الليكود »

لذا كان حزب العمل يخشى أنْ أشكّل، بعد الحرب، حجر عثرة في وجهِ التصويت الاعمى لصالح مرشحيه.

كانت مخاوفه في محلّها، لأنّني هذا ما كنت فاعله. قبل الحرب، كنت مناوئاً لحزب العمل تدفعني الى ذلك أسبابٌ شتّى. أمّا اليوم، فقد اشتدّت معارضتي اكثر من أيّ وقت مضى. كنت أهاجم خصوصا بعض قادة الجيش لأنهم أدخلوا الاعتبارات السياسيّة في القرارات العسكرية. وعلى الرّغم من قناعاتي الخاصّة، وضعت نصب عينيّ مبدأً يقوم على عدم اشراك السياسة في شؤون الجيش. فإبّان حرب اكتوبر كنت اعتبر سحق المصريين والسوريين أكثر الأمور إلحاحاً، باعتبار أننا سنحظى، في ما بعد، بمتّسع من الوقت لنتجابه في الحلبة السياسيّة. كنت أهاجم إذاً، وبوجهٍ خاص، كل من عمل جاهداً في شتّى أنحاء العالم على مختلف المستويات على التقليل من قدر أعمال فرقتي، لا بل على تحقيرها. إضافة الى ذلك، وفي أثناء مفاوضات جنيف الهادفة الى عقد اتفاق مرحلي حول انسحاب القوّات، لم أوافق حين عرض حزب العمل موقفه على انه الحلّ الوحيد الممكن. فمن جهتي كنت مقتنعاً بقدرة اسرائيل على أخذ ما يفوق منالها. ولم أتمكّن من تصديق أذنيّ عندما سمعت زعماء الحزب — وهو المسؤول عن اندلاع الحرب الى جانب الدور الذي لعبه في عدم استعداد اسرائيل لها وفي الأخطاء التي ارتكبتها — يدّعون، والجدّية سمتهم، بأن هذا الحزب وحده، لا غير، قادر على احلال السلام. وتقول شعاراتهم السياسيّة : من يصوّت لحزب العمل يصوِّت للسلام؛ أمّا ذاك الذي يمنح صوته لليكود فهو يدعم معسكر دعاة الحرب.

في نظري، أخطأ كل من حزب العمل وواشنطن في جنيف عندما لم يطالبا بمزيدٍ من المكاسب. لا أزال مقتنعاً، الى تاريخ هذا اليوم، بأن واشنطن كان في استطاعتها ان تبدوَ أكثر تطلّباً. في ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر)، وقبل يومين من اوّل وقفٍ لإطلاق النار، أعلنت الدول العربية حظراً على النفط. كان في وسع الأميركين ان يقولوا حينئذٍ : « أتريدون مساعدتنا على

وقف تقدّم القوّات الإسرائيلية ؟ فلْيكنْ، ولكن بشرط واحدٍ : لا حظر، أرجوكم ». كان في استطاعتهم أيضاً ان يقولوا في جنيف : « نستطيع ممارسة ضغوطات لحمل اسرائيل على الانسحاب من الضفّة الغربية، شرط العدول عن رفع أسعاركم. لم نعد نريد مزيداً من أزمات النفط ». كانت فرصة من ذهب، الى جانب ما كان في متناول أيديهم من أوراقٍ رابحة، لكنّهم لم يعرفوا أو لم يشاؤوا لعبها. نصرٌ واحدٌ احرزه الأميركيون من هذه العملية هو تعزيز موقفهم في مصر. كان في المقدور الحصول على المزيد لو قام تعاون اسرائيلي أميركي أكثر متانة. غير أنه لا الاميركيون ولا الاسرائيليون عرفوا كيف يستغلّون الفرص المتاحة لهم.

أرجئت الانتخابات التي كانت مقرّرة في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) الى ٣١ كانون الاول (دسمبر). فطلب مني قادة الليكود ان أستعيد مكاني على رأس حملة الحزب الانتخابية. لكنني لم أكن متشوقاً الى مغادرة الجبهة. بل كنت أفضّل البقاء على رأس فرقتي وتتبّع المواجهة الانتخابية بصمتٍ ومن بعيد.

ومع أنني كنت غائباً، حقق الليكود انتصاراً له وحصل على تسعة وثلاثين مقعداً في الكنيست (من أصل مئة وعشرين)، أي بزيادة عشرة مقاعد عن الانتخابات السابقة. وكان أحدُ المقاعد من نصيبي. وفي نهاية كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٧٤، تركت الجيش لاقسم اليمين في البرلمان.

غادرتُ فرقتي في ٢٠ كانون الثاني (يناير) بعد عرضٍ عسكري وحفل وداع مؤثّر. لم اترك رجالي عن طيبة خاطر، ولكن ازعجني ان اعهد بالموقف الى رجل آخر مع انني كنت على بيّنة ان انتشار قوّاتنا على الضفّة الغربية مؤقّت وان الانسحاب قريب. فأنا، الى جانب ذلك، عشت مع رجالي ثلاثة اشهر ونصف بلا انقطاع. معاً انتابنا الخوف ومعاً وقفنا والموتَ وجهاً لوجه في ساحة المعركة. كنت أكنّ لروح التضامن هذه تقديراً بالغاً، لكنّها هذه المرّة اتّشحت ببعد خاص. حتّى ذلك الحين لم يكن أيّ منّا قد شهد مثل

هذه المجازر، فكانت قوّة المشاعر التي تربط بيننا تحاكي الرعب الذي عايشناه. ولم أقُمْ بزيارة أي مكان من دون أن يدعوني الجنود الى الجلوس معهم لشرب فنجان من القهوة أو الشاي أو لتناول الطعام. وهذه الصداقة التي قامت بين الرجال، وذلك التضامن الذي رأى النور وأُوار الحرب تتصاعد ولّدا جوّاً وأسلوب عيشٍ صَعُبَ عليّ الاستغناء عنهما. فَعقب عودتي الى منزلي حافظت بضعة أسابيع على الأسلوب العسكري، فاتخذت مكاناً لي حول مائدة الطعام ورحت اشاطر ليلي والأولاد محتوى طبقي كمن تسيّره العادة.

انتهيت من كتابة آخر امر يومي لي في سكينة شقتي في بئر سبع وأحضرت شخصياً النسخات الى المخيّم على متن أحدى الطائرات. ومن بين ما دوّنته في الامر ما يلي: « شكّل عبور القناة نقطة تحوّل في هذه الحرب — انه هو الذي احرز لنا النصر ».

« ... ففرقتنا هي أوّل من شرع في انجاز أصعب مهمّات الحرب وأشدها تشعّباً وضراوة » ألا وهي مهمة عبور القناة، وهي ما أحرز لنا النصر. فلنتذكر ان انتصارنا في حرب يوم الغفران هو اكبر ا نتصار لنا. ولأنّنا أفلحنا في قهر العدو على الرغم من الأخطار والأغلاط والفشل والعقبات والهستيريا وفقدان زمام الأمور، فإن هذا النصر فريدٌ من نوعه في تاريخ جيش الدفاع الاسرائيلي.

« سقط مئات من خيرة زملائنا على حلبة القتال، كما جرح عدد يفوق بكثير عددنا، ولكننا انتصرنا. انتصرتم على رغم كل شيء وأدّيتم هذا العمل بتفانٍ وروح تضحية رائعين...

«أيها الجنود، يا أبطال هذه الحرب الحقيقيين، إنني أدين لكم بتفسير. ان الحرب وراءنا، وانتهت مرحلة المفاوضات مع المصريين، وفي الوقت الحاضر اشعر بحاجة الى القتال على جبهة أخرى فلا بدّ لنا من المقاومة بكل جوارحنا في سبيل تفادي نشوب حروب جديدة. لهذا السبب انا راحل.

« كونوا على يقين بأنني لم ألتقِ خلال خدمتي بمقاتلين مثلكم. كنتم خيرة المقاتلين. فأنا لم أحسّ يوماً بأخوّة مثيلة لتلك التي شعرت بها مع أعضاء فرقتي. تلك الفرقة التي كانت وستزال منزلاً دافئاً استمددنا منه الثقة في قوانا وإمكاناتنا.

« أغادركم وقلبي مثقل بالأحزان، متمنياً لكل واحد منكم ان يعود الى دياره في القريب العاجل. ولكني أعدكم بأنني سأكون معكم في حال استئناف المعارك ».

ما لم اقله في امري اليومي هو تأكدي من أن هؤلاء الجنود قد أرسوا دعائم السلام وهم يعبرون القناة. فلو انتهى القتال بعبور المصريين القناة لكنّا على أتمّ استعداد لشن حرب جديدة — وهذا موضوع لا يساورني حياله اي ريب. غير اننا بعبورنا القناة اجبرنا المصريين على طلب حلول غير الحل القائم على السلاح.

هذا الامر اليومي كنت قد خططته بدمي. وتضمنت السطور القليلة هذه، عقيدتي كلها التي اثارت بالطبع جدلاً. فالتلميح الى الأغلاط والأخطاء والذعر أصاب موضعاً مؤلماً جداً — وهذا كان مرادي. وما تطرّقت اليه في احاديثي عن ضرورة القتال على جبهة أخرى جاء ضربة أولى أو بالأحرى تحدّياً أُلقِيَ به في وجه حزب العمل. وعلى هذه المشادة الكلامية تركت الجيش لأدخل حلبة الكنيست.

ما ان عدت الى الحياة المدنية حتى شاركت في اجتماع جماهيري كبير عقده الليكود لمعارضة شروط الاتفاقات المرحلية المبرمة في جنيف. مع أن الطقس كان ممطراً احتشد قرابة المئة ألف شخص في ساحة الملوك الفسيحة في تل أبيب، في تظاهرة تدعم موقف الليكود. وبعد الخطب والتصفيق، وفيما كنت اسعى الى شق طريقي الى سيارتي، حاصرتني الجماهير التي اخذت تتدافع من حولي لمصافحة يدي او لتقبيلي او لمعانقتي، ما حشرني في زاوية

من زوايا واجهة احد المتاجر. عملت المستحيل لبلوغ سيّارتي، ولكن سرعان ما أدركت عبث جهودي للتملص من هذا الحشد الهائل من الناس.

في نهاية المطاف تمكّن رجال الشرطة من فتح ممرّ لي في ختام مهرجان الناس القسري الذي دام قرابة الساعة. وتملّك جسديّ الوهنُ، لكنّ نفسي عاشت تجربة ملؤها العظمة اثبتت لي قدرتي على نيل مؤازرة السواد الأعظم من الناس معتمداً على وسائلي الخاصة. واكتشفت وجهاً آخر من وجوه العمل السياسي، جانباً لم اطّلع عليه خلال هذه الأسابيع الطويلة التي امضيناها في انشاء جبهة مشتركة من الليكود وسائر الأحزاب التي كان من المفترض أن تؤلفها.

كانت الدورة العادية للكنيست في ذروة نشاطها، لكنّ شغلي الشاغل بقي عملية صهر أحزاب المعارضة الصغيرة والمتنوعة في حزب الليكود لتشكيل كتلة سياسية واحدة متناغمة. وكنت سأتناول بعد ذلك مشروعاً أوليته اهمية كبرى وتطرّقت اليه خلال محادثاتي مع مناحيم بيغن وغيره من السياسين قبل ان تندلع الحرب وتعرقل سير مشاريعي كلها. فضربت موعدا مع قادة الليكود الذين لم تتسنَّ لي رؤية معظمهم منذ اربعة اشهر.

وكان هؤلاء يجتمعون كل أسبوع تارةً في مقرّ الحيروت (أي « قلعة زئيف ») وطورا في مباني الحزب الليبرالي. وكانت سطوة بيغن تتجلى في حزب حيروت كما في أثاث القلعة، الذي يضاهي مسكن القائد تقشفاً. أمّا الليبراليون فقد كان يميّزهم الأزدهار والرخاء : ففي مكاتبهم لا حاجة الى إلقاء نظرة فاحصة قبل الجلوس على الكرسي أو الكنبة خوفا من انهيارها، كما هي الحال لدى حيروت؛ بل في وسعنا ان ندع انفسنا نستسلم بلا تردّد الى الكنبات المريحة المكسوّة جلداً.

عقدتُ أوّل اجتماع لي مع الليبرالين بعد مرور بضعة ايّامٍ على عودتي من الجبهة فحسب. وكان ذلك الشتاء الذي أمضيناه في الصحراء قد حمل

معه قساوة لم نعهد لها مثيلاً ومطراً غزيراً وبرداً قارصاً حتى أننا مكثنا شهوراً طويلة نطلب المأوى في جحور الثعالب والخنادق. ولدى عودتي الى وسط البلاد كنت لا أزال أشعر بالبرد ينخر عظامي. لذا بقيت مرتدياً سترتي المبطنة بالفرو على رغم الجوّ الدافئ الذي يعم الغرفة والجلد الناعم والمخملي للمقاعد الوثيرة فيها.

استهللت كلمتي أمام بيغين وإرليخ وسائر الحضور، بالإشارة الى أن الأوان قد حان للشروع في المرحلة الثانية المتمثلة بصهر الأحزاب والتي تطرّقنا إليها منذ أوّل اجتماع لنا خُصِّص لهذا الموضوع. ولكن بدلاً من إحياء مناقشة على محمل من الجدية وجدتهم « يصرفونني » بلهجة متعبة يشوبها بعض التهكّم. فإذا بأصوات قادة الليكود وتعابير وجوههم تقول لي جلياً بأسلوب مهذب أبوي ما كانت تحاول أحاديثهم ايصاله اليّ. لقد أرادوا في الواقع طرح السؤال التالي : ماذا يفهم هذا العائد من الجبهة في السياسة ؟ لقد كانت هذه الكلمات التي قالها، صحيحةً، لا بل لطيفة، لكننا لا نستطيع خداع أنفسنا في ما يتعلق بمعناها الحقيقي. لماذا يأتي ويهدر وقتنا ؟ ماذا يريد أكثر من مقعده في الكنيست ؟.

في اليوم ذاته، فهمت أنني أواجه خصما مخيفاً. وأدرك القادة السياسيون القدامى كافة انهم حصلوا على كل ما وعدهم به قيام حزب الليكود، وهو زيادة عدد مقاعدهم في الكنيست. فإذا بفكرة الحزب الواحد التي كنت أدعو اليها تستحيل وهما، حلم طفل. فيما كان قادة الليكود يعاملونني على هذا النمط من التسامح الابوي، اكتشفت ان النائب الذي كنته لم يمثّل بالتحديد هدف حياتي الأسمى. كنت عضواً في اللجنة النيابية للشؤون الخارجية والأمنية؛ كما ترأست اللجنة الفرعية لموازنة الدفاع. ومع ذلك لم أعرف طعم الراحة وسط جوّ السياسة الانتهازية هذه، والابتسامات المرائية المرتسمة أبداً على الوجوه، وهذا الهذر الذي تقطعه تربيتات ودية على الكتف. كنت أحضرُ الاجتماعات، لكن هذا النشاط، وخصوصا الجوّ السائد، اثقل كاهلي. فصعب

عليّ تحمّل موائد الكنيست وما تحدثه من جلبة تحاكي جلبة السوق، الى أن أيقنت في أحد الأيّام أنني كنت أسعى بالحري الى الانسحاب من كلّ هذا النشاط بدلاً من الاسترسال فيه.

تمّ أيضاً انتخاب ابراهام يوفي عضواً في الكنيست، فكنا نطوف في الأروقة لتفادي قدر المستطاع كل من ينبغي علينا التحدّث اليه أو الابتسام له. وغالباً ما لجأت الى احدى غرف الاستراحة المخصّصة للنوّاب وجلست فيها بصحبة الشيخ حمد أبو ربيع، وهو نائب من البدو ينتمي الى حزب العمل وصديق عرفته منذ أمدٍ بعيد. هناك كنّا نتحدّث براحةٍ مطلقة عن البادية والخراف ومواسم الحصاد ، عن الأمطار الغزيرة والمفاجئة التي اشتهرت بها صحراء النقب. كنا نتطرّق، باختصار، الى كل تلك الأمور الأقرب إلينا من غوغاء الكنيست المملّة بلا انقطاع.

في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٧٤ جاءني علم بتعييني قائداً عاماً للفرقة المدرّعة الاحتياطية بعد ان تدخّل شخصياً اسحق رابين، الذي ترأس مجلس الوزراء اثر استقالة غولدا مائير، لصالح هذا التعيين في نيسان (ابريل) الماضي. وجعل حزب العمل من هذا التعيين مشكلة سياسية بعد تصديقه على رغم المعارضة التي أبدوها حياله. فقد علّق نوّاب حزب العمل قائلين : لا يسع المرءَ النهوضُ بأعباء قيادة عسكرية ميدانية وشغلُ مقعد نيابي في الكنيست على حدّ سواء.

وأصرّوا على قولهم حتى انهم ربحوا القضية : فقد أصدر مجلس الوزراء مرسوماً يمنع النائب من أداء مهام ضابط اعلى احتياطي ميداني. كثير من النوّاب شغل المنصبين، لكني كنت الوحيد الذي كان ضابط قيادة ميدانية. عندها توفّرت أمامي كافة الشروط التي تدفعني الى اعتبار هذا القرارا الصادر عن مجلس الوزراء « تصفية حسابات ضد شارون ». وبتعبير آخر، لم يساورني اي شك في أن يكون هذا القرار قد وضع خصيصا من أجلي.

قد أُبالغ لو ادعيت أن هذه المسألة حرمتني النوم لأن العكس هو الصحيح.

فخلال أحد عشر شهراً أجريت محادثات مع قادة الليكود لم يسفر عنها نتائج تُذكر. ورحت أرزح تحت وطأة نشاطي النيابي أكثر فأكثر. لكنني، في المقابل، كنت اتمسك فعلا بهذا التعيين. لذا سهل عليَّ الاختيار. فالقانون الجديد شقّ أمامي طريقاً كنت سأجتازه في كل الأحوال. وهكذا قدمت استقالتي في الكنيست في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٧٤ من دون اعلام مناحيم بيغن أو أي من الزعماء السياسيين الآخرين العسكريين — فكان تصرّفي هذا حدثاً نادر الحصول في أوساطنا السياسية. وكثيرون هم الذين رأوا في استقالتي نكاية بعد اصدار القانون المناهض لشارون لكن الحقيقة كانت غير ذلك، فأنا لم أكن حزيناً البتّة، وإنّما انتابني شعور من يتخلّص أخيراً من عبء؛ أمّا فكرة الرجوع الى ساحات القتال فقد بثّت فيّ القدرة على التحليق عالياً.

سرعان إذاً ما استأنفت أعمال المزرعة والأشغال البدنية التي طالما أحببتها. وبعد عودتي بقليل، تأزّمت الأوضاع الاقتصادية في البلاد، ما أجبر العاملين في المزرعة، بمن فيهم أنا، على بذل مزيد من الجهود. وللقضاء على التضخّم المتفاقم، أو بالأحرى لتقليصه، شهدت العملة الإسرائيلية تدهوراً في قيمتها بلغ ٤٣ في المئة.

غير أنني حصلت على مزرعتي، كما يذكر القارئ، بموجب قرضٍ مصرفي خاضع لتقلّبات سعر الدولار. وبتعبير آخر، كنت مهدداً بخسارة أملاكي بضربة واحدة.

بعيد الإعلان الرسمي عن تدهور العملة، عرضتُ الوضع على العاملين خلال تناول الإفطار، فاستهللت كلمتي قائلاً ان الارتفاع السريع الذي تسجّله نفقاتنا سيؤدّي بالمزرعة الى الانهيار، ولا يمكن تفادي ذلك إلا بانتاج سلع قابلة للتصدير. فإذا كان التعامل سيقوم من الآن فصاعداً على الدولار فلا بدّ لنا من تحقيق أرباح بالدولار. لكنّ هذا التحوّل سيتطلّب من كل واحد بذل جهود طائلة. وقد تصحّ مقارنة المزرعة، على صعيد مصغّر، باقتصاد

حر. فاذا اردنا الصمود علينا ان نصدِّر. مع فارق ان الدولة لا تصاب بالإفلاس حتى وان عرفت فشلاً اقتصادياً. أمّا مزرعتنا فهي معرّضة للزوال.

سارعنا بالتحوّل الى إنتاج سلع مخصصة للتصدير. في البداية اتصفت الجهود التي بذلها كلا منّا بالعناء والتعب. أمّا انا، فقد لمست في هذا الضرب من التحدي ما ناسبني. فكنت اعمل بلا توقف مع العمّال : فإذا بك تجدني على الجرّارات وفي بساتين البرتقال وحقول البطيخ وعنبر التعبئة والتوضيب، لا بل تجدني في كل مكان. منهج العمل هذا أتاح لي تقويم مبدأ طالما طبّقته في الجيش : التعليم والاعداد انطلاقاً من المثل الشخصي، وهو مبدأ يصلح اعتماده في المزرعة؛ فاذا اقتدى العمال بمن يعطيهم المثل الصالح سخروا كل مواهبهم في سبيل العمل الجماعي. وقد افلحتْ هذه الفاعلية، اكثر من اي عنصر آخر، في إبعاد شبح الإفلاس عن المزرعة وجعلت منها مؤسسة تدرّ الأرباح.

شمل العمل الجماعي أفراد الطاقم كلّه من يهود وعرب. فرأيت في مزرعتي النادي الوحيد الذي ضمّ يهوداً وعرباً وكتب له النجاح. في الساعة التاسعة من كل صباح (اي بعد بضع ساعات عمل كنت اتناول انا وليلي طعام الإفطار مع العمّال لنعود في ما بعد ونلتقي في الواحدة حول مائدة الغداء. فكانت تتصاعد روائح الطعام الذي أعدّته ليلي والطبّاخة كوخابا تنتشر في أرجاء المطبخ وغرفة الطعام وكأنها تضفي نكهة جديدة على روابط الصداقة وتزكّي رضانا عن المساعي المبذولة في جوّ من التعاون والتضامن. وكان رئيس العمّال في بعض المجموعات المختلطة (أي المؤلفة من عمّال يهود وعرب) يهودياً، وفي البعض الآخر عربيّاً يتولى ادارة عمّال يهود وعرب. وفهم الجميع ان ما من رجل نهض بأعباء هذه المسؤولية إلا لأنه جدير بهذا المنصب، وأن روح المبادرة والفاعلية هما المعياران الوحيدان اللذان أعتمد عليهما. فكان الريب يداعب كل ضليع متمرّس حيال كل عامل جديد استلم مهامه الى ان يبرهن هذا الأخير عن قدراته.

لم يُثر هذا التناغم دهشتي لأنني آمنت دائماً بقدرة العرب واليهود على التعايش. ففي طفولتي، لم أستوعب ان يعيش اليهود في إسرائيل من دون العرب أو منفصلين عنهم، وانّما رأيت في هذا التعايش امراً طبيعياً جداً. وبدا لي العيش المشترك بين الشعبين والعمل جنباً الى جنب منبثقاً من صميم طبيعة الأشياء، فهذه حال البلاد منذ الأزل.

لم يحُلْ عملي دون المحافظة على علاقاتي مع قادة الليكود التي تكاد تقتصر على المناسبات. فاستقالتي من الكنيست أدهشتهم وهم لا يزالون يتكبّدون العناء لإرجاعي عن قراري، حتّى ان بيغن زارني مرّة في المزرعة حيث تناولنا طعام الفطور، وأخذته لمشاهدة الخراف والحقول والأحصنة. ويا لدهشتي حين اكتشفت ولهه بالأحصنة، ربّما لأنها تعود به الى الحرب العالمية الثانية، الى أيّام خدمته في الجيش البولوني. في ما بعد، قدّمته الى العمّال من دون أستثني أبا رشيد، الجركسي الطاعن في السن الذي طالما أدهشه حين كان يجيب على الهاتف مكاني. وحاول بيغن ادخالي معترك السياسة من جديد.

ذكرته بالجدل الذي قام حول مسألة الليكود وتوحيد أحزاب المعارضة في جبهة سياسية واحدة أوليتها، ماضياً وحاضراً، أهمية كبرى. فوجهة نظري كانت بسيطة تتلخّص في قولي له : « عندما ستُستدعى، في احد الأيّام، لتشكيل الوزارة، ستجد هذه الأحزاب غير المنصهرة في حزب واحد عقبة تعرقل أهدافك. فكل حزب سيعمل جاهداً للمحافظة على حريّته حتى يلجأ الى المقاطعة كلّما دعت الحاجة كمخرج سيستخدمه سلاحاً يشهره في وجهك. لا يمكنكم الجزم بأن هذه الأحزاب ستتبع خط سيرك، وهي لذلك ستشكّل حجر عثرة في طريقك ».

ويقول لي إجابة على كلامي : « اصغِ اليّ. عُدْ الى الكنيست. سينتهي بنا المطاف بلا ريب الى تحقيق هذه الوحدة ». لم يكن بيغن يعارض مبدأ الحزب الواحد. لكنّي لم أكن في حاجة الى من يوضّح لي انه لم يكن

في تلك الفترة مستعداً لاتخاذ تدابير ملموسة في هذا الاتجاه. وهكذا لازمت مكاني مغتبطاً لأنني عدت أحرث الأرض من جديد.

بعد الجهد الدؤوب الذي بذلته لإعادة تنظيم المزرعة، أمضيت نصف وقتي في تصريف الأعمال الزراعية وفي أداء مهامي التي تمليها عليّ رتبة الضابط الاحتياطي الذي كنته. وجسّد هذا التكافؤ بين الحياة القروية والنشاط العسكري مثالاً أعلى في نظري. ولكم طابت لي رؤية ليلي وهي قابعة في الجرارة (التراكتور) تشرف على تنسيق الحديقة. أمّا انا، فكان باستطاعتي مراقبة ولديّ، عمري الذي يبلغ عشر سنوات وجيلاد ابن الثماني سنوات ممتطيين كلٌّ جواده، يضربان في الوديان والتلال ثم يعودان مسرعين اليّ. وما اكثر ما لاءمني العمل البدني. فكنت أتمتّع بمنظر الحقول وبساتين الفاكهة وهي تغيّر ألوانها على مدى ساعات النهار. وغالباً ما فاجأت قطيعاً من الأيل اتخذ من جوار المزرعة مقرّاً له. بعد تجربة الحرب التي خضتها وحياة الضجيج في الكنيست، عرفت أخيراً مذاق الهدوء والرّاحة المناسبين للتفكير.

لكنّ عواقب الحرب كانت لا تزال تضغط على نفسي. ففي عام ١٩٧٤ نشرت لجنة اغرانات النتائج التي توصلت اليها مستنكرة بشدة عدم استعداد اسرائيل للحرب وردّ الجيش غير الملائم على الهجوم المصري المفاجئ. وأُقصي كل من صموئيل غونين ودايفيد اليعازار من مهامهما، إضافة الى رئيس المخابرات وغيرهم من الضباط ذوي الشأن. وأجادت اللجنة في تحليل اسباب فشلنا، لكنّ عواقب انتصارنا خلّفت فيّ مزيداً من القلق. فالحرب أنجبت وهما خطيراً في رأيي. في ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣، اقامت الولايات المتحدة الأميركية جسرا جوياً من طائرات غالكسي س — ٥ لتنقل لنا عتاداً حربيا. وتركت هذه العملية في النفوس أثراً معنوياً بالغاً، فهي برهان قاطع على الصداقة والإخلاص اللذين تبديهما الولايات المتحدّة تجاهنا، ورسالة صريحة موجّهة الى الاتحاد السوفياتي مفادها ان دعمه حلفاءَه العرب لن يمرّ مرور الكرام. غير ان قيمة هذا الخط الجوي النفسيّة غلبت على طابعه العسكري. ومع

ذلك، بدا الجميع مقتنعاً بأن جيشنا هو في حاجة ماسّة الى عتاد الحرب وانّ اسرائيل نجت من الكارثة بفضل الولايات المتحدّة. والحال ان هذا لم يكن هو الواقع، لحسن الحظ.

على الجبهة، سمعنا موشيه دايان يعلن الى الكنيست ان الذخيرة التي كنا نستلمها ليلا كنا نستخدمها في صباح اليوم التالي. وعرف كل من حضر ميدان المعركة استبعاد حصول مثل هذا الأمر. بعد الحرب، تعمّقت في مسألة التموين والإدارة العسكرية، فتبين لي اننا على مدى اسبوعين ونصف من القتال، أي خلال الفترة التي استغرقها النزاع، لم تستخدم قوّاتنا إلاّ ٢٥ في المئة من الأسلحة الخفيفة، و ٥٥ في المئة من احتياط قذائف المدافع و ٤٨ في المئة من مخزون قنابل المدفعيّة. لم ينقصنا إلاّ ذخيرة المدافع الميدانية من عيار ١٧ ملم، غير أنّنا لم نكن نملك سوى عدد ضئيل من قطع المدفعيّة هذه. ولربّما ساور القلقُ قادتَنا العسكرين لأنّ المخازن العسكرية كانت فعلاً فارغة؛ وهي لم تفرغ إلاّ لأنّ المكنة اللوجستية كانت تسير على خير ما يرام! فمنذ بدء الهجوم راحت مواكب التموين المثقلة بالذخائر والمعدات المختلفة في مستودعات مصلحة الإدارة العسكرية تؤم مراكز التجمّع المهيأة ورحبات الذخائر والعتاد في الخطوط الأمامية. بتعبير آخر، كان محتوى المخازن والمستودعات موجوداً حيث يجب ان يكون : على الجبهة.

بعد اعلان وقف اطلاق النّار تجنّبت التحدّث في هذا الموضوع خلال زياراتي المتكرّرة للجنود والعسكريين ورجال الصحافة الاميركيين. فالوقت لم يحن بعد. كنت شاكرا للأميركيين، لكنني كنت قلقا جداً لأننا دأبنا على ايلاء هذا الخط الجوي أهمية كبرى، كما لو أننا كنّا ندين له بالنصر الذي أحرزته أسلحتنا. فمن يسمعهم يصدق ان اسرائيل دولة عاجزة عن الدفاع عن نفسها بوسائلها الخاصة وانها تعهد بهذه المهمة الى حليفتها الجبّارة. كان هذا الرأي يفسد مفهوم استقلالنا نفسه ويترك أثراً يضرّ بالجالية اليهودية في الولايات المتحدة.

واتّسمت الانعكاسات المترتبة على مثل هذه النظرة الى الأمور بالخطر الذي يُخشى ما بعده. ومع أنّ الولايات المتحدة كانت وستبقى حتى يومنا هذا بلدا صديقاً وفياً، فإنّ مصالحها الخاصة تسيّرها على غرار سائر بلدان العالم. وقد وَلّدت المصالح المشتركة، وكذلك بعض العوامل الذاتية، روابط متينة وثيقة بين اسرائيل والولايات المتحدّة. ولكن ليس من مصلحة أحد ترويج اعتقاد مفاده ان اسرائيل خاضعة خضوعاً تاماً لواشنطن. على اسرائيـل، وخصومها أيضا، أن يعرفوا اننا قادرون على الدفاع عن انفسنا، واننا بالتأكيد حليف الولايات المتحدة ولكننا لسنا دولة تدور في فلكها، وأننا حققنا استقلالنا بأنفسنا، أولاً بفضل ابنائنا الذين بذلوا دماءهم، وثانياً بفضل التضحيات التي قام بها اليهود في مختلف أرجاء العالم.

ومن دون نية ترمي الى الاستهانة. بصداقة الولايات المتحدة لاسرائيل، اعتبرت دائماً التعاون القائم بين البلدان مرتكزاً على مبدأ المعاملة بالمثل. فقد سبق لاسرائيل ان ساهمت الى حدّ بعيد في تحقيق الأهداف الأميركية — المرتبطة ارتباطاً وثيقاً. بمصير العالم الديمقراطي — ولا يزال أمام التعاون الأميركي — الإسرائيلي هذا كثيرٌ من الميادين يرودها. فما يضمن ديمومة هذه العلاقات الودية على المدى البعيد هو مبدأ المعاملة بالمثل. لذا أثارت فيّ قلقا بالغا صورة اسرائيل الضعيفة والمجرّدة من سلاحها والتي تدين بحياتها للجسر الجوي الذي نظّمته الولايات المتحدة.

في صيف ١٩٧٥ طلب مني اسحق رابين، رئيس مجلس الوزراء في تلك الفترة، أن أكون مستشاراً. لم يكن يتطلّب مني هذا المنصب ان أترك نهائياً نشاطي في المزرعة، بل قدّم لي فرصة حتى أؤثر في قرارات مهمة على الصعيد الوطني. لم يكن رابين، وهو أحد قدامى حزب العمل، منظراً دوغماتيا على غرار غولدا التي كانت تسائل نفسها في استمرار : « هل هو واحد منّا ». على الصعيد الشخصي كنا دائما متفاهمين، وغالباً ما تطابقت أفكارنا حتى

ذلك التاريخ لم أقع ضحية أي صراع مع نفسي حين قبلت العرض الذي تقدّم به اسحق رابين.

في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦، عرفت البلاد أزمة بعيد استلام عملي مع رابين. في تلك المرحلة كان لبنان يعيش، منذ سنة ونصف، حربا أهلية. وعلى الرغم من تنوع الفئات المتورطة في هذه الحرب فانها كانت في المقام الاول صراعا بين المسيحيين اللبنانيين، الذين يريدون الابقاء على النظام السياسي التقليدي في لبنان، ومنظمة التحرير الفلسطينية التي أقامت على نحو تدريجي وغادر، دولة داخل الدولة، في بيروت وجنوب البلاد. فكانت منظمة التحرير الفلسطينية تقود من « ارض فتح » هذه شبكة ارهاب عالمية ترمي الى ضرب اهدافٍ دولية كما تستهدف قرانا وضيعنا الواقعة على الحدود اللبنانيّة وفي داخل اسرائيل.

عقدت سوريا آنذاك العزم على التدخل مباشرة في هذه الحرب الأهلية بدعوة من حكومة لبنانية مركزية اقرت بعجزها عن تهدئة الأوضاع. وبدا على الولايات المتحدة كأنها مستعدّة لتمنح التدخل السوري دعمها، راجية بالطبع ان يوفّق في احلال الأمن. وفيما راح الوضع يتدهور سريعا طلبت واشنطن من اسرائيل قبول تدخل دمشق مقابل موقف متفهم حيال حدود انتشار القوات السورية.

أوصيت رابين بالامتناع عن قبول هذا الاقتراح، لأنني كنت مقتنعا بأن فرص عودة السلطة المركزية في بيروت ستكون باطلة فعلياً، من اللحظة التي ستلعب فيها سوريا دوراً بارزاً في هذا البلد. وعوضاً عن احلال الأمن ستعمل سوريا على تحويل لبنان الى حصن يخوّل منظمة التحرير الفلسطينية ترسيخ وجودها اكثر فأكثر. وفي النهاية، ليس من شأن هذا التدخّل الا ان يلحق بنا الأذى وقد يقودنا الى حرب جديدة. فأعربت لرابين عن رأيي قائلاً : « علينا ابداء معارضة شديدة في وجه اي تدخل عسكري سوري، لا بل علينا اللجوء الى الطيران في حال تقدّمت القوّات السورية في اتجاه

الحدود اللبنانية ». وعندما فهمت ان رابين كان على وشك قبول دخول القوّات السورية الى لبنان، طالبت بأن نجعل سوريا تقدّم على الأقل تنازلات لقاء منح موافقتنا، كالاعتراف بسيادتنا على هضبة الجولان.

لم أكن المستشار الأوّل الذي يكتشف ان توصياته ليست بالمقنعة دائما. واستمرّ الجدل قائماً بين اسرائيل والولايات المتحدة حول المسألة حتى أفضى في نهاية المطاف الى ابرام اتفاق تقبل اسرائيل بموجبه التدخل السوري آملة ان تضع سوريا حدّاً لنفوذ منظمة التحرير الفلسطينية وان يشهد شمال الجليل أمناً نسبيا مع عودة النظام.

اقل ما يُقال في هذه العملية انها ظاهرية التناقض في وكر الزنابير اللبناني : بلد عربي رديكالي كسوريا يتدخل الى جانب حكومة مسيحيّة لبنانية ضدّ منظمة التحرير الفلسطينية وحلفائها والأحزاب الإسلامية الأصولية. ولكن على رغم سخرية هذا الوضع والانتكاسات التي صادفتها القوات السورية عند دخولها لبنان فانها تمكنت من الحاق خسائرنا فادحة بمنظمة التحرير الفلسطينية. وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٦ رأى السوريون في مصالحة ياسر عرفات كسباً يفوق ما سيحققونه في حال تصفيته. فالاتفاق المبرم خلال اجتماع الرياض كان يفتح أمام الإرهابيين في جنوب لبنان ابواب الازدهار، ولكنّه أوجد لاسرائيل مشاكل لا تزال عالقة حتى اليوم.

عملت مع رابين خلال فترة امتدّت من حزيران (يونيو) ١٩٧٥ حتى شباط (فبراير) ١٩٧٦. في هذه الفترة اعتبرت انني تعلّمت كل ما يجدر بي ان أتعلّمه وساهمت حتى أقصى امكاناتي. بدأت هذه الشراكة والحظّ حليفها وانتهت في جوٍّ مماثل. كانت هذه المرحلة مثمرة، منّت عليّ بخبرة ثمينة على صعيدٍ كان جديداً بالنسبة الي. فقد تعلّمت ان انظر الى المشاكل الوطنية بمنظارِ رئيس للوزراء كما سنحت لي الفرصة لألتقي بكبار رجال هذا العالم. كنت في حضرة رابين حين رأيت هنري كيسنجر لأوّل مرّة، فإذا به يحدّق اليّ قبل ان يقول لي مداعباً : « قيل لي إنك اخطر رجل

في الشرق الأوسط ». فتذكرت رأسا الدور الذي لعبه في المفاوضات التي سعت الى وقف اطلاق النار وعقد اتفاقات مرحلية، ثمّ أجبته جافاً : « لا يا سيّد كيسنجر. لست الرجل الأخطر في الشرق الأوسط. فهذا الرجل هو أنت » !.

في تلك المرحلة كثر تجوّلي في بلدان العالم وفي اسرائيل. وامضيت ايّاماً كثيرة في اليهودية والسامرة حيث وضعت الخطوط العريضة لمشروع استثمار هاتين المنطقتين، مع اني كنت اعلم ان رابين لن يستطيع ابدا تحقيق مثل هذه المشاريع. ولكنْ من منا يستطيع التنبوء بالمستقبل ؟ ففي تلك الفترة لم أكن اتصور ان مناحيم بيغن سيتولّى رئاسة مجلس الوزراء في السنة التالية ويكل اليّ حقيبة الزراعة ويعينني رئيسا للجنة الوزارية لشؤون المستوطنات. ولم تكتسِ مشاريعي التي وضعتها خلال عملي مع رابين كامل أهميتها إلاّ خلال تلك المرحلة.

لائحة انتخابية وحيدة

مع اقتراب انتخابات ١٩٧٧ استولى عليّ من جديد شيطان السياسة. وبدا واضحا ان القِدر السياسي الاسرائيلي موشك على بلوغ نقطة غليانه. فغضَبُ الشعب، الذي هزّ حكومة غولدا مائير بعد حرب الغفران، استحال نوعاً من القلق الكامن والمستمرّ. فالبلاد لم تبلسم بعد الجراح التي خلّفتها الحرب على الصعيدين المعنوي والاقتصادي — وهو وضع أدركه الجميع. وظهرت عشية الحملة الانتخابية مشكلة جديدة زكّت نيران الاستياء العام عندما تصدّرت قضايا الفساد صفحات الصحف الأولى ملطِّخة سمعة الكثيرين من قادة حزب العمل. وبعد مقاضاتهم في المحاكم اقرَّ بذنبهم في نهاية دعاوى دوّى صداها بعيداً. ثم ان صدمات الحرب تولّد حاجة ملحّة الى تغيير جذري من شأنه أن يعيد البلاد الى طريق الصواب وان يبثّ فيها زخما جديدا — وقد اجمع الرأي ان حزب العمل لم يعد في المستوى الذي يخوّله انجاز مثل هذه المهمة الوطنية.

في مثل هذا الجوّ دخلت من جديد معترك السياسة. كنت عاجزاً العجز كلّه عن إيضاح الأسباب التي حدتني على اتخاذ مثل هذا القرار : فأنا لم اكن أتوق الى الحياة العامّة؛ أمّا المزرعة، فقد شهدت ازدهاراً وكسبت جمالاً لم تعهده من قبل. لكنّ وضع البلاد كان يقلقني في استمرار. وشعرت بصوت

يستدعيني. والزمن لم يبقَ على حاله. والمنطلقات الجديدة آخذة بالظهور، وانا لا اريد ان اتخلف عن الركب.

ولكن كيف العمل ؟ تلك كانت المشكلة. فأنا لم أكن اعتبر سيما ارليخ، زعيم الحزب الليبرالي، صديقاً من اصدقائي. أمّا علاقاتي مع ساسة الأحزاب الأخرى فقد شهدت برودة واضحة وجفافاً. وفشلت محاولاتي المتكرّرة توحيد الليكود، فعزّز هذا الإخفاق قناعتي الرافضة الانتسابَ الى اي حزب من الأحزاب التي كنت افاوضها في موضوع الوحدة. ولم يبقَ أمامي سوى سبيل واحد ألتمسُهُ، يختلف تماماً عن ذلك الذي فكرت فيه. فبعد انعام النظر في كافة الموضوع، رأيت ان التفرّد في التصرّف لم يكن اسوأ من الخيارات الاخرى المتاحة؛ بتعبير آخر، سيمكنني انشاء حزبي الخاص، من الضغط على الأحداث اذا ما ابتسم لي الحظ في الانتخابات المقبلة.

فراح أصدقائي وحلفائي السياسيّون، الذين تخوّفوا من ان استقطب اصوات الليكود معزّزاً بذلك حزب العمل، ينصحونني بشدة بالعدول عن مشروعي. غير انني قرّرت المضي فيه، وفي تصريح أعربت فيه عن نواياي دعوت الناخبين الى الانتساب الى حركة أطلقت عليها اسم « شلومتسيون » — « سلام صهيون ». فلبى الدعوة اعداد هائلة من الناخبين. واجتاح المكتبَ المتواضع الذي استأجرناه في تل أبيب عشراتُ المتطوّعين، وهو عدد فاق بكثير ذاك الذي يمكننا استيعابه. وافادنا استطلاعٌ للرأي بان لنا املا في الحصول على ثمانية عشر مقعداً برلمانيا، وهو رقم هائل تجاوز من بعيد ما نحتاج اليه ليحق لنا ابداء الرأي ويكون لنا وزن في امور البلاد المصيرية.

وحذا حذوَ « شلومتسيون » حزب آخر أطلّ على الساحة السياسية أُطلق عليه اسم داش أو الحركة الديمقراطية من اجل التغيير. كان يديره ايغال يادين، استاذ الآثار الذائع الصيت. ورئيس سابق لهيئة الأركان في الجيش الاسرائيلي. فهو بدوره رأى « النقش على الجدار » في أثناء وجود حزب

(١) عبارة من التوراة اخذت من سفر دانيال (٥ : ٢٥) تمثّل الحدس بحلول مصيبة.

العمل في الحكم. فنجح في كسب أغنى رجال البلاد وأكثرهم شهرة. وشكلت ولادة هذين الحزبين طريقا اضافية للناخبين المستائين من الأحزاب الموجودة. وشيئاً فشيئاً راحت اجهزة الأحزاب السياسية الكبيرة تدير محرّكاتها متطلبة، على غرار المعدّات القديمة والثقيلة، وقتا لتنطلق.

وفيما أنا منهمك في صياغة مواقف « شلومتسيون » حول مختلف مشاكل البلاد ساعياً وراء كسب أقصى درجات الدعم، كانت معرفتي بالحياة السياسية تزيد يوماً بعد يوم، ولا سيّما معرفتي بالمشاكل التي يعانيها حزب صغير مستقلّ تجرّأ وزاحم ماكينات انتخابية لها قوّة متأصلة الجذور. وعرف « شلومتسيون » انطلاقة سريعة. ولكنّه ما لبث ان واجه عقبات رئيسية تمثلت بتشغيل جهاز تنظيمي فعّال، ونشر برنامج الحزب السياسي، وتمويل الحملة الانتخابية، والاستدعاء الى الاجتماعات — وكثير من المشاكل التي كانت تثقل كاهلنا. وبقدر ما كان السباق الانتخابي يقترب من المرحلة الأخيرة كانت الاستفتاءات تتكاثر، متوقعة لنا احراز ثمانية مقاعد او ستة. في هذه المرحلة طلبت القيام بدراسة جدية وسرية لتحديد فرص نجاحنا. ولم تأتِ النتائج مشجعة : فنحن لن نحصل على ثمانية مقاعد ولا حتى على ستة وانّما على اثنين فحسب — هذا كل ما في وسعنا ان نتوقعه.

في البداية احتفظت بالنتائج لنفسي ولم أنبس ببنت شفة لا امام اصدقائي ولا امام مناضلي الحزب. فلم يكن في نيّتي إحباط عزيمتهم لا سيّما انني كنت آمل الحصول على ارقام اكثر تفاؤلاً. ونشرت الصحافة لاحقا نتائج استطلاع جديد للرأي توقّع بدوره مقعدين. عندها ألمّ اليأس بي وبكل من ناضل في سبيل الحزب. لعلّني ذهبت بعيدا وسريعا في مشاريعي ؟ ألم يكن من المستحسن اعتزال نشاطاتي ؟ لقد اعربت ليلي، منذ البداية، عن رفضها فكرة اللائحة الانتخابية المنفردة، ولكن عندما ابلغت اليها نيّتي في الرجوع عن كل ما بدأت به بدت حازمة ثم قالت : « الآن وقد دخلت السباق لا يمكنك الانسحاب ». ومن دون اضافة المزيد، خرجت تبتاع موادّ

مطهّرة وأدلاءً ومكانسَ، واخذت تنظّف مقرّي الانتخابي مع ولدينا. وراح كلّ من كان موجوداً في المقرّ يساهم مبهوراً بحماسها. وبعد مضي بضع ساعات طرأ تغيرّ كلي تجلّى في النفوس وفي المكان. اما انا فأخذت نصيبي من المشاركة ولكني بقيت في قرارة نفسي محبط العزيمة كئيباً مع انني أفلحت في التغيير الذي بدا على مركز الحزب.

بدأت اقتنع الآن أن الشعب قلّما يثق بالأحزاب الصغيرة. فحتّى بن غوريون، الذي تقدم مرشّحا منفردا الى انتخابات ١٩٦٩، لم يحرز الا أربعة مقاعد. (وفي فترة لاحقة خاض كل من موشيه دايان وعازار وايزمن التجربة عينها. فحصل دايان على مقعدين ووايزمن على ثلاثة). لكني لم أجد في هذين المثلين ما يؤاسيني. اما على الصعيد المالي، فالنتائج لم تكن مشجّعة. واذا عكست استطلاعات الرأي تراجعا في عدد الناخبين لصالح شلومتسيون فأنا لم اكن في حاجة الى أي دراسة حتى اعرف حسامة المشاكل المالية التي نتخبّط فيها. فالتفاوت بين الهبات من جهة ونفقات الحملة الدعائية الانتخابية، والنقل والإيجار من جهة أخرى، كان متفاقما.

في مسعى للبقاء والصمود سارعت الى القيام بجولتين لجمع الأموال في الولايات المتحدة، كانتا غاية في الصعوبة. فأدركت عندها لماذا لا تنجح الأعمال في هذا البلد من دون عملاء ومحامين ودارسي اسواق. كما أدركت كم هي مسألة جَمْعِ الأموال معقدّة، لا سيّما أنني لست موهوباً في مثل هذا النوع من الأعمال. وما زلت أتذكّر اليوم الذي تلقّى فيه امين سرنا اتصالاً هاتفياً من متبرع مفترض في سان فرنسيسكو أعرب له عن نيّته في التبرّع شخصيا، آخذاً على عاتقه تنظيم حفلة ساهرة اتوجّه خلالها الى مجموعة من المتعاطفين. ترى، هل في وسعي أن أستقل الطائرة في اتجاه الساحل الغربي بعد أن أتفرّغ من سائر مشاغلي ؟ ومع أنّ دوام عملي كان حافلا بالمواعيد الطارئة، صعب علي تفويت مثل هذه المناسبة. وفي صباح اليوم التالي عقدت مؤتمرا صحفيا في واشنطن ثمّ قطعت القارة على متن الطائرة

بعد ان كانت لي محطّة في كنساس. وفي مطار سان فرنسيسكو كان الصحافيون في انتظاري، فافتتحوا مؤتمرا صحفيا جديدا قبل وصولي الى الفندق حيث كان من المقرّر أن يعقد اجتماع المتبرّعين.

احتشدت القاعة التي سألقي فيها كلمتي بالمدعوين الى عشاء رسمي يختلف بطرازه عن المآدب المألوفة، لأنه كان عشاء حول طاولات صغيرة. ومن بين سائر الحاضرين تبيّنت مضيفي الذي هرع لاستقبالي استقبالاً حارا. وخلال تناولي الطعام أدركت ان الحفلة لم تنظّم على شرفي مع أنني كنت الخطيب المدعو، وانما نظمت من اجل مسألة مختلفة تماما. وعندما انتهيت من العشاء نهضت لأعرض وضع اسرائيل. تطرّقت في كلمتي الى الخطوات التي يتوجّب القيام بها والسبل التي سأعتمد عليها لتحسين الوضع. ولمّا أفضيت الى نهاية كلامي وقف مضيفي وقال : « فلْنمنح السيد شارون دعمنا، هذا البطل الذي عرفته حرب الغفران. وكبداية، ها أنا أمنحه دعمي ». وحتّى يقرن كلمته بالفعل قدّم لي ظرفا دسسته في جيب سترتي. أما سائر المدعوين فلمّ يبدوا استعداداً ليحذوا حذو مضيفي. وعندما سألته بصوت خافت عمّا اذا كان يجدر بي اضافة شيء ما، اجابني بصوت مماثل : اسمع، ستحظى بالمزيد في نهاية الاجتماع ». ولكن بعد الاجتماع تفرّق المدعوون رأساً. ولزيادة الطين بلّة أدركت لاحقاً ان مضيفي سها عن حجز غرفة لي فغدوتُ لا أعرف أين سأنام.

أمّا المفاجأة الوحيدة التي خبّأتها لي هذه السهرة فتمثلت بوجود زوجين عرفتهما في تساحالا، انتقلا منذ بضع سنوات للعيش في سان فرنسيسكو. بقي هذان الزوجان الى ما بعد انتهاء الحفل للتحدّث الي فدعواني الى المبيت عندهما. كانا يقطنان مسكنا جميلا أمضينا فيه سهرة رائعة استعدنا خلالها ذكريات ماضٍ عبر. لكني بدأت افقد صبري وأتحرّق شوقاً الى فتح الظرف. وما إن أصبحت وحيدا حتى فتحته بأنامل مرتعشة، فوجدت شيكاً بقيمة... خمسة وعشرين دولاراً. لم يبق أمامي سوى الضحك ـــ وهذا ما فعلته.

على رغم محاولاتي البائسة فتحت أمامي الجولتان اللتان قمت بهما في الولايات المتحدة مجال الخروج من مأزقين. ففي الولايات المتحدة التقيت كثيرين من أصدقائي الحقيقين. كانت تعود صداقتي بالبعض منهم الى زمنٍ بعيد، أمّا البعض الآخر فمعرفتي به حديثة السن. وفي نهاية المطاف تمكنت من جمع مبلغٍ من المال يكفي لتسديد ديوننا ولمواصلة حملتنا الانتخابية.. وعلى غرار المرشحين للانتخابات عملت جاهداً لأكون محط انظار وسائل الإعلان والاعلام، غير انها على ما يبدو نسيت حتى وجودي. وقام اعضاء الحزب يتقصّون يومياً الأخبار في الصحف ويواكبون تطوّر الأحداث ويستمعون الى اذاعات الراديو ويشاهدون شاشات التلفزيون، ليطالعهم في كل مرّة ذلك الصمت المثبط للعزائم. فما يهمنا اليوم لم يعد احراز النصر وانمّا الصمود. فإذا توصلت الى ذلك تظل أبواب عالم السياسة مشرّعة أمامي. ولكن، هل في وسعنا المحافظة على هذين المقصدين اللذين نعلّق عليهما الآمال ؟ هنا تكمن المشكلة.

في الوقت الحاضر، أخذت أعتمد على عدد من الأمناء والحلفاء السياسيين، في حين راحت أجهزة الأحزاب السياسية الكبيرة تعمل بكل زخم محرزة التقدم مع مضي كل يوم. امّا نحن، فكنّا نسائل أنفسنا في كل صباح، ترى كيف لنا أن نحصل على المال لمواصلة عملنا. في الطريق، كان المارّة يستوقفونني للتحدث الي، معربين عن تعاطفهم ودعمهم لكنهم كانوا يضيفون بأنهم عاجزون عن التصويت لصالح « شلومتسيون ». فهذا من شأنه أن يفقد حزب الليكود كثيراً من الأصوات. مأزق ولّد في نفوسهم الحزن. وفي زخم عارم، راح « شلومتسيون » يناضل بلا رحمة، مطلقا آخر رصاصاته.

في تلك المرحلة دخل مناحيم بيغن المستشفى طالباً المعالجة اثر نوبة قلبية. فذهبت الى زيارته قبل شهر من الانتخابات، في فندق هاشارون Hasharon في هرتسليا، حيث كان يمضي فترة النقاهة. خلال هذه الزيارة أعربت له عن رغبتي في ضمّ شلومتسيون الى الليكود. لاقت هذه الفكرة استحساناً

لدى بيغن الذي وعدني بطرح الموضوع على اسحق شامير (المولّج اليه شؤون تنظيم الحزب) واتخاذ التدابير اللازمة. عارضَتْ غالبية أعضاء حزب شلومتسيون هذا المشروع اذ كانوا يأملون عبور خط الوصول وحدهم. لكنني كنت مدركا أنهم على خطأ ومقتنعاً بأن الحل المطروح هو الأمثل. في تلك الأثناء، عرض بيغن الفكرة على حزبه، كما وعدني، وطلب من شامير ضرب موعدٍ لي لمناقشة تفاصيل الاتفاق الجديد. لكن الوقت كان يستوجب الاستعجال، فآخر مهلة لايداع لوائح المرشحين لدى لجنة الكنيست الانتخابية باتت على الأبواب.

وسجّل ذلك المساء الذي اجتمعت فيه مع شامير في أحد مقاهي تل أبيب، في زاوية شارعي كنغ جورج وديزنغوف، نهاية المهلة. فشامير لم يكن مقتنعا تماما بفكرة ضمّ الحزبين. وأشار الى ضرورة مراجعة سيمحا ارليخ ثم نهض واختفى. مضت ساعة ثم اثنتان من دون أن يظهر له أثر. ولم يكن موجوداً في مسكن أرليخ الذي خلا ممّن يجيب على الهاتف. أمّا بيغن فقال لي وهو طريح الفراش : « هذا ما يحدث عندما يكون المرء مريضاً ». استحال علينا المضي في الانتظار، فطلبت من معاونيّ ايداع لائحة المرشّحين عن شلومتسيون لدى اللجنة الانتخابية. في حين أبقى بيغين المجال مفتوحاً أمام التعاون عندما قال لي : « إريك، اريدك ان تعي بأنه لا يزال في وسعنا القيام معاً بمشاريع مستقبلاً »، كلمات لم ألمس فيها أي عزاء لي.

قبل يومين من الانتخابات كتبت الصحف في صفحتها الاولى عنوانا تناول مناورة بيغن الانتخابية الأخيرة. في حال ألّف بيغن الحكومة سيعهد بحقيبة الدفاع الى عازار وايزمن أو الى إريك شارون. كان هذا العمل غاية في الاتقان. فعلى رغم فشل محاولة ضم شلومتسيون الى الليكود وجّه بيغن هذه الرسالة مباشرة الى الناخبين الراغبين في أن أحصل على مقعدٍ في مجلس الوزراء. كان معنى هذه الرسالة واضحاً وضوح الشمس : « إذا أردتم إريك، صوّتوا لليكود ». كان شلومتسيون قد بلغ غاية امكانياته، ولم يكن وعد بيغين هذا

من شأنه ان يكسبه اصواتا، تماما مثل الرأي القائل ان اوراق الاقتراع التي يأخذها شلومتسيون من امام الليكود تزمع ان تعطي حزب العمل الاكثرية العددية.

في ١٧ نيسان (مايو)، ذهبت في رفقة ليلي الى مكتب الاقتراع في راحوبوت، المدينة التي اتخذناها محلاً لاقامتنا خلال الفترة التي سيستغرقها ترميم المزرعة. وعهدت راهوفوت (حيث يعيش كثير من ميسوري الحال واختصاصيي معهد وايزمن للعلوم) أن تصوّت لحزب العمل (علماً ان بيغن اعتمد على الناخبين المنتمين الى الطبقات الوضيعة والفقيرة). وفي انتظار دورنا لم أرَ كثيراً من الوجوه الصديقة. ما من أحد، بالطبع، أفصح عن عواطفه أو آرائه السياسية امامنا، ولكننا كنا مقتنعَين بأننا المصوّتان الوحيدان لصالح شلومتسيون.

تكهنت التوقعات بنصر الليكود. لكنّ صدمة حقيقية اعترت البلاد حين أعلن مذيع التلفزيون، في ساعة متأخرة من الليل، ان الليكود حاز غالبية الأصوات : فبعد تسعة وعشرين عاما من السلطة تنحّى حزب العمل عن الحكم، ودُعي مناحيم بيغن لتشكيل حكومة جديدة. فكانت الدهشة الشاملة تزاحم الريبة — وكأن العالم قد شهد انقلاباً في المقاييس. أمّا شلومتسيون فأحرز مقعدين كما توقعنا — وعلمتُ في ما بعد ان لهذين المقعدين أهمية فاقت تصوّرنا، ولكن أهميتهما في الوقت الحاضر تنحصر في كفاية حاجتنا فحسب، وراح الناس يقولون مداعبين إنني أدين بهذين المقعدين الى جنود فرقتي. كانت هذه الحملة الانتخابية بمثابة درس قاسٍ، لكنني كنت فخوراً لأنني صمدت سياسياً على رغم كل شيء. ويمكنني الادعاء، أيضا، بأنني ساهمت في انتصار الليكود : ألم أكن صانعه ؟ فقبل أربع سنوات كانت إقامة جبهة موحّدة أحد الإنجازات المثمرة ومساهمة مهمة في سبيل تحقيق الديمقراطية الاسرائيلية.

تتمثّل أهمية انتخابات ١٩٧٧ الحقيقية بان اسرائيل أصبحت اخيراً دولة

ثنائية الحزب، أكثر ممّا تتمثّل بالصدمة الفورية التي انتابت النفوس عندما اعتلى سدة الحكم حزب مغاير لحزب العمل.

في اليوم التالي، خلال ساعات الصباح الأولى، اتصلت ببيغن واستأنفنا مناقشة الموضوع الذي لم يحالفه النجاح قبل شهر. فما استحال تحقيقه خلال الحملة الانتخابية أضحى اليوم من أسهل الأمور تحقيقاً، وفي أقلّ من أربعٍ وعشرين ساعة انصهر حزب شلومتسيون في حزب حيروت. وسألني بيغن الانضمام الى الفريق المكلّف مفاوضة الأحزاب في سبيل قيام الائتلاف الحكومي. وكان بين تلك الأحزاب الصغيرة الكتل الدينية التي بدأت معها منذ ذلك الحين علاقات متينة ومستمرة. وحدّثني بيغن أيضا عن وزارة الدفاع التي طالما رغب في تسليمي حقيبتها. لكنه واجه، على هذا الصعيد، معارضة محتدمة في صفوف حيروت. وفي نهاية المطاف اسندت هذه الحقيبة الى عازار وايزمن.

بعد حدوث ما حدث سألني بيغن عما اذا كنت أقبل الاضطلاع بمسؤوليات خدمات الأمن السرية. مهمة غاية في الاهمية، لكنني بعد يومٍ أو يومين من التفكير رفضت عرضه. ففكرة ترؤُس الأمن الداخلي لم تستهوني. لا سيّما ان هذا المنصب يكمن في اداء دور تنسيق لا في تحمّل مسؤولية مقترنة بنفوذ سياسي كنت أطمح اليه. وعوضا عن ذلك طلبت من بيغن منحي حقيبة الزراعة وإدارة اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان. فأعجبته الفكرة بقدر ما اعجبتني.

في ١٥ تموز (يوليو) قدّم بيغن حكومته أمام الكنيست لمناسبة حفل أداء قسم اليمين. اتخذت ليلي مقعداً لها في الأماكن المخصّصة للمدعوين، يحيطها عمري وغيلاد وأمي البالغة ثمانين سنة والمتمتّعة بالصحّة والعافية. شاهدت الرضا في وجه أمي عندما سمعتني أؤدّي اليمين : « أنا، أرييل شارون، ابن ديبورا وشموئيل شارون، عضو في الحكومة، أقسم ان اكون وفياً لدولة اسرائيل وقوانينها... ».

وعلى منبر الخطباء فكرت طويلاً في أبي، ذلك المهندس الزراعي والمزارع

الذي كان رائداً في ميدانه. كنت أعرف خير معرفة ما سينتابه من شعور لو كان على قيد الحياة يشهد تعيين ولده وزيراً للزراعة. ولمّا أنعمتُ النظر في أمي أدركت ان خواطرها تحاكي خواطري.

نقل السكّان الى الأراضي

عندما شغلت مكتب وزير الزراعة خلتني في بيتي. فلطالما كانت الزراعة جزءاً مني. والزراعة، في اسرائيل، حقل اختبار واسع ومصدر متاعب مزعجة. فالتزمت العمل فوراً متطرّقاً، في مرحلة أولى، الى مشكلة مستوطنات اليهود في السامرة واليهودية. فأنا أفكّر في هذا الموضوع منذ حرب الايام الستة، حين اتخذنا من المواقع القديمة ومخيّمات الجيش الأردني مراكز لمدارسنا العسكرية. وعندما كنت مستشار رابين، غالبا ما كنت أجوب هذه المناطق، على امتدادها، وأضع الخطوط العريضة لمشروع يهدف الى استثمار هذه الأراضي.

في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧، وبعد مرور اربعة أشهر على الانتخابات، اصبحت اقتراحاتي حاضرة ناضرة. وكثيرة كانت الحلول السياسية التي وضعتها لتسوية مشكلة الأراضي، ولكن لم تخطر يوما في بالي فكرة التنازل عنها لصالح الاردن. لأن اليهودية والسامرة لم تكونا يوما أرضا اردنية. فالأردن، ذلك البلد الذي انتزعته بريطانيا العظمى، عام ١٩٢٢، ممّا كان يعرف بفلسطين، تحدّه من الغرب حدود طبيعية هي نهر الأردن، امّا المناطق الواقعة خلف الضفّة الغربيّة للنهر فلم تدخل قط في ملكه، ومع حلول نهاية الانتداب البريطاني في ١٤ أيّار (مايو) ١٩٤٨ اجتاحت الفرق الأردنية تلك الأراضي، تواكبها سائر الجيوش العربية، واحتلّت القرى والضيع والكيبوتزات اليهودية، بعد ان طردت سكانها ونهبت شارع اليهود القديم في القدس. فإذا باليهودية

والسامرة، هاتان المنطقتان التاريخيتان، تسقطان في أيدن العرش الهاشمي، كما تسقط الثمرة الناضجة. فحكاية الاحتلال الاردني هذا، كتبها دمُ اليهود الذي جرى جريان الأنهر في تلك السنوات. وبتعبير آخر، لم نرَ في فلسطينيّي اليهودية والسامرة، خلال عقدين من الزمن، سوى مُشعلي فتيل ثلاثة حروب، تخلّلتها مجازر راح ضحيّتها المدنيّون. فسنوات الرعب والقتل والتخريب الطويلة، التي حاربتها كما حاربها كثيرون غيري بضرواة، كوّنت إرثاً ثقيل الوطأة، لسنا على استعداد لأن ننساه.

تلك كانت نقطة الخلاف التي خيَّمت على علاقاتنا مع الأردن التي انضوت، سنة ١٩٦٧، تحت لواء مصر، آملة تصفية اسرائيل كأمة ودولة. وفي اثناء حرب ١٩٦٧ تمكنّا من طردها من اليهودية والسامرة. وفي رأيي، فإن عواقب عودة الأردن إلى هذه المنطقة تعكس هذا الوضع على نحو ملموس لا فرضي. ففي مثل هذه الظروف يملي علينا العقل السليم سلوكا توحي به حاجاتنا ومصالحنا الخاصة فحسب. هذا لا يقصي بالضرورة الحل السياسي، بل بالعكس. ولكن، عاجلا أم آجلا، علينا ان نضع لهذه المسألة حلاً يؤخذ على ضوء ضرورات أمننا.

عرضت لأوّل مرّة وجهات نظري حول هذه المسألة في ٢٩ ايلول (سبتمبر)، خلال اجتماع اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان. وبعد بسط خريطة كبيرة لهذه الأراضي، رحت أشرح انه مهما يكن الحل السياسي الذي سينتهي بنا الامر الى الموافقة عليه، فنحن مدعوون الى مواجهة ثلاث مشاكل رئيسية، تتمثّل أوّلها بأمن السهل الساحلي الاسرائيلي الذي يشهد كثافة سكانية مرتفعة ويملك بنى صناعية ومحطات توليد للطاقة ومطارا دولياً.

فالسهل الساحلي، وفقا لحدود ما قبل ١٩٦٧، ضيق حتى انه بات من الصعب الدفاع عنه. ففي بداية حرب الايام الستة انتهكت سلامة أراضيه الجغرافية السياسية. فالأراضي الاسرائيلية متاخمة لأراضي الضفة الغربية، وهي مفتوحة عليها بلا اي حدود مغلقة أو خطوط تماس أو اسلاك شائكة أو

غيرها من العقبات. ومن جهة الحدود الاسرائيلية (المعروفة اليوم بـالخط الأخضر) يطالعنا تجمّع كثيف لقرى ومدن عربية مزدهرة نذكر منها: ام الفحم، عرارة، كفر كرّا، بقعة الرابية، قلنسوة، الطيبة، الطيرة، جلجولية وغيرها. في السامرة نجتاز خلف ما كان يعرف بالخط الأخضر، مراكزَ عربيّةً اخرى تمتاز بطابع مدنيّ وقروي مثل يعبد وشويك وطولكرم وقلقيلية، وليس في سكان هذه المناطق ما يميّزهم عن العرب الاسرائيليين على الصعيد الثقافي واللغوي والاجتماعي.

في تلك الفترة نسي الناس وجود الخط الأخضر. ومن الواضح ان هذه المنطقة انشئت لتصبح، مع الوقت، منطقة كثيفة السكّان، يقطنها مئات آلاف العرب الى جانب أقليّةٍ اسرائيلية. وقد ينجم عن هذا مطمح يتمثّل بتقليص الممرّ الذي يصل مناطق جنوب اسرائيل بشمالها. عملية لا يمكن تجنّب حصولها، لا سيّما ان اسرائيل، وهي البلد الديمقراطي، لا تفرض قيوداً على النقل أو على السكان. لذا كان لا بدّ لنا من ايجاد حل ما لتعزيز هذا الممرّ.

ويصادفنا ما هو أفدح ممّا سبق. فجبال اليهودية والسامرة، التي تشرف على السهل الساحلي، تطرح مشكلة غاية في الأهمية: ما هو السبيل لإعطاء هذا السهل عمقا استراتيجيا؟ كيف نضمن، حاضرا ومستقبلا، مراقبة هذه الجبال حتى لا يفيد منها أعداؤنا في حال وقوع صدام مسلّح؟ لدرء مثل هذا الخطر لا بدّ لنا من تشييد وحدات سكنيّة مدنيّة ومجموعات صناعية على المرتفعات المشرفة على السهل الساحلي. وهكذا نتوصل الى حل مشكلتين في آن واحد.

فيما أنا أشرح الى اللجنة الوزارية ضرورة المحافظة على هـذا القطـاع الاستراتيجي أوضحت بإصرار أن مصادرة املاك العرب مسألة غير واردة. أمّا الأرض التي أشير اليها فتتألّف بكليّتها من مرتفعات صخرية وروابٍ لا تصلح للزراعة. لهذا السبب لم تطأ هذه الأرض قدم انسان. وبتعبير آخر،

علينا أن نعمل على نحوٍ يخوّلنا الدفاع عن هذه المنطقة من دون اللجوء الى تجريد أهلها من أملاكهم.

تكمن المشكلة الثانية في الحدود نفسها. فمن الشرق، يجاور اسرائيل كلٌّ من الأردن وسوريا والعراق والمملكة العربيّة السعودية. وفي حرب الاستقلال وحرب الايام الستة وحرب الغفران هاجمَنا كلٌّ من هذه البلدان. امّا سوريا والعراق فقد كانتا اكثر دول الجبهة العربيّة المناوئة لاسرائيل راديكاليةً، في حين لن يتوانى أيٌّ من الأردن والمملكة العربيّة السعودية عن شهر السلاح اذا ما نشبت حرب جديدة، على غرار ما فعلنا في الماضي.

وفي إمكان هذه الدول، اذا ما اجتمعت على جبهتنا الغربيّة، حشد ما يزيد عن اربعة آلاف دبابة، وألف طائرة وخمس وعشرين فرقة[١].

امّا اسرائيل فلا تملك سوى قوّات نظامية ضئيلة العدد، اذا ما قورنت بترسانة الحرب الهائلة هذه. وتستغرق تعبئة وحدات الاحتياط وتجهيزها وأخذها الى الجبهة فترة تتراوح بين اليوم واليومين. اي أنّه في حال هجوم العدوّ لن يدافع عن خطوطنا الا عدد ضئيل، تدعمه القرى والكيبوتزات المتاخمة والمكلّفة حماية حدودنا ووسائل الاتصال والطرقات. فمشاكل الدفاع شرقاً تبلغ من الفداحة لا تبلغه في أي مكانٍ آخر. ففي الجنوب تشكّل شبه جزيرة سيناء منطقة عازلة، وفي الشمال نسيطر على هضبة الجولان. ولكن في الشرق، لا يطالعنا سوى السهل الساحلي الذي تجتازه السيّارة في غضون بضع دقائق، وجبال اليهودية والسامرة الممتدّة حتى وادي نهر الأردن.

---

(١) تعود هذه الأرقام الى سنة ١٩٧٧. فهذه البلدان تملك في الأيام العادية اثنتي عشرة الف دبابة والفاً وستمائة طائرة وسبعين فرقة. ونشير هنا الى ان مجموع القوّات العربية من فرق وطائرات محتشدة على هذه الجبهة توازي ما جنده حلف شمال الأطلسي لمواجهة بلدان حلف وارسو.

وعلى حدّ ما أشرت اليه، يستلزم هذا الوضع، على الصعيد العسكري، بناء خطّ من المستعمرات على طول وادي نهر الأردن وسهل بيت شان على البحر الميت. وعلى غرار القرى اليهودية في اسرائيل، سيتمّ بناء هذه المستوطنات وتنظيمها للدفاع عن الأرض، بما يتطلّبه ذلك من تزويدها بالأسلحة والذخيرة ووضع خطط حالة الطوارئ الخاصّة بها. وقد سبق لحكومة حزب العمل ان اعترفت بهذه الضرورات الملحّة، فشيّدت، وفقاً لمشروع آلون، عشرين قرية في وادي نهر الأردن (بلغ عدد القرى التي بنتها حكومة حزب العمل خمسا وعشرين قرية، اضافة الى اثنتين كانتا لا تزالان في طور الانشاء، قبل ان يتولّى الليكود زمام السلطة). غير ان هذا المشروع، الذي عرضه يغال آلون لأوّل مرّة في سنة ١٩٦٧، بدا لي هذا اليومَ ناقصاً. فإنشاء سلسلة هشّة من المستوطنات على طول حدود نهر الأردن لن يؤمّن حماية كافية من دون مؤازرة بلد منيع يقع من الناحية الخلفية. وهذه القرى تستلزم طرقات تصلها بالسهل الساحلي. لهذا، اقترحت سدّ الثغرات الممتدّة على طول نهر الأردن وتشييد قرى أخرى على الروابي من شأنها مساندة هذا الخط الأمامي. وعرضتُ أيضا فكرة شق كثير من الطرقات الشرقية الغربية، على طول المحاور الاستراتيجية، وبناء قرى تأخذ على عاتقها مهمّة مراقبة هذه الطرق.

امّا المشكلة الثالثة فتتناول القدس. والسؤال المطروح هو التالي : كيف الحفاظ على وضع القدس كعاصمة الشعب اليهودي الأبدية ؟ أو كيف نحافظ على أمنها ونوفّر غالبيّة يهودية وسيادة يهودية خلال الخمسين أو المئة سنة المقبلة ؟.

شهد التاريخ، منذ العصور التوراتية حتى ايّامنا هذه، استمرارية اليهود في القدس. ففي ١٨٤٠ كان المجتمع اليهودي يشكّل المجموعة العرقية السّاحقة، وفقا لأوّل إحصاء حديث لسكان المدينة. وفي ١٨٦٠ راح عدد اليهود يتزايد تدريجيا حتى فاق عدد المسلمين والمسيحيين مجتمعين. وفي سنة ١٨٩٠ شكّل اليهود ٦٠ في المئة من مجموع سكان القدس. وأيّام حرب الاستقلال ذهب سكّان حي اليهود ضحيّة المذابح، منهم من وقع في الأسر ومنهم من أقصي

بعيداً. وفرض حظر على الدخول الى الأراضي اليهودية المقدّسة، أمّا حيّ اليهود القديم فقد هُدِم من الأساس. وبعد مرور عشرين عاما فتحت حرب ١٩٦٧ أمام اليهود مجال العودة الى المدينة القديمة. غير ان النصر الذي حقّقته أسلحتنا غيّر تركيبة السكّان في القدس، مستعيناً بسبل غير متوقّعة.

ومع الوجود الاسرائيلي في اليهودية والسامرة اثر حرب الايام الستة سرعان ما تحوّلت القدس الى بقعةٍ استقطبت أنظار عرب اليهودية والسامرة. ففرص العمل التي توفّرها القدس، والخدمات الاجتماعية والبلدية التي تقدّمها، ومدارسها ومستشفياتها امتصّت دفقا مستمراً من سكان المدن والضيع والقرى العربيّة وفي أقلّ من عشر سنوات تضاعف عدد عرب القدس فبلغ مئة وثلاثين الف شخصٍ بعد ان كان خمسا وستين الفا.

وذكّرت الوزراء انَّ اسرائيل مثلما لم تكن تستطيع تغيير توزيع العرب السكّاني حول الخط الأخضر السابق وتغيير مستوياتهم فهي لم تسعَ الى ما في شأنه الحدّ من حرّية التنقّل في القدس وجوارها. وفي حال توجّب على القدس البقاء يهودية، لا بدّ من ايجاد حلٍ للمشكلة المطروحة. وبعد الاشارة الى النماذج الديموغرافية مضيت في شرحي قائلا إن نواة الشعب اليهودية تسكن وسط حلقة راحت أحياء العرب في الضاحية توسّع من نطاقها. فدراسة تطوّر العاصمة على المدى البعيد من شأنها ان تقودنا الى الحل التالي : تشييد سلسلة من المساكن المدنيّة التي تحيط بالضواحي والأحياء العربيّة (تتخذ شكل حدوة حصان على امتداد عشرة كيلومترات أو خمسة عشر كيلومترا من الوسط، ابتداءً من غوش إتسيون وايفرات في الجنوب، حتى معالي أدومين في الشرق وغيفات زئيف وبيتيل في الشمال. وإذا ما توصّلنا الى تطوير « القدس الكبرى » حتى تستوعب قرابة المليون شخص على نحو ما خططنا له، فإن هذه المدينة ستبقى في المستقبل عاصمة الشعب اليهودي.

ونبهت الى ان المبادئ التي قام عليها هذا المشروع قريبة الشبه، في رأيي، من افكار سائر أعضاء الحكومة. فنحن نرى في القدس المدينة التي غذّت

حضارتنا طوال ألف عام والتي استمددنا منها وحي حياتنا الروحية خلال الألفي عام التي تلت. ونتعهّد بضمان حقوق سائر الديانات الأخرى التي اتخذت من القدس مدينة مقدّسة. لكننا لن نعدل أبداً عن حقنا في بسط سيادتنا. أمّا اليهودية والسّامرة فهما مهد الشعب اليهودي، لا بل جوهر امتنا نفسه. لذا نصرّ على حقّ اليهود في أن يقيموا في هاتين المنطقتين ولن نفرّط أبداً في حقّنا بالدفاع المشروع.

وعلى تطابق معتقداتي ومعتقدات مجلس الوزراء، لم أكن متأكداً، بعد ان عرضت بحثي، من إقناعي المجلس بأنّ ما اخذت على نفسي تحقيقه هو هذا المشروع. ولكنني قلت مرّة للوزراء: « أنا « الماباوي[1] » الوحيد في هذه الحكومة. لا أقول هذا حتى يرد كلامي في البروتوكول وانّما لتأخذوه على محمل من الجدية. فأنا سأبدأ بتنفيذ مشاريعي حالما تتمّ الموافقة عليها ».

وافق الوزراء في ٢ تشرين الأوّل (اكتوبر) على مشروع الاستيطان الأساسي سواء آمنوا بهذه المشاريع أم لا. فواجهتنا مشلكة تمثّلت بايجاد أرضٍ مرتفعة تشرف على السهل الساحلي وبشق طرقات. وكان في اليهودية والسامرة كثير من الطرقات، الا ان معظمها لا يوصل الى الجبال. وهذا ما اضطرنا الى تسلق المرتفعات، واحدا بعد آخر، وفي يدنا خريطة، حتى نختار موقع كل محلّة. ومرّت الأيام طويلة مضنية. وغالبا ما كنت أتنقّل سيرا على الأقدام، لما كان يتطلّبه عملي من تسلّق الهضاب والجبال. وأمضيت بعض الأيّام وحيداً لا صاحب لي سوى مساعدي أوري بار أون. أمّا في الأيّام الأخرى فكان يرافقنا فريق من الخبراء. وإضافة الى معاينة الأراضي توجب التأكّد من ملكيّة الدولة لهذه الأماكن. فالحكومة التركية استولت على هذه الأملاك خلال سيطرتها على البلاد طوال أربعة قرون، ثم ما لبثت ان انتقلت الملكية الى بريطانيا

(١) « الماباوي »، نسبة الى حزب الماباي السياسي ومعناه (الحزب العمالي لارض اسرائيل) الذي اصبح في ما بعد حزب العمل.

العظمى خلال ثلاثين عاما من الانتداب على فلسطين. في ما بعد، تنازل عنها البريطانيون لصالح عمّان التي استأثرت بها مدّة تسعة عشر عاماً. ولم يكن يطالعنا في غالب الأحيان سوى اراضٍ تكثر فيها المستنقعات والصخور وكثبان رملية غير صالحة للسكن. لكنّ القيود التي تحدّ من استخدام الأراضي أصبحت اكثر صرامة منذ تشكيل حكومة بيغن عام ١٩٧٧. فحكومة حزب العمل السابقة وضعت يدها على أراضي العرب، لكنّ بيغن ابدى تصلّباً شديداً حيال اي عملية تستهدف مصادرة هذه الأراضي. وهو موقف نجده في سياسة الحكومة الرسمية. فلم يعد كافيا التأكد من ملكية الدولة للأرض التي وقع عليها الاختيار، وصار لا بدّ من معيار آخر: على هذه الأرض أن تكون بورا غير مزروعة. بمعنى آخر: يحظّر علينا مسّ هذه الأرض اذا كان مزارعو المنطقة يستثمرونها، حتى وإن لم تكن ملكا لهم. وفي حال عثورنا على ارضٍ بور غير مزروعة، يجب تقديم إثبات على أنها ليست مجرّد أرضٍ زراعية في فترة استراحة وانما ارض لم تستثمر منذ سنين. لذلك تعيّن علينا الرجوع الى سنة ١٩٤٥، حين التقطت الصور الطوبوغرافية الأولى لليهودية والسامرة، بغية مراقبة اوضاع الأراضي القانونية التي تم اختيارها.

وابدى بيغن صرامة شديدة حيال هذا الموضوع. وأصبحت المعايير اكثر تقييدا كلّما تقدّمت مسيرة الاستيطان واحتدمت المعارضةالمناوئة لهذه السياسة بين صفوف الاسرائيليين الدّاعين الى ترك تلك الأراضي وشأنها. تصوّروا ان موظفينا راحوا يحصون عدد سنابل القمح أو الشعير التي ثبتت على سفح إحدى الهضاب حتى لا يتعدّوا على أرض احد المزارعين، لا بل راحوا يقيسون مراعي الخراف والماعز بالمتر المربّع حتى يعرفوا ما اذا كان القطيع يرعى في انتظام في حقلٍ معيّن.

وفي موازاة المعايير المتشدّدة التي فرضتها وزارة الزراعة اتخذت الحكومة بدورها تدابير جديدة حفاظا على الملكيّة الخاصّة. ولهذه الغاية، عيّنت قاضيا ذائع الصيت هو السيّدة بليا ألبيك المكلّفة مراقبة أوضاع الأراضي القانونية.

من الناحية التطبيقيّة بدأنا عملاً صارماً ثلاثي الاطوار. أولا : لا بدّ من تعيين المواقع الاستراتيجيّة المناسبة. ثانيا : تحديد أوضاعها القانونية. ثالثا : التحقق من سهولة منالها والنفاذ اليها من دون أن تعيقنا أي ارض خاصة. وراحت هذه الاجراءات المدقّقة تستغرق وقتا طويلا لتصبح يوما بعد يوم في منتهى التعقيد.

ولكن على رغم العقبات والمصاعب سار مشروع الاستيطان قدماً واخذ يتبلور. وسرعان ما بدأت الجرّارات والجرّافات تشق الطرقات وتُعِدّ مواقع القرى في أماكن شتّى. وفي كل موقع اتّسم بطابع استراتيجي مهم، أو كاد ان يتّسم به، بدت المستوطنات كأنّها تنبثق من الأرض متخذة شكلا أوليّاً قوامه بضع خيمٍ وأحيانا خيمتان أو ثلاثة أكواخ وتارة أكثر. ولكن، في كل موقع مطابقٍ للمعايير القانونية، « كان يطرأ حدثٌ ما ».

ثلاثة عوامل ساهمت في جعل هذا المشروع ممكنا. كان العامل الأوّل سياسيا تمثّل بالنصر الذي احرزه بيغن والليكود عام ١٩٧٧. فعلى الصعيد التاريخي التزم حزب الليكود عقائديّا ما يعرف بـ« ارض اسرائيل »، وهو مفهوم يشمل الوطن اليهودي بكامله بما فيه طبعا اليهودية والسامرة.

وكان العامل الثاني يكمن في تعييني وزيرا للزراعة. فقد بحثت قرابة العشر سنوات عن وسيلة لتوطين سكان يهود في تلك المناطق، حتى انتهى بي الأمر الى معرفتها عن كثب. وكنت قد بدأت باقامة قواعد التدريب العسكري فيها ثم حاولت غير مرّة (ولكن من دون جدوى) أن أحمل زوجات الضباط وأطفالهم على الإقامة فيها. ولم أدَعِ اليأس ينتابني لان هذا المشروع كان عزيزا على قلبي. ولقد ظللت طوال سنوات احرك مشاريع على هدي هذه الرؤيا واصوغ لنفسي المستلزمات الجديدة لامننا في الاطار الجغرافي — السياسي الذي كنا نعيشه منذ حرب الايام الستة.

مهما تكن ارادة تحقيق مشروع كهذا كان يتطلب قبل كل شيء متطوعين

مستعدين لبذل التضحيات التي تتطلبها الحياة في الجبال وعلى الهضاب الجرداء وبين شعب عدوّ. هنا يتدخل العامل الثالث، التاريخي والفجائي على حدّ سواء، والمتمثل بمجموعة من المتطوّعين الشبان. تميّزت هذه المجموعة بعفويّة نشأتها وباستعداد اعضائها للتضحية بل لما هو أبعد من التضحية.

في السبعينات، شهدت الروح الريادية التي تحلّى بها الصهاينة الاشتراكيون، ماضيا وحاضرا، تداعيا ملحوظا. فالحافز الذي يدعوك الى العودة الى موطن اجدادك، إلى الفداء والعمل في الأرض، الى الدعائم التي ارتكزت عليها الملحمة الصهيونية، لم يعد مصدر وحيٍ يلهم الجيل الجديد. واليوم اخذ مكان هذه القيم، تيّارٌ جديدٌ ومثالٌ اعلى آخر جذوره في التقاليد اليهوديّة القديمة، غير متأثّر بالاشتراكية التي انطبعت بها بداية هذا القرن. أطلق أبناء هذه الحركة عليها اسم غوش ايمونيم أو (كتلة الايمان). وأتى هؤلاء الشبان بغالبيّتهم من مدرسة تلمودية (« يشيفا ») في القدس تعرف باسم « مركز الرب » وكان الرأس المفكّر في هذه المدرسة ورئيسها الحاخام زفي يهودا كوك، ابن الحاخام الشديد الاحترام ابراهام اسحق كوك الذي كان في الماضي الحاخام الاكبر لارض اسرائيل وأحد قادة البلاد الروحيين.

تجاوز عمر الحاخام زفي يهودا عتبة الثمانين؛ وكان تعليمه هو ما يلهم شبان مدرسته. وتشكلت أوّل نواة في كريات أربا، المجتمع السكني المدنيّ المشيّد عام ١٩٦٨ في حبرون (الخليل)، وسرعان ما تبعتها جماعات اخرى انتشرت في جبال السامرة.

يعود تاريخ اتصالي الأوّل بهم الى سنة ١٩٧٤، عندما كنت لا ازال عضواً في الكنيست. اشتركت في محاولتهم الاولى الهادفة الى الاقامة في السّامرة، بالقرب من شكيم التوراتية المعروفة اليوم بنابلس. وقمنا بتوحيد الجهود المبذولة حتى ننشئ مجتمعاً متّحدا في وطننا التاريخي. في تلك الفترة كنت ادرك منذ سنوات عدّة أهمية هذه المستوطنات في احلال الأمن على امتداد البلاد. لهذا لم أتلكأ في منح حركتهم الدعم كلّه، يدفعني الى ذلك اسباب وطنية وأمنيّة.

لمست غوش ايمونيم الاهتمام الذي أبديته حيالها فدفعها اهتمامي هذا الى طلب مساعدتي. تحدثت الى الحاخام زفي يهودا وقبلت فوراً عرض تلامذته بنقل معلمهم الى الموقع الذي ينوون بناء قرية فيه والإقامة مع أسرهم. وفي اليوم المحدّد ذهبت الى مسكن الحاخام الواقع في شارع غيولا في القدس. كان يقطن غرفة واحدة غطّت جدرانها كتبُ تفسير الكتاب المقدّس وكتب دينية وشكلت اطار العيش المتلائم مع شخصيّة هذا العجوز الهش الذي كرّس كل حياته لدراسة التوراة وبثّ حب صهيون في قلوب تلامذته.

لا اعرف ما اذا كانت قدما الحاخام زفي يهودا قد وطأتا، قبل هذا الصباح، أرض السامرة. ولكنّك تستشفّ من عينيه اللّهب الذي غذّى في المنفى تعلّقَ الشعب اليهودي بأرضه طوال عشرين قرناً. فهذا العجوز وتلامذته قد حفظوا التوراة عن ظهر قلب. وهم يعتبرون كلمات « كتاب الكتب » وأماكنه والأحداث التي يرويها مفعمة بالحياة. لم يكن موطنهم الحقيقي الذي يحيون فيه مكان حلهم وترحالهم الذي فرضته عليهم الظروف الخارجية، بل كان ذاك الذي نَمَتْ فيه جذورهم الروحية والتاريخية منذ آلاف من السنين. فالحاخام كوك نادراً ما ذهب، خلال حياته المديدة، الى القدس، لكنّه على معرفة وطيدة بسائر مناطق بلاده كالنقب والجليل وسهل شارون وجبال اليهودية والسامرة. فهذه الأماكن لم تشكّل في نظره سوى بلدٍ واحد.

لما وصلنا الى المكان المنشود، شكيم، وجدنا تلامذته منهمكين في نصب خيمهم ووضع حدود القرية ومدّ الاسلاك الشائكة وغرس الأشجار. فانضم الحاخام العجوز، وراح بنفسه يزرع شجرة بتأنٍ ورويّة تفرضهما عليه سنوات عمره. الكلّ كان يعمل ويغني وقد أُخِذنا فوراً بالورع الذي يكتنف هذه الناحية من العالم حيث الهواء يعبق بروح الأخوّة والتصميم، تلك الروح التي حرّكت رواد الكيبوتزات في ازمنة سابقة اشد قساوة.

ولكن ما لبثت أن وصلت وحدات عسكرية معكّرة صفو هذا الجوّ المثالي. فحلّ مكان الحماسة مواجهة فعلية. فالجيش طالب العمّال بالانصراف فوراً.

لكنّ هؤلاء رفضوا الانصياع الى الأوامر. وبسرعة فائقة اشتدت اللهجة واحتدمت الهمم. ولدى رؤيتي هذا المشهد اتصلت برابين بواسطة هاتف عسكري علّني أقنعه بعدم استخدام القوّة لاخراج الشبان. فرابين، بصفته رئيسا للوزراء، عليه ان يأخذ بعض الضرورات بعين الاعتبار. وعلى رغم حججي التي قدّمتها اليه، بقي متمسكاً بقراره : اخلاء الأماكن فوراً. تلت في ما بعد محادثات طويلة مضنية، وضعت لها حدّاً عندما اقترحت تسوية تقوم على خروج العمّال من الأرض، ولكن بدلا من أن يعودوا الى القدس يمضون ليلتهم في إحدى القواعد العسكرية في السامرة، في انتظار حلٍ جذري.

انتهى الأمر برابين الى قبول اقتراحي الذي عرضته على العمّال الشبان. بدا الجميع موافقين، ولكن عندما طرحوا الموضوع على الحاخام العجوز قابلهم بالرفض. اذ ليس من المقبول منع اليهود من العيش في أرضهم. فحاولت اقناعه بأن الصيغة المطروحة أفضل من لجوء الجيش الى القوّة لإخراجهم، وان هذه الطريقة ستحول دون مغادرتهم المنطقة وستسمح لهم بالذهاب الى مخيّم عسكري مجاور. وفي حال أجدنا التصرّف، قد يسجّل هذا التاريخ بداية إعمار السامرة. لكنّه رمقني بنظرة هادئة ليجيبني بكلمة واحدة : « كلا ».

هكذا انتهت المسألة ــ على الأقل في نظره. امّا العمّال الذين ابدوا استعداداً للانتقال الى المخيّم العسكري فقد انضموا الى قائدهم الروحي بعد ايضاح التالي : « اذا قال الحاخام زفي يهودا كلا، فهذا يعني كلا ».

في مساء ذلك اليوم وصلت وحدة عسكرية كبيرة لمساندة الوحدات الأخرى الموجودة، تبعها رتل من الباصات لنقل الحاخام وتلامذته وزوجاتهم وأولادهم. فراح الجنود يقطعون الأسلاك الشائكة ثم دخلوا حرم ما لم يكن سوى مخيم فقط. وفيما كانوا يجرون الشبان نحو الباصات رأيت الحاخام، بجسده النحيل الهش، يتشبَّث بكل قواه بأحد أوتاد السياج. وازدادت الضوضاء مع تقدم الغسق. وقاوم الشبان الجنود مقاومة مسالمة ولكن ضارية، فكانوا إمّا ينبطحون على الأرض وامّا يتشبّثون بالصخور. في حين راح البعض الآخر

يزحف على أرضٍ حجرية. ولمّا رأيت مجموعة من الجنود تطوّق الحاخام الذي بقي متمسّكاً بغطائه، سبقتهم اليه وانحنيت أمامه. كنت عازماً على حمايته ومنع الجنود من جرّه الى الباص. ولكنّي في تلك اللحظة أحسست بصلابة ساعدَيْن تدفعانني الى الوراء وتقصيانني عن المكان. وتعالت أصوات الجلبة. وعلى مقربةٍ مني رأيت جنديا ضخم الجثّة جبّاراً راح بقساوة يبعد الجنود الواحد تلو الآخر وكأنهم مجرّد دمى من خرق. وبعد أن لام البعض، إنحنى أمامي وهمس في أذني : « إريك، لن أدعهم يفعلون بك هذا ».

ساعات عدّة مضت على هذا المنوال قبل أن يتمكّن الجيش أخيراً من إخراج العائلات والحاخام العجوز ووضعهم في الباصات. لم أكن ملزما بالركوب معهم ولكنّي لم أرضَ ان آخذ سيّارتي واغادر المكان وكأن شيئاً لم يكن. فصعدت بطيبة خاطر الى احد الباصات الذي أعادني الى القدس.

كنت أدرك تماما ان لولا غوش ايمونيم والرّوح الرائدة الجديدة التي حشدتها هذه الحركة لبقي مشروع الوجود اليهودي في اليهودية والسامرة حبراً على ورق. فهل ما حدث مجرّد ظاهرة عابرة أم تيار كتب له الديمومة والانتشار ؟ ما من أحد يستطيع الإجابة على هذا السؤال. على كلّ حال، كنت أشعر بأننا نعيش لحظات تاريخية وفرصة لا يجدر التفريط فيها.

بعد ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧، برز عامل آخر ساهم في تسريع عجلة تطبيق هذا المشروع. فقد شهد هذا النهار وصول أنور السادات الى مطار بن غوريون. فبدأت محادثات بين مصر واسرائيل افضت بعد سنة ونصف الى توقيع اتفاقية سلام بين البلدين.

دارت المفاوضات على مراحل أثارت تارة الرضا وطورا الغضب. وكاد الاختلاف في وجهات النظر أن يوقف فجأة وغير مرّة مسار العملية كلها. لكن الانطلاق قد أُنجز، وما من قوّة تستطيع ردعه. فراحت هذه النقطة بالذات تسرّع في انجاز مشروع الاستيطان.

بعد تحليلي الوضع خلصت الى الاستنتاجات الآتية : أخذ السادات على عاتقه عملية احلال السلام بعد أن فهم جيّدا ان المفاوضات وحدها قادرة على وضع اتفاق يمنحه فرصة استعادة سيناء. ثانيا : يعتبر السادات القائد العربي الوحيد الذي قدّم تقويما واقعيا عن الحروب الأربع التي شنّت ضدّ اسرائيل. فقد ادرك أخيرا مدى جسامة الأضرار التي تكبّدها نموّ مصر خلال خمس وعشرين سنة من الحرب. وبكل موضوعية خلص السادات الى أن مستقبل مصر ومصلحتها الكبرى يكمنان في عقد اتفاقية سلام مع اسرائيل. وباقتناع راسخ ابدى استعدادا لاتخاذ أجرأ المبادرات ليبدأ مرحلة جديدة ويضع حدا لحالة الحرب الدائمة التي أملت سياسة مصر منذ ١٩٤٨، كما أملت سياسة سائر البلدان العربيّة.

لقد قام السادات باختيار جوهري حين لعب على ورقة مستقبل مصر. ولم ينحرف عن وجهة نظره الشاملة على رغم ادراكه المشكلة الفلسطينية ومواقفه من قضية الضفّة الغربية لنهر الأردن. ولمزيد من التوضيح، لم ألمس في مبادراتنا ومشاريعنا في اليهودية والسامرة أيّ تأثير على مفاوضات السلام.

ولكن مع ابرام الاتفاقية قد يخلو السادات من الأسباب التي تدفعه الى تفهّم حاجة اسرائيل الى هذه الأراضي. فهو ما إن يدس الاتفاق في جيبه حتى يظهر تصلّباً في مواقفه بغية تعبئة الرأي العام في العالم وفي اسرائيل ضدّ كلّ محاولة هادفة الى اقامة مستوطنات، فبعد توقيع الاتفاق نكون قد استنفدنا وسائل النجاح كلها حتى فرغت جعبتنا من كل وسيلة للضغط عليه. لا سيّما انّ المحادثات فرضت مهلة تحتّم علينا انجاز مشروع الحكومة خلالها.

في اثناء اجتماع مجلس الوزراء اعربت عن مواقفي في هذا الشأن على النحو الآتي : لا تشكّل المستوطنات عثرة في وجه السلام. فأنا أؤمن الإيمان كله بوجوب إقامة هذه المستوطنات اليوم بالذات، ما دام الجميع (من مصريين واسرائيليين واميركيين) ماضين في مسيرة السلام. وباقتناع أقول ان مصر

تسعى الى التقدّم في هذا الاتجاه، وفي الوقت الحاضرة، لا يزال في متناول أيدينا اوراق رابحة مهمة نلجأ اليها. لذلك لا بدّ لنا من تحرّكٍ سريع. فهذا لن يسيء الى المفاوضات. لكنّ المهم يبقى مناقشة الموضوع مناقشة صريحة في جوّ إيجابي نفصح فيه عن مواقفنا. وسبق لي ان شرحت لكارتر والسادات أسبابنا ومشاريعنا المستقبلية. هكذا علينا ان نتصرف. فهذه مواقف يفهمها الناس، ولا بدّ لنا من التمسّك بها.

بعد المجاهرة بالرأي بدأت أسرّع عجلة العمل. وعلى رغم الضغوطات التي مارسها كل من اعتقد أن التحرّك في سبيل وجودٍ يهودي من الأراضي سيتسبّب بإضعاف محادثات السلام، تلقيت الضوء الأخضر لبناء ثلاث مستوطنات كل شهر. عندها فقط بدأت العمل الدؤوب. أمّا شبان غوش ايمونيم فقد نزلوا معترك العمل، على رغم حلول الشتاء، في ظروف حياتيّة غاية في الصعوبة. واخذ الحلم يستحيل حقيقة شيئا فشيئا.

خلال السنوات الأربع التي تلت أفلحت في بناء أربع وستين مستوطنة في اليهودية والسامرة. كان البعض منها مجرّد ركائز نعتمد عليها، قوامها عدد من الخيم أو الأكواخ، امّا البعض الآخر فكان عبارة عن مستوطنات متينة. وبقي العمّال يعملون من دون كهرباء أو ماء، فعرفوا بداية صعبة في ظروف حياتيّة بدائية. وكل مرّة رأيت فيها أما أو أبا يغسل طفله في الخارج في جوّ بارد، كنت أحسّ بقشعريرة تسري في جسدي. لكنّ العيش في محيط مواقع توراتية مثل شكيم او شيلوح او بيت إيل، احتضنت بين حناياها ذكريات روحية وتاريخية، شكّل في نظر العمّال أهمية خاصة ترجمت فرحا مستمرّا وعزما ثابتا.

في الفترة عينها، افتتحت في الجليل ستًّا وخمسين مستوطنة. فمنذ سنين والجليل لم يشهد بناء اي قرية يهودية، في حين راح العرب يتزايدون بسرعة ويشغلون اراضي تملكها الدولة. وخلال تجوّلنا في الجليل تلقينا وابلا من الحجارة والشتائم. كان اليهود يتجنّبون اجتياز قرى العرب حيث يكثر التحدّث

عن الاستقلال الذاتي. ولكن في عام ١٩٨١ بلغ عدد الكيبوتزات والموشاف اثنتين وعشرين قرية، الى جانب أربع وثلاثين ميتزبِم Mitzpim — أو ما يعرف بأبراج مراقبة مواقع المستوطنات. ولأوّل مرّة أخذت القرى اليهودية تغطّي تدريجيا هذه المنطقة. فقد أُدخل اكثر من ثلاثمائة الف دونم في نظامٍ ضمن مساحة كافية لاعداد المستوطنات اليهودية على مدى القرنين المقبلين. وبعد بناء قرى جديدة، والقيام بمشاريع زراعية، وشقّ الطرقات سيتمكن الناس من التنقّل بحرية للذهاب الى العمل والمدرسة والمراكز التجارية والعيادات الطبية. فيعيشون حياة طبيعية لا تشوبها عداوة طالما خيّمت على هذه المناطق.

على رغم هذا التقدّم أصبحت المدن الجديدة والمستوطنات التي كانت في طور الانشاء محطّ سخرية كبار المفكرين والمتهكمين الذين قالوا بعجز هذه المستوطنات عن ضمان وجودها، ولذلك سيكتب لها الاضمحلال. واطلقت بعض الصحف على هذه المستوطنات اسم « الابراج المنتفخة » أو « أشباه المدن »، وكأن مشروع اعداد المناطق ضربٌ من ضروب الأخيلة أو نسجٌ من صنع مخيّلة الحكومة. ولكن حتى بين صفوف من كان مقتنعا بضرورة إعمار هذه المناطق دارت مناقشات حادة تناولت طريقة انجاز هذا البرنامج.

طالب البعض بإنشاء مراكز مدنيّة أو وحدات ريفية ترتكز على بنية تحتيّة واسعة وتتمتّع بموارد تنمية. فبناء وحدة على أسس متينة يخوّلنا، على حدّ قولهم، الانتقال الى أخرى، وهكذا دواليك. أمّا انا، فكنت ارى الأمور من زاوية مختلفة : علينا في مرحلة أولى إرساء دعائم المستوطنات كلها، وإن لم تشكل كل واحدة منها في البداية سوى برعم صغير. فهذا هو الأسلوب الذي انتهجه آباؤنا لإعمار البلاد، قبل عشرات السنين. والمبدأ يقوم أوّلاً على ضمان وجودنا في هذه المناطق، امّا الانتشار فيأتي لاحقا بعد أن نتمكن من وضع يدنا على الأراضي الحكومية التي سنخصّصها لبناء المستوطنات المقبلة. علينا ان نقوم بهذه الخطوة قبل ان يفوت الأوان سياسياً.

في أوّل تشرين الثاني (نوفمبر)، اي بعد مرور سنتين على بناء المراكز السكنيّة الاولى، قدمت تقريرا عن انجازاتنا شكّل مدار بحث احدى مناقشات مجلس الوزراء، التي تناولت الموارد المتوفرّة والمخصّصة لليهودية والسامرة؛ ويقول التقرير : « لقد أرسينا البنية التحتيّة. امّا الآن، فقد حان الوقت لتقوية ما بنيناه.

وبإصرارٍ أقول : لو لم نتحرّك على هذا النحو ونظهر دأبا في العمل لما كنّا نناقش اليوم طريقة تعزيز مستوطناتنا، ولما قام جدل حول أفضل طريقة لاستخدام الأراضي. [...] لم أتمتّع بامتياز المشاركة في التيّار السياسي الذي ألّف هذه الحكومة. ولكنّي أتحدّر من تقليدٍ صهيوني كانت الغلبة لمفاهيمه طوال عشرات السنين. تقليد اثبت قدرته على اجتياز المحن، على الأقل في هذا المضمار. أقول هذا من دون اين نيّة ترمي الى التقليل من قدر الإتجاه الصهيوني الآخر.

« من الضروري إذاً اتخاذ قرارات، على الأقل لتحديد مسلكنا، أو لتهيئة الأراضي للبناء، إن يكن ما سنبنيه عليها لن يتعدّى « برجا منتفخا » أو شَبَه مدينة ». وأودّ تذكيركم ان أوّل كيبوتز على هضبة الجولان رأى النور متخذا شكل احد هذه « الأبراج المنتفخة »، بعد أن بنى مكان زريبة سورية مهجورة. كما أودّ تذكيركم بمكانٍ يدعى الدردارة، شرق بحيرة الحولة. فالدردارة لم تشهد لعهد طويل سوى بناء برجٍ واحد يقوم عليه اليوم كيبوتز إيال. في ذلك الوقت كنت اخدم في مقرّ قيادة منطقة الشمال العسكرية، كما كنت أخفّ وزنا من اليوم. وفي كلّ مرّة تسلّقت قمة البرج أحسست بقاعدته تترنّح. ذلك البرج كان الوحيد الذي وضع تحت تصرّفنا في شرق الحولة والذي كان يقع مباشرة تحت مراكز السوريين المرابطين في الجبال. فلولاه لما نجحنا في إبقاء هذا القطاع ضمن حدود إسرائيل.

[ويتساءل احد الوزراء]: « أتعني بذلك المفهومَ الكامنَ وراء وضعكم مشروع الإعمار ؟

« نعم، فكل شيء يرتكز على مفهوم واحد ».

في الواقع، لم يتغيّر موقفي حيال مسألة الضفة الغربية طوال هذه السنين التي أمضيتها أفكّر في هذا الموضوع. ولم أخفِ موقفي عن أحد، سواء لقي ترحيباً أم أثار جدلاً. فأنا ارتكز على مبدأين عرضتهما في غير مقابلة ونقاش ويتلخّصان بجملتين : الدفاع عن تجمّعات البلاد السكنية وضمان حق اليهود في العيش داخل حدود اسرائيل التاريخية. فسياسة الاستيطان والإعمار التي اقترحتها وانا أشغل منصب وزارة الزراعة لم أستوحِها إلّا من تطبيق هذين المبدأين.

حصَلَتْ بالطبع كل مبادرة قمت بها في اليهودية والسامرة على موافقة الدولة المسبقة كما خضعت لاشرافها. ومع ذلك، كنتُ أجدني وحيدا أواجه انتقادات الناس ووسائل الإعلام، وهو امر كان من السهل عموما توقع حدوثه.

لم اكن أحبّذ كسائر رجال السياسة، تهجّمات وسائل الإعلام. ولكنّي لم أعدل عن مواقفي وقناعاتي بان سياسة الاستيطان ضرورية لأمننا القومي، حاضرا ومستقبلا. ولم أكن اخشى بالتالي محاربة خصومي ومواجهتهم في نقاشاتٍ علنيّة، ولا حتّى تلقي شتائمهم. غير انّه صعب عليّ تحمّل الاتهام الذي يجعلني شخصيّا مسؤولا عن القرارات الحكومية المتنازع فيها.

احدُ هذه الأمثلة التي بقيت عالقة في ذاكرتي لا يمتّ الى مستوطنات اليهودية والسامرة باي صلةٍ، لانه متعلق هذه المرّة بسيناء. ففي نهاية سنة ١٩٧٧ توجب علينا مواجهة المسألة التالية : كيف لنا المحافظة على شرق شبه جزيرة سيناء لتُشكل فيها منطقة عازلة بين اسرائيل ومصر ؟ رأى الجميع، بمن فيهم انا (ولا سيّما موشيه دايان الذي دافع بحماسة كبيرة عن هذه الفكرة)، ان السبيل الوحيد لتأمين مثل هذا العازل يتمثّل بطريقة تقليدية قوامها خط من القرى.

وبعد أن ناقشنا مطوّلا هذه المسألة، طلبت من مجلس الوزراء توسيع

القرى الموجودة وبناء عشر قرى اخرى. وعلى خريطة كبيرة اشرت الى مواقع القرى المقبلة، شارحاً الأسباب التي تجعلني أرى في هذه القرى، حالما ننتهي من بنائها، خطّ دفاع فعّالاً ضدّ أي هجوم مصري محتمل. ولما افضى النقاش الى نهايته، أحال رئيس الوزراء، مناحيم بيغن، اقتراحي رسميا للتصويت عليه مستعملا الألفاظ الآتية : « أطلب من الحكومة أن توافق على استقدام مزيدٍ من السكان الى القرى الموجودة وعلى بناء قرى جديدة وفقا لتوصية وزير الزراعة وللخرائط التي عرضها على مجلس الوزراء ». ثم أعلن نتائج التصويت كما جاءت : « ثمانية اصوات مؤيّدة، وثلاثة معارضة، واحجام واحد عن التصويت. لقد تمت الموافقة على الاقتراح ». لم يعلَن رسميا عن بناء قرى جديدة، لكنّ المعلومات تسرّبت الى الصحافة بعد مرور بضعة أيّام. فجاء النقد عنيفا ممّا دفع مجلس الوزراء، في ٥ كانون الثاني (يناير)، اي بعد خمسة ايّام على اتخاذ قراره، الى الإجتماع مجدّدا لإعادة النظر في الطريقة التي يعتمدها.

افتتح بيغن الجلسة بلهجة قاتمة لا تبشّر بالخير. فاستهلّ كلمته قائلاً : « علينا تقرير ما سنفعله » ثم تابع : « اليوم سنتّخذ قرارا نُتْبعه بتحرّك فعلي. فنحن لن نبني قرى جديدة في سيناء بل سنكتفي بتعزيز القرى الموجودة وبمساعدة السكان ».

فكانت الملاحظة التالية : « هذا يغير القرار السابق ».

فأجابني بيغن : « لا، انه قرار جديد ».

فقلت له : الجميع يتحدّث هنا عن دفقٍ سكّاني جديد ولكنها كلمات فارغة. أريدكم ان تفهموا انني لم اقدّم اقتراحي في ٣ كانون الثاني (يناير) ليظهر في البروتوكول وليسجّله التاريخ، وإنّما لينفّذ بعد الموافقة عليه. ولكم أستهجن كلّ من سوّلت له نفسه التفكير في أنني لن أضع اقتراحي قيد التنفيذ. وانا لم اعطِ في اليوم نفسه تعليمات في هذا الشأن الا لأنني توخيت

الحذر. فقد انتظرت نشر بيان الحكومة. وعندما وصلني نص القرار مكتوبا ابلغته الى المتعهّدين المكلّفين تنفيذ الأعمال.

« ولا اعتقد ان بين الحضور من هو ليس صهيونيا. ولكن ثمة رجال قرار ورجال تنفيذ. حاولت تنفيذ القرار على نحو سرّي بقدر المستطاع. ولكنّي توجّهت الى الوكالة اليهودية [طلبا للموارد المخصصة للبناء]، والى شركة المياه والى سائر الهيئات المختصّة، تلبية لمقتضيات العمل.

« وناقشت القرار ايضا مع وزير الشؤون الخارجية، موشيه دايان، مع انني لا أسعى الى الاختباء وراءه. فعرضت عليه المشكلة بمختلف جوانبها، حتى لا أكون قد تغاضيت عن بعض الأمور. ولكنّه اعطاني نصيحة مفيدة حين طلب مني توجيه رسالة الى رئيس الوزراء، مرفقة بخريطة عن الأعمال. وفي ٦ كانون الثاني (يناير) تمّ ايداع الرسالة والخريطة مكتب السيد بيغن ».

فقاطعني هنا بيغن ليقول لي بأنّه استلم الخريطة منذ لحظات قليلة. ثمّ استأنفت كلامي : .

بإمكانكم ان تؤكّدوا ان قرار الثالث من كانون الثاني (يناير) لم يكن قراراً صائباً. لكنّكم لا تستطيعون الزعم بعدم اتخاذه أو الإدّعاء بأنه قرار اتخذته بنفسي. لا أريد أن أتكهّن كيف اطّلعت الصحافة على هذا القرار الذي عارضه بعضنا. ولكنني متأكد بأنني لست الواشي. وانا سأطلب من وزير العدل اتخاذ التدابير اللازمة ضد المسؤول أو المسؤولين عن تسريب المعلومات هذا ».

وهنا أيضا أكدّ بيغن من جديد بأنّه استلم الرسالة منذ لحظات فحسب.

عندها تدخّل دايان لأنه كان مصرّاً على اطلاع أعضاء الحكومة بأنه وافق على اقتراحي كلّه الذي قدّمته في ٣ كانون الثاني (يناير)، وأنّه نصحني بشدّة ان أوجّه نسخةً عنه الى مجلس الوزراء.

وما ان انتهى دايان من كلامه حتى استأنفتُ حديثي قائلاً : « حتى أجنّب الوزراء تلقي مثل هذه المفاجآت مستقبلا، أريدهم ان يعلموا بأنني أنفّذ كل اقتراح وافق عليه مجلس الوزراء ».

وراح الغضب يعتري بيغن الذي حاول جاهدا الإمساك بزمام الأمور. فنفى مرارا وتكرارا رؤيته الخرائط وقراءته الرّسالة. فهذه النقاط لم تطرح يوما على مجلس الوزراء.

فرفعت صوتي من شدّة ذهولي وغيظي وسألته : « ماذا تريد أن تقول ؟ بأن هذه اللوائح لم تقدّم قطّ ؟ » وصرخت قائلاً : « لقد سبق لهذه الخريطة أن عرضت على مجلس الوزراء ! » وتناولت الخريطة التي كنت عرضتها في اجتماع ٣ كانون الثاني (يناير) وفتحتها. ثمّ قلت لبيغن وانا احدّق في عينيه : « لن أترك الناس تحسبني كاذبا ». وبعد ان عثرت على بروتوكول الاجتماع الذي عقد في ٣ كانون الثاني (يناير) قرأته بصوت جهوري : « يقوم إقتراحنا على بناء عشرين مركزا سكنيا، بما فيها القرى الزراعية، وقد يزيد هذا العدد ليبلغ الثلاثين مركزاً ».

فتساءل أحد الوزراء : « إضافة الى القرى الموجودة ؟ ».

أجبته : « نعم، فمن المقرّر بناء عشرين قرية إضافية ».

أبدى بيغن ارتباكا بالغا. فهو لا يزال مصرا على عدم تلقي مجلس الوزراء اي خريطة تشير الى مراكز المستوطنات. فاجتماعنا السابق لم يتناول، في نظره، سوى تعزيز القرى الموجودة بسكان جدد. وتابع بيغن قائلاً : « اليوم، سنتّخذ قرارا طبقا للأصول وسيكون هو المعتمد رسميا. ولدى السؤال عن القرار السابق نجيب بأنه سري... ».

وبرزانة مضيت في حديثي فاصلاً كلّ كلمة عن اختها : « اؤكدّ، بأسلوب واضح وصريح بأن ما قيل هنا عن عدم استلام مجلس الوزراء اي خريطة

هو عارٍ من الصحة. فما قدّم الى الوزراء هو هذه الخريطة بالذات ». قلت هذا وانا أشير إليها باصبعي.

فبادرني بيغن بقوله : « أنا لا أقصد هذه الخريطة وانّما تلك التي أرسلتها ».

فأجبته : « ان الخريطة التي ارسلتها الى رئيس الوزراء هي نسخة طبق الأصل عن تلك التي عرضتها في اجتماع ٣ كانون الثاني (يناير)، وبالمقياس ذاته. فمجلس الوزراء لم يطلع إلا عليها. ولذا فان تعزيز القرى الموجودة وبناء مستوطنات جديدة هما مطابقان لقرار الحكومة لا غير.

« سيدي الرئيس، في وسعنا تغيير قرارٍ حكومي ولكنّنا لا نستطيع نكران وجوده. فلتغيّر الحكومة أي قرار، إذا ما لمست في الضغط العام داعيا الى ذلك. فالنص ليس منزلا. أما من جهتي، فأنا ملزمٌ اعطاءَ التعليمات. لهذا تجول في خاطري تساؤلات كثيرة : ترى، ماذا عساي الآن ان أفعل ؟ أأُصدر أمرا بوقف حفر الآبار وارجاع الجرّارات وتعليق العمل ؟ ».

فقال السيّد بيغن : « لقد سمعنا سؤالك وسنجيب عليه ».

عند ذلك تدخّل دايان ليكرّر من جديد بأنه ساند قرار ٣ كانون الثاني (يناير) لدى عرضه على المجلس. ولا شك اننا وافقنا جميعا على هذا القرار، ولكن قد لا يكون أعاره معظم الوزراء انتباههم. فلنقرّر حالياً العدول عن بناء مستوطنات جديدة.

بالطبع سيكون ذلك بموجب « شريعة[1]شفهية » لا « شريعة مكتوبة ».

ولمّا سألت عن مصير عمّال البناء أجابني دايان بأنه لا يرى مانعا في متابعة الأشغال التي سبق لهم ان بدأوا بها. وفي حال أثارت متابعة الأشغال هذه نقاط استفهام سنجيب بأن هذه الأعمال لا تهدف الى بناء مستوطنات

(١) توراة في النص، ومعناها شريعة — المترجم.

جديدة وانّما الى تعزيز القرى الموجودة. وأضاف دايان أنّ ما أتى على التفوّه به لا يشكّل سوى رأيٍ شخصي. فما نقوم به لا يتعدّى التحضير والتخطيط ومدّ قنوات المياه...

لم يؤثر بي ما تشهده الحكومة من نقاط خلاف دائما ما تكون مغيظة، ولا ما تبديه الصحافة الإسرائيلية والغربية بوجه عام من نيّة إلحاق الأذى، فعكفت على مشروع إعداد الأراضي لِأُحيل الخيال واقعا ملموساً. كنت أمضي معظم وقتي في السامرة واليهودية والجليل وهضبة الجولان وقطاع غزّة، أتنقل في حركة دائمة من مكان الى آخر، مراقباً ومشجعاً ومنشطاً للعزائم. واتذكّر جيدا انني تحدثت شخصيا مع كل سائق جرّافة وحفّارة عاملة في هذا المشروع. راقبت التصاميم كلها ودقّقت في كل تقرير فصّل سير العمل. وفيما كانت الدّعابات ماضية في استهداف «أشباه المدن». قلت للوزراء إننا قد نشهد اليوم الذي سنتزاحم جميعنا فيه على امتياز قص شريط الاحتفالات المقامة افتتاحا لطرقات جديدة ومشاريع ستنجز في هذا المستوطنات بعد ارتقائها الى مستوى المدن. أمّا أنا فقد عرفت ارتياحاً كبيراً هو ارتياح كل من يحرز تقدما ويرى تصاميمه تتحوّل أمام ناظريه الى واقع ملموس. ولكنْ في أوقات الاستراحة، عندما كنت ألمس انجاز هذا العمل العظيم، كنت أقرّ لنفسي بأنّنا، لولا الدعم الأساسي الذي أبداه رئيس الوزراء، لما تمكّنا من تحقيق ما حققناه، غير عابئين بالمشاكل التي واجهتنا داخل الحكومة.

مع مضي الوقت واقتراب انتخابات ١٩٨١ رحت أدفع بعجلة سير العمل وأضاعف الجهود المبذولة. وخيّم شعور استشففت من خلاله خروج الليكود من الحكومة. ففي حال اعتلى من جديد حزب العمل سدّة الحكم، لا أشك أبداً في أن يسعى إلى القضاء على مشروع المستوطنات.

ويُذكر أن حزب العمّال لم يخفِ يوما نيّته هذه. ولاتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة طلبت من العمّال مواصلة العمل ليلا نهارا حتى «خط وصول» الانتخابات، الذي وصفته بـ«الاستعداد لحالة حصار». انتهينا من مدّ المياه

والكهرباء في الأماكن النائية، وعرضنا على القرى العربية القيام بالمثل، فسارعوا الى ابداء موافقتهم. وقام تعاون متين بيني وبين وزارة العدل لتحديد مواقع الأراضي المناسبة والتي تملكها الدولة حتى نخصّصها لبناء مستوطنات جديدة. فوضعنا رسوم الطرقات التي ستصل القرى بالضيع وتربطها بالطرقات الوطنية. كما شققنا طريقا تمرّ بالسامرة لربط نهر الاردن بالسهل الساحلي. ولكن خلال هذه الدورة الاولى لوجود الليكود في مركز السلطة كانت هذه الأحداث اعجز من ان تشكل وحدها مستقبل اسرائيل. في ذلك الوقت التقى السادات ببيغن وقامت علاقات بين اسرائيل ومصر، لم يشهد تاريخ المنطقة لها نظيراً. وسرعان ما سأجد نفسي منغمساً في هذه السيرورة التاريخية حتى اذني.

مصريّون وعراقيّون

تعذّر على عازر وايزمن الذهاب الى المطار لاستقبال الرئيس أنور السادات. فقبل بضعة أيّام، تعرّض لحادث أبقاه مسمّراً على كرسي نقّال. ولكن ما من قوّة في الوجود تستطيع أن تجعله يفوّت ما ينتظره الجميع من زيارة السّادات، الا وهو خطابه أمام المجلس الوطني. وعندما دخل الرئيس المصري الكنيست استقبله وايزمن استقبالا حارا وادّى له التحيّة بعكّازه. ثم قال له وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة : « أحييكم لأنكم نجحتم في الهجوم علينا هجوما مفاجئا ». فأدرك السادات المعنى الحقيقي الذي ينطوي عليه هذا الترحيب، لا سيّما انه رجل ذكي يستشفّ عمق الأشياء. فالسادات، حسب ما رأيت، لمس جيّدا رغبة وايزمن في التأثير عليه وفهم أن هذا الرجل قد يشكل نقطة الضعف الاسرائيلية.

وفي الواقع، أصرّ السادات على التفاوض مع وايزمن بدلا من التفاوض مع وزير الشؤون الخارجيّة موشيه دايان، أو حتى مع بيغن نفسه، يدفعه الى ذلك السبب الآتي : أبدى دائما وايزمن رغبة في المصالحة اكثر ممّا أبداه بيغن خصوصا ان الاختلاف القائم بينهما حول وجهات النظر أفضى الى استقالة وايزمن سنة ١٩٨٠. (ونشير هنا الى ان وايزمن كان اكثر الصقور تصلّباً، ولكنه مع مرور الزمن، أظهر تحوّلا الى اليسار المتطرّف في ما يتعلق بشؤون السياسة الخارجية. وأخذ اتجاهه هذا بالتبلور، لا سيّما بعد

لقائه السادات). وكم من مرّة وقفت صمام امان بين بيغن والسادات لأوقيهما شر ما كانا يتبادلانه من تهجّمات الى ان أصبحت أخيراً الوسيط الرئيسي بينهما.

في ذلك الوقت رحت اوطّد معرفتي بالمصريين. فخلال احدى زياراتهم اسرائيل استضفت في أحد أيام الشتاء فريقا تألف من عشرين أو خمسة وعشرين قائداً عسكرياً أتوا بطوافة مع وزير الدفاع المصري كمال حسن علي. وفي غرفة الجلوس رفعنا كؤوسنا مستخدمين تعابير وصيغا من وحي المناسبة. ولم يغب عن بالي قولي لهم بأنني رأيتهم في المعارك خلال حروبنا كلها، وبأنني التقيت بهم أوّلا في حرب الاستقلال ثم في حملة سيناء عام ١٩٥٦، وفي حرب الايام الستة، وخلال حرب الاستنزاف، واخيرا حرب الغفران. وأضفت قائلا : أنا اذاً في وضع يخوّلني الاقرار بشجاعة الجنود المصريين الذي خاضوا المعارك حتى النهاية. ومضيت في حديثي قائلاً : خلال حرب الاستقلال كانت الخطوط المصرية تبعد عن مكان اجتماعنا هذا عشرين او خمسة وعشرين كيلومترا، وكانت هذه المنطقة جزءا من النقب المطوق آنذاك.

وبعد شرب النخوب قدّم الوزير حسن علي القادة العسكريين الموجودين جميعا، من رئيس الفرقة ٢١ المدرّعة، مروراً برئيس الفرقة ١٦ للمشاة، الى القائد الاعلى لمركز قيادة الجيش الثاني... وتأملت وجه كل منهم. لم أكن قد رأيت هذه الوجوه قط ولكني كنت أعرف أصواتهم لأنني استمعت اليها على جهاز الراديو في كل يوم من ايّام اكتوبر الدامية من سنة ١٩٧٣. امّا اليوم، فهم في غرفة الاستقبال في بيتي، مترسمين في زيهم العسكري، يشربون نخبي ونخب الجنرالات الاسرائيليين المدعوين.

اثر إطلاق قمة كمب دايفيد في الولايات المتحدة دارت المحادثات المنعقدة بين اسرائيل ومصر حول اخلاء شبه جزيرة سيناء والاستقلال الذاتي للفلسطينيين في جوٍّ تسوده المخاوف وغالبا ما أفضى الى طريق مسدود. في كانون الثاني (يناير) ١٩٨١، وخلال احدى المراحل التي بدت قاتمة الافق، استفدت من زيارة وزير الزراعة، الدكتور داود لاسرائيل كي احدثه عن ضرورة

لقاء جديد بين بيغن والسادات. فقطع لي داود، وهو الاستاذ السابق المتوقّد الذكاء، وعدا بالرجوع الى السادات وبذل ما في وسعه لتحقيق مطلبي.

بعد بضعة اسابيع اتصل بي الدكتور داود من القاهرة، لكنه لم يلمح الى لقائه مع السادات. كان يريد أن يعرف ما اذا كنتُ أستطيع جمع فريق من الخبراء الزراعيين الاسرائيليين لوضع نموذج ري في مزرعة تقع « في مكان غاية في الأهمية »، وسألني هل في وسعي تسوية هذا الأمر في غضون عشرة أيام ؟ ومع ان داود لم يعطِ اي ايضاحات رجّحت ان المسألة تتعلّق بميت الكوم، مزرعة عائلة السادات في مسقط رأسه. لم أفهم سبب استعجاله، غير انني لم اتمكّن من طرح السؤال على الهاتف، فاكتفيت بإعطائه موافقتي. فبدا داود راضياً لتلقيه مثل هذه الإجابة وطلب مني ابقاء الموضوع سراً مكتوماً.

في صباح اليوم التالي توجّه فريق من الخبراء الاسرائيليين الى مصر لمعاينة الأماكن وتحديد المعدّات اللازمة. وحتّى أتقيّد بمهلة العشرة أيّام، قمت بحساب سريع : ستستغرق الرحلة يوما ويوما آخر لدراسة الأرض ووضع تصميم سير العمل، ويوماً ثالثاً للعودة. وقد يتطلّب تحضير معدّات الري يومين آخرين، إضافة الى يوم لنقلها الى مصر. عندها لن يبقى أمامنا سوى أربعة أيّام لمدّ الشبكة والقيام بالاختبارات الأوّلية — فشكّل هذا جدول أعمال صارما جداً. كنت أدرك اننّا نملك الحظّ الوفير لانجاز المشروع ضمن المهلة المحدّدة، ولكنّي ساءلت نفسي، مرّة اخرى، لِمَ العجلة ؟ لِمَ العشرة أيّام بالضبط ؟ لِمَ لا تكون أسبوعين أم شهراً ؟

عندما وصل الخبراء الاسرائيليون الى مصر استقبلهم موفدو وزير الزراعة الذين اصطحبوهم الى مِيت الكوم (تماماً كما توقعت، الى مزرعة السادات) حيث لاقوا ترحيباً ملوكياً. وكما هو مقرّر، أمضوا اليوم التالي في التخطيط ثمّ عادوا الى اسرائيل. قالوا لي في تقريرهم ان كلّ ما عثروا عليه في مِيت الكوم انما هي وسائل زراعية تقليدية قديمة، بما في ذلك الريّ بواسطة الحيوانات،

وهو ما يُعرف بالناعورة : ثوران يدوران بلا هوادة لتدوير سلسلة من القرب تمتلئ من ماء النهر في نزولها ثم تصب الماء في قنوات في اثناء صعودها. وصمم الفريق مجموعة من المضخات مع نظام لتكرير المياه. ولكن طُلب من الفريقِ شيء آخر : غرس كرم. عند ذلك فهمتُ سبب العجلة التي طالما أقلقتني. فنحن نشارف على نهاية موسم غرس الشتول، وبعد مضيّ شهر شباط (فبراير) سيتعذر على جذور الكرمة أن تتأصّل. اضافة الى ذلك لا بدّ من سقي هذا الكرم وفق نظام حديث من النقّاطات.

جُمعت التجهيزات في وقت قياسي وحُمِّلت في شاحنتين كبيرتين توجّهتا الى العريش، احدى مدن سيناء التي كانت لا تزال حدا موقتا. هناك كانت في انتظارهما شاحنتان مصريتان غير مجهزتين بنسيج واقٍ (شادر). استغرق نقل المعدّات، واحكام تثبيتها حتى لا تنزلق في الطريق، بضعَ ساعات. ثم اجتاز خبراؤنا الصحراء وعبروا القناة وتوجهوا مباشرة الى مزرعة السادات.

عملوا قرابة اربع وعشرين طوال أربعة ايّام متتالية. وفي اليوم العاشر كانت الدوالي قد غرست ومدّت شبكة الري في انتظار وضعها قيد التشغيل. في ذلك اليوم وصلت جيهان، زوجة السادات، الى المزرعة. وبعد ان اطلعت على المشروع كله أجزلت الشكر للخبراء الاسرائيليين، مشيدة بإنجازهم.

وبقي السرّ في طي الكتمان فترة من الوقت. فأنا لم أتحدّث عنه الا لبيغن ووزير الشؤون الخارجية آنذاك، اسحق شامير (الذي حل مكان دايان في ١٩٧٩). واظن ان في وسعي التأكيد ان هذا السر هو احد الأسرار القليلة التي لم تفشَ. في نيسان (ابريل) ١٩٨١، وجّه الرئيس أنور السادات دعوة الى كافة محرّري الصحف المصرية لزيارة مِيت الكوم. فجال بهم في بساتين البرتقال، وعرض عليهم نظام الري وكرمه المغروس حديثاً ثم قال : « أُنجز كل هذا في غضون عشرة ايّام. انه لمحة عما في استطاعة الاسرائيليين فعله ». وتطرّق في ما بعد الى نقطة أولاها أهمية بالغة، تتمثل بالتعاون الاسرائيلي المصري في قطاع الزراعة.

خلال زيارتي مصر في نيسان (ابريل) من تلك السنة، ذهبت الى مِيت الكوم في جولة استطلاع. فوجدت أحد خبرائنا الاسرائيليين في المكان منذ شباط (فبراير) لانه مكلّف مراقبة الشبكة وإعطاء فلاّحي السادات التعليمات اللازمة لتشغيلها. ولم أبدِ حماسة كبرى لما أنجزناه ولا دهشة عارمة عندما لمست في حقول السادات وبساتينه شبها غريباً بالملكية الزراعية الاسرائيلية.

خلال اقامتي هذه زرت كثيراً من المزارع المصرية الرائدة في ميدانها، فاستحوذ التجديد الذي انطبعت به على اهتمامي كله. كما ناقشت مع السادات امكانات التنمية الزراعية في مصر، وأعرب الرئيس عن رغبته في رؤية اسرائيل تشارك في هذا المجهود. ظاهريا، كان لمشروع ميت الكوم اهمية فاقت تصوري. فحين لمّح احد وزراء السادات الى ان المصريين، حالما يتعلمون اصول العمل الضرورية، سيحقّقون بأنفسهم ما أنجزه الاسرائيليون، قاطعه الرئيس قائلاً : « عندنا الارض وعندنا المياه، والآن عندنا إريك. فهو سيساعدنا في مشاريعنا » عندها تذكرت الكلمات الأولى التي تبادلتها والسادات في مطار بن غوريون، فقد قال لي الرئيس وهو يصافحني : « حاولنا اعتقالك بالقرب من القناة » فأجبته : « لا تزال الفرصة متاحة أمامك لتعتقلني كصديق ».

عندما انتهى السادات من كلامه، صفّق ثلاث مرّات على التوالي، وفي اللحظة عينها انحنى احد معاونيه أمامه. (فالسادات دأب على مناداة معاونيه بالتصفيق الخفيف مرّة ثمّ اثنتين. لم أفهم كيف كانوا يسمعونه وهم في الحجرة المجاورة. (وقد اقلع خليفة السادات، الرئيس حسين مبارك، عن هذا التقليد التاريخي مستعيضاً عنه بجرس كهربائي). وما ان مضت لحظة حتى خرج مساعده ليعود بعدها وفي يده خريطة كبيرة بسطها على الأرض. فأشار السادات باصبعه، وهو جاثٍ امام الخريطة بجانبي، الى المناطق التي تحوي مياهاً جوفية، لا سيّما بالقرب من حدود السودان وفي الصحراء الغربية، معرباً عن رغبته في تنمية زراعة حديثة فيها. فهل سأكون مستعداً لمعاينتها حتى أبدي رأيي في المشاكل التي سيطرحها مشروع مماثل ؟ وبإيماءة مني وافقت.

فأصدر السادات أمراً بتجهيز طائرته الخاصة لتقلّني صباحاً الى هذه المناطق.

بعد إعطاء التعليمات وتوضيب الخريطة، قلت للسادات إني أودّ التكلم معه على انفراد. ولما خلت القاعة من الحضور نقلتُ الى الرئيس السلام الذي كلّفني بيغن اهداءه ايّاه، واقترحت عليه عقد لقاء بينهما في القريب العاجل. لاقى الاقتراح قبولاً فورياً من السادات الذي لمس مثلنا الفائدة المتوخاة من هذا اللقاء. ولكي يبقى ان نتّفق على مكان انعقاده. فقلت له ان بيغن لا يرى ما يمنع عقدة في القاهرة أو القدس، أو أيضاً في العريش أو بئر سبع أو شرم الشيخ. فأجابني السادات بأنه سيفكر في الاقتراح وسيعلمني بقراره في أسرع وقت ممكن.

في اليوم التالي ذهبت مع ليلي الى قاعدة قريبة تابعة للقوّات الجوية، يصحبنا فريق من ضباط هيئة الأركان الاسرائيلية. كانت في انتظارنا طائرة السادات الخاصة، وهي من طراز انتونوف Antonov السوفياتية، وقد تولّى قيادتها طيّاران سرعان ما رحتُ اتحدّث إليهما. فعلمت أنهما خاضا معركة يوم الغفران وشاركا في عملية عبور القناة في حين لعب احدهما دورا في العمليّات المصرية الرامية الى هدم جسورنا في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣.

جلست في مقعد يبعد القليل عن الطيارَين، وفيما انا أتكلّم رحت أتتبّع خط مسار الرحلة مستعينا بخريطة بسطتها على ركبتيّ. ولدى بلوغنا المكان المنشود والقريب من الصحراء الغربيّة، طلبت من الطيارَين الانعطاف والطيران على علوٍّ منخفض بمحاذاة الأرض. وأمضيت الرحلة تاركا العنان لفكرة لا تمتّ الى مشاكل الزراعة والتنمية بصلة، تلك المشاكل التي من أجلها جئت الى هذه المنطقة. فكنت أتساءل : كيف اتفق، وانا القائد العسكري الاسرائيلي السابق، الذي تحارب ومصر طوال خمسة وعشرين عاما، ان أجلس اليوم في مقصورة طائرة السادات بالقرب من طيارَين مصريَّين قاتلا ضدّي في الحرب الأخيرة ؟ كنت أتحدّث اليهما بكل هدوء، والسمّاعات والمذياع يعملان، آمرهما بالانعطاف يسارا او — يمينا وبخفض علوّ الطيران او زيادته. فما

كان غرض هذه الرحلة ؟ كان غرضها البحث عن اراضٍ تلائم الزراعات الحياتية بغية مساعدة مصر على حل احدى مشاكلها الجوهرية، الا وهي إطعام سكانها الذين يتزايدون بسرعة مذهلة. فقلت في نفسي : اذا ما توجّب صياغة المعنى العميق لمفهوم السلام، لَمَا أعربت عنه الا على النحو التالي : طائرة مصرية تحمل على متنها طيّارَين مصريين وقائدا احتياطيا اسرائيليا يبحثون عن اراضٍ صالحة للزراعة. هل لنا ان نقع على صورة اجمل من هذه ؟ من جهتي، كنت اجد فيها السلام بكل ابعاده واكمل معانيه.

بعد ظهر ذلك اليوم هبطنا في الأقصر. وكان النيل يضفي على هذا المكان روعة بقيت محفورة في الذاكرة. فهناك كل ما يحيط بك، هادئ ساكن. كأنّما عقارب الوقت على هذه الشطآن قد توقفت منذ الأزل عن الدوران. فأمّ المصريّون الشاطئ يغمرهم خمول ولا مبالاة، أناس على اختلاف انواعهم، لا سيّما من العرب. كانت نظراتهم ترمقنا بصمت ونحن تائهون في تأمّل وادي الملوك الذي قرّرنا زيارته في اليوم التالي. وفي ذلك المساء شاهدنا معبد الكرنك بأعمدته المذهلة وكتاباته التي تروي قصة الحملة التي شنّها الفرعون لمعاقبة مملكتي اسرائيل ويهوذا في عهد رَحُبْعام بن سليمان. فالكتابات الهيروغليفيّة تحكي القصة نفسها كما ترويها التوراة وتذكر أسماء المدن الاسرائيلية التي استولى عليها المصريون. فوقفنا أمام هذا المعبد، مصريون واسرائيليون، وكأن تاريخ كل من هذين الشعبين جزء لا ينفصم عن الآخر.

أمضينا ليلتنا في الأقصر، وفي اليوم التالي بلغنا أسوان. ولمّا بانت « البحيرة العملاقة » لم أقوَ على نزع طرفي عنها، فوفرة المياه هذه تغدق علينا فرصاً كثيرة. ومن الطائرة رأينا الصحراء تمتدّ على ضفاف النيل الى ما لا نهاية. فقلت في نفسي : لو كانت اسرائيل تملك هذا القدر من المياه لما تلكأنا في استثماره. فنحن نعلم منذ سنين انه في وسعنا زرع ما يحلو لنا في هذه الرمال القاحلة التي تشكل دعما مثاليا لكل ما يزرع فيها. أمّا ما تحتاج

اليه الرمال فيتمثل بالمياه وارادة العمل. ومصر تحتوي كمية مياه تبث فيك الأحلام.

كان قد سبق لنا ان انشأنا في مصر مزرعتين رائدتين في حقل الزراعة لتلقين المزارعين مناهجنا وحتى يعتادوا على تشغيل معدّاتنا. (كانت هاتان المزرعتان قائمتين حتى تاريخ كتابة هذه السطور). ولكن كان من الصعب تحقيق هذه المشاريع من دون الأخذ بعين الاعتبار عداوة العالم العربي لكل تعاون اسرائيلي مصري، مهما يكن شكله وموضوعه. فالسادات كان رئيس بلاد تتمتّع برؤى جسورة في هذا الميدان كما في سائر الميادين. وحتّى هو كان لا بدّ له من اثبات براعته والتحرّك بحذرٍ متناهٍ.

وابدى وزير الزراعة، يوسف والي، تقديره البالغ لما يُظهره الاسرائيليون من مهارة في قطاع الزراعة، لا سيّما انه المخوّل الأوّل ليدرك اهمية الزراعة بالنسبة الى مصر. فخلال توليه وزارة الزراعة كان يعيش ٦٠ في المئة من مجموع الشعب المصري من الزراعة التي مثّلت ٧٠ في المئة من صادرات البلاد و ٢٥ في المئة من الناتج القومي المحلي. وفي السنوات الأخيرة أثقل التزايد السكاني الهائل كاهل انتاج المواد الغذائية. فكان لا بدّ من إطعام مليون من الأفواه الجديدة التي كانت تضاف كل تسعة أشهر الى عدد السكان. لكن الانتاج الزراعي في دلتا النيل — وهي المنطقة الخصبة من البلد منذ الزمان الغابر لا يزال ضيّق النطاق. ويحدّ هذ المنطقة الصحراء والبحر، كما تشارف على بلوغ نقطة الاشباع لما تشهده من عمران مكثف. وتبرز مشكلة أخرى من استخدام المصريين طمي الدلتا حتى يصنعوا منه القرميد، حاذين بذلك حذو المصريين القدامى. غير ان هذا من شأنه ان يفقد هذه البقعة من الأرض خصوبتها.

لذا لا بدّ من بذل جهودهم ليقطعوا كل صلة لهم بتقاليد الماضي — وهو أمر دائما ما يصعب عليهم تحقيقه — فالمصريّون مزارعون ممتازون تعود براعتهم وحبّهم للأرض الى خبرة آلاف السنين. ولكن عليهم بادئ ذي بدء

ان ينتصروا على الصحراء. وفيما انا أوطّد علاقاتي بهم وأطّلع على مشاكلهم، رحت أعمل جاهدا لأقنعهم بهذه الضروريات. فلنتخيّل المشهد : رجل يجد نفسه في الصحراء، لا يفصله عن النيل ومياهه الرقراقة سوى مسافة بضع مئات من الأمتار ... فكنت أشعر بأصابعي تتوق الى وضع الأنابيب والشروع في الري.

بعد هذا، وجدنا المصريين يواجهون مشاكل لم تخطر في بالنا. فهم لم يتعلقوا بتقاليدهم القديمة ذلك التعلّق الوثيق إلّا لأنّ نمط العيش في الأرياف جزء لا يتجزأ من ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعي. امّا مستويات الحياة ونماذجها فبقيت على حالها طوال آلاف السنين، فهم يعرفون كيف يوزّعون المياه ويزرعون الأرض بحيث تتناغم والطبيعة المحيطة، لا سيّما انهم يعشقون الأرض المخضوضرة التي تميّز المناطق الخصبة فحسب. (أحد الأسباب التي جعلتنا نقهر القوّات المصرية بتلك السرعة خلال حرب الايام الستة هو ما انتاب الجندي المصري من ضياع وهو موجود في سيناء، من دون اشجار ولا خضرة ولا مياه).

غير ان المصريين بذلوا جهودا دؤوبة في السنوات الأخيرة خلال وجودهم في الصحراء الغربيّة، ولكن لا بدّ من بذل المزيد وبسرعة، على الأقل لتحقيق توازن حاجاتهم الغذائية.

ولكم رغبنا، أنا وليلي، في تمديد إقامتنا في وادي الملوك الزاخر بآثار فنية مذهلة تركها الفراعنة. ولكن لا مناص من العودة. فالحكومة الاسرائيلية قرّرت شنّ غارة نهار الأحد على المفاعل النووي اوزيراك، الذي كان لا يزال في طور الانشاء في محيط بغداد. وكان قد سبق لي ان اتفقت مع بيغن على ان اعلمه في السّاعة الرابعة من ذلك الأحد عما اذا كان اللقاء المنشود مع السادات سيعقد أم لا، لأنه في حال الإيجاب سيُرجَأ الهجومُ.

ولمّا اتصلت من مصر انتقيت الفاظي بتأنٍ فجاءت مبهمة بريئة، علماً ان اتصالاتنا الهاتفيّة كانت تخضع لأجهزة التنصّت. لذلك اتفقنا على ان اتصل

ببيغن من العريش. وفي طريق العودة، عبرتُ أنا وليلي القناة من النفق الجديد الذي بناه المصريّون حديثا شمال مدينة السويس. فبعث هذا الانجاز التقني الفخر في نفس السادات الذي أصرّ على أن أراه بنفسي. ومن مقرّ المراقبة الحدودي في العريش اتصلت ببيغن لأعلمه باحتمال انعقاد اللقاء قريبا. ولدى سماعه هذا النبأ أجابني : « لا شيء سيحدث نهار الأحد ».

بعد بضعة أيّام أعلمنا المصريون أنهم يرون في العريش المكان الأمثل لعقد قمّة السادات ــ بيغن، وأن الفريقين سيقومان بالترتيبات اللازمة في هذا الصدد. ولكن ما ان مضى وقت قصير حتى بدأ المصريون بالمماطلة والتأخير، على رغم توقهم الى لقاء مماثل، ومن دون ان يعطي احدهم سببا وجيها. فالححتُ قدر المستطاع، لا سيّما ان الوقت كان يمرّ سريعا قبل شنّ الهجوم على المفاعل العراقي. ولكن لم يُسجّل اي تحرّك، أمّا الاستعدادات للقمة فكانت تجري ببطء يخلّف اليأس.

لسنوات خلت تتتبّع اسرائيل بقلق الجهود التي يبذلها العراق لحيازة الأسلحة النووية. ولاعتبارات جمّة ومناقشات مطوّلة جرت في تشرين الاول (اكتوبر) من تلك السنة، قررت الحكومة تدمير المفاعل النووي العراقي قبل احتدام نشاطه. وكان من المقرّر القيام بالعملية في الأيام المقبلة. ولكن من المؤكد أن هذه العملية ستضع السادات في موضع حرج. لأن هجومنا قبل القمة سيحول دون مشاركته فيها. أمّا ذاك الذي يتبعها بقليل فيوحي بوجود تواطؤ بين مصر واسرائيل. وبمعنى آخر، سيقع السادات ضحيّة تهجّمات جديدة سيوجّهها العالم العربي نتيجة علاقاته مع اسرائيل.

حُدّد أخيراً موعد انعقاد القمة في ٤ حزيران (يونيو) ١٩٨١، اي قبل ثلاثة أيّام فقط من التاريخ المقرّر لتنفيذ العملية. وجرت المحادثات الرسمية والاحتفالات في أحد الفنادق التي بنيناها حديثا. وكان مزاج السادات صافيا حتى انه اقترح ان يعود الطّهاة والخدم وملاك ادارة الفندق الى معاودة العمل فيه بعد جلاء قوّاتنا من سيناء. وفي حضور مراسلي الصحافة من كافة انحاء

العالم جدّد بيغن والسادات التزامهم السلام، فبثّا زخما جديدا في اتفاقات كمب دايفيد. أمّا كمال حسن علي، وزير الشؤون الخارجية المصري ووزير الدفاع السابق، الجالس بقربي خلال العشاء، فهمس في أذني وقال : « أرأيت، يا إريك، أنتم تدينون لي بهذا كله. فقد رتّبت الأمور على نحوٍ يمكّننا من عقد لقاء اقرب ما يكون الى موعد الانتخابات عندكم ». (وكانت هذه مقررة في ٣٠ حزيران / يونيو). وبعد هذا البوح ارتسمت على شفتي حسن علي ابتسامة عريضة نوّرت وجهه، ثمّ آل به الأمر الى الاستغراق في الضحك. وهكذا عمل المصريون جاهدين لكبح سير الأمور حتى يربح بيغن في الانتخابات، في حين سعينا من جهتنا الى تسريع عجلة العمل لتغطية السادات ...

فما كان منّي الا ان أومأت برأسي حتى أعطي انطباعا عن تقديري البالغ وعرفاني له بالجميل، وانضممت الى مرحه الصّاخب مقهقها. لكنني كنت على علم بأنّني سأعود الى القاهرة في غضون ثلاثة أيّام وسأجد صعوبة بالغة في أن أشرح للمصريين الأسباب التي جعلتنا نتصرّف على هذا النحو.

تعيش اسرائيل، منذ إقامتها، في محيط من البلدان المعادية لوجودها. وبسبب حالة العداء المستمرة كنت اعتبر دائماً ان بعض أعمال جيراننا غير المقبولة لدى اسرائيل، يجب ان يُنظر اليها على أنها « خطوط حمر ». وحيازة الدول العربيّة للأسلحة النووية خط من هذه الخطوط. ولم أتمكّن يوما من فهم الإسرائيليين الذين يدعون الى « توازن الرعب » في الشرق الأوسط. يقول انصار هذه المقولة ما يلي : اذا كانت اسرائيل والدول العربيّة تملك أسلحة نووية فلن يسمح اي من الفريقين لنفسه بالهجوم، وهكذا سيتمكنان من خفض قوّاتهما التقليدية وبالتالي موازنتهما العسكرية.

انا ارى أنَّ مفهوم « توازن الرعب » النووي هو بالغ الخطورة، حتى على صعيد الدول العظمى. غير ان هذه الدول، كالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وفرنسا وبريطانيا العظمى، ترتكز على الاقل كلّها، في تقديراتها

عتبات الخطر، على الحذر والمنطق. ولكن على رغم الحذر الشديد والمنطق الذي لا غبار عليه فقد يطرأ حادث فجأة، واذا كان الامر يتعلق بالأسلحة النووية لا يمكن الا ان تترتّب عليه نتائج وخيمة. هذا صحيح. غير ان النادي النووي لا يخلو من الأعضاء الذين يأخذون القرارات بروح مسؤولة جدا. ولكننا الآن في الشرق الأوسط، في منطقة هي عرضة للتقلّبات، نجد فيها قادة كصدّام حسين وحافظ الأسد ومعمّر القذافي، وهم رجال يفكّرون بأسلوب مختلف تماما عن أسلوبنا. وأمام هذا الواقع، عارضت دائما وبشدّة كل من دافع عن توازن نووي في الشرق الأوسط. فمثل هذا الوضع ليس من شأنه، في رأيي، الا ان يحدّ من قدرة اسرائيل على الدفاع عن نفسها، أو حتى على مكافحة الأعمال الارهابية الصغيرة. وفي كل ردّ محتمل علينا ان نخشى ان يرتكب أعداؤنا خطأً في التقدير يحمل في طياته عواقب مأسوية. وفي مثل هذه الظروف ستكون اسرائيل، وهي مقيّدة اليدين، هدفاً لاعمال ارهابية مستمرة. وفي تعبير آخر، لا أشكّ في أننا لا نستطيع ان نسمح للبلدان العربيّة بحيازة الأسلحة النووية.

كان بيغن يشاطرني مواقفي حيال هذه المسألة. ولكن في سنوات حكمه الأولى لم تكن مواقفه عموما تحاكي مواقف وزراء الحكومة المصغّرة. المشكلة، في رأيي، جوهرية. ولكن ما إن وضع مشروع المفاعل النووي العراقي قيد التنفيذ لا سيّما بعد ان تأكد ان هدفه هو انتاج الأسلحة النووية توجّب على سائر الوزراء اتخاذ موقف في اتجاه أو في آخر. وفي بداية الثمانينات كان وزراء الحكومة المصغّرة قد بدأوا يشعرون بوطأة خطر هجوم نووي فوق رؤوسنا. فقد كرّر الرئيس العراقي، صدّام حسين، في خطاباته غير مرّة نيّته في تصفية ما كان يسميه « الكيان الصهيوني المسيخ ».

في أشهر ١٩٨٠ الأولى، تسارعت وتيرة بناء المفاعل النووي اوزيراك، في حين أُعلن رسمياً نبأ تزويد فرنسا العراق بمادة الأورانيوم المستعملة في صناعة الأسلحة النووية. كما أبرم صدام حسين، من ضمن برنامجه النووي،

اتفاقات مع نيجيريا والبرتغال حول شراء كميات هائلة من الأورانيوم الخام، مكمّلاً بذلك المشتريات الفرنسيّة. امّا مشاكل استخراج البلوتونيوم من سبائك الأورانيوم المستهلكة فوُجد لها حل ضمن اتفاق مع ايطاليا التي تتعهّد تزويد العراق التكنولوجيا المتطورة اللازمة. وهكذا اجتمعت كافة العناصر المُستخدمة في صنع القنابل النووية.

في هذا السياق بدأت في نيسان (ابريل) ١٩٨٠ حملة مدبّرة تهدف الى إقناع اعضاء الحكومة بضرورة تدمير المفاعل النووي العراقي، لتخريبه حتى يكفّ عنّا شرّ خطره وإنما تدميره عبر هجوم جوي فوري. قلت لهم وانا جالس في قاعة مجلس الوزراء في مبنى الكنيست تحت اللوحة الزيتية الرائعة التي رسمها رؤوبين روبين لبساتين زيتون صفر : « علينا تدمير المفاعل النووي بكل ما أوتينا من قوّة نار. انها مسألة حيوية بالنسبة الى اسرائيل ». وأعجز اليوم عن احصاء المرّات الكثيرة التي تكلمت فيها وكتبت الى بيغن حول هذا الموضوع. كما تطرّقت مرارا وتكرارا في مجلس الوزراء الى مستلزمات هذه العملية. ولعب وزراء مقتنعون بضرورة هذا العمل دوراً فعّالاً لصالحه، منهم سيمحا أرليخ الذي نادرا ما كان يشاطرني وجهات نظري.

أدرك بيغن نفسه الوضع خير ادراك. فالحياة تجسّد في نظره قيمة علوية، لا سيّما حين يتعلّق الأمر بشعبه. وبيغن، ذلك اليهودي البولوني الذي وقع أسيرا في أوروبا الشرقية عند بداية الحرب العالمية الثانية، يعرف كم هو إلزامي أن تؤخذ التهديدات بإبادة شعبه على محمل من الجدية. ويلوّح العالم العربي مرّة جديدة بهذا التهديد. ورئيس الوزراء الاسرائيلي ليس رجلاً يحطّ من قدر نوايا صدام حسين السافرة. وفي نهاية المطاف، وحده صراع بيغن الوجداني هو الذي اصدر حكماً لصالح تدمير المفاعل النووي العراقي.

طوال ثلاثة عشر شهرا عقدت الحكومة المصغّرة محادثات تناولت هذه المسألة في سريّة تامة. أمّا خارج مجلس الوزراء فلم يصدر اي تلميح اليها.

ولكن، فيما كانت استعدادات العملية تدخل مرحلتها الأخيرة تسرب السرّ. فراح بعض حزب العمل غير المنتمين الى الحكومة يضغطون على بيغن ليحولوا دون اعطاء الضوء الأخضر للشروع في العمليّة. ولمّا تعدّى الخبر نطاق حلقة صانعي القرار المصغّرة تفاقمت خطورة الوضع.

قبل شهر من العملية قتل ابن رفّول ايتان (رئيس هيئة الأركان)، وهو طيار في القوّات الجوية، في حادث طائرة. وخلال مراسم الدفن تطرّق عازر وايزمن، الذي كان قدّم استقالته من الحكومة قبل سنة، الى هذه العملية. وقال لي : « إنها تنطوي على مخاطر جمّة لم تُنعم النظر فيها ». وهو يرى في اختصار وجوب نسيان هذه المسألة. كنت استشفّ من كل كلمة تخرج من فمه خطراً يحدق بحياة الطيارين وأشعر بها تنسف كافة فرص نجاح العملية. وفي الختام أجبته بهدوء : « أظنّ انك ترتكب خطأ فادحا يا عازر بالتحدّث عن مثل هذه الأمور » .

لم يكن عازر الشخص الوحيد الذي ألمّ بالموضوع. فغالبيّة ساسة حزب العمل، من شيمون بيريز واسحق رابين وموتاغور واسرائيل غاليلي وأبّا إيبان الى حاييم برليف وغيرهم، اطلعوا على تفاصيل العملية. فقد كتب بيريز الى بيغن رسالة في ٩ أيار (مايو) قال فيها: « أضمّ صوتي وغيره من الأصوات الى كل داعٍ الى عدم التحرّك، لا سيما في الظروف الحاضرة »[١].

على رغم معارضة حزب العمل اتخذ بيغن مع غالبية اعضاء مجلس الوزراء قرارا لصالح العملية. فحدّد تاريخا جديدا هو ٧ حزيران (يونيو) ١٩٨١، اي بعد مرور ثلاثة أيام على قمة السادات — بيغن المرتقبة. وكنا نعرف ان السابع من حزيران يقع فيه نهار أحد، اليوم الوحيد من الأسبوع الذي لا يكون فيه التقنيّون والخبراء الأجانب في مكان المفاعل النووي. وفي الرابعة

(١) من كتاب **الضربة الأولى** لشلومو نكديمون، منشورات شيمون وسكاتر، ١٩٨٧، ص : ١٩٤.

بعد ظهر الأحد أقلعت طائرات إف ١٥ و إف ١٦ من قواعدها في اتسيون. بعد مضي قرابة نصف ساعة، وفيما اصبحت الحدود العراقية على مرأى منها، عقدت الحكومة اجتماعا في مسكن بيغن. كنّا ننتظر ورود الأنباء ونحن نتناول الشاي ونتحدّث بهدوء. غير ان امارات التوتر ارتسمت على الوجوه كلّها، ولا سيّما على وجه بيغن. وبعد ساعة رنّ جرس الهاتف ليزفّ لنا بلسان رفّول نبأ النجاح الباهر الذي أحرزته العملية وخبر رجوع كافة طائراتنا.

بعد تبادل التهاني ومغادرة الوزراء جميعهم، بقيت دقيقة أو دقيقتين مع بيغن الذي اقترب مني مستأذنا في الرحيل ووضع يده على كتفي — وهي حركة نادرا ما تصدر عنه — وقال لي: « إريك، لولا عنادك لا ادري ما اذا كنا أطلقنا هذه العملية »، ورأيت في قسماته الانفراج الذي اختلجه وهو يتلفظّ بهذه الكلمات التي تركت فيَّ اثراً بالغاً. ولكنّي، على رغم تصلبي والضغوطات التي مارسناها، كنت أعرف أنّه اتخذ القرار النهائي وحده منفردا. قرار يتطلّب حسا حادا في تحمُّل المسؤوليات وشجاعة تخرج عن المألوف.

لم تصدر عن بغداد اي ردّ فعل اثر تدمير المفاعل النووي العراقي. امّا سوريا والأردن والمملكة العربية السعودية فبدت في حيرة من أمرها. واذ خفي عن مسؤوليها حقيقة ما حدث لزموا بدورهم صمتاً حذراً. وفيما كانت حكومات المنطقة والشرق الأوسط لا تزال تدرس التقارير حول الغارة الاسرائيلية، وتسعى جاهدة الى صياغة مواقفها، قرّر حزب العمل الاسرائيلي، من جهته، ادانة القصف رسميا، واصفا ايّاه بالخطأ الفادح وبالمناورة الانتخابية. أمّا بيغن، الذي ثار لِمَا أُلقي في وجهه من اتهامات، فاقتصر ردّه على سؤال طرحه على كل مزدرٍ ومحتقر: « أتعتقدون انني ارسلت شبانا يهودا ليكونوا عرضة للخطر او للأسر الذي هو اسوأ من الموت ؟ أتعتقدون انني أرسلت شبابنا ليخاطروا بأنفسهم من اجل انتخابات »[1] ؟

(١) ناكديمون، المرجع نفسه، ص : ٣٢٣.

هزّت اتهامات حزب العمل بيغن ومعظم اعضاء مجلس الوزراء الآخرين، لا لما تضمّنته من انتقادات، وانّما لأن الاسرائيليين عاشوا طوال ثلاثة وثلاثين عاما على فكرة توحيد الصفوف وانضوائها تحت راية الحكومة في حال المساس بالأمن القومي وحياة اليهود. وخلال حملة سيناء، عدل بيغن عن دوره كرئيس المعارضة ودعم قرار بن غوريون في ١٩٦٧ وقبل دعوة ليفي اشكول الى الانضمام الى حكومة الوحدة الوطنية. وخلال حرب الغفران امتنعت المعارضة، وعلى رأسها بيغن، عن انتقاد الحكم، يحملها الى ذلك قناعتها بأنه حين تتعلق المسألة بحياة اليهود، يجب ان تحلّ الوحدة الوطنية مكان « السياسة الاعتيادية » .

ولأوّل مرّة، نلمس جميعا ارتداد حزب العمل عن مبدأ الوحدة المقدس الواجب أيّام الأزمات الوطنية. ولأوّل مرّة يصار الى تنفيذ عملية عسكرية واسعة النطاق وبهذه الأهمية على يد حكومة مغايرة لحكومة حزب العمل. وبدلا من أن يمنح قادة الحزب دعمهم لها، أو على الأقل ان يلزموا الصمت، راحوا يندّدون بها علنا، مزكّين نار التهجّمات الدبلوماسية العالمية الموجّهة ضد اسرائيل.

مثّل موقف حزب العمل حيال الغارة التي استهدفت المفاعل العراقي انذارا لنا جميعا. ولسوء الحظ، لم نعرف كيف نقرأ « النقش على الجدار ». فلو قرأناه لتبنّينا ربما موقفا مختلفا حيال أزمة لبنان. ولكن لم نعرف كيف نستخلص العبرة المناسبة. وسرعان ما حجبت شؤون الانتخابات الوشيكة الحصول، والمهمة على نحو آخر، الضجيج والغضب اللذين أعقبا تدمير المفاعل النووي.

مرحلة ما بعد كمب دايفيد.

كانت انتخابات ١٩٨١ واعدة بالتشدّد والصرامة. فما ساورنا اي ريب في هذا الصدد. في حين أشارت استطلاعات الرأي الى تراجع طفيف في شعبيّة الليكود. ولكن الأفدح تمثّل بحل الحزب الديمقراطي من اجل التغيير لإيغال يادين (الذي حصل على خمسة عشر مقعدا سنة ١٩٧٧)، مخلّفا وراءه فراغا يمكن لحزب العمل أن يملأه لما يتمتّع به من فرص. وامام احتمال تأليف حكومة من حزب العمل عملت جاهدا لتزويد مستوطنات الضفة الغربية بوسائل تمنحها بعضا من الاكتفاء الذاتي. فحفرتُ الآبار وقمت بمد التيار الكهربائي وشق الطرقات وبناء المناطق الصناعية. في اختصار، زوّدتها كلَّ ما يتيح لها مقاومة سياسة الاختناق التي سينتهجها حزب العمل اذا ما اعتلى سدّة الحكم. وبذل مساعدي، القائد الاحتياطي أوري بارون، جهوداً دؤوبة لبناء المستوطنات ومضاعفة عددها، وعقدنا العزم سوية على الاقامة في إحدى هذه المستوطنات مع أسرتينا، سرعان ما رحّبت ليلي بهذا القرار.

بقيت أتخبّط في دوّامة من القلق، مع ان الأعمال شهدت تقدما مذهلا والعمال أظهروا تشبثا بقرارهم، فهم ماضون فيه لا يردعهم رادع. وذات يوم، وجدتني على مصطبة من تلك المصطبات القديمة التي خلّفها اجدادنا العبريون وراءهم على هضاب السامرة، ذاهلا في تأمُّل السهل الساحلي. رحت أتبيّن بوضوح، امامي الى الشمال، مدخنة محطة الكهرباء في هديرا. وغرب

تل أبيب كانت المصانع واضحة ظاهرة، بينما في الجنوب أخذ دخان منطقة أشدود الصناعية يتصاعد متثاقلاً في اتجاه السهل. فانبسط امامي قلب اسرائيل النابض وعصب حياتها الواقع بين هديرا واشدود. انه لمشهد حافزٌ بلا ريب، ولكن من يتمتّع بنظرة عسكرية الى الامور يتبيّن من خلاله « وضعا ميدانيا » شديد الموضوعية. كأنمّا هذه المنطقة حبّة خوخ أستطيع أن أمسكها في راحة يدي. ليت في استطاعة الاسرائيليين ان يروها كما أراها وان يفهموها كما أفهمها.

رويدا رويدا راحت هذه الفكرة تستولي على ذهني. ففي الواقع، لِمَ لا يستطيع سائر الاسرائيليين ان يروا الأمور كما أراها ؟ تناول ايلي لندو، الذي كان احد اعواني آنذاك، تلك الفكرة ووسّعها. فلِمَ لا يسعنا جلبهم الى هنا لندلّهم على الحقيقة الملموسة التي نطمسها وراء مناقشات تدور حول الأراضي ؟ فالاسرائيليّون ما ان يلمسوا هذه الحقيقة بأمّ أعينهم حتّى يفهموا مواقفنا خير تفهّم. يكفي اذا أن نجلبهم الى هنا.

وهكذا بدأت « رحلات شارون » بهدف السياحة الشعبيّة، سانحة امام أكبر عدد من الاسرائيليين فرصة زيارة اليهودية والسامرة بأفضل الشروط. فكانت اوتوكارات الركّاب، بقيادة مرشدين ماهرين، تقلّ الناخبين الى بعض البقع الجبلية، حيث يسهل عليهم مراقبة منازلهم وتخيّل ما سيترتّب عليهم من عواقب في حال تخلّينا عن خط المستوطنات المشيّدة على هذه الأراضي. ومن هناك كانوا يقطعون سهل الاردن بطول يزيد على الثلاثين كيلومترا ليشاهدوا في الأسفل خطّ المزارع الجماعية (موشاف) والكيبوتزات التي تمّ بناؤها في اطار مشروع آلون. ومن على هذه المرتفعات المذكورة في التوراة كانوا يستطيعون تأمّل السهل الممتد وراء نهر الاردن، في اتجاه جبال جلعاد ومؤاب. وقد لمسوا على الطبيعة ضعف هذا المكان كموقع دفاعي لولا وجود هذه المستعمرات، التي بنيتها شرقاً على هذه المرتفعات المطلّة على التجمعات السكنية في هذه المنطقة. وخلال الحملة الانتخابية شارك في هذه الرحلات قرابة الثلاثمائة الف شخص.

اقترب موعد الانتخابات. كنت راضيا عن هذه الجولات الميدانية بقدر ما كانت تساهم في اعطاء نظرة مختلفة عن المشكلة الأصلية التي كانت محطّ العناية والاهتمام. وأعتقد انه لا يمكن لأيّ كان ان يرى هذه الأماكن من دون ان يشعر بأنّه معني شخصيا. ولا أستطيع الجزم ما اذا كان هؤلاء « السياح » قد انضموا الى مواقفي (ولكنني على يقين بأنها حالة الغالبيّة). فما أستطيع ان أؤكده هو التالي : ألمّ ما لا يقلّ عن ثلاثمئة الف شخص إلماما أفضل بالموضوع وأَوْلوه الجدية التي يستحقّها.

قبل بضعة ايّام من موعد الانتخابات، شعرت بأنني بذلت كل ما طاقتي من اجل مستوطنات الضفّة الغربيّة. لكنني اذا عدت القهقري بالذكريات الى السنوات الأربع التي امضيتها على رأس وزارة الزراعة، يحق لي ان ارتاح الى انجازات اخرى حققتها. فخلال هذه السنوات سجّل الانتاج الزراعي الاسرائيلي زيادة بنسبة ١٥ في المئة، أمّا المساحات المزروعة فازدادت بنسبة ٢١ في المئة. في حين أعطت جهودي التي بذلتها في سبيل تنمية الصادرات الزراعية — الصناعية ثمارها، لا سيّما ان مبيعاتنا في الخارج عرفت ارتفاعا سريعا بمعدّل وسطي قدره ١٦,٥ في المئة سنويا، فبعد ان كانت قيمتها ٣٥٩ مليون دولار سنة ١٩٧٧، أصبحت سنة ١٩٨١ ٥٧٦ مليون دولار (منذ ١٩٨١، بقي هذا الرقم ثابتا). وخلال الفترة عينها، ازدادت فرص العمل في الزراعة بنسبة ٥ في المئة.

في موازاة تشجيعي المبيعات في الخارج بذلت أقصى طاقاتي لتقوية القطاعات المريضة في زراعة الاقتيات الاسرائيلية. ففي مناطق الجليل الجبليّة، حيث يحدق بالمزارعين خطر مستمرّ من الأعمال الارهابيّة التي تقوم بها منظمة تحرير فلسطين من لبنان، قمت بزيادة حصص انتاج الدواجن والبيض، على رغم الصيحات الحادة التي أطلقها مربو الدواجن المزدهرون، العريقون في هذا المجال. وفي الجنوب، زدت حصة مياه القرى الزراعية في النقب، مشجّعا بذلك الزراعة في هذه المنطقة.

فاق الحبّ الذي كنت أكنّه لوزارة الزراعة حبّي لسائر الأمور. فالعسكري الذي كنته منذ حرب الاستقلال، والذي أصبح اليوم سياسيا محنّكا، كان على معرفة عميقة بشؤون الزراعة، لا بل كان في وسعي القول إنّها تجري في دمي وانني رضعت حبّي للأرض وحليبَ أمّي.

إضافة الى زيادة الانتاج الزراعي وصادراته، عملت جاهدا في توسيع نطاق المساندة الزراعية الاسرائيلية في الخارج ولا أنفي الدور الفعّال الذي لعبته وزارة الزراعة في الخارج منذ سنوات، الا انني كنت أطمح الى التزام أعمق عن طريق ارسال خبراء ليعملوا في بلدان مختلفة، علما ان غالبيّة هذه الدول لم تربطها باسرائيل اي علاقات ديبلوماسيّة رسمية.

خلال الثلاثين سنة المنصرمة وأكثر، عملت اسرائيل في قرابة مئة بلدٍ من العالم. وفي أغلب الأحيان صُبّت هذه الجهود في قناة التعاون والمساعدة الزراعية والطبيّة والتربويّة. في بداية الخمسينات كان خبراء الزراعة الاسرائيليّون قد انتهوا من بناء قرى تعاونية (موشا فيم) في بورما على الحدود الصينيّة، وباشروا تعليم التقنيّات الزراعية الحديثة في افريقيا. وفي الحقبة ذاتها أرسلنا أكثر من تسعة آلاف خبير الى ما وراء البحار. كما اننا قمنا بإعداد خمس وسبعين شابا وشابة، نصفهم في اسرائيل والباقون في بلد كل منهم.

تجد في اسرائيل حتى تاريخ هذا اليوم، رجالا ونساء مستعدين ابدا لهجر بيوتهم والعيش والعمل مع فلاّحي أصقاع العالم النائية. ولا يمثل مطلبنا ان نرسل خبراء ليتربّعوا في مكتب في الخارج، فما نريد منهم هو أن يعيشوا ويعملوا جنبا الى جنب مع ابناء البلاد. فإذا بك تجد الاسرائيليين في أنحاء العالم الأكثرها تأخرا، كصحراء ماخِس في البيرو، وأعلى أراضي النيبال، والمناطق الزراعية في جنوب ايطاليا، التي تعيش في فقرٍ مدقع، وفي أقطاع من العالم تكاد تكون منسيّة وقد قمت بزيارة بعضها.

وبغية توسيع آفاق المساعدة الاسرائيلية أُسّست شركة حكومية تحمل اسم

« أغريديف »، تمثلت رسالتها بانجاز مشاريع زراعية في الخارج. وعملت اغريديف على مستوى واحد وشركة حكومية أخرى هي تاهال التي حققت شهرة واسعة عبر العالم في حقل التخطيط الاقليمي وتنمية مشاريع الري على صعيد رفيع الشأن. كانت تاهال ملتزمة كليا في نيجيريا والمكسيك واميركا الجنوبية وتايلاندا وغيرها من مناطق الكرة الأرضية، وفي الوقت الحاضر، شهدت المشاريع التي تشترك كل من تاهال واغريديف في تحقيقها معا ازدهارا لم تعهده من قبل. فالأولى تؤمّن التخطيط والثانية تقوم بالبناء.

وتكمن أهمية هذا النشاط في انه طال أصعدة مختلفة تضافرت لتعزيز المساعدة الممنوحة الى البلدان النامية. فهذا النشاط ساهم أولاً، في تلميح صورة اسرائيل في العالم. وعلى رغم طموحات اسرائيل العميقة وأولويّاتها وقع عليها الاختيار لتكون حقل اختبار عالمي لتجربة الأسلحة الجديدة. غير ان كفاءاتنا لم تقتصر قط على الميدان العسكري، كما انني اعتبرت دائما من الضروري استثمار طاقاتنا وطموحاتنا في نشاطات مختلفة اكثر انتاجا، تستطيع اسرائيل من خلالها تقديم المزيد من المساعدات ــ من اجل سمعتها في العالم كما من أجل الصورة التي كوّنها اليهود عن أنفسهم. وبالإجمال، اتخذت هذه المشاريع بُعداً اقتصادياً جديدا بالتقدير. فتحقيقها يتطلّب تلقائيا الاعتماد على كافة الميادين التي تدخل في اطار تنفيذها ــ فالمشروع الزراعي مثلاً يحتاج الى مواد مُخصِّبة وماكنات زراعية ولوازم ومعدّات زراعية صناعية ... امّا المعونة النموذجيّة فتنعش العمل والتجارة التي تشكل احد العوامل الرئيسية التي تتمتّع بالقدرة على ايجاد روابط اكثر متانة بين الشعوب.

غير انني انظر الى هذا الانفتاح على العالم الخارجي من زاوية مختلفة تماما. فلأسباب متباينة مُنّ على اسرائيل برجال ونساء موهوبين ونشيطين الى أقصى الحدود ــ فاليهود شعب عصبيّ، زاخر بالأفكار، يتحرّق شوقا لرؤية الأمور والقيام بها، ورغبته في توسيع آفاقه لا تستكين ابدا. ولكن هل من ضرورة لنذكّركم بأنهم يعيشون في ارض منغلقة. فبلادهم محاصرة

شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، ممّا يجبرهم على التحلّي بالصبر.

والتعاون الزراعي، وكل ما يشاكله، في استطاعته الحدّ من مشكلة الحبس هذه الى حدّ معيّن. فمشاريع منح المساعدات كانت تفسح امام الناس مجال الذهاب الى الخارج للعمل في اطارها ثمّ العودة الى بلادهم. ومن مفارقات الامور ان هذا الباب المفتوح، بدلاً من ان نلج عبره آفاقا جديدة وبلدانا جديدة تغوينا بوعودها البرّاقة، أبقى الناس في اسرائيل. مثل نموذجي يطالعنا في كل اسرائيلي سمع اخبارا عن ناحية من انحاء العالم لم يرها قط في حياته ولكنها تؤرقه طوال الليل، وقد تكون هذه الناحية الأمازون او البيرو او بوليفيا. فاذا كان لديه ما يقدّمه، يستطيع ان يساهم في مشروع ما. فيشتري مؤلفات متخصّصة ويتوغّل في عمقها الى ان يلمس في نفسه القدرة على المشاركة في مشاريع عالمية النطاق. ولنسائل انفسنا : ما الذي يدفع باليهود الى الذهاب الى افريقيا ؟ ليس المال وانما البحث عن الأحاسيس الجيّاشة. فمشاهدة الكونغو والتحدّث والكتابة عنها هي التي تحدو اليهود على عبور البحار والمحيطات. لا تكلّموهم عن حياة هادئة مريحة، لأن ما يحلمون به يكمن في التخطيط واسداء النصائح والتعليم والعمل، ومبدأ « في السراء والضراء » طابع قومي اتسم به اليهود. فقلت في نفسي : لا بدّ من اعطائهم فرصة.

لم ابقَ في منأى عن حبّ التنقل الذي عمّ البلاد. فأنا أحببت السفر على متن تلك الطائرات المحمّلة زهورا وفاكهة. ولا يزال عالقا في ذاكرتي اليوم الذي استقليت في طائرة ٧٤٧ مثقلة بالزهور (بعد أن ضاعفتُ تقريبا صادرات الزهور الاسرائيلية). لذا لم يبقَ سوى أربعة مقاعد شاغرة في ما خلا مقاعد طاقم الطائرة، في حين غطّت الزهور سائر المساحة. في ذلك اليوم، بدأت جولتي على أسواق الأزهار في أوروبا : كباريس وفرانكفورت وكولونيه. وفي ما بعد اعتدت على « الأسبوع الأخضر »، وهو سوق برلين الزراعي، كما أَلِفت بورصة الأزهار في أَلْسْمير في هولندا. فمثل هذا النوع

من الأعمال احب ممارسته في استمرار من دون أن يعتريني الملل.

عشيّة صدور نتائج الانتخابات في ٣٠ حزيران (يونيو)، كنت مستعدا ذهنيا للتخلي عن منصبي. فمنذ كانون الثاني (يناير) ومطلقو التوقّعات يتكهنون بفوز حزب العمل. وقبيل ٣٠ من الشهر نفسه، استطاع الليكود ادراك حزب العمل، ولكن كان كل منهما يعرف ان الفرق بينهما بسيط.

عندما أفضى فرز بطاقات الاقتراع الى نهايته، خرج الليكود منتصراً بعد أن حصل على ثمانية وأربعين مقعدا مقابل سبعة وأربعين لحزب العمل — ما سنح لنا فرصة تشكيل حكومة بمؤازرة عدد من الأحزاب الصغيرة. فاز الليكود في انتخابات ١٩٨١ بفارقٍ طفيف، الا ان هذا النّصر كان بنّاء اكثر من ذاك الذي حقّقه سنة ١٩٧٧ حزب داش الجديد بزعامة ايغال يادين، حين تفوّق بالأصوات على حزب العمل. ومع عودة يادين وحزبه الى كنف حزب العمل سجل هذا الاستفتاء الشعبي بداية حقبة جديدة : فلأوّل مرّة يتجابه حزبان كبيران على حلبة البلد السياسيّة.

يُعزى فوز الليكود في هذه المجابهة الى اسباب شتّى، اولاً : الى بيغن نفسه. فخلال الحملة الانتخابية، عاش بيغن سباقا ماراتونيّا بالمعنى الحقيقي للكلمة، وخاطب الجماهير في كل اجتماع عقده، مبرهنا مرّة أخرى عن صفاته كقائد لا يطاله الوهن ويتمتع بجاذبيّة لا تقاوم. ثانياً، الى حزب الليكود الذي قطف ثمار سياسة يورام اريدور السياسية التي شجّعت الاستهلاك. وأخيراً، الى الجولات والرحلات في اليهودية والسامرة التي سمحت لمئات الآلاف من الناخبين بمشاهدة منازلهم في السهل الساحلي من على قمم الهضاب.

وقد يتمثّل العامل الأهم الكامن وراء هذا الفوز بالثورة الثانية التي شهدها المجتمع الاسرائيلي خلال سنوات حكومة بيغن الأربع.

فالثورة الأولى تجسّدت في الحركة الصهيونية نفسها التي أرست دعائم الأمّة. امّا اليوم فقد شهدت الأمة في عهد حكومة بيغن ولادة ثورة ثانية

هي ثورة السفرديم. لأوّل مرّة منذ ١٩٧٧ أحسّ شعب السفرديم أنه أوشك على تحقيق المساواة بينه وبين مجتمع الأشكيناز. وبدلت حكومة بيغن جهودا طائلة في المدن النامية، فأدخلت الصناعات وبنت المدارس والمساكن، كما حسّنت الخدمات الطبيّة وشبكات الطرق ووسائل النقل المشترك. وفجأة، وجد السفرديم انفسهم في اسرائيل (وكذلك الطبقات الشعبية الضعيفة اقتصاديا عموما) يستفيدون من منافع ويتمتّعون بفرص لم يعهدوها من ذي قبل. فرص عرفوا كيف يستغلّونها. فإذا بالطلاّب السفرديم يؤمّون الجامعات وفودا وفودا. ومع مضي السنين راحوا يرتقون درجات التراتبية العسكرية.

غير ان هذه الفرص والترقيات الاجتماعية والاقتصادية لا تشكل سوى احد وجوه هذه الثورة. فطبقة السفرديم اعتُبرت طوال سنوات أداة انتخابية سيّرها حزب العمل بلا حياء. وعندما قامت دولة اسرائيل أبدى قادة حزب العمل حيالهم موقفا أبويا. وظن سياسيو هذا الحزب انهم قاموا بأهمّ ما يتعين عليهم فعله لهؤلاء المهاجرين الجدد المساعدة الفعّالة الممكنة. لكن ما كانوا ربما يجهلونه هو انهم ساهموا مساهمة كبيرة في افقاد السفرديم كرامتهم واحترامهم الذاتي.

عانى السفرديم ظلم نظرة الناس اليهم. فقد اعتُبروا غير أكفاء باحتلال مكانة في الحياة السياسية. لا سيّما انّ نظام حزب العمل القائم على المركزيّة المفرطة كان يفضّل الجيل القديم ويوصد الأبواب في وجه المرشّحين الجدد. امّا انتخابات الليكود الداخلية ففتحت باب الاشتراك أمام الجميع في جوّ تسوده الديمقراطية. وفيما راح حزب العمل يتقدم في السنّ ظهر قادة شبّان في صفوف الليكود، تحدّروا عموماً من السفرديم. فقد ولّى زمن الشعور الأبوي حيال « الشرقيين » الذين لم يكتفو بانتخاب ممثّلين عنهم، بل اخذوا يشاركون فعلياً في حياة البلاد السياسية، كما ساهموا في إرجاع الليكود الى سدّة الحكم ليصبحوا جزءاً لا يتجزأ من بنيته[1].

(١) في الواقع، يعود اصل هذه الشراكة، الى سنوات عديدة خلت. فالسفرديم كانوا ندرة=

في سنة ١٩٨١ ابدى السفرديم استعداداً لاستعمال براثنهم دفاعا عن النقاط التي سجّلوها خلال السنوات الأربع الماضية. كان لا بدّ من مشاهدتهم في الاجتماعات والمظاهرات الانتخابية وهم يصرخون معا وبصوت متقطّع : « بي — غن، بي — غن، أو حتى آ — ريك، آ — ريك، آ — ريك ». شخصياً، لم أكن معتادا على هذا الأسلوب في عرض الآراء، ولا على هذا النوع من المظاهرات، فخلّف هذا في نفسي الإحراج الفائق. وخلال احد الاجتماعات سألت الجالس بقربي عن السبب الذي يدفعهم الى الصراخ على هذا النحو، فأجابني : « نحن لم نعيّن أحدا ولا نعبد أحدا. فهذه الصيحات المتقطّعة التي تعالت تعني في الواقع : « نحن لا نخاف » — فهي تحاكي صرخة الحرب اكثر من ايّ امرٍ آخر ». وفعلا، كانت صيحة حرب أطلقتها الطبقة المعدمة من الشعب الاسرائيلي، صرخة الرجال والنساء الذين يخشون خسارة انجاز عملوا سنوات وسنوات حتى حقّقوه.

وعلى هامش هذه الأحداث، تمّ توقيع اتفاقية سلام مع مصر، فأخذ الناس ينظرون الى بيغن من زاوية مختلفة. في البداية، خاف الجميع عندما تسلّم رئيس حزب الإيرغون السابق زمام السلطة، فهذا العهد قد يعلن موت الديمقراطية، والمؤسسات الاشتراكية الاسرائيلية، مبرّرا بذلك لقب « الفاشي » الذي ألصقه به حزب العمل. أمّا اليوم، فقد اعترفوا بأن هذا « الفاشي » كان يخبئ، خلف هذه القوة وهذه الطاقة التي يستخدمها بدراية، ليبراليا حقيقياً.

= في صفوف الكادرات العليا للبالماخ أو الهاغانا حيث يسيطر رجال الكيبوتزات والموشافيم (جمع موشاف). لكن الإيرغون، الذي شكل نواة حزب بيغن (حيروت) ضم دائماً في صفوفه نسبة قوية من السفرديم. وعندما كان مناضلو الظل — يهربون من الشرطة البريطانية لم يكونوا يلوذون بيهود الملأ (اي ذوي النفوذ في مجرى السياسة والعاملين من وراء الاحداث) خوفا من ان يُقبض عليهم، بل كانوا يفضلون الاحتماء (كالسمكة في الماء) في احياء السفرديم الشعبية. وهكذا فان العلاقات بين السفرديم وحزب حيروت تعود الى ذلك العهد.

لهذه الأسباب، وكثير غيرها، فاز الليكود مرّة ثانية في الانتخابات وفهم الجميع أن فوزه في ١٩٧٧ لم يكن ظاهرة عابرة أو عرضا سياسياً سرعان ما ستتعافى منه البلاد. فالليكود كان يثبّت نفسه كعامل دائم في الساحة السياسة الاسرائيلية أو « في لائحة الطعام »، على حدّ الصيغة التي كانت مستخدمة في تلك الفترة.

لم أصبح تماما جزءا لا يتجزأ من الجهاز السياسي لهذا الحزب مع اني اعتبرت واحدا من زعمائه. لم أكن أدين بمكانتي ومركزي الى هيئات الحزب أو الى الحياة السياسية عموما، فأكسبني هذا استقلالية جعلت مني « غريبا ». وشهدت علاقاتي الشخصيّة ببيغن تقدّما ملحوظا. أمّا تخوّفي الانفعالي الذي انتابني خلال أوّل لقاء لنا في فندق الملك داود في القدس، سنة ١٩٦٩، فلم يعد سوى ذكرى بعيدة من ذكريات الماضي. في الواقع، جمع بيننا تقارب. ففي تلك الحقبة عملنا سويّة طوال سنوات عدّة غالباً ما التقت خلالها افكارنا الأساسيّة. ولكن اتفق ان وقعت خلافات بيننا غير مرّة — لم تكن خلافات شخصيّة وانما تباينا في وجهات النظر حول المشاكل الجوهرية.

من بين المسائل التي شكّلت موضع جدالٍ محتدم بيننا: سياسة المستوطنات. ففيما كنت أسعى بكدّ الى الاسراع في إنجاز المشروع فضّل بيغن ان يسير العمل على وتيرة معتدلة، يدفعه الى ذلك اسباب سياسية وشخصيّة شتّى. فحاولت جاهدا إفهامه ان ضمان أمننا القومي أوّلا يخوّلنا التصرّف بحرية مطلقة لانتهاج سياسة استيطان. ولا يشكل الأمن في نظري كلمة تقال أو مفهوما مجرّدا، فهو لطالما اقترن بإقامة القرى، والهضاب، والمواقع الاستراتيجية — ولطالما كان رهن عمل دؤوب، وزراعة، وصناعة. في اختصار، الأمن هو تأصل الرجال والنساء في ارض الوطن. أمّا ثقتي بالألفاظ القانونيّة فكانت محدودة. وأنا ما كنت لأركن بالتأكيد الى ضمانات ومعاهدات دولية لتحقيق أمننا القومي.

لكن السنوات التي أمضيتها في الحكم جعلتني أدرك أهمية الاتفاقات الخطّية

والأسباب الكامنة وراء أهميّتها ــ تلقّنت هذا وأنا لدى مناحيم بيغن. فبفضله تمعّنت في ادراك التيار الصهيوني السياسي المضاد للصهيونيّة الذرائعيّة التي ولدت فيها وترعرعت في محيطها. أيقنت أخيراً ان إنجازاتنا كانت وليدة تزاوج متناغم بين هاتين العقيدتين. وفهمت أيضاً ان الاتفاقات القانونية عاجزة عن تحقيق ما نصبو إليه ما لم تستجب للضروريات الجوهرية. غير اني كوّنت اليوم نظرة أوضح عن تفاعل هذين العاملين وتكاملهما.

بإيجاز، ليس للأوراق والوثائق أهميّة في نظري اذا لم تدعمها وتبرّرها حقيقة ملموسة، أما بيغن، فكان بطبعه يميل الى سياسة المعاهدات والاتفاقات.

لذا، نشبت بيننا محادثات محتدمة حول مختلف جوانب مسألة المستوطنات وعددها وأهميّتها وتيرة العمل وشكل الاستقلال الذاتي الذي كنا مستعدّين أن نمنحه للسكّان العرب في الأراضي، والتدابير المفترض اتخاذها قبل ارجاع سيناء، الخ. وقد تفضي المناقشات الى خلافاتٍ كثيراً ما تولد الغضب والضغينة. ولكن بعيدا من الاختلاف في وجهات النظر كنت أقدر دائما قوّة شكيمة بيغن ومساهماته في سبيل القضية الوطنيّة، واعتقد ان هذه المشاعر كانت متبادلة.

تأكّدتُ من قناعتي هذه، بعد انتخابات ١٩٨١، حين عهد اليّ بيغن بحقيبة الدفاع. لم يدهشني هذا التعيين، لأنّ بيغن كان سنة ١٩٧٧ سيفضّلني على عازر وايزمن لو كان الاختيار ممكنا سياسيا. إلّا ان تعييني وزيرا للدفاع كان خاضعا لأحد الشروط. فولاية رئيس هيئة الأركان، رفول ايتان، تنتهي هذه السنة، لكن بيغن رغب في تمديدها سنة إضافية قبل ان اعيّن خليفة له. فقد عمل كلا من بيغن وإيتان سويّة منذ استقالة وايزمن، حين تسلم رئيس الوزراء بنفسه حقيبة وزارة الدفاع. لذا، كانا على اتصالٍ دائمٍ، وهو وضعٌ رغب بيغن في الإبقاء عليه. إن هذه الطريقة في العمل لم تكن لتروق لي، ولكنّي لم أفرط في إرباك نفسي أو تشغيل بالي.

من ناحية أخرى، أتاح لي منصبي كوزير للدفاع انجاز المشاريع التي كنت

قد بدأتها. أولاً لأنّ علاقة عمل وثيقة ربطتني بالمصريين. فقد تناولت هذه العلاقة مشكلتين رئيسيتين كانتا موضع بحث وعناية هما : جلاء القوّات الاسرائيلية المتدرج عن سيناء والحكم الذاتي لعرب اليهودية والسّامرة وغزة.

لم أدعم اتفاقات كمب دايفيد في سنة ١٩٧٩ الا لأنني كنت مقتنعا، أنه بعد سنوات الحرب هذه، وما شهدته من إراقة دماء، يتوجّب عدم تفويت اي فرصة تعايش سلمي. ولأسباب مختلفة، اعتبرتُ مصر البلد المناسب للتفاوض معه في سبيل إحلال السلام بين العرب واسرائيل. فعلى رغم التزام مصر العميق قضايا العالم العربي حتى اعتبرت زعمية له، لم يعتبر المصريّون أنفسهم عربا بحصر المعنى. وهكذا كان السادات يتحدّث على حدة عن العرب بأسلوب يشوبه الجفاف. فكان يقول بكل طيبة خاطر : « هؤلاء العرب ... »، وكان يشعر وسائر المصريين أنهم منفصلون عنهم، متميّزون بعض الشيء. فهم في ذهنيّتهم أبناء حضارة الفراعنة المصريين، التي سبقت الاسلام. هم عرب، نعم، ولكنهم يملكون شيئاً إضافياً.

ثانيا، على رغم الحدود المشتركة بين مصر واسرائيل وما تطرحه غالبا من مشاكل، هناك مسافة مائتين وخمسة وستين كيلومترا تقريبا من الارض الصحراوية غير المأهولة بين قناة السويس والأرض الاسرائيليّة. وكانت هذه الحدود المشتركة تبعد عن مناطق اسرائيل الصناعية الكثيفة السكّان أكثر من حدودنا الاخرى مع سائر الدول العربيّة. فسيناء المجرّدة من السلاح قانونا تشكّل منطقة عازلة نحن في أمسّ الحاجة اليها.

ثالثاً، تواجه مصر سلسلة من المشاكل الداخلية الخطرة العائدة الى كثافتها السكانيّة المتزايدة. ونعتقد ان هذه المشاكل توفّر مرتعا خصبا لمصالح مشتركة. ولمزيدٍ من التوضيح، يمكننا ان نعود بالافادة القيّمة على المصريين في ميادين شتّى، ما قد يساهم الى حدّ لا يستهان به في إحلال السلام وفي العلاقات السلميّة بين البلدين.

أضِفْ الى هذه العوامل كلّها ان مصر كبيرة وقوية كفاية حتى لا تكترث الا بمصالحها الخاصّة، وحتّى تأبى الخضوع الى ضغوطات الدول العربيّة. ومن الواضح أن فرصة قيام مفاوضات بين اسرائيل والعرب تكمن في هذا. ذلك كان تحليل بيغن — كما كان تحليل سائر الوزراء — الذي يمثّل حقا مسيرة السلام المنشود التي اطلقت لأوّل مرّة بُعَيْد توليه زمام السلطة. ويعزو الناس عموما اتفاقات كمب دايفيد الى مبادرة أنور السادات. في الواقع، لم تبدأ عملية السلام معه وانّما مع مناحيم بيغن.

ففي أحد اول الاجتماعات الحكومية في ١٩٧٧، صرّح رئيس الوزراء الجديد بوضوح بأنّه سيبذل كافّة الجهود ليلتقي قادة عرب ويجد الطريق المؤدّية الى السلام. بعد ذلك بقليل، توجّه الى رومانيا في زيارة رسميّة للتشاور مع نيكولاي تشاوشسكو. فولّدت نتائج هذه الزيارة اعتقادا بأن بيغن ترك انطباعا في نفس الرئيس الروماني بفضل شجاعته ورغبته الصادقة في إيجاد حلّ للنزاع الاسرائيلي — العربي. وبعد أربع سنوات كشف لي السادات في قصر عابدين أنه قرّر فعليّا المجيء الى القدس بعد رحلته الى رومانيا، التي تبعت زيارة بيغن بوخارست بقليل. فقد طلب السادات من تشاوشسكو إبداء رأيه في بيغن، فأجابه الرئيس الروماني « انه صلب في المفاوضات، لكنه ما أن يأخذ على عاتقه القيام بعمل ما حتى يمضي فيه حتى النهاية » .

واطلعني السادات على القلق البالغ الذي استحوذ عليه حين ألّف بيغن حكومته الأولى. كان يعتقد وقتئذ ان هذه الحكومة ستقود اسرائيل الى الحرب، لا سيّما أن بيغن كان معروفا بأنّه من دعاة الحرب. كما انّه عيّن موشيه دايان وزيرا للشؤون الخارجيّة، وهو الرجل الذي حارب المصريين مرّتين. مرّة أولى، كرئيس هيئة أركان، سنة ١٩٥٦، ثمّ كوزير دفاع، في ١٩٦٧. وعهد بحقيبة الدفاع الى عازر وايزمن، صانع النصر المفاجئ الذي حقّقه الطيران الاسرائيلي في حرب الايام الستة. وأخيرا، جعلني بيغن عضوا في حكومته مع ان سجلي العسكري حافل بالإعمال الحربية. فرأى السادات

في اجتماع هؤلاء الرجال الأربعة اشارة الى ان اسرائيل تستعدّ للحرب. ولكن بعدما اعرب تشاوشسكو عن تقديره لبيغن، قرّر السادات بذل بعض الجهود. كان على اقتناع بأنه ليس في وسعه ان يعقد اتفاقية سلام الا مع قائدين اسرائيليين هما غولدا مائير ومناحيم بيغن. (أثار تفسير السادات لتعيين دايان وزيرا للشؤون الخارجية اهتمامي البالغ، وذلك منذ ان عرفتُ الأسباب التي دفعت ببيغن الى منحه هذه الحقيبة : كان بيغن يعتقد ان لهذا التعيين أهمية بالغة بالنسبة الى صورة اسرائيل في الخارج، وانه سيعزّز قدرة اسرائيل الرادعة. وفكّر بيغن أنّه بوجودي مع دايان وعازر لن يتجاسر العرب على المغامرة بإضرام حرب جديدة وسيفهمون في نهاية المطاف ان لا خيار لهم سوى خيار المفاوضة. وسيصبح دايان ايضاً، مع ان بيغن لم يقل هذا، أجمل جوهرة ترصّع تاج هذا الرجل الذي لم يلق من الملأ الاسرائيلي سوى التشهير لسنوات طويلة).

كانت اتفاقية السلام التي وقّعها السادات وبيغن في كمب دايفيد تقضي بجلاء القوّات الاسرائيلية على مراحل من سيناء خلال مهلة ثلاث سنوات. وعندما استلمت حكومة بيغن الثانية مهامها، كانت كافّة البنود قد نفّذت ما عدا انسحاب قوّاتنا. فعلى هذا الصعيد كانت القوّات الاسرائيلية لا تزال تحتفظ بالثلث الشرقي من سيناء، ولكن من المتوجّب ان تكمل انسحابها الكليّ منها في ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٨٢، أي في أقلّ من عشرة أشهر.

كنّا ندرك جميعا خطورة هذه المرحلة الأخيرة علينا. فالخطر المصري خيّم على اسرائيل طوال سنين وسنين، وخبرتنا بالمصريين هي خبرة عداوة أُعْلن عنها منذ ١٩٤٩ إمّا على شكل غارات ارهابيّة وإمّا على شكل حرب شاملة. وبعد أخذ هذا الماضي في عين الاعتبار يشكل ارجاع هذه الأرض، التي تحمينا من اي هجومات عاتية مقبلة مقابل وعدٍ بإحلال السلام، خطرا جسيما.

وقبل البدء بمفاوضات كمب دايفيد بكثير، ارتكزت عقيدة الاسرائيليين في الدفاع عن هذه المنطقة على سلسلة تجمّعات يهوديّة احتشدت في شمال

سيناء، على رقعة أرض عرضها خمسون كيلومترا، تمتدّ على طول الحدود. وفي عرف هذه العقيدة، بنينا أكثر من عشرين قرية ومركزين مدنيين هما : اوفيرا الواقع بالقرب من شرم الشيخ، وياميت غير البعيد من الحدود في الشمال. ولكن وزير الشؤون الخارجيّة، موشي دايان، خلال لقاءاته الأوّلية والسريّة مع ممثلي السادات في المغرب، قَبِل ارجاع سيناء بأسرها الى مصر، يدفعه الى ذلك قناعة بأن ما من فرصة للوصول الى اتفاقيّة سلام اذا لم تسترجع هذه الأرض كلها سيادتها. (وإثر قبول دايان وابداء تشاوشسكو رأيه في بيغن، جاء السادات الى القدس). ولكنه عرف انه ذهب بعيدا بعرضه هذا، ومنذ ذلك الحين والقلق البالغ يلازمه.

اخيرا، اطلق دايان فكرة تخوّلنا المحافظة على شكل من اشكال المراقبة في هذا القطاع، حتى عندما تستعيده مصر. فاقترح تجريد الرقعة التي يبلغ عرضُها خمسين كيلومترا من السلاح، آملاً أن يُسمح لنا بابقاء ميليشيا تكون مهمتها تأمين الاتصالات بين التجمّعات السكنية. وهذا ما دفعني ودفع دايان الى تقديم اقتراح يقوم على تكثيف خط المستوطنات في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨. فأثار هذا المشروع حفيظة الصحافة وأفضى الى مواجهة مؤلمة في ٨ كانون الثاني (يناير) داخل الحكومة.

كان كلانا على اقتناع بأن خط القرى الحدودية المقتطعة من اسرائيل سيكتب له الزوال في ظلّ سيادة مصرية. فالسكان العاجزون عن الدفاع عن انفسهم سيخضعون لمضايقة بدو سيناء. أمّا السلطات المصرية فلن تحرّك ساكنا لتأمين حمايتهم. وبالتالي، اذا ما أردنا ابقاء هذه المنطقة منطقة أمن عازلة، من الضروري ان نزيد عدد سكّانها وان نبني مزيدا من القرى والتجمّعات الاضافية لتأمين حياة طبيعية وشبكة اتصال تفسح المجال أمام تنقّل دائم بين هذه الأماكن واسرائيل. وقلت لبيغن وسائر الوزراء : ان عدم القيام بذلك سيؤدي الى زوال كل حافز لتسيير دوريّات في هذا القطاع. امّا النتيجة فستكون تعليق كل عمل مراقبة، ما سيلغي بالتالي فكرة انشاء

منطقة عازلة. فمن دون مستوطنات جديدة نخشى ارتكاب الخطأ الذي ارتكبناه على هضبة بانياس حيث قمنا بتفكيك مستوطنة استراتيجية فاحتلها السوريون فورا، أو خطأ الحما، وهي منطقة مجرّدة من السلاح تقع جنوب شرق بحر الجليل، حصلنا قانونيا على موافقة تخوّلنا الاستقرار فيها، غير اننا لم نقم بذلك. وبعد ان قتل فيها سبعة رجال من دورية اسرائيلية في كمين سوري، لم تطأ قدمنا ثانية هذا المكان، اذ ما من سبب وجيه لنخاطر بأرواحنا. ووفق السيناريو نفسه ستقع احدى دوريّاتنا في سيناء ضحيّة فخّ نصبه أحد البدو أو ضحيّة لغم من الألغام، فنوقفها الا في حال وجود بنية تحتيّة حيوية تفرض علينا الدفاع عن القطاع.

ولكن لدى مباشرة مفاوضات كمب دايفيد اكّد لنا المصريون في الحال أن مبدأ قيام منطقة عازلة في ظلّ سيادة مصرية خاضعة لرقابة اسرائيلية أمرٌ مرفوض. فوضع تصلّبهم هذا حيال هذه النقطة، وزارة بيغن امام الخيار الآتي : التنازل عن عقيدتنا او العدول عن فرص عقد اتفاقية سلام مع مصر.

من جهتي، كنت ارى سبيلين لا غير يمكن لنا سلوكهما : اما بناء حزام من القرى الكثيفة سكانيا وامّا الرجوع عن فكرة الاستيطان عامّة والبحث عن سبيل ثالث. امّا المستوطنات التي تمّ بناؤها فستشهد احتضارا بطيئا، بما انها عاجزة عن الاكتفاء بذاتها. ولكن، في موازاة ذلك، كنت مقتنعا تماما بضرورة قيام سلام مع مصر. أو على الأقلّ بمحاولة ذلك. وكان من المتوقّع أن يثير ترك التجمّعات السكانية في سيناء استنكار قسم كبير من الشعب الاسرائيلي. ولكن هل نستطيع، بعد حرب دامت قرابة الثلاثين عاما، أن نفوّت مثل هذه الفرصة لاحلال السلام ؟ من وجهة نظري، علينا أن نقتنص هذه السانحة التاريخيّة، مهما تكن المخاطر التي سنتعرّض لها. من أجل هذا السبب ــ ولأن سيناء ليست جزءاً من أرض إسرائيل ــ دعمتُ مواقفَ بيغن المؤيّدة للمفاوضات دعما ثابتا، وصوّتُّ على الاتفاقية التي حصل عليها في نهاية المطاف.

ولكن لقاء موافقتي على ان أتنازل عن مستوطنات سيناء اتخذت موقفا صارما حيال جوانب المشكلة الأخرى. فإذا ما توجّب الرجوع عن فكرة منطقة عازلة تؤمن الحماية علينا اتخاذ تدابير مختلفة لضمان أمننا. فتذمّر المفاوضون المصريون لما كنت أبديه من اصرار حول نقاط هي في نظرهم تافهة. وفي كل مرّة تناولت المسألة نقلَ موقع عسكري الى مسافة تبعد مئتي متر أو ثلاثمائة متر عن المكان الذي من المفترض ان يكون فيه، يسألونني : لم انت قاسٍ الى هذا الحدّ ؟ لِمَ توليها هذا القدر من الأهمية ؟ وبالتأكيد كنت أقدّم اليهم الجواب عينه: ستكون اسرائيل دائماً في موقف دون موقف مصر، ومن شأن هذا أن يخلّف طائفة من النتائج التي تشكّل خطورة علينا. وفيما كنّا نناقش احدى النقاط، أجبت كمال حسن علي مستعيناً بالمثل التالي : « وِفق شروط هذا الاتفاق، يُسمح لكم بإبقاء مائتين واربعين دبابة في شرق القناة. فلنفترض الآن أننا ذات يوم عثرنا على ثلاثمائة دبابة. بالنسبة إليكم، لا يشكّل نقل ستين دبابة من الضفة الغربيّة الى الضفة الشرقية سوى عملية لوجستيّة. ولكن بالنسبة إلينا، وفي حال أردنا إعادة الأمور الى نصابها، علينا أن نعرّض أنفسنا لخطر الحرب. انه قرار في منتهى الصعوبة. ويستطيع أهالينا القول، ولهم الحق في ذلك، كيف لكم أن تلقوا بنا في حرب من أجل خمسين أو ستين دبابة إضافيّة، فيما اسرائيل مدجّجة بالسلاح ؟ عندها سنواجه مشكلة. فلنفترض الآن اننا نجد بعد مضي شهر آخر مزيدا من الدبابات. وطبعا ليست هذه العملية بالنسبة اليكم سوى عملية لوجستيّة بسيطة. وفي الختام، ستبقون دباباتكم في سيناء، أمّا نحن فسنكون سجناء الورطة التي وقعنا فيها : فإمّا التنازل عن حقّنا في الرّدع وامّا اضرام الحرب. لا نريد وضع أنفسنا أمام مثل هذا الخيار ولهذا السبب لن نقبل بأيّ تحريف في بنود الاتفاق ».

وكتمت عن علي انني كنت لا ازال اتذكّر جيّداً تردّد حكومة اشكول في ايار وحزيران (مايو ويونيو) ١٩٦٧، حين تعيّن علينا مواجهة مثل هذه

المشكلة. فرحيل مراقبي منظمة الأمم المتحدة المفاجئ عن سيناء تلبيةً لإصرار الرئيس عبد الناصر، ودخول اعداد هائلة من القوّات المصرية خلّفا الدهشة لدى الحكومة الاسرائيلية وهيئة الأركان العسكرية اللتين امتنعتا عن الردّ السريع والمحكم، خوفا من اغراق البلاد في الحرب، على رغم الخطر المصري الدّاهم. ولا تزال عالقة في بالي الحيرة التي أبديناها حين قدَّم المصريّون صواريخهم، بُعيد سريان مفعول وقف اطلاق النار، خلال حرب الغفران. فعلى رغم الخسائر المترتبة على هذه الحرب والمحفورة أبدا في ذاكرتنا، آثرنا عدم التحرّك. في اختصار، ان المآزق والأخطار هي دائما من نصيبنا لا من نصيبكم.

كانت احدى هذه النقاط « الثانوية »، التي لم اعتبرها أبدا ثانويّة، متعلّقة برسم حدود سيناء الحقيقي. فمنذ ١٩٤٨ خفّت حدّة الاهتمام بهذا الموضوع. فعقدت العزم على حلّه قبل جلاء قوّاتنا.

وعندما بدأنا نستعدّ لسحب قوّاتنا، استحوذت واقعة من الوقائع على تفكيري كلّه : فخط التماس بين اسرائيل ومصر كان الحدود الاسرائيلية الوحيدة التي أثار رسمها الشبهات. أمّا السبب الكامن فكان واضحا : بعد الحرب العالمية الأولى، وافقت بريطانيا العظمى على حدود فلسطين مع لبنان وسوريا والاردن، ولكنها لم تعترف قطّ بالحدود المصرية ـــ الفلسطينيّة. وعندما بدأت أبحث عن أسباب هذا الموقف، اكتشفت ان فريقا مؤلفا من مساحي اراضٍ بريطانيين ومصريين قد وضع حدود سيناء سنة ١٩٠٦. إذاً، كان البريطانيون يعرفون جيّدا خط الحدود الصحيح، لا سيّما انّهم هم الذين رسموه بأنفسهم. واسائل نفسي : لِمَ، في ظلّ هذا الوضع، لم يعترفوا به ؟.

في نهاية ١٩٨١، وجدت الإجابة الصحيحة على هذا السؤال، بعد اجراء رسم طوبوغرافي جديد عن الأرض. فعلى رغم ان تركيا (المسيطرة آنذاك على فلسطين) وبريطانيا العظمى (الحاكمة في تلك الفترة على مصر) قد وافقتا على الحدود الحقيقيّة، وجد الفريق المصري البريطاني الذي وضع رسم الأرض مكسبا أربح في اقامة نصب او معالم حدودية في الأرض الفلسطينية

بدلاً من المصرية. وبتعبير آخر، رسم المهندسون الأرض على هواهم تقريبا، ما جعل خمسة عشر نصباً من خط التماس التقليدي لا تتبع رسم الحدود الحقيقي. فأزيح البعض منها قرابة الاثني عشر متراً عن خط التماس، في حين نقل نصب واحد مسافة كيلومترين ونصف الكيلومتر — وأُقيمت كلها شرق المكان المفترض أن توضع فيه.

واذا انعمنا النظر في هذه الأماكن، يسهل علينا فهم الأسباب التي حدت البريطانيين على القيام بتصرّف مماثل. فلكل موقع من هذه المواقع المرسومة خطأً أهميةٌ عسكرية؛ فمعظمها يقدّم مراكز مراقبة تفتح أمام القابع فيها مجال النظر من فوق إلى فلسطين. وفي تلك الحقبة، كانت بريطانيا العظمى لا تزال متربّعة على عرش امبراطورية عظيمة، فيما كانت تركيا رجلا طاعنا في السنّ مريضا بين أسياد العالم. وقرّرت بريطانيا، التي ألقت بثقلها كله على الأراضي التي أوشكت تركيا أن تتخلّى عنها، امتلاك الأراضي التي قضمتها من فلسطين على امتداد حدودها مع سيناء. ففي طابا، على سبيل المثال، كانت الأض المرتفعة تخوّلهم إلقاء نظرة على العقبة لا يعيقها عائق. وكانت العقبة آنذاك مطمحاً من مطامح الامبراطورية البريطانية (وقد استولى لورانس العرب على المرفأ في ١٩١٧). وشاءت سخرية الموقف أن يدخل الانكليز بعد الحرب الى فلسطين وان يحتل المصريّون سيناء. ولمّا وجد الانكليز أنفسهم على الجبهة الأخرى من خط التماس، رفضوا قبول رسم الحدود الذي وضعوه بيدهم. وهكذا، بعد مرور خمس وستين سنة، نجم عن تعاقب الأدوار هذا أن أصبحت المواقع الاسرائيلية قادرة على مراقبة تحرّكات المصريين في سيناء، وذلك اذا ما أخذنا في عين الاعتبار رسم الحدود الحقيقي، في حين أن معالم الحدود التقليدية كانت تسمح للمصريين تتبّع الأحداث الجارية في اسرائيل. ولمّا اصررت على العودة الى الحدود الفعليّة ابدى المصريّون رفضا قاطعا. وأكّدوا انه في سنة ١٩٤٩ توقّف الاسرائيليّون عند الخط التقليدي، وبعد حملة سيناء في ١٩٥٦ انسحبوا منه. فبأي حق نطالب بتسليط الأضواء في الوقت الحاضر على هذا الموضوع ؟

راوحت المفاوضات مكانها في حين راح موعد انسحاب قوّاتنا يقترب — فتخوّف المصريّون من أن يتقاعس الاسرائيليّون في نهاية المطاف على تنفيذ التزاماتهم في اخلاء سيناء. وعلى رغم اتفاقات كمب دايفيد، كانوا يقدرون قيمة ما نتركه لهم ويساورهم شك في أننا نبحث عن حيلة ما تساعدنا على التملّص من المرحلة الأخيرة. من الواضح انهم لم يكونوا يريدون التراجع في مسألة الحدود، في حين اخذت على نفسي استغلال تخوّفهم من أن نرفض سحب قوّاتنا.

كنت أعرف اننا سننفّذ بنود الاتفاق، لكن المصريين جهلوا هذا. وسعيت جاهدا الى اقناع بيغن ليستفيد من قلق المصريين حتّى يحلّ مشكلة الحدود، وإنْ تطلّب ذلك تأخير جلاء قوّاتنا بضعة أيّام. وقلت له انه من الضروري حل المشاكل العالقة وتسوية كافة النزاعات قبل انسحابنا. وإلا سنقدّم بأنفسنا الى المصريين حججا تسمح لهم، في يوم من الأيّام، بافساد العلاقات بين البلدين أو بتشويهها أو بتغييرها كلياً.

تفهّم بيغن موقفي، ولكنه رفض الانضمام اليه. فالمنصب الذي كان يشغله يدفعه إلى صرف النظر عن حججي، والإصرار على تنفيذ بنود الاتفاق بحذافيرها، وذلك وفق المهل المحدّدة في جدول أعمال المفاوضات. فحاولت مطاردته مرارا وتكرارا ولكن من دون جدوى. فالصورة التي رسمها تشاوشسكو والتي اطّلع عليها السادات كانت وفيّة الوفاء كلّه : فبيغن رجل قاسٍ، ولكن ما إن يقبل القيام بأمرٍ ما حتى يمضي في التزامه حتى النهاية، حتى آخر فاصلة.

كان بيغن يعتقد ان الأضرار الناجمة عن أي تأخير اسرائيلي في تنفيذ الاتفاق قد تكون أفدح من العواقب النظرية المترتّبة على المشاكل العالقة. ولكن، لدى تطرّقي الى هذه النقاط، كنت أتصوّر في ذهني كلّ قمةٍ أو صخرة أو هضبة شكّلت مدار بحثنا. فبعد هذه السنين التي أمضيناها في سيناء بدأت أشعر بأهميّتها التكتيكيّة من صميم قلبي.

وبتعبير آخر، لم أكن أرى في طابا وسائر مواقع سيناء مجرّد معانيَ قانونية على غرار بيغن، لذلك كنت أقلّ ميلا الى القبول بهذا الواقع — لكننا اخلينا سيناء في الموعد المقرر.

خلّف رحيلنا عن سيناء اضطرابا نفسيا. ففي اطار جلائنا قبلنا اعادة تجمّعاتنا السكنيّة في سيناء الى المصريين، إضافة الى مدينتي اوفيرا وياميت. تضمّن هذا نقل السكان، بمن فيهم الذين عاشوا هناك منذ ما يزيد عن عشر سنوات. ولكن كان لا بدّ من هذا، وباسم هذه الضرورة منحتُ القرار المتعلّق بهذا الموضوع الدعم كلّه. وحتى أكون صريحا، ولم يبثّ فيّ تصرّفي هذا أيّ شعور بالفخر: فالحكومة قطعت وعودا لهذه العائلات عندما استقرّت في هذه الأماكن التي كانت لا تزال مقفرة، وكنت أدرك مدى التضحيات التي قامت بها عندما وافقت على العيش في هذه المنطقة القاحلة. اضافة الى ذلك، فان اتخاذ قرار بطردهم في مجلس الوزراء شيء، ومسألة تنفيذ هذا القرار على الأرض شيء آخر ... وقد انيط بي هذا التنفيذ اي جرع هذه الكأس المرة !

(في ما بعد، زعمت الصحافة ان بيغن لم يعهد اليّ بحقيبة الدفاع رغبة منه في تسليمي هذه الوزارة وانّما لأنه فضّل أن أقصي بنفسي سكّان مدن سيناء وبلداتها، بدلاً من أن ينفّذ شخصياً هذه المهمة. وكثرت الاشاعات حول هذا الموضوع، فاضطرّ بيغن الى تبرير سلوكه أمامي. وخلال جلسة خاصة، أعرب في مستهلّ كلامه عن رضاه لسير العمليّات من دون إلحاق ضرر واستخدام القوّة، على رغم الحشودات والتظاهرات المضطربة والمؤلمة غالبا. انّه لا ينوي استبدالي على رغم الاشاعات والهذر، فهو لم يعيّني وزير دفاع، على حدّ ما أوضحه، ليلقي على عاتقي بهذه المهمّة الصعبة فحسب، كما انّه لن يعيّن مكاني اي رجل آخر الآن وقد بدأ تنفيذ العملية).

— ترك « تهجير » سكّان سيناء أثرا مؤلما عموما. وعرف سكان ياميت

أسوأ أيامهم. فخلافا لأوفيرا، المدينة الأخرى من سيناء، كانت ياميت تقع على الحدود. كنت مستعدا للتخلّي عن كافة أماكننا في المنطقة، تماماً كما هو متفقٌ عليه، ولكنني لم أكن مستعدا تسليمها مع القرى المجاورة، فذاك في منتهى الخطورة. وكان عدد سكّان ياميت آنذاك يبلغ بضعة آلاف شخص، غير ان البنى التحتيّة التي انشأناها فيها — من آبار ومياه جارية وتيار كهربائي وهاتف ومراكز تجارية — تستطيع بسرعة فائقة تلبية حاجات سكان يبلغ عددهم مئة ألف شخص. وكان يطالعك هناك كل ما هو ضروري لجعل الصحراء قابلة للسكن وكنت أعرف ان المصريين يتحرّقون شوقا لإسكان أهاليهم فيها. كما كنت مقتنعا بأهميّة إبقاء الشعب المصري — حاليّا ولسنوات مقبلة كثيرة — خارج المنطقة المجاورة لحدودنا.

ولم تكن مصر أو اسرائيل ترغب في رؤية المصريين بأعدادهم الهائلة يستقرّون في هذه المنطقة من الصحراء، وقد حكم عليهم العيش في ظلّ ظروف صعبة، بجوار المستوطنات والقرى الاسرائيلية. لأنّه في مثل هذا الوضع وعلى رغم التدابير التي في امكان السلطات الاسرائيليّة اتخاذها، لا بد ان يعبر بعض الأفراد أو زمر الأشقياء الحدود لتوجيه ضربات مسيئة أو للقيام بعمليّات سرقة. فتساورنا المخاوف من ان نشهد تصعيدا في استخدام العنف الذي يمثّل شكلاً من أشكال الرعب التي نعرفها خير معرفة. وقد ينجم عن هذا ظهور احتكاكات أو حتى حالة نزاع كامنة بين الحكومة المصرية والاسرائيليّة، قد تحتدم في النهاية لتفضي الى وضع يحاكي الأوضاع المتوتّرة جداً التي كنّا نأمل أن تُطوَى نهائياً مع عقد إتفاقية سلام.

واحتياطا لمثل هذا الاحتمال قلت في نفسي : من الأفضل تدمير ياميت بدلا من التخلّي عنها للمصريين، وهذا ما اقترحته على مجلس الوزراء. وعندما لم أتلقّ معارضة باشرت التنفيذ فوراً. فرحت أشرح للمصريين المشاكل الجسيمة التي سنعانيها حكماً مع سكان ياميت. فهم، إن نجحنا في حملهم على الرحيل سيجدون بالتأكيد سبيلا ليعبروا من جديد الحدود بغية العودة الى ديارهم.

(كان هذا فعلاً الحقيقة بعينها : فسكّان ياميت كانوا يمارسون خدعا محنّكة للعودة الى منازلهم بعد إقصائهم عنها). وقلت للمصريين : يكمن الحل الوحيد إمّا في تدمير المنازل والأبنية وإمّا في نقلها. فالبنى التحتيّة المتواضعة في القرى الزراعيّة المجاورة لياميت لن تسبب مشكلة، بخلاف المدينة بكل ما فيها من مجمّعات صناعية وتجارية. وفي ما يتعلّق بياميت لم أكن أرى سبيلا سوى إخلائها من سكانها، لتدمير المدينة كليّا.

عشت أشهرا طويلة في قلق بالغ لأنّني سأضطرّ قريبا الى الشروع بهذه المهمة المؤلمة. فكنت أصغي الى شكاوى السكّان، الذي جاؤوا الى بيتي ليدافعوا عن قضية مدينتهم وديارهم، طالبين مني ابقاء الأبنية سليمة، آملين في العودة الى بيوتهم. وفي إحدى الليالي الجديرة بالذكر، اجتاز كثيرون منهم الأسلاك الشائكة والدوريات التي كانت تُحكم اغلاق تجمّعات سيناء السكنيّة لمقابلتي في مزرعتي. وتحدّثوا إليّ حتى الفجر، ولو آل الأمر اليهم لأمضوا النهار بطوله — ما عدا واحداً منهم كان عليه العناية بطفله ولكن كان لا بدّ لهم بعد من التسلّل حتى منازلهم قبل طلوع الشمس. وعلى رغم من الأحاسيس التي قد أشعر بها أخليت أخيراً مدينة ياميت من سكانها وقمت بتدميرها كليا. في حين تمّ تسليم أوفيرا وسائر القرى الى المصريين، ولكن بحالة جيّدة. امّا ياميت فقد محوتها حتى استحالت رمالا. لم تترك هذه العملية مذاقا طيبا في فمي. فحتّى اليوم لا أزال اتلقى انتقادات حيال الموضوع تصنّفني بـ« الرّجل الذي دمّر ياميت » غير اني لا أسعى الى تبرير نفسي. فقيام مدينة مصريّة في هذا المكان من شأنه أن يهدّد السلام الذي نجتهد جميعا لتحقيقه؛ وانا عندما تصرّفت على هذا النحو لم أقمْ الا بما املاه عليّ عقلي.

وضعت اتفاقات كمب دايفيد اطار اخلاء سيناء. (في حين لم تدخل غزّة في هذا الاتفاق لأنها جزء من ارض اسرائيل). ورسمت هذه الاتفاقات خطة تقضي بمنح فلسطينيِّي غزة والسامرة واليهودية حكماً ذاتياً (كانت هذه الخطة من ابتكار بيغن اصلا). وتمثّل مطمح خطّة كمب دايفيد الأساسيّ

بإيجاد توازن بين مبدأ « الحكم الذاتي » الذي يطالب به الفلسطينيون و « مصالح الأمن الشرعية » عند الاسرائيليين. وقد تتّفق مصر واسرائيل والأردن وممثّلوا الفلسطينيين على طريقة انتخاب الهيئة السياسيّة لهذا الحكم الذاتي، وتحديد صلاحيّاته وسلطاته. وسيتبع انتقاءَ هيكلية الحكم الذاتي مرحلةٌ انتقالية مدّتها خمس سنوات، تحدّد بموجبها كل من مصر واسرائيل والاردن (وهيئة الحكم الذاتي السياسيّة) الاوضاع القانونية النهائية للاراضي (الضفة الغربية وقطاع غزة).

ليس مشروع الحكم الذاتي مجموعة أوامر وتعليمات نهائية وضعت تسوية لمشكلة اليهودية والسّامرة وغزة، وإنّما هو يمثّل ما وصفته مجموعة مصطلحات كمب دايفيد « اطارا » يفتح المجال أمام حل المسائل الشائكة عبر مفاوضات مباشرة. كيف نحدّد « مصالح الأمن الشرعية » لاسرائيل و « حقوق الشعب الفلسطينيّ الشرعيّة » ؟ كيف السبيل الى الجمع بين المفهومَيْن ؟ مشاكل حيويّة ومعقّدة كان كافّة الفرقاء المعنيّين مدعوّين الى حلّها في ما بينهم.

عندما عرض بيغن مشروع الحكم الذاتي على مجلس الوزراء وصفت غالبيّة أعضاء حزبه حيروت هذا المشروع بالعمل غير المقبول، لانه يمثل خيانة بيغن لمطالبة الشعب اليهودي بارض اسرائيل. من جهتي، أشرت الى الأخطار التي يتضمّنها هذا المشروع. فهو قد يصبح في نظر الفلسطينيين وعد بلفور وقد يؤدّي الى قيام دولة فلسطينيّة ثانية (إضافة الى الاردن) — احتمال لا يمكن لأيّ اسرائيلي مهتمّ بأمن بلاده ان يوافق عليه.

لقاء ذلك، قبلتُ بالمبادئ التي أوحت بهذا المشروع. فالسيطرة على عرب السامرة واليهوديّة وغزّة لم تستحوذ على اهتمامي يوماً. فأنا كنت مقتنعا بوجوب اختيارهم اسلوب العيش الذي يحلو لهم، في ظلّ تدخّل اسرائيلي مترو ومحدود قدر المستطاع. فما علينا القيام به يتمثل بتحديد متأنٍّ للأخطار التي نسمح لانفسنا أن نتعرّض لها، واختيار طريقة تعطيلها والثبات في مواقعنا مهما كان

نوع الضغوطات التي قد يمارسها علينا الرئيس كارتر. وقلتُ انه في وسعنا الذهاب بعيدا، شرط اتخاذ الاحتياطات اللازمة.

امّا هذه الاحتياطات فكانت جليّة في نظري. فقد عملت منذ دخولي الحكومة من أجل المحافظة على مراقبة النقاط الاستراتيجيّة والحيويّة، وتدارك امكانيّة انتقالها مستقبلا الى أيادٍ غريبة. فاستعنت بتبريرات كنت قد قدّمتها قبل بضع سنوات كي أوضّح استحالة وضع هذه المهمّة في عهدة الجيش، لا سيّما أنّ وحداته تتنقّل وفق سياسات مختلف الحكومات الوزارية: فهي اليوم هنا وغدا هناك. وقد علّمتنا خبرتنا التاريخيّة أن التأصّل في الأرض وحده قادر على تأمين حقوقنا. ففي اليهودية والسّامرة لا تعني المستعمرات مشاريع زراعيّة؛ فالأرض الجبليّة والصخريّة في هذه المناطق لا تلائم مثل هذه المشاريع. علينا إذاً بناء مجمّعات سكنيّة مدنيّة ومناطق صناعيّة.

لا بدّ إذا من انشاء هذه المجموعات حتى نضمن سيطرتنا على هذه الأرض. لكنّ وجودنا فيها لا يكفي، علينا أن نعيش فيها ونحرسها. فكيف السبيل الى حفز الناس على السكن فيها ؟ تلك كانت المشكلة. هل نناشد وطنيتهم ؟ ربّما، لكنّ القوميّة قيمةٌ تشهد عموما تراجعا في المجتمعات الغربيّة، واسرائيل لا تُستثنى من القاعدة. فقلت في نفسي إن هذا الحافز سيولد من مواقع العيش في هذه الأماكن، على شكل شعور طبيعي بالمسؤوليّة المتبادلة، مسؤولية حمايتها وتأمين العيش الرّغيد فيها.

لذا لا بدّ من العيش في هذه المرتفعات كأوّل تدبير احترازي. أمّا التدبير الثاني فيتناول مسؤوليّة اسرائيل الحصريّة في ضمان أمن هذه الأراضي الداخلي والخارجي. فخلال قرابة قرن كان الشعب اليهودي في عهد كل من الأتراك والانكليز والاردنيين والمصريين (في قطاع غزة) عرضة للارهاب المنطلق من هذه المناطق. وجاءت حرب الايام الستة لتضع حدّا لكل هذا. غير ان خطر الأعمال الإرهابيّة لم يتبدّد كليا وانّما خفّت حدّته. فقد ألقي القبض

على غالبيّة الارهابيين لأننا نستطيع الدخول الى كافّة الأماكن ساعة نشاء. فاذا أقدمنا على ترك هذه الأراضي عجزنا عن القبض عليهم. لذا علينا الاحتفاظ بحرية تنقّل مطلقة اذا ما أردنا ضمان أمننا الداخلي. أمّا في ما يتعلّق بالأمن الخارجي، فلا سبيل اليه إذا لم تُشغل القوّات الاسرائيليّة خطّ القمم المطلّة على المنطقة ابتداءً من الضفّة الغربيّة لنهر الأردن.

ويتفرّع التدبير الاحترازي الثالث من الثاني. فلقد أوضحت دائما ضرورة ابداء معارضة حيال منح جندي أردني أو رجل شرطة أو أيّ عضو من أعضاء الحكومة سلطةً قانونية في اليهودية والسامرة؛ وللأسباب عينها، من الضروري رفض السلطة القضائية المصرية في غزة. فارتسمت امارات الحيرة والاحراج على المصريين لما اظهرته من اصرار على هذه النقطة، فأبدوا من جهتهم تصلبا في الرأي وطالبوا أن يظلّوا على الأقلّ مخوّلين إبقاء شرطة وملاك اداري في غزة. ولكنني أفهمتهم اننا طالما ملتزمون ضمان أمننا الداخلي فلن يشكل وجود سلطة رسمية مصرية سوى مصدر توتر ونزاع. وقلت لهم: فلنفترض اننا تعرّضنا لهجوم ارهابي. عند ذلك سيفتش رجالنا المنطقة في حين سيجد ممثلو سلطتكم الرسميون أنفسهم مجبَرين على التدخّل، أمّا نحن فسنسعى بالطبع الى اقصائهم، ما يؤدي الى نزاعات يومية. ولا آمل أن أراكم تصفقون من وراء الحدود لما نقوم به. فاذا ظللتم هناك لن يتسبّب أيّ من الفريقين، على الأقلّ، بنزاعات يومية. المهم هو الا نفسد علنا، ألا وهو احلال السلام، بايجاد وضع من شأن الحوادث المتكرّرة فيه ان تؤزّم العلاقات القائمة بيننا ».

بفضل هذه التدابير الاحترازية الثلاثة : المستوطنات الاسرائيلية ومسؤولية اسرائيل عن الأمن الداخلي والخارجي وحظر دخول الشرطة أو رجال الحكومة الأردنيين سنتمكّن من قبول فترة انتقالية مدتها خمس سنوات يُمنح خلالها الحكم الذاتي لسكّان السامرة واليهودية وغزة. وعندما كان يستوقفني قرار من المفترض ان يبقى ثابتا، كنت أشير الى ان الاتفاق ليس وثيقة نكتفي

بتوقيعها فحسب. فالاتفاق غالبا ما يؤدي الى تطوّرات ودائما ما نأمل تحسينه. واذا كانت الظروف مؤاتية، وفي حال غياب اي عمل من اعمال العنف أو الارهاب التي قد تعكّر الهدوء المسيطر، سنجد خيرا في خفض عديدنا العسكري. وختمت كلامي قائلا : فلنطبّق إذا مشروع الحكم الذاتي ولندع العلاقات تنمو بين بلدينا. وفي استطاعة الفلسطينيين العرب العيش كما يحلو لهم، من دون تدخل فعلي من جهتنا. ولن نبني مستوطناتنا الاستراتيجية الا على اراضٍ حكومية تملكها الدولة، تفاديا لإزعاج أحد. أمّا المسائل التي تتطلّب مقاربة مشتركة، كالعادات مثلا او الضوابط البيطريّة، فسنتعاون مع السكان الفلسطينيين. فلننتظر تطوّرات الوضع. ففي ختام هذه الفترة الانتقالية سنحظى بنظرة أوضح عن المستقبل.

كانت صورة الحكم الذاتي الذي يمكن لاسرائيل القبول به واضحة جدا، الا أنني لم أحبّذ كثيرا إجماع مجلس الوزراء حول تحديد نهائي له. فخلال شهور، سعيت وراء بيغن لاحياء مناقشة في العمق حتى نحدّد مطالبنا تحديدا دقيقا وحتى لا نوقّع ما قد يتسم بالغموض، على الأقل في ما يتعلق بالفصول التي تعنينا.

لكنّ بيغن رفض هذه المناقشة. فربما كان يعتقد أن فرص تطبيق مشروع حكم ذاتي لم تكن مؤاتية. فالمهم هو في افساح المجال أمام السادات ليوقّع معاهدة السلام. كنت أتقبّل وجهة النظر هذه. ولكن علينا، في نظري، ان نمعن في تحليل كافة جوانب مشكلة الحكم الذاتي هذه. فدارت مناقشات ساخنة طوال أشهر، رحت اطالب خلالها بعقد جلسة نقاش في مجلس الوزراء؛ أما بيغن، فكان يصرّ على رفضه.

لا ازال اتذكّر زيارتي له في مقره الرسمي. كان بيغن آنذاك يعاني زكاما، فطلب مني المجيء والتحدّث اليه في غرفته. وفيما أنا جالس بالقرب منه لاحظت على البلاط حذاؤه الململمّع حديثا. كانت الفرشاة لا تزال على الصيوان. فهذا الرجل البسيط الذي لم يغيّر اسلوب عيشه، لقد حافظ على ادنى حركاته

المتواضعة، مع انه ترك بيته الوضيع ليقطن في هذا المقر الحكومي. فها هو مستلقٍ في سريره، ملقٍ برأسه على المخدة وممسك باتزان فنجان شاي فوق صدره، الى جانب قطعة من الخبز الأسمر وضعت في طبق صغير. بدا في منتهى الضعف حتى بدا لي كأنه على شفا الاستسلام. فطلبت مجدّداً إحياء مناقشة في مجلس الوزراء، مستعينا بحججي التي قدمتها سابقا. وركّزت هذه المرّة على الضرورة الملحة لهذا النقاش. لكنّه رفض مرّة جديدة. فاشتدّت وتيرة الكلام حتى انقلب فنجان الشاي على السرير في غمرة احتدام المناقشة. ربما بدا الوهن على بيغن، لكنه لم يتصرّف قط كرجل ضعيف، لا في ذلك اليوم وفي الأيام التي تلت. وهكذا، لم يشهد ابدا مجلس الوزراء هذا النقاش.

قبلت الحكومة أخيرا فكرة مشروع الحكم الذاتي. وحدّدت مفاوضات كمب دايفيد التدابير اللازمة لتحيله واقعا. غير ان شروط العمل التي وضعها الفرقاء في كمب دايفيد لم يكن فيها ما يشبه اتفاقا على المشاكل الأساسية. ولم نكن بعد قد أوضحنا لأنفسنا مداخل مشروع كمب دايفيد ومخارجه، لكنّ امرا واحدا كان جليّا : لقد فُسِّر مشروع الحكم الذاتي تفسيرين مختلفين : واحد عربي والثاني يهودي. فالعرب رأوا في الحكم الذاتي مرحلة ستؤدّي لا محال الى اقامة دولة فلسطينية ثانية. اما الحكم الذاتي في تفسير اليهود (تماما كما اشرنا اليه خلال المفاوضات) فكان ممنوحا بصراحة وبوجه خاص الى سكان اليهودية والسامرة وغزة. فنحن لم نقبل قط بمنح الأراضي سيادتها. وفي حين يعتبر العرب ان الأردن وفلسطينيي الضفة الغربية وغزة يجسّدون السلطة القانونية التابعة للحكومة المحلية، كنا نعتبر ان الادارة المدنية الاسرائيلية وحدها تمثّل قوّة القانون، حتى وان سحبت قوّاتها من هذه الأراضي.

برزت مشاكل اخرى. فالاتفاق كان ينصّ على قيام تعاون بين الأردن واسرائيل، يتخذ شكل « دوريات مشتركة » بغية المحافظة على الأمن في الحدود. كان يعني هذا البند، في نظر العرب، أن يقوم الفريقان معا بدوريّات في غرب نهر الاردن، في حين، فسّر الاسرائيليّون البند على الشكل التالي : في

استطاعة الدوريات الاردنيّة في شرق نهر الاردن ان تنسّق مع الدوريات الاسرائيلية في غرب النهر. لأنه يستحيل اعطاء موافقتنا على وجود اردنيين على الضفة الغربية. فهذه الشرطة أو (« الشرطة المحلية القوية »، على حدّ تعابير الاتفاق) يجب ان تتضمّن « عناصر أردنيّة »، ما يعني بالنسبة الينا ان هذه الشرطة ستتألف لا محالة من عرب الضفة الشرقية الذين هم اردنيون. فرجال شرطة حبرون (الخليل)، يجب ان ينتموا جميعاً الى حبرون، وفي شكيم عليهم ان يكونوا من المدينة عينها. ولكن هذا لا يعني أبداً السّماح لوحدات اردنية باجتياز النهر.

عملت جاهدا لإيضاح التفسيرين اليهودي والعربي، واصررت على قبول التفسير اليهودي فحسب. وإلاّ، سنتعرّض لخطر المجازفة بالتدابير الاحترازية التي كنت اعتبرها أساسية. غير ان بيغن ودايان ووايزمن (وهم الوفد الاسرائيلي في كمب دايفيد) رأوا الأمور من زاوية مختلفة، وقد اعتبروا ان تحقيق الاتفاق يستأهل ابقاء بعض النواحي معتمة. وهكذا بقي الغموض يكتنف هذه المشاكل.

أبرمت اتفاقات كمب دايفيد في ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ ثمّ صدّقها الكنيست. بعد ذلك بدأت المحادثات حول الحكم الذاتي للفلسطينيين ولكن تجلّى للعيان ان المصريين سيبدون حيال هذه النقطة اقلّ عجلة من أمرهم، خلافا لعملية اخلاء سيناء. فهم يريدون تسيير الأحداث على نحو نخال فيه انهم خلال اليوم الذي سيسترجعون فيه سيناء يكونون في خضمّ المحادثات القائمة حول الحكم الذاتي.

يعتبر المصريون انه من الضروري الحؤول دون توقف المحادثات قبل بلوغ هذه المرحلة. فهم لا يرغبون في اعطاء انطباع بأنهم فعّالون ومتحمّسون لتنفيذ فقرات الاتفاق العائدة عليهم بالفائدة، وفاترون في المقابل في ما يتعلق بمصالح الفلسطينيين. وبعد، فهم قادرون تماما على فهم ما ينطوي عليه وضع ما من مواقف غير مقبولة. وكان الاردن وفلسطينيو الضفة الغربية قد رزحوا تحت ضغط منظمة التحرير الفلسطينيّة وآثروا عدم الاشتراك في المفاوضات.

وكان المصريون يعرفون انهم لن يحصلوا على أي نتيجة ملموسة في حال التزم الفرقاء المعنيون مباشرة بهذا الاتفاق عدم التدخل. فالمعنيّون لن يقبلوا بتفسير الحكم الذاتي الذي سينجح المصريون في التفاوض حوله، واذ ذاك قد يصبح المصريون كبش المحرقة في هذه المسألة. وفي حال تظاهروا ببذل جهود دؤوبة للدفاع عن قضية الفلسطينيين فإنهم سيكبحون المفاوضات حتى لا يزيدوا من حدّة غضب العرب.

وهكذا مضى المصريون في المفاوضات من دون استعجال أو ابرام اتفاقات. مضوا فيها وقد ابدوا مهارة فائقة، متدبّرين أمورهم دائما حتى يخال مَن يتتبّع المفاوضات من الخارج انها تتقدّم مع انها تراوح مكانها، غير عابئة بالجلسات المتعاقبة.

لم نُبدِ بدورنا حماسة مفرطة، وقد أدركنا الأفخاخ التي نصبها اطار العمل وفق كمب دايفيد. وعلى رغم اعتدالنا، قبلنا مبدأ الحكم الذاتي للفلسطينيين وأبدينا استعدادا لحلّ المشاكل ثم تنفيذ المشروع. لكن المصريين أوجدوا دائما اسبابا متنوعة لكبح سير العمل : فامّا يرفضون مناقشتها في القدس، وإمّا يضعون جدول اعمال يتناول المشاكل الثانوية اكثر ممّا يتناول المشاكل الفعلية، وإمّا يطالبون بالتوقف للتشاور.

ولكن على رغم هذه المماطلة وجدتُ تلك المرحلة مثمرة. فبفضل هذه المفاوضات استطعنا مقابلة المصريين في انتظام والتحدث إليهم وتحسين معرفتنا بهم ومعرفتهم بنا. وللمرّة الأولى أقمت اتصالات جدية مع قادتهم. كان الفريقان يعلمان أن المفاوضات لن تسفر عنها أي نتائج، ولكنّهما مضيا فيها وكأن الأمور تسير بشكل طبيعي.

أما بعد اخلاء سيناء، فتوقفت المفاوضات فعليا وقد نُحِّيَتْ مشاكل الأراضي الى غياهب النسيان حيث لا تزال تنتظر حلا لها.

وزير للدفاع

في صيف ١٩٨١ استحوذت سيناء والمفاوضات القائمة حول الحكم الذاتي للفلسطينيين على اهتمام شامل. ولكن لم تغب سائر المشاكل الوطنية عن البال. فطوال سنوات كثيرة رسمت اسرائيل على أصعدة مختلفة استراتيجية عرفت بـ « استراتيجية محيط اسرائيل » وارتكزت على تنمية العلاقات مع الدول المتاخمة للعالم العربي. وفي اطار هذه السياسة قدمت اسرائيل الى ايران، في عهد الشاه، كما قدمت الى مختلف الدول الافريقية، مساعدة في ميادين شتّى : ابتداءً من الزراعة والمساعدة الانسانية حتى التعاون العسكري، بما في ذلك المخابرات. وفي وزارة الزراعة، شعرت أنني معنيّ، الى حدّ معيّن، بهذه السياسة التي لاقت ترجمتها، على صعيدي، في تشجيع مشاريع الإعداد والمساعدة الميدانية. ولكن منذ تعييني على رأس وزارة الدفاع لم أعالج سوى المشاكل المتعلقة مباشرة باستراتيجيّتنا.

تمثّل هدفي الأوّل بتوسيع نطاق التعاون الاستراتيجي بين اسرائيل والولايات المتحدة حتى أقصى حدود. فالمشاكل التي نشأت عن الارهاب الدولي وتغلغل الاتحاد السوفياتي المستمرّ في الشرق الأوسط اتسمت في نظر البلدين بأهمية حيوية. ولا يمكننا إلا أن نتمنّى توحيد الموارد اللازمة لمواجهة هذه المشاكل. كنت أرى أن التعاون الاسرائيلي ــ الأميركي لا يسعه الا ان يخدم مصالح الفريقين على مستوى إقليمي أشمل بكثير، لا بل على الصعيد العالمي. فاسرائيل

تتمتّع بمهارة تقنيّة وبوفرة الخبراء الذين يضجُّون حماسة وهمّة. فمن السهل نسبيًا على بلدٍ صغير، لا يتغذّى من مطامح هيمنة عالمية على غرار الدول العظمى، أن يمنح مساعدته الى الدول السريعة العطب سياسيا والتي قد تعني لها أي مساعدة أميركية مباشرة التزاما سياسيا لا يمكن القبول به. غير اننا لسنا في مرتبة تخوّلنا تغطية تكاليف مثل هذه المساعدة تمنحها الى تلك البلدان التي غالبا ما تكون عرضة للتقلب ــ هنا يأتي دور الولايات المتحدة. فقيام تعاون اسرائيلي ــ اميركي قد يكون مفيدا، خصوصا في الدول التي تتمتّع بأهمية استراتيجية. فهذه « الخانات الفارغة » على لوحة العالم الجغرافية ــ السياسية محكوم عليها بالخضوع لسيطرة أحد المعسكرين عاجلا أم آجلا.

وكان قد سبق لي أن أثرتُ هذه الأفكار خلال جولة قمت بها في أفريقيا، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١. هدفت هذه الرحلة أولا الى دراسة العلاقات الثنائية القائمة بين اسرائيل وعدد من البلدان الأفريقية. ولكن خلال ذلك الشهر استُدعيت الى واشنطن لمناقشة الجوانب الاستراتيجية لهذه الرحلة في افريقيا، آملا أن أوقع في نهاية المطاف مذكرة تعاون استراتيجي كان قد بدأ المفاوضون الاسرائيليون والأميركيون العمل له منذ بعض الوقت.

تناولت المرحلة الأولى من رحلتي الغابون، الواقعة على الساحل الغربي من القارة السوداء. فأقمت سلسلة أحاديث مع رئيس البلاد، ألبير بونغو، بغية استئناف العلاقات الدبلوماسيّة بين بلدينا بعد انقطاعها خلال حرب الغفران إثر الضغط العربي. وتطرّقنا الى مسائل التصدير والمساعدة الاسرائيلية، وفي ختام مفاوضات مضنية، أبرم اتفاق تعاون بين اسرائيل والغابون ممهّدا الطريق امام استئناف شامل للعلاقات الدبلوماسية.

من الغابون تابعنا طريقنا في اتجاه جمهورية افريقية الوسطى للقاء القائد اندريه كولينغبا الذي استولى على الحكم بعد اطاحة الامبراطور بوكاسا. في مطار بانغي استقبلَنا أحد الوزراء والقائد الاحتياطي الاسرائيلي صموئيل غونن. وكان هذا الأخير قد جاء الى هذا البلد بحثا عن الالماس، بعد المأساة الشخصية

التي عاشها اثر حرب الغفران. لم تكن المرّة الأولى التي ألتقي فيها بغونن منذ نهاية الحرب. ولكن هذه المرّة صعقت حين رأيت أسلوب عيشه هنا. فقد دعى بعض أعضاء الوفد لزيارة « مسكنه » الذي كان عبارة عن كوخ حقير، قوام أثاثه سرير، لا يزيّن جدرانه سوى خريطة تمثّل جمهورية أفريقيا الوسطى، وقد وضع على الأماكن الغنيّة بالالماس علامة دائرة. كم هو مؤلم أن ترى قائدا سابقا في الجيش الاسرائيلي يعيش في وحدة تامة وفي تجرّد يحاكي تجرّده هذا. فبعد أن كان بطلا من أبطال حرب الغفران جعلت منه هذه الحرب ضحيّة، ليست بالبريئة كليا ولكنها تبقى مع ذلك ضحية.

تنطوي جمهورية افريقية الوسطى على تناقضات جليّة : فهي تتمتّع من جهة بطبيعة غنيّة مخضوضرة، وبأرضٍ فائقة الخصوبة وبمياه وفيرة، ولكن من جهة أخرى، يعيش شعبها في فقر مدقع، مقاوما حالة جوع مستمرّة. وفيما أنا أجول في شوارع بانغي رأيت أطفالا يصطادون جرادا يعلّقونها في خيطان حديديّة، الى ان يجمعوا منها كمية تكفي لتشكّل وجبة غداء. وفي خضمّ هذا الفقر ينتصب « القصر الملكي » وقد بناه بوكاسا الذي أعلن نفسه امبراطورا أبديا.

فكرت وأنا أراقب هذا المبنى الضخم المهدّم في مطبخه الشهير وساءلت نفسي: ترى هل سيسمحون لنا بزيارته ؟ كان كابوساً طاغية مختلا، شاعت حوله قصص مريعة نقلتها الصحافة الفرنسيّة، ومن بينها ما ينسب إليه صفة آكل لحوم البشر. وكانت الصحف تنشر أحداثا تقشعرّ لها الأبدان جرت تفاصيلها في هذا المطبخ.

كان الجنرال كولينغبا، ذلك الرجل الذكي المنفتح والمتواضع الى حدّ الافراط، نقيض بوكاسا. وعندما عرض وضع بلاده الاستراتيجي ركّز على الدخول السوفياتي الى المنطقة، لا سيّما عبر اجتياح ليبيا للبلد الجار في الشمال، التشاد. تحدّثنا معا تحت ضوء خافت راح يتحوّل تدريجا الى ظلام عندما أوضح

لي وضع بلاده الميئوس منه. فقال لي ان ليبيا « تطرق على الباب » لتقدّم لنا عروضا مغرية. وأعرب عن استعداده لصد هذه العروض. ولكن كان يواجه مشاكل مستعصية. ففي تشرين الثاني (نوفمبر)، لم يكن يملك ما يدفعه راتباً للعسكريين ولا معاشاً لموظفي الحكومة في نهاية السنة. فإذا لم تُمَدَّ اليه يد المساعدة، سيجبر على الخضوع للقذافي.

لمّا سألته ما هي قيمة المبلغ الذي هو في امسّ الحاجة اليه، أجابني كولينغبا : « ثمانية ملايين دولار ». فقلت في نفسي، إن أدنى قرار تتخذه الحكومة الاسرائيلية يتمخّض عن عشرات ملايين الدولارات؛ وهنا لا يدري هذا الرجل الجالس الى جانبي في الظلام اين يجد ثمانية ملايين دولار تساعده على ابعاد ليبيا عن بلاده !

وبألفاظ بسيطة وصف كولينغبا في ما بعد الوضع المأسوي الذي خلّفه وراءه بوكاسا : فالخراب والفقر والفساد والتسرّي يطالعونك في كلّ مكان. ويضيف كولينغبا : « أنا أبذل ما في وسعي لتحسين الأوضاع وتخليص البلاد من الورطة التي تتخبّط فيها ... » فرحت أسائل نفسي : ترى ما هو السبيل لمساعدته ؟

في زايير، تحدّثت مع رئيس البلاد موبوتو سيسي سيكو، الذي تمكن من المحافظة على الوحدة السياسية في بلده الشاسع، عن وجود شعب مؤلف من مئتي إثنية مختلفة. في اليوم الأوّل تناولنا طعام الغداء في يخته الذي كان ينساب في مياه نهر زايير. ومن نافذة غرفة الطعام كنّا نتبيّن المروحية الرئاسية وهي في المرفأ. في الداخل، كان يغطي الطاولة قدرٌ نحاسية تطفح منها مآكل عطرة. كان موبوتو رجلا وسيما جليل القامة، يعتمر قبّعة عسكرية على طريقة نهرو ويمسك بيده خيزرانة منقوشة. أشار موبوتو الى أوعية وضعت في معزلٍ عن سائر الأوعية ثم قال : « هناك مخصّص لليهود »، وهكذا أعلَمنا أن تلك الآنية لا تحتوي على اي طعام تمنع شريعة موسى اليهود من أكله — ملاحظة أوليتها تقديرا بالغا.

كان وقار موبوتو ونبل حركاته يتركان أثرا في النّفوس. ولكن سرعان ما أدركت أنني أستطيع التحدّث اليه بصراحة حول مشاكل كثيرة. وأيقنت أنني أتعامل مع قائد بكل معنى الكلمة. ودارت أحاديثنا حول أشكال المساعدة الزراعية التي قد تتمكّن اسرائيل من منحها لزايير، كما أبدى رغبة في الحصول على مساعدة عسكرية. فسألته قائلا : « متى تريد أن تصلك البعثة الاسرائيلية العسكرية ؟ » فأجابني : « في غضون ثلاثة أسابيع ». فقلت له إن البعثة ستصل الى المطار بعد واحد وعشرين يوما بالتحديد. بعد ذلك جرت محادثاتنا في جوّ ودي جداً حتّى أن موبوتو طلب مني مرافقته الى الصيد في مزرعته الخاصة كعربون محبة. ورأيت في هذه البادرة دليل صداقة من شأنها إفهام الجميع أنّ العلاقات القائمة بين بلديْنا تسجّل بداية مرحلة جديدة.

جرت المحادثات مع رئيس زايير في جوّ اتّسم بالرقّة وخلا من الأذية؛ كنّا بعيدين من المساومة المريرة التي تميّز بها بونغو، رئيس الغابون. وسرعان ما اتفقنا على الخطوط العريضة للتعاون العتيد الذي سيقوم بين بلدينا. وبعد فترةٍ وجيزة اتخذ موبوتو التدابير اللازمة لمعاودة العلاقات الدبلوماسيّة التي انقطعت سنة ١٩٧٣. كانت زايير، الواقعة في قلب القارة الأفريقية والغنية بمواردها الطبيعية، أوّل بلد افريقي يستأنف علاقاته الطبيعية مع اسرائيل.

من زايير توجهت انا وليلي الى اتحاد جنوب افريقيا. ومن هناك ذهبنا الى حدود انغولا. كان اتحاد جنوب افريقيا آنذاك يدعم حربا متواصلة ضارية ضدّ ثوار يخضعون لقيادة الكوبيين، تسلّلوا عبر الحدود الشمالية. وحتى تتمكّن طائرتنا من الهبوط في هذه المنطقة، حلّقنا على ارتفاع شاهق، فيما راحت مروحيّات تستكشف الأرض، مؤلفة دائرة أحاطت بنا. وعندما اعطانا الطيارون اشارة الهبوط، انحدرت طائرتنا في اتجاه مهبط الطائرات عبر سلسلة حلقات، بغية تفادي خطر صاروخ ارض — جو سام ٧ ستريلاس سوفياتي الصنع، وطّدت معرفتي به أيّام حرب قناة السويس.

كان في انتظارنا على الأرض مشاهد ألفناها : فالجنود وأسرهم يعيشون

في خطر مستمر على طول هذه الحدود. والأولاد يذهبون الى مدارسهم في موكب وضع تحت حماية مزنجرات ومركبات مصفّحة رفعت عاليا على عجلات، هي أقل تأثرا بالألغام. وتنقلّتُ من وحدة الى أخرى، وعرض أمامي الضباط في اختصار الحوادث الجارية، ما سمح لي بإدراك حقيقة الوضع القائم. كان من المستحيل إقامة مقارنة بين اسرائيل واتحاد جنوب افريقيا، ولا أعتقد بوجود يهودي واحد يستطيع تأييد سياسة التمييز العنصري. ولكن من يرى هؤلاء الجنود وهم يُحكمون إغلاق الحدود في وجه الغارات الارهابية التي تشنّها أنغولا، لا يسعه تجاهل تصلبهم وعزمهم. وعلى رغم التباين الشاسع بين ظروف كل من البلدين، أحسست أن الحياة على حدود انغولا لا تختلف كثيراً عن الحياة السائدة في بعض مناطقنا الحدودية.

ولم يدُمِ الانفراج الذي انتابني لدى عودتي الى اسرائيل بعد هذه الرحلة الطويلة سوى فترة قصيرة : فقد تعيّن علي الذهاب الى الولايات المتحدة، بغية ابرام اتفاق التعاون الاستراتيجي الذي كنّا قد وضعناه في شهر أيلول (سبتمبر). ولكن كان على مجلس الوزراء ان يصدّقه أولا. وشاء سوء الطالع ان كسر بيغن رجله قبل انعقاد مجلس الوزراء بقليل، فدخل مستشفى حداثا في القدس طلباً للمعالجة. فتمّ استدعاء الوزراء الى غرفة بيغن، بما أن تأجيل التوقيع كان أمرا غير وارد. وترأس بيغن الاجتماع وقد تمكّن منه التعب، في حين اصطف الوزراء حول سريره في شكل نصف دائرة. وراح بيغن، تحت تأثير الأدوية أو حتّى الصدمة التي اعترته اثر الاصابة، ينام بين الفينة والأخرى لدقائق معدودة، فتخلّل النقاش انقطاعاتٌ محرجة. وفيما كان الوزراء يضربون الأرض بأرجلهم غاضبين أو يجلسون منتظرين، كنت صريع هاجس تفويت الطائرة.

عندما تمّت أخيرا الموافقة على الاتفاق، اخذت طائرة مروحية أقلّتني الى مطار بن غوريون. ولكن الأوان كان قد فات : فالطائرة أقلعت منذ بعض الوقت. فذهبت الى باريس على متن طائرة « وستويند » صغيرة تنتمي الى

الصناعة الجوية الاسرائيلية، أقلّتني في ما بعد الى نيويورك. ومن هناك، تابعت طريقي الى واشنطن حيث كان ينتظرني استقبال رسمي.

عرض بيغن فكرة مذكرة تعاون استراتيجي لأوّل مرّة على الرئيس رونالد ريغن، خلال زيارته الرسمية للولايات المتحدة الأميركية في أيلول (سبتمبر) ١٩٨١. وبعد موافقة الرئيس الأميركي المبدئية على الفكرة، بدأ فريقان من الخبراء، اسرائيليين وأميركيين، مفاوضات دامت ثلاثة أشهر من الأعمال أفضت في نهايتها الى وضع إتفاق التعاون الاستراتيجي.

كان هدف زيارتي الرئيسي توقيع المعاهدة، ولكني استفدت منها لمناقشة مشاكل أخرى ذات مصلحة مشتركة، فكانت لي لقاءات مع وزير الدولة الأميركي الكسندر هيغ، ووزير الدفاع كاسبار واينبرغر، ومدير وكالة الاستخبارات الأميركية، ويليام كايزي. نقلت الى مضيفيّ انطباعات رحلتي في افريقيا، بما فيها مشاكل جمهورية افريقية الوسطى. فطلبت « سدّ الثغرات الفارغة » في هذه المنطقة، مشيرا الى المكاسب السياسية التي سنحرزها في حال قيام تعاون اسرائيلي — اميركي في القارة السوداء.

تطرّقنا ايضا في محادثاتنا الى الأخطار التي واجهت اسرائيل في الشرق الأوسط، أخطار تهدّد الولايات المتحدة وسائر دول العالم الحرّ، بمّا أنّها على صلة بالارهاب الدولي وسياسة الإتحاد السوفياتي التوسعيّة. ولأوّل مرّة تناولت مسألة الحرب بين العراق وايران ومشكلة الخليج الفارسي. وبالطبع، ما من رجل عاقل يقبل تعصب آية الله الخميني وإيديولوجيته، لكنّ هذا لا يجرّد ايران من أهميتها كدولة رئيسيّة في المنطقة.

وبعد الأخذ في عين الاعتبار المصالح البعيدة المدى مع إيران اقترحت إقامة اتصالات سرية مع هذه البلاد، ولا سيّما مع قادتها العسكريين. فالحرب حتى الرمق الأخير التي يدعو اليها ويقودها أتباع آية الله لن تؤدي إلاّ الى

اضطرابات داخلية، أمّا لدى انتهاء هذه الحرب فيوجد احتمال كبير بأن يظهر حكم مغاير تماما في طهران.

بعد كلامي هذا، حذّرت المستمعين من قيام وضع يسمح للاتحاد السوفياتي بالدخول الى الخليج الفارسي. فما يجب أن نخشاه لا يتمثّل باجتياح سوفياتي، لأن الخطر يكمن في موضعٍ آخر. أوضحت هذا وأنا أعيد الى الأذهان معاهدة موسكو وطهران (المبرمة في ١٩٢٦ مع الشاه رضا بهلوي، والد الشاه المخلوع)، التي تجيز للاتحاد السوفياتي التدخّل في ايران في حال قيام وضعٍ يشكل عليه خطرا. كنّا في سنة ١٩٨١، أمّا القوّات الايرانية في ايران فكانت في موقفٍ هجومي. في حين حشد السوفيات خمسين فرقة في القفقاس وافغانستان، على مقربة من الحدود الإيرانية. فأشرت إلى أنه في حال استمرّ العراق في اجتياحه، وفي حال هدّد فعليا ايران، تستطيع بضع فرق سوفياتية اجتياز الحدود، إمّا تلبية لدعوة طهران وإمّا بموجب الاتفاقية المنوّه عنها آنفا.

وبغية توضيح أهداف موسكو على المدى البعيد في هذه المنطقة، أحضرت مقتطفات من نصوص ستالين الذي تناول فيها هذه المسألة العائدة الى سنة ١٩٢١، وأخرى من خطاب بريجنيف حول الموضوع ذاته، والذي ألقاه بعد اثنين وخمسين عاما أي في سنة ١٩٧٧ في موغاديشو، عاصمة الصومال. وكان الرئيس السوفياتي قد عرض « الاستراتيجية الكبرى » التي ستجعل « الدول الامبريالية » تجثو على ركبتيها، بعد تأمين « الرقابة على الكنزين العظيمين اللذين يعيش الغرب رهنا لهما : نفط الخليج الفارسي والموارد المعدنية في جنوب افريقية ووسطها » وبعد ان بسطت خرائطي مشيرا الى التوسع السوفياتي، اعطيت شرحا مطوّلا عن دخول الاتحاد السوفياتي المتواصل الى افريقيا، الذي بدأ سنة ١٩٥٥ اثر ظهور الارهاب الفلسطيني ضد اسرائيل، مفسحا المجال أمام المستمعين مجال تتبّع اتساع رقعة هذا التدخل منذ تلك الفترة حتى سنة ١٩٧١ وانتهاء بالعام الجاري. وهيأت خرائط أخرى تشير الى المواقع

الاستراتيجية في الشرق الأوسط وافريقيا وتلك التي سبق للاتحاد السوفياتي أن سيطر عليها أو وُضِعت تحت تأثيره المباشر. كنت أتحدّث عن عواقب هذه الظاهرة على اسرائيل، وعلى المدى الطويل على الولايات المتحدة. فهذه لا تستورد من بلدان الخليج الفارسي سوى كمية ضئيلة من حاجاتها من النفط، على نقيض اليابان وأوروبا. واذا ما تمكّنت موسكو في نهاية المطاف أن تؤمن لنفسها مكانة مرموقة في منطقة الخليج، فإن الولايات المتحدة سيكون لها دائما الخيار في التخلي عن المنطقة وإهمالها. في مثل تلك الحالة، ستفسح الولايات المتحدة المجال أمام الاتحاد السوفياتي الذي سيهرع لاحتلال مركزا له وفرض رقابته على تلك الأوردة الحيوية بالنسبة الى اوروبا واليابان. ومن الصعب التقليل من قدر خطورة مثل هذا السيناريو وما قد ينجم عنه من عواقب على المدى البعيد. وذكّرتُ، في حال دعت الحاجة الى ذلك، انه ليس في الاتحاد السوفياتي انتخابات كل أربع سنوات، انتخابات من شأن نتائجها أن تحدث تغييرات في السياسة الخارجية المتّبعة. فعندما يحدّد الكرملن اهدافه على المدى البعيد، فهو لا يعدل عنها.

قام المستمعون، من جهتهم، بتحليل قدرة الولايات المتحدة على الردّ في حال شنّ عمل عسكري سوفياتي في المنطقة. فحسبوا الوقت الذي سيستغرقه مثل هذا الردّ ابتداءً من المحيط الهندي، وأضافوا أنهم ينوون تأمين وجود أميركي في مكان يكون أقرب الى المنطقة المعنيّة، كأحد المرافئ المصرية على البحر الأحمر. عند ذلك أشرت الى إيجابيّة اللجوء الى المنشآت والأجهزة الاسرائيلية. فأوضحت أننا في حاجة الى ثمانٍ وأربعين ساعة لنقل البرتقال والبطيخ من اليهودية والسامرة وغزّة الى المملكة العربية السعودية. واذا ما استلزم الأمر نستطيع إرسال دبابات عن طريق البرّ لمساعدة السعوديين في المهلة نفسها. والحال أن العامل الحاسم في كل مواجهة مع السوفيات في الخليج الفارسي لا يتمثّل بأهمية العديد المشارك فيها، وانّما بعامل الوقت. في ظلّ هذا الوضع، على الفريق المعادي أن يقرّر بسرعة ما اذا كان له

مصلحة في أن يكون أوّل من يُشرك قوّاتٍ في هذه الجولة من البوكر. وهذه المعضلة هي التي تقرر نتيجة الصراع. وبصرف النظر عن توازن القوى، لن يشنّ السوفيات أي هجوم ضد الأميركيين ولا حتى ضد فرقة من فرقهم وسط منطقة تعجّ بالأخطار. فهم لن يجازفوا هذه المجازفة. وختمت قولي بأن تضافر هذه الأسباب يجعل من اسرائيل الحليف الاستراتيجي الأمثل.

اضافة الى ذلك، قمت بتحليل الوضع المتدهور السائد في لبنان، حيث تمارس قوّات الاحتلال السورية (بموافقة الولايات المتحدة واسرائيل الضمنية منذ سنة ١٩٧٦) ضغوطات متواصلة على الميليشيات التي تدافع عن المناطق المسيحية الرئيسية في شمال بيروت وغربها. وحدها اسرائيل مدّت يد العون للمجتمع المسيحي في لبنان، الذي حاصره ومزّقه اعداؤه من الداخل والخارج، فيما وقف سائر العالم الحرّ يشهد هذه المأساة مكتّف الأيدي.

شكّل اتفاق التعاون الاستراتيجي بالنسبة الينا أهمية بالغة — في حد ذاته. فهذا الاتفاق، وإن لم ينصّ على قيام عمليات اسرائيلية — أميركية مشتركة كتلك التي طالبتُ بها هيغ وواينبرغر، يعترف صراحة بالخطر الذي سيخيّم في حال قيام تدخل عسكري بإيعاز من الاتحاد السوفياتي، كما يضمن الوسائل التي يتطلبها تعاون عسكري أمتن بين البلدين على صعيدي العمليات الحربية والاستخبارات. ويشترط هذا الاتفاق « اقامة تعاون استراتيجي بين الولايات المتحدة واسرائيل بغية تدارك الاخطار التي تهدّد السلام والأمن في المنطقة الرازحة تحت وطأة الاتحاد السوفياتي أو وطأة قوّات عسكرية أُخضعت لمراقبة الاتحاد السوفياتي الذي أدخلها الى المنطقة ».

من وجهة نظري، تكمن ايجابية هذا الاتفاق الأولى والمهمّة في انّه كان يوطّد علاقات الامن الثنائية ويعترف رسميا بالأهمية المتبادلة التي سيتسم بها قيام اتفاق بين البلدين. فقد كان لبعض الفاظ الوثيقة وزنها الخاص المميّز. فقد نصّ الاتفاق على وجود معدّات عسكرية أميركية في اسرائيل من شأنها

تعزيز شعورنا بالأمن في حالات الخطر الأقصى، كما وجّه الاتفاق دعوة الى التعاون في ميداني الأبحاث والتطوّر العسكري، وهو ايجابيّة اخرى من ايجابيّات الوثيقة. من جهتنا، اخذنا على عاتقنا اقامة تعاون عسكري مع الولايات المتحدّة في ايّام الأزمات، ووضع المنشآت والأجهزة الاسرائيلية في تصرّف القوّات الأميركية إذا ما اقتضت الضرورة خلال النزاعات الاقليمية.

نويت البقاء في واشنطن يوما أو يومين بعد توقيع الاتفاق لأواصل محادثاتي في وزارة الشؤون الخارجيّة والبنتاغون. لكنّي علمت ان حزب العمل حجب الثقة عن الحكومة يوم التوقيع على الاتفاق في الكنيست. فاستعجلت العودة الى اسرائيل لأناضل في سبيل المذكرة.

كانت لي محادثات سرية مع رئيس السودان، جعفر النميري، للاطّلاع على مشاكل القارّة السوداء الاستراتيجية، يدفعني الى ذلك رغبتي في بسط « سياسة محيط اسرائيل » التقليدية على افريقيا. (نظّم هذا اللقاء يعقوب نمرودي، وهو صديق من اصدقائي القدامى، كان قد خدم لسنوات طوال في دوائر الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية، ليصبح في ما بعد رجل أعمال على صعيد دولي. تمثّل حلم نمرودي باستخدام التعاون الاقتصادي لاستحداث مجتمع مصالح بين اسرائيل والبلدان العربيّة، معززا بذلك السلام). التقيت النميري لأوّل مرّة في أيلول (سبتمبر) ١٩٨١، بعيد اغتيال السادات على يد مجموعة من المسلمين المتزمّتين. فجاء القادة والرؤساء العرب الى القاهرة ليشيّعوا هذا السياسي العظيم الى مثواه الأخير. وكان يمثل اسرائيل وفدٌ ضخم، تألف من رئيس الوزراء مناحيم بيغن ووزراء الحكومة المصغّرة.

مشت الجموع وراء موكب المأتم بأناة يلفّها الحزن. واستشعر الاسرائيليون اكثر من غيرهم بطء الموكب. وبما ان مراسم الدفن تمت يوم سبت، وتحاشيا لتدنيسه، اجتزنا سيرا على الأقدام مسافة ثلاثة أو أربعة كيلومترات كانت تفصل المساكن التي وضعت تحت تصرّفنا عن المكان الذي سينطلق منه الموكب.

وما ان انطلق الموكب حتى اختار كلٌّ المكان الذي يعجبه ثمّ ما لبثت الوفود أن اختلطت وفق الميول والمصالح، مطلقة العنان لأحاديث انفرادية كانت تبدو غريبةً في ظروف مغايرة. من جهتي، وجدتُني من جديد بالقرب من النميري، ذلك السوداني ذي السيماء المتجهمة للوهلة الأولى بسبب التشاطيب القبلية التي تضفي على وجهه امارات الشراسة. فرحت أسائل نفسي، بما انني كنت مدعوّا للقائه خلال جولتي في افريقيا، ترى اي نوعٍ من الرجال يتلظى خلف هذا الوجه.

حطّت طائرتي أولا في كينيا، حيث عقدت اوّل اجتماع لي مع رئيس البلاد دانيال اراب مُوْوِي. وعلى غرار سائر دول افريقيا السوداء، قطعت كينيا علاقاتها الرسمية مع اسرائيل سنة ١٩٧٣. ولكنّها حافظت على اتصالها بنا، خلافا لهذه الدول.

بعد ان ناقشت مع الرئيس مووي مختلف المواضيع التي تنمّ عن مصلحة مشتركة واصلت رحلتي، فكانت السودان محطّتي التالية. وخلال حديثٍ لي مع الرئيس السوداني، شارك فيه كل من يعقوب نمرودي وعدنان خاشقجي (وهو رجل اعمال سعودي كان قد نظّم هذا اللقاء بمساعدة نمرودي)، اعترتني الدهشة عندما وجدت النميري طيّب المعشر شديد التهذيب وبرهن الرئيس السوداني عن معرفة وطيدة بمشاكل القارّة الافريقية، كما كان يتمتّع بنظرةٍ ثاقبة اليها.

باشرنا العمل بجولة أفق واسعة النطاق تناولت الوضع السياسي في افريقيا، فقدّم الرئيس السوداني عرضاً شاملاً عن الوضع السائد حاليا في بلاده وعلى الحدود.

يحدّ السودان من الشرق أثيوبيا، حيث يخوض الحكم الماركسي، الموالي للاتحاد السوفياتي، حربا ضروسا ضدّ الثوار الاريترين. ومن الغرب، يحدّ السودان

التشاد الذي يشهد اضطرابات خطرة، في حين راح الرئيس التشادي حسين حبري يقاوم ليبيا التي يسلّحها الاتحاد السوفياتي.

كان اقتناع النميري يحاكي اقتناعي في أن العمل التخريبي الذي يقوم به الليبيّون بغية زعزعة حكومة التشاد والسيطرة على هذا البلد لا يشكل سوى مرحلة من استراتيجية موسكو الرامية الى بسط هيمنة الاتحاد السوفياتي على افريقيا الوسطى، من ليبيا حتى التشاد ومن جمهورية أفريقيا الوسطى (التي نجح الليبيّون في الدخول اليها قبل بضعة أشهر) حتى الكونغو — برازافيل الواقع تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي. وأشار النميري، الذي أعرب عن قلقه البالغ نتيجة هذه الحركة التخريبية الواسعة النطاق، الى قدرات الجيش السوداني في مواجهة هذه التهديدات. وكنا نحن، من جهتنا، نتتبّع عن كثب النشاط الليبي. كانت ليبيا القذافي اكثر الدول العربيّة تشدّدا في كرهها لاسرائيل. وأصبح القذافي، بفضل ضخامة رساميله وروابطه الوثيقة بموسكو، الدعم الأساسي الذي يرتكز عليه الارهاب الدولي، موفرا للارهابيين تدريبا مكثفا، وموزدا اياهم اسلحة، ومانحا اياهم مساعدة لوجستيّة. وكانت معارضتنا المشتركة لـ« العقيد الفائز » سببا من الأسباب الكامنة وراء لقائي بالنميري.

وتضمّن جدول اعمالنا نقطة اخرى من اقتراح مضيفنا الخاشقجي. كان الخاشقجي على اتصال بابن شاه ايران، المنفي، آنذاك في المغرب. وكان الشاب رضا بهلوي قد وضع، مع عددٍ كبير من القادة العسكريين الايرانيين، مشروعا يهدف الى تحرير بلاده. بدأ فريقه تنفيذ المراحل الأولى من تجنيد القوّات الايرانية التي ستشكل الفتيل الذي سيضرم انتفاضة الشعب في وجه حكم آية الله الخميني. ويقضي المشروع الأساسي بتدريب تلك القوّات في السودان التي تبعد عن ايران مسافة تكفي لتبدّد المخاوف كلّها من قيام عملية ضدّ نشاط ليس من الصعب على الخميني أن يحدّد غرضه. ويفترض هذا المشروع انّ على المملكة العربية السعودية تمويل هذه القوات وانّ على اسرائيل تجهيزها وتزويدها بالسلاح. وبعد الاصغاء الى تفاصيل اقتراح الخاشقجي وايضاح

بعض المسائل التي يتطرّق اليها هذا المشروع، تقرّر معاودة الاجتماع في تمّوز (يوليو) في الاسكندرية لاستئناف النقاش. غير ان هذا اللقاء لم يتمّ قط، فاسرائيل في تلك الفترة كانت منغمسة حتى أذنيها في لبنان.

في ذلك اليوم دارت مناقشاتنا ايضا حول موضوع آخر كان يتعلق بوجه خاص بالسودان واسرائيل. تتبّعت حكومتنا هذا الموضوع بانتباه مؤلم منذ أربع سنوات تقريباً، أمّا في نظري، فكان أهم المواضيع المُعالَجة. فمن بين عشرات آلاف الهاربين من جبال اثيوبيا الى شرق السودان كان هناك سيل مستمر من الفلاشا أو اليهود الاثيوبيين. وكان الفالاشا مضطهدين منفيّين حتى بين هؤلاء البؤساء المشرّدين الذي يموتون جوعا، الهاربين من الحرب الأهلية التي تشهدها أثيوبيا والمجاعة التي تعانيها. ولكن خلافا لسائر الهاربين كان في وسع الفالاشا أن يحلموا بمستقبل أكثر رأفة، آملين اولا الخروج من المعسكرات السودانية المريعة. فمنذ ١٩٧٧ ونحن نسهّل لهم المرور سرّا وبأعداد ضئيلة الى اسرائيل. واتسمت هذه العملية بالدقة والخطورة، اذا ما اخذنا في عين الاعتبار العداوة القصوى التي تكنّها الحكومة الاثيوبية لاسرائيل، وروابط السودان الاسلامية والعربية.

وعندما تطرقت الى الموضوع مع النميري طلبت منه صراحةً القيام باللازم حتى يَلقى اليهود الهاربون معاملة انسانية. فتساءلت هل هو مستعدّ ليسمح لهم بالرحيل جوّاً من الخرطوم ؟ كانت المرّة الأولى التي يُفتح فيها المجال أمام اسرائيل لطرح المشكلة على هذا الصعيد. ولم أكوِّن اي فكرة عن أجابة النميري. فواقع قيام عملية سرية غاية في التعقيد لنقل عدد هائل من هؤلاء الفالاشا الى اسرائيل في الساعة عينها، كان يعزّز مخاوفي اكثر فأكثر. فالتدابير كلها والتنظيمات المرتبطة بهذه العملية تحظّر تغيير جدول اعمالها. وبتعبير آخر، يتواصَل سير العملية على رغم انعقاد هذا اللقاء ومخاطر حلول طارئ قد يضعنا في موقفٍ حرج جدا.

اخذت على نفسي تأمين هذا الخروج من أثيوبيا بعد تعييني على رأس

وزارة الزراعة سنة ١٩٧٧. في تلك الفترة قام بزيارتي فريق من اليهود الاثيوبيين الموجودين في اسرائيل، التماساً لمساعدتي في تأسيس موشاف لهم. ومنذ تلك الزيارة وأنا أبدي اهتماما بهذا المجتمع اليهودي المرتبط باليهودية منذ آلاف السنين.

وكان قد سبق لعددٍ يسير من اليهود الاحباش ان تسلّلوا الى البلاد منذ بداية هذا القرن. وقبل ثمانين عاما ألف البروفسور يعوقب فيتلوفيتش كتابا تناول فيه هذه الجماعة بعد رحلته الى اثيوبيا بهدف اجراء دراسة ميدانية لهذه القبيلة اليهودية ابنة العصور القديمة، بعد ان كان وجودها اقرب الى الخيال منه الى الواقع. فعاد هذا البروفسور الى فلسطين ومعه حكاية الفالاشا — وهم يهود من السود يعيشون في قرى منعزلة قابعة في الجبال الاثيوبية وتتخبّط في حال فقر مدقع يفوق التصوّر، مع انها كانت الحاكمة الناهية في المملكة في الأيّام الغابرة. فألهب هذا الكتاب مخيّلة الطفل الذي كنته، وخلال رحلتي الى اثيوبيا مع ابراهام يوفيه، سنة ١٩٦٦، اصررت على زيارة المناطق التي يعيش فيها الفالاشا، طالبا الاطلاع على أوضاعهم.

عندما عيّنت وزيرا لم يغب عن بالي يهود أثيوبيا، وطلبت من بيغن وضعهم في جدول اعمال مجلس الوزراء. فلبّى طلبي في ٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧ — فكانت المرّة الأولى التي تعالج فيها حكومة اسرائيلية هذا الموضوع رسميا. وظهرت المشكلة الأولى : هل هم حقا يهود ؟ في حال الايجاب، يُلزمنا قانون العودة بذل كافة الجهود لمساعدة أعضاء هذه المجموعة الباقين على قيد الحياة ليجدوا في اسرائيل ملاذا يسوده السلام. لكنّ الأمور لم تكن بهذه السهولة. فمع ان الفالاشا كانوا جميعهم يعتبرون انفسهم يهودا الا انهم قطعوا منذ زمن بعيد كل صلة تربطهم بتيّارات اليهودية المعروفة، وكانت معتقداتهم وطقوسهم تطرح علامات استفهام حول صحة اليهودية التي يعتنقونها.

كان وزير الداخلية آنذاك، الدكتور جوزيف بورغ، عضوا في الحزب الوطني الديني، وأحدَ الذين أبدوا معارضة شديدة حيال نقل الفالاشا الى اسرائيل. مشيراً أوّلاً الى عدم تأكّدنا من هويّتهم اليهودية. اضافة الى ذلك،

كان يخشى قيام مشاكل جسيمة تتعلق بعملية دمجهم في مجتمعهم الجديد؛ مشاكل اقتصادية واجتماعية وثقافية. وأضاف اننا قد نتعرّض لمشاكل خطرة، لا سيّما على الصعيد الطبي.

وبلا أدنى ريب، كنت أنتمي الى المعسكر المناوئ. فبادرت مجلس الوزراء بالقول انني لا اعتبر نفسي كفوأً لأقرّر صحّة يهوديتهم. ولكنني استندت في هذه المسألة الى حاخام كبير من السفرديم هو عوبديا يوسف الذي أكّد بحزم أصلهم اليهودي. وأوضحت قائلا : « يكفي أن يقول هذا الحاخام نعم، حتى يصبح الفالاشا يهودا في نظري. وأنا أعرف بعض الفلاشا اصبحوا جنودا بواسل وطلابا مثابرين جديرين بالتقدير في جامعاتنا. ومن الخطأ القول ان المجتمع الاسرائيلي لا يقْدِر على دمجهم وسائر أبنائه. فنحن سبق لنا ان استوعبنا أناسا قدموا من البلدان النامية. واذا ما عثرنا على من لم يندمج بعد في هذا المجتمع فأصابع الاتهام يجب ألاّ تتوجه اليه فحسب، وانما الى الحكومات الاسرائيلية السابقة والى الوكالة اليهودية وسائر الهيئات المعنية وربما الى كل واحد منّا.

ولفتُّ الانتباه الى سهولة تفاقم الأوضاع في أثيوبيا. فنحن نتكلّم عن منطقة تتدهور فيها الحالة سريعا؛ علينا ان نخشى اذاً من أن تحل المصائب بهذه المجموعة اليهودية. فاليهود مشتّتون في ألف وخمسمئة قرية؛ وتطالعنا في بعض الأماكن اعداد هائلة منهم، أمّا في الأماكن الأخرى فهم لا يشكلون سوى أقلية ضئيلة. لكنّ هذا يجب ألا يغيّر قرارنا. أمّا مشكلة الأمراض المتفشية بينهم (والتي أثارها الدكتور جوزيف بورغ) فليس ما يستدعي أن نناقشها هنا. فواجبنا هو استقدام كل يهودي يكون في حاجة ماسة الى العودة الى اسرائيل. والتلكؤ في مدّ يد العون الى مجموعة يهودية يحدق بها الخطر يشكّل خطأ فادحاً نرتكبه في حقها، وعلينا متابعة الأمر حتى النهاية. فأنا شاهدت هؤلاء في أثيوبيا، وكم كنت فرحاً لمّا وجدت في هذا البلد مجتمعاً

يهوديا، ولو مختلفا عن المجتمع الذي أعيش فيه. ففي العالم يهود ليس بيننا وبينهم ذلك الشبه الفائق. لذا على اسرائيل اغتنام هذه الفرصة لإخراجهم واحتضانهم في اسرائيل ».

ولم استعمل عبثا كلمة « فرصة » : فعلى رغم اندلاع الثورة الاثيوبية في العام ١٩٧٧ وموت هايلي سيلاسي الملقّب بـ « أسد يهوذا »، لم يفرض السوفيات سيطرتهم بعد على شؤون البلاد. وفي تلك الفترة، نشب نزاع على الحدود بين اثيوبيا والصومال، وكانت اديس ابابا قد طلبت منّا، قبل ذلك بقليل، منحها مساعدة عسكرية. كنت أرى أنَّ علينا قبول هذا الالتماس، ولكن لا بدّ من ان نطالب لقاء ذلك بإخراج اليهود الاثيوبيين ». كنت أعرف اننا لن نتمكّن من اخراج ثمانية وعشرين الف فلاشا (وهو عدد اليهود الذي لا يزالون في اثيوبيا، وفق ما وردنا من معلومات آنذاك. في ما بعد، علمنا ان الرقم الحقيقي يفوق بأشواط الرقم الذي أُطلعنا عليه) ولكن قد نتمكّن من اخراج بضعة آلاف. فلا يجدر بنا التخلي عن اي روح نابضة ... وستكون هذه العملية احدى اهم العمليات التي في استطاعة الحكومة القيام بها — ستكون عملية مباركة ... ».

حظيتْ هذه المسألة بدعم وزير المالية، ييغال هرفيتز، ودعم موشيه دايان. لكنَّ دايان اقترح إخضاعهم لفحص طبي قبل مجيئهم. فأجبته بأنه في وسعنا فتح مراكز صحية في هذه القرى. وقلت : تصوّروا هاربا معدما نجح في اجتياز المسافة التي تفصل قريته الضائعة في الجبال عن مخيّم اللاجئين. وهناك نخبره بأنه مصاب بداء السفلس وانه، تبعا لذلك، لن يتمكن من الذهاب الى اسرائيل قبل شفائه من هذا المرض ! عندها سيعاني هذا البائس أبشع انواع التعذيب. امّا الحل فغاية في البساطة وهو يتمثّل بجلبهم الى اسرائيل ووضع المرضى في اماكن منعزلة ومعالجتهم هنا.

هنا قاطعني الدكتور بورغ معربا عن رفضه الكلي لمثل هذه الفكرة. امّا

دايان، الذي يسعى دائما الى ايجاد حلّ يرضي كافة الفرقاء، فلم يرَ ما يستوجب معالجة هذه المسألة في القريب العاجل. فلم لا نباشر القيام بفحص طبي تمهيدي وباحصاء عدد الاصابات الخطرة المتوجهة الى اسرائيل، وفرز المرضى من الأصحّاء ؟ عندها سندرك ماهية الموضوع ونجد حلاّ ملموسا.

رفضت اقتراح دايان رفضا باتّا. فتدخّل بيغن قائلا : « أرى ان هذا المشروع يثير شتّى أنواع المشاكل. لذا اطلب من الحكومة الموافقة على ما يلي : أوّلاً، علينا اعتماد مبدأ يقوم على عملٍ يهدف الى ترحيل الفالاشا ونقلهم الى اسرائيل. ثانياً، أطلب إذنا بكتابة رسالة الى منغستو [منغستو هايلي مريم، رئيس اثيوبيا] للحصول على موافقته ».

هكذا بدأت عمليّة الانقاذ. وبعد اجتماع مجلس الوزراء تبادل منغستو وبيغن رسائل تناولت شروط ترحيل اليهود، الذي سيتمّ بالتنسيق مع الحكومة الأثيوبية. ولسوء الحظ، وبعد مضي فترة وجيزة، اشار دايان سهوا، خلال مقابلة جرت في سويسرا، الى أن اسرائيل تزوّد أثيوبيا بالأسلحة، وهي صفقة كان من المفترض ان تبقى في سرية مطلقة. ترتّب على هذه الهفوة الغاء صفقة الأسلحة وتوقّف عملية ترحيل اليهود الاثيوبيين.

بعيد هذا الانقطاع ألمّت بأثيوبيا سلسلة جروحات مختلفة الأشكال والألوان : فنشبت فيها ثورة وأخرى مضادة، وحلّ بها الجفاف والمجاعة فتضافرا ليجعلا مساحات شاسعة من البلاد غير صالحة للعيش فيها. فشهد العالم نزوحا حقيقيا لمهجّرين راحوا يؤلفون جيشا من الهاربين شبه العراة، مغطّين ما يفوق أحيانا مساحة الف كيلومتر من أرض تبثّ فيك الكوابيس. فاتجه بعضة آلاف من اليهود الى السودان وقد انضموا الى مئات الآلوف من الهائمين على وجوههم، آملين الخلاص في اسرائيل.

في غضون سبع سنين، أي منذ ١٩٧٨ الى ١٩٨٤، نقلنا الى اسرائيل اكثر من ثمانية آلاف يهودي أثيوبي. في ما بعد قامت عملية اخرى ساهمت

فيها الولايات المتحدة، فجاء على اثرها ثمانية آلاف يهودي الى اسرائيل. وعلى رغم الشكوك والمخاوف التي انتابتنا، انسحبوا واندمجوا في المجتمع الاسرائيلي. ولم يتحقق هذا من دون ألم : فقد تكبّدوا بمرارة فقدانَ اشخاص عزيزين على قلوبهم في طريق العودة، وتشرذُمَ العائلات في أثيوبيا، والآلام التي عانوها في الصحراء. وحتى في اسرائيل، واجهوا مشاكل شتى على الصعيد الثقافي والديني. غير انهم تغلّبوا عليها في نهاية المطاف ليشكلوا اليوم عنصرا منتجا وايجابيا في الأمة الاسرائيلية، بعد ان تأقلموا سريعا مع المجتمع الصناعي والتكنولوجي الذي كان غريبا عنهم الغرابة كلها.

في ١٩٨٢، انطلقت اولى شرارات عملية انقاذ اليهود الاثيوبين. واليوم، بعد مضي سبع سنين، لا يزال باكرا جدا حتى نحكي حكاية هذه الملحمة.

نذير في لبنان.

كانت « الهجرة من أثيوبيا « فريدة من نوعها، ولكنها لم تمثّل آخر موجة من موجات المهاجرين واللاجئين اليهود، التي تعاقبت على البلاد — واذا ما وجدنا اليهود الأثيوبيين وتاريخهم على بعضٍ من الطرافة، فهم لم يكونوا غريبين عن الاسرائيليين الذين رأوا في تنوع شعب البلاد اليهودي امراً طبيعياً. كان الاسرائيليون مطلعين على سائر المواضيع التي تطرّقتُ اليها خلال محادثاتي مع النميري، كما كانوا يدركون الطابع السلمي التقليدي الذي اتسمت به سياستنا الخارجية. فاهتمامي بالسودان واثيوبيا أو بليبيا والتشاد وجمهورية افريقيا الوسطى، أو حتى بالمناقشات التي قامت حول مشروع تحرير ايران الذي وضعه رضا بهلوي، لم يكن فيه ما يخرج عن المألوف.

فمنذ حكومة بن غوريون والحكومات الاسرائيلية تواجه مشاكل جسيمة ترتّبت عن وجود بلد منعزل يحدق به الأعداء. وأوجد الذين رئسوا مجلس الوزراء قبل مناحيم بيغن او تولّوا حقيبة وزارة الدفاع قبلي حلولا لتسوية الوضع القائم. وتمثّل الحل الأوّل والأهم بالتحالف مع الدول المحيطة باسرائيل. واذا ما قلّبنا صفحات التاريخ نستنتج أن هذه العقيدة دائما ما أجمعت عليها البلاد، فاتُخذت تدابير جسورة بغية كسر الطوق الحديدي العربي، آملين وضع حدّ للعزلة التي تعيش فيها اسرائيل، والتمكن أخيرا من تنمية علاقات طبيعية مع البلدان المجاورة. ولكنْ إلى أن نحقّق هذا يملي علينا صراعنا من

أجل البقاء البحث عن أصدقاء وراء طوق العداوة واقامة اتصالات مع اعداء اعدائنا.

فحتى خلال الفترة التي كانت فيها اسرائيل لا تزال بلدا صغيرا هشّا يتخبط في مشاكل اقتصادية وعسكرية مستعصية، ويلتزم استيعاب مئات الآلوف من اللاجئين الذين يعيشون في حالة عوز وفقر، كنّا نبحث عن هؤلاء الحلفاء بعيداً من حدودنا. لهذا اعتقدنا انه من مصلحتنا مؤازرة الأكراد في القتال الذي شنّوه ضدّ العراق، أشدّ أعداء إسرائيل لدادةً، في سبيل نيل استقلالهم. فراح ضباط واطباء اسرائيليون يخدمون بفاعليّة في صفوف الثوار الأكراد المتمركزين في أصقاع نائية من جبال كردستان، التي لا يمكنك الوصول اليها إلّا على صهوة جواد. والسبب عينه يبرّر المساعدة التي منحناها الى اليمنيين في نضالهم ضد الاحتلال الناصريّ الذي بدأ ١٩٦٠ ودام خمس سنوات. ألم يكن هؤلاء الثوار يحاربون أقوى اعدائنا ؟

ورأت الحكومة الاسرائيلية في الستينات ان الأقلية المسيحية في السودان، هذا البلد الذي منح مصر دعما رئيسيا، تستأهل مساعدتنا. فأرسلنا الى السودان خبراء وأجهزة وصلت الى المكان المنشود بعد اجتياز مئات — واحيانا آلاف — الكيلومترات. كما كنا حاضرين في مناطق اخرى من افريقيا. امّا في لبنان، فأقمنا علاقات تقليدية مع الأقليّة المارونية التي كانت مهدّدة في استمرار، على غرار اليهود.

يعود تاريخ اتصالاتي المباشرة بلبنان الى سنة ١٩٧٦، الى الفترة التي كنت فيها مستشار رابين، الذي كان يشغل آنذاك منصب رئيس للوزراء. وكنت قد طلبت منه صراحة عدم إعطاء اذنٍ الى القوّات السورية بالدخول الى لبنان. في ذلك الوقت سيطرت منظمة التحرير الفلسطينية على بعض القطاعات في جنوب لبنان وبيروت ووضعت حدّا للتوازن الذي قبله طوال ثلاثة وثلاثين عاماً كل من المسيحيين والشيعة والسنّة والدروز، فصبغة الحكم هذه هي

التي جعلت ممكنا وجود لبنان كدولة. ونجم عن الوضع الجديد عواقب شتّى، لا سيّما تصعيد في الغارات الارهابية على الحدود الشمالية من اسرائيل، كالغارة التي استهدفت مدرسة في معالوت حيث سقط واحد وعشرين تلميذا وجرح ثمانية وستون آخرون، والاعتداء على أحد الباصات المدرسيّة في افيفيم، وأدّى الى وقوع تسعة قتلى وتسعة عشر جريحاً. ونجم عن سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية نشوب الحرب الأهلية التي دارت خصوصاً بين المسيحيين الراغبين في اعادة إحلال التوازن الوطني التقليدي ومنظمة التحرير الفلسطينية التي اقامت « دولة ضمن الدولة » لا يمكن ان يُكتب لها البقاء في ظلّ حكومة مركزية متماسكة في بيروت.

امّا السوريون الذين تدخّلوا في لبنان متذرّعين بأهدافٍ ترمي الى إحلال السلام فيه فضربوا منظمة التحرير الفلسطينية، موهمين الناس بأنهم يدعمون المسيحيين وحلفاءهم. ولكن سرعان ما انقشعت حقيقة مصالحهم التي لم تهدف يوماً الى رؤية لبنان بلداً مستقلاً. (ففي الواقع، لم تعترف يوما سوريا بلبنان، وهي لا تزال تعتبره جزءاً من « سوريا الكبرى »). فتخطيط سوريا العسكري، الذي تمثّل هدفه الاستراتيجي بإحكام سيطرته على البلاد، كان يتغيّر وفق ضرورات الساعة. وهكذا سرعان ما أدارت دمشق ظهرها للمسيحيين لتتقرّب من منظمة التحرير الفلسطينية وسائر أحزاب اليسار الاسلامية. فراح السوريون منذ ١٩٧٦

يوجّهون الى مواقع المليشيات المسيحية ضربات متقطّعة. وفي ٢١ و٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ مدّت سوريا يد العون الى عملية ضخمة قامت بها منظمة التحرير الفلسطينية مستهدفة بلدة الدامور المسيحية الواقعة على الساحل اللبناني، فأدّى ذلك الى قتل غالبيّة السكان وطرد الباقين على قيد الحياة.

جسدّت الدامور الوضع الجديد الدامي الذي راح يتخبّط فيه لبنان. وأفسح التوجه السوري الجديد أمام منظمة التحرير الفلسطينية المجال حتى تعزّز سيطرتها على طول ساحل لبنان وعلى مساحة شاسعة من الأرض تصل المتوسط بسهل

البقاع. وهكذا، بسطت منظمة التحرير الفلسطينية من جديد سيادتها كدويلة مجاورة لحدودنا الشمالية.

شكّل هذا الوضع بالنسبة الى اسرائيل خطرا مميتا. فقد تضاعفت الغارات الارهابية التي انطلقت من قطاعات ترزح تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية. في حين كانت كل نيّة رد تتضمّن خطر قيام مواجهة مع القوّات السورية، التي كانت تؤمّن، في كثير من القطاعات، تغطية وحدات منظمة التحرير الفلسطينية، لاعبةً دور الدرع الواقي. وأمام التصعيد الذي شهدته عمليّات التسلّل، والقصف المدفعي الذي استهدف مدن الجليل وقراه، اعتمدت حكومة رابين سلسلة تدابير دفاعية. فاتخذ الجيش احتياطاته للدّفاع عن شمال الجليل، وقوّى خطوط الدفاع، وعزّز دعمه للقرى المسيحية التابعة لسعد حدّاد والواقعة في المنطقة الحدودية. اتصل رابين ووزير الدفاع، شيمون بريز، بالقادة المسيحيين اللبنانيين ونظّموا شبكة لايصال المساعدة العسكرية الاسرائيلية. فاذا كانت اسرائيل قد رأت انه من مصلحتها مساعدة الأكراد الذين يشنّون المعارك على مسافة الف كيلومتر من حدودنا، والأثيوبيين الذين يتحاربون على بعد الف وخمسمائة كيلومتر، فإن ضرورة دعم المسيحيين الذين يقاومون منظمة التحرير الفلسطينية المتمركزة أمام بابنا، دفاعاً عن أرواحهم، أصبحت حقيقة لا تقبل الشك.

ذلك هو الوضع الذي كان سائدا حين اعتلى حزب الليكود سدّة الحكم سنة ١٩٧٧. فاستمر رئيس الوزراء مناحيم بيغن، ووزير الدفاع عازر وايزمن في انتهاج سياسة حزب العمل المتّبعة في لبنان، لكنهما ما لبثا ان رأيا ضرورة ايلاء الوضع المتدهور في لبنان اهتمامهما. وعلى رغم التدابير المتخّذة استمرّت اعتداءات منظمة التحرير الفلسطينية الارهابية وتضاعف القصف المدفعي. وبالطبع، لم يكن « لمملكة الرعب هذه » اي « عنوان قانوني » — وهنا المشكلة ! لذا، لم نكن نستطيع أن نعامل لبنان كما نعامل دولة تقوم، من شدّة حرصها على أمن أفرادها، بإيقاف اعتداءاتها خوفا من تعريض شعبها

لعواقب أفعالها. ففي لبنان كان الوضع معاكسا : فقد أقامت منظمة التحرير الفلسطينية مركز قيادتها ومستودعات ذخيرتها داخل مخيّمات اللاجئين والمدن، مُحتمية بالسكان المدنيين. وتشكّل كل ضحية فلسطينية في نظر منظمة التحرير الفلسطينيّة مكسبا تتغذّى منه دعاوتها السياسية.

ولمّا وجدت حكومة بيغن نفسها عاجزة عن ضمان امن الجليل في ظلّ هذ الظروف، قرّرت إطلاق عملية تستهدف منظمة التحرير الفلسطينية وتشمل جنوب لبنان حتى نهر الليطاني، أي على مسافة خمسة وعشرين كيلومترا من الحدود. وعندما وقف وزير الدفاع عازر وايزمن، ورئيس الأركان آنذاك موتاغور على مقربة من الخطوط السورية في البقاع، قرّرا تطهير المنطقة الحدودية اللبنانية من الارهابيين، وذلك عبر اللجوء الى هجوم واحد عنيف.

في ١١ أيار (مايو) ١٩٧٨، تمكّنت وحدة من قوّات منظمة التحرير الفلسطينية من تضليل مخافر السواحل حتى بلغت جنوب حيفا. وهناك تسبّبت هذه الوحدة بمقتل سائح، واستولت على أحد الباصات وقتلت تسعة وثلاثين راكباً كانوا في معظمهم من النساء والأطفال. عقب هذه المذبحة المريعة دخل الجيش الاسرائيلي الى لبنان وراح يقتل أو يأسر كل ارهابي صادفه في طريقه. وبعد مضي ثلاثة أشهر من الاحتلال وعمليات التمشيط، أفضت « عملية الليطاني » (كما سميّت) الى نهايتها وعادت القوّات الاسرائيلية الى داخل الحدود.

لم تشكّل هذه الأشهر الثلاثة في نظر سكّان الجليل المحاصَرين سوى فترة استراحة. فأهداف العملية المحصورة نسبيّا في المكان والزمان، والاعتدال الذي أبدته قوّاتنا تجاه قاعدة الارهابيين الرئيسية الواقعة في صور افسحت المجال أمام عودة سريعة لمنظمة التحرير الفلسطينية الى الأراضي التي سبق لها أن هجرتها، وأخيرا، رأي قادة المنظمة الفلسطينية في عملية الليطاني ما يعكس نجاحهم وما يثبت عدم قدرة عملية اسرائيلية، وإن تكن واسعة النطاق، على إلحاق أضرار دائمة بهم.

ومع اتساع رقعة الأراضي الحدودية التابعة للرائد حداد حتى منطقة الحزام الأمني ودخول وحدات الأمم المتحدة اثر عملية الليطاني، غيّرت منظمة التحرير الفلسطينيّة ترتيب أولويّات العمليّات العسكرية : فتخلّت عن تخطيط عمليات تسلّل الوحدات الصغيرة، وحشدت قاذفات الصواريخ وبطّاريات المدافع البعيدة المدى القادرة على بلوغ معظم مدن شمال اسرائيل وقراه. وهكذا وجدت اسرائيل نفسها من جديد، سنة ١٩٧٨، غارقة في حرب القذائف والمدافع، حرب دفع ثمنها السكان المدنيّون في الجليل.

أمّا الأمثولات التي تُستخلص من عملية الليطاني فلم تغب عن وزير الدفاع عازر وايزمن ورئيس الأركان موردخاي غور. فهما اعترافا، مثلنا بضرورة تنظيم عملية تتعدّى بماهيّتها طابع عملية الثأر البسيطة، بصرف النظر عن سعة نطاقها، وذلك إذا ما أردنا تعطيل منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان تعطيلاً فعّالاً. فقوّات منظمة التحرير الفلسطينية محصنة تحصيناً منيعاً وقد برهنت عن طاقة متجددة وتملك هذه المنظمة معسكرات تدريب في كافة مناطق الجنوب، وقواعد قوّات واسلحة ومخازن معدّات في مرفأي صيدا وصور، ومراكز للعمليات العسكرية وغيرها من الفاعليّات في بيروت. وتسيطر منظمة التحرير الفلسطينية على السكان والبنى التحتيّة المدنية، وتستفيد من المساعدة غير المحدودة عمليا التي تمنحها إيّاها جامعة الدول العربيّة، لا سيّما المملكة العربية السعودية. نحن نعلم ان منظمة التحرير الفلسطينية ومنظّماتها الشقيقة تكدّس كميّات هائلة من الأسلحة في مستودعات الذخيرة، وأنّها عما قريب ستجعل الحياة في أعلى الجليل غير مستقرّة. وأعلمتنا دوائر المخابرات التابعة لنا بأن منظمة التحرير الفلسطينية تكثّف إعدادها للارهابيين بهدف ارتكاب اعتداءات في الأراضي الاسرائيلية، وضرب اهداف اسرائيلية ويهودية في كافة أرجاء العالم.

خلال السنوات الثماني الأخيرة شهدنا تشرذم لبنان. امّا اليوم، فنحن نتحمّل عواقب هذا التفتّت. فهذا البلد المجاور الذي عشنا معه في سلام منذ ١٩٤٩،

زال وجوده عملياً لتحلّ محله اليوم مملكة رعب حقيقية، راحت تنمو على مرأى منا وأمام بابنا.

بدأنا نفهم حاليا ان الحلّ الفعّال لتسوية هذه المشكلة يجب ألّا يرمي الى أهداف معيّنة ومحدودة وانما إلى كافة البنية التحتيّة العسكرية والسياسية التي أرستها منظمة التحرير الفلسطينيّة في لبنان. وشئنا أم أبينا، سيملي علينا هذا المفهوم الأخذ في عين الاعتبار الفرق المتنازعة اللبنانية. ومن شأن اي عملية عنيفة قادرة على تقليص « دولة منظمة التحرير الفلسطينية » أن تفضي لا محال الى قيام مواجهة مع قوّات الاحتلال السورية في جنوب البقاع وغرب بيروت التي اصبحت عاصمة الارهاب العالمية ومصدر معظم الأعمال التخريبية المحليّة والاقليميّة والدوليّة. كما ستؤدي هذه العملية الى قيام اتصال مع الشمال المسيحي في شرق بيروت وجونيه وجبل لبنان. عام ١٩٧٨ حاولنا الاكتفاء بعملية محلية. ولكن علينا اليوم، بصرف النظر عن العواقب المستقبلية، أن نفكّر في ايجاد حلٍّ شامل.

وإثر تعليمات عازر وايزمن، وضع رئيس الأركان الاسرائيلي خطة. وفي ١٩٧٩ وضع الجيش الاسرائيلي مشروعا صيغ مقطعه المعنون « مقاصد العملية » كما يلي : « سيقوم تساحال باحتلال جنوب لبنان حتى خط جونيه ـــ زحلة [منطقة مسيحية في شمال بيروت]، وتدمير القوّات الارهابية بحيث يسود وضع جديد في تلك المنطقة، اضافة الى القوّات السورية واللبنانية في حال استلزم تنفيذ المهمة ذلك »[١]. كنّا نعلم جميعا أن تنفيذ هذا المشروع، كليّا ام جزئيّا، سيكون رهن التطوّرات اللاحقة. ففي لبنان لم يتعيّن علينا مواجهة منظمات ارهابية فحسب وانّما مجموعة متنازعين ينتمون الى مختلف الأحزاب المتصارعة في ما بينها، وجيش الاحتلال السوري الذي لا يمكننا التكهن بردّات

(١) ذلك كان جوهر مشروع عملية « السلام في الجليل » الذي نفّذ في حزيران (يونيو) ١٩٨٢.

فعله، كما توجّب علينا مواجهة جوّ دولي، يسود فيه توتّر حاد. لكننا كنا على يقين من أنه لم يكن في استطاعتنا اعتماد تصرّف مغاير وإننا ملزمون اتخاذ التدابير الحازمة اذا ما أردنا الدفاع عن أنفسنا.

لم يحاول عازر وايزمن اللجوء الى أي وسيلة تهرُّباً من احتمال مماثل. فبعد الهجوم الارهابي الذي تعرّض له منزل الأطفال في كيبوتز ميسغاف آم، أعلن مجلس الوزراء في ٨ نيسان (ابريل) ١٩٨٠ ما يلي: « علينا شنّ عمليات حاسمة في حربنا ضدّ الارهابيين ... وفي نهاية المطاف، علينا إحلال وضع يخوّلنا السيطرة على قسمٍ كبير من لبنان، ابتداء من قلعة الشقيف، بغية التخفيف عن سعد حدّاد، حتى الزهراني وبيروت ».

في منتصف سنة ١٩٨٠ برز الفريق المسيحي قليلاً من بين الفوضى التي عمّت لبنان. فالكتائب، احد الأحزاب المسيحيّة الرئيسية، تمكّن من فرض نفسه كزعيم غير منازع للمعسكر المسيحي، بعد ان تعاقب على استخدام العنف والمناورات السياسيّة. ففي بداية الثلاثينات أسّس بيار الجميل حزب الكتائب الذي استند أساساً الى قاعدة عائلية. امّا رجل الحزب القوي فيتمثل الآن بثاني بكره، بشير. فهذا الشاب اللامع والطموح شنَّ في ١٩٧٨ حملة تهدف الى تأمين سيطرته على الجبهة المسيحية، على حساب أحزاب رئيسيّة منافسة للكتائب، مثل حزب الوطنيّين الأحرار التابع لكميل شمعون و [مردة] سليمان فرنجيّة. وفي تموز (يوليو) ١٩٨٠ حقّق بشير هدفه.

لكنَّ تعطّش بشير الجميّل الى السلطة حمله الى ما هو أبعد من طموحات مقاوم سياسي. فبشير كان يجسد عقيدة الكتائب السياسية التي تعتبر المجتمع المسيحي اللبناني كيانا لا يكتب له البقاء الا اذا وحّد صفوفه قبل البحث عن حلفاء فيما وراء العالم الاسلامي المعادي الذي يحيط به من كل حدب وصوب. وبشير، المقتنع بضرورة محالفة الدول الخارجية، يطمح بكل جوارحه الى توطيد العلاقات المستديمة القائمة بين الموارنة واسرائيل وتحديدها.

من الجليّ ان توحيد المجتمع المسيحي بقيادة بشير الجميل لم يكن يمثّل هدفا في حد ذاته. فبشير لم يكن يصبو الى اقامة دويلة مسيحيّة منغلقة على نفسها ومستقلة — وهو خيار كان بعض الموارنة يفضّلونه دائما على اي حلّ آخر مطروح. ورغب بشير الجميل، على غرار والده وسائر التقليديين من مسلمين ومسيحيين، في اعادة احياء الحكومة الوطنية القانونية التي دفنتها منظمة التحرير الفلسطينية في قبر ختمه في ما بعد السوريون. في هذه الحكومة كان رئيس الجمهورية، وفقا للتقاليد، مسيحيا ورئيس الوزراء مسلما سنيّا. ومثّل قيام تكتّل مسيحي متين مرحلة ضرورية لتحقيق الهدف الواضح الذي كان يصبو اليه بشير، الا وهو رئاسة الجمهورية في لبنان.

شكّل تثبيت زعامة بشير الجميل عاملاً جديدا مهما. أمّا اسرائيل فلم تضع يوما نصب عينيها هدفا يقوم على إرساء حكم ودي في لبنان ولكنّها تبدي اهتماما بالغا حيال شكل الحكومة التي ستقود مصير البلاد. فهل ستدعو الحكومة اللبنانية السوريين الى البقاء في اراضيها أم، على العكس، ستدعوهم الى الانسحاب منها ؟ ترى هل ستذعن لدويلة مستقلة أقامتها منظمة التحرير الفلسطينية على أرضها أم ستعمل جاهدة لإحلال سلطتها ؟ أتقبل بحالة الحرب القائمة بين اسرائيل والذين يستخدمون أرضها ام ستبحث عن سبل تفضي الى تعايش سلمي معنا ؟ برزت حاليا هذه الأسئلة الحيوية بالنسبة الى اسرائيل في جوّ تسلُّم الجميل زعامة المعسكر المسيحي.

في نيسان (ابريل) ١٩٨١، وقبل شهرين من حلول الانتخابات في اسرائيل، شهدت المعارك التي دارت بين المسيحيين اللبنانيين وقوّات الاحتلال السورية تصعيداً حادًّا حول مدينة زحلة. وكانت زحلة مدينة مسيحية، يبلغ عدد سكّانها مائتي الف نسمة وتقع، من جهة، على مسافة تزيد عن الخمسة عشر كيلومترا شرق المنطقة المسيحية في جبال لبنان، ومن جهة أخرى، على مسافة تربو على الثلاثين كيلومتراً شرق بيروت. ولمّا وقعت طريق دمشق — بيروت، الذي يمّر بزحلة، بين أيدي السوريين، شق حزب الكتائب وحلفاؤه

في زحلة طريقا يخرج عن سيطرة السوريين ويسمح لهم بإقامة اتصالات في ما بينهم.

فجاء رد السوريين عنيفا خوفا من ظهور معسكر مسيحي قوي وموحّد. قاموا بتطويق زحلة التي خضعت لقصف مدفعي دام ثلاثة أشهر. وقصفت القوّات السورية مواقع الكتائب في قمة جبل صنين المطلّ من الشرق على زحلة، ومن الغرب على مرفأ جونية المسيحيّ المهم. ونجح السوريون في هجومهم بعد مساندة الطائرات المروحية، فراحوا يهدّدون بتجاوز المواقع الدفاعية في قمّة جبل صنّين، الذي اصبح يمثل في نظر المسيحيين نقطة استراتيجية اساسية. وفي حال وقوع هذه المراكز بين أيدي السوريين سيتعرّض نظام الدفاع عن الأرض، الذي ينتهجه الموارنة، لخطر جسيم. عندئذ طلب الكتائبيون، الذين أدركوا الخطر المحدق بهم، مساعدة اسرائيل.

جرى معظم النقاش المخصّص للتداول بهذا الوضع على قاعدة ثنائية. فقد عرض، مثلا، وزير دفاع حكومة الظلّ التابعة لحزب العمل، حايم برليف، « تصوّره عن الدفاع » في ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٨١، معلنا « أننا سنمنح مسيحيّ الشمال مساعدتنا ليس لأننا جيران فحسب ولا نستطيع الوقوف مكتوفي الأيدي لنشهد موتهم على يد السوريين .. [بل لان] ما يجري في لبنان يعنينا مباشرة، لا من الناحية الانسانيّة وحدها. ففي حال انهيار مسيحيِّي الشمال فسينجم عن خسارتهم عواقب من شأنها التأثير على الوضع في الجنوب ».

لاقت نتائج المداولات ترجمتها الفعلية على الأرض حين أسقطت طائراتنا المطارِدة في ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٨١ مروحيّتين سوريتين كانتا تشاركان في الهجوم على جبل صنين. ووجّه سقوط الطائرتين إشعارا الى دمشق بأنّنا لن نقبل ابدا اي تقدّم اضافي للقوات السورية في الأراضي المسيحية. وبالفعل لم يخْطُ السوريون اي خطوة الى الأمام، على رغم استيلائهم على تحصينات « الغرفة الفرنسيّة » في قمّة جبل صنين، وهكذا اعطى تدخّلنا النتيجة المرجوّة.

تسبّبت ردة فعل الرئيس السوري حافظ الأسد، إثر تدمير المروحيّتين، بتصعيد الأزمة. فتمّ وضع منصّات صواريخ أرض — جو في البقاع، ولأوّل مرّة أُرسلت قوّات مدرّعة سورية الى المنطقة. وعلى هامش هذه التدابير نُشرت صواريخ مضادة للطيران في سوريا نفسها، على مقربة من الحدود، مغطّية مساحة كبيرة من الاجواء اللبنانية. ويغيِّر إدخال هذه الصواريخ توازن القوى القائم بيننا وبين جيش الاحتلال السوري تغييرا جذريا — فهذا التوازن شكّل قاعدة ارتكز عليها، سنة ١٩٧٦، اتفاق رابين الذي بموجبه حصل السوريون على إذن التدخّل في لبنان. كانت الصواريخ تؤمّن للسوريين القدرة على التدخّل في غارات الثأر التي كنا نشنّها ضدّ مواقع منظمّة التحرير الفلسطينيّة. أضف الى ذلك أنّها كانت تعرقل مهمّاتنا الاستكشافية في سماء لبنان، التي كنا نعتبرها أساسيّة، فهذه الطلعات كانت تسمح لنا بتتبّع سير الأحداث الجارية في لبنان، والنظر في اتجاه الأراضي السورية، وفي هذا السياق شكّلت طلعاتنا الاستكشافية جزءا مهما من جهاز الانذار في وجه قيام اي تعبئة سورية. لكل ذلك لم يكن مقبولا لدينا الوضع الجديد الناشئ على الارض.

خلال حرب الغفران الحقت الصواريخ السوفياتية خسائر فادحة بأسطولنا الجوي، وفي السنوات اللاحقة درسنا بعناية الأمثولات التي استخلصناها من هذه التجربة، ووضعنا الوسائل التقنية بهدف معالجتها. ولا يساورنا حاليا اي شكّ في قدرتنا على تدمير هذه الصواريخ من دون التعرّض لمخاطر جمّة.

بعد النظر مليا في فداحة الوضع الجديد القائم، قرّر مجلس الوزراء في ٣٠ نيسان (ابريل) شنّ هجوم على منصّات اطلاق الصواريخ. غير أنّ تردّي الأحوال الجوية اضطرنا الى تأجيل العملية. فبحث مجلس الوزراء هذه المسألة من جديد. ولكنْ في ذلك الوقت أرسل الأميركيون الى المنطقة فيليب حبيب، وهو دبلوماسي بارز من وزارة الشؤون الخارجية، للتفاوض في حلّ ما. وكان من الصعب التكهن بفرص نجاح مهمة حبيب، لكنّ وجوده في

المنطقة ساهم في تجميد الوضع، على الأقلّ مؤقتا. فهو اتاح لنا على الأقل فرصة إعادة النظر في موقفنا.

كنت من بين الذين اعترتهم الغبطة عندما تقرّر تأجيل هجومنا على الصواريخ. فقد برز آنذاك في جدول أعمالنا مشاكل ملحّة أخرى، مثل قمة بيغن والسّادات في شرم الشيخ، والأهم من ذلك عملية المفاعل النووي العراقي. فلم يكن يراودني اي شك في ضرورة تدمير هذا المفاعل الملحة. فاذا ابتدأنا بضرب الصواريخ السورية نخشى تأهّب القوّات الجوية العربية استعدادا للحرب وافساد عملية المفاعل العراقي.

في تلك الاثناء كان حزب العمل قد أثار مشاكل جديدة. فخلال الحملة الانتخابيّة كان بيغن قد تعهد بإزالة خطر الصواريخ. (فقد صرخ في أحد أضخم الاجتماعات الانتخابية قائلا : « يا رئيس حافظ الأسد، ان رفول ويانوش ينتظرانك بقدم ثابتة »). أمّا الآن فقد راح حزب العمل يسخر منه سخرية لاذعة لعدم تحرّكه، موجّها اليه، بصوت واحد، تهمة جرّ البلاد الى الحرب. كنّا نعرف خير معرفة اننا لم نودِ بالبلاد الى اي مكان، لكننا كنا نعلم أيضاً أنّه ليس في وسعنا تفادي عملية المفاعل النووي.

هذه هي الخلفيّة الغامضة نوعا ما التي جعلتني اعارض بشدة استخدام العنف ضدّ السوريين. وفي نهاية المطاف تمّ قبول الموقف الذي أبديته. فقد أشار بيغن في جلسة مجلس الوزراء التي عقدت في ١٤ أيّار (مايو) إلى : « ان إريك مقتنع بضرورة تفادي الحرب. وهو يستطيع المجاهرة علنا برأيه ... ويشكل هذا في نظري أهمية بالغة، لا سيّما انّ اشاعات تسري منذ بعض الوقت مدعية أن إريك يدفعني الى اضرام الحرب. فأجبت انه ليس من السهل دفعي الى ... ».

فيما نحن نسعى جاهدين الى التخفيف من حدّة التوتر السائد بين السوريين واسرائيل، كثّفت منظمة التحرير الفلسطينية اعتداءاتها على الجليل وأشعلت

حرباً مدفعية بكل معنى الكلمة لخلخلة دورة الحياة الطبيعية في مدن الشمال وقراه. وخلال شهري أيّار (مايو) وحزيران (يونيو) من سنة ١٩٨١ عنف القصف المدفعي والصاروخي ليبلغ أوج حدّته في منتصف تموز (يوليو). وفي اسبوع ١٤ تموز (يوليو) حتى ٢١ منه، سقط ما يزيد عن الف قذيفة صاروخية على ثلاث وثلاثين مدينة وقرية اسرائيلية.

كان الجليل يغص بالمخيّمات العسكرية، لكنّ الارهابيِّين سدّدوا ضرباتهم الى الأهداف المدنيّة حصرا. في ما يلي صورة عن أوامر صدرت عن عرفات ووزّعتها مراكز العمليات العسكرية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في صور وصيدا وبيروت على قادة البطاريات المدفعيّة في جنوب لبنان :

الى الأخ الحجّ اسماعيل (رئيس قوّات منظمة التحرير الفلسطينية، في منطقة الجنوب) فلتحلّ عليك بركاتنا وامنيات الثورة. وفقا لقرار اللجنة العسكرية العامّة، من المقتضى تركيز الجهود على تدمير كريات شمونا والمطلّة ودان وشعار ياشوب ونهاريا واحياء ضاحيتها.

كريات شمونا : على كافّة عناصر الثورة المشاركة في تحقيق هذا الهدف. يجب إخضاع كريات شمونا لقصف صواريخ « غراد المطوّرة ».

إخضاع المطلّة لقصف جبهة تحرير فلسطين والصاعقة اللتين ستستخدمان مدافع هاون من عيار ١٦٠ ملم.

إخضاع نهاريا وضاحيتها لقصف الفوج الأوّل الذي سيستخدم مدافع من عيار ١٣٠ ملم.

امّا المنطقة العسكرية الشرقية، فستتكفّل بدان وشعار ياشوب.

ياسر عرفات

في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٨١

الساعة الثانية[١]

في كريات شمونا والمطلّة ونهاريا وكيبوتز دان، وفي عشرات الأماكن الأخرى، قبع السكان في الملاجئ تحت الأرض ايّاما وليالي. فطالت القذائف المستشفيات والمدارس والمنازل والمتاجر والحقول المزروعة والبساتين. واضافة الى الضحايا والخسائر التي ألحقتها الطلقات المدفعيّة، ساد جوّ من القلق المستمرّ. ولم نكن نعرف أين ومتى ستقع القذائف، لذا شهدت دورة الحياة انقلاباً كليّا. ولمّا عجز الجيش عن حماية المواطنين قام آلاف من سكان شمال الجليل و « إصبع الجليل » بترك منازلهم، وبعد أن اصبحوا مهجرين في وسط بلدهم نزحوا الى الجنوب سعيا وراء الأمن.

في الواقع، جاء ردّ الجيش الاسرائيلي على حرب المدفعية التي شنّتها منظمة التحرير الفلسطينية عنيفا. فقد أطلق الجيش وابلا من القذائف ضاربا قواعدها في بيروت وجنوب لبنان. ولكن اتضح لنا ان ضرباتنا مهما عنفت حدّتها كانت عاجزة عن قمع هذه الاعتداءات.

فمنظمة التحرير الفلسطينية كانت ترتكز آنذاك على بنية تحتيّة ضخمة شملت مناطق جنوب لبنان وجباله. فالمدافع وقاذفات الصواريخ المخبّأة في الأنفاق والمغاور كان في وسعها الخروج لتوجيه ضربة سريعة ثم العودة الى مخابئها، قبل أن تكشفها طائراتنا. وحال انتشار قوّات منظمة التحرير الفلسطينية على

(١) لا تشكل هذه الوثيقة سوى واحدة من مئات الوثائق الصادرة عن منظمة التحرير الفلسطينية والتي وقعت بين أيدينا وجُمعت في كتاب يحمل عنوان : حرب لبنان، وثائق ومصادر، المجلد الأوّل : الطريق الى السلام في حرب الجليل ار . أفي رام — منشورات معرشوت، ١٩٨٧، ص : ١٠٧. ويحدّد غيرها من الوثائق الأهداف، ووحدات الهجوم، وعدد القذائف المفروض اطلاقها، وكراريس التدريب غيرها من التفاصيل.

هذا النحو دون تعرّضها للإصابات. وعنفت حدّة الردّ الاسرائيلي واتسعت رقعته، مخلّفا انطباعا بعجز الجيش الاسرائيلي. وفي ظلّ هذه الأحداث اقترح رئيس الأركان رفول ايتان على مجلس الوزراء شن هجوم جويّ مكثّف على مواقع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وترساناتها العسكرية عبر كل لبنان.

وراحت العملية التي اقترحها ايتان تفرض نفسها، لذا منحتها دعمي. لكنني بقيتُ مقتنعاً بأن حتى هذا الهجوم المعمّم على كافة المواقع الفلسطينية لن يحلّ المشكلة. فمنظمة التحرير الفلسطينية بلغت حدّا من القوّة لا تعطّلها عمليات محدودة. ولاحظت في مجلس الوزراء، في ١٦ تموز (يوليو) ان كل ما قمنا به حتى اليوم أسفر عن ردود تصاعدت حدّتها وكثرت أعدادها في استمرار. « فنحن لا نستطيع تصفية هذه المشكلة الا اذا أزلنا نهائياً البنية التحتيّة السياسية والعسكرية التي أرساها الارهابيّون ... واذا ما تحدّثنا عن حل شامل — يتضمّن، بالطبع، دراسة الوضع دراسة عميقة — فعليه ان يشمل المنطقة برمتها، بما فيها بيروت ».

من الواضح انه لم يعد في استطاعتنا تقبّل هذا الركود الذي بدأ يشلّ شمال البلاد شيئا فشيئا، ولا حتى احتمال نزوح السكان بفعل الرّعب الذي تبثّه مدافع منظمة التحرير الفلسطينية. وفي ١٩٧٩ تمّ ايداع خطة أورانيم (وهو اسم الشيفرة) على طاولة مجلس الوزراء. كانت تنصّ على عملية تهدف الى ضرب البنية التحتيّة العسكرية والسياسية التي أرستها منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. امّا اليوم، فقد حان وقت تنفيذه، بطريقة أو بأخرى. لكنّ تنفيذه يتطلّب قرارا من مجلس الوزراء. فطلبت عقد مناقشة مستعجلة ومعمَّقة لتناول هذا الموضوع.

فيما كان مجلس الوزراء ينظر في كافّة الخيارات الممكنة تواترت الهجومات الجوية الواسعة النطاق، التي كان اوصى بها رئيس هيئة الأركان، فوق بيروت وغيرها من معاقل منظمة التحرير الفلسطينيّة. ومع تصاعد حدّة العنف بدأ فيليب حبيب سلسلة مفاوضات تهدف الى اعلان وقف اطلاق النار. وفي

الفترة عينها، قام بيغن بجولة على الحدود الشمالية، فزار الملاجئ المبنيّة تحت الأرض حيث كان سكان الشمال يمضون ايّامهم ولياليهم في جوّ خانق وظروف صحيّة لا تطاق. فتركت هذه المشاهد اثرها البالغ في نفس بيغن الذي بدا مستعدا، في الأسابيع الأخيرة من تموز (يوليو)، لقبول وقف اطلاق النار على الحدود الشمالية، بضمانة أميركية.

وخلال مناقشات مجلس الوزراء التي خصصت لدراسة هذا الاحتمال، ابديت معارضة شديدة حيال الصيغة المطروحة، وقلت: « عند قبولنا هذه الصيغة سنضع أنفسنا في موقف صعب جدا ». ولم يكن يساورني أدنى شك في أن منظمة التحرير الفلسطينية ستكثّف أعمالها الارهابية انطلاقا من خلاياها في الضفّة الغربية وغزة، وذلك اذا ما وافقت على التخفيف من هجوماتها على طول الحدود اللبنانيّة. وستجيز منظمة التحرير الفلسطينية لنفسها ارتكاب شتّى انواع الاعتداءات في مختلف ارجاء العالم تقريبا، اعتداءات يتمّ تنسيقها في مركز قيادتها في بيروت. أمّا نحن، فسنكون خلال هذا الوقت مقيّدين بوقف اطلاق النّار.

وبتعبير آخر، يجب الاّ نقبل هذه الهدنة الا اذا شمل هذا الاتفاق الاعتداءات على الأراضي الاسرائيلية في اليهودية والسامرة وغزة، والأهداف الاسرائيلية واليهودية في الخارج. ولسوء الحظ، لم يوافقني مجلس الوزراء في تحليلي. وفي ٢٤ تموز (يوليو) تعهّدت اسرائيل بتأجيل عمليّاتها ضدّ منظمة التحرير الفلسطينيّة في حين قبلت هذه الأخيرة بوقف اعتداءاتها الصادرة من لبنان على الأراضي الاسرائيلية وعلى المنطقة الواقعة تحت سيطرة الرائد حدّاد.

في الأشهر التي تلت طُرحت ايضاحات جديدة غيّرت من الاتفاق، وآل الأمر بالأميركيين الى قبول تطبيق الاتفاق على كافة الأراضي الاسرائيلية، لا على الأهداف الاسرائيلية واليهودية في الخارج، مفسحاً في المجال أمام منظمة التحرير الفلسطينية لارتكاب جرائمها على هواها في كافة انحاء العالم. وسرعان

ما سُجّلت اعتداءات جديدة أكّدت توقّعاتي، وسمحت لي أن أقول للأميركيين غير مرّة بأننا في ظلّ هذه الظروف سنجد أنفسنا مضطرّين الى اتخاذ التدابير المناسبة.

في تموز (يوليو) ١٩٨١، وعلى رغم استعداد الفريقين لقبول وساطة فيليب حبيب، لم يحلّ وقف اطلاق النار بأي طريقة جوهر المشكلة. فعِلّة وجود منظمة التحرير الفلسطينية، كما صاغتها في ميثاقها، تبقى دائما « إلغاء الوجود الصهيوني في فلسطين ». والحالة هذه، فان وقف اطلاق النار هذا الذي منح الجليل فترة هدوء لم يمثّل، في نظر منظمة التحرير الفلسطينية، سوى مرحلة تخطيط تخوّلها تنظيم اعتداءات وضربات مدفعية جديدة. امّا من جهتنا، فوجود منظمة التحرير الفلسطينية كدولة متاخمة لنا، تهدف رسالتها الى إفنائنا، لهو مرفوض بتاتا، ومن هنا لم يكن لوقف اطلاق النار اي قيمة في نظرنا.

واذاً لم يشكّل هذا الهدوء، الذي كان شمال الجليل في أمسّ الحاجة إليه، سوى حاجز وقائي اختبأت وراءه منظمة التحرير الفلسطينية التي راحت تعمل مسخّرة طاقاتها كلّها لتعزّز قوّتها عبر وضع بطاريات مدافع طويلة المدى (جاءت في معظمها من الاتحاد السوفياتي بواسطة سوريا وليبيا) وعبر توسيع رقعة شبكاتها وبناها التحتيّة: من مراكز قيادة، ومواقع مُعَدَّة، ومخازن ذخيرة، الخ. وبعد مضي احد عشر شهرا تضاعفت ترسانات منظمة التحرير الفلسطينيّة، لا بل بلغت ثلاثة اضعافها، حتى أنها أصبحت تحتوي على قرابة التسعين مدفعا من عيار ١٢٢ و ١٣٠ ملم، ومئة آلية من راجمات الصواريخ (في كلّ منها اربعون فوهة)، وعدد من المدافع الميدانية القصيرة المدى، واكثر من مئة دبابة ومئة وخمسين آلية لنقل القوّات، ومئتي بطارية دفاع مضادّة للطائرات D. C. A، ومئتي مدفع مضاد للدبابات. واذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية لم تستطع أن تجمع بين صفوفها سوى ما يتراوح بين الخمسة عشر والعشرين ألف رجل مسلّح، فإنّ قوّة نار مدفعيّتها توازي العتاد

العادي الموضوع تحت تصرّف أربع أو خمس فرق كاملة. وكلّ من يفهم ماهية هذه الأرقام لا يساوره شكّ في الدوافع الكامنة وراء حيازة هذه الأسلحة المتنوعة بكميّاتٍ مماثلة، ولا في نيّة استخدامها من قبل منظمة التحرير الفلسطينية.

في موازاة حيازة الأسلحة الثقيلة واصلت منظمة التحرير الفلسطينيّة تعدّياتها التي شملت مختلف أماكن اسرائيل ومنطقة الرائد سعد حداد والبلدان الأجنبيّة. فنجم عن ذلك مقتل عدد من السياح في القدس وسقوط عرب في اليهودية والسّامرة. وسُجّل وقوع اعتداءات في حيّ يهودي من أحياء أنفيرس في بلجيكا، كما تعرّض للهجوم أحد المطاعم اليهودية في برلين، ومعبد يهودي في فيينا. خلال الفترة الممتدّة من تموز (يوليو) ١٩٨١ الى حزيران (يونيو) ١٩٨٢ أدّت هذه الاعتداءات وكثير غيرها الى وقوع خمسة عشر قتيلا وجرح مئتي وخمسين آخرين. غير أن أجهزة الأمن الاسرائيلية أحبطت محاولات إجرامية كثيرة كالهجوم الصاروخي الذي استهدف ايلات والقنابل الموضوعة في الباصات وغرف الهاتف والعبوة الناسفة في حديقة أطفال في هولون.

واحتراما لوقف اطلاق النار، تحلينا بالصبر تحت الضغط الأميركي. فكنّا نشهد، مكتوفي الأيدي، تزايد الاعتداءات وانتشار بطاريات المدفعيّة التي راح يرتفع عددها أكثر فأكثر على الجهة الأخرى من حدودنا. واتضح للعيان ان اسرائيل لم تعد تستطيع المضي في تقبّل الوضع السائد. كان حبيب والأميركيّون على علمٍ بهذا، ولكنهم سعوا جاهدين الى كسب الوقت آملين إيجاد صيغة دبلوماسيّة تقضي الى انسحاب القوّات السورية وسحب قطع المدفعيّة الثقيلة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينيّة، وإلى إحلال وضع يسمح، من خلال انتخابات جديدة، بإقامة حكومة شرعية في بيروت. ونظرا الى مطامع السورين في لبنان على المدى البعيد، والى هدف منظمة التحرير الفلسطينيّة الذي لا رجوع عنه بتدمير اسرائيل، فإنّ أيّ وسيط غير حبيب كان اقر منذ زمن بعيْد بإخفاقه وسعى الى سبيل آخر. لكن حبيب لم يعتبر نفسه منهزما، مع أن جهودَه ذهبت أدراج الرياح وصبرَنا بدأ ينفذ.

ترتّب على جمود هذا الوضع، نتيجة وخيمة تمثّلت بتفاقم خطورة علاقاتنا مع الأميركيين. وفي أثناء محادثاتنا التي أجريناها، بيغن وأنا، مع حبيب وسفير الولايات المتحدة في اسرائيل سام لويس، اتّسع التباين بين مواقفنا ومواقف الولايات المتحدة أكثر فأكثر، وخرجنا من الاجتماع حانقين تتأكلنا المرارة. وخلال أحد هذه اللقاءات الأولى اشتكيت الى حبيب من خروقات منظمة التحرير الفلسطينيّة لوقف اطلاق النار. وقلت له إنّ لبنان في حاجة الى انتخابات حرّة ونظام برلماني يعيدانه الى وسط العالم الحرّ، كما هو في حاجة الى توقيع معاهدة سلام مع اسرائيل — رسمية وغير رسمية على حدّ سواء. ولكن يستحيل إقامة مثل هذه الانتخابات ما دام السوريون يحتلّون بيروت والمناطق المسيحيّة الواقعة بين بيروت وزحلة. فما دام السوريّون باقين هناك ستخضع كل حكومة لبنانية لسلطة دمشق. أضف الى ذلك العقبة المتمثلة بمنظمة التحرير الفلسطينيّة. فلبنان أصبح اليوم مقرّ الإرهاب الدولي حيث يعيش خمسة عشر ألف ارهابي، دولة فقدت كل أمل بإقامة انتخابات أم باستعادة ايّ شكل من أشكال الاستقرار.

لم ينفِ حبيب صحّة هذا التحليل ولكنّه كان من دعاة تسهيل رحيل القوّات السورية عبر « آلية ما » واستبدالها بقوّات عربية أخرى. آنذاك فقط يمكننا التطرّق الى المشكلة الفلسطينيّة.

وجدت أن الاستراتيجيّة الأميركية لن يكتب لها النجاح. أولاً، لأنّ السوريين ليسوا على استعداد لمغادرة البلاد ومنح مكانهم لقوّات عربيّة اخرى (وهذا ما لم يفعلوه بالطبع)، ثانيا، لن نقبل بأيّ ثمن دخول مزيد من القوّات العربيّة المعادية لاسرائيل الى لبنان. (فالسماح للسوريين بالدخول الى لبنان كان غلطة قاضية). وما من وسيلة نخرج بها السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينيّة « بلطافة »، على حدّ ما رغب فيه حبيب. ثالثا، لم نكن مستعدين للوقوف مكتوفي الأيدي وتحمُّل عنف منظمة التحرير الفلسطينيّة الى ما لا نهاية.

قلت لحبيب : « تقوم سياستنا على تنفيذ وقف اطلاق النار حتى أطول وقت ممكن، ولكن في حال وقوع أيّ طارئ اعلموا أننا لن نعود الى الوضع الذي كان سائدا في تموز (يوليو). وأصرّ على القول لكم بكلّ ودّ وصراحة إننا لن نقبل بعد الآن هذا النوع من الحروب ... فقد قرّرت الحكومة عدم السماح بقيام حرب استنزاف تستهدف الأطفال والنساء والشيوخ، وإلّا سنجد أنفسنا نواجه وضعا سرعان ما سيتّخذ منحى لا أنتم ولا نحن نريده، ولكن هذا ما سيحدث بلا شك في نهاية المطاف. لا أقترح أيّ مشروع، ولكني أعرض ما يمكن القيام به: عملية سريعة تلحق بالارهابيين خسائر جسيمة حتى لا يظلوا عنصرا سياسيا وعسكريا في جنوب لبنان ... هذا هو حلّي الشخصي للمشكلة. حلّ سيتكفّل بتسوية المسألة فورا. بعد ذلك لن نجد على الأرض خمسة عشر ألف ارهابي مسلّح، وسيتغير الوضع عمّا هو عليه اليوم تغيّراً كليّا. ولكن شرط أن تكون لكم نيّة حقيقية في حلّ المشكلة.
فأجاب فيليب حبيب: « أريد حل المشكلة ولكن بطريقة مغايرة... »[1]

خلال المداولات التي تلت سعيت جاهدا لإقناع حبيب بأهمية وجود لبنان المستقلّ الديمقراطي. وقد شددت على اقتناعي « أنّه من مصلحتكم أن تجدوا في المنطقة دولة تنتمي الى العالم الحرّ. فمن الحدود السوفياتية حتى الأطلسي (مروراً بالشرق الأوسط وافريقيا الشمالية) لم يطالعني على الخريطة أيّ بلد تسود فيه ديمقراطية مستقرّة غير اسرائيل. انظروا من حولكم. إنّ ايران لن تصبح ابدا دولة ديمقراطية... وكذلك سوريا. ومصر ليست ديمقراطية. وماذا عن ليبيا ؟ خذوا هذه البلدان كلّها ــ حتى الأطلسي ــ وستجدون ان البلد الديمقراطي الوحيد في هذه المنطقة هو اسرائيل. وفي استطاعة لبنان أن يكون البلد الديمقراطي الثاني. لهذا، على السوريين الانسحاب من أراضيه،

(١) تم هذا اللقاء في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١.

على الأقلّ من بعض المناطق. كما يجب تقليص قوّة الارهابيين العسكرية إن لم يكن إبادتها كلياً »[1].

كانت منظمة التحرير الفلسطينيّة، بتكديسها الأسلحة الثقيلة ونشرها في جنوب لبنان، تستعدّ بلا ريب لشنّ حرب استنزاف بكل معنى الكلمة. عندئذ قمت بمراجعة الخطط العسكرية التي وضعت بعد عمليّة الليطاني. وعلى غرار كل خطة عسكرية هدفت خطة أورانيم الى أقصى الطموحات. فتمثّل هدفها النهائي بإبادة المراكز العملياتية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينيّة وهدم بنيتها التحتية على امتداد لبنان، بما في ذلك بيروت. لكن خطة أورانيم ــ كسائر الخطط العسكرية أيضاً ــ حدّدت سلسلة اهداف وسيطة، لكل منها قيمته الذاتية. لذا كنت أجهل، على هذا الصعيد، أيّ جزء سيوافق عليه مجلس الوزراء في حال وردت المسألة في جدول أعماله. ولكن بعد تنقيح الخطة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١، أصبحت تشمل الأهداف الآتية:

١ ــ يتمثّل الهدف الأوّل بازالة خطر الارهابيين كليا ــ أي تصفية قوّاتهم العسكرية وبنيتهم التحتيّة، لا سيّما في بيروت.

٢ ــ يتمثّل الهدف الثاني بتحييد السوريين عبر مناورات ترهيب وتهويل، متجنبين قيام مواجهة فعلية معهم.

٣ ــ علينا بلوغ الهدف الأدنى من الخطة منذ بداية العملية : وضع كافة التجمّعات السكنية في شمال اسرائيل خارج مرمى طلقات المدفعيّة.

٤ ــ سنحرص حتى لا تطال هذه العملية الشيعة والدروز والمسيحيين.

٥ ــ لا مصلحة لنا في إبقاء قوّاتنا طويلا في الأراضي التي نكون قد استولينا عليها. فتحقيق أهدافنا المذكورة آنفا سيسمح لنا بالانسحاب.

(١) لقاء الأوّل من أذار (مارس) ١٩٨٢.

٦ ــ لا يتمثّل هدف العملية بضمان سيادة الحكومة اللبنانية على كامل اراضيها، فهذه مسألة تتعلّق باللبنانيين وحدهم.

٧ ــ تشكّل العلاقة مع المنطقة المسيحيّة في الشمال الشرقي شرطا ضروريا لبلوغ الأهداف المذكورة أعلاه، لأنّها المنطقة الوحيدة التي تسمح بعزل بيروت وقطع طريق بيروت ــ دمشق من دون أن يقتضي الأمر مواجهة الآلية العسكرية السورية الرئيسية في البقاع.

على رغم اتقان خططنا أوضحت لهيئة الأركان خلال اجتماع عقد في وزارة الدفاع، في ١٤ كانون الأوّل (ديسمبر) اننا نأمل دائما تثبيت وقف إطلاق النار، موضحا أن خطة أورانيم لن تُطبّق الا في حالات الطوارئ. قلت لضباط الأركان : « أؤكّد لكم أنّ لا نيّة لنا حاليا في خرق وقف اطلاق النار ولا في اضرام حرب جديدة. فنحن نريد تفادي هذا المـأزق » وفي اليوم التالي الواقع فيه ١٥ كانون الأوّل (ديسمبر) استدعيت قادة مركز قيادة منطقة الشمال العسكرية وضباطه وكرّرت ما سبق لي أن قلته لضباط هيئة الأركان : « نأمل تثبيت وقف اطلاق النار. ولا يجدر بنا إطلاق عملية أورانيم الا في حال تعرّضت مناطق الشمال للقصف مجدّداً ».

كنت أصرّ حتّى يطلع جيدا ضباط هيئة الأركان وسائر كبار الضباط على موقف الحكومة من وقف إطلاق النار، غير انني كنت أريدهم أن يدركوا أهمية الأهداف التي حدّدتها هذه الخطة الشاملة والمعنى الذي تنطوي عليه. وخلال هذه الاجتماعات لم أخفِ شيئا بتاتا. « فنحن عندما نتكلّم عن الفرع السياسي [لمنظمة التحرير الفلسطينيّة] علينا ان نفهم من ذلك مراكز قيادتها في بيروت، وهذا يعني انه ينبغي لنا الوصول الى بيروت [...] والهدف الثاني هو حصول انسحاب سوري ما [...] أمّا الثالث فيتضمّن طابعا سياسيا أكثر، اي إنشاء علاقة بين مسيحييّ الشمال واسرائيل، حتى يصار الى ترسيخ حكومة منتخبة هناك، [...] تكون على اتصال بالعالم الحرّ [و] تربطها باسرائيل اتفاقية أو تعايش سلمي [...] أمّا المدنيّون فلن نتعرّض لهم ».

كانت أوامري واضحة ومفصّلة. وكذلك كانت أوامر هيئة الأركان ومركز قيادة الشمال. فتبدّدت الشكوك التي ساورت صفوف الجيش ومجلس الوزراء في ما يتعلّق بمدى الأهداف التي سنضعها في حال انهيار وقف اطلاق النار.

كنت أرغب في زيارة لبنان شخصيا حتى أكوّن، قدر المستطاع، رأيي الخاص في الوضع القائم، وان افهم خصوصاً ما يمكننا أن ننتظره من مسيحييّ لبنان في حالة الحرب. ويعود تاريخ لقائي الأوّل ببشير الجميل الى أيّام وزارة الزراعة التي تولّيتها. كان يزور آنذاك القدس لمناقشة اسرائيل حول مساعدة المسيحيين. فوجدته رجلا حازما واثقا من نفسه. كان كلامه ينمّ عن قناعة وسطوة بالغتين، عن رجل سبق له أن برهن عن مواهبه القيادية. لكنّ ثمة ما كان يقول لي بأنني لن أتمكّن من تكوين فكرة أوضح عن هذه الشخصيّة إلّا إذا ذهبت الى بيته، وقابلت رجاله في مساكنهم وبين عائلاتهم، وإذا قمت بجولة على المواقع المسيحيّة. حينئذ فقط قد أتمكّن من الإحاطة به وتقدير جوانب تحرّكه.

وافق بيغن على رحلتي. وفي غضون ذلك تلقيت من بشير الجميّل دعوةً شخصيّة للمجيء الى لبنان حتّى أقابله وأقابل والده بيار الجميل وغيرهما من القادة. وأعلمني بيغن أنّ وضع المسيحيين في تدهور مستمّر. فالجيش السوري يواصل استنزاف قواتهم ببطء، وسينتهي به المطاف بلا ريب الى تقليص رقعة الأراضي المسيحيّة. لذا كان من الضروري أن يذهب أحدهم الى لبنان للاطلاع على الوضع القائم.

أحيط الجميّل علما بوصول « شخصيّة رسميّة مهمة » الى لبنان في مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢. ثم نظّمنا جدول الرحلة بأدقّ تفاصيلها ــ كانت عملية معقّدة لأنّ الوصول الى المنطقة المسيحيّة عن طريق البرّ كان مستحيلا، لا سيّما أن القطاع بأسره تحوّل الى ساحة معركة.

وجدنا الطائرة المروحيّة الوسيلة الفضلى، وربما الوحيدة، للوصول الى القطاع

المسيحي، وذلك عبر التحليق فوق المتوسّط. لذا تزوّدنا زوارقَ ومعدّاتِ إنقاذ في الماء، واتخذنا بعض التدابير تحسُّبا لهبوط قسري. ووُضِع في تصرّفي عناصر متخصصّون لضمان أمني وأمن أتباعي، كرئيس أجهزة المخابرات يهوشع ساغي، ومساعد رئيس هيئة الأركان الجنرال موشي ليفي. ورافقنا فريق نجدة. أضف الى هؤلاء الركاب الكثر عدّة مثيرة تتألف من اطواف وحبال وآلات ربط واشياء اخرى كثيرة تجعل من هذا الطيران رحلة خطرة حتى من دون حوادث.

أقلعت طائرتنا من تل أبيب تحت جنح الظلام وحلّقت في محاذاة الشاطئ حتى حيفا. ومن هناك انعطفت الطائرة في اتجاه البحر مبتعدة عن الساحل اللبناني المحفوف ببطاريات المدافع المضادّة للطائرات .D.C.A. فطالعتنا عن اليمين انوار صور فأنوار صيدا. وبعد مضي نصف ساعة أصبحت بيروت على مرأى منا. فابتعدنا أكثر عن الساحل حيث راح الرصاص الخطّاط يزيّح السماء فوق ضواحي المدينة.

أخيرا اتجهنا الى جونية، المرفأ المسيحي في شمال بيروت. فحطّت الطائرة على الشاطئ حيث كان في انتظارنا ضباط ارتباطنا مع بشير الجميل وكبار ضباطه. فاحتضنني بشير وتبادلنا القبل كما جرت العادة عند العرب. وباح لي بالآتي: « لم يعلمني أحد بقدومك ولكني كنت متأكدا أن الآتي هو أنت ».

لما نظرت حواليّ فوجئت عندما رأيت آلاف النقاط المضيئة وهي تتراقص على صفحة المياه. فقال لي بشير موضحا: « انها مراكب، سفن شحن ». فسألته متعجبا: « ولكنكم في حالة حرب ... كيف يمكن لسفن الشحن هذه أن ترسو هنا، على المكشوف ؟ » فأجابني بشير: « صحيح أننا في حالة حرب. لكنّ الحرب شيء والأعمال شيء آخر. اعلموا جيّدا ان الحرب لم تُعِقْ يوما سير الأعمال ولا العلاقات التجارية على رغم فداحة الوضع ». (أوقعت هذه الحرب منذ ١٩٧٥ مئة ألف قتيل وقرابة مائتين وخمسين ألف جريح، من أصل شعب يبلغ عدده ثلاثة ملايين نفس). وكانت سفن الشحن هذه ترسو في الحوض وتفرغ بضاعتها في شاحنات تقوم بإرسالها وتوزيعها

على كافة بلاد الشرق الأوسط: الى إمارات الخليج ودمشق والمملكة العربيّة السعودية والاردن الخ ... وتجد هذه الشاحنات دائما سبيلا أو ممرا للنفاذ منه.

من الشاطئ اقتادونا الى أحد منازل جونيه، حيث كان في انتظارنا عشاء فاخر. في ما بعد، قمنا بجولة سريعة في بيروت التي اصررتُ على مشاهدتها قبل ان تستحوذ عليّ الجولات واللقاءات المقرّر انعقادها صباح اليوم التالي. كان بشير يقود سيّارته، تواكبه عربتان تقلاّن حرسه الخاص. واحدة من الأمام والثانية من الخلف. فاجتزنا العاصمة في رفقتهما. وذكّرني خط التّماس الذي يفصل المنطقة الشرقية المسيحيّة عن المنطقة الغربيّة المسلمة بتقسيم القدس سنة ١٩٦٧. هناك كانت تطالعك آثار الحرب في كل مكان: حواجز خاضعة لحراسة مشدّدة، وأبنية مهدّمة أو مخرّقة بفعل الرصاص، وأشلاء ستارات معدنيّة أصبحت عاجزة عن حماية المتاجر والمساكن. لكن الحياة بدت مع ذلك كأنها تواصل دورتها الطبيعية، وربّما بزخمٍ لم تألفْه عادةً. وكانت الشوارع تغصّ بالسيّارات التي راحت تتنافس على إطلاق زعيق أبواقها، سيّارات يقود الكثير منها شابات أنيقات اتشحن بمناديل زاهية الألوان. أمّا المطاعم فكانت مكتظّة بالروّاد، شأنها شأن علب الليل التي ألقت بأضوائها على الحشود التي كانت تسير على الأرصفة بخطى سريعة. ترجّلنا من السيّارة نمشي قليلا، وفيما كنت أسعى جاهدا لتسجيل كل شاردة وواردة، عجبت لهذه الحيوية وهذا المرح الدائم وسط حرب من أجل البقاء دخلت سنتها الثالثة.

في صباح اليوم التالي استهللت نهاري في ساعة مبكرة جدا فقمت بزيارة مركز قيادة القوّات المسيحيّة اللبنانيّة في القطاع الشمالي من مرفأ بيروت. (أمّا القطاع الجنوبي فقد سيطرت عليه احزاب اسلامية وقوّات سورية). وأفهمتني نظرة بسيطة الى الحركة الناشطة في المنطقة لِمَ تسبّبت المرافئ بمعارك ضارية خلال حرب الميليشيات هذه. فالسيطرة على مرفأ من المرافئ تتمخّض عن مداخيل مرتفعة، تؤمّن القوّات والأسلحة والنفوذ. وتجلّت بوضوح حماسة الجنود المسيحيين نتيجة هذه الزيارة المفاجئة التي قام بها وزير الدفاع الاسرائيلي.

من مركز القيادة العامة انتقلنا الى عدد من مراكز المراقبة التي تخوّلنا إنعام النظر في الشطر الغربي من العاصمة. بعد ذلك بلغنا قمم الجبال إثر استراحة في ضاحية مسيحيّة اسمها بيت مري (بيت العذراء مريم). ومن الطابق الثاني في أحد المباني اكتشفنا المدينة ممتدة تحت أبصارنا في مشهد شامل. فانبسطت أمامنا كافّة نقاط الاستدلال والأماكن الرئيسية في المنطقة : كمطار بيروت والمرفأ، أمّا في الناحية الجنوبيّة فيطالعنا مرتفع انتصبت فوقه بناية ضخمة يعلوها مبنى صغير يأوي وزارة الدفاع اللبنانية ومقرّ رئاسة الجمهورية.

فيما كانت أقلّب طرفي في الجوار، محدّدا على الخريطة ما نشاهده من أماكن، راح بشير يواصل النقاش الذي بدأ البارحة على مائدة العشاء، وقال : « ماذا تنتظرون منّا في حالة الحرب ؟ » أجبته : في مثل هذه الحالة يجدر بكم أوّلا الدفاع عن خطوطكم. إعرفوا أنّنا لا نستطيع مساعدتكم في حال تقهقرت قوّاتكم. لذا، عليكم التمسّك بمواقعكم. ثمّ، أترون تلك الهضبة هناك، هضبة وزارة الدفاع ؟ إنّها لحيوية. ففي حالة الحرب يجب أن تحتلّوها وتخضعوها لمراقبتكم. [اتّسمت في نظري هذه الهضبة المعروفة باليرزة بأهميّة كبرى، لأنّ طريق بيروت — دمشق كان يمرّ بأحد سفوحها]. ثالثا، لن تدخل اسرائيل الى بيروت الغربيّة، عاصمة الحكومة والسفارات ومقرها. فوجودنا في هذا الشطر من المدينة سيطرح لنا مشاكل سياسيّة معقّدة. لذا ستكون بيروت الغربيّة من شأنكم ومن شأن الجيش اللبناني(١).

وصلنا في مرحلتنا التالية الى جبل صنين الذي شهد المعركة الفاصلة بين المسيحيين والسوريين في تموز (يوليو). كان هذا الجبل مصيفا ومركز تزلّج ذائع الصيت، ارتاده في ما مضى أغنياء فلسطين. وفي أيّام طفولتي سمعت الكبار يتحدّثون غير مرّة عمّا « في استطاعة المال أن يؤمّنه لك ». فكانوا

(١) مقتطف من بروتوكول اللقاء الذي سجله مراسل وزارة الدفاع.

يقولون : « اذا كنت غنيّا، لا بأس بفلسطين. ولكن، في امكانك تمضية الصيف في جبال لبنان والشتاء في مصر ». بدت لي آنذاك هذه الأحاديث غامضة، فسعيت جاهدا علّني أتصوّر ما يختلف فيها عن صيف كفرملال وشتائها. أمّا اليوم، فأصبح في وسعي أن أرى وألمس معنى تلك الأحاديث التي تهادت الى مسامعي في أيّام طفولتي. فهذا الجبل ذو جمال أخّاذ فعلا. كانت تكسوه آنذاك طبقة من الثلج غير كافية بعد لممارسة التزلّج. ومن على قمّة هذا الجبل كنّا نتبيّن « الغرفة الفرنسيّة ». ذلك الحصن المنيع الذي استولى عليه السوريّون خلال العمليّة التي اسقطنا خلالها مروحيّتين من طائراتهم.

قمنا بجولة على الجبال وعلى طول الخطوط المسيحيّة، وكان بشير يقود سيّارته المرسيدس المجهّزة بهاتف، ما ينمّ عن ترف لم نكن قد عهدناه بعد في تلك الفترة. كانت لنا وقفة في كلّ بلدة مررنا بها، يطلعني خلالها مضيفي على تاريخها وأهميّتها. وراح سكان هذه القرى والبلدات يرحبون ببشير، الذي يعرفونه، ويسمّونه باسمه. وما لبثت أن مرّت وحدات من الجيش على مرأى منّا. وعندما ترجّل بشير من سيّارته تعالت هتافات الجنود مهلّلة له. من الجليّ ان الرجل كان يحظى بشعبيّة واسعة، فلا يسع المرء الا ان يؤخذ بما للرجل من هيبة وحظوة تظهران للعيان في كل مكان. وتوقفنا في مسقط رأسه بكفيا. هناك أخذني بشير الى المقبرة حيث تستريح نفس ابنته وسائر أعضاء عائلته، الى المقبرة التي سيدفن فيها بعد تسعة أشهر.

بعد نهار طويل أمضيناه في الجبال عدنا الى مسكن بشير في منطقة الأشرفيّة من بيروت، حيث استقبلتنا زوجته صولانج. في ما بعد أدركت أن هذه المرأة الجميلة كانت في حد ذاتها شخصيّة فذّة. وجدنا في المنزل والد بشير، بيار الجميّل، وكميل شمعون، رئيس الجمهورية السابق. وعلى كبر سنّهما كانا لا يزالان يتمتّعان بذهنٍ حادّ.

لدى دخولك الى أحد المنازل اللبنانية، لا يمكنك إلّا ان تنظر الى معرضِ صورٍ تمثّل افرادا من العائلة لاقوا مصرعهم خلال الحرب. وفي الواقع، ما

من أسرة لم تفقد أحد أفرادها، مسيحيّة كانت أم مسلمة، لأنّ الموت أحلّ ضرباته عشوائيّا وفي كلّ مكان. فالمسيحيّون سقطت ضحاياهم في المعارك التي دارت ضدّ منظمة التحرير الفلسطينيّة والميليشيات المسلمة والجيش السوري والأحزاب المسيحيّة المنافسة أحيانا. وفي هذا المنزل، استحوذت على نظراتي كلّها صورة أُخذت لطفلة مميّزة بجمالها، هي ابنة بشير وصولانج، التي جئت على زيارة ضريحها والتي ذهبت ضحيّة قنبلة وضعت في سيّارة العائلة — عمل انتقامي نفّذته منظمة سليمان فرنجيّة. فقد قتل رجال الجميّل منذ فترة وجيزة ابن فرنجيّة، طوني، الذي أقام علاقات متينة مع السوريين، ومعه زوجته وابنته. فلا يسع المرء إلّا ان يعيش طوال حياته مهدّدا بموت صاعق شكّل عبئا منذ قرون تخلّلتها فترات هدوء. كل ما يطالعك في مسكن بشير وصولانج ينمّ عن ذوق رفيع وسحر وأناقة. أمّا العشاء فكان فاخرا، والخدمة ممتازة، والحديث انساب متناغما في لغة فرنسيّة متقنة — كل هذا على خلفيّة دامية من الاغتيالات والموت والمجازر.

كان رب العائلة بيار الجميل رجل مديد القامة مشيقها، مستقيما كالألف (أ)، تنطوي هيئته على مسحة ارستقراطية. امّا شمعون فكان بالأحرى رَبْعاً — واكثر استرخاء من الجميّل. ومع أنّهما كانا يتحدّثان كصديقين قديمين، كنت أعرف أن عائلة الجميل قامت قبل سنة بارتكاب مجزرة ضد ميليشيات شمعون، مفككة حزبه ومؤمنة بذلك للكتائب مكتسبات منافسها السياسية.

بعد تقديم القهوة بدأنا مناقشة تناولت مختلف المشاكل. استهلّها بيار الجميّل الذي تحدّث باللغة الفرنسيّة، فترجم أحد افراد الموساد الذي كان يرافقنا أحاديثه الى العبريّة. وبعد وصف الخسائر التي تكبّدها المعسكر المسيحي وسفك الدماء والأوجاع والدمار، راح هذا الرجل العجوز، الذي يوحي لك بالصلابة، يبكي بصمت. ومن طرف عيني استنتجت أن كميل شمعون لم يكن يحبّذ أبدا هذا الإفصاح عن المشاعر، لا بل اعترته أمارات الحنق. وبشفتين مضمومتين سرّب الى مسامع الجميّل باللغة العربية : « ما تبكي » (لا تبكِ).

تحدّث كل من شمعون والجميّل عن خوفهما الشديد من أن يستمرّ السوريون في نهش المنطقة المسيحيّة. كما تطرّقنا الى انتخابات رئاسة الجمهورية التي ستجري في أيلول، فشرحا لي طريقة الاقتراع، وعدد الأصوات التي هم في حاجة إليها حتى يعتلوا سدّة الرئاسة ومَنْ مِنَ النواب يمكن ان يؤمّنها. ووصفا لي فئات الشعب، مشدّدين على عدد المسيحيين الذين يعيشون في زحلة التي يطوّقها السوريّون، وفي الشمال الخاضع لسيطرتهم. (لكنَّ اكثر ما كان يستحوذ على اهتمامهما هو معرفة ما إذا كان من أمل في أن تدخل اسرائيل يوما الى لبنان ! وأوضحا أنّه في حال توغّلت سوريا أكثر في لبنان ستصبح مقاومتهم ضربا من ضروب المستحيل. فأجبتهما بما سبق لي أن قلته لبشير في اليوم ذاته، وهو أن اسرائيل تعمل جاهدة لتفادي الحرب، ولكن اذا واصل الارهاب انتشاره فعلينا ان نتحرّك في المقابل. وأضفت موضحا : « اذا ما وجدنا ضرورة للدخول الى لبنان، فلن نقوم بذلك الّا في سبيل الدفاع عن حدودنا الشمالية. لكنَّ هذا التدخّل قد يوفّر لكم فرصة إعادة دورة الحياة في لبنان الى طبيعتها. ومثل هذا الاحتمال يرتبط ارتباطا وثيقا بالسلام او باتفاقية سلام بين اسرائيل ولبنان ».

تدخّل كميل شمعون ليقول انه لا يعتقد ان اي حكومة لبنانية تستطيع توقيع معاهدة سلام مع اسرائيل، او ترغب في ذلك. فالروابط المتينة التي تصل لبنان بالعالم العربي، إضافة الى مصالحه الاقتصادية وعلاقات المعاملة بالمثل القائمين بين مصارفه ومصارف سائر الدول العربيّة، والأعداد الهائلة من اللبنانيين الذين يعملون في كافّة دول الشرق الأوسط، والعلاقات الاقتصادية، تمثّل كلّها عوامل تضافرت لقطع الطريق أمام اتفاقية سلام مماثلة. وإذا تمكّن بيار الجميّل من اعطائي انطباعا يوحي باحتمال مهادنة اسرائيل في يوم من الأيام، فإن كميل شمعون بدا من جهته أكثر تحفظا حيال المسألة.

توسّعنا في كلامنا عن علاقات المسيحيين بسائر الطوائف الأخرى، لا سيّما الشيعة والدروز. شخصيا، طلبت منهم توثيق الروابط مع هاتين الأقليّتين،

حتى انني اقترحت اعطاء قسم من الأسلحة التي منحتها اسرائيل، ولو كبادرة رمزية، الى الشيعة الذين يعانون هم أيضا مشاكل خطيرة مع منظمة التحرير الفلسطينيّة. ومن دون الدخول في اي تفاصيل، لم أرَ يوما في الشيعة اعداء اسرائيل على المدى البعيد، ولا حتى في الدروز. فالطائفة الدرزية اليهودية اندمجت في كل ميادين مجتمعنا، ابتداء من عالم الأعمال حتى الجيش. وقولي هذا لا يعني أنني اعتبر الطائفة السنية اللبنانية عدوانية قسرا او عدوًّا لدودا. فهم يعيشون معنا بسلام منذ عشرين عاما، ولا دافع يحول دون ديمومة هذا التعايش مستقبلا. أمّا عدوّنا الحقيقي الذي رأيته هنا، فيتمثل بالمنظمات الارهابية الفلسطينية « وأرض فتح » المستقلّة، إضافة الى السوريين الذين يؤمّنون لهم الحماية والمساعدة.

استمرّ الحديث بضع ساعات، ولكن مع حلول الظلام كان لا بدّ من إنهائه حتى أرجع الى الشاطئ لموافاة الطائرة المروحيّة المكلّفة باعادتنا الى اسرائيل. وعلى رغم الحرب، شهدت الطرقات حركة سير كثيفة أدّت في أماكن كثيرة الى ازدحام السيّارات. فكنّا نراوح مكاننا على غرار آلاف السيّارات الأخرى. فساورني قلق بالغ بشأن موعدنا الذي اتسم بدقّة متناهية.

عندما وصلت أخيرا الى منزلي في ساعة متأخّرة من الليل، كانت ليلي في انتظاري. فبادرتني بسؤالها : « كيف وجدت اللبنانيين ؟ فأجبتها : « أناس يقبّلون الأيادي ويقتلون في نفس الوقت ».

بعيد عودتي، قدّمت الى بيغن والحكومة المصغّرة تقريرا عن زيارتي، واصفا المواضيع المعالَجة بأدقّ تفاصيلها، وعارضا انطباعاتي حول مواطن القوّة ومواطن الضعف الكامنة عند المسيحيين. ولو لم أوطّد معرفتي بالكتائب لما تبلورت العلاقات القائمة بين اسرائيل والمسيحيين والتي أكّدتْها محادثات بيغن وبشير في القدس، في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٨٢. خلال هذا اللّقاء ذكّر رئيس الوزراء بشروط التدخّل الاسرائيلي المسلّح في لبنان : واصل الارهابيّون هجوماتهم

واعتداءاتهم، « وعندما يفهم العالم بأسره ـــ كالولايات المتحدة وأوروبا والعالم الثالث ـــ ان الستاتوكوُ الذي كان سائدا قبل تموز هو وضع لم يعد له وجود. عندئذ سنتقدّم شمالا حتى أقصى مسافة ممكنة ».

بعد مضي أسبوعين على عودتي من لبنان، ذهبت الى القاهرة لبدء سلسلة أحاديث جديدة مع وزير الشؤون الخارجية المصري حسن علي. وكان يفصلنا آنذاك عن موعد إعادة سيناء بضعة أشهر. فتفاقمت المشاكل التي ترتّبت على مثل هذا الإجراء.

على رغم التوتّر الذي واكب هذه المرحلة الأخيرة من المحادثات، نجحنا كلانا ـــ حسن وعلي وانا ـــ في المحافظة على العلاقات الودّية المتبلورة منذ بضع سنوات. التقينا في مكتبه الواقع في قصر قديم من قصور القاهرة لمناقشة موضوع جلائنا عن سيناء وسائر المشاكل التي كانت لا تزال عالقة. في ما بعد، اطلعته على زيارتي بيروت. كنت أعرف بالطبع أنه على علم بها، شأنه شأن السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينيّة. ففي لبنان لا يُكتم سر... لذا لم تعد زيارتي سرّا مكتوما عن أحد... فنحن أنفسنا علمنا أنّه خلال زيارة بشير الأخيرة لاسرائيل، كان شقيقه أمين يتداول مع عرفات.

تكلمت إذاً مع حسن علي عن محادثاتي مع بشير، وحلّلنا فرص قيام سلامٍ ما، كما أراها من وجهة نظري. فقلت ان إنشاء رابط بين القدس والقاهرة وبيروت ليس ضربا مستحيلا، وتستطيع هذه الخاطرة، اذا ما تحققت بطريقة أو بأخرى، تغيير صفحة الشرق الأوسط.

اضافة الى ذلك، تطرّقنا الى مشكلة الارهاب. وأوضحت قائلا : « إنّ وضعنا في منتهى الصعوبة ». ثمّ عرضت أمامه بنود اتفاق وقف اطلاق النار والأسباب التي تجعل من هذا الاتفاق قيدا يكبّلنا. فقد تمالكنا أنفسنا وبرهنّا عن اعتدالنا، أمّا منظمة التحرير الفلسطينية فلا يمكنها ادّعاء الكلام عينه. نحن نعلم ان رسائل بُثت من اذاعات في لبنان وأنّ اشخاصا ومجموعات

منفصلة قد أرسلوا جميعهم من بيروت الى كافّة أنحاء العالم لتنفيذ مهمّات عمليّاتية. (استنادا الى أجهزة المخابرات الاسرائيليّة، تمّ في لبنان، سنة ١٩٨١ وحدها، إعداد الفي شخص ينتمون الى منظمات ارهابيّة منتشرة عبر العالم للقيام باعتداءات مسلّحة. ولجأ عدد كبير من هؤلاء الرجال الى لبنان بعد ارتكاب مساوئهم. وتتضمن وثائق أخذت خلال حرب لبنان وصفا دقيقا لدروس كانت تعطى الى ارهابيّي السلفادور وتركيا وبنغلادش وجزر المالوين وهايتي وايرلندا وغيرها من البلدان). وقامت منظمة التحرير الفلسطينية والمنظّمات الشقيقة منذ توقيع وقف اطلاق النار بتكثيف نشاطاتها الاجرامية في غير قطاع من الأراضي الاسرائيليّة (كما واصلت هذه المنظمات وضع ألغام في منطقة الرائد سعد حدّاد، ولكن على نطاق ضيّق) وبتمرير الرجال والأسلحة الى الأردن عبر لبنان وسوريا. ومنذ ١٩٦٨ والسياسة الأردنيّة قائمة على عدم السماح للارهابيين بتنفيذ عمليّات في الأراضي الاسرائيلية ما دام الهدوء مخيّما على طول نهر الأردن. وقد أنشأ الاردنيّون شرق هذا النهر منطقة زراعية مزدهرة، وهم لا يرغبون في تعريض هذا الانجاز للأخطار. وكانوا ينجحون عموما في تدارك الحوادث المستجدّة على الحدود وفي إلقاء القبض على الارهابيين الساعين الى إثارة الفتن. أمّا في اليهودية والسامرة وغزّة وداخل أراضي اسرائيل، فكانت منظمة التحرير الفلسطينيّة تكثف اعتداءاتها التي شملت أوروبا على حدّ سواء.

عند ذلك وجدت اسرائيل نفسها وقد وقعت في الشرك. فاللجوء الى شنّ غارات ضدّ قواعد منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، ردّا على اعتداءاتها، يعتبر خرقا لاتفاق وقف اطلاق النار. وإذا ما قرّرنا التحرّك لصدّ بعض الحوادث، فقرى الشمال ستتعرّض لقصف صاروخي ومدفعي مكثّف. وبمعنى آخر، وقع سكّان الجليل نوعا ما رهينة منظمة التحرير الفلسطينيّة في كل اعتداء كانت تنفّذه خارج الجليل. وفي تلك الفترة، راحت منظمة التحرير الفلسطينيّة، المتسترّة وراء اتفاق وقف اطلاق النار، تعزّز بطاريّات مدفعيّتها،

وقاذفات صواريخها، وتحفر نظاما من الخنادق والمواقع المحصّنة. فوجدنا أنفسنا أمام شبكة هائلة من قطع المدفعيّة الطويلة المدى وقد رسخّت دعائمها في الجهة الأخرى من حدودنا. فقلت لحسن علي : « لم نعد نستطيع العيش في ظلّ ظروف مماثلة، ولا تُحمُّل الاعتداءات التي يتعرّض لها المدنيّون الاسرائيليون واليهود المنتشرون عبر العالم. فأجابني : « ألا تعرف بعد ماذا تفعل ؟ اذا واصلوا اعمالهم، حطِّمْ لهم رؤوسهم... ».

في أواخر كانون الثاني(يناير) ١٩٨٢، ألقت قوّاتنا القبض على دورية تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينيّة، مدجّجة بالسلاح، تسلّلت الى داخل اسرائيل بعد أن عبرت لبنان ثمّ الاردن. لكننا تمكّنا من ايقافها قبل إلحاق الأذى، وحتّى نعطي صورة واضحة عن وضعنا الى الأميركيين، قرّر مجلس الوزراء ارسال رئيس المخابرات العسكرية، يهوشع ساغي، الى واشنطن لمقابلة وزير الشؤون الخارجيّة الاميركيّة ألكسندر هيغ. فأطلعه على الوضع القائم خلال الأشهر الستة التي أُعلن فيها وقف إطلاق النار المزعوم. فقد وقع لنا خلال هذه الفترة ما يزيد عن مئتي ضحيّة، وأفهمه أنّنا لم نعد نقوى على تحمّل هذا الوضع بعد الآن. وأضاف اننا في حال قيام تعدّيات أخرى مزعومن على تنفيذ عملية واسعة النطاق ضدّ منظمة التحرير الفلسطينيّة ردّا على أعمالها، عملية قد تقودنا حتى ضواحي بيروت.

كان يعرف كل من هيغ وحبيب وسائر القادة السياسيين الأميركيين ان الوقت يستوجب الاستعجال. فوقف إطلاق النار الذي طالبوا به منحهم مزيدا من الوقت لإيجاد حل دبلوماسي لوضعٍ أضحى بالنسبة الى اسرائيل لا يطاق. لكن الجهود التي بذلها حبيب وهيغ نفسه لم تسفر عن نتائج. امّا محاولات حبيب الساعية الى الغاء عوامل الأزمة خطوة خطوة، فقد برهنت عن عجزها إزاء تصلّب منظمة التحرير الفلسطينية والسوريين. فكثّف حبيب جولاته وزياراته للمنطقة، مستخدما الضغط السعودي للحصول على تنازلات من السوريين ــ وربط هذه التنازلات بحل مشكلة منظمة التحرير الفلسطينيّة

والحكم الذاتي لسكان الضفة الغربيّة، لكنَّ هذه المساعي ذهبت بدورها أدراج الرياح. ولم يحرز إقصاء الصواريخ السورية اي نتائج، وهو تدبير تعهّد الأميركيون بتنفيذه خلال محادثات وقف اطلاق النار في تموز (يوليو). وفي أوائل اذار (مارس) ١٩٨٢ أوضحت لحبيب استحالة قيام حكومة شرعية لبنانية ما دام السوريون يحتلّون جزءا كبيرا من الأراضي اللبنانية. فأجابني أنّه يعمل منذ بداية مهمته من أجل ترحيل السوريين من لبنان. فقلت له : « ولكني لا أرى اي تدبير اتخذ في هذا الاتجاه ». أجابني : « المشكلة وردت في جدول الأعمال، ولكن لم يُعمل شيء في هذا السبيل ».

أفضى هذا الوضع الى قيام سجال بيننا وبين الأميركيين. وفيما كانت واشنطن تسعى جاهدة الى ربط نزاعات المنطقة بعضها ببعض في إطار تسوية شاملة معينة، مضيت في اصراري على أن لبنان يشكّل وحده مشكلة بلغت من التعقيد حدّا يستحيل علينا فيه حلّها مع سائر المشاكل الرئيسية. فالأهداف التي يمكننا بلوغها هنا تقتصر على :

١ــ إلغاء مصدر الارهاب الذي يستهدف اسرائيل واليهود.

٢ــ رحيل كافّة القوّات الأجنبيّة عن لبنان.

٣ــ وبالتالي إقامة حكومة مركزية مستقرّة في لبنان تكون مرتبطة بالعالم الحرّ.

في تحليل يستعيد احداث هذه الفترة وبعض المواقف السياسيّة المماطلة وغير الصحيحة التي اتخذتها الولايات المتحدة خلال المرحلة عينها، كتب الكسندر هيغ في مؤلفه[1] : « لم آمل كثيرا في نجاح هذه المهزلة ».

امّا الأميركيون الذين لم يحرزوا أيّ تقدّم ولم ينجحوا في ممارسة تأثيرهم

(١) الكسندر هيغ، من كتاب Caveat، لدار النشر : ماكميلان، ١٩٨٤، ص : ٣٣٤.

على منظمة التحرير الفلسطينية، فلم يجدوا سبيلا غير الضغط علينا حتى نبدي اعتدالا. حينئذ تفاقمت خطورة الوضع. فقد كرّروا بوتيرة واحدة وعلى كافّة الأصعدة بأنه لا ينبغي لنا الشروع في أيّ عمل إلّا في حال : « الاستفزاز الصريح المعترف به عالميا على أنّه استفزاز ».

في آذار (مارس) تصاعدت حدّة التوتّر إثر الاعتداءات الارهابيّة التي ارتكبت ضدّ المكاتب الاسرائيلية في أثينا وباريس، إضافة الى هجوم تعرّضت له جنين وغزة، ممّا أسفر عن مقتل ثلاثة جنود اسرائيليين. في ٣ نيسان (ابريل) لاقى أحد أعضاء السفارة الاسرائيلية في باريس مصرعه. وبعد ثلاثة أيّام أنشأ مجلس الوزراء لجنة مصغّرة لشؤون الأمن واتخذ قرارا بالرّد من الآن فصاعدا على مطلق اعتداء ارهابي. لكن هذا القرار حدد بالتخصيص ان كل حادث لن يعتبر بالضرورة سببا لإضرام الحرب. وبعد مضي ثلاثة أسابيع انفجرت آلية عسكرية اسرائيلية في المنطقة العازلة التابعة للرّائد سعد حدّاد (والتي يشملها وقف إطلاق النار)، ما أدّى الى مقتل جنديين. وبعد تسعة أشهر من ضبط النفس، قصف الطيران الاسرائيلي هذه المرّة قواعد منظمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت.

في ٤ آذار (مارس) التقيت بفريق قيادة جبهة الشمال العامة وكبار الضباط حتى رتبة قائد لواء لمراجعة الخطط وإيضاح موقف الحكومة. فشرحت أنّنا لن نشنّ الحرب لطرد القوّات السورية او لاقامة حكومة شرعية في لبنان، حتى لو ثبتت لنا إمكانيّة إبرام اتفاقية سلام معها... وقلت ان هدفنا المحدّد هو الارهابيون ». ويتطلب حلّ مشكلة الارهاب عمليّة تفضي الى إزالة الارهابيين ازالة كليّة، وإلى تدمير قوّتهم العسكرية ومقرّات قيادتهم ومراكزهم العملياتية السياسية في بيروت... وختمت كلامي بالآتي : « في نهاية المطاف علينا الوصول الى هناك ».

لم يكن هذا الاحتمال جديدا على هؤلاء الضباط. بل كانوا يعرفون جيّدا خطة أورانيم والدور الذي سيلعبه كلّ واحد منهم.

بعد العرض المطوّل الذي قدّمته تعاقب الضباط على إلقاء كلمتهم لإبداء ملاحظاتهم أو تحفظّاتهم. فوافق البعض على ضرورة عدم التعامل مع اي حكومة لبنانيّة. في حين استبعد قادة الفرق إمكانيّة تفادي المواجهة مع السوريين، لذا اقترحوا ورود ترحيل السوريين كهدف صريح وواضح من أهداف العمليّة. ولكن على رغم المداخلات والتباين في وجهات النظر، لم يساور الشك أيّ ضابط من الحاضرين في موقفي وفي سياسة الحكومة.

في ٧ أيّار (مايو) زُرع مزيد من الألغام في منطقة الرائد حدّاد. ومرّة جديدة أقلعت طائراتنا لضرب أهداف منظمة التحرير الفلسطينيّة التي أطلقت صواريخها على شمال الجليل ردّا على هجومنا. وهذه المرّة أيضا أُعلنت حالة الانذار في الجيش (بعد أن أعلنت خمس مرات بين نيسان (مارس) ١٩٨١ وحزيران (يونيو) ١٩٨٢. وبدا كأن الحرب على الأبواب. وفي اليوم عينه وضعت قنبلة من العيار الثقيل في غرفة هاتف في القدس. هنا أيضا تحلّينا بالصبر. وبعد تسعة أيّام أعلن احد اعضاء اللجنة المركزية العليا التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينيّة أن « وقف اطلاق النار لم يعد قائما ومنظمة التحرير الفلسطينية تعتبر نفسها حرّة في تكثيف نشاطاتها ضدّ اسرائيل في كافّة أرجاء العالم ».

في اليوم نفسه الواقع فيه ١٦ أيار (مايو) اجتمع مجلس الوزراء الاسرائيلي لمناقشة الوضع. فافتتح بيغن الجلسة مستهلا كلمته بأن الوقت لم يحن بعد لطرح اقتراح عملية عسكرية محدّدة ولكنه يرغب في درس خطة « سلام من أجل الجليل » (أو بالأحرى خطة أورانيم ولكن باسم آخر)، تلك الرامية الى إقصاء مدن الجليل وقراه عن مرمى مدفعيّة منظمة التحرير الفلسطينيّة (وهو أقلّ الأهداف التي نتطلّع اليها). فعرض رفول ايتان خرائطه وخططه. واشتركت في الحديث موافقاً على كلام بيغن، موضحا أن المسألة لم تعد هذه المرّة تتعلّق بأنصاف التدابير الجديدة، كالغارات الجويّة التي تعقبها عموما طلقات مدافع منظمة التحرير الفلسطينية. وانّما يتعلّق الأمر بمنع الاعتداءات

منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان.

«مصدّرة» الارهاب الدولي.

من ١٩٨٠ الى ١٩٨١، تمّ إعداد ٢٣٠٠ ارهابي في مخيّمات منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان.

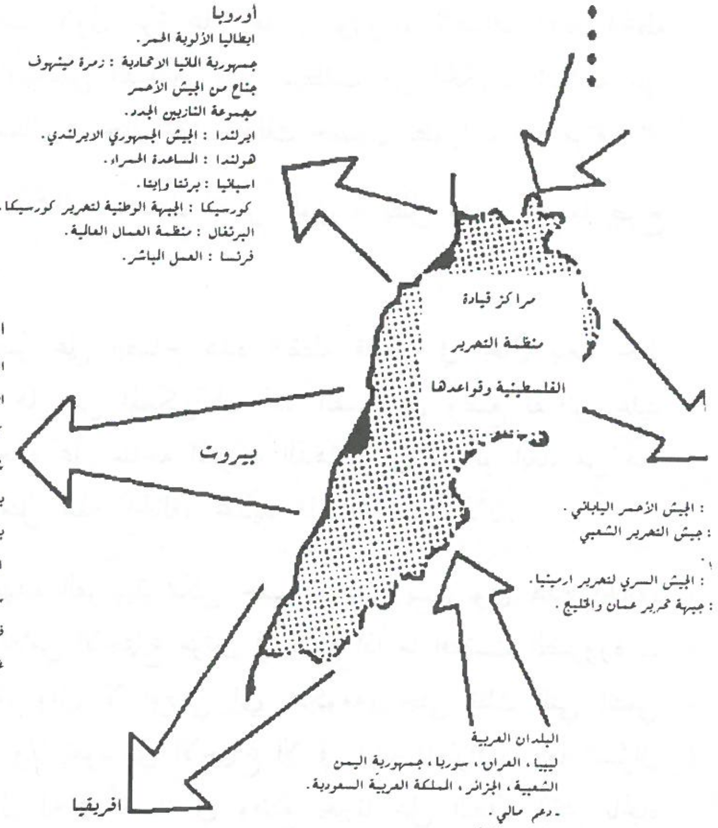

ضحايا اعتداءات منظمة التحرير الفلسطينية من ١٩٦٥ الى ١٩٨٢ (قبل عملية السلام في الجليل).

المجموع	
قتلى	١٣٩٢
جرحى	٦٤٣٩

في الخارج	المجموع	رعايا اجانب	اسرائيليون ويهود
قتلى	٣٢٦	٢٦٦	٦٠
جرحى	٧٦٨	٦٦٧	١٠١

	المجموع	في اليهودية والسامرة وغزة	في اسرائيل
قتلى	١٠٤٦	٣٧٥	٦٨٩
جرحى	٥٦٧١	١٨٧٢	٣٧٩٩

الارهابية المقبلة، في اطار عملية واسعة النطاق نحن الآن في صدد درسها. ولن يكون هذا الردّ بالطبع تلقائيا. فرئيس الوزراء سيستدعي الحكومة وسيعرض الخطة للموافقة عليها وتحديد موعد تنفيذها. وذكّر وزير الدولة اسحق موداعي أن إقصاء الجليل عن مرمى منظمة التحرير الفلسطينيّة لم يمثّل هدف الخطة الوحيد عندما طرحت لأوّل مرّة على مجلس الوزراء، فأهداف هذه الخطة كانت تطال عمق الأراضي اللبنانية. فهل سيطلب من الحكومة الموافقة على تقدم الجيش نحو الشمال في حال تطلّب ذلك حصول تطورات غير مرتقبة ؟.

فاجاب بيغن بأن مجال استدعاء مجلس الوزراء يظل واردا اذا ما طرح مثل هذا السؤال.

لكنّ موداعي اصرّ على ايضاح هذه النقطة قائلا : في حال بلغنا خط الأربعين كيلو مترا هل من الممكن ان نجد انفسنا في وضع تفرض علينا فيه التطوّرات المستجدّة على ساحة المعركة الذهاب الى ما هو ابعد من هذا الخط ؟ علينا، في مثل هذه الحالة، تحديد المسألة هنا والآن.

أجبته : « نعم، فهذه الفرضية ممكن حصولها بلا ريب. وفي هذه الحالة، على اللجنة الوزارية للامن الاجتماع مرّتين في اليوم اذا ما اقتضت الضرورة... فتُطرح عليها المسألة. واني لا اوصي اي حكومة، حتى تلك التي انتمي اليها، ان تأخذ قرارا ولا تعود الى الاجتماع الا في نهاية المعارك... امّا السؤال المطروح حول احتمال إيجاد أنفسنا في وضع يجبرنا على التقدّم اكثر باتجاه الشمال، فجوابه نعم ! تسألون أيضا ما إذا كانت الحكومة ستُستدعى لإعطاء موافقتها ــ أجيبكم بأن هذا يمثّل رأيي وهو ما أوصي به ».

شكّلت اهداف خطة أورانيم التي تناولتها بالإجمال ــ بدءا بإقصاء مدافع منظمة التحرير الفلسطينيّة من منطقة الحدود وانتهاء بطرد الارهابيين من بيروت ــ مدار مناقشات محتدمة جرت خلال الأشهر العشرة الأخيرة. وعرضت هذه الأهداف في مرحلة ثانية على الأميركيين. أمّا الهدف الذي طلبت أنا

وبيغن من الحكومة النظر فيه اليوم، فيتمثّل بإبعاد الأرهابيين الى ما وراء مرمى المدافع، أي مسافة أربعين كيلومترا من حدود الجليل.

لكنّ عقدة هذا الهدف تكمن في بطاريات منظمة التحرير الفلسطينية المنتشرة في جنوب سهل البقاع وتقع في قلب الخطوط السورية. ولم يكن في نيّتي ولا في نيّة بيغن التحارب مع السوريين، فاقترحنا إفهامهم هذه النقطة. في الفترة عينها عرفنا أن فرص انسحابهم بإرادتهم كانت ضيئلة. فاسترعت هذه المشكلة انتباه كافة الوزراء الحاضرين وأقلقتهم. فراحوا يتساءلون : أيمكننا تفادي الاشتباك مع السوريين ؟ واذا كان الأمر غير ممكن، فالى أيّ حدّ سيتعدّى النزاع الحدود اللبنانيّة ؟.

قام وزير الاسكان، دايفيد ليفي، بدرس الخريطة دراسة دقيقة معتبرا أن مواجهة السوريين في البقاع مسألة لا مناص منها. فأجبته : « حتى لا نوقع مجلس الوزراء في الخطأ، أصرّ على قولي بأنه من الصعب الاعتقاد انه لن يحدث تدخّل سوري. أمّا مشكلتنا فتتمثّل بالآتي : هل سننجح في اعطاء السوريين انطباعا يعكس نيّتنا في تنفيذ تحرّك محدود لا يرمي أبدا الى تهديد دمشق ؟. [لا سيّما وان سهل البقاع يشكّل محور طرق تؤدّي الى سوريا]. وفي حال نجحنا في اقناعهم، من المحتمل أن يقلّصوا نشاطهم. [لكنني] لن اقول أمام الحكومة باي نحو كان انه لن يكون هناك تدخّل سوري ».

عندئذ تسلّم بيغن دفّة الحديث وقال : لا تكمن المشكلة في كيلو متر أو في خمسة أو ستة كيلومترات، وانما في تفسير وقف اطلاق النار. حسب التفسير الأميركي، يطبّق وقف اطلاق النار على خطوط جبهة اسرائيل مع لبنان وسوريا والاردن. ولكن اذا وضعت منظمة التحرير الفلسطينية قنابل في يافا وعسقلان قد لا يكون خرق وقف اطلاق النار بيّنا في نظرهم. وفي ما يتعلّق بأوروبا، كل عمل تقوم به منظمة التحرير الفلسطينيّة على هذه الأراضي لن يعتبر، استنادا الى التفسير الأميركي، خرقا لوقف اطلاق

النار. وبتعبير آخر، يتمتّع ارهابيّو منظمة التحرير الفلسطينيّة بحريّة قتل اليهود في اوروبا.

ويواصل بيغن موضّحا ان التفسير الاسرائيلي مختلف. فوقف اطلاق النار، في نظرنا، يعني وضع حدّ كليّ للأعمال الارهابيّة. وفي قبولنا تطبيقه على ارض اسرائيل فحسب نكون قد ضحيّنا بأرواح اليهود وقادتهم المنتشرين خارج حدودنا، في كافة أنحاء العالم. لهذا السبب طالبنا وقفا كليّا لاطلاق النار. ويتابع بيغن أن للارهابيين تفسيرهم الخاص. (يطلق بيغن على الارهابيين كلمة منوفاليم Menouvalim، والتي تعطي ترجمتها التقريبيّة الى اللغة العربيّة صفة « الوغد » أو « الخسيس » أو « الحقير »). فهؤلاء يقولون بأنّهم سيواصلون شنّ هجوماتهم على امتداد الأراضي التي يصفونها « الوطن المحتلّ ».

ترى كيف للمرء، وإن تجلّد بإرادة صلبة، أن يعيش في ظلّ تهديد مماثل صادر عن عدوّ عازم على تنفيذه ؟ هل انتظر الأميركيّون أوّل صاروخ سوفياتي من كوبا ؟ لا، فالرئيس كنيدي كان مستعدّا للمخاطرة بانفجار نووي حين طرحت هذه المسألة. أمّا نحن، فالصواريخ والمدفعيّة وسائر أنواع الأسلحة تنتشر أمام عتبة دارنا.

ثم استشهد بيغن ببيان منظمة التحرير الفلسطينيّة وفيه تعلن انها ستواصل شنّ هجوماتها على الأراضي الاسرائيليّة.

وقال بيغن : « في هذا البيان يعلن الفلسطينيون الحرب على شعب اسرائيل، مجاهرين بعزمهم على نشر البؤس وقتل الرجال والنساء والأطفال، في أرض اسرائيل قاطبة... ولو واجهت امّة أخرى غير أمّتنا مثل هذه التهديدات لتحرّكت وما بقيت مكتوفة الأيدي ».

في ختام هذا الاجتماع المهمّ اعتمدت الحكومة القرار الآتي : « لن تقبل اسرائيل باي طريقة هذا التفسير الاعتباطي [لوقف اطلاق النار] الذي أعطته المنظّمات الارهابيّة والذي يهدّد مباشرة أرواح الاسرائيليين واليهود من رجال

ونساء وأطفال ». من خلال هذا القرار، اعتمدت الحكومة الاسرائيليّة قرارا بمبدأ الردّ على كلّ عمل ارهابي في مكان ارتكابه.

تفاقم الوضع حتّى أصبحت أدنى شرارة ارهابيّة قادرة على التسبّب بتفجيره. فذهبت الى الولايات المتحدّة في هذا الجوّ السائد للقاء هيغ وكاسبار واينبرغ. كان من المفترض مناقشة سلسلة مشاكل لكنّ هدفي الأوّل تمثّل بالتأكّد من أنّ واشنطن قد فهمت نوايانا فهما واضحا. يدفعني الى ذلك سببان : أوّلا، كنت أعرف أنّ الأميركيين سيسارعون للضغط على منظمة التحرير الفلسطينيّة حتى توقف أعمالها الارهابيّة، وذلك حالما يطّلعون رسميّا على نوايانا. وفي حال توصّل إصرارنا الى التأثير على الأميركيين ستتوفّر فرصة إيجاد تسوية ما لحلّ النزاع عبر سبل تختلف عن سبل الحرب والأسلحة. ثانيا، لم أكن أرغب في المفاجآت بيننا وبين حلفائنا.

خلال غداء عمل في البنتاغون قلت لواينبرغر اننا نعي تماما دقّة الموقف لكنّ صبرنا بدأ ينفذ ولم يعد في وسعنا العيش والارهاب يهدّدنا في استمرار. فإذا ما وقع أيّ حادث سنتحرّك[1] « لإزالة البنية التحتيّة الارهابيّة في لبنان ».

في اليوم عينه اجتمعت بهيغ وفيليب حبيب ونقلت إليهم الرسالة ذاتها وبألفاظ أكثر صراحة ايضا. قلت لهما إن معظم المنظمات الارهابيّة في العالم لهي مرتبطة بمنظمة التحرير الفلسطينية المقيمة في لبنان. لم نعد نقوى على تحمّل الوضع. فعلى رغم المأزق الذي سنقع فيه لا مناص لنا من طردهم من هناك. وأضفتُ نحن لا نريد الحرب ولا نحبّذ فكرة شنها، « خصوصا ضد السوريين ». غير اننا نودّ في الوقت نفسه تجنيبكم المفاجآت ». وكرر وكرر حبيب غير مرّة مواقفه، وهي أن الاعتداءات على الاسرائيليين واليهود

(١) لقاء الخامس والعشرين من ايار (مايو) ١٩٨٢.

في أوروبا لم تدخل في نطاق اتفاق وقف اطلاق النار. وهذه المرّة أيضا رفضتُ مجاراته في تفسيره وأجبته : بما أن الاعتداءات تنظّم في لبنان والتعليمات بتنفيذ الاعتداءات تصدر من لبنان، فلن نقبل بهذا النوع من التمييز. فتصاعدت وتيرة الكلام. وكرر على مسمعي كلّ من هيغ وحبيب أنّه في حال شنّت اسرائيل « تحرّكا يتجاوز الحدّ » في غياب ايّ « تحدٍّ معترف به عالمياً، سيترتّب على الولايات المتحدّة من جرّاء ذلك نتائج وخيمة. فسألته : « كم يهوديّا تريدون أن يُقتل حتى يصبح التحدي واضحا ؟ واحد ؟ اثنان، خمسة، ستة ؟... من جهتنا، ان الإجابة على هذا السؤال هي في منتهى الوضوح ».

لم آتِ الى واشنطن سعيا وراء اذن اميركي لما قرّرنا القيام به. جئت الى واشنطن لإفهام الاميركيين وديّا، بصفتهم حلفاء، أين نحن على وجه التحديد من المسألة. أمّا هيغ، فأوضح لي موقفه بألفاظ صاعقة في صراحتها. وعندما غادرت واشنطن أصرّ على اعطاء كلامه مزيدا من الأهميّة عبر توجيه رسالة الى بيغن يدعونا فيها الى « ضبط النفس كليّا ». فجاءت اجابة بيغن مختصرة شخصيّته : « حضرة الوزير، لم يلد الذي سيحصل على موافقتي حتى أشهد قتل اليهود على يد عدوّ متعطش للدماء ». كانت هذه إجابة ملؤها الفخر والاصرار.

كانت مشكلة لبنان شائكة، لكنّها لم تَرِدْ وحدها في جدول أعمال محادثاتي مع هيغ. بدأنا محادثاتنا بجولة أفق واسعة تناولت الوضع القائم في الخليج الفارسي وانتشار الأصولية الشيعيّة التي أثارت قلق واشنطن البالغ. كما تطرّقنا الى مسألة « لافي »، الطائرة الحربيّة المصمّمة في اسرائيل والتي تشكّل موضوع تعاون اسرائيلي ــ أميركي محتمل.

ابدى كاسبار واينبرغر اعتراضات حيال هذا الموضوع، غير اننا كنّا مصمّمين على تصنيع طائرة استنادا الى تجربتنا في حرب الغفران التي واجهنا خلالها مشاكل في منتهى التعقيد في ما يتعلّق بالأسلحة المضادّة للطائرات. كنّا مقتنعين بقدرتنا على صنع أفضل طائرة « درجة ثانية » في العالم. أولينا هذه المسألة

أهميّة خاصّة بسب عدد طائراتنا الضئيل نسبيّا واجراءات البيع وما يرافقها دائما من مماحكات. كنّا مقتنعين أيضا بأهميّة « مشروع رائد » يجعلنا نبلغ أعلى مستويات التكنولوجيا ويساهم في تشجيع صناعاتنا المتطوّرة كما يخوّلنا بيع مختلف انواع الأنظمة ــ كإلكترونيات الطيران ــ وذلك بعد إدخالها في طائراتنا واختبارها خلال العمليّات.

إضافة الى هذه الأسباب كان لهذه المسألة جوانب أخرى. فأنا رأيت دائما في الطائرات الحربية سلاحا سياسيا. فالتهديد أو الضغط الدبلوماسي يبدأ دائما بفرض حظر على الطائرات الحربيّة وقد عانت اسرائيل من هذه الحقيقة سنوات طويلة، شأنها شأن عدد من الدول الصديقة. فنحن شهدنا الخطر البريطاني ثمّ الفرنسي، ثم الأميركي الذي دام قرابة العشرين عاما. خلال ١٩٦٥ باعنا الرئيس جونسون، لأوّل مرّة، طائرات حربيّة أميركيّة. ومنذ ذلك الحين اخذنا نعاني الأزعاج والمراجعات والتأجيل كلّما كدّرنا حلفاءنا. لعبت دائما الطائرات الحربيّة دور السوط، ولشدّة أهميّتها الحيويّة بالنسبة إلينا شكّلت سوطا فعّالا على نحوٍ خاص.

خلال هذه الفترة الحافلة بالأحداث قمت برحلةٍ أخرى، الى رومانيا هذه المرّة. ففي مطلع الربيع اتصل بنا الرومانيّون سرّا لتنظيم لقاء في بوخارست بغية مناقشة مختلف المواضيع ذات المصلحة المشتركة، لا سيّما موضوع التعاون التكنولوجي. قبِل رئيس الوزراء مناحيم بيغن، ووزير الشؤون الخارجية اسحق شامير مبدأ مثل هذه الزيارة فاتخذت الترتيبات اللازمة.

وبطلب من السلطات الرومانية اتخذ قرار بكتمان هذه الزيارة قدر المستطاع وإعطائها طابعا خاصّا. في بوخارست، كانوا يعلمون ان ليلي ولدت في ترانسيلفانيا. لذا اقترحت بوخارست دعوة ليلي لزيارة مسقط رأسها في رفقتي ورفقة ولدينا.

بدت لي الذريعة مثالية. ونهار الأربعاء الواقع فيه الثاني من حزيران (يونيو)

ذهبت الى الكنيست من أجل تقديم تقرير الى لجنة الشؤون الخارجيّة والأمن. وعند الظهر، أسرعت الى المطار؛ هناك كانت في انتظاري بوينغ ٧٠٧، وقد سبقني إليها ليلي وولدانا، وعمري وغيلاد.

ما إن نزلنا من الطائرة في مطار بوخارست حتى أقلّتنا يواكبها عدد من العربات توجّهت بنا الى براشوف، مسقط رأس ليلي، على مسافة مئتين وخمسين كيلومترا. لم نلمح اي سيارة طوال الطريق لان الشرطة منعت السير في كافّة الشوارع. وعندما وصلنا الى براشوف، كانت الشوارع مكتظة بالجماهير التي كانت تترقّب وصول الموكب، لكنّ احدا لم يكن ينبس ببنت شفة. ففوجئت وسألت مضيفيَّ ترى ماذا قيل لهذه الجموع الصامتة فأُجبت بانه قيل لها إن وفدا سيأتي، لا أكثر.

صباح اليوم التالي قمنا بزيارة المعبد اليهودي القديم الذي كان من عادة والد ليلي الصلاة فيه. (هناك تمكّنت ليلي من التعرّف الى الكرسي الذي كان مخصّصا له). أرادت ليلي، وهي تمشي في الشارع الذي ولدت فيه، زيارة احدى صديقات طفولتها التي لم تكن يهوديّة. لكنها لمّا رأت هذا العدد الكبير من العناصر والحرّاس المكلّفين حمايتنا عدلت عن رأيها، خوفا من أن تسبّب هذه الزيارة المشاكل لأسرة صديقتها. في المقابل، دخلت ليلي المنزل الذي سكنت فيه عائلتها عشيّة الحرب العالمية الثانية. فتذكّرت أمّها عندما خبّأت في السقيفة، قبل مغادرتها المدينة، شمعدانين من الفضّة كانت قد ورثتهما من جدّتها. وعلى مضي السنين، لم تنسَ ليلي الشمعدانين. وعندما أخبرتُ مضيفيَّ القصّة، قاموا باللازم حتى تتمكّن زوجتي من الدخول الى المنزل والبحث فيه كما يحلو لها. كانت السقيفة تغصّ بقطع الأثاث والأشياء القديمة وآثار أجيال وحده الله يعرف عددها ـ يغطّي كلَّ هذا طبقةٌ سميكةٌ من الغبار. وبعد مضيّ ساعة ونصف الساعة من البحث غير المجدي، عدلت ليلي عن شمعدانيها، شمعدانين من المحتمل أن يكونا هناك حتى الآن...

لم يمضِ وقت طويل على دخولنا الفندق بعد نهار حافل بالسياحة حتى

بلغنا النبأ الآتي: أُصيب سفير اسرائيل في لندن، شلومو آرغوف، بجروحٍ جسيمة إثر تلقّيه رصاصة في رأسه. في حين لم تتوفّر تفاصيل أخرى حول الحادثة(١).

عندما تلقّيت النبأ عرفت أن الحكومة لن تتلكأ في الاجتماع. في ما خلا ذلك كنت عاجزا عن معرفة شيء.

استحوذ عليّ اهتمام بالغ بما يجري في اسرائيل حتى انّني عدت على متن طائرة الى بوخارست، حيث كان من المقرّر زيارة مصنع للسيّارات والشاحنات، وآخر للطائرات. وعندما لم أجد سبيلا للحصول على مزيد من المعلومات، قرّرت التسليم بالقيام بهذه الزيارة التي اتضح انها في منتهى الافادة. في المصنع علمت ان الرومانيين كانوا روّاد صناعة الطائرات في اوروبا. لكنّ السوفيات، عندما وصلوا الى رومانيا، افرغوا هذه المصانع من ماكناتها وأجهزتها وأقصوا المهندسين والتقنيين الى الاتحاد السوفياتي. وخلال العقدين اللاحقين توقّف الرومانيون عن العمل كليّا، ممّا أفقدهم كافة خبرتهم. ولم يعاودوا مزاولة هذه الصناعة الا في السبعينات. وهم يضعون حاليا طائرات مروحية فرنسيّة بموجب رخصة، إضافة الى طائراتهم المدنيّة الخاصّة. وتركت كفاءة الرومانيين وجودة عملهم أثرهما البالغ في نفوس الاختصاصيين في صناعة الطائرات الاسرائيلية وضباط الطيران الذين كانوا في رفقتنا.

في اليوم ذاته أعلنت نشرة الأخبار في الاذاعة الرومانية ان طائرات اسرائيليّة قصفت أهدافا في جنوب لبنان، فأرسلت برقيّة أوصيت فيها باستدعاء بعض الوحدات الاحتياطيّة. فجاءني ردّ بأن هذا الإجراء قد تمّ اتخاذه.

(١) لقي أحد مطلقي النار مصرعه على يد عنصر من عناصر أمن سكوتلانديارد، وعثر في جيبه على لائحة تضمنت أهدافاً اخرى كاغتيال شخصيات يهودية بارزة وممثلين اسرائيليين حكوميين في بريطانيا العظمى وغيرها من الدول الأوروبية. بقي شلومو أرغوف على قيد الحياة، لكنه يعيش في حالة غيبوبة دائمة.

واصلت زيارتي، فالتقيت أوّلا وزير الصناعة الثقيلة، وثانيا وزير الدفاع، متبّعا برنامج الرحلة الأساسي وكأنّ شيئا لم يكن. وبالطبع، ارتكز جوهر المحادثات على التكنولوجيا الاسرائيلية. ومع أنّ غرض زيارتي اقتصر على التعاون التكنولوجي، فقد أردت درس مسائل اخرى.

من المسائل التي اوليتها اولوية امكانية ان تأخذ بوخارست مكان فيينا كمحطة ترانزيت لمرور اليهود المغادرين الاتحاد السوفياتي. وكانت فيينا قد شكّلت عائقا كان يبدو ممكنا إزالته في حال غيّرنا نقطة العبور. فكثير من اليهود السوفيات قدّموا ملفّات هجرة لموافاة أفراد عائلاتهم في اسرائيل، لكنهم في أغلب الأحيان كانوا، ما أن يصلوا النمسا، حتى يفضّلوا الذهاب مباشرة الى الولايات المتحدة. وقد نجم عن هذه الظاهرة تأثيرٌ سلبيٌّ على عملية الهجرة وضررٌ لاحق بإسرائيل نفسها التي كانت تشاهد هكذا آلاف المواطنين القادرين يرفضون الذهاب اليها هي التي انشئت لتكون وطن يهود الشتات.

كانت هذه مسألة معقّدة. بيد اننا لا نستطيع إلقاء اللوم على المهاجرين. فهم يعيشون منذ أجيال وأجيال في الاتحاد السوفياتي في ظلّ نظام يصعب العيش فيه على كل انسان، وخصوصا على اليهود الذين دمّر إرثهم الثقافي تدميرا كليّا. لقد كانت معرفتهم باليهودية تقتصر في وجه عام على معلومات ضئيلة، امّا اسرائيل فكادوا يجهلون عنها كلّ شيء لولا الانباء القليلة التي كانوا يقرءونها في الصحيفة السوفياتية « البرافدا ». ومع أنّهم لم يتأكّدوا من الأخبار التي كانوا يقرأونها، ظلوا مقتنعين بأن اسرائيل مكان مريع. فلا عجب، في ظلّ هذه الظروف، إن أبدوا فتورا تجاه فكرة العيش فيها.

اقترح احد الحلول المطروحة استقدام اليهود السوفيات مباشرة من مكان الترانزيت الى اسرائيل. فبهذه الطريقة سيتمكّنون على الأقلّ من مشاهدة بلدهم بأمّ أعينهم قبل أن يختاروا المكان الذي ينوون العيش فيه. واذا ما أصرّوا لاحقا على التوجّه الى الولايات المتحدة يبقى المجال أمامهم مفتوحا دائما لمغادرة اسرائيل. غير ان شعورا انتابني بأن سوادهم الأعظم سيفضّل البقاء هنا.

ناقشت هذه المسألة مع الرومانيين، كما تطرّقنا الى مسائل أخرى قد تشكّل في نظرهم مثار اهتمامهم، كإقامة وضع تجاري في الغرب يعود عليهم بإفادة أكبر. وقبل مغادرة البلاد أعربت الى وزير الدفاع عن رغبتي في العودة مجدّدا الى رومانيا لزيارة الأماكن التي لم أشاهدها هذه المرّة. فأكّد لي مبتسما انني لن افوّت في المستقبل القريب زيارتها مجدّدا. فقلت في نفسي إنه قد يكون مصيبا في توقّعه.

« سلام الجليل »

الجمعة في ٤ حزيران (يونيو)، فيما كنت استجم او افاوض في بوخارست، اجتمعت الحكومة الاسرائيليّة لاتخاذ قرار الردّ على الاعتداء الذي استهدف شلومو أرغوف. أُعلِم الوزراء بأن الاعتداء معزوّ الى مجموعة أبو نضال، وهي احدى المنظّمات الارهابية الفلسطينيّة. وتواترت الاعتداءات التي استهدفت سلكنا الدبلوماسي في الخارج. فإذا ببيغن يعلن في اجتماع الحكومة : « ليس من المقبول أن يفلت من العقاب هؤلاء الأوغاد الذين يحاولون اغتيال دبلوماسيِّينا. لدينا في العالم عشرات السفراء. أننتظر مصرع ممثّلينا في بيرمانيا أو أثينا حيث يسهل القتل أكثر ممّا يسهل في لندن ؟ ».

لم يشكّل الاعتداء على أرغوف سوى الشرارة التي كان عليها ان تشعل فتيل الحرب. فسبب الحرب الرئيسي كان يكمن في سلسلة طويلة من الجرائم التي ارتكبتها منظمة التحرير الفلسطينيّة (والتي بلغ عددها مائتين وتسعين جريمة، أمّا هذا الاعتداء الأخير فليس الا الأحدث تاريخا). ويكمن هذا السبب أيضا في زيادة عدد البطاريات الطويلة المدى في جنوب لبنان. (جرى هذا كلّه خلال الأشهر الأحد عشر التي أُعلن فيها وقف اطلاق النار المزعوم). في ١٦ أيّار (مايو) ١٩٨٢ كانت الحكومة الاسرائيلية قد اتخذت قرارا مبدئيا بالقيام بعمل ما حيال هذا الوضع الذي لم يعد يحتمل، انما مع تحديد أنْ ليس من شأن أيّ حادث أن يؤدي تلقائيا الى الردّ في مثل تلك الأجواء،

كان رئيس الوزراء قد اقترح آنذاك شنّ غارات على أهداف الارهابيين العسكريّة في جنوب لبنان ومحيط بيروت، لا اجتياح لبنان. ففي تلك المرحلة كانت الحرب لا تزال تُعتبر غير حتميّة. لكنَّ الحكومة عرفت ان تلك الهجومات الجويّة كانت تترك القرار في يد عرفات. فإذا امتنع عن الردّ لن نعبر الحدود؛ أضف الى ذلك أنّه قد تدفع حالة الطوارئ بالأميركيين الى البحث عن حلّ. ولكن، في حال أخذت منظمة التحرير الفلسطينيّة تقصف قرى الشمال، سننفّذ عملية « سلام الجليل » ردّا عليها.

بالنظر الى خبرتنا بمنظمّة التحرير الفلسطينيّة، كان عدد الذين ساورتهم الشكوك في خيار عرفات ضئيلا. وفي اجتماع مجلس الوزراء أعلن بيغن ما يلي : « أيّها السادة، في ما يتعلّق بعمليتنا، علينا أن نكون على أتمّ استعداد بعد هذا الاعتداء ». وظهر ذلك اليوم وافقت الحكومة بالإجماع على الهجوم الجوّي. وبعد فترة وجيزة قُصف هدفان عسكريّان في ضواحي بيروت وتسعة آخرون في الجنوب. وقرابة الساعة الخامسة والنصف، بدأت المدافع وقاذفات الصواريخ بقصف مدن الجليل وقراه. هكذا ابلغنا الارهابيون بوضوح قرارهم.

صبيحة اليوم التالي، كان تساقط القنابل والقذائف مستمرا بغزارة عندما هبطت طائرة البوينغ ٧٠٧ بعد الظهر، في بوخارست، لتعيدنا الى اسرائيل. وفوق البحر المتوسط تلقّى الطيارون تعليمات بالابتعاد عن الشواطئ السورية تفاديا لملاقاة طائرات الميغ. فانحرفنا غربا وحلّقنا فوق جزيرة كريت، ثمّ عدنا شرقا في اتجاهِ شواطئ اسرائيل. واستقبلني في مطار بن غوريون أحد موظّفي وزارة الدفاع المكلّف اطلاعي على الوضع، قبل صدور عرض معمق لهيئة الأركان في تل أبيب. واتسع لي الوقت حتى التاسعة مساء لأصل الى القدس واشارك في اجتماع مجلس الوزراء الذي عقد في مقرّ رئيس الوزراء.

افتتح بيغن الجلسة معلنا انه عرض على الحكومة قرارا يتعلّق بعمليّة سلام الجليل. ثمّ استدار نحوي قائلا : « حضرة وزير الدفاع، تفضّلوا واشرحوا الخطّة وكأن الحكومة تسمعها لأوّل مرّة. لقد سبق لنا ان اطّلعنا عليها،

ولكن علينا معرفة كافة التفاصيل بما انه يتعيّن علينا الفصل فيها ».

عرضت اذاً الخطة ـــ مكرّرا في الواقع ما سبق لي أن قلته لمجلس الوزراء في ١٦ أيّار (مايو) : يتمثّل هدف العملية بإقصاء الارهابيين عن مرمى مدافع الحدود الشمالية أي مسافة اربعين كيلومترا. يتطلّب هذا طرد الارهابيين المحتمين خلف الخطوط السورية في البقاع. نحن لا ننوي صراحةً التعدّي على السوريين. ولكن سنقوم بذلك في حال هاجمونا. وحتى نحمل القوّات السورية على الانسحاب سيتقدّم الجيش صوب البقاع الغربي، آملين من السوريين الانسحاب تفاديا لوقوع اشتباكات مع قوّاتنا.

عندما سألت نائب رئيس مجلس الوزراء، سيمحا أرليخ، عما اذا كانت العملية تشمل بيروت، أجبته : « بيروت ليست جزءا من المخطّط... فالعملية لا ترمي الى احتلال بيروت وانما الى إقصاء الارهابيين حتى مسافة أربعين كيلومتراً ».

تدخّل بيغن عند هذه النقطة ليوضّح ان الحكومة ستلاحق الوضع في استمرار. وفي حال فرض احتلالُ بيروت نفسَه، سيكون القرار عندئذ عائدا لمجلس الوزراء. فنحن لن نترك العمليّة وشأنها، كما حصل أيّام الحكومات السابقة. وتابع قائلا : ما نقترح القيام به اليوم يتمثّل بطرد هؤلاء الأوغاد الى ما بعد الأربعين كيلومترا وتدمير أسلحتهم. ستسمح لنا هذه العملية بإحلال الهدوء التام نهائيا في الشمال. وفي هذا الإطار، سيبقى احتمال دخول بيروت مفتوحا.

عندما طلب بيغن لاحقا من الحكومة الموافقة على العملية كما عُرضت، التمس وزير الدولة اسحق موداعي الكلام. وبعد أن جال بطرفه على كافّة الحضور، استهلّ كلمته بالتذكير بأنّه سبق لأعضاء هذه الحكومة أن قرّروا في الواقع إطلاق هذه العملية قبل عشر سنوات، عندما وعدنا قرى الشمال وبلداته بأننا لن ندعها هدفا لمدافع منظمة التحرير الفلسطينيّة. واذا ما أردنا

عملية «سلام الجليل»

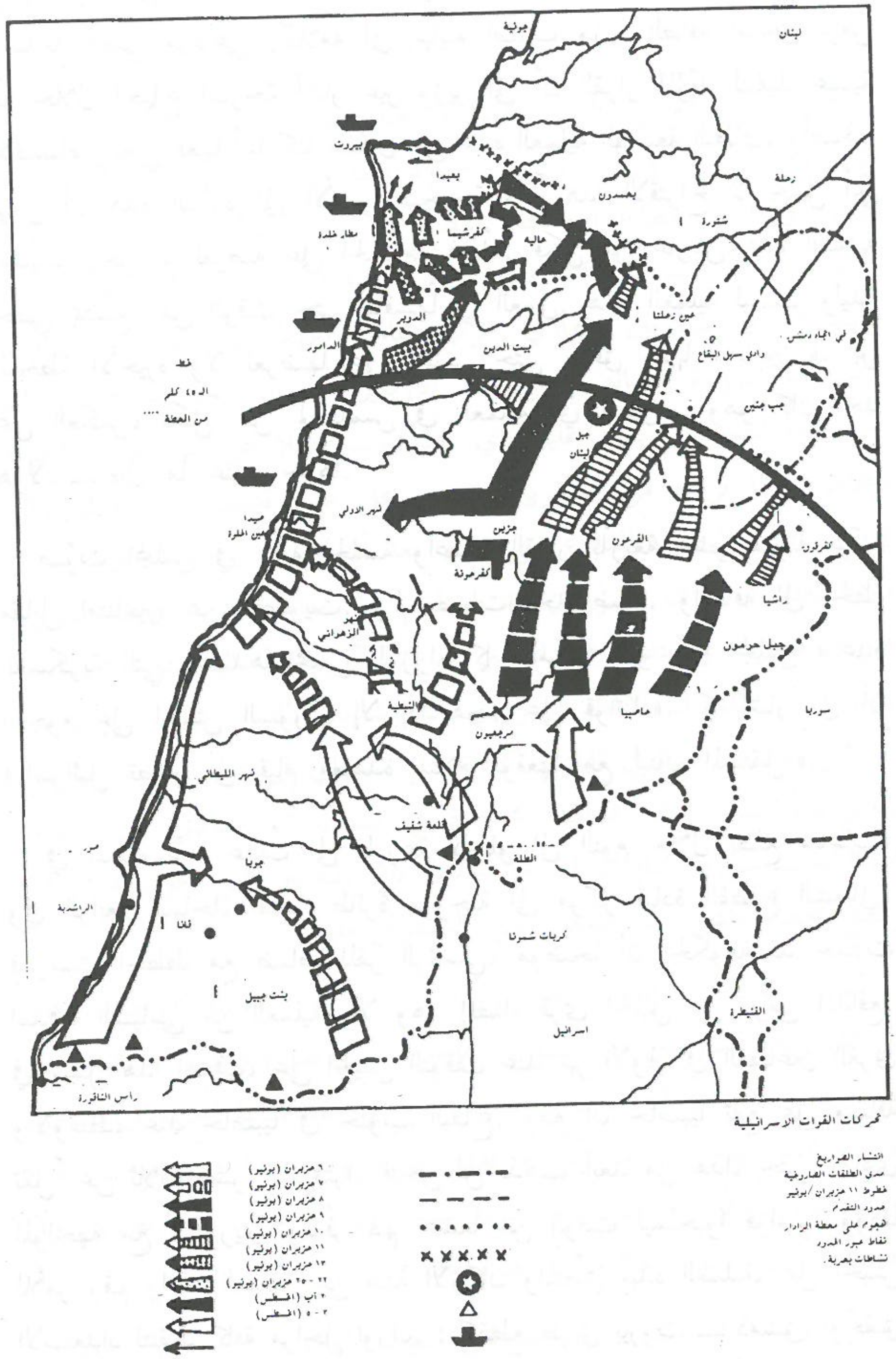

حاليا الوفاء بوعدنا، لا يمكننا إلّا أن نطلق هذه العملية الواسعة النطاق. وعندما أفضى موداعي بكلامه الى نهايته اضاف وزير الطاقة اسحق برمن انّه خلال اجتماع البارحة أشار غير وزير الى أن القرار المؤيّد لتنفيذ عملية الاقتصاص يعني فعليا أننا كنا متفقين على هذه العملية الواسعة النطاق. وأضاف برمن أن هذه النظرة الى الأمور صحيحة وأنّ هذا الاقتراح لا يحمل أيّ جديد، ونحن لم نعرضه على الحكومة فجأة. فكل من عارض هذه العملية حظي بمتّسعٍ من الوقت حتى يناقشها في العمق. هذه العملية ليست وليدة اللحظة الأخيرة ولا نعرضها على المجلس حتى يوافق عليها « بآمين ». بل على العكس، فكلّ من لم يلمس في العملية أيّ منطق ــ وهو كان أحد هؤلاء ــ قال ما عنده حولها.

صوّت المجلس في نهاية الجلسة واعتمد القرار بأربعة عشر صوتا مؤيّدا مقابل امتناعين عن التصويت. ولم يصوت احد ضده. واضافة الى الخطة العسكرية التي اعتمدها مجلس الوزراء كما قُدّمت، قرّر هذا المجلس « عدم الهجوم على الجيش السوري إلّا إذا هجم على قوّاتنا ». كما أشار الى أن « اسرائيل تصبو الى قيام معاهدة سلام توقّعها مع لبنان المستقل ».

في المساء عينه عدتُ الى المزرعة لأخلو الى النوم خلال بضع ساعات. وفي الرابعة صباحا، اقلتني طائرة مروحيّة الى مركز قيادة القطاع الشمالي. فدرست الخطط مع ضباط المقرّ الرئيسي، موضّحا أن الحكومة قد حدّدت الهدف السياسي من العملية، الا وهو إقصاء قرى الجليل عن مرمى المدافع. في سبيل هذا الهدف، على الجيش التوقف عند نهر الاولي في القطاعين الغربي والاوسط، عند حاصبيّا في جنوب البقاع. ومع ان حاصبيّا تقع على مسافة تقلّ عن ثلاثة عشر كيلومترا، فنحن لن نذهب أبعد من هذا، حتى نتفادى المواجهة مع السوريين ونوفّر لهم متسعا من الوقت ليسحبوا قواتهم. ووفقا للأمر رقم واحد الصادر عن هيئة الاركان والمتعلّق بهذه العملية، على الجيش الاستعداد لتنفيذ كافة مراحل اورانيم : كقطع طريق بيروت ــ دمشق، وتحقيق

الاتصال مع المسيحيين، وشرذمة قوات الاحتلال السورية اذا ما قررت الحكومة ذلك.

في القطاع الغربي كانت الخطة متشعّبة؛ فهي تقضي بشن هجوم على طول الساحل، وبنزولٍ برمائي على حدود صيدا فحسب، وبتقدم قواتّنا تقدما اضافيا في اتجاه القطاع الاوسط، لتنضمّ في نهاية المطاف الى رتل الساحل. وكانت الجبهة السورية اكثر تعقيدا، لا سيّما اننا كنا عازمين على تدارك الاشتباك مع السوريين وتفادي حرب شاملة معهم مهما بلغ الثمن. واذا تبينت لنا ضرورة إقصائهم حتى خط الاربعين كيلومترا كنا مستعدين لذلك لكنّ هذا العمل لن يعود علينا باي جدوى ــ فضلا عن انّها عملية محفوفة بالمخاطر. فما نريده من السوريين يقتصر على عدم قصف قرانا وكيبوتزاتنا في الجولان (المستعدّة للدفاع عن نفسها بعد أن عُزّزت بوحدات عسكرية). وكنا نعلم ايضا ان السوريين قد استلموا من حلفائهم السوفيات صواريخ فروغ وسكود، ويستطيع هذا الاخير بلوغ المراكز المدنيّة الرئيسية في اسرائيل. يضاف الى ذلك ان الاتحاد السوفياتي كان شديد الالتزام حيال سوريا، وان اسرائيل كانت ترغب في تفادي كل تدخل سوفياتي في هذه العملية. فحسب تقديراتنا، ليس على عملية محدودة في لبنان ان تؤدي الى حرب اسرائيلية ــ سورية شاملة، اذا ما اتخذنا كافة التدابير التي تحول دون قيام وضع خطِر نخشى ألا نتمكّن من السيطرة عليه.

لذا ارتكزت استراتيجيتنا على ارسال سلسلة من الرسائل الواضحة جدا الى السوريين، شارحين فيها نيّتنا في عدم التعرّض لهم ومحدّدين الهدف الذي نطمح اليه، الا وهو إقصاء قوات منظمة التحرير الفلسطينية المختبئة في قطاعهم حتى مسافة اربعين كيلومترا من مواقعها الحالية. والعمل الذي ينبغي لنا القيام به في البقاع، على افتراض اننا أُجبِرنا عليه، سيكون مرتهنا برد فعلهم. وفي غضون ذلك سنبقى ملازمين خط حاصبيّا.

من بين الأوامر التي أصدرتها قبل العملية تعليمات في منتهى الصرامة

تناولت المدنيّين اللبنانيّين. فأنا لن اتعرّض لهم اذا ما تمكّنت من ذلك. وقد سبق لي ان أشرت الى ذلك في الامر اليومي الذي وجهته الى الجيش في ٦ حزيران (يونيو) وقلت فيه « إن معاملة اللامحاربين (من شيعة ومسلمين ودروز ومسيحيين) تقضي بتفادي المساس بهؤلاء السكان. فما حدث خلال عملية الليطاني [عندما دمّرت القرى] يجب الاّ يتكرّر، وعلى ضباط الوحدات وقادتها التقيّد بهذه التعليمات تقيدا دقيقا ».

بعد اجتماع التعليمات في قيادة الشمال عدت أدراجي الى القدس لحضور جلسة الحكومة ثم لإلقاء بيان على قادة المعارضة : اسحاق رابين وشيمون بيريز وحاييم برليف وفكتور شيمتوف، (احد اعضاء حزب مابام اليساري)، واخيرا للاجتماع باللجنة البرلمانية للشؤون الخارجيّة والامن. لم تشكّل هذه الاجتماعات سوى بداية جدول اعمال لازمَ وتيرة جنونية حتى انتهاء المعارك. فكنت استهل عملي ليلا بتحليل الوضع في رفقة قائد الاركان وضباط مركز القيادة العامة لقطاع الشمال من اجل درس عمليات الغد. وفي الصباح اقوم بجولة على بعض الوحدات الميدانية ثم اطير الى القدس للمشاركة في اعمال الحكومة ولجنة الامن. واعود لاحقا الى الجبهة لأطّلع مباشرة على الاحداث الجارية وأتولى حلّ المشاكل التي طرأت خلال اليوم.

نهار الاحد في ٦ حزيران (يونيو)، رجعت من القدس وذهبت الى الجبهة لأشهد في الموعد المحدّد رحيل رتل الدبابات وقد بدأ تقدّمه في اتجاه الاراضي اللبنانية. وعلى طول الساحل غربا، راحت قوّاتنا تزحف نحو صور لاعتراض وحدات منظمة التحرير الفلسطينية وقطع الطريق على مراكز قيادتها في هذه المدينة. وتوجهت من المطلّة، في القطاع الاوسط، وحدات اسرائيلية أخرى الى النبطيّة وقلعة بوفور الشقيف، تلك القلعة التي بناها الصليبيّون واتخذها الفلسطينيون منذ سنين ملاذا لهم.

وفي القطاع الشرقي تقدّم تساحال (جيش الدفاع الاسرائيلي) صوب حاصبيّا، متوقّعا عدم تدخّل المراكز السورية الواقعة في الشمال.

في القطاعين الغربي والأوسط أبدت بعض مجموعات منظمة التحرير الفلسطينية مقاومة ضارية، في حين لاذت مجموعات أخرى بالفرار شمالا، الى بيروت، حيث تخلّصوا من بزاتهم العسكرية واختلطوا بأهل المدينة. وفي البقاع اتخذت الامور منحى سيئا. فقد تعرّضت قواتنا في اثناء تقدّمها لطلقات مدفعية السوريين. ولم تظهر اي اشارة برهنت عن نيّة السوريين إخلاء القطاع او ا قصاء وحدات منظمة التحرير الفلسطينية بعيدا من خطوطهم. على العكس، تقدمت القوات السورية جنوبا وغربا لاخذ مواقع دفاعية فضلى من شأنها ايقاف تقدمنا. ومن مواقعهم هذه كانت تنطلق قنابل مدفعيّة منظمة التحرير الفلسطينية وقذائف صواريخها مستهدفة قرانا ومناطق « اصبع الجليل ».

بعد النظر الى التحوّل الذي شهدته الاحداث قدّمتُ ورئيس الاركان، رفول ايتان، تقريرا الى بيغن. فإذا ما واصل الوضع تطوّره في هذا الاتجاه، نخشى ان نجد انفسنا أمام وضع لا يمكن القبول به : فالارهابيون سيصار الى طردهم من القطاعين الغربي والاوسط، لكنهم سيتمكّنون من قصف الجليل من المنطقة الواقعة تحت سيطرة السوريين، من جنوب البقاع.

لذا، تُطرح امامنا امكانيّتان : اولاهما ان السوريين شنوا هجوما علينا، ملحقين بنا اضرارا، ومن الواضح انهم عازمون على الحرب. في مثل هذه الحالة يمكننا العدول عن خيارنا الاساسي القائم على تفادي وقوع اشتباكات معهم، وضرب قواتهم. امّا ثانيتهما فتتمثل بارغامهم على اخلاء القطاع عن طريق ارسال رتل الساحل المؤلل الى الشمال ثم الى االشمال الشرقي وراء مؤخرتهم. وخوفا من مباغتهم من الوراء، من المحتمل ان يعودوا ادراجهم. لكنّ مثل هذه المناورة تتطلّب عبور خط الاربعين كيلومترا، وهذا قرار تتخذه الحكومة.

وافق بيغن، بعد ان شرحت له انا ورفول الوضع، على القيام بالمناورة الهادفة الى بلوغ خطوط السوريين الخلفيّة، وطلب مني بيغن بالتالي عرض اقتراحنا على مجلس الوزراء ذلك المساء.

مع حلول المساء اقلّتني احدى المروحيّات الى القدس لحضور ثاني اجتماع تعقده الحكومة خلال هذا اليوم. فأخبرت الوزراء ان المرحلة الأولى من العملية جرت وفق جدول الاعمال واننا، حسب تقديراتي، سوف نقصي الارهابيين من كل مكان، ما خلا البقاع، الى ما وراء منطقة الاربعين كيلومترا، وذلك في غضون الاربع والعشرين ساعة المقبلة. وشرحت لهم ان السوريين في البقاع لن يحرّكوا ساكنا ولن يجبروا وحدات منظمة التحرير الفلسطينية على اخلاء مواقعها. ولجأت الى الخريطة لافهامهم الوضع، قبل أن أقترح شنّ هجوم من الوراء على السوريين، وهي عملية تحظى بموافقتي وموافقة رفول وبيغن. وأوضحت قائلا: « نوصي بعدم الاقتراب من هذه المنطقة [حيث تحتشد القوات السورية]، بل بالتقدّم شمالا حيث يمكننا ان نطوق هذه القوات من دون ان نهاجمها مباشرة ».

عندما بلغت نهاية عرضي هذا نوّه وزير الاسكان دايفيد ليفي بان هذه العملية تغيّر الخطة الاساسية واستفهم عما إذا كان هذا التغيير سيتطلّب منا عبور خط الاربعين كيلومترا. فأجبته: « نعم، فقد قررّنا إعطاء السوريين فرصةً حتى يفهموا جيّدا ان العملية لا ترمي الى شن هجوم مكثّف عليهم ». وفي ختام اجتماع أمسية نهار الجمعة في ٦ حزيران (يونيو) وافقت الحكومة على تقدّم قوّاتنا شمالا(١).

وللمرة الثانية من ذلك المساء أعطيت رئيس الاركان تعليمات بشأن العملية، تقضي بتطهير الطريق الساحلية الممتدة حتى الدّامور، تلك البلدة المسيحية التي شهدت مقتل سكانها، وتشتّت الناجين، على يد منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٧٦. فمنذ ذلك الحين وأنقاض هذه البلدة تشكّل قاعدة الجبهة الشعبية

(١) بما ان هذا القرار كان يعني تغييراً في تصديق مجلس الوزراء الأساسي، ناقشنا المسألة من جديد في اجتماع الحكومة الذي عقد في ٧ حزيران (يونيو). خلال هذا الاجتماع وافقت الحكومة مجدّدا على القرار الذي اتخذته.

لتحرير فلسطين، التابعة لجورج حبش. ومن هناك يتعين على الرتل التوجّه الى الشمال الشرقي، نحو طريق بيروت ــ دمشق، والانعطاف وراء الخطوط السورية. وفي القطاع الأوسط يتقدّم رتل آخر شمالا، ساعيا الى شق محور إضافي على طول الجناح السوري. في غضون ذلك ترابط وحدات القطاع الشرقي على خط حاصبيّا، في انتظار نتائج هذه المناورات.

نهار الاثنين ٧ يونيو (حزيران) وصل فيليب حبيب الى القدس بعد ان كلّفه الرئيس ريغن القيام بإحدى المهمات. وسرعان ما اعلن له رئيس الوزراء بيغن ان اسرائيل لن تبقى نهائيا في لبنان، واننّا ننوي التعاون مع الولايات المتحدة لتدبير التسويات اللازمة، لكننا لن نعود الى ما وصفه بيغن بـ « الوضع الراهن الملعون ». واضاف: « اننا على استعداد لقبول وقفاً جديداً للاعتداءات بوساطة مساعيك الخيرة، شرط ان يطال كل النقاط المختلف عليها، بما فيها الاعتداءات الارهابية ما وراء البحار ». وتناولت الافكار الأخرى التي أثارها بيغن تنظيم قوة متعددة الجنسيّات مماثلة لتلك الموجودة في سيناء، واحتمال توسيع نطاق منطقة جنوب الواقعة تحت سيطرة قوات الامم المتحدة على رغم المشاكل الخطيرة التي اوقعنا بها سلوك وحدات منظمة الأمم المتحدة(١). وكانت طلبت الحكومة من بيغن، عندما اجتمعت ذلك المساء، تكليف حبيب مهمة السعي لدى الرئيس السوري ليفرض وقف القصف المدفعي الذي تمارسه المناطق الواقعة تحت سيطرة السوريين والذي يستهدف قرى الجليل ونواحيه، والمطالبة بانسحاب فوري الى ما وراء مرمى مدفعية وحدات منظمة منظمة التحرير الفلسطينية المختبئة وراء خطوطهم.

في ذلك الاثنين، زرت بصحبة بيغن قلعة الشقيف ــ رمز هيمنة التحرير الفلسطينية على جنوب لبنان ــ بعد سقوطها ليلة البارحة بين أيدي لواء غولاني.

(١) كان جنود الامم المتحدة في لبنان، عندما يلقون القبض على الارهابيين وهم يحاولون التسلّل الى الاراضي الاسرائيلية، يجرّدونهم من سلاحهم ثمّ يطلقون سراحهم ويعيدونهم الى رؤسائهم. امّا الاسلحة المصادرة فكانت هي الأخرى تسلّم إلى أصحابها.

وأدّى الهجوم على القلعة الى مقتل ستة رجال من احدى وحدات الاستطلاع. ولسوء الحظ، اعلَمَنا رئيس الاركان قبيل زيارتنا بأننا استولينا على القلعة من دون وقوع اية اصابات في صفوفنا، فأعربنا انا وبيغن عن فرحنا بهذا النبأ خلال المؤتمر الصحافي الذي عقد في القلعة، فسببنا من دون علم منا الما في قلوب عائلات الضحايا. وقد ولّدت هذه المسألة المحزنة إشاعة زعمت انّنا نعمل جاهدين لستر خسائرنا، وهو اتهام سيلعب دورا مهما في الحملة السياسية التي اطلقت لاحقا ضدّ حكومة بيغن.

في السابع من يونيو (حزيران) برزت مشاكل أخرى عندما واجهت قوّاتنا المتقدمة على طول السهل الساحلي في اتجاه صور وصيدا وقرى المنطقة عقبات جسيمة. فقد راح الارهابيون المختبئون في أماكن مأهولة بالمدنيين يستخدمون السكان رهائن ودرعا، حتى انهم اجبروهم على المثول امام الابواب والنوافذ المشرّعة التي كانوا يطلقون منها الرصاص على قواتنا. لذا وجدت الوحدات الاسرائيلية نفسها مجبرة على تخفيض قوّة نارها في هذه المعركة التي دارت بين البيوت. وفي ظروف كهذه تكبدّت وحداتنا مزيدا من الخسائر ولم تتمكن من احترام مواعيد العملية.

درسنا المشكلة خلال اجتماع عقد في المساء عينه في مركز قيادة القطاع الشمالي. واتّسم حل هذه المشكلة بالبساطة : فبدلا من احتلال المنازل الواحد تلو الآخر نستطيع ارسال طائراتنا لشن هجوم على طول الطريق الساحلية وتدمير المباني الواقعة على امتداد محور تقدمنا. بهذه الطريقة تصبح الطريق سالكة أمامنا من دون تكبّد خسائر. لكنّ مثل هذا التكتيك سينجم عنه اعداد هائلة من الضحايا المدنية.

بدأ الاجتماع قرابة الواحدة فجرا وشارك فيه قادة الفرق جميعهم، اضافة الى عدد كبير من ضباط الاركان. ومثّل هذا الاجتماع، من خلال تجربتي العسكرية وربما تجربة كل من الضباط الموجودين، امرا خرج عن المألوف، لا سيّما أنّ جوهر النقاش تناول مواضيع اخلاقية لا تكتيكية او استراتيجية.

وقد لفّت الحجرة سحابةٌ من دخان السجائر راحت تتكثّف مع بزوغ الفجر وتواري الليل. وعلى ضيق المكان كان الحوار شيّقا وهادئا، وقلّما تجاوز حدّ الوشوشة. وتعود معرفتي بهؤلاء الرجال الى زمن بعيد، الى ايام ساحة المعركة. عهدتهم من خيرة الضباط، محاربين بالفطرة. كانوا يعرفون خير معرفة الثمن الذي سندفعه في الغد اذا لم نقرر اللجوء الى القصف الجوي لفتح الطريق امامنا، ثمناً سيكلفنا حياة رجالهم وضبّاطهم، وربّما حياتهم. وفيما نحن في خضّم المناقشة وصلتنا رسائل من الجبهة اطلعتنا على آخر التطوّرات مما زاد من حدّة التوتر. وتمثّل احد عناصر الأخلاقيات التي يرتكز عليها الجيش الاسرائيلي في عدم اسقاط الضحايا عمدا وسدى. ولكن اي قرار سنتّخذ الآن ؟ أيتعيّن علينا، باسم هذه الأخلاقية، دفع ثمن باهظٍ، وهذا يعني التضحية برجالنا ؟ عندما انتهينا، قرابة الفجر، كان الضباط الموجودون قد أبدوا جميعا رأيهم. فطلب كل منهم العدول عن تدّخل الطيران، والمحافظة على التكتيك نفسه القائم على طرد العدّو في كل منزل، تماما كما فعلنا حتى هذا اليوم، لتفادي قدر المستطاع التعرّض للمدنيين الفلسطينيين واللبنانيين. وبعد الاصغاء الى صراع ضمائرهم ساعات طوال، وافقت بدوري على هذا القرار. ولا أزال أسائل نفسي، ترى أيطالعنا في العالم جيش آخر يخصّص ليلة بطولها والمعارك الطاحنة في أوجها، لمناقشة مشكلة مماثلة ـــ واتخاذ قرار كذاك الذي اتخذناه في نهاية المطاف ؟...

صبيحة الثامن من يونيو (حزيران) تقدّمت قواتنا على طول الساحل؛ مخلّفة وراءها الدامور؛ ثم أخذت الشمال الشرقي في اتجاه عاليه، في مسعى لقطع طريق بيروت ـــ دمشق في وجه السوريين. أمّا القطاع الاوسط، حيث راحت قوّاتنا تتقدّم شمالا، في اتجاه الجبال والقمم الواقعة الى يسار البقاع، فقد شهد معركة دارت بين قواتنا والقوات السورية الفلسطينية المحالفة التي اخذت تدافع عن بلدة جزين.

وفي جلسة مجلس الوزراء التي عقدت صباح الثامن من يونيو (حزيران)

شرحت الوضع القائم في ساحة المعركة. فأعطيت وصفا دقيقا تناولتُ فيه مناورات قواتنا الهادفة الى بلوغ طريق بيروت ــ دمشق الحيوي، كما طلبت إذنا بفتح محورٍ إضافي في اتجاه هذه الطريق لتأمين امدادات الارتال المكلّفة ببلوغ الجناح السوري. ولم أعرض أمام الحكومة كل مناورة من مناوراتنا التكتيكية، كهذه مثلا ــ إلّا لأني اردت التأكد اولا من اطلاع كل وزير على الاحداث الجارية في ساحة المعركة، والحصول ثانيا على دعمهم الرسمي حيال كل عملية مهمّة. فشعرت وكأن هذا المنهج قد أضجر بعض الوزراء، لما أبدوه من امارات

وعندما ذكرّ وزير النقل، موردخاي زيبوري، الحكومة بأنه سبق لها ان اعطت الضوء الاخضر لبلوغ طريق بيروت ــ دمشق، اضاف نظيره اسحق موداعي ان من الضروري فتح كل محور من شأنه المساهمة في تحقيق هذا الهدف، ما دام الضوء الاخضر قد اعطي. وهو يعتقد اننا بالغنا في طريقة عرض الشؤون العسكرية على مجلس الوزراء. وكأن مقر هيئة الاركان او قيادة القطاع الشمالي قد اصبح هنا وكأن الوزراء مدعوّون للموافقة على فتح هذا المحور او غيره من المحاور... فخوض الحروب لا يكون بهذه الطريقة ! ماذا يهمّ لو فتحنا محورين لبلوغ هدفنا، او حتى محور ثالث تلبية لمستلزمات التموين[١].

ولكن على رغم المضايقات المحتمل ترتّبها على تصرفي هذا، أصررت على تقديم تقارير واضحة ومفصلّة الى مجلس الوزراء الذي طلبت منه التصديق على كل عملية عسكرية. ولأول مرّة، راحت الحكومة الاسرائيلية تجتمع مرّة واحيانا مرتين في كل يوم من أيّام الحرب. ولأول مرّة ايضا،

(١) أدخل المحضر المفصّل الى مجلس الوزراء، على ندرته أيام الحرب، في عهد بيغن الذي كان يشاور اعضاء الحكومة في كل مسألة، حتى انه كان يقرأ امامهم الرسائل التي كتبها، ساعيا وراء رضاهم. كما كان يقرأ تلك التي يتلقّاها كلمة كلمة.

وضعت الحكومة نصب عينيها هدفين محدّدين، راجَعْتهما في استمرار، وكيّفتهما وفقا لمقتضيات الوضع. في حرب الايام الستة، مثلا، لم تقرر الحكومة قط احتلال هضبة الجولان. فدايان، وزير الدفاع آنذاك، هو الذي اصدر هذا الأمر لأنه رآه مؤاتيا فحسب. وفي سيناء، لم يشأ حتى التقدم في إتجاه قناة السويس ولكنه رزح تحت ضغط الجيش وقادة الجبهة الذين رأوا في هذا التقدم ضرورة على صعيد التكتيك.

قرّرت على الفور عدم اتباع الطريقة نفسها لتنفيذ عملية السلام في الجليل، وترك الطقم السياسي يستلم زمام قيادة ساحة المعركة. ومن خلال هذا القرار كنت اصرّ على موافاة الحكومة بكل تحرّك مهم او محتمل وقوعه في ساحة المعركة. فكان كل قرار يعرض على مجلس الوزراء. أمّا أوامري، فلم أكن أنقلها الى الجيش الا بعد مداولات الحكومة وابداء رأيها. وكما سبق لي ان ذكرت امام الوزراء في ١٦ يونيو (حزيران)، على الحكومة ان تجتمع مرّة او مرّتين يوميا اذا ما اقتضت الحاجة. ولمّا كنت على علم بمدى تعرّض سير الاحداث في ساحة المعركة للتقلبات السريعة، عيّنت ضابط ارتباط دائم في مجلس الوزراء، مكلّفاً إطلاعه على الاحداث المهمة فور وقوعها. وحصل الوزراء على رقم خاص للاتصال بوزارة الدفاع على مدى اربع وعشرين ساعة للحصول على كافة المعلومات والايضاحات. كنت مقتنعا أن على كافة صانعي القرار فَهْم هذه الحرب، لذا كان الوزراء مدعوين الى زيارة الجبهة متى شاؤوا وقد قمت باللازم لأستقبل فورا كل راغب في الاطّلاع شخصيا على الوضع القائم على الارض.

نهار الثلاثاء في ٨ حزيران (يونيو) وافقت الحكومة على فتح محور تقدّم ثالث في اتجاه الشمال، للهجوم على السوريين من الخلف وإجبارهم على إخلاء البقاع. في هذا الطور من المعركة أصبحت المناورة اكثر إلحاحا. ووردتنا معلومات أكيدة مفادها أن الطيران السوري قد تلقى أمرا بالهجوم على قواتنا وهي تتقدّم في القطاع الاوسط. أما فوج الدبابات السورية،

الذي تسانده وحدات من المشاة، فقد شوهد وهو يتقدم في تجاه الجنوب ــ الشرقي، في منطقة جزين، حيث توّفر الطريق الضيقة الوحيدة شروط دفاع مثلى.

خلال الاجتماع ذاته أعلنت انني سأطلب شخصيا من حبيب ابلاغ رسالة الى الرئيس السوري، حافظ الأسد، ونسأله فيها انسحاب القوات السورية من البقاع حتى خط يقع على بُعد أربعين كيلومترا من حدود الجليل. أيّد بيغين ارسال مثل هذه الرسالة، ولكنه عارض مطالبتنا بجلاء القوات السورية. ثم قال : لِمَ نفرض على الرئيس الاسد مطلبا لن يقبل به ؟ فلنكن واقعيين. فكل ما نستطيع المطالبة به يقتصر على إخراج مدفعيّة منظمة التحرير الفلسطينية، وهذا ايضا يستطيع الرئيس الاسد رفض تحقيقه. انما يطالعنا على الاقلّ من هذه الناحية أمل. وفي حال رفض الرئيس الأسد، نكون قد سجلنا نقطة مهمّة في نظر الاميركيين. فإسرائيل تقّدم حاليا اقتراحا معقولا لإخراج الارهابيين. فإذا ما قوبل بالايجاب تكون العملية قد بلغت اهدافها، والمشكلة العسكرية قد حلّت، عندها سنتمكن من التطرّق الى الناحية السياسية من المسألة.

في ختام اجتماع مجلس الوزراء الذي عقد في ٨ حزيران (يونيو)، فوّضت الحكومة بيغن نقل النقاط التالية الى الرئيس الاسد عبر وساطة فيليب حبيب :

أ ــ لا نريد الحرب مع سوريا.

ب ــ نرجو منكم اصدار امر الى جيشكم يقضي بعدم اطلاق النار على رجالنا. فجنودنا لن يهجموا على جنودكم اذا لم يلحق بهم أذى.

ج ــ اطلبو من جيشكم الانسحاب من الجنوب في اتجاه الشمال حيث كان معسكرا قبل اطلاق حملتنا.

د ــ اطلبوا من الارهابيين التراجع مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً في تجاه الشمال (ممّا سيقصيهم عن الحدود مسافة اربعين كيلومترا). وفي

حال نفّذت هذه النقاط سنعتبر المرحلة العسكرية من العملية منتهية، ويمكن البدء بالمرحلة السياسية.

عهد بهذه الرسالة الى حبيب في مستهلّ امسية ٨ يونيو (حزيران)، وتمّ تسليمها فورا الى الرئيس الاسد عبر سفارة الولايات المتحدة في دمشق. ولكن لدى مناقشتنا مواصفات الرسالة المثلى الكفيلة باقناع السوريين بالعدول عن مواجهة عسكرية، كانت دمشق تتحرّك في اتجاه معاكس. ففي اليوم ذاته ادخل السوريون الى البقاع ست منصّات اطلاق صواريخ سام ــ ٦ لوضعها جنوب المنصّات الموجودة منذ فترة. إضافة الى ذلك، أقلعت ذلك اليوم المقاتلات السورية لأول مرة لشن هجوم على قواتنا المرابطة في محيط صيدا. وافادتنا الاستخبارات أن الاحتياط الاستراتيجي السوري المتمثّل بالفرقة المدّرعة الثالثة البالغ عدد دباباتها مائتين وخمسين دبابة، هو على استعداد لعبور الحدود اللبنانية فورا.

ما لا ريب فيه هو ان القوّة العسكرية السوريّة في لبنان راحت تتزايد سريعا. في تلك الليلة ايقظتُ بيغن في ساعة متأخرة جداً لأطلعه على آخر التطوّرات، وطلبت منه استدعاء الحكومة لعقد اجتماع في صباح التاسع من حزيران (يونيو). وفي الساعة التاسعة صباحا، اعلم بيغن الوزراء بأنه بُعيد اتصالي الهاتفي في الليل، اتصل فورا بسفير الولايات المتحدة، صموئيل لويس، سائلا اياه ان يبلغ الى السوريين رسالة نطلب فيها سحب الصواريخ الجديدة خلال مهلة اقصاها الساعة الخامسة صباحا. واعلن بيغن قائلا : « في حال رفض الرئيس الاسد تنفيذ هذا الطلب، ستتحرك اسرائيل. حاليا، علينا اتخاذ قرار في شأن هذه الصواريخ. » عند هذا الطور ذهب حبيب شخصيا الى دمشق في مسعى لتجنّب المواجهة الداهمة التي قد تقع بين السوريين والإسرائيليين. في بادىء الامر، رفض الرئيس الاسد استقبال حبيب (وكنا نجهل ذلك آنذاك)، وجعله ينتظر بضع ساعات قبل ان يتنازل ويقابله. كان الوضع حرجا. ومع ذلك، كان في إمكان موافقة سورية في هذه

المرحلة أن تحقّق اهدافنا التي من اجلها اطلقنا عملية سلام الجليل. فلو أُقصي الارهابيون مسافة اربعين كيلومترا من الحدود، لكنّا مستعدّين — حسبما أشار الى ذلك بيغن في نقاط رسالته الاربع — لبدء المحادثات فورا.

فيما راح حبيب ينتظر مقابلة الرئيس الاسد، استمرت الحكومة الاسرائيلية في مناقشة الموقف الذي سَيُعْتمد. فاقترحتُ على الحكومة، في حال رفض الرئيس الأسد، ان توافق على شن غارة على قاذفات الصواريخ السورية. وخلال المناقشة بلغنا خبر طارىء من قسم المخابرات، أفادنا ان فوجا جديدا من الصواريخ هو في طريقه الى لبنان وان قوات مدفعية ثقيلة، آتية من حمص، تتجه جنوباً نحو البقاع. فقلت للوزراء :« لقد قام السوريون بالمبادرة، ونحن جالسون هنا، على مقاعدنا، من دون ان نحرّك ساكنا. »

اصررت على اتخاذ قرار بشأن الصواريخ، لكنّ المناقشة استمرت الى ما لا نهاية. فراح مساعد القائد العام لسلاح الجو ينظر الى ساعته بعصبيّة. كان يعلم اكثر من اي رجل آخر مدى تشعّب العملية على الصعيد التقني وما تتطلّبه من دقة متناهية في جدول مواعيدها. وبدت عليه الدهشة لمّا رأى السياسيين ماضين في مناقشتهم، في حين أخذ الوضع تتفاقم خطورته، أشار رئيس الموساد اسحق هوفي الى اننا لم نلقَ بعد اجابة من السوريين تتضمن رفضهم الانسحاب وعزمهم على زيادة عدد صواريخهم اكثر. وقال : أرى أن نهجم. » أمّا وزير الداخلية، الدكتور بورغ، فلفت الانتباه الى ان السوريين قد غيرّوا حاليا الرقعة الاستراتيجية والتكتيكية، لذا علينا منذ اليوم اعطاء العملية الضوء الاخضر. وأضاف قائلاً : بعد التفكير في الموضوع لا يزال في مكاننا انتظار قرار السوريين، ولكن الى حين إصدار الاوامر فحسب. أمّا دايفيد ليفي فأيّد هذا الرأي وقال : « انا أؤيّد العملية واطلب تنفيذها في اقرب وقت. » أعلن بيغن، بعد تلخيص النقاش، ان غالبية اعضاء الحكومة يؤيّدون القرار. ولكنه سيطلع السفير لويس أن النقاط الاربع التي وردت في رسالتنا ستبقى صالحة مهما حصل. وختم قائلا : على رغم

الهجوم الوشيك على الصواريخ السورية، « نحن لا نريد الحرب مع سوريا. » وفي النهاية اعتُمد القرار بالاجماع.

بقيت رسائلنا الى دمشق من دون إجابة، الا اذا اعتبرنا انتشار قاذفات الصواريخ والحشودات العسكرية الجديدة ردّا عليها. حينئذ اصدرت الى رئيس هيئة الاركان في الثانية عشرة إلا ربعاً في ٩ حزيران (يونيو) امرا يقضي بتدمير الصواريخ السورية، فبدأ الهجوم ظهرا، مستفيدين من امثولات حرب ١٩٧٣، التي خلصنا إليها في مادّة التقنيات المضادة للصواريخ. وقرابة المساء تمّ تدمير تسع عشرة بطارية واسقاط ثلاثين طائرة ميغ سورية كانت اقلعت بعد هجومنا. امّا طائراتنا فعادت جميعها سليمة عندئذ فقط قَبِل الرئيس الأسد مقابلة فيليب حبيب، الذي كان ينتظر منذ الصباح.

أثار تدمير صواريخ سام قلق موسكو البالغ فقد برهنت تجربتنا الماضية، التي تحاكي تجربة الاميركيين في فيتنام، عن فعاليّة الصواريخ السوفياتية ذات التقنيّة العالية. لكنّ هذه الضربة القاضية اظهرت على نحو مؤسف قابليّة الخطأ لدى أنظمة الدفاع التي ارتكز عليها السوفيات أنفسهم. فتدخل الكرملن لدى الولايات المتحدة لإعلان وقف اطلاق النار، وذلك بعد ان هزّة المنحى الذي اتّخذته الاحداث، ولمس هشاشة الجيش السوري الذي أصبح تحت رحمة هجوم جديد.لذا ضغط البيت الابيض بشدة على اسرائيل في ليل ٩ حزيران (يونيو). وفي الثانية فجرا تلقينا رسالة شخصيّة من الرئيس ريغن يطلب فيها وقفا لإطلاق النار يسري مفعوله في الساعة السادسة في ٩ حزيران (يونيو). هنا برزت مشكلة خطيرة : فقد كانت قواتنا على وشك مباغتة السوريين، الا ان هؤلاء رفضوا الانسحاب لابل راحوا يسمحون لمنظمة التحرير الفلسطينية بمواصلة قصفها على قرى القطاع الشرقي من الجليل الأعلى (شاءت المصادفة ان تصل رسالة ريغن واجابة الرئيس الاسد في الوقت عينه. ويقول الرئيس الاسد في رسالته انه لا يسعه التقرير نيابة عن منظمة التحرير الفلسطينية).

عندما استلم بيغن رسالة ريغن، استدعى مجلس الوزراء صباحا الى مسكنه حيث أمضينا أربع ساعات. وهنالك تكلّمنا عن الساعات القليلة التي كنا في حاجة اليها لإقصاء السوريين المرابطين في البقاع حتى خط الاربعين كيلومترا، بما انهم رفضوا التحرّك عن طيبة خاطر وإلزام رجال منظمة التحرير الفلسطينية بالتراجع. وقلت في كلمتي : « يمّر السوريون والارهابيون الآن بوقت حرج، لذا الحوا في طلب وقف اطلاق النار... لقد سبق لنا ان شهدنا مثل هذا الوضع في كل حرب من الحروب التي أُجبرنا على تكبّدها، وها هو اليوم يُفرض علينا من جديد. فكلّما وجد العرب أنفسهم في أزمة يطلبون وقفا لاطلاق النار. لقد حققنا انتصارات باهرة في ساحة المعركة، ولكننا دفعنا ثمنها باهظا. لذا، علينا انجاز ما شرعنا فيه. ولهذه الغاية نحتاج الى بضع ساعات إضافية : أمّا وقف إطلاق النار فلا نستطيع تطبيقه الآن. مبدئيا، انا أؤيده اذا تضمّن شرطا هو انسحاب السوريين الفوري — الآن وليس بعد وقف اطلاق النار، حين يتعذّر علينا استئناف المعارك. »

ذلك الصباح من ١٠ حزيران (يونيو) اجتمعت الحكومة في الساعة التاسعة، مرّة ثانية. فشرحت أهميّة وجودنا على طريق بيروت — دمشق في الوقت الذي يسري فيه مفعول وقف اطلاق النار. فنحن بقطعنا هذه الطريق نؤمّن لأنفسنا موقعا قويا جدا في سبيل المفاوضات المقبلة. وفي غضون ذلك نكون أنجزنا مناورتنا على الجناح السوري في البقاع، وهو وضع سيمنع السوريين من إقامة حكومة ألعوبة في بيروت خلال الانتخابات اللبنانية في الخريف، كما سيجعل وجودهم العسكري في لبنان لا يطاق. اضافة الى ذلك، سنحقق، من خلال قطعنا هذه الطريق، الاتصّال بالقوات المسيحّية. وبهذه الطريقة سنحاصر آلاف الارهابيين الذين تواروا في قطاع بيروت. وقلت مذكّرا : « لكنّ قواتنا تلقّت تعليمات دقيقة بعدم دخول بيروت. لقد قلت منذ وقت طويل ان ليس لنا ان نتدخّل في بيروت، بل تركها في عهدة الجيش او الحكومة اللبنانية، اذا ما رغبا في ذلك. »

خلال الاجتماع الذي تلا خلص الوزراء الى استنتاجاتهم في ما يتعلق بآخر التدابير المفترض اتخاذها قبل وقف اطلاق النار وبداية المحادثات. وقال وزير النقل، حاييم كورفو : « المهم هو اتخاذ موقفٍ يجعل المفاوضات في صالحنا ويخوّلنا اجراءها سريعاً في الوقت المحدّد. » امّا اسحق موداعي، الذي ايّده في الرأي، فقد أعلن الآتي : « لا شك ان افضل موقف للمفاوضة هو في احتلال طريق بيروت — دمشق. » عندما غادرت اجتماع الحكومة ذهبت كالعادة لأقدّم تقريرا الى اللجنة البرلمانية للشؤون الخارجية والدفاع. وقبل وصولي كانت اللجنة قد استمعت الى عرض موجز للوضع العسكري قدّمه رئيس قسم المخابرات في الجيش، الجنرال يهوشع ساغي. لدى دخولي القاعة انهالت عليّ عشرات الاسئلة التي تناولت في معظمها بيروت وحشودات المدفعية لمنظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة اللبنانية. وشرحت بحذر انه على رغم النصائح التي اسداها أعضاء اللجنة، لم يكن الجيش الاسرائيلي ينوي الدخول الى بيروت، ولم يحدّد مجلس الوزراء المدينةَ كأحد أهداف العملية. فأكد اسحق رابين موقفي بعزم، تمام كما فعل حيال مسألة السيطرة على طريق بيروت — دمشق. غير ان موتا غور، رئيس هيئة الاركان السابق والنائب الحالي المنتمي الى حزب العمل، اعتبر ترك قيادة بيروت الى منظمة التحرير الفلسطينية خطأً فادحا، فهذا سيسمح لها باستعادة مكانتها السابقة ما أن تنتهي العملية.

في اليوم ذاته الواقع فيه ١٠ حزيران (يونيو) اقتحمت القوّات الاسرائيلية الخطوط السورية في البقاع، وبعد الظهر تقهقرت القوات السورية على امتداد وادي البقاع. وفي ساعة متأخرة من عصر اليوم اصدر قائد القطاع الشمالي امرا الى كافة قوّاته على الجبهات كلّها بتنفيذ عمليّاتهم. وفي امسية ذلك اليوم التقيت ببيغن لمناقشة وقف اطلاق النار. كان من الواضح ان السوريين في نهاية اليوم سيتراجعون الى ما بعد خط الاربعين كيلومترا، فأجمعنا على ان نعرض غدا، على مجلس الوزراء في ١١ حزيران (يونيو)

اقتراح قرار من اجل وقف لاطلاق النار يعلن من طرف واحد ابتداء من ظهر غد.

بعد لقائي ببيغن قدّمت الى قيادة الجيش بيانا موجزا عن احداث الغد. قلت للقادة ان الجيش قد بلغ كافة اهداف هذه الحرب وسوف نعلن غدا ظهرا(١) وقفا لاطلاق النار من طرف واحد. ولكن يجب الاّ نسمح للسوريين باعادة وضع صواريخهم الارض — جو باي وسيلة. كما يتعين اتخاذ كافة التدابير تجنبًا لانتشار الفرقة المدرّعة السورية الثالثة في البقاع (تلك الفرقة الاحتياطية التي تتبّعنا تحركاتها منذ بداية العملية). وخلال الاثنتي عشرة ساعة التي كانت تفصلنا عن وقف اطلاق النار يتعيّن على الجيش الاسرائيلي تدمير بطاريات الصواريخ التي قد لا تزال موجودة، وبذل الجهود اللازمة لبلوغ طريق بيروت — دمشق والحرص على ان تكون تدابير قوّاتنا النهائية مطابقة للاعتبارات التكتيكية.

وفي اجتماع الحكومة الذي عقد صباح ذلك اليوم اعلن بيغن ان وزير الشؤون الخارجية ووزير الدفاع وهو شخصيا اتفقوا على ان تعلن الحكومة وقفا لاطلاق النار يسري مفعوله ظهرا. واعطى رئيس هيئة الاركان موافقته على هذا القرار.

اضاف رئيس الوزراء ان اسرائيل لم تفاوض أحداً، لا الاميركيين، ولا السوريين ولا هؤلاء الاوغاد الارهابيين. سوف يوقف جيش الدفاع الاسرائيلي ظهرا كل عمل، مع سريان مفعول وقف اطلاق النار من طرف واحد.

خلال الجلسة التي تلت درس مجلس الوزراء وقف اطلاق النار المقترح وعبّر بوضوح عن مضمونه. وفي الختام، حدد بيغن وقف اطلاق النار بألفاظ

---

(١) ترد هذه الاقوال وتلك التي تليها في موجز محضر اجتماع قيادة قوات جيش الدفاع الاسرائيلي.

صريحة : « اذا اطلق الارهابيون النار على الجيش الاسرائيلي، فالجيش الاسرائيلي سوف يسحقهم. واذا أطلق السوريون النار على الجنود الاسرئيلين، فسوف يلقون مصيرا مماثلاً. ونقل رئيس الوزراء الى الحكومة انه اجتمع في الساعات الاولى من الصباح مع فيليب حبيب ليعلمه بأننا على وشك إعلان وقف اطلاق النار. وسينقل حبيب فورا الى الرئيس الأسد هذه الرسالة التي تحذّره ايضاً من إدخال مزيد من الصواريخ أرض — جو وتنذره بأنّ جيشه سوف يتحمّل كامل المسؤولية اذا ما هاجمنا. وكان من المنتظر ان يصلنا ردّ الرئيس الاسد ظهرا.

في نهاية اجتماع ١١ حزيران (يونيو) وافقت الحكومة على قرار وقف اطلاق النار. وورد في نصّ القرار : « حقّق الجيش الاسرائيلي المهمة التي كلّف القيام بها... وبدءًا من هذه الساعة ستوقف القوات الاسرائيلية اطلاق النار على كافة الجبهات، الا اذا تعرّضت لنيران تلك الجبهات. »

اضافة الى ذلك، قرّر الوزراء ان يبدأ مجلس الوزراء الاحد المقبل، أي بعد اربع وعشرين ساعة، بإعداد المواقف الاسرائيلية في المفاوضات. وهكذا كانت خشبة المسرح تنتظر الفصل الاخير من الاعتداءات.

طرد الفلسطينيين

حتى تاريخ وقف اطلاق النار نجح الجيش الاسرائيلي في اقصاء مدفعية منظمة التحرير الفلسطينية عن ضيع شمال البلاد وقراها. شكّل هذا نجاحا بارزا في حد ذاته، من شأنه ان يولد تأثيرات تجاوزت معناه. غير ان قوّاتنا، رغم الجهود التي بذلتها، لم تتمكن من قطع طريق بيروت — دمشق الاستراتيجية. فتوقّفت عجلة التقدّم شمالا، أوّلا بفعل التدابير المقيّدة التي اتخذها الجيش ليحول دون وقوع مزيد من الضحايا المدنيين من بين اهالي السهل الساحلي المكتظ بالسكان، وثانيا بفعل الارض الجبلية الوعرة التي صعب على الدبابات اجتيازها في القطاع الاوسط. لكنّ اخطاء فادحة وبعض الضعف في عمل هيئة الاركان ساهما الى حدّ بعيد في هذا الفشل. فعلى طول الطريق الساحلية وفي القطاع الاوسط أوقعت الاخطاء التكتيكية بعضا من قواتنا في أشراك محلية. وظهرت مشاكل في القطاع الشرقي، حيث اخّرت وحدات اسرائيلية شن الهجوم بضع ساعات كان يمكن ان تحسم الوضع، ولم نعرف بعد ذلك كيف نستفيد من اغلاط السوريين الفادحة. امّا في القطاع الشرقي فقد دخلت كتيبة دبابات سهوا الى وسط الخطوط السورية، في قرية السلطان يعقوب. وفي نهاية المطاف خرجت من هذا المأزق بعد أن وقع عدد من الدبابات وخمس رجال بين أيدي العدو. (أفضت المفاوضات التي جرت لاحقا، الى عودة ثلاثة من جنودنا الذين

وقعوا في الاسر خلال هذه الحرب، فتم في المقابل الإفراج عن ألف ومئة وخمسين ارهابيا اعتقلوا في السجون الاسرائيلية بعد محاكمتهم والاقرار بذنبهم على ان جزءا كبيرا منهم « سيعاود الخدمة » في صفوف منظمة تحرير فلسطين بعد خمس سنوات.)

لم ينجز الجيش الحركة الدائريّة التي تمكنّة من تهديد جناح القوّات السورية في شمال البقاع (بعد ازاحتهم من القطاع الجنوبي لهذا السهل) إلّا لأنّه لم يحترم نظام مختلف مراحل الخطّة الشاملة. لذا لم تنجح قوّاتنا في بلوغ طريق بيروت — دمشق. وترتّب على هذا الفشل نتيجة أخرى : فقد هرب كثير من الارهابيين في تجاه الشمال، سابقين قوّاتنا التي كانت تتقدم ببطء كبير. وتبعا لذلك لجأ سبعة الآف ارهابي الى بيروت وضواحيها. وفي خلدة، واجهت مواقعهم الجنوبية، على مسافة ثلاثة عشر كيلومترا جنوب المدينة، قوّاتنا المتقدّمة. وكادت هذه المواقع ان تقع بين إيدينا حين أوقفت القوات الاسرائيلية نيرانها، في ١١ حزيران (يونيو) ظهرا، احتراما لوقف اطلاق النار الذي اعلن من طرف واحد.

عندما سكتت نيران الجيش الاسرائيلي في سهل البقاع خيّم صمت على الخطوط السورية : ضعفت قوة النيران تدريجيا لتنطفىء كليًا. وعرفت مواقع منظمة التحرير الفلسطينية جنوب بيروت وغربها، هدنة قصيرة سرعان ما تبعتها رشقات كثيفة وطلقات صاروخية. ولزمت قوّاتنا الهدوء طول ساعات، تساءلنا خلالها عن طريقة الرد. وفيما كانت مدافع منظمة التحرير الفلسطينيّة تهدر كنت مع بيغن في مقبرة كريات شاوول، نشارك في مراسم دفن مساعد رئيس هيئة الاركان كوتي آدم، الذي قُتل البارحة على يد الارهابيين في الطريق الساحلية. بعد أداء هذا الواجب المؤلم رحنا نحلّل الوضع، حتى آل بنا الامر الى تطبيق قرار مجلس الوزراء بحذافيره : الردّ بكل ما أوتينا من قوّة. ففي الساعة الثالثة من بعد الظهر أصدر رفول ايتان امرا بشن

هجوم مكثّف على مواقع منظمة تحرير فلسطين، وبعد مضي ساعتين استأنفت وحدات القطاع الغربي تقدّمها.

في تلك الليلة أقلّتني الطائرة الى جونية؛ كانت المرّة الاولى التي اجد فيها نفسي، منذ بداية هذه العملية، في المنطقة المسيحية فتحدّثت مع الرئيس بشير الجميل وبعض من ضباطه الذين شرحوا لي استعدادات قواتهم، في حين وصفت لهم من جهتي وضع قواتنا. ولم أكشف للرئيس بشير عن نواياي — في الواقع، لا نوايا لنا سوى ابقاء الهدوء مخيّما بيننا وبين السوريين، وتسديد ضربة قاسية الى الارهابيين بعد خرقهم وقف اطلاق النار. غير انني رغبت في معرفة ما ينوي الرئيس بشير فعله. حتى ذلك الحين كنا قد أبلغنا الكتائب وحلفاءهم بأننا لا نريدهم ان يلعبوا اي دور فعّال. فلإسرائيل اهدافها الخاصة بها، ولا نريد زجّ أنفسنا في أوضاع قد توجدها قوات الرئيس بشير. ولكن في الوقت نفسه وُجّهت انتقادات قاسية الى مسيحيّي لبنان اخذت عليهم عدم تحرّكهم. (فقد قال نائب حزب اليسار مابام، فكتور شيمتوف : « بحق السماء، متى سيحرّكون ساكناً ؟ »). ففي نهاية المطاف كانت اسرائيل تحارب اعداءهم. أمّا هم، فكانوا يكتفون على ما يبدو بالتزام الحياد والانتظار حتى نتعب ونشقى من اجل مصلحتهم. ولم يبدِ الرئيس بشير ولا ضبّاطه اي همّة للقيام بأيّ عمل، حتى في هذه الفترة، حين كانت منظمة التحرير الفلسطينية محاصرة في بيروت وخاضعة لضغوط قواتنا. وهكذا فهمت ان هؤلاء الحلفاء لن يكونوا فعّالين في حرب طويلة المدى ضدّ منظمة التحرير الفلسطينيّة.

منذ ليل ١١ حزيران (يونيو) وحتى الصباح واصلت قواتنا التقدم، فاتّجه احد الطوابير شمالا شرقا الى عاليه، في حين احتل طابور آخر خلدة (يقع مطار بيروت الدولي شمال هذه البلدة). وبعد ان خضعت منظمة التحرير الفلسطينيّة لضربات متواترة وجّهتها قواتنا التي كانت تهدّد بقطع طريق بيروت

— دمشق السبيل الوحيد لانسحاب الفلسطينيين من العاصمة اللبنانية، اعلمت هذه المنظمة رئيس الوزراء اللبناني في ١٢ حزيران (يونيو) بأنها ستقبل وقف اطلاق النار.

في اليوم التالي، ذهبت الى الشمال على متن احدى الطائرات لأتفقّد ميدانياً وضع قوّاتنا المتقدّمة في جنوب — شرق بيروت. هبطت الطائرة في مقرّ قيادة فرقة الجنرال عاموس يارون، حيث قابلت رئيس مركز القيادة الذي أعلمني بأنّ القائد يارون موجود في الجبهة، على مسافة خمس واربعين دقيقة بالسيّارة. فاستقلّيت ناقلة جند وذهبت أبحث عنه في صحبة رئيس مخابرات الجيش يهوشع ساغي وبعض قادة مركز القيادة، بمن فيهم رئيسه.

بعد أن صعدنا دروب الجبال الضيقة، بين قافلات ناقلات الجند ودبابات لواء المظليين، رحنا نتوقّف بين الفينة والفينة لنسأل عن يارون. فكنّا نحصل في كلّ مرّة على الإجابة عينها : « لابدّ أن تجده في الجوار. » مرّت الخمس والاربعون دقيقة منذ فترة طويلة — فقد مضت ساعة ثمّ ساعتان، ونحن لا نزال على الدّرب، عالقين بين المصفّحات نتتبّع بعصبيّة محاولات السائق الذي راح يتقدّم على سائر المركبات، ملامسا صخور جبال الشوف الضخمة ملامسة خطرة. ويطالعك هنا وهناك حطام دبابات مفحمة تابعة إمّا لمنظمة تحرير فلسطين وإما للسوريين، كما تطالعك آليات شهدت معارك دارت في هذه الأماكن قبل مرورنا بقليل. بقينا نلفّ وندور في السيّارة على هذا المنوال قرابة الأربع ساعات. ومع حلول الظلام بلغنا الخطوط الأماميّة من دون أن نعثر على يارون. وفجأة ظهر أمامنا على الطريق ضابط مسيحي لبناني يحمل كلاشنيكوف. بعد أن تفرّست فيه بدقّة أيقنت انه الضابط الذي كان يقود المواقع المسيحية في بيروت خلال زيارتي العاصمة اللبنانية في كانون الثاني (يناير). فترجّلت من السيّارة والضابط المسيحي يرمقني بنظراته المتعجّبة وقد فاقت دهشته لدى رؤيتي في هذا المكان

تلك التي اعترتني. ولمّا سألته عن سبب وجوده هنا أجابني إننا في كفرشيما. فقد ولجنا مواقع الكتائب المتقدّمة[1].

كان هذا الضابط اللبناني الرجل الوحيد الذي بدا انه يعرف حقا مكان وجود القائد يارون. فقال انّه من دواعي سروره أن يقودني اليه. لكنّ مشكلة واجهتنا : فالأرض الممتدّة أمامنا لا يسيطر رجاله الا على ممرّ ضيّق منها. امّا خلف الجسر، فكانت المواقع السورية على جانبي الطريق، تفصلها عن مكان وجودنا مسافة تقلّ عن المئتي متر. لذا، تعيّن علينا التقدّم بحذر متناهٍ وبصمت مطبق. وفي الواقع، فضّلت ركوب سيّارتي على أن استقل ناقلة الجند ــ ١١٣ ــ الصاخبة. غير أن الرجال المكلفين بأمني عارضوا هذه الفكرة : فجلس الضابط اللبناني في آليتنا والقلق بادٍ على محيّاه.

اقتربنا من الجسر رويدا رويدا، ساعين الى تفادي الضجّة قدر المستطاع. غير ان مركبتنا اصطدمت بقنّ دجاج، فما كان من احد السكان إلّا ان أطلق النّار من بندقيّته. فتردّد صدى هذه الطلقة عاليا، فتمسك كل منّا بسلاحه في انتظار الحدث الآتي. مرّت دقائق عدّة على هذه الحال، ران خلالها صمت متوتّر ثم واصلت مركبتنا طريقها حتى بلغنا أرضا يعلوها العمران هي بعبدا. في الشوارع طالعنا كثير من المدنيّين الذين راحوا في معظمهم يطلقون النار في الهواء، تاركين أنفسهم تسترسل في مهرجان الفروسيّة.

كلّما توغّلنا ببطء بين الحشود بدا على حرسي الخاص التوتّر. فالظلام الدامس يكتنف الآن المكان، ومن يضمن لنا تلك الحشود الفضولية التي تجمّعت حول مركبتنا ؟ اضافة الى ذلك، حين اراد الضابط اللبناني الترجّل

(١) كانت فرقة يارون تتقدّم في اتجاه عاليه، لكّن السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية ابدوا مقاومة عنيفة. فاختار قائد لواء الطليعة هذه الطريق الجبلية التي قادته الى قرية بعبدا بعد اجتياز كفرشيما.

من ناقلة الجند ــ أمسكه أحد أتباعي بذراعه لمنعه من النزول. وجدنا أنفسنا من جديد وسط بعبدا، قبالة البلدية. وهناك يارون الذي بدا في منتهى الدهشة لظهوري المفاجىء. أمّا مختار المدينة ورئيس الشرطة المحليّة فكانت دهشتهما تحاكي تلك التي اعترت يارون وسرعان ما خرجا يدعواننا الى تناول فنجان من القهوة.

ما ان علم الرئيس بشير الجميل بوجودي في بعبدا حتى أرسل أحدهم ليقلّني الى بيته الكائن في بيروت. ومرّة جديدة خبأت لي العاصمة اللبنانيّة تجربة لا تصدّق، خفّت خلالها حدّة الدهشة التي تملّكتني خلال زيارتي الأولى لبيروت، في شهر كانون الثاني (يناير). كانت المطاعم والحانات مكتظّة بالروّاد، والناس يسيرون بخطى سريعة على الأرصفة تحت أضواء النيون، في حين تعالى زعيق أبواق السيارات التي أحدثت عرقلة سير مريعة في الطرقات. ولا يطالعك في كل هذا أي مؤشّر حرب. فقلت للرئيس بشير : « أتعلم، كنت اعتقد انني سأرى رجالا يتحرّقون للقتال من أجل بلادهم ؟ ولكن أنظر من حولك ! » فلا من يسجل في مكاتب التجنيد، ولا من يملأ اكياس الرمل، وما من رجل بدا مسرعا للانضمام الى وحدته. كان هذا مثيرا للقلق، لاسيّما وانّك آتٍ مباشرة من جبال الشوف الصخرية، التي ينتشر فيها حطام الحرب.

ولكن استحوذت على تفكيري مواضيع أخرى أثارت قلقي. فقبيل تنفيذ وقف اطلاق النار، استرعى انتباهي عنوان تصدر احدى الصحف الاسرائيليّة، مفاده ان عددا من اعضاء الحكومة « يشتبه » بأمر وزير الدفاع. فقلت في نفسي : ستخمد أصوات المدافع عمّا قريب، ولكن ها قد بدأ السياسيّون بالتذمّر. لايزال امامنا طريق طويلة وشاقة نجتازها قبل تحقيق اي اتفاق. وقبل كل شيء، نحن في أمسّ الحاجة الى التكاتف للوصول حتى النهاية. لذا، لم يبّشر هذا العنوان بالخير في ما يتعلق بهذا الموضوع.

كان يشغل بالي تخوّف من أن تضعف الحكومة وتتلاشى وحدتها في

هذه السّاعات المهمّة، حتى انني تطرّقت الى هذه المسألة في اجتماع مجلس الوزراء الذي عقد في ١١ حزيران (يونيو). فقلت انه على الحكومة أو رئيس الوزراء التحرّك بكلّ زخم إذا ما أردنا صيانة نتائج مساعينا التي أصبحت قريبة المنال. فجاءت إجابة بيغن مطمئنة : « يشكّل هذا احد اعمالنا الكبرى التي سعينا اليها ليس فقط خلال اربعة وثلاثين عاما من الاستقلال وانّما على مدى تاريخ شعبنا. فلنكن فخورين به. ذاك هو موقفي وانا مقتنع أنه موقف الحكومة بأسرها. أمّا الباقي فليس سوى خبر تافه ».

غير ان هذا « الخبر التافه » نفذ الى ذهن بيغن على رغم كلماته، حتّى انه بعد مضي ثلاثة ايّام ترك للوزراء، فيما هو يستعدّ لزيارة الولايات المتحدة هذا التحذير : « تسري وشوشات ملؤها البغض ضدّ الحكومة، لا سيّما ضدّ شارون. سبق لنا أن عرفنا مثل هذه الكراهية في الماضي. ولكن ظهر اليوم عامل آخر تمثل بالحسد. ولا يمكن للحكومة تعطيل حملة الاشاعات هذه الّا باعتماد موقف صلب وموحَّد، عندئذ فقط سنتمكّن من مؤاساة ذوي الجنود الذين سقطوا في ساحة المعركة. يجب الّا يشوب الجدار أي تصدُّع »[١].

شهدت بعبدا اول اتصال بين وحداتنا والقوات المسيحية. تمَّ ذلك من دون أن تضطرّ القوات الاسرائيلية (المتقدمة على طول الخط الضيق المتعرّج في المنطقة الجبلية الواقعة تحت سيطرة السوريين في شرق بيروت) الى القتال. وبفضل هذا الالتحام أصبحت بيروت مدينة مقطوعة من الآن فصاعدا. والقوات السورية الموجودة فيها أضحت منفصلة عن سائر الوحدات التي كانت تسيطر على طريق بيروت — دمشق وشمال البقاع. اضافة الى ذلك، لم يعد في استطاعة وحدات منظمة التحرير الفلسطينية المختبئة في العاصمة اللبنانية ان تأمل القيام بتعزيزات أو الحصول على امدادات فالمدينة اصبحت حاليا محاصرة، على الأقل نظريا.

---

(١) اجتماع مجلس الوزراء في ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٨٢.

في الواقع، لا يتعدّى عرض الرواق الذي قطع طريق بيروت — دمشق وفتح المجال أمام ضمّ القوات الاسرائيلية الى القوات المسيحيّة الخمسمئة متر، فهو إذاً لا يوفِّر سوى مركز ضعيف يتعذّر الدفاع عنه عمليا. وكانت سيطرتنا على هذه الطريق ضيقة النطاق حتى اننا أوقفنا ناقلة الجند في بعبدا بالقرب من القصر الرئاسي، ما أثار حفيظة الأميركيين الذين اعتبروا هذا التصرّف علامة تعجرف. وراحت منظمة التحرير الفلسطينية، بعد ان ادركت الخطر الذي يهددها، تنّظم بزخم كبير ارسال الامدادات. وسرعان ما أمّ المواقعَ السوريةَ في شرق الممرّ، متطوّعون قدموا من سوريا وليبيا والعراق، وحتى من ايران، ولكنهم عازمون على الدخول الى بيروت للانضمام الى مواقع منظمة التحرير الفلسطينية في الشطر الغربي من العاصمة اللبنانية.

لذا، كان لا بدّ من توسيع موقعنا على الطريق وتعزيز الحاجز القائم بين هؤلاء المتطوّعين وقوات منظمة التحرير الفلسطينية في المدينة. امّا ما أثار قلقا بالغا فكان وجود السوريين. في البدء تملّك الوهن وحداتهم المرابطة من حولنا، تماما كجيش مُني بالهزيمة. غير أنهم كانوا متمسّكين بالأرض المطلّة على الجوار. فكانت استراحة قصيرة تكفي لتجعلهم ينتصبون مجدّدا. وشهدت تلك المرحلة عمليات تسلّل واعتداءات قام بها ارهابيّون من الجبال. فأيقنتُ آنذاك ان ادنى مبادرة سورية سوف تزيد من خطورة وضعنا.

وبرزت مشكلة سياسية خطيرة. فبعيد وقف اطلاق النار بدأ فيليب حبيب بالضغط لفكّ اشتباك القوات. وفي ١٥ حزيران (يونيو) طرح المسألة خلال لقاء عقد في مسكن الكولونيل جوني عبدو، رئيس المخابرات في الجيش اللبناني. كانت اليرزة، التي اتخذ منها العقيد عبدو مكاناً لإقامته، حيّا من الفيلات الفخمة الواقعة في شرق بعبدا، تستطيع منه مشاهدة مقرّ وزارة الدفاع والقصر الرئاسي المنتصب على الهضبة في الأسفل مباشرةً. انقطع التيّار الكهربائي في المنزل، فأضأنا الشموع للاستنارة. وقامت بحراسة جوار المسكن وحدات من الجيش اللبناني والميليشيات اللبنانية التي لازمت

صمتا مطبقا. وأوضحوا لي ان مواقع السوريين تقع على بعد مئتين وخمسين مترا من المنزل. ولذلك قُطع التيار الكهربائي وخيّم سكوت تام على المكان.

ما ان وصل حبيب حتى بدأنا أوّل مناقشة جديّة حول التطوّرات العتيدة، ومن بين المواضيع التي طرحها المبعوث الأميركي وردت مسألة فكّ اشتباك القوات. فهو مقتنع بضرورة تراجعها مسافة خمسة كيلومترات لتنفصل عن السوريين وقوّات منظمة التحرير فلسطينية، وهو يرى ان هذا التراجع من شأنه أن يزيد فرصة تثبيت وقف اطلاق النار. اضافة الى ذلك، سوف يحصل على ما يقدّمه الى منظمة التحرير فلسطينية خلال المفاوضات الوشيكة الحصول. ولكني عرفت خير معرفة معنى فك الاشتباك الحقيقي: « كان يهدف الى اقصائنا عن طريق بيروت — دمشق، وفي المقابل يسمح للسوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية بتأمين قوّاتهما. وبتعبير آخر، سيؤدي فك الاشتباك هذا، الى رفع الحصار الذي انجزناه بمهارة والى تبديد النجاح الذي كان في متناول أيدينا، ألا وهو رحيل القوّات السورية ومنظمة التحرير الفلسطينية عن لبنان، يتبعه جلاء قوّاتنا.

وبالطبع، لم أتلكأ في اجابة حبيب اننا لا نستطيع قبول فك اشتباك القوات الموجودة غير انني أدركت في تلك الليلة اننا نواجه خطرا حقيقيا كنت أجهل الى اي حدّ يمكن للطلب الأميركي ان يكون ملحًّا، لكنني كنت أرى مداه. فإذا لم نحكم قبضتنا على قسم من طريق بيروت — دمشق يفوق عرضه بضع مئات من الأمتار الواقعة حاليا تحت سيطرتنا، قد نجد أنفسنا مجبرين على التراجع فيما يروح السوريون والفلسطينيون يعززون مواقعهم في بيروت التي تشهد دفقا جديدا من القوّات والامدادات للاستقرار فيها نهائيا.

لذا أصدرت أمرا الى الجيش ليبذل ما في وسعه لتحسين مواقعه على هذه الطريق، وليعمل جاهدا حتى يتقدم شرقا من دون التسبّب باشتباكات مسلّحة فحدّدت قائلاً: « علينا احترام وقف اطلاق النار والتقدّم فقط في

اتجاه الأماكن الحيوية التي يمكننا الاستيلاء عليها من دون خرق هذا الاتفاق »، لكنني كنت أنوي تأمين أفضل موقع متيسّر في اطار هذه التوجُّهات.

في ١٨ حزيران (يونيو) اتضح لنا ان تكتيك الزحف التدريجي لم يعد كافيا. فوقف اطلاق النار لم يطبّق قطّ في جنوب بيروت وشرقها ولا في الهضاب ولا في جوار بعبدا، والسوريون يرسلون حاليا قوّات جديدة تستمر في اطلاق النار على مواقعنا، يؤازرها ارهابيون قدموا من كافة أنحاء العالم. وبسبب مرابطة القوات الاسرائيلية اعتراني تخوف من أن تصحو منظمة التحرير الفلسطينية من الصدمة التي اصابتها وأن تشرع في تحصين نفسها استعداداً لمعركة طويلة. وفي حال استئناف المعارك سيكون السوريّون في موقع يخوّلهم الهجوم على ممرِّنا في طريق بيروت — دمشق والسيطرة عليه. لذا اصدرت امرا الى الجيش في ١٨ حزيران (يونيو) بالاستعداد للهجوم شرقا، على طول الطريق، في اتجاه عاليه. ومن الطبيعي ان يصادق مجلس الوزراء على مثل هذه العملية قبل تنفيذها، ولهذه الغاية كان لابدّ من انتظار عودة رئيس الوزراء من الولايات المتحدة في ٢٤ حزيران (يونيو).

وفي ٢٤ حزيران (يونيو) شرحت امام مجلس الوزراء بالتفصيل موقعنا على طريق بيروت — دمشق، وعرضت وجهات نظري في ما يتعلق بالضروريّات التكتيكية التي يمليها الوضع. بعد ذلك طلبت من المجلس الموافقة على شنّ هجوم يرسّخ وجودنا في هذا المكان. وبعد مناقشة تناولت الوضع بأكمله، قَبِل المجلس التحليل الذي قدّمته ووافق بالاجماع على العملية الموصى بها.

بدأ الهجوم في اليوم نفسه. وعندما انتهت المعركة بعد مرور ما يقلّ عن اليوم سيطرت القوات الاسرائيلية على قرابة عشرين كيلومترا من طريق بيروت — دمشق. فاستحالت الإيجابيّة السياسيّة المترتّبة على التحام قواتنا بالقوات المسيحيّة حقيقة على الأرض لا تقبل الردّ. وتمركزت القوات الاسرائيلية في وسط البلاد الاستراتيجي، فاصلة القوات السورية في بيروت

عن سائر نظيراتها المرابطة خارج العاصمة، ومحبطة كل أمل بوصول أي نجدة خارجية تحلم بها منظمة التحرير الفلسطينية. امّا موقعنا الحالي فسيخوّلنا التمسّك بأهدافنا خلال المفاوضات القائمة منذ اسبوعين ــ مفاوضات كشفت عن تباين مثير للقلق بين وجهات النظر الأميركيّة والاسرائيلية.

سبق لهذه الخلافات ان ظهرت في ١٥ حزيران (يونيو) عندما التقيت بحبيب في مسكن الكولونيل جوني عبدو، مع أنّ نقطة الانطلاق اتسّمت بوضوح كبير : لضمان أمننا الدائم على حدودنا الشمالية علينا أوّلا ترحيل كافة القوات الأجنبية كالمنظمات الارهابية والسوريين، وبالطبع الاسرائيليين.

ولكن لدى التأكيد على هذه النقطة قال حبيب : « لا يمكن لانسحاب القوات الأجنبيّة ان يكون متوازيا » فسألته : « ما معنى متوازيا ؟ » أجابني : ــ « للسوريين مصالح أمن في لبنان » فأصررت قائلا : « عن اي مصالح أمن تتكلم ؟ هل سبق للبنانيين ان هاجموا سوريا ؟ هل سبق للبنان أن هدّد سوريا ؟ هل سبق لسوريا ان عانت اعمالا ارهابية كان مصدرها أرض لبنان ؟ » كانت الإجابة على كافة هذه الأسئلة معروفة مسبقا. غير ان موقف الأميركيين كان على اي حال نذير شؤمٍ : فالطريق التي سيسلكها الأميركيّون، بصرف النظر عن ماهيّتها، لن تكون طريقنا.

امّا نوايا حبيب في ما يتعلّق بمنظمة التحرير الفلسطينة فما كانت لترضيني هي الأخرى. فقد اقترح نزع السلاح من رجالها وجعلها منظمة « سياسية »، وذلك عوضا عن طردها. وبعد مضي أسبوع، استأنفنا مناقشة هذه النقطة في منزل الكولونيل جوني عبدو، على ضوء الشموع كالعادة. وهناك سألني حبيب : « من يتعيّن عليه الرحيل : أهُم العشرة آلاف [ارهابي] أم قادتهم فحسب ؟ » أجبته : « على الارهابيين جميعا ان يرحلوا. فنحن يستحيل علينا قبول وجود ارهابي مسلّح ». وقال حبيب حول مسألة نزع السلاح، التي يأمل ايجاد حل لها : « أشاطرك رأيك في هذا الموضوع. » غير اني

لم اكن على استعداد للتنازل عن هذه النقطة. لأن المسألة لا تتعلّق بنزع السلاح وانما برحيل منظمة التحرير الفلسطينية. فقلت : « عليهم ان يرحلوا والا سيصار الى تصفيتهم. فنحن لم يعد في استطاعتنا تقبّل عدم رحيلهم. وفي وسعنا تصفيتهم من دون الدخول الى بيروت ».

حبيب : « أنا اعرف الخريطة. كثير من الناس وكثير من الشيعة يعيشون [في بيروت] ».

شارون : « أظن انه من المستحيل الحصول على ما تطلبه[١]. »

وسرعان ما فهمت أن هذه الأقوال تخبّىء تصوّرا وافق عليه كل من حبيب وغيره من العاملين في وزارة الشؤون الخارجية كموريس درايير ونيك فاليوتيز وسام لويس، سفير الولايات المتحدة في اسرائيل. يرتكز هذا التصوّر على استخدام لبنان كوسيلة لحل مشاكل الشرق الأوسط الأخرى ــ وشهدت تلك الفترة وضع مشروع ريغن (من دون أن يكون وصلنا علم بذلك) القاضي بتسوية شاملة لمشكلة « الضفّة الغربيّة » مع الأردنيين والفلسطينين. وفي نهاية المطاف، سوف يستخدم لبنان لحمل الفلسطينيين الى طاولة المفاوضات. إضافة الى ذلك، رأى حبيب، بعد الهزيمة التي مُني بها الجيش السوريّ، انه قد يستطيع أن يقرّب الرئيس الأسد من المعسكر الأميركي في حال دافع عن موقف دمشق. ووفّر وضع لبنان المتقلّب أمام حبيب، الذي لعب دور الوسيط بين كافة الفرقاء الموجودين على الساحة، فرصة تحقيق اهداف متنوّعة كان يتطلّع إليها.

مرّت الأسابيع والأميركيّون يواصلون مناوراتهم المعقدة التي لم تكن سوى مضيعة للوقت ــ لأن حكومة بيغن تمسّكت بنظرتها الخاصة الى الموضوع. وفي كل لقاء عقدته مع الأميركيين كنت أتطرّق في استمرار الى المسألة عينها : نحن في لبنان امام دولة تمزّقها الحرب منذ سنين

(١) لقاء ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٨٢.

وأمام بلد يعاني مشاكل في منتهى التعقيد بحيث إذا ما توصّلنا الى حلّها نكون قد حققنا انتصاراً بارزاً. كنت أتحدّث خصوصا عن حل دائم لمشكلة الأمن على حدودنا الشمالية، وعن إدخال لبنان في مثلث اقليمي تكون اسرائيل ومصر ضلعيه ــ مثلث يدور في فلك الولايات المتحدة السياسي وفي فلك العالم الحرّ عموما. في تلك الفترة بدت هذه الامكانية متاحة فعليًا. كنت آنذاك مقتنعا تماما، كما لا ازال حتى هذا اليوم، بقابليّة تحقيقها؛ فهي في متناول اليد. غير ان فيليب حبيب وزملاءه كانوا قد اتخذوا اتجاها مغايرا كليًا.

... على غرار حزب العمل. ففي الوقت الذي بلغ فيه الصراع مع الأميركيين ذروته خاصم حزب العمل وسائر أحزاب اليسار حكومة بيغن خلال الأسبوع الأخير من حزيران(يونيو). فالتلميحات التي ظهرت قبل اسبوعين منذرة بقيام معارضة سياسية في وجه حرب لبنان عرفت ازدهارا الآن في ظلّ مسعى واسع النطاق وموحّد ــ لم يشهد له تاريخ اسرائيل اي نظير ــ يرمي الى القضاء على الوحدة التقليدية القائمة حول مشاكل الأمن القومية، وتحريف هذه المشاكل عبر صراعات سياسية. فهذا الوحش الذي رفع رأسه صبيحة تدمير المفاعل النووي العراقي، انتصب حاليا على امتداد قامته.

اتهم حزب العمّال الحكومة بتجاوز التزامها القاضي باقصاء السوريين والارهابيين الى ما وراء خط الأربعين كيلومترا من الحدود الاسرائيلية، لا الى مسافة أبعد. ويؤكد حزب العمل ان الحكومة بتصرّفها على هذا النحو قد نكثت بوعدها بلا خفر. في ٢٧ حزيران (يونيو) ردّ بيغن على هذه الاتهامات، خلال اجتماع الحكومة الذي دام ساعات طويلة، واعلن انه لم يرجع في كلامه. فهذا ما قاله تماما. لكّن الخطأ يتمثّل في اتهام المعارضة الذي زعم ان الحكومة، وخصوصا عضوين من اعضائها، يستغلان الشعب. مامن انسان يستغلّ الآخر... لا الحكومة ولا

بيغن ولا شارون. في ما بعد قام بعرض موجز للأحداث الجارية، مذكّرا ان جيش الدفاع الاسرائيلي قد توقّف عن اطلاق النار منذ نهار الجمعة ١١ حزيران (يونيو). لكّن الحكومة قرّرت الردّ على كلّ اعتداء. فلو توقف العدوّ آنذاك عن اطلاق النار لخيّم الهدوء الآن على كافة الجبهات، ولتناولنا الصراع حاليا من جانبه السياسي، ولما زحف الجيش الاسرائيلي على بيروت، ما كان سيجنّبنا وقوع اشتباك مسلّح مع السوريين.

وتابع بيغن كلامه : في هذا الطور من الأحداث كانت اسرائيل ستطالب باتفاق سياسي. لكّن العدوّ، كما تعلمون، استمرا في اطلاق النار ونحن في الردّ عليه. في ما بعد، كان لابدّ من ان يتقدّم احد الفريقين لإجبار الآخر على التراجع، ولا يمكن الا ان يهنّئ نفسه لتراجع المعسكر الآخر، لا معسكره.

لهذا السبب كانت هذه الاتهامات الدنيئة باستغلال الشعب، تفقده صوابه. وكأنهم يأخذون علينا خداع الشعب بغية اراقة دم العدو ودم جنودنا. ويعتبر بيغن أنْ لا داعي للإفصاح عن الشعور الذي انتابه عندما ورده نبأ سقوط جنودنا في المعارك. لا، لم تكن هذه الاتهامات شتيمة حقيرة فحسب، وانّما مصدر عذاب تكابده كل حكومة شرعية وديمقراطية. ومع ذلك، اتسمت الوقائع بالوضوح ودُوّنت في بروتوكول جلساتنا : كنّا على استعداد لوقف كافة المعارك والشروع في المسيرة السياسيّة لإحلال الأمن والسلام في الجليل، لكّن الارهابيين جاهروا علنا بمواصلة القتال، وهذا ما فعلوه. امّا ما حدث بعدئذ فكان مطابقا لمقرّرات الحكومة. في حين لم ندع اي خطوة رهن المصادفات، على غرار ما حصل في الحروب السابقة، كما نعلم جميعا.

في الجلسة عينها ناقش مجلس الوزراء مطوّلا الخطوة التي يجب اتخاذها لإخراج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت. فقلت آنذاك : تكمن مشكلتنا

في ايجاد سبيل كفيل بطرد الارهابيين من بيروت من دون إيقاع عدد كبير من الضحايا (بين صفوف القوّات الاسرائيلية)، كما يجب ألّا يغيب عن بالنا اننا نواجه مشكلة الرأي العام. ومادامت المفاوضات التي يديرها الأميركيون تراوح مكانها (منذ اعلان اول وقفٍ لاطلاق النّار، قبل أسبوعين)، لم يتبقَّ أمامنا سوى ثلاثة خيارات ملموسة :

أ ــ الدخول الى بيروت وتصفية الارهابيين؛

ب ــ إخضاع الضاحية الجنوبية، التي احتلتها منظمة التحرير الفلسطينية ورحل عنها عدد كبير من سكانها، لقصف مكثّف وإجبار رجال السيد عرفات على قبول شروطنا؛

د ــ سيطرة جيش الدفاع الاسرائيلي على الأراضي المكشوفة المحيطة بالضاحيتين اللتين تشّكلان خطرا جسيما وتقعان تحت احتلال الارهابيين؛

وبهذا الشكل، نظهر بوضوح اننّا لا نكتفي بالكلام فحسب بل نحن عازمون على التنفيذ. وقد لا يعطي قصف مواقع منظمة التحرير الفلسطينيّة النتائج المرجوّة لكنه سيعمل سريعا على إفهام العدو انه اذا ما استمرّ في رفضه اخلاء الأماكن، سوف يصار الى تصفيته.

في معرض المناقشة المضنية التي تلت عرضي هذا، شدّد بيغن على اهمية عامل الوقت ــ (ذلك الوقت الذي لم نعد نملك متسعاً منه، على حدّ قوله.) فقد استخدمت الولايات المتحدة حق النقض في وجه قرار الأمم المتحدة الدّاعي الى رحيلنا من لبنان. غير أن هذا لا يعطينا سوى استراحة بضعة ايّام. فالوزراء الذين كانوا يعارضون احتلال ضواحي بيروت كانوا يخشون، في الواقع، حرب الاستنزاف. واذا لم نتحرك، سوف تتحرّك منظمة التحرير الفلسطينيّة. وهذا ما لن يقوى الشعب على احتماله.

وتابع بيغن قوله : لايزال في بيروت سبعة آلاف مجرم، وطالماهم باقون فيها لن تجدي أعمالنا نفعا. علينا إرغام هؤلاء الأوغاد على الخروج من المدينة. فإذا سيطرنا على المطار وتقدّمنا مسافة كيلومتر ونصف كيلومتر

ستمكّن فعليًا من الضغط عليهم، وفقا لتقديراتنا ــ وعلينا اليوم بالذّات حسم هذه النقطة.

اقترحت مع بيغن ووزير الشؤون الخارجيّة اسحق شامير ورفول ايتان خطةً تقضي بالدخول الى المطار وباحتلال الأراضي المحيطة بالضواحي. ولكن لمّا طلب مني الوزراء ابداء رأيي الشخصي في المسألة، أجبتهم : « في رأيي، علينا استخدام كل ما أوتينا من قوّة نار ضدّ منظمة التحرير الفلسطينيّة. فلبجوئنا الى الطيران والمدفعيّة سنسحقهم كليا ــ أعرف ان هذا التعبير لا يحبّذه الناس ــ وسنرغمهم على قبول شروطنا. تلك هي وجهة نظري. ولكن بما انه دار نقاش فاني اقبل الخطة المقترحة واتبنيها بكليّتها... فعندما نتّخذ قرارا علينا الالتزام به ».

فأوضح الدكتور بورغ قائلا : « هذا ليس قرارا وانما هو اقتراح. »

عارض هذه الخطة بشدّة كثير من الوزراء، نذكر منهم : مورد خاي زيبوري واسحق برمان وزبولون هامر. كانوا يعلمون ان عاملي شاشات التلفزة في العالم أجمع يبثون كل يوم صورا ملؤها المأساة تمثّل الجيش الاسرائيلي وقد حاصر المدينة. وكانوا يدركون، على غرار سائر الوزراء، ان تلك الأفلام لن تُظهر أبدا الأسباب الفعلية الكامنة وراء اشتراكنا في الحرب، ألا وهي السنوات الطويلة التي عانينا خلالها ارهابا كان مصدره لبنان، ومساعي منظمة التحرير الفلسطينية الرامية الى تدمير شمال اسرائيل، وقوّة مدفعيّتها وصواريخها المتعاظمة، والفشل المرير الذي مني به الوسطاء الأميركيون. من أجل هذا، قلق هؤلاء الوزراء على سمعة اسرائيل في العالم وتخوّفوا من أن تسيء مبادرات جيشنا الجديدة الى هذه السمعة وأن تلحق مثل هذه العملية بجيش الدفاع الاسرائيلي خسائر جديدة. لهذه الأسباب عارض الوزراء هذه العملية وطلبوا من الحكومة الاعتماد كليا على العمل السياسي.

وبعد نقاش مطوّل وشاق تبنّت الحكومة في نهاية المطاف قرارا يؤيّد

العمل الدبلوماسي الذي لابدّ من انتظار نتائجه. وكان القرار يلزم اسرائيل باحترام وقف اطلاق النار. ويدعو الجيش اللبناني الى دخول بيروت الغربيّة. كما يقضي بأن تسلّم المنظّمات الخمس عشرة الخاضعة لمنظمة التحرير الفلسطينيّة اسلحتها الى الجيش وأن يرحل عن بيروت كافّة اعضاء هذه المنظّمات، اضافة الى القوات السورية المقيمة فيها، على أن يتمّ ذلك تحت اشرافنا وبتعهّد منّا بعدم التعرّض لهم. وعندما تتوحّد بيروت ستباشر المفاوضات حالا لتحديد طريقة جلاء كافة الجيوش الغربية وضمان سلامة لبنان ووحدة أراضيه وسلامه. وورد في ختام القرار تحذير مفاده الآتي : في حال خُرق وقف اطلاق النار الحالي ستلتئم الحكومة الاسرائيليّة لتقدّر منهج العمل.

بعد مضي ثلاثة أيّام، عرض فيليب حبيب في ٣٠ حزيران (يونيو) اقتراحا أميركيا تضمّن تسع نقاط لتسوية شاملة، وقلّما اختلف هذا الاقتراح عن اقتراحاتنا المطروحة، باستثناء جانب له مدلول كبير تمثّل بالسماح لـ « منظمة التحرير الفلسطينية السياسيّة » بالبقاء في بيروت ! كنّا مستعدّين لقبول كافّة نقاط المبادرة الأميركيّة، ما عدا هذه النقطة التي رفضناها رفضا قاطعا. في موازاة ذلك، دعونا الأميركيين الى إنهاء المفاوضات في اسرع وقت ممكن. فمنظمة التحرير الفلسطينيّة لا تفكّر حتّى في احتمال الرحيل، كما نعلم جميعا.

في الواقع، لهذه المنظّمة بواعث تدفعها الى البقاء بدلا من الرحيل. كانت تعي تماما، على غرارنا، ان حبيب لم يكن يبدي اي عجلة لحل النزاع سريعا، لأسباب خاصّة به. وعزّز تصلّب هذه المنظمة غياب أي ضغط فعليّ. اضف الى ذلك، انه كلّما طال حصار بيروت ثقلت في اسرائيل وطأة الضغط الذي كان يتخذ مظاهرات في الشوارع، واعتداءات على وسائل الاعلام والاعلان، وانتقادات تلقى في وجه الكنيست. وفي حال نجم هذا الضغط جزئيا عن مواطنين آمنوا بصدق، ولكن بسذاجة، بأننا نستطيع وضع

حدّ للمعارك من دون تسوية مشكلة وجود منظمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت، فإنّ حزب العمل هو الذي مارس خصوصاً هذا الضغط، يشاركه في ذلك فريق شالوم أخشهاف أو (« السلام الآن »). وراح حزب العمل يعمل بزخم بقدر ما كان يعتبر أن الموقف خطرعليه. فقد اعترف رئيس الحزب شخصيا بأنّه « **خلافا لتخوّفاتنا السابقة،** كانت هذه الحرب نصرا كبيرا. فهي كادت تبلغ معظم اهدافها الرئيسية، وفي غضون أيام سيتمّ توقيع إتفاقية سلام بين إسرائيل ولبنان، وهذه وقائع لا يمكن تجاهلها. فهذا سيمثّل اتفاقية السلام الثانية التي ستعقد « بينهما ». وسينجحون في إرسال السيد عرفات وارهابيّيه الى جهنّم وشرذمة « منظمة التحرير الفلسطينية » (يعود الضمير الى الليكود، وهذا ما اراد المؤلف التشديد عليه[1]). كان رئيس حزب العمل يشير الينا بالضمير الغائب، وكأن هذه الحرب التي اضرمت للذود عن حدودنا وكمّ فم الارهاب مسألة تخص الليكود وحده لا اسرائيل، وكأنّ اتفاقيّة السلام مع لبنان هي من مصلحة الليكود الشخصيّة لا من مصلحة اسرائيل.

لم يكن عرفات واصدقاؤه في حاجة الى من يفهمهم كم هي حيويّة تلك الخلافات السياسية الداخلية في اسرائيل من اجل ديمومتهم. فالوثائق التي عثرت عليها قوّاتنا في بيروت، بعد اقصاء منظمة التحرير الفلسطينيّة، تتقن التعبير عن هذا الموضوع. فقد صرّح رئيس منظمة التحرير الفلسطينيّة خلال اجتماع عثرنا على بروتوكول جلسته بالآتي : « المهم هو تغذية المظاهرات على امتداد اسرائيل. لهذه الغاية، علينا تعبئة كافّة مواردنا. فمظاهرة تل ابيب ستكون من دون جدوى اذا لم تتكرّر. وتقول وثيقة اخرى من الوثائق : طلب حاييم برليف مقاضاة شارون. فهؤلاء يودّون الانسحاب ومحاكمة شارون. و« انشاء الله »، تضغط هذه الأمور على الحكومة

(١) ذكر هذه الكلمات يوسي ساريد الذي كان آنذاك نائبا من حزب العمل، في صحيفة هآرتز haaretz، تاريخ ٢١ آب (اغسطس) ١٩٨٧.

الاسرائيليّة ». وتقول وثيقة ثالثة : « أملنا الوحيد معلّق على هذه المظاهرات في تل — أبيب »[1].

وورد في ملفّات منظمة التحرير الفلسطينيّة التي تمّ العثور عليها في بيروت محاضر عن المحادثات التي دارت بين أبا ايبان وشيمون بيريز والدبلوماسيين المصريين، حيث هاجم قائدا حزب العمل حكومة بيغن بعنف. وسمحت هذه التقارير لمنظمة التحرير الفلسطينيّة بان تتتبع الصراعات السياسيّة في اسرائيل وتستمدّ الشجاعة من هذه الانشقاقات التي تمزّق الحكومة الاسرائيلية.

من خلال تتبّع عرفات لمنحنى الضغط الممارس على الحكومة الاسرائيلية من الداخل والخارج، توفّرت أمامه كافّة الأسباب التي تحمله على الاعتقاد بأنّه، كلّما مرّ الوقت زادت فاعلية تأثيره. لكنَّ لمنظمة التحرير الفلسطينية ايضا اسبابها الشخصيّة الفضلى حتى تصمد اطول وقت ممكن. وكان عرفات يعرف ان لبنان هو افضل ورقة رابحة وربّما فرصته الأخيرة للبقاء كقوة عسكرية قادرة على مهاجمة اسرائيل. ويعتقد عرفات انه في خسارته لبنان ستنتهي منظمة التحرير الفلسطينيّة كحركة مستقلّة. وأدرك رؤساء هذه المنظمة ان اسرائيل لن تتمكّن من البقاء نهائيا في لبنان، وهي على كلٍّ لا تريد ذلك. وفي حال استطاعت هذه المنظمة ان تبقى في لبنان ستصبح، مع الوقت، قادرة على اعادة بناء قوّتها السابقة.

ولم تكن منظمّة التحرير الفلسطينيّة في لبنان « دولة داخل الدولة » فحسب فهمي شكلت دولة بكل معنى الكلمة، وأنشأت هيئات حكومية كثيرة : من محاكم وشرطة واصلاحيّات ونظام مالي ونظام المساعدة الاجتماعية والادارة والجيش وميليشيا الاحتياط، كل هذا في غياب حكومة مركزية

(١) أخذت هذه الأقوال وتلك الواردة لاحقا من وثائق وقعت بين أيدينا، وقد قرأت منها مقتطفات في الكنيست في ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢.

فعلية في بيروت. وبفضل الفوضى التي سادت جنوب لبنان، سيطرت هذه المنظمة على هذه المنطقة وقامت بجباية الضرائب، وتولّت ادارة الأعمال وفرضت رسوم عبور على الطرقات. واخضعت كافة ميادين العمل في مناطق سيطرتها لمراقبتها، مستميلة السكّان عبر العلاقات التجارية والتهويل والترهيب. فقد أنشأت منظمة التحرير الفلسطينيّة في لبنان مركزا عالمياً للارهاب كان يأوي ويعدّ ويدرّب ويحمي الحركات الارهابية التابعة لافريقيا واميركا الوسطى، من شبه الجزيرة الهندية حتى آسيا الصغرى، فضلاً عن زمرة بادر ماينهوف والألوية الحمر في الجيش الايرلندي السري والجيش الأحمر الياباني.

عندما بدأت عملية سلام الجليل كانت دولة منظمة التحرير الفلسطينية تعمل لتحويل وحداتها الارهابيّة الى جيش نظامي، يتألف من دبابات ومدفعيّة وشبكات ارتباط. وبنَتْ تحت المنازل في مدن اللاجئين ومخيماتهم ملاجىء وأنفاقاً تربط بين مختلف القطاعات. وخلال سنوات الحرب شهدت هذه الشبكات تطوّرا ملحوظا، حتى كادت أن تؤلف تحت الأرض مدنا حقيقيّة. أمّا في الشواطىء الصخرية وعلى قمم الجبال فقد حفرت منظمة التحرير الفلسطينيّة تحصينات واعدّت ترسانات اسلحة هائلة ومستودعات تجهيزات. ووفّرت جبال لبنان الصخرية التي تندر فيها الدروب، ومزروعات السهل الكثيفة، المركز الأمثل لقيام حرب دفاعية. ففي استطاعة جيش تمّ تدريبه على أكمل وجه أن يجعلنا ندفع غاليا أدنى محاولة اجتياح. وفي غضون ذلك، تستطيع الصواريخ والمدفعيّة البعيدة المدى شلّ دورة الحياة في شمال اسرائيل. كانت منظمة التحرير الفلسطينيّة على قاب قوس أو أدنى من تحقيق أهدافها عندما غيّرت عمليّة سلام الجليل الوضع: أهداف ستتوارى من أمامها إذا ما أُجبرت على الخروج من لبنان. فراحت تنتظر متحليّة بالصبر، وقد أدركت ان الوقت يعمل لصالحها.

في اسرائيل عرف الجميع ان الوقت حليف منظمة التحرير الفلسطينيّة.

لكنّ ذلك لم يجعلني اعتقد بضرورة دخول جيش الدفاع الاسرائيلي الى بيروت الغربيّة، بعد الأخذ في عين الاعتبار كافّة المشاكل والخسائر التي ستتكبّدها من جرّاء هذه العملية. أصرّ خصوصا على شن هجومات جوية وقصف مراكز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ومواقعها في ضواحي بيروت بالمدفعية الثقيلة. كنت اعلم ان رؤساء منظمة التحرير الفلسطينيّة لن يرحلوا طالما لم يقتنعوا بعد بخطر ابادتهم. لذا كان لابدّ من ممارسة ما تيسّر من ضغوطات لإجبار قادة منظمة التحرير الفلسطينيّة على اتخاذ قرار. لكّن الحكومة لم تقبل اقتراحي وآثرت فرض حصار، نقوم بتضييقه شيئا فشيئا، مقرنة التقدم العسكري المدروس بقطع التيّار الكهربائي والمياه وبسائر مظاهر الحرب النفسيّة كتوزيع المناشير واطلاق صفارات الانذار لإيهام الناس بوقوع غارات جوية.

في منتصف تموز (يوليو) تفاقم خطر الضغط الداخلي والخارجي، في حين كنا لا نزال مرابطين قبالة بيروت. وعلى رغم المناقشات لم تسفر مفاوضات حبيب، التي بدأت منذ أسابيع، عن نتائج. وأعلن بيغن في جلسة مجلس الوزراء التي عقدت في ١٨ تموز (يوليو) ما يلي : « استنادا الى المناقشات التي دارت مع صديقينا المدير العام لوزارة الشؤون الخارجية ورئيس المخابرات في الجيش، وبعد الأخذ بعين الاعتبار محادثات الجنرال تامير [مستشار الأمن القومي]، التي قامت في بيروت مع فيليب حبيب، استطيع القول لمجلس الوزراء [...] إن فيليب حبيب سيطرد الارهابيين تماما كما أقصى الصواريخ من البقاع، « بالفاعلية عينها والنتائج ذاتها ». (فاوض حبيب طوال عشرة أشهر من دون أن يفلح في زحزحة الصواريخ من مكانها). وتابع بيغن قائلا : « لذا، علينا التفكير في عملية عسكرية ».

وعندما افضى بيغن بحديثه الى نهايته أخذت إذنا لأقول : « ليس عندي ما يضاف الى تقديرات رئيس مجلس الوزراء في ما يتعلّق بمفاوضات الأميركيين التي اعتبرها، من جهتي، مجرّد مخرج فحسب. وكل من سينتظر

احراز ايّ تقدم على هذه الجبهة سيذهب انتظاره أدراج الرياح. علينا أن نتحرّك. لذا اقترح عملية تعزل أوّلا احياء الضاحية الواقعة تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينيّة، كصبرا وشاتيلا والفاكهاني، عن سائر المدينة. وعندما يتحقق هذا الفضل ستتمكن قوّاتنا من احتلال ميدان الخيل ومنطقة حرج بيروت، الواقعة شرق هذه المدينة ».

خلال النقاش الذي تلا رأى رئيس المخابرات العسكرية يهوشع ساغي أن قادة منظمة التحرير الفلسطينيّة لم يأخذوا بعد على محمل الجد الخطر العسكري الذي يهدّد المدينة ولا أبدوا نيّة في ارخاء قبضتهم عن بيروت الغربية. فالتخلي عن بيروت الغربيّة يعني، في نظرهم، انهيار الثورة الفلسطينيّة التي كلّفتهم ثماني عشرة سنة من الجهود.

رفض كثير من الوزراء فكرة إقامة حرب شوارع في بيروت، وذلك على رغم الضرورة الجليّة والحيويّة لإنهاء الوضع القائم. وصرّح وزير الداخلية، الدكتور يوسف بورغ، قائلا : « أفضّل الهجوم الجوّي على تعريض حياة جنودنا لمخاطر السير على الأقدام... لا أقبل الاقتراح المطروح... انا بعيد من المواقف اللاإنسانية، لكني أفضّل أن أقنعهم عبر اللجوء الى قطع الماء والكهرباء والوقود بين الفينة والفينة بدلا من اضرام حرب شوارع ».

غير ان رئيس الوزراء عرض الوضع في اطار أوضح وقال : « ايّها السادة، ستحل بنا مصيبة اذا ما بقينا على ابواب بيروت كما هي الحال الآن. [...] هل منّا من يحقد على المدنيين ؟ لكنني أسائل نفسي الى اين سيقودنا التفكير القائم على مؤاثرة عدم التحرّك بدلا من إسقاط عدد ضئيل من المدنيين. فإذا لم ندخل بيروت سيكون النصر من نصيب منظمة التحرير الفلسطينيّة. عندها سيتمكن عرفات من التأكيد ان منظمة التحرير الفلسطينيّة هي في أحسن أحوالها وتحتلّ مركزا جيدا ومسلّحة خير تسليح. [...] ايّها السادة، نحن على منعطف قد يؤول بنا الى أزمة قومية. فالشعب لن

يتحمل بعد تعبئة الجيش، أسابيع وشهورا، من دون جدوى، ولد تحديد الخدمة العسكرية ولا رؤية شبابنا يسقطون ضحيّة قصف العدو. « لا يحق لنا الانغماس في حرب سكونية، من دون ان تحرّك ساكنا حتى تكون الغلبة لأسلحتنا ».

اعربت عن موقفي الشخصي بإصرار كبير. فمن مصلحتنا القصوى ان نحول دون اعادة ارساء بنية تحيّة تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان تقوم بتهديد امن اسرائيل. فالسؤال المطروح لمعرفة ما اذا كانت هذه البنية التحتية سيتمّ بناؤها من جديد أم لا لهو رهن المستجدّات التي ستشهدها بيروت. ولذا علينا المضي قدما والقضاء عليها. وفي نهاية الجلسة، صوّت المجتمعون وقررت الحكومة اعتماد الخطة المقترحة. وفي موازاة ذلك كُلّفت لجنة وزارية بتحديد تاريخ تنفيذ الخطة. لكنّ فريقا من ثمانية وزراء اقترح ان يعرض الجيش خلال الأربع والعشرين ساعة المقبلة اقتراحات بديلة.

في هذه الأيّام الحاسمة كان من الواضح ان عددا من الوزراء واصلوا عملهم وسعوا جاهدين الى ترك الأمور تسير على هواها. فالحكومة راضية الرضا كله مادامت الأحداث جارية بصورة طبيعية. لكنّ هذه الحرب لم تلق ترحيبا شعبيا. فقد احتدّت تهجّمات وسائل الاعلام والاعلان، وتعالت اصوات المتظاهرين في الشوارع. في اختصار، راح الوضع يتعثر يوما بعد يوم. إلا أن النار لم تكن قد وجّهت بعد الى الحكومة. فهي كانت تستهدف رجلين هما مناحيم بيغن وأنا. ولكن بدلا من التكاتف لردع هذه الاتهامات، سعى بعض الوزراء الى التملّص بلباقة والتزام الحياد.

في أواخر شهر تموز (يوليو) فهمت بوضوح انّ الحكومة ستواجه صعوبات جمّة لتحقيق المتوجب عليها. ففي الماضي شهدتُ غير مرّة اوضاعاً مماثلة : حين ضغط الأميركيون والروس علينا في ١٩٥٦، حين برهنت الحكومة عن عجزها على التحرّك ثم خلال فترة الترقب التي سبقت حرب الايام السنة. بعد هذه الحرب نفسها استطاع البعض ان يقول إن اسرائيل

اظهرت تبصّرا ثاقبا عندما هاجمت في الوقت المناسب. لكنّ التبصرّ لم يكن له دخل له في تلك القصة. فالحكومة كانت آنذاك عاجزة عن التجلّد بالعزم الكفيل بإنجاز ما يفترض انجازه، وهي حقيقة ادركتها خير ادراك. وكنت قد لمست الفتور عينه خلال الأيّام الأولى من حرب الغفران. واليوم، في لبنان، حين بلغت الحرب أصعب مراحلها، أصبحت هذه الحكومة مرتعا لظاهرة مماثلة : فأصابها الضعف وعانت فقدان الثقة والتصميم؛ وهكذا بقينا، بيغن وانا، نرزح وحدنا تحت وطأة العبء.

عندما كنت أفكّر في ما يجري داخل الحكومة، غالبا ما كنت أفضي بمكنونات قلبي الى مرافقي أوديد شامير، الذي سألته ذات مرّة : « أيمكنك ان تتصوّر الى ما سيؤول بنا الأمر في حال هاجمنا العراقيّون، مثلا، او السوريون، او الأردنيون، أو تجرأ المصريّون على إدخال قوّاتهم الى سيناء ؟ كيف ستتصرّف حينئذ هذه الحكومة مادامت عاجزة عن مواجهة المشاكل الحاليّة التي ليست بالسهلة وانما ليست بالمستعصية. ماذا سيفعلون آنذاك ؟ وماذا سيحدث في هذا البلد ؟ »

كنت أفكّر أيضا في الكسندر هيغ الذي قدّم استقالته من منصب وزير الشؤون الخارجية، منذ فترة وجيزة، لأنه لم يتمكن من تقبُّل السياسة التي انتهجتها حكومة لتحلّ الأزمة. فهيغ أبدى رفضا قاطعا لعملية سلام الجليل. رفضا أعرب عنه مطوّلا عندما اجتمعت به في واشنطن، في ايّار (مايو)، كما وجّه الى بيغن كتابا يتناول الموضوع عينه ولكن عندما بدأت الحرب فهم جيدا مداخلها ومخارجها، وربما أفضل من حكومتنا. فقد اسرَّ هيغ الى بيغن الذي زار العاصمة الأميركية في منتصف حزيران (يونيو) : عندما نطلق عملية ما علينا الانتهاء منها بأسرع ما يمكن. (حين سمع بيغن ما قاله هيغ وجّه اليّ رسالة من واشنطن وتعليمات تقضي بالاستعداد للدخول الى بيروت، مع ان بيغن اعتقد مثلي بضرورة ترك الجزء الأكبر من عمليتنا في العاصمة اللبنانية بين ايدي القوّات اللبنانيّة، على ان يكتفي جيش الدفاع

الاسرائيلي بدور المؤازر فحسب. لدى استلامي هذه الرسالة، نقلتها الى مجلس الوزراء في ٢٠ حزيران (يونيو). وكان هيغ قد اكد في حضرة رئيسه أنْ وحدَه الضغط الاسرائيلي كفيل بخلق وضع قادر على إنهاء المعارك[1].

أدرك هيغ طبيعة الجوّ السائد ولم يخنه حدسه حين قال بضرورة إنهاء الأزمة سريعا، عبر ممارسة ضغوطات محكمة ومتواصلة. فعندما وجه اللوم الينا الأميركيّون ووسائل الاعلام والاعلان والمظاهرات التي نظّمها حزب العمل، بلغت الحرب أقسى مراحلها وبرزت ضرورة إيجاد سبيل لطرد منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، كما بدأ الاجتماع الذي كان يخيم في الحكومة يتلاشى.

في تلك اللحظة عينيها بدأ الاتحاد الوطني يتفكك، لحظة لم يعد من سبيل امامنا الا اتخاذ المهمة تماما. وقلت في نفسي ان الامر يذكرني بمن وقع فريسة نار العدوّ وهو يقطع الأسلاك الشائكة وقد علق بين اسنانها الحادّة. انها اللحظة التي تَظهر فيها حقيقة كل قائد أو رئيس. والحكومات مدعوة الى مواجهة اللحظات الحاسمة عينها، على صعيد مختلف، وفي ميدان عمل مغاير، لكنّ القرارات المتخذة هي من النوع ذاته. وفي اللحظة عينها ــ تلك اللحظة الحرجة ــ هي غريزتك التي تقول لك إما ان تلازم مكانك مسمرا ارضا واما ان تتقهقر. ولكن يتوجب عليك، في الحقيقة، اتخاذ التدابير الي تخولك انهاء الوضع سريعا. امّا غالبيّة أعضاء هذه الحكومة فكانوا عاجزين عن اتخاذ القرار والنهوض بمثل هذه المسؤولية.

كان مجلس الوزراء يتحرّك على نحو متقطّع، ويضيّق الخناق حول عنق منظمة التحرير الفلسطينيّة، في بيروت الغربيّة، ولكنّه شهد صراعات داخليّة نسفت الدعائم التي قامت عليها وحدة الحكومة. في تلك الفترة راحت

---

(١) من كتاب ــ Caveat ــ لألكسندر هيغ، ص : ٣٤٥.

المساعي الدبيلوماسية تماطل في الحلّ من دون أن تؤدي الى نتائج. في حين أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية نقاطها الاحدى عشرة التي طالبت بدخول قوّة متعدّدة الجنسيّات الى بيروت لتفصل بين وحداتها والقوات الاسرائيلية، وذلك قبل اخلاء الأماكن. ويقول الناطقون باسم منظمة التحرير الفلسطينيّة انها سوف ترحل عن بيروت، شرط ان يتراجع الجيش الاسرائيلي مسافة بضعة كيلومترات تشكل منطقة عازلة ترابط فيها تلك القوّة المتعدّدة الجنسيّات.

بدا هذا المشروع معقولا في نظر الأميركيين، ولكنّي لم أرَ فيه سوى محاولة يائسة تقوم بها منظمة التحرير الفلسطينية حتى تتمسّك بمواقعها في العاصمة اللبنانية. فنحن نعلم ان قيادة هذه المنظمة لم تأخذ بعد قرارا بمغادرة بيروت؛ أضف الى ذلك ان قوّات هذه المنظمة لم تكن تعلم الى أين تذهب في حال قرّر السيد عرفات في نهاية المطاف الرحيل عن العاصمة اللبنانية. أمّا الأميركيّون فراحوا يعملون بكدّ ليقنعوا البلدان العربيّة بفتح أبوابها أمام رجال منظمة التحرير الفلسطينيّة. كان المعنى الذي انطوت عليه هذه المساعي في منتهى الوضوح : اقتنع السيد عرفات وكل من شاكله انهم بفضل هذه القوّة المتعددة الجنسيّات سيجدون وسائل متعدّدة لملازمة مكانهم. وكانوا يعرفون ان اسرائيل لن تتمكن من الضغط عليهم، بفضل وجود الجنود الأميركيين او الفرنسيين او الايطاليين الذين لن يُستَخدَموا أبدا لإخراجهم من بيروت. وخلال الجلسة التي عقدتها الحكومة في الأوّل من آب (أغسطس)، اعلن بيغن ان الفلسطينيين لا ينوون المغادرة. وفي حال تمّ ارسال قوة متعدّدة الجنسيّات لتفصل بين قوّاتنا، « لن يرحل هؤلاء الأوغاد عن بيروت أبدا ».

احتدمت جلسة الأوّل من آب (أغسطس)، كسائر النقاشات التي شهدتها الوزراة في تلك الفترة. فكنّا نناقش بحماسة درجة القوة المفترض استخدامها ونسائل انفسنا : ترى أيتعيّن علينا التحلّي بالصبر وانتظار حل ديبلوماسي

أم ممارسة ضغط حقيقي والإسراع لوضع منظمة التحرير الفلسطينيّة في موضع حرج ؟ شكّل الخيار القائم على الهجوم الجوي مدار بحث مناقشاتنا. فقد سبق لنا ان قصفنا مواقع منظمة التحرير الفلسطينية قصفا عنيفا؛ ونعتقد، انا وبيغن وكثير غيرنا، بضرورة المضي في هذا الاتجاه. لكنَّ بعض الوزراء ابدوا معارضة شديدة في وجه استخدام الطيران، وراحت وطأه الضغط الذي مارسه الأميركيّون على هذا الموضوع تثقل أكثر فأكثر. فقد اعتمد حزب العمل قرارا يعارض القصف المجدّد. امّا بيغن، الذي شاطرني رأيي، فأكّد على ضرورة اللجوء الى الطيران حتى نحول دون ادخال قوّاتنا الى بيروت. ولكن، في حال لم نجد سبيلا غير اقتحام بيروت، على جيش الدفاع الاسرائيلي ان يقوم بالمهمة. وقال بيغن انه متى بلغنا هذه المرحلة سنتَّخذ قرارا في هذا الاتجاه. وأضاف : لا يقولنَّ احد اننا لن ندخل بيروت. فمثل هذا التوكيد سيلحق بنا اضرارا جسيمة بقدر ما سيمعن في إيهام منظمة التحرير الفلسطينية بأنه لا يزال في وسعها التمسك بمواقعها في بيروت، أمّا الوقت بالنسبة الينا فهو ثمين جدا. في الواقع، اعتقدت منظمة التحرير الفلسطينيّة ان جيشنا بدأ يتفكّك. وعلم رؤوساء هذه المنظمة بأن عميدا في الجيش آثر تقديم استقالته على دخول بيروت الغربيّة. كما تناهت الى مسامعهم تصاريح المعارضة. فراح هذا كله يزيد من معنويّاتهم.

حاليا، اقترح بيغن الكشف عن نوايانا أمام الفرقاء المعنيِّين، لا سيّما الأميركيين، الذين رأوا في وقف اطلاق النار ما يسهّل وساطة حبيب. واعلن رئيس الوزراء أنه علينا وقف اطلاق النار ولكن يجب ان يكون مطلقا ومتبادلا : « سنقول للأميركيين أننا نقبل به شرط الا يخرق مرة جديدة، وإلا لن يصار الى وقف جديد لإطلاق النار حتى يرحل هؤلاء الأوغاد عن بيروت ». وبتعبير آخر، سنتخذ كافّة التدابير المتاحة امامنا اذا اصاب جنودَنا ايُّ ضرر. وفي نهاية المطاف، اتفق مجلس الوزراء على الآتي : « في حال خرق الارهابيّون وقف اطلاق النار، سيردّ جيش الدفاع الاسرائيلي برّا وبحرا وجوّا ».

لم يمضِ زمن طويل على هذا التصريح حتى خرقت منظمة التحرير الفلسطينية وقف اطلاق النار. فجاء الردّ الاسرائيلي قاسيا، وفقا لقرار مجلس الوزراء الاسرائيلي الصادر في الأوّل من آب (أغسطس) وفي الأيّام التي تلت، احتلّت القوّات الاسرائيلية المطار وتقدّمت شمالاً[١]. وعندما لم تتخّذ منظمة التحرير الفلسطينيّة قرار بمغادرة الأماكن، قرّر الجيش الاسرائيلي شنّ هجوم واسع النطاق في ٤ آب (أغسطس)، نستخدم خلاله المدفعيّة والطيران لضرب الأحياء الواقعة تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية.

تركت هذه الهجومات أثرا بالغا في نفوس الارهابيين. لكنها أثارت عاصفة داخل الحكومة وانتقادا قاسيا وجهّه الرئيس ريغن في رسالة الى بيغن. أخذ رئيس البيت الأبيض على اسرائيل استخدام قصف جوي ومدفعي « غير متكافىء » والتسبّب بإسقاط الضحايا بين صفوف المدنيين، والمجازفة بإخراج مفاوضات حبيب « عن خطها المستقيم ». وكتب الرئيس الأميركي في رسالته الآتي : « العلاقات القائمة بين بلدينا في خطر ».

اجاب بيغن وقد ذكرّ رئيس الولايات المتحدة بالسياسة الاسرائيلية التي طالبت بوقف شامل ومتبادل لإطلاق النار. امّا الارهابيّون فلم يحترموه،

(١) حتى تلك المرحلة كان مطار بيروت يشكل ارضا محايدة بين المعسكرين. وفي مطلع آب رابطت احدى دوريات الاستطلاع الليلية الاسرائيلية في المطار، بغية تدارك نيران أعضاء منظمة التحرير الفلسطينيّة، الذين راحوا يتسلّلون عموما في منطقة المطار في وضح النهار. وعندما وصلني علم بما يجري، قدّمت تقريرا في صباح اليوم التالي الى مجلس الوزراء. وكان بيغن قد اجاب على هذا الموضوع حين سأله وزير الإسكان عما اذا كان على علم مسبق بدورية الاستطلاع هذه : « أؤكد لك يا دايفيد انني أعلم دائما ــ أحيانا قبل، وأحيانا أخرى بعد » وثارت حفيظة بيغن لما تلقّاه من اسئلة طرحها الوزراء حول أدنى تحرّكات قواتنا التكتيكية، فأجاب في مناسبة أخرى (٥ آب) وبلهجة غاضبة انه يقتضي تتبّع العملية، فما من بلد يخوض حربا حين يشارك كافة اعضاء مجلس الوزراء في اتخاذ القرارات.

لذا قمنا بالردّ. واشار بيغن في رسالته الى العلاقة القائمة بين الحلول السياسية والعسكرية. وقال: « نحن نفضّل الحل السياسي، ولكن من دون الحل العسكري لا وجود للحل السياسي المتمثّل برحيل الارهابيين ».

في ٥ آب (اغسطس)، اجتمعت الحكومة لدراسة الخطوة الأميركية التي تطلب من اسرائيل اظهار اعتدال خلال بضعة أيّام. وفي معرض الجلسة، قدّم وزير الشؤون الخارجية، اسحق شامير، تقريرا عن زيارته للولايات المتحدة، بما فيها لقاءاته مع قادة الجاليات اليهودية في الولايات المتحدة. ووصف غضب الادارة الأميركية لما نمارسه من ضغط عسكري. ولكنه نقل ايضا ما قاله وزير الشؤون الخارجية السابق، هنري كيسنجر، خلال لقائهما. فكسينجر يعتقد ان الضغط السياسي وحده في استطاعته إخراج منظمة التحرير الفلسطينية.

حينئذ قلت للوزراء: « علينا الإفساح في المجال بضعة أيّام للمفاوضات الجدية. لكنني لن أقبل وضعا يستحيل على جنودنا فيه الدفاع عن أنفسهم، وإن رغب فيه الرئيس أو طالب به شولتز أو واينبرغر او حبيب. ما من انسان يحق له مطالبتنا بمثل هذا ». وأضفت قائلا: « لكنني أؤيّد قيام محادثات خلال بضعة ايّام ».

علمنا بواسطة اجهزة مخابراتنا ان عملنا في الثالث والرّابع من آب (اغسطس) كان له تأثير على منظمة التحرير الفلسطينية وغيّر الى حدّ معين، منهج تفكيرهم. وأفادنا رئيس المخابرات، ساغي، ان عددا كبيرا من الارهابيين قد هربوا من بيروت الغربية، بعد ان تخلّصوا من بزاتهم العسكرية، وحلقوا لحاهم التي كانت تلازم شخصيّتهم. غير ان منظمة التحرير الفلسطينية لم تعدل عن مطلبها بوضع قوة متعددة الجنسيّات لتفصل بين المعسكرين. وكان الأميركيون يعلمون أنّنا نرفض هذا الشرط ويعتقدون انهم حظوا، في الواقع، على موافقة منظمة التحرير الفلسطينية لمغادرة بيروت. أمّا نحن، فكنا لا نزال مقتنعين ان منظمة التحرير الفلسطينيّة سوف تستخدم

هذه القوة المتعدّدة الجنسيات درعا للبقاء في العاصمة اللبنانية. فأفضى هذا التباين في وجهات النظر الى مواجهة عنيفة قامت بيني وبين فيليب حبيب في ٦ آب (أغسطس)، حين عرض على الموفد الأميركي الخاص المنهج الذي سيعتمده لتسوية مشكلة اخراج القوات الغريبة من لبنان.

أوضح فيليب قائلا: « سيتزامن وصول [الفرنسين وحدات القوة المتعدّدة الجنسيات] مع بداية انسحاب [منظمة التحرير الفلسطينيّة]. بعد ذلك سيحين دوركم ».

شارون: « ما تقوله الآن يناقض قولك السابق ».

حبيب: « هذا صحيح... اريد نقل الاتفاق الشامل [Package deal[1]] خطيّا الى الحكومتين الاسرائيلية واللبنانية والى الفلسطينيين عبر وسائل الاعلام ».

شارون (بعد المناقشة): « لن نقبل بوصول القوة المتعددة الجنسيّات قبل رحيل آخر ناقلات الارهابيين.

حبيب: « اعرف ذلك. ولكن عليكم مراجعة رئيس الولايات المتحدّة، لأن اقتراحي جاء نتيجة تعليماته ».

شارون: « لن يأتي الفرنسيّون الى هنا ».

حبيب: « عندما تقبلون الاتفاق الشامل تأتون إليّ وتقولون إنّ حبيب قطع وعدا. لِم [يتوجّب عليّ] قطع وعود أوّلا، قد لا أنفذّها لاحقا؟ ما أطلبه منكم يدخل في إطار تعليمات حكومتي. وانا اتصرّف وفقا لتعليمات حكومتي ».

شارون: « اكرّر واشدّد اننا لن نقبل بدخول القوّة المتعدّدة الجنسيّات

(١) Package deal هي اللفظة التي استعملها حبيب دلالة على الاتفاقات التي من شأنها أن تفضي الى رحيل كافة القوات الغريبة عن لبنان: كمنظمة التحرير الفلسطينية والقوات السورية والاسرائيليّة.

قبل انسحاب الارهابيين وقادتهم... فلِمَ تقترحون عليهم اتفاقا تعلمون اننا نعارضه ؟ »

شارون (بعد مناقشات جديدة) : « إفهموا جيدا اننا لسنا مستعدين لقبول اي أوامر، بعد سنوات من سفك الدماء جاءت نتيجة الاعتداءات الارهابيّة التي كان مصدرها لبنان ».

حبيب : « هذا ليس امرا وانما اتفاقا ».

لم يكن اقتراح حبيب مقبولا سواء أكان أمرا أم لا. لاسيّما انه يبصّ على وجود قوّة متعدّدة الجنسيّات لتفصل بيننا وبين الارهابيين. وفي السابع والثامن من آب (اغسطس)، بقيت المشكلة على حالها. وفيما راوحت الأحداث مكانها على الجبهة السياسية واصلت منظمة التحرير الفلسطينيّة اطلاق النار على مواقعنا، ملحقة بنا الخسارة تلو الأخرى. وفقا لمقرّرات مجلس الوزراء ـــ القاضية بالردّ على اعتداءات منظمة التحرير الفلسطينية عبر شنّ هجومات « برا وبحرا وجوّا » ـــ عدت من جديد في ٩ آب (اغسطس) أمارس ضغطا عسكريا راح يتصاعد خلال الأيام التي تلت. ولمّا استمرّت منظمة التحرير الفلسطينية في اطلاق نيرانها أصدرت أخيرا أمرا في ١٢ آب (اغسطس) يقضي بإخضاع مواقع منظمة التحرير الفلسطينيّة لقصف جوي مكثّف. فأثارت هذه الغارة الجوّية غضب الرئيس ريغن الذي أظهره خلال حديثه الهاتفي مع رئيس الوزراء بيغن. امّا الحكومة، التي ساورها قلق بالغ، فاعتمدت قرارا يقضي بالحصول على إذن من رئيس مجلس الوزراء قبل اللجوء الى الطيران؛ وآخر يقضي بأن يكون كل تغيير في الوضع على الأرض مقترنا بموافقة مجلس الوزراء.

كان نهارٌ ساد فيه التوتر والغضب ـــ غضب وجّه ضدّي بالأخصّ ولكنّي نفّذت ما رأيته ضرورة لإنهاء حالة الحصار غير هذه التي استمرّت منذ ٢٥ حزيران (يونيو) من دون جدوى ولا توقُّع. وفي تلك الليلة عينها، استخدم فيليب حبيب أخيرا السوط الذي كان بين يديه منذ بضعة اسابيع :

وجّه إنذارا الى منظمة التحرير الفلسطينية، قائلاً لها ان وقف اطلاق النار الذي أعلن في المساء لن يصمد أكثر من ثمان واربعين ساعةً. وما سيحدث لهم لاحقا لهو رهن التطوّرات المستجدّة. على منظمة التحرير الفلسطينية قبول الرحيل عن الأماكن الآن، من دون إقامة منطقة عازلة ومن دون حماية القوّة المتعدّدة الجنسيّات. بعد التحذير الذي وجّهه حبيب، أدرك عرفات انها كانت النهاية. وعندما وجد نفسه أمام احتمال بدا وكأنه تصفية وشيكة الحصول، إنهار. وأصبحت تردّداته وشروطه ومكائده كلها من الآن فصاعدا جزءاً من الماضي. فقرّر في الليلة عينها الرحيل مع كافّة أتباعه. واضحت الساحة مستعدّة لتشهد الإقصاء النهائي والشامل الذي سيضع حدّا لحرب اسرائيل ضدّ دولة منظمة التحرير الفلسطينيّة الارهابيّة.

الشوط الأخير.

في ليل ١٢ آب (أغسطس) قرّرت منظمة التحرير الفلسطينية الرحيل. فمنذ شهرين وشغل اسرائيل والعالم الشاغل تفاصيل هذه الحرب، والدمار، وسفك الدماء، والمآسي الحتميّة. وعصفت باسرائيل عاصفة سياسية فريدة من نوعها تخطّت طابعها العسكري وواكبت الحرب في لبنان. فأطلق حزب العمل حملة عنيفة استهدفت الحكومة، محرّكا نفوذه الاعلامي، ومعبئا موارده العالمية، وباذلا قصارى جهوده للإطاحة بالحكومة — قام بهذا في الوقت الذي كانت فيه القوات الاسرائيلية في ساحة المعركة. فكل من فهم سياسة اسرائيل التاريخية رأى ان الوضع السائد لا نظير له، وضع يصعب على ايّ امرئ تصديقه (حتى ان الجناح الأيسر من حزب العمل، المابام، وصل به الحدّ الى توزيع مناشير على الجنود في الجبهات تدين جهور الحرب[1]). وساهمت المناقشات وما ترتب عليها من غضب ودعاوة خلال الأشهر السابقة في حجب النور عن الأهداف التي كنا نحارب من

---

(١) تميّز بعض اعضاء حزب العمل بالنزاهة فحلّلوا هذه الظاهرة بصراحة. ففي صحيفة الحزب دافار، كتب حاييم غوري، وهو احد مفكّري حزب العمل المرموقين واحد أشهر كتّاب اسرائيل، ما يلي : « إنها المرّة الأولى منذ ١٩٤٨ التي تشنّ فيها حكومة اليمين حربا. فلنعترف بهذه الحقيقة. كثيرون هم الذين لم يذعنوا بعد للتغيّر السياسي الذي طرأ [نصر الليكود في ١٩٧٧]. نصر لم يقبلوه يوما وهنا تكمن المشكلة.

أجلها. ولكن، بعد أن تمّ القضاء على مقاومة الاستاذ عرفات واصبحت المنظمات الارهابية على أهبة الرحيل، بات من الممكن وضع الحرب في مفهومها.

كانت حرب لبنان دفاعية كسائر حروب اسرائيل. ولكنها اتخذت، على غرار حملة سيناء في ١٩٥٦ وحرب الايام الستة في ١٩٦٧، شكل هجوم وقائي استهدف عدوّا برهن علانيّة عن مقاصده عبر تصريحات دقيقة وعمليات دموية. أُضرمت هذه الحرب في وجه ألدّ اعدائنا واقدمهم، ألا وهو الحركة الارهابية الفلسطينية التي طالما رفضت كياننا والتي تتمثّل علّة وجودها بدمارنا. فمنذ إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، قتل هؤلاء الارهابيون في اسرائيل واوروبا بين عامي ١٩٦٥ و ١٩٨٢، ١٣٩٢ شخصا، كما تسبّبوا بجرح ٦٢٤٦ آخرين او اعاقتهم[1].

خلال عملية سلام الجليل، نجحنا في اصابة العدو في عقر داره. فدمّرنا في أثناء هذه الحرب بنيته التحتيّة، أمّا الآن فنحن نعمل على اقصائه عن المنطقة.

في الفترة عينها، أوجدنا في لبنان إمكانية ان يعتلي سدة الحكم حكومة قادرة على تأمين الاستقرار والحؤول دون عودة منظمة التحرير الفلسطينيّة الى لبنان؛ حكومة في وسعها التعايش معنا في أجواء يسود فيها السلام. ولم يكن هذا هو السبب الكامن وراء ذهابنا الى الحرب، كما لم يكن نتيجة لها ذات عواقب طويلة المدى على مستقبل اسرائيل والشرق الأوسط. وانما كانت الفرصة المتاحة لضمّ لبنان، الى جانب اسرائيل ومصر، في شراكة موالية للغرب. ويقدّم هذا الى عرب السامرة واليهودية وغزة، الذين تحرّروا من تأثير منظمة التحرير الفلسطينية ومجرميها وتهديداتها، فرصةً للتقدّم في اتجاه حل تفاوضي معنا. كانت هذه نتائج حرب لبنان. أو،

---

(١) قوّات الدفاع الاسرائيلية، وردت في **صحيفة الدفاع الاسرائيلية**.

لمزيد من التحديد، النتائج التي سمحت بها هذه الحرب. امّا الآن، فالمشكلة تكمن في قطف ثمارها.

تقوم مهمّتنا الفورية على التأكد من رحيل منظمة التحرير الفلسطينيّة وفق التعهّد الذي قامت به امام حبيب. وشكّلت هذه المسألة مادّة النقاش الحاد الذي دار بيني وبين بيغن وشامير وحبيب والسفير لويس في ١٥ آب (أغسطس). كنّا نعلم جميعاً ان ياسر عرفات يضع خططاً محددة تقوم على ترحيل جزء من قوّاته لانتهاك هذا الاتفاق. ووردتنا معلومات — من مصادر موثوقة بها — ان الفين الى الفين وخمسمائة عضو من منظمة التحرير الفلسطينيّة سوف يبقون في بيروت الغربيّة تحت هويّات مزورة، بعد ان تمّ تجهيز أوراق مزوّرة ودفع لهم رواتب عن الأشهر الستة المقبلة.

كانت منظمة التحرير الفلسطينيّة قد قرّرت ترحيل قرابة بين التسعة آلاف شخص. غير ان التسعة آلاف نجد ألفين أو الفين وخمسمائة شخص ليسوا بالارهابيين الحقيقيين وانما هم مدنيون او رجال قد قدموا من ميليشيات أخرى، اي انهم « ارهابيون اصطناعيون » على حد تسمية بيغن. ويتعين على الالفين والخمسمائة إرهابي الباقين في بيروت الحفاظ على شبكة سرية في هذه المدينة لتعكير الأجواء السياسيّة وتمهّد الطريق أمام اعادة انتشار الوجود الارهابي على نطاق واسع.

توفرّت سبل عدّة لمعارضة خطّة الاستاذ عرفات، ولكن لم تكن ايّ منها مرضية. فقد كان في وسعنا أن نسأل الأميركيين المطالبة بلائحة أسماء من منظمة التحرير الفلسطينيّة نقارنها بسجل عن منظمة التحرير الفلسطينيّة نستطيع الحصول عليه سرّا. كما كنا نستطيع أن نسأل الأميركيين التحقّق من هوية الارهابيين عند رحيلهم استنادا الى لائحتنا. وفي المقابل، في استطاعة جهاز الأمن الاسرائيلي، بمساعدة زملائه الأميركيين، التحقق من هويّة الذين ظلوا في بيروت بعد عملية ترحيل الفلسطينيين.

الا ان حبيب رفض على الأقل القيام بهذا العمل وقال : « سيتكفّل الرئيس بشير بهذه المهمة في ما بعد ». فأجبته : « قال لي الرئيس بشير ان عددهم يصل الى حدّ يتعذّر معه القيام بأيّ عمل ». وقد بدا لنا جميعا انه يستحيل عمليا ضمان رحيل هؤلاء الناس. وقد أصاب السفير لويس حين قال بضرورة أخذ بصماتهم جميعا لأن اللوائح التي حصلنا عليها قد تكون مغشوشة حتّى في هذه الحالة. ونشأ التباين الوحيد في وجهات النظر بيننا وبين الأميركيين عن اصرارنا على بذل جهد دؤوب في سبيل معرفة هوية المغادرين، في حين فضّل الأميركيون ترك الحكومة اللبنانية تحلّ هذه المشكلة. (كان من المتوقّع أن تجري انتخابات في الأسبوع التالي). امّا لويس وحبيب فلم يكونوا راضيين كليّا عن الوضع. وقال لنا حبيب انه درس هذه المشكلة غير مرّة وعبّر عن استيائه لعجزه عن إيجاد حلٍّ فعّال.

بعد مضي ستة أيّام كانت المشكلة لا تزال من دون حل، في حين بدأت عملية ترحيل اعضاء منظمة التحرير الفلسطينيّة على متن بواخر كانت متّجهة الى الدول العربية الثماني التي وافقت أخيرا على استقبالهم. وفي نهاية العمليّات، تمّ إقصاء ٨٨٥٦ إرهابيًّا اضافة الى ٦٠٦٢ سوريًّا ومعاونيهم الفلسطينيين. وتحمّلت كل من سوريا واليمن الجنوبيّة وتونس واليمن والجزائر والسودان والاردن والعراق عبئاً توزيع الفلسطينين، عبء قبلت به بنفور واضح وعلى مضض.

على رغم المشاكل الجسيمة التي طرحها وجود نواة تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية وسط الأنفاق ومستودعات الأسلحة في بيروت الغربيّة، شكّل هذا الرحيل المكثف ظاهرةً يصعب المغالاة في أهمّيتها خطوةً أولى قمنا بها على الدرب التي ستقودنا الى عقد اتفاقية سلام مع الحكومة اللبنانية الجديدة. ولا تقلّ هزيمة منظمة التحرير الفلسطينية وتشتّتها أهمية عمّا سبق ذكره. فهذا يعني ان التطرّف والعنف المتواصل اللذين دعت إليهما هذه المنظمة سوف يفقدان الكثير من اعتبارهما فنحن لم نشنّ هذه الحرب

ضدّ الشعب الفلسطيني، وبعد سحق منظمة التحرير الفلسطينية ازدادت امكانية اقامة حوار عقلاني مع الفلسطينيين غير الراغبين في إبادتنا.

مثّلت هذه النقطة بالذات مادّة الحديث الذي جرى في السامرة بيني وبين قرابة الثلاثين من القادة الفلسطينيين حين كان الارهابيون يرحلون على متن بواخرهم الراسية في مرفأ بيروت. وخلال اللقاء قلت لهم : اعتقد اننا نستطيع الآن البدء بمرحلة جديدة تسمح لنا بالتحاور والتوصّل الى نتائج من شأنها ارضاء الفريقين. واعربوا من جهتهم عن وجهات نظرهم بصراحة تامّة. وبالطبع، لم يرحّبوا بالوجود الاسرائيلي في السامرة واليهودية وغزة. ولكنهم أدركوا استحالة اقامة مفاوضات أو التوصل الى حل سلمي مع الفلسطينيين أو مع الشعوب العربيّة الأخرى مادامت منظمة التحرير الفلسطينيّة قويّة. كان هذا اللقاء مشجّعا. وفي الأسبوع الأخير من آب (اغسطس) أصبح في الإمكان تبيّن الخطوط العريضة لمجموعة علاقات جديدة بين اسرائيل وجيرانها.

في ٢٣ آب (اغسطس) انتخب مجلس النوّاب اللبناني بشير الجميل رئيسا للجمهورية، حدث كنا نرجوه من دون ان نكون متأكدين منه. لكنّ هذه البشرى فقدت بريقها حين اعلن الأميركيون، بعد مضي أسبوع، خطة الرئيس ريغن التي طلبت في الواقع من الأردن تمثيل الفلسطينيين في المفاوضات الرامية الى الحصول على تنازلات عن الأراضي الواقعة في الضفّة الغربيّة وغزّة. كانت وزارة الشؤون الخارجية الأميركية تعلم ان هذه الخطة لا تسير في خط اتفاقات كمب دايفيد ولا يمكن لاسرائيل قبولها. أمّا الاعلان عن هذه الخطة، الذي تزامن مع رحيل آخر وحدة من الارهابيين في الأوّل من ايلول (سبتمبر)، فجاء صدمة عنيفة. وألمح الأميركيون عبر اختيارهم هذا التاريخ الى انّ لبنان لا يشكّل سوى مرحلة من مراحل عملية كبرى. وهكذا قام تباين بين اولويّات كل منّا خلال المفاوضات الطويلة والصعبة التي جرت في أثناء وجود الجيش الاسرائيلي على ابواب بيروت

طول شهرين ونصف شهر. وراحوا يعملون في اتجاه مغاير مع أنّ مصير لبنان كان لا يزال غير معروف.

في أواخر آب (أغسطس) ذهبت الى الولايات المتحدة لتنظيم حملة ترويج سندات القرض القومي الاسرائيلي، ما أتاح لي فرصة اللّقاء مع كاسبار واينبرغر. واشرت خلال هذا اللقاء الى أهمية لبنان الذي يشكّل مشكلة في حد ذاته، والى الصعاب الجسيمة التي يتعيّن التغلّب عليها. وفي معرض نقاشنا، قمت بوصف الوضع القائم في بيروت منذ رحيل الفلسطينيين. وقلت له اننا سنعود الى الوضع السابق[١] في حال لم تتوحّد بيروت ولم تحزم الحكومة سلطتها فيها. وسرعان ما ستتحوّل بيروت الغربيّة الى قاعدة يتجدّد فيها تأثير الارهابيين، تلك العاصمة التي تكدّست فيها الأسلحة على اختلاف انواعها، وسيطرت عليها ميلشيات إسلامية وآوت ما يزيد عن مئتي الف رجل متصلّب من منظمة التحرير الفلسطينيّة. فأثار هذا الاحتمال قلقا بالغا في نفسي.

شكّل هذا احد المواضيع التي درستها في حضرة الرئيس المنتخب بشير الجميّل خلال لقاء عقد في ١٢ ايلول (سبتمبر) في بكفيّا. في ذلك الوقت كنت قد قمت برحلات كثيرة الى لبنان حتّى أنني تعرّفت الى الصحافة المحلية والأدباء وغيرهم من رجال الفكر، وأقمت علاقات مع عدد كبير منهم تمتّعوا بالموهبة وبالشخصية المميّزة. وفي غمرة الفرح الجنوني الذي تلا رحيل منظمة التحرير الفلسطينيّة، وجدتني محاطا بمئات الأصدقاء المغتبطين. ولقيت في بيروت ترحيبا حارا حملني على القول من باب المزاح اني لو احتجت يوما الى طلب اللجوء السياسي لوقع اختياري على لبنان أولا.

ساد جو ساخن في بكفيا عشيّة ١٢ ايلول (سبتمبر). وفي محيط مسكن آل الجميّل، الذي بنيت جدرانه من الحجارة القديمة ونمّت عقوده

---

(١) لقاء ٢٧ آب (أغسطس) ١٩٦٢.

عن ذوق رفيع، انتشر أنصار الرئيس بشير وقد بدوا في حركة لم يعهدوها من قبل، في حين راحت وجوههم تشعّ فخرا وإعجابا بقائدهم. عشيّة تسلّم الرئيس بشير منصب رئيس الجمهورية، لمس الجميع بوضوح بشائر الأمل التي كانت تلوح في الأفق. وكأن حدثا جديدا يترقّبه لبنان، حدثا ايجابيّا ومشجّعا سيشهده هذا البلد لأوّل مرّة بعد الحرب الأهلية الأولى في ١٩٧٥، التي فتحت الطريق امام دوّامة من العنف وغمرت الفرحة كلا من الرئيس بشير وزوجته صولونج، اللذين لم يخفيا حماسهما وهما ينتظران الاحتفال؛ وخيّم جوّ حميم على الغرفة التي جلسنا فيها أنا والرئيس بشير لدرس التدابير التي ينوي اتخاذها لدى تسلّمه سدّة الرئاسة.

علمت انه يتعيّن عليّ أولا تبديد الضغينة الي نشأت عن اللقاء الذي عقد بين الرئيس بشير ومناحيم بيغن في نهاريا، قبل اسبوعين : فالاتصال الذي قام بين العجوز والشاب في تلك الليلة، لم يكن حسنا. ومع احتمال قيام علاقات عتيدة واعدة بين البلدين، ركزّ النقاش في نهاريا على التباين في وجهات النظر، لا سيّما حول وضع الرائد سعد حدّاد.

كان سعد حدّاد ضابطا مسيحيا سيطرت ميليشيته على القرى الحدودية في جنوب لبنان منذ ١٩٧٨ لتأمين حماية سكّان المنطقة من اعتداءات منظمة التحرير الفلسطينيّة ولإقامة منطقة عازلة ضيّقة بين الارهابيين والحدود الاسرائيلية. وفي عالم احزاب لبنان المعقّد، تحالف حدّاد مع احد منافسي الرئيس بشير المسيحيين ولم تكن العلاقات بين حدّاد والرئيس بشير وديّة. في الواقع، ترتّب على حداد المثول منذ بضع سنوات أمام المحكمة العسكرية في بيروت. وأكّد بيغن، تلك الليلة في نهاريا، ان اسرائيل لن تتخلّى عن صديق مخلص، في حين أعرب الرئيس المنتخب، بشير، عن نيّته في عدم التنازل عن أدنى امتيازات السلطة التي كان يعدّ نفسه للنهوض بأعبائها. فأدّى ذلك الى توتّر أجواء اللقاء، ورحل الرئيس بشير وقد اعتراه غيظ

شديد ممّا اعتبره محاولة يسعى من خلالها بيغن الى التدخّل في شؤون لبنان الداخلية.

قرّرت، على غرار بيغن، حماية حدّاد الذي حارب الى جانبنا منذ سنين. ولكني كنت افهم حقيقة مشاعر الرئيس بشير؛ ولما جلسنا في بيته للتحدّث، في ليل ١٢ ايلول (سبتمبر)، بذلت قصارى جهدي لتبديد ما تبقّى في نفسه من غضب. ثمّ انتقلنا الى مواضيع جوهرية، تناول أوّلها التدابير المفترض اتخاذها لتطهير بيروت من كوادر منظمة التحرير الفلسطينيّة وإعلانها مدينة مفتوحة وآمنة. وماكنّا انا والرئيس بشير لنوهم أنفسنا بإمكانيّاته في تأليف حكومة مركزية مستقرّة ما دامت العاصمة المقسّمة تشكّل أرضاخصبةً لظهور منظمة التحرير الفلسطينية مجددًا. وارتأينا انه من مصلحة دولتينا ان تحرص على طرد الارهابيين الذين ما زالوا في بيروت الغربيّة، مهمة في استطاعة الحكومة اللبنانية انجازها على أكمل وجه بالتعاون مع اجهزة الأمن الاسرائيليّة.

كنت اعرف ان الرئيس بشير سيواجه مشاكل جسيمة إضافة الى الوضع القائم في بيروت. ولم يكن بشير قد زار بعدُ صيدا ولا صور ولا حتى جزين، مع أن بلاده تحرّرت من قبضة منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا. ورأيت في هذا مؤشرا سلبيًّا. فالحكومة بلغت من العجز حدّا تردّد معه رجل مثل الرئيس بشير في الذهاب الى مناطق غابت عنها السلطة المركزية منذ سنين. كان من الواضح أنه يتوجّب حل المشاكل الجسيمة قبل ان يتمكّن الرئيس الجديد من الشروع في اعادة تنظيم بلاده.

تطرّقنا خلال محادثاتنا الى هذه النقطة كما تناولنا العلاقات المقبلة بين لبنان واسرائيل. فتلاقت وجهات نظرنا حول هذا الموضوع وقد أدركنا الصعوبة التي سيعانيها الرئيس بشير لتعزيز مكانته كرئيس على لبنان المسيحي والمسلم على حدّ سواء. وتمّ الاتفاق على البدء بمفاوضات مباشرة في أسرع وقت ممكن، وشرعنا في درس طبيعة اتفاقية السلام التي نصبو إليها. ولما لمسنا أولويّة هذه القضيّة حدّدنا موعدا للقاء جديد (يشارك فيه وزير

الشؤون الخارجيّة اسحق شامير) في ١٥ ايلول (سبتمبر)، اي بعد ثلاثة أيّام.

بدأت السهرة في ساعة متأخرة، واستمرّت المناقشات الى ما بعد الواحدة فجرا؛ فأقبلت السيدة صولانج تدعونا الى العشاء الذي أعدّته لهذه المناسبة وقد حضّرت أطباقا كنت استسيغها. بعد العشاء، قدم لي الزوجان علبة رائعة من خشب الكرز المنحوت، كان في داخلها مجموعة مزهريّات فينيقيّة قديمة مصنوعة من البلور. كانت هذه اللحظة مؤثرة. فعلى رغم الصعاب التي تخطيناها معا وتلك التي سنواجهها، كنا نشعر ان في وسع هذا البلد المعذّب ان يستعيد عافيته وان يعيش ابناؤه من جديد حياة طبيعية بعد سنوات الجحيم هذه. وقد شاهدت ما يكفي حتى أدرك معنى هذا بالنسبة الى لبنان. ولم اكن في حاجة الى من يشرح لي معنى هذا بعدما عانيناه في الجليل وسائر اسرائيل.

وفيما كنا نغادر منزل آل الجميّل في تلك الليلة، دعتنا صولانج، ليلي وأنا والأولاد، الى زيارة مطوّلة للقصر التجمهوري بعد حفل تولي الكرسي الرئاسي. وأصرّ الرئيس بشير على ان يقلّني بنفسه الى الشاطىء حيث تنتظرني المروحية. فقلت له : « لا عليك. يوجد هنا كثير من الرجال الذين يستطيعون إيصالي. عليك أن تكون حذرا، خصوصا الآن. فكل شيء يمكن أن يحصل ».

لم يجرِ اللقاء المقرّر انعقاده في ١٥ ايلول (سبتمبر)، ولا زيارتنا للقصر الجمهوري. ففي ١٤ أيلول، أي بعد مضي يومين، طُلب منّي عبر جهاز الراديو، وأنا في طريقي الى تل أبيب، الاتصال هاتفيا بوزارة الدفاع في اسرع ما أمكن. فتوقفت في قاعة عسكرية حيث تلقيت عبر الهاتف نبأ وقوع انفجار في احد مباني بيروت الشرقية. وحسب المعلومات التي وردتنا، كان الرئيس بشير موجودا فيه.

وفي المساء تشاورت مع رئيس الوزراء بيغن، ورئيس هيئة الأركان رفول إيتان، ورئيس أجهزة المخابرات العسكرية يهوشغ ساغي، ورئيس الموساد،

ورئيس أجهزة الأمن، وغيرهم من المعنييّن بالوضع. لم يكن ايّ منهم قد وردته معلومات اكيدة حول مصير الرئيس بشير. فجثّته لم يعثر عليها بعد، في حين سرت شائعات تؤكدّ انه لا يزال على قيد الحياة. فالناس شاهدوه خارجا من المبنى، وقد أصيب في رجله، وتمّت معالجته في إحدى مستشفيات بيروت وسوف يظهر قريبا على شاشة التلفيزيون الى جانب الرئيس السابق، الياس سركيس. أمّا النقطة الثانية في هذه البلبلة فتمثلت بان احدا منّا لم يره بعد الانفجار. فبدأنا نخشى وقوع الأسوأ.

عندما اتضح ان الرئيس بشير قد قتل في الانفجار، شكّلت نتائج موته مدار بحث مناقشاتنا، إضافة الى موضوع حرج ومستعجل تناول بيروت الغربيّة. وتطرّقنا في هذه الجلسة الى سائر الصعاب الجسيمة — ومنها، مثلا، مَن سيشكل الحكومة الجديدة — التي لا تملك طابع الخطورة الذي يتّسم به الوضع في بيروت — الغربيّة.

برزت الآن بوضوح المشاكل التي رغب حبيب في إلقائها على عاتق الحكومة الجديدة والتي درستُها مطوّلا قبل يومين مع الرئيس بشير. كانت بيروت الغربيّة منطقة تألّفت من عدّة ضواحٍ، مثال صبرا وشاتيلا والفاكهاني وبرج البراجنه. وغالبا ما أُطلق على هذه الضواحي تسمية « مخيّمات اللاجئين » بكل ما توحي به من خيم وتخشيبات. غير أن هذه « المخيّمات » كانت، في الواقع ضواحي مدنيّة، تنتصب فيها مبانٍ مرتفعة نسبيًا، كما يطالعك فيها منازل ومتاجر. كل هذا تشاهده على وجه الأرض. أمّا في جوفها، فقد تمّ بناء مدينة اخرى مع مرور السنين. وربطت بين الضواحي متاهات من الأنفاق والمستودعات والقلاع الصغيرة وقاعات الاجتماع والترسانات التي وصل بعضها الى عدّة طبقات، فجعلت منها نظام دفاع هائلا. ايّام الحصار، استخدم الارهابيون صبرا وشاتيلا وغيرها من المخيّمات مراكز لقيادتهم ومناطق رئيسية انتشروا فيها، لذا استهدف قصفنا وغاراتنا الجويّة هذه الأماكن. (خلال ذلك الوقت طال قصفنا أربعين بناية فحسب من

أصل أربع وعشرين الفا أخرى، بعد أن ثبت دورها كقاعدة عمليات تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينيّة أوكمقر قد يتواجد فيه رئيس منظمة التحرير الفلسطينيّة، ياسر عرفات). لذا ألحقت اضرار جسيمة بهذه الضواحي التي غطّتها الأنقاض والمباني المتضرّرة، وامتدّت حقول الألغام على طول الطرقات والممرّات، وانتشرت بين الخراب قنابل لم تنفجر بعد.

خلال الحصار هجر معظم السكان هذه المناطق. ولكنهم اليوم يعودون الى ديارهم، وقد تداخل بينهم قرابة الفين وخمسمائة رجل من منظمة التحرير الفلسطينية. اضافة الى ذلك، كان في بيروت الغربيّة ما يزيد عن سبعة آلاف عنصر مسلّح ينتمون الى سبع وعشرين مليشيا يسارية مختلفة، ابتداء من « المرابطون » الواقعين تحت سيطرة سوريا ويقرب عددهم من ألف مقاتل، حتى الأحزاب الصغيرة التي لا يتجاوز عدد أعضائها الثلاثين أو الأربعين.

كان وجود رجال منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت يتناقض مع الاتفاق القاضي بمغادرة المدينة. لكن عرفات أفلح مرّة جديدة في نقض بنوده. فالاتفاق ينصّ على أن يسلّم اعضاء منظمة التحرير الفلسطينية المغادرين المدينة كلَّ ما في حوزتهم الى الجيش اللبناني، باستثناء سلاحهم الشخصي، وذلك قبل رحيلهم. لكنهّم لم ينفذّوا هذا بل اعطوا جزءا من آلياتهم العسكرية الثقيلة الى حلفائهم، في حين خبّأوا الجزء الآخر في المستودعات. فراحت الترسانات في بيروت تطفح بالرشاشات ومدافع الهاون والمدافع المضادة للدبابات وقاذفات الصواريخ وقطع المدفعيّة. حتى أنه بقي عدد من الدبابات.

كان حلّ مشاكل بيروت الغربيّة مهمّة صعبة ستُشغل حكومة لبنانيّة قويّة وعازمة على اعادة توحيد عاصمتها وإحلال الأمن فيها من جديد. وكان — في وسع هذه الحكومة اتخاذ تدابير أمنيّة ضدّ منظمة التحرير الفلسطينيّة وتنظيم حملة سياسية للتخفيف من الميليشيات. لكّن موت الرئيس بشير والبلبلة التي استحوذت على القادة اللبنانيين حملا على ترقّب عودة

الارهابيين واحتلالهم مجدّدا المواقع الدفاعية، وتعبئة الميلشيات وتقسيم المدينة. واذا تمكنوا من اعادة تنظيم أنفسهم واستخدام مستودعات الأسلحة والذخيرة الهائلة فسرعان ما سنشهد قيامة بيروت الغربيّة الارهابية وقد شلّت حركة حكومة جديدة أقل عزما، ومنعتها من ترسيخ أقدامها، موفّرة من جديد شروط اعادة إرساء البنية التحتيّة التي أمضينا ثلاثة شهور مريعة في القضاء عليها.

تلك هي الخلاصة التي وصلنا اليها، انا وزملائي، بعد أن درسنا الوضع في مساء ١٤ أيلول (سبتمبر). فالعالم يمرّ بلحظات مصيريّة تستوجب اتخاذ قرارات فوريّة، وكنت أدرك أن اللحظة التي نعيشها لهي مصيرية. فموت الرئيس بشير خلّف وضعا خطرا. فلو غدت بيروت الغربية مدينة محّرمة لواجهنا مستقبلا مختلفا واكثر سوادا مما توقعناه. لذا علينا منع وقوع هذا الاحتمال. علينا منعه حالا. وبعد أن اطلعنا على التقارير الواردة من بيروت زاد اقتناعي — واقتناع رفول ايتان ورئيس مجلس الوزراء — ان [ساعة الصفر قد حانت]. واعتمدنا قرارا يقضي بأن تسيطر القوات الاسرائيلية على بيروت الغربية. اتخذنا هذا القرار بعيد منتصف ليل الأربعاء في ١٥ أيلول، أي بعد مضي ثماني ساعات على اغتيال الرئيس بشير. فقوّات الدفاع الاسرائيلية ستدخل بيروت الغربيّة وترابط في النقاط الرئيسية وفي الضواحي للحؤول دون اقامة اي نظام دفاع متماسك. (لن تكون هذه المهمة بالسهلة. فالقوّات الموجودة في بيروت ضئيلة نسبيا، لذا لابدّ من تنظيم جسر جوي في اتجاه مطار بيروت لنجمع فيه الوحدات الضرورية). لكّن القوات الاسرائيلية لن تدخل الضواحي. وكنت منذ ١٥ حزيران (يونيو) طلبت من المسيحيين ان يلعبوا دورا رئيسيا في حال اندلعت المعارك في بيروت. فنحن لا نريد أن تتكبّد قوّاتنا خسائر في حرب الشوارع، أما البحث عن الارهابيين فسيكون اكثر فاعليّة اذا قام به لبنانيون يتكلّمون اللغة العربيّة، ويعرفون مختلف اللهجات المحلية ومنهج العمل الذي تتّبعه منظمة

التحرير الفلسطينيّة في المدن. لذا، كانت القوات اللبنانية مدعوّة الى دخول بيروت الغربية الى جانب جيش الدفاع الاسرائيلي. وستُلقى على عاتقها مهمّة الدخول الى الضواحي وطرد الارهابيين.

في ١٥ ايلول (سبتمبر)، طرت الى بيروت في الصباح الباكر لأتحقّق من تطبيق خطط هذه العملية ولأقدّم احتراماتي الى الشيخ بيار الجميل، والد الرئيس بشير. عندما وصلت الى المطار في الساعة الثامنة، استقبلني عقيد من أجهزة المخابرات كان سيقلّني (إضافة الى رئيس اجهزة المخابرات ساغي، ورئيس أجهزة الأمن ومساعد رئيس الموساد) الى مركز قيادتنا الأمامي الواقع في شمال المطار، على مقربة من المدرج.

سرعان ما ادركت اننا نسير في اتجاه مغاير. وعندما سألت العقيد عن وجهة سيرنا، اجابني : « ما من خطب. أنا أعرف طريقا مختصرة ». فأوصلتنا هذه الطريق المختصرة الى بيروت. ومن مركز المراقبة في غاليري سمعان، رأينا دخان المعارك يتصاعد في بيروت الغربية، ثم واصلنا طريقنا. بعد مسافة مئتي متر أوقفنا حاجز تابع للبنانيين المسيحيين، عقبه آخر تابع للجنود اللبنانيين. في ما بعد وصلنا الى كورنيش المزرعة، وهو جادة عريضة تفصل ضواحي الارهابيين جنوبا عن سائر بيروت الغربيّة. فسألت العقيد مجدّدا : « أمتأكد من وجهة سيرك ؟ » فأجابني : « أجل، سنصل عمّا قليل ».

بعد مضي بضع دقائق ظهر شرطي لبناني أمام السيّارة وراح يلوّح بيديه حتى نتوقف. فتوقّفنا على جانب الطريق، وسمعناه يقول إننا إن تابعنا سيرنا مائتي متر اضافية نصبح في قلب مراكز الارهابيين. وتساءل هل نحن اسرائيليون ؟ لا، فما من اسرائيلي في المكان.

لم أعرف هوية هذا الشرطي ولا ما اذا تبيّن من كان في السيّارة التي أوقفها ذلك اليوم. ولكنني متأكد انه أنقذ حياتي وحياة كل من رافقني من كبار العاملين في أجهزة المخابرات والأمن، الى العقيد الذي خطرت

في باله فكرة الطريق المختصرة. وفيما كنت لا أزال عاجزا عن تصديق ما حدث، عدنا أدراجنا وسلكنا الطريق المؤدية الى المطار، ثم توجّهنا شمالا حتى مركز القيادة الأمامي التابع لأموس يارون، القائم على سطح مبنى متضرّر يقع في جنوب ــ غرب مخيم شاتيلا.

هناك وجدت رفول إيتان الذي قال لي انه تحدّث صباحا مع قادة القوّات اللبنانية ونسّق معهم مشاركتهم في الدخول الى ضواحي صبرا وشاتيلا[1]. فقد تلقوا أمرا بإعداد تفاصيل عمليّتهم مع الجنرال أمير دروري (قائد الجبهة الشمالية)، المسؤول عن القوّات الاسرائيليّة في لبنان.

وافقت على التدابير التي اتخذها رئيس الأركان، ثمّ اتصلت برئيس مجلس الوزراء بيغن لأقدّم اليه تقريرا عن الوضع ونستعرض بعض الاحتمالات السياسيّة، وبالاخصّ من نفضّل من المرشّحين لرئاسة الجمهورية. (كان بيغن يعلم انني سألتقي بالشيخ بيار الجميّل في فترة لاحقة من اليوم). في ما بعد، غادرت مركز القيادة لزيارة مقرّ الكتائب العام الواقع في قسم من المرفأ يسمّى الكرنتينا. على طريقنا، استرعى انتباهي انتشار كثيف للقوات المسيحيّة في الشوارع. فمن الواضح أن المسيحيين قد قاموا بتعبئة احتياطهم الذي يستدعى عموما في حالات الطوارىء. بدت الطرقات بالاجمال هادئة ومضبوطة في حين علا القوّات التي كانت تحرس الشوارع طابعٌ شرس، ولكنها لازمت الهدوء.

في المقرّ العام في الكرنتينا ساد جوّ مخنوق وثقيل. فمعظم الضباط

(١) تتألف القوّات اللبنانية من ميليشيات مسيحية مختلفة أهمّها ميليشيا الكتائب. وجرت محادثات مع الجيش اللبناني الذي يتحدّر جنوده من مختلف الطوائف، بما فيها المسيحية، والموضوع تحت إمرة الحكومة. وفي أجواء الصدمة والبلبلة التي أعقبت اغتيال الرئيس المنتخب بدت الحكومة وكأنها لم تعد ترغب في ان تأمر قوّاتها بالتقدّم. وبعد مضي بضع ساعات، رفضت القيام بذلك رسميّا.

الذين كانوا موجودين رافقوا الرئيس بشير سنين طويلة. وعاشوا معه أوقاتا صعبة مرّ بها المجتمع المسيحي وشهدوا في ما بعد انتخابه رئيسا للجمهورية. فإذا به الآن قد مات، في حين اعيد النظر في الآمال التي جسّدها. ناقشت بايجاز مع ضباط الكتائب الوضع السياسي القائم منذ فقدان الرئيس بشير، الذي كنّا جميعا ننتظر منه الكثير. كما شرحت الى ايّ مدى يبدو الوضع التكتيكي حرجا في نظري فاقترح احد قادة الكتائب ان نسيطر على بيروت كلها. فقلت له : سوف نسيطر عليها، غير أننا في حاجة الى دعمكم. فجيش الدفاع الاسرائيلي سوف يرابط في النقاط والضواحي الرئيسية. لكّن دخول اللبنانيين الى بيروت لهو حيويّ ايضا.

بعد ان درسنا الوضع في وجه عام، توجّهت الى بكفيّا لتعزية والد الرئيس بشير الشيخ بيار، وشقيقه الرئيس أمين الذي كنت ألقاه لأوّل مرّة. عندما توقفنا أمام منزل الشيخ بيار الجميل كان يحتشد آلاف الأشخاص الذين تلمس فيهم التوتّر والحزن. إلتقيت في الداخل بأمين الذي قال لي انه على علم بالحديث الذي دار بيني وبين الرئيس بشير في ١٢ ايلول (سبتمبر). ثمّ دخل الشيخ بيار الجميّل وقد علاه الانفعال، ولكنّه ضبط أعصابه وتبيّن لي أنه أقوى ممّا بدا عليه حين التقيته لأوّل مرّة في كانون الثاني الماضي (يناير). فالعجوز قائد لا يزال يمسك بزمام السلطة على رغم المأساة.

قلت للشيخ بيار الجميل : باسم رئيس الوزراء وباسم حكومة اسرائيل جئتكم لأنقل اليكم حزننا العميق لما حدث. كما أكدّت له دعمنا الكليّ لتحقيق أهدافنا المشتركة. فموت الرئيس بشير خسارة جسيمة، ولكن لا بدّ من مواصلة العمل الذي باشرنا به، لا سيّما التحرّك فورا للحؤول دون قيام وقائع جديدة في الأيّام الأخيرة المتبقية للحكومة الحالية.

أجابني الشيخ بيار الجميل بوقار وأسى وهو يعبر عن شكره الجزيل لكل ما فعلته اسرائيل في سبيل مسيحيي لبنان الذين تخلّى عنهم سائر

العالم. فقال : نحن نملك امكانيّة تغيير الأمور في لبنان والشرق الأوسط. وكان الرئيس أمين والشيخ بيار على علم بالحدث الأخير الذي دار بيني وبين الرئيس بشير يوم الأحد الفائت، فنقل لي موافقته على كل ما قيل.

دنت ساعة مراسم الدفن، فاستأذنت بعد ان نقلت الى الشيخ بيار الجميل تعاطفنا وأعرب لي هو عن امتنانه، وعدت الى المطار لأستقلّ الطائرة في اتجاه اسرائيل.

صباح اليوم التالي، الواقع فيه ١٦ ايلول (سبتمبر)، دار حديث في مكتبي مع رفّول إيتان الذي أطلعني على التحرّكات في بيروت الغربيّة. في غضون ذلك، كان الكتائبيون الذين سيدخلون صبرا وشاتيلا موجودين في المقرّ العام التابع لأمير دروري لإيضاح التنسيق وانهاء الاستعدادات. فتلقّوا الاوامر، ومنها أمر بالانتباه الشديد وهم يتحقّقون من هوية إرهابيي منظمة التحرير الفلسطينيّة. لأن مهمتهم تستهدف هؤلاء الارهابيين فحسب. كما يجب تفادي اتيان اي عمل من شأنه أن يضرّ المدنيين في هذه الضواحي

في ساعة متقدمة في المساء دخل الكتائبيون الى صبر وشاتيلا، في بيروت. وقرابة الساعة عينها، اجتمعت الحكومة في القدس لتدرس الوضع القائم حاليا في لبنان عقب اغتيال الرئيس بشير. شارك في هذا الاجتماع عشرون شخصا، من بينهم اعضاء الحكومة وكبار موظفي المخابرات وضباط اجهزتها والمستشار القانوني اسحق شامير. فشرحت لهم بدقة متناهية الأخطار الفورية المحدقة ببيروت الغربيّة وكيف ستسيطر قوّات الدفاع الاسرائيلية على النقاط الرئيسية. وفيما أنا أعرض الوقائع، وردتنا رسالة أفادت ان الكتائبيين بدأوا المعارك في الضواحي. وعندما نقلت هذا التطوّر لم يُبدِ أيّ من الحضور ردّة فعل سلبيّة.

اليوم التالي كان عشيّة رأس السنة العبرية، ذكرى وفاة غور. وكما جرت العادة في هذا التاريخ، ذهبت مع ليلي وولديّ ووالدتي الى المقبرة حيث

انضممنا الى فريق من الأصدقاء يجتمعون دائما هنا. كان بعضهم رفيق غور في طفولته، أمّا اليوم فأصبحوا رجالا ونساء. في ما بعد، تركت اسرتي وتوجّهت الى القدس لحضور اجتماع في وزارة الشؤون الخارجية، مع شامير وموريس درايير.

مضى شهر على ادّعاء الأميركيين أنه يتعيّن على الحكومة اللبنانيّة حلّ مشكلة وجود منظمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت الغربيّة ورحت أصرّ حاليا حتى يستخدم درايير نفوذه ليحمل الحكومة على اصدار امرٍ الى الجيش يقضي بدخوله الضواحي الفلسطينيّة.

عندما عدت ليلا الى مزرعتي تلقيت في السّاعة التاسعة اتصالا من رفول إيتان. فأبلغني انّه عاد توا من بيروت حيث وقعت مشاكل. فخلال تنفيذ العمليات تسبّبت وحدات الكتائب بمقتل مدنيين. قال : « لقد ذهبوا بعيدا. » وعلى ضوء ما حدث، طلب قائد الجبهة الشمالية أمير دروري إيقاف مشاركتهم في العملية. وكان إيتان قد التقى بدروري وغيره من الضباط، إضافة الى الضبّاط اللبنانيين المسيحيين. فتمّ إيقاف العمليّات ودخول قوات الكتائب الاضافيّة الى الضواحي؛ امّا القوات الموجودة في الداخل فتلقت أمرا بالتجمّع ومغادرة المنطقة. وهي تعمل الآن على استدعاء رجالها وفي السّاعة الخامسة تكون قد خرجت.

رحت أفكّر في أمور عدّة وأنا اصغي الى إيتان. كنت ادرك، على غرار كل من خبر المعارك في الشوارع، ان لا سبيل الى الحؤول دون وقوع خسائر مدنيّة وإن اتخذنا كافة الاحتياطات. فنحن أنفسنا بذلنا قصارى جهدنا في صيدا وصور وفي عدد من مخيّمات اللاجئين في الجنوب — الى حدّ التسبّب بخسائر أفدح بين صفوف مقاتلينا — ومع ذلك قُتِل مدنيّون في هذه الأماكن. وبما انني أعلم كيف تحارب منظمة التحرير الفلسطينيّة : تحتمي وراء المدنيين وتختبىء في المنازل وتنشىء مستودعات أسلحة في المدارس والمستشفيات، لم أُفاجأ لدى سماعي خبر سقوط قتلى. لكّن

ايتان قال : « لقد ذهبوا بعيدا ». حتى كاد ان يتخذ قرارا بإيقاف العملية واصدار أمر للكتائبيين بالخروج. لقد وقعت في هذه الضواحي امور ما كان يجب ان تحدث ولكن اتضح للعيان ان رفول يسيطر على الموقف.

بعد مضي ساعة تلقيت اتصالا آخر من ضابط في وزارة الشؤون الخارجية. قال لي : وردتنا معلومات مفادها أن جنودا من القوّات المسيحيّة التابعة لسعد حداد، في جنوب لبنان، قد عثر عليهم في بيروت الغربيّة، على مقربة من خط التماس بين شاتيلا وبرج البراجنة. وجرى تبادل بالنيران ممّا تسبّب بمقتل جنديين اسرائيليين.

أكمل هذا التقرير ذاك الذي عرضه رفّول. فكان واضحا ان المنظمة شهدت اضطرابات مفاجئة. ترى ماذا كان يفعل رجال سعد حداد هناك ؟ واذا كانت القوّات الاسرائيلية اطلقت النار عليهم، مع أنّنا نعمل معهم منذ سنين، كان من الجلي ان الجيش اتخذ تدابير صارمة لوضع حدّ لكل ما قد يحدث.

بينما كنت في سريري، في الساعة الواحدة والنصف، تلّقيت اتصالا ثالثا من صحافيّ في التلفزيون الاسرائيلي يدعى رون بن يشاعي. نقل لي هذا الصحافي ما سمعه، ومفاده أنّ الكتائب يقتلون المدنيين في شاتيلا؛ فقد تحدّث الى ضباط اسرائيليين سمعوا شهود عيان يخبرون جنودهم عن المجزرة التي شاهدوها. وعندما سألته عما إذا كان قد رأى ما حدث بأم العين أجابني لا، ولكنني سمعت هذا مرّتين، مرّة قرابة السّاعة الرابعة من بعد الظهر، ومرّة ثانية في وقت متأخّر من الأمسية. أمّا الناس الذين نقلوا له ما حدث فلم يروا شيئا شخصيّا، بل سمعوا الخبر.

كان بن يشاعي شديد الانفعال، ولكن لم يكن في ما قاله لي اي جديد. فالتقارير التي وردتني من رئيس هيئة الأركان والوزارة نقلت اليَّ الخبر عينه. كنت أعرف أن قوّات مسيحيّة تورّطت في المجزرة. وكنت أعرف

ما جهله بن يشاعي، وهو أن رفول وأمير دروري قد قاما باللازم لإيقاف المجزرة.

في اليوم التالي، اتّضح أن ما حدث في صبرا وشاتيلا تجاوز المجزرة الطارئة. فبعد محادثاتي مع إيتان والمدير العام لوزارة الشؤون الخارجية، الذي وردته معلومات من الأميركيين، فهمت ان هجوم الكتائبيين على مدنيّي الضواحي تزامن مع هجومهم على الارهابيين. ولكن حتى بعد أن نشرت وسائل الاعلام الخبر، كان من المستحيل أن نعرف مدى ما حدث بالضبط. في السادسة مساءً، طلبت تقريرا مفصّلا عن الكارثة التي اطلق عليها اسم « المجزرة ».

استمرّت وسائل الاعلام تتحدّث عن مجازر صبرا وشاتيلا، من الليل حتى اليوم التالي. فبعد الكشف عن الوقائع تعالت صيحة احتجاج في البلاد، لا سيّما بعد المغالاة في عدد القتلى والادّعاء بأنّ جنودا اسرائيليين قد شاركوا في المذبحة(1). كنّا منغمسين في بلبلة مريعة راحت فيها الأخبار الأكثر جنونا والشعور العميق بالإهانة المعنويّة، واستغلال حزب العمل لهذه المجزرة استغلالا سياسيا بذيئا، تتنافس على مركز الصدارة.

في الوقت الذي انفجرت فيه ردّة فعل الشعب راحت قصّة علاقة قوّات الدفاع الاسرائيلية الحقيقيّة مع الأحداث ترشح من التحليل الذي قمنا به. أولا، كان من الجلي أن ما من ضابط ولا جندي اسرائيلي قد تورّط في ما جرى. بل على العكس، تلقت الوحدات الكتائبية التي دخلت الى المخيّمات تعليمات بالعمل الذي ستؤديه وبعدم التعرّض للمدنيين. وفي الواقع، لم يتخوّف

(1) ورد عن الصليب الأحمر والحكومة اللبنانية الأرقام الآتية : ٤٦٠ قتيلاً، منهم ١٥ امرأة و٢٠ طفلا؛ ٣٢٨ قتيلا فلسطينيا، ١٠٩ قتلى لبنانيين، ٢١ إيرانياً، ٧ سوريين، ٣ باكستانيين وجزائريَّين. وحسب الأجهزة الاسرائيليّة، ترتفع الأرقام ارتفاعا طفيفا.

أحد من أنها قد تسيء التصرّف : ولا الضباط الاسرائيليون الذين تعاونوا مع الكتائب، ولا انا، ولا بيغن أو رفول، ولا هؤلاء الذين ملأوا قاعة اجتماع مجلس الوزراء حين سمعنا في ليل ١٦ ان الكتائبيين قاتلت خلال الحرب تحت ادارة الاسرائيليين من دون أن يصدر عنها يوما تصرُّف سيِّئ. صحيح ان قائدهم الرئيس بشير فقد قتل لكنّ الجاني لم يكن فلسطينيا، بل لبنانيا مسيحيا ألقي القبض عليه فورا وهو ينتمي الى الحزب القومي السوري الواقع تحت سيطرة دمشق. لذلك لم يتردد أحدنا عندما وردت فكرة ارسال الكتائبيين الى المخيّمات؛ ومن الواضح ان الأحداث التي طرأت تلك الليلة لم يتوقعها اي إنسان.

ولكن اذا لم يتورّط اي عنصر من قوّات الدفاع الاسرائيلية في هذه الأحداث، لابدّ أن تكون التقارير الواردة من مركز القيادة الأمامي ناقصة. ففي ليل ١٦ ايلول (سبتمبر)، شعر الضباط الاسرائيليون في هذا المركز كأن الأمور لا تسير على ما يرام، يدفعهم الى هذا ملاحظات ضباط كتائبيين. فأرسل احد الاسرائيليين برقيّة بما سمعه الى جهاز المخابرات في مركز قيادة الشمال ونقل هذا الجهاز المعلومات الى أجهزة المخابرات في تل أبيب.

عندما وصل هذا التقرير الى تل أبيب أُرفق بملاحظة سرية تفيد أن الوثائق التي يتضمّنها هي في منتهى الدقة ومن صلاحيات الهيئات العليا. فاتصل الضابط الحارس برئيسه حين لم يعرف ماذا يفعل بالتقرير، وسأله ما اذا كان من داع ليتصل برئيس أجهزة المخابرات يهوشع ساغي في منزله. ولمّا رأى الضابط أن الوقت متأخر ولا داعي لإزعاج ساغي، طلب من الحارس ان يحتفظ بالوثيقة حتى اوّل تقرير صباحي. لذا، لم يطّلع ساغي على الوثيقة الا صبيحة ١٧ ايلول (سبتمبر). ولم يبدُ التقرير في نظر ساغي حافلا بالأحداث حتى يستوجب عملا خاصّا أو حتى يعلمني به.

في غضون ذلك، سرت شائعات في مركز القيادة حول الأحداث التي شهدتها الضواحي. ولمّا ثارت حفيظة الضباط الاسرائيليين اتصل الجنرال

أموس يارون بضابط الارتباط الكتائبي وطلب منه، بلهجة حاسمة، التّهي عن الأعمال الوحشية. في اليوم التالي الواقع فيه ١٧ ايلول (سبتمبر)، لم تردنا معلومات دقيقة حول ما جرى في صبرا وشاتيلا غير حرب الشوارع التي دارت ضدّ منظمة التحرير الفلسطينية؛ ولكن عندما التقى يارون وأمير دروري في الساعة الحادية عشرة، قرّرا الاتصال برفول ايتان وإخراج الكتائبيين من المخيّمات. بعد الظهر ذهب رفول الى بيروت يرافقه ضباط اسرائيليون وكتائبيّون. نفى ضباط الكتائب بشدّة وقوع أعمال وحشية. وقالوا انهم شنّوا معركة ضارية؛ في حين واجهت قواتهم مقاومة شرسة وتكبّدت خسائر. وقد طلبوا عونا اضافيا وجرّافتين لهدّ بنايتين كانت منظمة التحرير الفلسطينيّة تستخدمهما. قبل إيتان اعطاءَهم جرّافتين وقرّر بعد هذه المحادثات إنهاء العملية في تلك الليلة. وعندما عاد من لبنان في ساعة متأخرة من الأمسية، اتصل بي هاتفيا في المزرعة.

تصرّف الضباط الاسرائيليون بتيقظٍ حتى بعد ان أثارت اعمال الكتائبيين شكوكهم. ولكن، لم يتورّط ايٌّ منهم، وفقا لمعلوماتي وحكمي، في أي عمل استهدف المدنيين. وخطر في بالي القيام بتحقيق عسكري رسمي، فدرست هذه الإمكانيّة مع إيتان. فهذا من شأنه تبديد الضغوطات الممارسة على الحكومة. وراح صديقي القديم أوري دان يصرّ حتى أعيّن لجنة تحقيق عليا. ولكني رفضت، على رغم إلحاحه. فأنا لا أرغب في القيام بأيّ عمل قد يعطي انطباعا بأنني أحاول الاختباء وراء الجيش. لكنّ قراري هذا كان خطأً فادحا، كما ستبين لي الاحداث ذلك. فعلى رغم خبرتي السياسية أسأت تقدير قدرة استخدام هذه المأساة « كسبب شهير » سياسي في وجه الحكومة. كما لم أتوقّع ردّة فعل الحكومة حيال الأزمة وهو خطأ كبير ارتكبته بعد أن رأيت الحكومة مستعدة لنفي مسؤوليتها في بناء المستعمرات (سنة ١٩٧٨).

في غضون ذلك، تفاقم سخط الشعب بعد أحداث صبرا وشاتيلا. وكأنّ

الغضب والكبت اللذين تراكما خلال هذه الحرب الطويلة ــ وكانا سيتبدّدان مع كل تقدّم سيحرز في اتجاه السلام ــ راحا ينفجران. فإذا بك تجدني وتجد رئيس الوزراء بيغن وسط هذا الانفجار. وأمّت البلاد باصات قدمت من الكيبوتزيم لتعزيز المظاهرات والمواكب، في حين راح حزب العمل يلعب دور الموجِّه في كل هذا. وسرعان ما انصبّت الضغوطات على تعيين لجنة تحقيق خاصّة تكون مهمتها تحديد المسؤوليات في ما جرى.

لم أكن خائفا من تعيين لجنة تحقيق. هذا ما قلته لبيغن حين أثار أمامي هذا الموضوع. فأنا لا أملك ما أُخفيه. واذا كانت فكرة إنشاء لجنةٍ لم تقلقني شخصيا، الا انني كنت ادرك تماما الخطر الجسيم المترتب على مثل هذا التطوّر على الصعيد القومي. وفي ٢٨ أيلول (سبتمبر) خضع بيغن أخيرا، بصرف النظر عن مشاعره حيال هذا الموضوع، للضغط السياسي وإصرار الرأي العام ووسائل الاعلام، وعمل في داخل الحكومة على إنشاء لجنة. فتمّ تعيين رئيس المحكمة العليا، القاضي اسحق كاهان على رأس هذه اللجنة؛ ودخل عضواً فيها القاضي في المحكمة العليا، هارون باراك، والقائد المتقاعد يوناح إفرات.

ما إن تمّ إنشاء اللجنة حتى طلبت من وزارة الدفاع تحضير كافّة الوثائق والأوراق والتقارير اللازمة. وقلت لرئيس هيئة الأركان رفول ايتان انني اعتقد بضرورة قول الحقيقة بكاملها والتعاون كليًّا مع اللجنة. وشرحت له أن ليس ما نخفيه على اللجنة، تماما كما سبق لي أن أبلغت بيغن. فما من مذنب بيننا.

مع ذلك، عندما بدأت اللجنة تمارس عملها، وقعتُ فريسة هواجس أنذرتني بوقوع الشر. فالجوّ العام كان ساخنا؛ ويستحيل علينا تجاهل النداء المتعطّش للدماء الذي تردّد في الأثير. فقد رأى كثير من الناس في هذه المذبحة صدمة معنويّة حقيقيّة ــ مع أن الجميع علم بالمجازر المريعة التي قام بها فلسطينيّون ومسيحيّون عرب خلال السنوات الأخيرة. في حين لمس

البعض الآخر الامكانيّات السياسيّة لهذه المسألة وعزموا على التمسّك بها. وقد حجبت هذه المأساة عددا من نتائج الايجابيّة في حين أصبحت نتائج أخرى أبعد ادراكا ممّا كانت عليه في ١٢ أيلول (سبتمبر)، أما الناس فراحوا يفكّرون في الثمن الذي دفعوه في هذه المعركة. فكان لا بدّ من كبش محرقة على الصعيد السياسي : لا بدّ من إنسان يلقون عليه اللّوم.

لو أجرينا حينها استفتاء للرأي العام، لرأينا الكثيرين — لا بل الغالبية العظمى — يرفضون هذه اللجنة التي لمسوا فيها خطرا يهدّد الشعب اليهودي لا اسرائيل فحسب. غير أن جبهة حزب العمل ووسائل الاعلام وما نظّم من مظاهرات، بشعاراتها المنادية « شارون سفّاح » و « بيغن سفّاح »، أوجدت قوّة لا يستهان بها راحت تدعو الى رفع شكوى لا الى إنشاء لجنة فحسب.

أدركت خير ادراك معنى هذا، فأنا قلت منذ البداية لأصدقائي وزملائي المقرّبين أن هذا العمل نهايته وخيمة. فالحاجة الى إيجاد مسؤول أو أكثر والقضاء عليهم، على رغم عدم ارتباط ذلك بالاحداث نفسها، غدت امرا لا يقاوم.

يستحيل على المرء تجاهل الجوّ السائد؛ وأولى المؤشّرات التي تبدّت لي بعد ان بدأت اللجنة أعمالها. فقد توفيت أليزا بيغن، زوجة بيغن منذ خمسة وأربعين عاما. وجرت مراسم الدفن في مقبرة جبل الزيتون القديمة، في يوم من أيّام الشتاء الباردة (كنت أعرف جيّدا هذا المكان لأنه احتضن رفات أحد اجدادي الذي عاد في شيخوخته الى القدس ليموت ويدفن فيها). اختار بيغن موقع ضريح زوجته الى جانب ضريح مائير فينشتاين، من الإيرغون وموشي برازاني، من فريق شترن، وهما بطلان شابّان فضّلا الموت بقنبلة في سجن القدس على أن يشنقهما الانكليز سنة ١٩٤٧. وفيما كان الموكب يتقدّم نحو الضريح المفتوح، أدرت رأسي ورأيت خلفي رجلين يعتمر كلّ منهما قبّعة سوداء ويضع ربطة عنق سوداء ومعطفا أسود،

كانا يسيران معا ويرمقانني بأسوأ النظرات. انهما القاضي كاهان والقاضي بارك.

ذلك اليوم توجّهت من المقبرة مباشرة الى الكنيست حيث من المتوجّب أن اقدّم تقريري. وفيما أنا أمام المنبر أقرأ نصّي، رفعت عينيّ ونظرت في اتجاه رواق الزوّار، فرأيت قبالتي مرّة جديدة القاضي كاهان والقاضي باراك اللذين راحا يحدجانني بتلك النظرة الحادّة والعدوانيّة وكأنّهما غرابان أسودان. في تلك الليلة، ذكرت هذه المصادفات في محادثاتي التي أجريتها مع عدد من المحامين والمستشارين العاملين معي. فقلت لهم : كانت نظرتاهما إشارة اتقنت التعبير عمّا سيحدث — وليس عمّا قد يحدث وانما عمّا سيحدث.

على الصعيد الشخصي، هدأ من روعي ذلك الشعور بأنّ « ما يحدث مقدّر » ولا يسعني حياله القيام بأيّ عمل. فعدت أزاول عملي كما في الماضي، ولكني شعرت بطمأنينة وتركيز لم أعهدهما من قبل وكأنني في منطقة عين الاعصار الهادئة. فنجم عن هذا تسريع وتيرة العمل لأنني أدركت منذ تعيين اللجنة أن الوقت يمضي وأنّ عليّ ان انهي ما بين يديّ.

خلال لقائي الأخير مع الرئيس بشير، اتخذنا التدابير لزيارة لبنان، بصحبة وزير الشؤون الخارجية إسحق شامير، لإطلاق مسيرة مفاوضات السلام. ولكن الرئيس بشير توفّي وأعقبت موته أحداث صبرا وشاتيلا. في ما بعد، انتخب البرلمان اللبناني رئيسا جديدا هو أمين الجميّل، شقيق الرئيس بشير، الذي لم يكن يتمتّع بمواصفات القائد التي ميّزت أخاه ولا بنظرته الواضحة التي كانت تتخيّر ما يجدر القيام به لتخليص لبنان من النزاع الذي دمّر حياته الوطنية منذ وصول منظمة التحرير الفلسطينية. وعلى رغم كلّ شيء، بقيت ثقتي راسخة في امكانيات عقد اتفاقية سلام بين لبنان واسرائيل اذا ما اقتنعت الولايات المتحدة بمنحها دعمها. وبعد أن أخذت في عين الاعتبار الموقف الذي اعتمدته الولايات المتحدة حتى الآن، أدركت أن اقناعها

ليس بالسهل. فموقف حلفائنا ارتكز دائما الى ضرورة تفادي عقد اتفاقية سلام سابقة لأوانها مع اسرائيل، فهذا من شأنه أن يعرّض موقع لبنان في العالم العربي للخطر.

تمثلت الخطوة الأولى التي يتعين علينا القيام بها بلقاء الرئيس أمين الجميّل، فقمت أنا ووزير الشؤون الخارجية شامير بزيارته في آخر اسبوع من أيلول (سبتمبر). وفي الطائرة المروحية التي أقلّتنا الى بيروت بدا وزير الشؤون الخارجية شامير في منتهى الهدوء على رغم العاصفة التي تجتاح لبنان والخفايا التي تنطوي عليها العاصفة. فأمضى معظم الوقت نائما حسب ما أذكر. وعندما حطّت الطائرة استقبلنا عناصر من أجهزة الأمن التابعة للقوّات اللبنانية ــ أي جماعة الرئيس بشير ــ وأقلّونا الى مركز قيادة الرئيس أمين الجميّل، في بيت المستقبل. وقلّما كان رجال الرئيس بشير يحبّون رجال الرئيس أمين. تقدّمت جماعة من حرسه الخاص، فتصاعدت حدّة التوتر بين الفريقين اللذين راحا يتبادلان النظرات وقد صوّب كلّ سلاحه الى وجه الآخر.

فوجدتني مع وزير الشؤون الخارجية شامير وسط هذه المواجهة. وفيما كنت ألفت هذا النوع من التصرّفات بعد زياراتي المتكرّرة لبيروت، كان وزير الشؤون الخارجية شامير لا يزال غريبا عنها. فنظرت الى وزير الشؤون الخارجية شامير، يدفعني الى ذلك اهتمامي البالغ بردّات فعل الناس لدى مواجهتهم ضغطا، فلم ألمس في وجهه أمارات الانفعال او الخوف.

استمرّ التوتر بضع دقائق الى أن وصلت سكرتيرة حسناء قالت للحرس الخاص إن الرئيس امين ينتظرنا وفي امكاننا الدخول (ولكن من دون رجال الرئيس بشير). خلال لقائنا مع الرئيس أمين درسنا تطوّر الوضع وإمكانيات مواصلة المفاوضات التي بدأناها. لم ألمس عند الرئيس أمين حماسة كبرى، ولكن من الصعب التكهّن. ومع انه لم يمضِ وقت طويل على موت الرئيس بشير، كان الرئيس أمين يرتدي بدلة جميلة بيضاء، متقنة الصنع. وكانت تزيّن أصابع يديه خواتم من ذهب وينتعل حذاء أسود ملمّعا مصنوعا من

جلد الأفعى. فأدركت في قرارة نفسي وأنا أنظر اليه، أن أياما عصيبة تنتظرنا. وعندما أثرت موضوع صبرا وشاتيلا، نظر الرئيس أمين ورجاله في أعيننا ونفوا اي علاقة لهم بالمسألة من دون أن يرفّ لهم جفن. لم يعترف أحد منهم بأيّ شيء لا حينذاك ولا في ما بعد. ولكن، فيما نحن نناقش الموضوع، انحنى احدهم من خلفي وهمس في اذني : « أنتم اليهود مجانين. أنتم شعب مجنون ».

على رغم الشكوك التي ساورتني في ما يتعلّق بالرئيس أمين، تابعت في أواخر ايلول (سبتمبر) ومطلع تشرين الأوّل (أكتوبر) دراسة مشاكل الأمن دراسة دقيقة ووضع برنامج انسحاب القوّات الاسرائيلية التدريجي من لبنان في إطار اتفاق اسرائيلي ــ لبناني يتناول الأمن وتطبيع العلاقات السياسية. ينصّ هذا الاتفاق عموما على بقاء القوّات الاسرائيلية المنتشرة في قلب البلاد حتى يصار الى ترحيل رجال منظمة التحرير الفلسطينيّة (لا يزال قرابة الثمانية آلاف ارهابي في شمال البلاد، وهي منطقة واقعة تحت سيطرة السوريين ولم تطلها الحرب)، وينسحب السوريّون من منطقة جبل لبنان، ونسترجع اسرى الحرب الاسرائيليين وجثث جنودنا، ويصار الى وضع جدول بالمفقودين. وما أن تستوفى هذه الشروط حتى تنسحب القوّات الاسرائيلية مسافة تبعد عن الحدود خمسة واربعين الى خمسين كيلو مترا. في غضون ذلك، تتواصل المفاوضات في سبيل مغادرة كافة القوّات الغربية عن لبنان وتوقيع اتفاقية ثنائية بين اسرائيل ولبنان، ترتكز على شروط احلال أمن دائم وتطبيع العلاقات. اعتمدت الحكومة هذه المبادىء في ١٣ تشرين الأوّل (اكتوبر) ثمّ عرضتها على الرئيس أمين الجميّل ووزير الشؤون الخارجيّة جورج شولتز في واشنطن.

من جهتي، لم يساورني أدنى شك في أنّ نجاح هذه المفاوضات هو رهن الاتجاه الذي سيختاره الأميركيون. لقد توفّرت أمامنا من خلال المفاوضات فرصة الوصول الى اتفاقات أمنية وتمهيد الطريق أمام السلام

بين لبنان واسرائيل. ولكن، لابدّ من تحريك الحكومة لتحقيق هذه الغاية. لم يكن الرئيس أمين الجميّل الرجل الذي كانه شقيقه. ولم يكوّن اي فكرة مترابطة تخوّله إخراج لبنان من حالة التفتّت التي يتخبّط فيها، فراح يخضع لضغوطات أتت من كل حدب وصوب، وأصبح مستعدا للتفوّه بأيّ كلام أمام أيّ كان. في الواقع، يتمتّع الرئيس أمين بخصال ذلك الذهن وذلك الطبع، اللذين من شأنهما إعادة لبنان الى جهنّم التي كان يعيش فيها منذ سنين. وكما سبق لي أن قلت لفيليب حبيب خلال أحد لقاءاتنا في الخريف ! سوف يؤدي موقف الرئيس أمين إلى قيام إحدى الامكانيتين؛ إما أن ينتهي به المطاف لا كرئيس للجمهورية او حتى رئيس لبيروت او بعبدا، بل كرئيس على القصر الجمهوري فحسب، على غرار سلفه. (في الواقع، كان الرئيس أمين حتى نهاية ولايته، رئيسا على قصر بعبدا). وإما أن يصبح رئيسا لبلد موحّد ينعم بالسلام. لكن هذا رهن بالموقف الأميركي والتعليمات التي ستمليها الولايات المتحدة على الرئيس أمين[1].

من جهتي، كان الخيار الأميركي واضحا. ففي وسعنا تلبية حاجات لبنان الفورية بمساعدة الأميركيين : كإحلال الأمن في الداخل، وانسحاب القوّات السورية (اضافة الى انسحابنا) وقيام سلام مع اسرائيل. ولكن في حال اصرّوا على حلّ شامل وربط تحسُّن الوضع في لبنان بسائر مصالحهم في المنطقة، الا وهي التقرّب من السوريين وحل المشكلة الفلسطينيّة، سينساب كل شيء من بين أصابعهم. على لبنان أن ندفع به قدما ولا بدّ من دفعه سريعا وبقوّة. هذا هو السبيل العملي، السبيل الواقعي الوحيد الذي علينا سلوكه في الوقت الحاضر.

أشرت في حضرة حبيب وسائر الشخصيّات الأميركية الى مساهمة اسرائيل الهائلة في الموقع الاستراتيجي الأميركي وفي موقع العالم الحرّ. وقلت لهم :

(١) لقاء ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٨٢.

لولا اسرائيل لما غادر السوفيات مصر. فمن دوننا ومن دون عملنا خلال حرب الاستنزاف — على مدى ألف يوم جاءت حصيلتها مئات الجرحى — لبقي السوفيات حتى الآن على ضفاف قناة السويس. ولم تشكّل مرابطة القوّات الأميركية في سيناء والوجود الأميركي في النقاط الحسّاسة، شروط السلام مع مصر إلا تلبية لمطلب اسرائيل (وإلحاح بيغن) — لا استجابة لمنظمة الأمم المتحدة فحسب. فقد مثّل هذا في نظرنا ضرورة قصوى لا تقبل النقاش. ولاتزال القوّات الأميركية مرابطة هناك. ولأنّها لا تزال في سيناء اتخذت الولايات المتحدّة ثلاث قواعد جوية من الطراز الأوّل في حال دعت الحاجة اليها وهي : أوفير واتزيون وإيتام، وقد بنيناها بسواعدنا. ولن تستخدم هذه القواعد بالطبع إلاّ في حالات الطوارىء. وقلت للأميركين : اذا كان عليكم ان تتدخلوا في الخليج الفارسي أو أيّ مكان آخر من المنطقة، تأكّدوا أنكم لن تلقوا مساعدة من أحد، لا من السعوديين ولا من الأردنيين. لكّن إمكانية التحرّك سريعا ستتوفّر أمامكم لأنّكم تملكون هذا كله بين أيديكم. وقلت للسفراء والقادة وأعضاء الكونغرس الأميركي الذين أتوا الى القدس إن لبنان سيوفر لكم نقطة دعم بفضل مرافئه ومطاره. في الأمس، كان السوريّون يسيطرون على لبنان، وبمعنى آخر، كان السوفيات يسيطرون على لبنان، امّا اليوم، فأنتم في لبنان وتملكون إمكانيّة إدخاله الى العالم الحرّ ليصبح جزءاً لا يتجزأ منه.

لكنّ مسؤولي وزارة الشؤون الخارجيّة عن شؤون الشرق الأوسط لم يفهموا يوما هذا التصوّر، وراحوا يتحرّكون في اتجاه مغاير فيما نحن نحارب في خريف ١٩٨٢ وشتائه من أجل انجاح اتفاقية مع لبنان.

لسوء الحظ تناغم تصرّف اللبنانيين المسيحيين مع الموقف الذي صدر عن الأميركيين. ففي كانون الثاني (يناير) حللت مع ليلي ضيفَيْن على الشاعرة اللبنانية الكبيرة مي المّر وزوجها المهندس ألفرد المرّ، في بيروت. وكما جرت العادة، اكتظّت الطرقات بحشود نضحت حماسةً جنونيةً، خلافا

لما أبدته حكومتهم في الأشهر الفائتة. فعلى رغم المفاوضات القائمة، اتخذ أمين الجميل علنا مواقف مناهضة لاسرائيل بعد أن ألقى تصاريح ووجّه اتهامات قد تكسبه، حسب اعتقاده، عطف الدول العربيّة الأخرى ورعايتها. وخلال حديث أجريته مع والده بيار، قلت إن اسرائيل بدأ ينفذ صبرها. ففي استطاعة الرأي العام الاسرائيلي فرض انسحاب قواتنا قبل إبرام اي اتفاقات مهمة بالنسبة إلينا إلاّ ان أهمّيتها اكبر بالنسبة الى لبنان. في وسع اللبنانيين أن يجدوا أنفسهم وحدهم. وفي حال تخلّى العالم عن لبنان، سيجد أمين نفسه رئيسا على القصر الجمهوري فقط لا غير. واذا فقدت الشجاعة الآن يضيع كل شيء. « فنحن لم نأت لإنقاذكم بل لإنقاذ أنفسنا. لكنّ عملنا هذا سيقدّم اليكم فرصة تاريخيّة، فرصة قد لا تتوفّر مجدّدا قبل انقضاء خمسين عاما ».

في ذلك الخريف راحت لجنة كاهان تجمع المعلومات والشهادات ببطء ولكن بمنهجيّة، امّا نحن فكنّا نتصادم مع اللبنانيين والأميركيين. وتلقّيت كما تلقّى كثيرون غيري « انذارا » من اللجنة تبلغنا بأسلوب رسمي ان اسمنا يندرج بين الأسماء المحتمل إحالتها الى المحاكمة. وقريبا سوف أُستدعى للإدلاء بشهادتي.

حاليا، بلغ التحقيق الذي بوشر به مرحلته الحاسمة. فقد تولّى حتى الآن متشرّع من وزارة الدفاع، يساعده في ذلك محام شاب يدعى دوف وايسغلاس كان يقوم بدورة احتياط في الوزارة. غير ان مكتب المستشار القانوني التابع للحكومة أفهمني عبر هذا « الانذار » انه لم يعد في وسعي اللجوء الى خدمات متشرّع وزارة الدفاع.

لذا رحت أبحث عن محام. ولكن، صعب عليّ العثور على شخص مستعد لتولّي شؤوني في ظلّ الأجواء التي كانت سائدة حينذاك، فالمحامون تردّدوا في الاشتراك في قضيّة غامضة لم تحظَ بحب الشعب. فتوجّهت

في نهاية المطاف الى صديق قديم يدعى صموئيل تامير، ترأس في ما مضى حزب الوسط الحرّ، وكنت تكبّدت العناء حتى أعدته الى الليكود في ١٩٧٣ بعد أن ركضت وراءه الطوابق العشرة التي تألّف منها مبنى حيروت.

في عهد حكومة بيغن الأولى شغل تامير خلال حقبة من الوقت منصبَ وزير العدل ثم ترك الحياة السياسية الناشطة. شرحت له وضعي وسألته عما اذا كان مستعدا للدفاع عني. فطلب مني شامير وقتا للتفكير في الموضوع والاتصال به في غضون يومين أو ثلاثة أيام.

بعد مضي يومين، زرته في هرزليا بتواخ، المسكن الجميل جدا قرابة الشاطىء الذي كنت أعرفه جيدا لأنني أمضيت فيه الى جانب تامير وعائلته مناسبات كثيرة تعاقب عليها الحزن والفرح. كنت جالساً على الكنبة عندما قال لي انه لا يستطيع الدفاع عني. فهو ينوي دخول معترك السياسة من جديد، وفي حال تولّى قضيّتي عليه إنجاز مهمّته بجديّة صارمة، وهذا يعني استجواب الشهود على كافّة المستويات الحكومية من أدناها حتى أرقاها. وفي حال اقدم على هذا العمل سوف يسيء الى فرصه السياسيّة. لذا، لن يتمكّن من تولّي قضيّتي. لم يلقَ مني اي إجابة؛ وانّما شكرته وودّعته ورحلت في منتهى البساطة.

بعد ما حدث لم أرغب في البحث عن بديل. فتولّى دوف ويسغلاس ملفّ قضيّتي على حسابه الخاص (بعد أن أنهى دورة الاحتياط)، وساعده في ذلك محام آخر يدعى زفي تيرلو، كلّفه موظّف في وزارة الدفاع.

بعيد إتخاذ هذا التدبير توجّهت الى هوندوراس في اميركا الوسطى. رافقتني ليلي (كما جرت العادة) في تلك الرحلة المعقّدة عبر امستردام وشيكاغو وسان فرنسيسكو ولاس فيغاس حيث كان عليّ القاء محاضرة. في الصباح التالي، استقل فريقنا طائرتين صغيرتين من صنع اسرائيلي، أقلّتهما الى تغوثيغالپا حيث استقبلتنا الجالية اليهودية في المدينة ورئيس البلاد كوردوبا استقبالا

حارا. وجرى نقاش مع الرئيس كوردوبا تناول الوضع في منطقته. وأوليت إمكانات التعاون الزراعي اهتماما خاصّا. فقبل بضع سنوات أنشأت اسرائيل في نيكاراغوا عددا من القرى التعاونية (موشافيم)، مبادرة لا تزال عالقة في ذاكرة هذا الجزء من العالم. وتطرّقت في حضرة رئيس هيئة الأركان الى إمكانيّات منح مساعدة عسكرية. ولكنّنا دخلنا شهر كانون الأوّل (دسيمبر)، ولن تسفر عن هذه اللقاءات اي نتائج. فالمستقبل، القريب على الأقل، سبق للجنة كاهان أن صادرته.

قرّرت في حضرة اللجنة عدم استجواب ضباط الموساد أو موظفيه، لا سيّما أن بعضهم زعم أنه لم يعلم بإرسال الكتائبيين الى الضواحي. وكان سبق لي أن اتخذت قرارا بتقديم استقالتي في حال أُتُّهم أي عنصر من عناصر الجيش. بعد أن استمعت اللجنة الى الشهود راحت تصبّ اهتمامها على نقاط مختلفة وتطرح اسئلة وأسئلة : هل تورّطت قوّات الدفاع الاسرائيلية في ما حدث ؟ هل من سياسي أو عسكري أوعز بهذه المجزرة أم وصله علم بها ؟ هل تقاعس أحدهم عن منع هذه المجزرة أم عن إيقافها ؟

كان الدفاع عن نفسي سهلا. فقد أكدّ المحاميان اللذان تولما قضيّتي انني لم أبدِ تقاعسا عندما لم أنجح في إيقاف المجزرة. فحين أعلمني ايتان في ليل ١٧ ايلول (سبتمبر) ان الكتائبيين « ذهبوا بعيدا في عملهم »، كانت العملية قد انتهت وقوّات الكتائب قد تلقّت أمرا بالانسحاب. امّا القانون الاسرائيلي فكان دقيقا في ما يتعلق بالإهمال الصّادر عن سابق تصميم. فما من انسان تلقى عليه تهمة الإهمال والتسبب بخطر ما اذا عجز « شخص عاقل » عن توقُّعه. وفي الواقع، لم يتوقع احد خطر المذبحة. وتسبّب هذا الوضع لاسرائيل بضربة مريعة : فلو تمكنّا من التكهُّن به لما أرسلنا الكتائبيين. واطّلع عدد من كبار الضباط الاسرائيليين على نيّتنا في اللجوء الى الكتائبيين، ولكن ما من احد أبدى ادنى معارضة. ولا حتى بيغن أو ايتان أو ساغي، ولا المسؤولون عن الأمن، ولا رؤساء الموساد، ولا الوزراء أو المستشار

القانوني الذين حضروا جلسة الحكومة التي عقدت في ١٦ ايلول (سبتمبر) والتي أعلن خلالها عن دخول الكتائبيين الى الضواحي. وقد اكد المحاميان انه استنادا الى نص القانون الاسرائيلي لا يمكن اتهام شخص بالإهمال ما دام لم يتكهن احد بوقوع اي إشكال.

اعتقد المحاميان المكلّفان الدفاع عني أنني سأكسب القضية بفضل هذه الحجج. لا سيّما على الصعيد القانوني. لكنّ أملي في النجاح كان ضئيلا. ففي اسرائيل تتمتّع لجنة التحقيق بكافّة سلطات المحكمة القضائية ولكنّها تتحرّك بحريّة أكبر. ولا تخضع هذه اللجنة لقواعد المحاكمات الاعتياديّة. لذا كنت على يقين ان قضيتي سوف يصار الى الحكم عليها على اساس سياسي لا قانوني فحسب.

بعد ان انتهت اللجنة من الاستماع الى الشهود وبدأت مداولاتها، لازمتُ مكاني في الوزارة، عازما على النهوض بمهامي بصورة طبيعية وإنهاء عدد من المشاريع المهمّة قبل أن تنشر اللجنة النتائج التي توصّلت اليها. فمشروع تحديد بُنى قوّات الدفاع الاسرائيلية لسنة ١٩٩٠، الذي سبق لنا أن بدأنا به، مضى قدما من دون توقّف (عقدتُ آخر اجتماع تناول هذا الموضوع صباح إعلان تقرير اللجنة). أمّا في لبنان، الذي كنت أزوره في استمرار، فقد استمرّت المفاوضات الجارية. توجهت الى زايير في زيارة رسمية جاءت كنتيجة مباشرة للمبادرة التي قمنا بها السنة الماضية والتي فتحت المجال أمام استئناف العلاقات الدبلوماسيّة مع اوّل بلد افريقي هو زايير.

خلال هذه الزيارة، جبت البلاد في أواخر كانون الثاني (يناير) في صحبة موبوتو ودرست معه مختلف المشاكل التي تعانيها العلاقات بين اسرائيل وافريقيا. طلب مني رئيس زايير العودة سريعا لإنهاء هذه المحادثات، فقبلت دعوته وقلت له إنني قد أعود الى زايير في ٤ شباط (فبراير)، فولّد هذا الموعد القريب الدهشة في نفس موبوتو ولكنّه سرعان ما قبله.

كان موبوتو يجهل ان موعد صدور نتائج اللجنة يقع في ٧ شباط (ولم أتمكن من اطلاعه عليه).

عرفت تاريخ الموعد مصادفة. فاللجنة احاطت مداولاتها بالسرية ولم يُعلن عن موعد صدور تقريرها. ولكني علمت ان شخصية أخرى تلقت مثلي « انذارا » ويمثّلها محام لامع ذو معارف كثيرين، وجّهت دعوة الى عدد من الأصدقاء لحضور حفلة ساهرة في ٨ شباط (فبراير). وهكذا ادركت انه على علم بموعد نشر التقرير.

لدى عودتي من زايير تحدثت مع بيغن عن ذلك التقرير الذي سيعلن عنه قريبا وقلت : حسب معلوماتي، ستنشر النتائج في ٧ شباط (فبراير). وبما انني اعرف هذه الحكومة حق المعرفة — اقترحت عليه ان يتخذ موقفا ثابتا لأنّ قبول نتائج اللجنة أو رفضها منوط بالوزراء. وكنت ارى ان معظم الوزراء سيحرصون على التملّص بلباقة من المأزق، غير عابئين بالعدالة ولا بالضرر الذي قد يلحقه تصّرفهم هذا بإسرائيل. لذا فان الطريقة الوحيدة لمواجهة ما ستعلن عنه اللجنة هي أن نبرهن عن سلطة كبرى وتعاضد الوزراء حول مسألة جوهرية هي براءة حكومة اسرائيل وبراءة العسكريين. وقلت لبيغن : سيشكّل الاعلان عن النتائج لحظة حاسمة. وأعربت عن كلامي هذا بلهجة مباشرة وحازمة، في حين رحت أترقّب ردّة فعله. فجاءت إجابته مشوبة بالحسرة : « سنواجه وضعا في منتهى الصعوبة، وضعا في منتهى الصعوبة ».

في ٤ شباط (فبراير) عدت الى أفريقيا، وقد وضعت نصب عينيّ الالتزام بارتباطاتي وبذل قصارى جهدي لتعزيز مكانة اسرائيل في هذه الناحية من العالم مادمت أتمتّع بالكفاءة التي تخوّلني انجاز عمل مماثل. سعيت في هذا الاتجاه على تعاظم الشعور بالظلم الذي راح ينتابني كلما فكّرت في التقرير الذي ستعلنه اللجنة في غضون ثلاثة أيام.

عدت الى اسرائيل في ٥ شباط (فبراير). ومن دون ان اعلم احدا ورحت في اليومين التاليين أوضّب أكبر عدد ممكن من الأغراض : في مساء ٧ شباط وصَلَنا علم بإعلان التقرير وبحصول بيغن على نسخةٍ منه. وعندما اتصلت به في منزله وجدت صعوبة فائقة في التحدث اليه هاتفيا لأوّل مرّة في حياتي. ولما تمكنّت من التحدّث اليه، قلت له : « لقد حصلتَ على التقرير حسبما فهمت ». فأجابني : « أجل، وانا استشير الآن في هذا الصدد شخصا او اثنين ». سألت بيغن من جديد : « هل تستطيعون اطلاعي على نتائجه ؟.. اجابني : « لا ». فقد طُلب منه عدم اعلان النتائج قبل صباح اليوم التالي. هل استطيع القدوم لرؤيته ؟ اعدت السمّاعة الى مكانها وقد اعتراني شعورٌ سَيِّءٌ عن نوع الدعم الذي كنت استطيع انتظاره من رئيس الوزراء.

صباح اليوم التالي كان نص التقرير قد نشر. وفي ساعة مبكرة التقيت دوف ويسغلاس وأوديد شامير ووجدتها يقرآن التقرير مبتسمين، وكأنه يبرّئني. ويقول القضاء فيه : « نحن نوافق على أن احدا من اسرائيل لم ينوِ إلحاق الضرر بالسكّان المدنيين عندما أُدخل الكتائبيون الى المخيّمات ».

قلت لدوف ويسغلاس وأوديد شامير : « يجدر بكما الانتقال الى النتائج. » في تلك النتائج، درست اللجنة دور كل من رئيس الوزراء بيغن، ووزير الشؤون الخارجية شامير، ودروري. كما اتخذت في عين الاعتبار مشاركة عدد من الضباط وأعضاء أجهزة المخابرات، ولا سيما رئيس هيئة الأركان رفول إيتان، والجنرالين دروري وياورون، ورئيس أجهزة المخابرات العسكرية يهوشع ساغي.

وبدرجات متفاوتة أقرّت اللجنة بمسؤولية كلّ من هؤلاء في الأحداث التي شهدها مخيّما صبرا وشاتيلا؛ بدءاً ببيغن الذي كان يجدر به إبداء سرعة ونشاط اكبر في التدقيق في الأحداث التي شهدتها الضواحي بعيد

دخول الكتائبيين، والحؤول دون مواصلة عملهم، وانتهاءً بساغي الذي توجّب عليه تحصيل معرفة كافية بالموضوع حتى يحذّر من احتمال وقوع اعمال عنف، وأخذ المعلومات التي وردته لاحقاً حول هذه الاعتداءات على محمل من الجديّة.

أمّا في ما يتعلق بي، فقد رأت اللجنة أخيرا انني تصرّفت تصرّفا ملائما وذلك بعد أن درست دعوى التقاعس الموجّهة ضدّي والتي تتهمني بالتلكؤ في اتخاذ التدابير من أجل إيقاف سفك الدماء. ولكنها استنتجت ايضا انه على رغم أن كثيرين من الناس كانوا على علم بدخول الكتائبيين الى الضواحي من دون ان يتكهنوا ان مذبحة ستنجم عن دخولهم، كان عليّ بصفتي وزيرا للدفاع ان اكون اكثر وعيا للاخطار وان اتخذ تدابير احترازية. وخلصت اللجنة الى القول انني، تبعا لذلك، اتحمل « مسؤولية غير مباشرة » في ما حدث. وأوصت « أن أستخلص النتائج الشخصية التي تفرض نفسها » أو أن يمارس رئيس الوزراء حقّه في « تجريد وزير من حقيبته ».

كنت أنتظر صدور هذا النوع من النتائج، إلّا أن اتهامي « بمسؤولية غير مباشرة » أثار حفيظتي. فهذا المفهوم لا اساس له في القانون الاسرائيلي. إلّا أنني كنت مدركا في قرارة نفسي ان ما جرى لم أتوقّع حلوله يوما، على معرفتي بالشؤون اللبنانية. وارتأى القاضي كاهان وزملاؤه، بعد دراسة الأحداث دراسة هادئة وسديدة، انه كان يجدر بي التكهن بما جرى، على رغم أقوال الشهود. ولكن لم يستبق اي انسان الأحداث. لا أنا ولا الآخرون. لذا، من المحتمل ان يكون القضاة قد لمسوا ضرورة إلقاء اللوم على أحد، في غمرة الصدمة التي اعترت البلاد. ومهما يكن من أمر، كان ذلك وصمة ارفضها رفضا قاطعا.

نُشر التقرير في ٨ شباط (فبراير) ١٩٨٣. وبعد مرور يومين تلّقى مجلس الوزراء دعوة لعقد اجتماع نناقش فيه التدابير المفترض اتخاذها. بدأت الجلسة قرابة المساء، ولكنيّ لم أتمكّن من الوصول في الوقت المحدّد.

فقد نظّمت « حركة السلام الآن » وبعض كيبوتزات المنطقة تظاهرة في الطريق قبالة مزرعتنا. وبدا المتظاهرون في غضب جنوني. لذا أضحى من المستحيل توقّع ما قد يحدث. ووقف في وجههم اليهود والعرب العاملون في المزرعة، بالقرب من البوّابة. مشهد يصعب على من يراه تصديقه. وقرّر العمّال العرب، وقد رأوا ما حدث، عدم مغادرة المزرعة ذلك المساء. فلازموا أمكنتهم وبقوا جنبا الى جنب مع موتي ليفي وغيره من العمّال اليهود العازمين على قمع اي محاولة ترمي الى اجتياح الأماكن. وفيما راحت جلبة التصادم تتعالى، كنت في الدّاخل أعدّ نصّ الدفاع عن قضيتي، الذي سأتلوه على الحكومة، يساعدني في ذلك كلٌّ من دوف وأوري دان. وقد احتاج رجال الشرطة الى بعض الوقت قبل ان يسيطروا على زمام الوضع من جديد وأن يسمحوا لي بالذهاب بعد ان خيّم السكون وعهدت بالمزرعة الى موتي.

فيما كنا نجتاز البوّابة شاهدنا عمّال المزرعة مصطفّين، في حين تهادت الى مسامعنا عبر نوافذ السيّارة صيحات الحشود. بعد مضيّ ساعة نهبت السيّارة خلالها الأرض نهبا، وصلنا الى القدس حيث تجمهرت تظاهرة اخرى هائلة أمام مكتب رئيس الوزراء.

غير ان هذه الحشود تألّفت من متعاطفين جاؤوا الى القدس من كافّة أنحاء البلاد إعرابا عن مشاعرهم تجاه الحكومة، فراحوا يترجمون عواطفهم صخبا وضجّة. ولمّا توقّفتُ برهة لأحيّيهم وجدتني وسط دوّامة تلقيّت فيها الف يدٍ ويد طلبت مصافحتي وسمعت الف عبارة وعبارة كان ملؤها الحماس والتشجيع. لكنّ هؤلاء المتعاطفين لم يكونوا وحدهم. فقد قامت في ذلك الوقت تظاهرة عمّت الطرقات نظّمها أعضاء « حركة السلام الآن » الذين راحوا يصرخون من أعمق أنفاسهم ويردّدون « شارون روتزياخ » (أي شارون السفّاح)، صيحات تداخلت وصيحات أنصاري الذين هتفوا « أريك ! أريك ! اريك » !

في مدخل المبنى أضيئت كشّافات كاميرات التلفزيون الباهرة، وتهافت مئات الصحافيين والمصوّرين في اتجاهنا، فانضمّت جلبة صيحاتهم وأسئلتهم الى البلبلة التي خيمّت على الأجواء. فاستحال علينا الهروب من هذه الجلبة التي تهادت حتى قاعة اجتماع الحكومة. عندما وصلت الى مجلس الحكومة كان شحوب وقلق يعتريان الوزراء الذين أقفلوا النوافذ في وجه الضوضاء التي تناهت من الشارع. وبعد مضي لحظات معدودة جالت الحشود في محيط المبنى وسمعنا صيحات « أريك ! اريك ! » عبر نوافذ الجهة الأخرى من القاعة. وعندما أقفلنا تلك النوافذ بدورها ساد جوّ خانق في الحجرة وراح الوزراء الذين اعتراهم الشحوب قبل ثوانٍ يتصبّبون عرقا.

كان التوتّر الشديد سيخيّم على الاجتماع وإن تلاشى الصراخ من الخارج والحرارة من الداخل. كان على الحكومة ان تقرر إمّا رفض تقرير كاهان رفضا كليّا او جزئيا وامّا قبوله. ويعني رفض التقرير استقالة الحكومة والقيام بانتخابات جديدة. ولو فعلت ذلك لأحرزت، في نظري، انتصارا عظيما سيسجّله تاريخ الليكود. امّا قبول التقرير فيعني إلزامي تقديم استقالتي. لا بل اكثر من ذلك، في الواقع. ففي قبولنا التقرير سوف نقرّ بحكم يُدين الحكومة بتهمة القتل. وتوجهت الى الحضور قائلا : « في حال قبلتم نتائج لجنة كاهان سوف تضعون على جبين الشعب اليهودي وجبين دولة اسرائيل دمغة قايين بأيديكم ».

اندرج بيغن وشامير بين الذين تعيّن عليهم اتخاذ القرار، وكانت اللجنة قد أقرّت بمسؤولية كل منهما الجزئية. وفيما راحا يتداولان مع سائر الحضور في قاعة الاجتماع، كانت صيحات المتظاهرين في الطرقات لا تزال مسموعة على رغم النوافذ المغلقة. ولما تفرّست في وجوه الوزراء صعب علي القول اية صرخة كان لها الأثر الأبلغ في نفوسهم : أتلك التي هتفت باسمي أم تلك التي طالبت بدمي. ولكن سرعان ما بدأت أفهم أنّ ما أقلقهم حقّا تمثّل بتلك الجماهير الغفيرة والعفويّة التي تألّفت من أنصار الليكود.

وشاءت سخرية القدر أن يساهم هؤلاء الشجعان المحتشدون من أجل منح مساعدتهم في التصديق على مصيري. أمّا أعضاء الحكومة فقلّما أحبّوا سماع هذه الصرخات. لا بل كانوا يكرهونها. فسمات الحسد والغضب كان في استطاعة المرء أن يراها في وجوههم.

قبل أن يشارف الاجتماع على نهايته، بُلِّغَتْ الى أمين سرّ الحكومة ملاحظةٌ تذكّره بضرورة الأخذ في عين الاعتبار، في أثناء التصويت، غياب وزيرين من الوزراء بداعي السفر. كان الوزير الأوّل البروفسور يوفال نعمان. المنتمي الى حزب تخيّا (الذي منحني دعما صلبا في المسائل القومية)؛ امّا الثاني فكان سيمحا ارليخ. وجاءت الإجابة على هذه الملاحظة كالآتي : « من المستحسن ان يأتي التصويت ستة عشر صوتا مقابل صوت واحد، بدلا من سبعة عشر صوتا مقابل صوتين ». جاءت النتيجة ستة عشر صوتا مقابل صوت واحد هو صوتي.

في اليوم التالي، ذهبت لزيارة مناحيم بيغن حتى ابلغ اليه قراري بتقديم استقالتي. ولم يكن اتخاذ مثل هذا القرار بالسهل، لذا فكّرت أوّلا في المضي بهذه المسألة حتى النهاية امّا الإجابة التي أعطاني إيّاها بيغن ذلك اليوم فقلّما سهّلت الأمور. فقد سألني : « متى تنوي تقديم استقالتك ؟ أجبته : « الاثنين ». فسألني من جديد بعد برهة : « لم ستستغرق استقالتك هذه الفترة الطويلة ؟ »

ذلك الاثنين الواقع فيه ١٤ شباط (فبراير) أعلنت أمام ملاك موّظفي الوزارة قبولي قرار الحكومة وتقديم استقالتي وشرحت لهم أن ما من اسرائيلي، لا جندي ولا رئيس ولا سياسي، تورّط في هذه الأحداث المريعة. وصحيح انني وضعت جانبا، إلّا انني أستطيع المواجهة لانني ادرك حقيقة ما حدث بالضبط ومتأكد من الطريق الذي اتخذته والأهداف التي تطلّعت إليها.

كان صباح ذلك اليوم حافلا بالناس الآتين لتوديعي بعضهم بالزهور والبعض

الآخر بالدّموع. أمّا ليلي فوقفت الى جانبي كما وقفت سابقا أيام النصر وأيّام الهزيمة. وفي وقت من الأوقات وصلت مي المرّ وقد شقّت طريقا لها بين الحشود التي غص بها الرواق ثمّ قرأت إحدى قصائدها الجميلة. وكانت الشاعرة اللبنانية قد وصلت من بيروت صباحا يرافقها بعض الأصدقاء اللبنانيين. وفي الفناء السفلي كان في استطاعتي أن أستمع الى الناس وهم يستعدّون في الباحة لحفل الوداع. حفل يحاكي ذاك الذي استقبلني قبل سنة ونصف سنة. نزلت مع ليلي ثمّ خرجنا الى الساحة حيث راحت الأعلام والبيارق ترفرف في الهواء؛ في حين احتشدت الجماهير قبالة الوزارة.

عندما مررت بالجنود نظرت في وجه كلّ منهم. فإذا بي أشعر بحاجة الى تذكّر كلّ جندي، الى إبقاء معالمه محفورة أبدا في ذاكرتي.

ولكن على رغم نيّتي هذه، بان أمام ناظريّ وجه آخر هو وجه والدي قبل سبعة وثلاثين عاما حين كان في بستان البرتقال، أيّام « موسم » مطاردة مناحيم بيغن، رئيس الإيرغون. فقال لي وهو يعمل في الأرض بين الأشجار : « اريك، يمكنك أن تفعل ما يحلو لك، ولكن عليك أن تقطع لي وعدا بعدم التخلّي ابدا عن أيّ يهوديٍ أبدا ». فقلت في نفسي : « أنظر ماذا يحدث من حولك الآن، يا أريك. فهؤلاء الذين كانوا سابقا ضحيّة سلّموني للجموع وتخلّوا عنّي ».

في الأسابيع والأشهر التي تلت، لم يفارق هذا المشهد مخيّلتي. ومع مضي الوقت، استكانت عواطفي ووجدتني ذات يوم أجلس الى جانب مناحيم بيغن في مكتبه واحسست أنني في حاجة الى أن أشرح له ما انتابني من شعور ذلك اليوم. فاستهللت كلامي بالآتي : « أريد أن أقول لك شيئا. لا أدري كيف تقوّم ما حدث، ولكن أريدك أن تعي حقيقة مشاعري ». فأخبرته عن الحفل وعن ذكريات رغبت في استعادتها وعن أخرى تذكّرتها فعلا. ثم قلت له : « أنت من سلّمني يا بيغن ».

الخاتمة

من المؤكّد ان استقالتي من الحكومة لم تكن نقطة النهاية. ففي مطلع فترة بعد الظهر، كنت مع ليلي في طريق العودة الى المزرعة. ولم أشعر بأنني مُنيت بالهزيمة، إحساس قد يتّسم بالغرابة. فما شعرت به تمثّل بالغضب، في حين اعتبرت ما حصل خيانة، خيانة حقيقيّة ارتكبها أناس لم يقوَوْا على النضال من أجل أمور ناقشوا فيها منذ سنين، أناس أمعنوا في فهم ما يجدر القيام به، ولكنّهم لم يتحلّوا بشجاعة قناعاتهم. وعندما هبّت العاصفة، راحوا يبحثون عن ملاذٍ لهم، فكنت هناك لأوفّر لهم ما يرغبون فيه. وهكذا، شغل الغضب مكانا بين طائفة العواطف التي اعترتني بعيد تقديم استقالتي. لكنّ غضبي لم يكن شخصيا وحسب. فأنا سبق لي أن قلت في جلسة الحكومة إنهم في قبولهم تقرير لجنة كاهان كانوا يضعون بأنفسهم علامة قايين على جبين الشعب اليهودي وجبين دولة اسرائيل، لا على جبيني فحسب.

عندما عدت الى المزرعة أضحت تلك الخواطر شغلي الشاغل. ولكني لمست هدوء ناجعا سرعان ما راح يخيّم على المكان. وبدت عودتي الى كنف أرضي أمرا طبيعيّا، على رغم الوداع الحزين والمؤثّر فما إن جاء اليوم التالي حتى ذهبت الى الحقول واستقلّيت الجرّارة ورحت أتفقّد المزروعات والخراف وصغارها، راسما بيانا عن الأحداث الماضية وساعيا الى إعادة الأمور الى مفهومها الصحيح. في حين حطّت بي رحال أفكاري

غير مرّة عند والديّ وأصولي التي مُنّ عليّ بها. وصُعقت وأنا جالس في مقعدي لمّا وجدتني وزير الدفاع اليهودي الوحيد الذي عاد إلى جرارته ومزرعته بسبب ما فعله مسيحيّون بعربٍ مسلمين.

ومع مضي الوقت، رحت أفكّر جديّا في مغادرة الحكومة فقد قدّمت استقالتي من مهام وزير الدفاع وأصبحت منذ ذلك الحين وزيرا من دون حقيبة. وهكذا صار لا شغل لي سوى النظر الى الحكومة وهي تدقّق وتدرس كلاّ من مشاريعي ومبادراتي — كاتفاقي مع موبوتو، رئيس زايير وغيرها من الاتفاقات التي كنت قد توصّلت إليها مع بعض رؤساء الدول الافريقية.

في ذلك الوقت عشت داخل الحكومة في عزلةٍ عامّة. ولم يعهد إليّ القيام باي مهمّة، ولا حتّى تنفيذ المشاريع الملقاة عادة على عاتق وزراء من دون حقيبة. فبدا لي بقائي في الحكومة مجرّدا من كلّ معنى؛ فرصة حتى يدوم العداء والهمس. ولولا صديقي العزيز اوري دان لربّما غادرت الحكومة. فأوري وقف الى جانبي في معظم المعارك التي خضتها منذ ثلاثة عقود، حين بدأ يغطّي كصحافيّ أخبار المظليين في الخمسينات. خلال ذلك الوقت كان دعمه شاملا، أمّا اليوم فهو جوهري. ففي مساء أحد الأيّام التي ساءت فيها الأحوال وقرّرت تقديم استقالتي، بقي أوري يحدّثني في الموضوع ساعات وساعات رافضا التخلّي عن المسألة.

لذا، من دون أوري دان لربما قدّمت استقالتي. ولكني بقيت. فرُحْتُ أثابر على حضور جلسات الحكومة ثمّ أتوجّه الى مكتبي الواقع في مبنى حكومي مهجور؛ كان مكتبا خاليا في بناية خالية. قرأت في هذا المكتب رسائل تلقّيتها تلك السنة من كافّة أنحاء العالم. رسائل فاق عددها الأربعة آلاف كتبها يهود وغير يهود أرسلوها من اسرائيل وأميركا وبولونيا وهنغاريا وعشرات البلدان. فشكّلت هذه الرسائل في تلك المرحلة دعما معنويّا لا يستهان به وحرصت على الرد على كلّ رسالة تلقّيتها. ومن خلال الإجابة

على الرسائل وحضور اجتماعات الحكومة والعمل في المزرعة وغيرها من النشاطات، تمكّنت من ملء الفراغ في حياتي، وهكذا راح الوقت يمضي.

ما أبقاني داخل الحكومة كان الشعور الذي راهن عليه أوري والذي استشففنا من خلاله أن اسرائيل بدأت تواجه مشاكلها. فأحسست إزاء ضعف ساسة البلاد، والخبث والكراهية اللتين تفشيا بين يهود اسرائيل، والتطوّرات التي شهدها الشرق الأوسط أنّه لا بدّ لي من البقاء. ومادام في امكاني البقاء متيقّظا ومراقبة ما يجري، فلن أبحث عن بديل من خياري.

إكتسبت خبرة كافية حتى أفهم ان الحياة السياسية تشبه عجلة هائلة، تدور بلا هوادة. فإذا بنا تاره في الأعلى وتارة أخرى في الأسفل. لكنّ العجلة تدور وتدور. ويخيّل اليّ اليوم، وأنا في الأسفل، انّ هذه العجلة متقلّبة لا بفعل آراء أناس او بما يفكرون فيه هذا الوقت او ذاك، بل بفعل الظروف والمشاكل المحيطة بنا وأجواء حياتنا القوميّة المتبدّلة. وساءلت نفسي : وزير من دون حقيبة — وبعد ! على الأقلّ، لا أزال عضوا في الحكومة. وتوفّرت أمامي لأوّل مرّة منذ سنين، إمكانية الرجوع الى الوراء والنظر من حولي. ففي شباط (فبراير)، يسود الشتاء في الصحراء. وفي النقب يصطبغ فصل الشتاء بالمشقّة. فإذا بالسماء تتلبّد فجأة بالغيوم متسبّبة بهطول أمطار غزيرة من هنا وهناك. فتتساقط دائما على ما يبدو فوق حقل جارك وقلّما فوق حقلك. ولكنّك تحافظ على هدوئك لأنّ الأمر عندما يتعلّق بالأمطار لا يتذمّر المرء وإنمّا يحمد ربّه. وحين يقبل المطر تهبّ الأرض كعادتها منتصبة للقياه.

لكنّ شعور الامتنان لم يكن من أجل المطر فحسب. فقد رحت أفكّر وأنا أعمل على جرّارتي — أكثر من أيّ وقت مضى — في نوع المنزل الذي عدت إليه. وكالعادة، وجدت فيه ليلي وعمري وغيلاد. وأدركت الآن أكثر من ذي قبل البركة التي مُنّ عليّ بها، بركة تمثّلت بعائلتي،

تلك التي ربّتها ليلي على مدى السنين، فكنا نملك معا ما كان عمري يحبّ ان يسميه « بيتا هو فعلا بيت ».

رحت أتخيّل العناية التي أحاطت ليلي أولادنا بها وهي تربّيهم، وكيف بثّت في هذا البيت حرارة الموسيقى والأزهار والفن. ويطالعك خارج المنزل في الحديقة، كما في داخله، زهور وهّاجة — فيسترعيك احمرار نبتة الجهنميّة القرمزي، واحمرار الأمارلّس القاني ولون الدهلية والسوسن البنفسجي. شكّلت هذه أمورا لطالما أحببتها وكنت اعتبرها الآن جزءًا من كياني. وحين كنت أنظر الى ولديّ كان يخيّل إليّ كأنّني أراهما في ضوء مختلف. ولم نقرر، ليلي وانا، إنجاب طفل آخر إلّا قبل سنة ونصف. وبعد سنوات من الجهود غير المثمرة رحنا ننتظر مولودنا الثالث بحرارة. ولكن في الشهر الخامس من الحمل، وفيما نحن مفعمون بالأمل، مات الجنين فجأة. فاستحوذت علي اعمالي المتراكمة وحوّلت تفكيري عن هذه المأساة، وعن الألم الذي عانيته ولكنّ ليلي تكبّدت العناء كلّه فاحتاجت الى وقت طويل لتتماثل.

على ضوء هذه الفاجعة الغريبة اخذت أنظر الى عمري وغيلاد بعينٍ أولتهما ربّما تقديرا أكبر. كان في وسعي أن استشفّ قوّة الرباط الذي شدّهما الى الأرض التي باتا يعرفان حقولها وأوديتها عن ظهر قلب. كنت فخورا بهما، فخورا بحبّها لبلدهما وبحسّ التواضع والعدل الذي كان يملكه كلّ منهما. أمّا ليلي وانا فشعورنا حيالهما لم يقتصر على حب الوالدين فحسب، وانّما قامت صداقة متينة بيننا؛ وفي هذه الأوقات بدت الصداقة والثقة المتبادلة أغلى من أيّ وقت مضى.

وهكذا، توفّرت أمامي فرصة النّظر الى هذين الولدين وقد شارفا على مغادرة حداثتهما ليصبحا راشدين، كما حظيت بإمكانيّة العمل بجدّ في المزرعة، وتركيز كافّة جهودي في سبيلها. لقد حافظت دائما على ذكرى السنوات الأربع التي أمضيتها في المزرعة، بعد تركي الجيش في ١٩٧٢، وهي سنوات صعبة لكنها غنية بالتجارب المفيدة. أمّا الآن، فعدت الى

ما كنت أقوم به آنذاك، الى مشاطرة الرّعاة والمزارعين شغلهم اليومي وثرثرات النهار. ومرّة جديدة كان العمل جديرا بالعناء. فبعيد مغادرتي وزارة الدفاع حقّقت أعمالا ناجحة، كتزاوج الخروف المحلّي « العواس » والمارينوس المستورَد. فولّد هذا التزاوج نعاجا جمعت بين قابليّة المارينوس على إيجاب التوائم وإنتاج الحليب، وسلوك « العواس » الامومي الممتاز. ولجأنا الى الهورمونات لتطوير تقنيّات تفسح المجال أمام ثلاث ولادات كل سنتين بدلا من ولادة واحدة سنويّا، وما زلت فخورا بالنجاح الذي حققناه. وحظيت بمتّسعٍ من الوقت لأشارك فعليا في تربية أحصنتنا والركوب على الخيل، متعة حرمت منها طول سنواتي التي أمضيتها في الحكومة، وأعادتني عشرين سنة الى الوراء، الى أيّام مزرعة زيفيلي أميت في نهالال، حيث كنا نقطن. والأهمّ من هذا كلّه اننا عدنا ليلي وانا الى قضاء بعض الأوقات سوية، فرأيت في هذه الامكانيّة أفضل ما حصلت عليه.

من الاكيد ان تلك الحقبة لم تكن سهلة. فعمري دخل الجيش والتحق بدورة المظلّيين. لكّن الجوّ الذي ولّدته أعمال لجنة كاهان لم تسهّل خدمته العسكرية. ومع انه لم يتحدّث عن الموضوع أحسست بأن الأمور لا تسير كما يحب. ولكم رغبت في أن أتدخّل في الصراع الذي كان ولدي يخوضه والذي راح يقلقني، ولكنني لم أستطع. خلّف هذا الألم في نفسي، غير أنني اعتقدت بوجود مواقف خاصّة يتعيّن علينا فيها ترك أولادنا يواجهون وحدهم حقائق الحياة. وبما أنني كنت أعرف ولدي، فكرت أنّهم قد يفلحون في تحطيمه جسديا، لا معنويا.

أما غيلاد فواجه بدوره صعوبات في الليسيه. فعلى طول الطريق من تل أبيب الى المزرعة وعلى الطرقات المحيطة بالمزرعة، كانت إعلانات وملصقات تغطّي الجدران والأشجار وقد كتب عليها : « شارون سفاح ». امّا سيّارات الكيبوتزات المجاورة فلم تعد تتوقّف له لتقلّه معها. حتّى ان المزرعة شهدت اعمالا تخريبيّة. فوق رؤوسنا سحابة من البغض. لكّن جيلاد

وعمري برهنا عن عزيمتهما التي لم تعرف يوما معنى الاستسلام.

صعب علي رؤية أسرتي وهي تتخبّط في الذلّ والهوان. ولكني لم أنبس ببنت شفة يوما، بعد أن لمست رغبتهم في مواجهة هذا الوضع بأنفسهم وشعرت بالرّضا لمّا استنتجت أنّ فيهم من القوّة ما يكفي لمواجهة العداوة ومن الحكمة ما يكفي لتحجيمها. لكّن رؤيتهم يتخبّطون على هذا النحو كانت مؤلمة. وشقّ عليّ شخصيّا هذا الواقع لأن الحركة الكيبوتزية (أحد عناصر جبهة حزب العمل) بثّ الجزء الأكبر من هذه العداوة. وعلى رغم الخلافات السياسيّة شدّتني الى الجزء الزراعي من البلاد (المؤلّف من المزارع الجماعية/الكيبوتزيم والقرى التعاونية/الموشافيم) روابط كثيرة احتضنت بين ثناياها ماضيّ الحميم وجذوري.

على رغم المشاكل لم أقف مكتوف اليدين لأشهد دمار حياتي بفعل عواقب صبرا وشاتيلا. وفي ليل ١٣ شباط (فبراير) الذي سبق تقديم استقالتي من وزارة الدفاع، علمت أن قصّة تتعلّق بي أُخذت من آخر عدد لمجلّة التايم سوف تتصدّر الصفحات الأولى من الصحف في اليوم التالي. وعلى ما يبدو، كانت مجلة التايم تزعم أنني خلال لقائي مع الشيخ بيار والرئيس أمين الجميّل، الذي عقد قبيل مراسم دفن الرئيس بشير، أعربت في معرض النقاش « عن حاجة الكتائب الى الانتقام لهذا الاغتيال. » وحسبما أوردته التايم، أُضيف هذا النقاش في ملحقٍ سري الى تقرير لجنة كاهان.

كان هذا كذباً محضاً. فبصفتي المدعى عليه والوزير في الحكومة مُنحت إذناً بقراءة الملحق — وهو سري لأنّه تضمّن اسماء مختلف ضباط المخابرات. كنت أعرف أنه لم يتضمّن أيّ تلميح يشير الى النقاش. كنت أعرف ان هذا النقاش لم يجرِ قطّ وأن مجلّة التايم، على شهرتها العالميّة، كانت تنشر بكلّ بساطة قصّة ملفّقة. فقرّرت في تلك الليلة عدم القبول بمثل هذه الأمور. وفي حال طابقت قصّة التايم ما كان يقال؛ فهذا يعني وجود سبب يستدعي رفع دعواي. رحت أفكّر ان المرء يصل الى وقت يتعيّن

عليه فيه المواجهة والصراع. فعائلتي تتألم، أمّا أنا فتلقيت التهجّمات والتشنيع من كلّ حدبٍ وصوب فأحسست وكأن زمرة من الكلاب المسعورة تطاردني. لقد حان الوقت لإنهاء هذا الوضع.

نشرت صحف اليوم التالي هذه القصة في كافّة أرجاء اسرائيل. ثم وصلني عدد مجلّة التايم. وفي الأشهر التي تلت تقدّمت بدعوى في تل أبيب ونيويورك شانًّا حرباً قانونيّة دامت سنتين. وفي نهاية المطاف قرّر قاضي نيويورك ان المقالة التي نشرتها التايم عارية من الصحّة، كما تنطوي على القدح والذم؛ ومع أن القاضي عجز عن إثبات وجود نيّة جلية في الحاق الأذى بي، فقد أدلى بتصريح خاص يشير فيه الى « الإهمال الذي برهن عنه بعض معاوني التايم والى تصرّفهم غير العابىء » في تحقيقاتهم وتدقيقاتهم. أمّا في تل أبيب، حيث لا يرتبط التشهير بإثبات سوء النيّة والكذب، فقد أصدرت المحكمة فورا قراراً يُدين المجلّة.

خلال تلك الدعوى واصلت عجلة السياسة دورانها ولكن ليس من أجلي فحسب. في ايلول (سبتمبر) ١٩٨٣ استقال مناحيم بيغن من منصب رئيس الوزراء. فمنذ بضعة أشهر والوهن باد اكثر فأكثر على محيّاه؛ فهو لم يعد القائد النشيط الذي عهدناه بالأمس. ورحت أراقب التغيّرات الى جانب سائر أعضاء الحكومة. ولكن سبق لي، على غرار معظم الوزراء، أن رأيت بيغن يمّر بمراحل مماثلة سرعان ما كان يخرج منها سليما. ويجدر بي الاعتراف بأنني لم أكن أتوقّع استقالة بيغن، وإن لم تشكّل مفاجأة بمعنى الكلمة.

سمعت الخبر في الراديو، حين كنت في سيّارتي. فتدافع في ذهني سيل من الأفكار التي اختصرت هذا الرجل كما اختصرت حياته المهنيّة. قام بيغن خلال حياته بأعمال هائلة، كتمرّده على البريطانيين، والمنهج الذي اعتمده في إدارة حزبه طوال تسعة وعشرين عاما، ذلك الحزب الذي قاده

خطوة خطوة إلى أن حقق بيغن انتصاره العظيم سنة ١٩٧٧. أضِف الى ذلك اتفاقية السلام التاريخيّة مع مصر ــ التي لعبت فيها مبادرة بيغن دورا اكبر من مبادرة السادات. وقرار تدمير المفاعل النووي العراقي الذي شكّل ربّما أعظم خطر كان سيهدّد اسرائيل وسائر دول الشرق الأوسط. وانتصاره الثاني في انتخابات ١٩٨١ التي وقف فيها وجها لوجه مع حزب العمل ثمّ غلبه. وبرامج الاستيطان المهمّة في السّامرة واليهودية وغزة والجليل. وقرار إنهاء سيطرة إرهاب منظمة التحرير الفلسطينيّة على لبنان. والاستراتيجيّة المحيطية في افريقيا، التي عرف كيف يفهمها وينجزها، وإنقاذ آلاف اليهود الاثيوبيين (إثر المبادرة التي قام بها بيغن سنة ١٩٧٩)، والتفاني لشرف اليهود وأمنهم، الذي نمّت عنه أدق تفاصيل علاقاته مع رؤساء العالم.

تلك هي الانتصارات التي أنجزت خلال مدّة إدارته. لكنّ تعدادها ابعد من ان يفي الرجل حقه. فعلينا الاعتراف بفضله الكبير في دمج اليهود السفارديم في البلاد، الامر الذي ولّد في اسرائيل الثورة الكبرى الثالثة بعد الحركة الصهيونيّة وإعلان دولة اسرائيل. وقد لعب السفرديم في الايرغون والحيروت دورا ثابتا. ثم انشأ في ١٩٧٧ نظاما ديمقراطيًّا للانتخابات داخل صفوف الليكود، فأفسح في المجال لأوّل مرّة أمام السفرديم ليُسمعوا أصواتهم في حياة اسرائيل السيّاسيّة القومية، وهو إصلاح لن يحذو حزب العمل حذوه إلا بعد خمسة عشر عاما. أيّام بيغن، تغيّرت ظروف الحياة كليا في المدن النامية التي تتألفّ بغالبيّتها من السفرديم، كما شهدت تقدّما ملحوظا على صعيد السكن والتربية والصحة والاستثمارات الصناعية. فنجم عن هذا التغيّر نتائج انعكست في المدن النامية التي ساهمت في بناء الأمّة وأعطتها ضباطا وحكّام مدن واعضاء في الكنيست ووزراء نضحوا جميعا بالشباب ــ جاء هذا كلّه إثر نظام الانتخابات الديمقراطية التي اعتمدها الليكود خلال مدّة إدارة بيغن. وكان هذا الإسهام المهم نتيجة مباشرة من الليبراليّة الفعليّة التي اتّسم بها الرجل وحزبه.

على الرغم مواطن ضعفه ومشاكله وقصّة علاقاتي به المشوبة بالاضطراب، تستحقّ هذه الانتصارات التقدير. وعندما سمعت النبأ في الراديو انتابني حزن اصطبغ بالحنق لما لمسته في صوت المعلّق من رضا. شعرت بالحزن لأنه راحل ولأنّه اختار الرحيل قبل تأمين أمن الحدود الشمالية. أمّا المشكلة اللبنانية، فبقيت هي الأخرى من دون حلّ، واتفاقات الأمن الثابتة من دون إبرام، في حين، لم ينسحب الجيش بعد. مسائل كثيرة تركتها استقالته من دون حل. حقّا، اننا سنفتقد ادارته.

عندما غادر مناحيم بيغن الحياة السياسية ترأس اسحق شامير الحزب وتولّى مهام رئيس الوزراء. واتفق ان سنة ١٩٨٤ كانت سنة الانتخابات، فقرّرت مواجهة شامير ونائب رئيس الوزراء دايفد ليفي في الانتخابات التمهيدية التي تقام داخل الحزب. فرأى معظم من اطّلع على رغبتي انني أخطو خطوة انتحاريّة وانّه لا أمل لي في الحصول إلاّ على ٥ أو ١٠ في المئة من الأصوات كحدّ أقصى. فكان وضعي السياسي يشبه وضع الواقف على حافة الهاوية، أمّا المجازفة بالاشتراك في هذه الانتخابات فكأنها مطلب بدفعي الى الهوّة. ولكنّي شعرت بضرورة الاشتراك فيها ولو من باب معارضة أهل السلطة. والدهشة كل الدهشة عبّر عنها الجميع حينما أعلنت النتائج وتبيّن أنني لم أحصل على ١٠ في المئة فحسب، بل على ٤٢,٥ في المئة (مقابل ٥٦ في المئة حقّقها شامير). فتجلّت بوضوح مكانتي بين الناخبين، مع أنني لم أحظ بأيّ دعم من جهاز الحزب. فترتب على النتيجة التي حققتها أن اشتركت مشاركة فعليّة في حملة سنة ١٩٨٤ الانتخابيّة وقفت خلالها خطيباً في حوالي مئة وتسعين اجتماعاً.

في تلك السنة قسمت الانتخابات البلاد قسمين. وعلى رغم النصر الذي أحرزه حزب العمل، لم يتمكن رئيسه، شيمون بيريز، من تشكيل حكومة.وخلال فترة عدم الاستقرار التي تلت الانتخابات اقترح اصدقاء مشتركون علي وعلى بيريز ان نلتقي سرا ودرس فكرة تشكيل حكومة

اتحاد وطني ائتلافية يتقاسم فيها نوعا ما حزب العمل والليكود السلطة.

جرى الاجتماع في مسكنٍ خاص يقع في ضاحية من ضواحي تل أبيب. وفي طريقي الى الاجتماع كشفت لسائقي ومرافقي عن الشخصية التي سأقابلها، لكنَّ بيريز على ما يبدو لم يحذُ حذوي، فعندما وصلت الى الحديقة وثب مرافق بيريز مذعورا وقد علاه اقتناع بأن خطأ جسيما قد ارتكب ثمّ سألني : « أريك، ألا تدري من هنا ؟ إنّه بيريز ».

على الرغم طبيعة الفكرة التي اتسمت ببعض السذاجة والصعاب التي قد يثيرها الحزبان في وجه العمل سويّة، اجتمعت مع بيريز ورحنا نتقدّم ذلك المساء في اتجاه إيجابي. وفي معرض الاجتماع، درسنا المشاكل الرئيسية وتناولنا تفاصيل ما كان يبدو لنا حلولا مقبولة وأرسينا دعائم مفاوضات مستقبليّة خلصنا في نهايتها الى ابرام اتفاق كامل بين الحزبين.

في غضون ذلك قمت برحلات مكوكيّة بين القدس ونيويورك حيث شارفت الدعوى، التي تقدّمت بها ضدّ مجلة التايم، على نهايتها. وتلقّيت ذات يوم، وأنا في محكمة فولي سكوار، هاتفا يطلب مني الاتصال بشامير كحالة طارئة. فوُضع هاتف تحت تصرّفي في حجرة ملابس القاضي، وعندما اتصلت بشامير راح يناقش لائحة المرشدين عن حزبنا في حكومة الوحدة الوطنية ويسألني رأيي في قبول حقيبة الصناعة والتجارة ومركزاً في الحكومة التي ستتألف من عشرة أعضاء ؟ وقبل الإجابة على سؤاله، نظرت من حولي في الحجرة وقد اعترتني الحيرة من سخرية الحياة. فالأمل ضئيل في أن يكون موضوع تشكيل حكومة اسرائيلية قد بُحث يوما في حجرة ملابس داخل احدى المحاكم الأميركيّة ! وكنت متأكدا أن ما من وزير وجد نفسه عالقا في صراع قانوني مماثل. لكنّ الفرصة غمرتني لأنني أشارك في مستقبل اسرائيل، بصرف النظر عن ماهيته.

بعد مرور أربعين عاما على اقامة دولة اسرائيل، تحوّل هذا البلد من

امّة رائدة الى بلد سوي، اقله ظاهرا. لكنَّ هذا البلد السوي مشاكلُه غير سوية. فما من أمّة في العالم تجد نفسها في وضعنا. وما من ناحية في العالم يعيش فيها اربعة ملايين شخص وقد أحاطهم حوالي مئة مليون عدوّ. هذا هو السبب الذي دفع بإسرائيل الى مواجهة مشاكل غير اعتيادية. واذا ما اردنا البقاء على قيد الحياة، علينا أن نكون قادرين على إيجاد حلول غير اعتياديّة.

ولكن العثور على مثل هذه الحلول ليس بالسهل : فمِثْلُها لا توجد الا في أمّة وضعت نصب عينيها أهدافا قومية واضحة وأبدت استعداد لدفع الثمن اللازم في سبيل بلوغها. ولكن يا لسوء الحظ، بل ربّما يا للفاجعة، فإسرائيل فقدت أهدافها. أصبحنا اليوم بلدا سويا ينتمي الى العالم الغربي. وعلى غرار سائر شعوب العالم الغربي، انحصرت مشاغلنا في إدارة حياتنا. لذا، لم نعد نتحدّث عن الأهداف القوميّة. ويطرح فقدان المثل القومية أو الرؤية القومية في ايّ بلدٍ من البلدان مشكلة ذات شأن. ولكن في حالة اسرائيل الفريدة من نوعها، ينتهي المطاف بالمرء الذي لا يملك أهدافا ليضحّي من أجلها الى فقدان قدرته على العيش.

لهذا السبب غالبا ما أسائل نفسي حول ما يتعين على اسرائيل القيام به، وماهيّة الأهداف التي تلائمها. وقد أعثر على الاجابة في وجودنا كشعب يهودي. يجب أن تكون اسرائيل بلدا يفتخر أبناؤه بطابعهم المميّز، بالشيء الإضافي الذي يملكونه ولا تملكه سائر الديمقراطيّات الغربيّة. فلنعترف أن الحياة في اسرائيل لن تصبح أبدا أسهل أو أمتع من الحياة في كاليفورنيا. ولكن في إمكانها أن تكون مختلفة وتنعم بفخر مميّز.

لا داعي بالطبع حتى نتحدّث عن فخر اليهود. فاليهود أسهموا في العالم إسهاما يفوق التقدير كلّه. فالتوراة، ذلك الأساس الذي ارتكز عليه الدين والآداب في الغرب، لهي إسهام يهودي. أضف الى ذلك ما اعطاه هذا

الشعب في ميادين العلم والطب والأدب والموسيقى. وغيرها من الميادين التي أسهم فيها اليهود.

ولكن، أيمكننا القول ان المواطن الاسرائيلي العادي فخور لكونه يهوديا ؟ لا اعتقد ذلك. فالمرء لا يفتخر الا بما يعرفه لا بما يجهله. فأنا ولدت في اسرائيل وتلقّيت فيها كامل دراستي من روضة الأطفال حتى الجامعة. ولكن أيَّ درسٍ تعلّمته أنا وأبناء جيلي أيّام الدراسة وبثّ فينا الفخر بأصلنا اليهودي ؟ ما الّذي تعلّمناه حقّا من التوراة ؟ وما الذي تعلّمناه حقّا عن تاريخ بلاد اسرائيل ؟ كم يبلغ عدد الناس هنا الذين يعرفون أن هذا البلد شهد استمرارية الحياة اليهودية المتواصلة منذ أزمنة التوراة ؟ في الخارج، غالبا ما تحدّثت الى أناس يعتقدون أن اليهود جاؤوا الى اسرائيل بعيد المجزرة الجماعية. حتى هنا، غالبا ما يظنّ البعض أن مجيء اليهود الى اسرائيل يتزامن وولادة الحركة الصهيونية قبل تسعين أو مئة سنة. كم يبلغ عدد الذين يعرفون أن اليهود شكّلوا الغالبيّة السّاحقة في القدس، عندما أُجري سنة ١٨٤٠ أوّل إحصاء سكّاني ؟ كم من الناس يعلمون ان المتحد اليهودي اصبح في السنوات اللاحقة أهم من المتحدات الأخرى مجتمعة ؟ من يعرف أسماء القرى — القرى العربية في هذا البلد — حيث عاش اليهود قبل مئات السنين ؟ كم انساناً يعرف عدد اليهود الذين لم يرحلوا يوما عن اسرائيل وانّما عاشوا هنا في استمرار من جيل الى جيل ؟ لا يملك اليهود هنا عموما الاجابة على هذه الأسئلة. ولا يعرفون أعظم ما أبدعه الفكر اليهودي : الميشنا والتلمود ولا كبار المفكّرين من موسى بن ميمون الى يهوذا اللاوي وأهاد ها آم والذين يعدّون بين أعظم من أنجبهم العالم. لا يستطيع المرء أن يفتخر إلا بما يعرفه جيّدا. أمّا هذه الأمور فلم يتشبّع بها قلب اليهود الذين ترعرعوا هنا.

قبل بضع سنوات تلقّيت دعوة لإلقاء خطاب في كيبوتز مستقيم العقيدة لمناسبة حلول نهاية عام الشيميتا — السنة الاخيرة من الدورة التوراتية السباعية

السنين، وتكرس تقليديا لراحة الارض وتجديدها. لم أعرف بالتحديد ما يمكنني أن أقوله الى اولئك المتضلعين في العلم والربّانيين (الى خاميين). وفي نهاية المطاف قرّرت أن أحدّثهم عمّا اعتبرته واسطة العقد طوال القرن المنصرم : تطوّر بلاد اسرائيل هذه وارتباطها باليهودية.

استهللتُ كلمتي بالإشارة الى رواد بتاخ تيكفا، بُناة أوّل قرية صهيونيّة. وتساءلت من هم هؤلاء الروّاد ؟ كانوا يهودا مستقيمي العقيدة من اورشليم، يعتمرون « الشتريمل »، وهي عبارة عن قبعة سوداء ذات اهداف من فرو، تعود الى القرون الوسطى. بعد بناء بتاخ تيكفا أسّس اليهود الارثوذكسيون في ثمانينات القرن الماضي هبة صهيون خلال الهجرة الاولى. وكان مهاجرو الموجة الثانية، الذين وصلوا الى البلاد قبل الحرب العالمية الاولى، يستوحون انماطهم الاجتماعية من الحركات الاجتماعية المختمرة في اوروبا، وخصوصاً من الثورة الروسية في العام ١٩٠٥. ولكن خلف هذه المظاهر السلوكية يطالعنا « ييشيفا بوشير » (طلاب المدارس التلمودية) الذين تلقّوا علومهم في المدارس الدينيّة اليهودية التي انشئت في أوروبا الشرقية. بعد الحرب العالمية الاولى تمت الهجرة الثالثة التي ضمت آباءَنا. وهم كانوا جيلا من المتمردين الحقيقيين. ولكن على رغم غيرتهم الثورية كانوا يدركون في قرارة أنفسهم ما معنى أن يكون المرء يهوديا. كانوا يعرفون حضارتهم ويتكلّمون العبريّة. ولو كنت قادرا على اتقان العبرية كما كان يتقنها والدي لكنت فخورا بنفسي. ألّف آباؤنا جيلا من المتمرّدين ولكنهم ضربوا جذورهم في عمق اليهودية.

بدأت المشكلة مع جيلنا. ولأننا كنا ابناء متمردين لم نحصل على تعليم يهودي في تربيتنا. فنجم عن ذلك أنّ فقدَ جيلنا جذوره، مشكّلا بذلك أوّل جيل يعيش من دون أصول. وأسائل نفسي : « ماذا كنا نعرف عن الفكر اليهودي ؟ ما الذي نعرفه عن إسهام اليهود في العالم أم عن وجود اليهود هنا في اسرائيل ؟ ما نعرفه قليل قليل. هل علّمونا الافتخار لكوننا

يهودا، سليلي اولئك اليهود الذين ناضلوا على امتداد الاجيال من اجل معتقداتهم حتى الرّمق الاخير ؟ لا، لم يعلمّونا هذا. وإنما حاولوا أن يكوِّنوا من أبناء جيلنا اسرائيلين جداً لا يهوداً. وتميزنا في هذه السيرورة عن الاجيال السابقة الذين نقشوا اليهودية في قلوبهم.

ولمس العالم الخارجي هذا الواقع. فخلال رحلاتي الى الخارج، في الخمسينات والستينات، استشفّيت رغبة الآخرين في اعتباري اسرائيليا لا يهوديا، في إظهار الفرق بين اللفظتين. وخيّل إليّ انهم يقولون لي : أنت اسرائيليّ. أمّا اولئك الكائنات المقيمون هناك، بملابسهم الغربية وعاداتهم غير المألوفة، فهم يهود. من ناحية معينة كان اعتباري اسرائيليا اسهل عليّ ولكنّه مخفوف بالمخاطر. فهو إشارة الى اننا فقدنا أصلنا اليهودي. ومن جهتي، لم يخطر قطّ في بالي، لا في تلك الظروف ولا قبلها، اننا نستطيع البقاء هنا في حال لم نكن سوى اسرائيليين. فتعلّقنا بأرض اسرائيل وتماثلنا بها انما ناتجان من أصلنا اليهودي. انا يهودي : هكذا كنت افكر بالامس وهكذا افكر اليوم. ولا يعني هذا انني متدين. والواقع انني لست متدينا. فقد غابت عني أمور كثيرة تتعلّق بممارسة اليهوديّة. ولكنّي مدرك خير إدراك أنني يهودي أوّلا وقبل كلّ شيء، وبعد ذلك فقط انا اسرائيلي وكل الباقي.

هذا ما تحدّثت عنه في هذا الكيبوتز المتديّن. وقلت لهم : بدأت مشاكل جيلي عندما فقد جذوره. ثمّ جاء من بعده جيل آخر يمثله أولادنا، وجيل ثالث هو جيل أحفادنا. وفجأة راحت الشكوك التي ولدت معنا تكبر شيئا فشيئا. وبدأت التساؤلات : ترى هل هذه البلاد لنا ؟ هل نحن واثقون تماما من اننا لم نستولِ على ارض تخص غيرنا ؟ او هل نحن نسرق ما لا حق لنا فيه مطالبين به ؟ وكلّما ترسّخ الشك توارى العزم والتصميم.

ولكن على رغم كلّ شيء ثمّة ما يدعم اليهود. دعم يعترف به حتى من ليس متدينا. وإلّا، كيف تمكّن هذا الشعب من البقاء على قيد الحياة

طوال آلاف السنين وقد عاش في المنفى والشتات مضطهدا ومعذّبا ومطاردا من كل حدبٍ وصوب ؟ ثمّة شيء يدعم هذه الأمّة. فعندما نمرّ بأوضاع متدهورة نشارف فيها على الاستسلام، تبرز فجأة ردّة فعل. وفي سنة ١٩٧٢ اتّخذت ردّة الفعل شكل حركة غوش ايمونيم. فمنذ ستة عشر عاما وأنا أتتبّع هذه الحركة. فشهدت اسرائيل في السنوات الأخيرة لمسة أضفت عليها بعض التغيير، على رغم صغر حجم هذه الحركة.

باستثناء غوش ايمونيم، لم يعد يوجد في المزارع الجماعية والقرى التعاونية من في امكانك ان تقول له : « نحن في حاجة غدا صباحا الى شاحناتكم وجرّاراتكم. نحن نحتاج اليها من اجل إنشاء مستوطنة جديدة » هنا كانت تكمن قوّة المجتمع اليهودي في الأربعينات والثلاثينات. كان في وسعك آنذاك ان تطلب العون من اي كيبوتز وموشاف. حاول اليوم ترَ ما يكون الرد. لكنك اذا توجهت الى متحد من متحدات غوش ايمونيم وقلت لأبنائه (كما سبق لي أن فعلت عندما كنت مكلّفا برامج الاستيطان في السامرة والجليل) انك تحتاج الى معدّاتهم ومقطوراتهم لإيواء أسر غير أسرهم، تراهم يبادرون من دون التفوّه بكلمة الى مغادرة منازلهم مصطحبين اولادهم ومعدّاتهم، فيذهبون للمبيت عند أصدقائهم، ويكرّسون وقتهم وعملهم في سبيل إنجاز ما يتعيّن إنجازه. إنهم يجسّدون الروح التي أحيت البلاد في ما مضى.

تزامن هذا التجدّد مع وصول ما أطلقنا عليه في اسرائيل حركة هوزريم بيتسحوفا — (العودة الى الجذور) — فإذا بأناس متأصّلين في علمانيّتهم — كأعضاء الكيبوتزيم والطيارين والأطباء والفنّانين والمظلّيين — يتخذون قرارا بالعودة الى الاستقامة الدينية كأن شيئا ما يشدُّهم الى أصلهم اليهودي، وكأن ثمة حاجة الى إعادة ارتباطهم بجذورهم. وفجأة تراهم يجعدون جدائلهم على الطريقة الارثوذكسية[١] ويكتشفون انهم قبل ان يكونوا

(١) تفهم كلمة « الارثوذوكسية » هنا بالمعنى الاشتقاقي : استقامة العقيدة او الرأي — المترجم.

اسرائيليين هم يهود اولاً. وليس هذا التحول بركة كاملة في نظر دولة اسرائيل، لان بعض هؤلاء المرتدين يغالي في التطرف، الامر الذي يطرح مشاكل من نوع آخر. ولكن في وسعنا عموما أن نسجّل إشارات تنبىء بتحول جديد. فالصهيونيّة واليهودية اللتان انطلقتا سويّة راحتا خلال قرن من الزمن تلتقيان. لتكتمل بهما واسطة العقد.

انني ارى ان اعادة التأكيد على التماثل بين اسرائيل واليهودية هو شرط بقائنا. ليس على اليهود جميعهم العودة الى السراط المستقيم، ولكن يتعيّن على هذه البلاد ان تكون دولة يهودية أوّلا، أمّا اليهود فعليهم أن يفتخروا بكونها يهودية وبكونهم يهودا. وعلى سبيل المثال : حين انتخب بيغن رئيسا للوزراء توجّه الى الولايات المتحدة في زيارة رسمية. فأُقيم حفل وداع رائع في مطار بن غوريون، حيث راحت الأعلام والرايات ترفرف في الهواء، والطائرات تحلّق فوق المدرج في حضرة كافّة الشخصيّات. وبعد أن صافح بيغن المدعوّين جميعا، استعرض الرّايات والبيارق، تمّ وصل أمام العلم القومي، فتوقف وانحنى.

بثّت الإذاعات هذا الحفل مباشرة، كما نقلته الصحف. وكانت التحقيقات مشوبة بعنصر تهكّم، وكأنها تسخر من انحناءة بيغن أمام العلم. وبعد مضي سنوات تمّ توقيع اتفاقية سلام بين مصر واسرائيل. بعيد هذا الحدث توجّه الرئيس السادات الى دير القدّيسة كاترين الواقع في جنوب سيناء، لحضور حفل رسمي سيرفع خلاله العلم المصري ليرفرف من جديد في سيناء. لم أشارك في هذا الاحتفال، ولكني استمعت الى التحقيق الذي بثّته الإذاعات. فراح الصحافيون يصفون كيف أن ضابطين مصريين، مديدَي القامة، يحمل كلّ منهما سيفا، كانا يواكبان ضابطا ثالثا حمل العلم المصري. ويتابع الصحافيون واصفين كيف اقترب الضباط من الرئيس السادات وكيف انحنى السادات وقبّل علمه. وفضحت أصوات الصحافيين الحماسة التي اعترتهم وهم ينقلون هذا المشهد. وبدا هذا طبيعيا. فمصر شهدت ذلك اليوم حدثا

عظيما وجسّد العلم الوطني المصري رمز ما مثّلته تلك اللحظات. وصفت الإذاعات الاحتفال بالعاطفة والأنفة اللتين تليقان به. وبالعاطفة والأنفة نفسها أظهرت الإذاعات تهكّمها عندما انحنى بيغن امام العلم الاسرائيلي. في رأيي ان المشكلة كلها تكمن هنا. لا في أمنٍ ولا في اقتصاد ولا في مؤتمر سلام يقام مع تغطية دولية او من دونها، وانمّا في هذا؛ فإذا ما توصّلنا الى حلّ هذه المشكلة سنتمكّن من حلّ كافّة المشاكل الأخرى.

على الطريق المؤدية الى مزرعتي يقع كيبوتز روحاما الذي اكتسب اليوم حجما وازدهارا فاقا ما كان عليه عندما رأيته للمرّة الأولى سنة ١٩٤٥. خلال المحادثات التي أجريتها مع أعضائه عدت بالذاكرة الى اهلهم وقد اعتمر كل منهم قبّعة غربية ولبس سروالا مضحكا، في ما كان يعتبر آخر العالم. ولكن ما من أحد تجرأ وسرق منهم أقلّ الأشياء. عاشوا في عزلة عن العالم، محاطين بالقرى المعادية، ولم يتجاوز عددهم العشرين أو الخمسة والعشرين يهوديا مقابل آلاف وآلاف العرب. غير أن عرب الجوار كانوا يحترمون هذه المجموعة الصغيرة. مجموعة كان أبناؤها جدا لا غرباء. فقد راحوا يتصرّفون وكأنّهم يملكون البلاد منذ آلاف السنين، وكان ما من احد يجرؤ على سلبهم أيّ شيء أو جلب قطيعه ليرعى في حقولهم. وأخذوا يجوبون الاودية والهضاب وهم يعلمون أنهم أسياد هذه الأرض. كان زيهم مثيرا للضحك ولكنهم تصرّفوا كما يتصرّف الملوك والملكات.

واردفت قائلا : انا اعرفكم الآن؛ من الجيش اعرفكم. انتم طوال القامة، شعركم اشقر وأعينكم زرق. تلقيتم تعليما واطلعتم على المعلوماتيّة وأنظمتها والدارات المتكاملة. منكم طيارون، وقادة كتائب وضباط كبار. ولكن انظروا الى ما يجري من حولكم. فعند الغسق، حين لا يزال النور مخيّما، تكونون قد اصبحتم داخل محيط المصابيح التي تضيء أسوار بيوتكم. ولم تعودوا تسيطرون : تسرق املاككم وترعى قطعان غريبة في حقولكم من دون ان

تحركوا ساكنا. انظروا الى ما حصل هنا خلال خمسة واربعين عاما، انظروا الى ما حدث. فها هنا تكمن المشكلة.

هذان التدهور وفقدان معنى ماهيّتنا لم يَنشأ في غضون سنة وانّما تدريجا. لذا تستحيل معالجتهما بإصدار أمر أو تعليمات. فما نحتاج اليه يتمثّل بمشروع طويل الأمد. وفي الظروف التي تجتازها لن نحصل على دولة مستقلّة إلّا إذا كانت يهودية. هذا هو الأساس الذي ترتكز عليه مطالبنا بهذه البلاد. لكنّ هذا يشكّل في حد ذاته مشكلة. كلمة يهودي تعني ارثوذكسية ؟ لا، فمعظم اليهود ليسوا ذوي عقيدة مستقيمة. إذاً، اين نعثر على الاجابة ؟ في الوقت الحاضر لا يطالعنا في العالم اليهودي قادة روحيون مقبولون من الجميع. وليس من زعيم روحي تقبل سلطته غالبية الشعب اليهودي. فلنستخلص النتائج من هذا الوضع، مع ما في ذلك من تعقيد ولكن على رغم هذا التعقيد يبدو لي واضحا تماما ان الخطوة الاولى نحو الشفاء من مرضنا هذا يجب ان تحصل في ميدان التربية. ويجب ان يكون الهدف الأوّل أن يحظى الشباب الاسرائيليون بأنفسهم كيهود وبالعيش في دولة اسرائيل اليهودية. هذا ما يشكّل حجر الأساس.

ولكن أن نفهم تجربة اليهود التاريخية وإسهامهم التاريخي لا يشكل سوى نقطة الانطلاق. فالأهداف التي نحتاج اليها لا علاقة لها بالماضي، بل بالحاضر والمستقبل. وبالطبع، مذهلة هي الانجازات التي حقّقها الشعب اليهودي في اسرائيل. فنحن بنينا ما يزيد عن ألف مدينة وقرية وبلدة. وأدخلنا في مجتمعنا مليوني مهاجر أتوا من مائة بلد وبلدين وكانوا يتكلّمون اثنتين وثمانين لغة فتعلّموا كلهم اللغة العبرية. وطوّرنا أحد الأنظمة الزراعية الأكثر تقدّما في العالم. وحقّقنا انجازات مهمّة في الصناعة. وشيّدنا المدارس والجامعات والمستشفيات، فكانت قدوة يحتذى بها. وكنا في الكيبوتزيم والموشافيم روّادا في حقل بعض التجارب الاجتماعية والاقتصادية التي تستحقّ تقدير تاريخ الانسانية. واليوم نحن مجهزون بأحد أفضل جيوش العالم،

الذي بفضله أحرزنا الانتصارات العسكرية الباهرة. وتجدر الإضافة هنا أن القلق البالغ سوف يساورنا في حال لم نحرز سوى الانتصارات العسكرية وفي حال تحوّل مجتمعنا الى مجتمع عسكري عقيم. لكّن اسرائيل، خلال الوقت الذي أجبرت فيه على العيش والسيف في يدها، حقّقت العجائب في ما يتعلّق بتكوين الأمّة. فنحن بنينا الديمقراطية الوحيدة في هذه البقعة من العالم.

ومع ذلك نسائل أنفسنا : ما العمل حتى تكون اسرائيل مختلفة وحتى تؤمّن مصدر إلهام لا ينبض ؟ حسبما يخيّل إلي، في استطاعتنا تحديد بعض الاتجاهات الممكن سلوكها، وذلك إذا عدنا الى الميادين التي اشتهر وبرع فيها اليهود والمعروفة « بالمهن اليهودية ». فإسرائيل تستطيع مثلا ان تصبح مركزا علميّا عالميّا، او مركزا طبيّا عالميّا او مركز موسيقى وتربية. في العالم ميادين اشتهر بها اليهود لأسباب تاريخيّة، وحقّقت اسرائيل من خلالها سمعتها فاحتوى رصيدها إنجازات مذهلة. عندنا في رحبوت، معهد وايزمن للعلوم الذي يعتبر أشهر المؤسسات العلميّة في حقله. غير اننا لو زودناه موارد وفق اولية وطنية لكان عندنا معهدان او ثلاثة معاهد بدل معهد واحد، او على الاقل مؤسسة اكبر مما عندنا الآن. ونملك فرقة فيلهارمونية عريقة في فنها، تعتبر احدى افضل المجموعات الموسيقيّة في العالم وربّما سفيرنا الأكثر فاعليّة. وتنجب اسرائيل في انتظام عددا من أبرع الموسيقيين الشباب وأشهرهم. وكان في امكاننا تأليف فرقتين موسيقيتين، احداهما تقوم بجولة في الخارج وثانيتهما تعمل في اسرائيل. ولكان في وسعنا انشاء كونسرفاتوار موسيقي يتمتّع بشهرة عالمية. هنا ايضا نستطيع أن نجعل من ذلك احدى اولياتنا القوميّة.

يشكّل الطب ميدانا آخر تتجاوز فيه قدراتُنا حجمَنا تجاوزاً كبيرا. وكثيرا ما نتكلّم عن السلام وعن سبل إحلال السلام وشروط السلام. غير أن السلام سيرورة تتطلب وقتا. ولا يمكننا أن نقول : سنصنع السلام وإليكم

المراحل : أ ـــ ب ـــ ج ـــ د. علينا، بدلا من ذلك، التحدّث عن سيرورة تسعى الى انفتاح العلاقات والمحافظة عليها. والطب هو احد السبل التي من شأنها إطلاق هذه السيرورة. وقلّما يعرف الناس ان عربا من كل الشرق الاوسط توافدوا الى اسرائيل خلال حرب الايام الستة طلبا للمعالجة. جاؤوا من المملكة العربية السعودية والعراق وإمارات الخليج الفارسي ومصر والاردن وحتى ليبيا. فإذا بنساء عاقرات طول سنين يجدن في اسرائيل دواء لعقمهنّ. ولا بدّ لكلّ من عولج في اسرائيل أن يكون قد حمل شيئا ما في قلبه لدى عودته الى دياره، شيئا أقوى من كافّة الاتفاقات المبرمة.

خلال لقائي الأخير بالرّئيس السادات في مصر، قبل اغتياله، اقترح الرئيس المصري تشييد نصب تذكاري للسلام على الحدود نصفه في اسرائيل ونصفه الآخر في مصر. ولكنْ جالت في بالي فكرة أخرى، فقلت له : لم لا نبني مستشفى مصرية ـــ اسرائيلية، يكون نصفها في الأرض المصريّة والنصف الآخر في الأرض الاسرائيلية، ويداوم فيها أطباء مصريّون واسرائيليون وممرّضات مصريّات واسرائيليّات، ويؤمّها مرضى يأتون من كافة الشرق الأوسط ليتعالجوا فيها. ستشكّل هذه المستشفى افضل نصب تذكاري ممكن، وافضل رمز لِما يستطيع الاسرائيليون والمصريّون، الذي يعيشون في سلام، ان ينجزوه معا.

على رغم مشاكلنا، بنينا مراكز طبيّة في منتهى الجمال. نجحنا النجاح كلّه حتى أننا أهّلنا عددا من الأطباء يفوق ما تحتاج اليه اسرائيل لكفاية حاجاتها. فأدّى ذلك الى رحيل الأطباء (والعلماء والموسيقيين) عن اسرائيل. وكثيرون منهم يعتقدون انه يفتقدون هنا امكانية الإبانة عن عملهم. فالبلاد تبدو بالغة الصغر فيما العالم حولهم يشرع ابوابه لمواهبهم. ويتكلم الأطباء في اسرائيل لغة زملائهم في الولايات المتّحدة. كما يتكلّم العلماء والموسيقيون اللغة عينها. إذاً، على الصعيد المهني، يمكنهم الذهاب حيث تتوفّر أفضل الفرص وحيث يمكنهم تحدي ذواتهم نحو الافضل. ودائما ما نسمع اللازمة

عينها : « انه اسرائيليّ ولكنه لم يعد يعيش هنا. وانّما يأتي الى اسرائيل ليعزف الموسيقى، ويقدّم الحفلات الموسيقيّة في سنةٍ سبتيّة، ولكنّه يعيش في نيويورك ». هذا محزن، لأننا نعلم أن أبناء الجيل اللاحق لن يعودوا اسرائيليينّ ولن يأتوا ليعزفوا الموسيقى ولا ليعلّموا. ولكن، في حال تمكّنا من اعطاء الاسرائيليين الراسخين في الأصول القومية امكانيّة ممارسة مهنتهم في اسرائيل والخارج، وفي حال استطعنا ان نجد ونموّل برامج تبادل دولي ومنح جامعيّة ودعوات، وفي حال تمكّنا من توفير الأموال اللازمة، سنستطيع عندئذ المحافظة عليهم كإسرائيليين.

تتمثّل هذه البرامج المذكورة آنفا بمشاريع متشعّبة وطويلة الأمد. وفي وسعنا تحقيقها في حال لم ترتبط نظرتنا إليه بقيمتها كمشاريع وانّما بأهميّتها كأهداف قومية، كنشاطات هي مصدر وهي ومدعاة فخر الأمّة كلّها. على هذه المشاريع أن تسير في اتجاه انجازها لا على غير هدى ويجب أن يُنظر إليها كأهداف قوميّة معلن عنها.

مثل هذه الأهداف تبثّ في البلاد شعورا بالمرجع وبالهويّة. وسيساعد هذا اسرائيل في حلّ احدى مشاكلها الرئيسية : ايجاد السبيل الكفيل باستقطاب دفق مستمّر من المهاجرين اليهود. ففي السنوات الأربعين الأخيرة، شكّلت اسرائيل ملاذ اليهود الذين وقعوا ضحايا التمييز العنصري واضطهاد البلدان التي عاشوا فيها. لكنّ معظم النّاجين والمهجّرين من اوروبا، والأقليّات التي رزحت تحت نير العالم العربي شدّت رحالها وهاجرت الى اسرائيل. وحتى تتمكّن هذه من الاستمرار في استقطاب اليهود عليها أن تتّسم بصفات مميّزة وتحفز اقامة حضارة يهودية فريدة، مثيرة، ملهمة.

لو كانت اسرائيل بلدا سويا فحسب لكان تأثيرها غير ذي شأن. فاسرائيل تحتاج من أجل بقائها الى القوّة الباطنية التي تبعثها الرؤية القوميّة. على هذا البلد أن يكون رؤية قومية بجذب المخيلة اليهودية. وعليه ايضا ان يتحلى بهذه الرؤية ليحتمل مكانا له بين أعضاء المجتمع الدولي. لقد سبق

لاسرائيل ان أرست دعائم واكتسبت شهرة تخوّلانها ان تحتل مكانها المتميز والمنتج بين دول العالم، وخصوصا دول العالم الثالث.

حاليّا، نستطيع رؤية العالم الثالث وهو يأخذ ببطء مكانه كجبّار على السّاحة العالميّة ولا تشكّل اسرائيل في نظر عدد من هذه الدول النامية سوى لوح مصقول، فالصين والهند وغيرها من الدول لم تربطها بالشعب اليهودي اي علاقة. ولا يوجد في دول كهذه خلفية من الشعور بالاثم او الكراهية او التعصب الديني؛ كما لا يوجد فيها شيء من الذات التاريخي الذي يسم علاقات اسرائيل بدول اخرى. فماذا تستطيع ان تفعل لهذه الدول « المحايدة »، واي انماط حلول يمكننا ان نقدّمها اليها في سبيل مساعدتها على حلّ مشاكلها ؟

في هذا الميدان سأختار الزراعة. اكتسبت اسرائيل خلال تاريخها الحديث خبرة مميّزة في حقل التطوّر الزراعي، خبرة في امكانها ايجاد حلول مشاكل التغذية العالمية. ولا تتمثّل المشاكل بنقص الموارد، فالعالم يملك ما يحتاج من القوت. ونحن لا ندنو من نهاية قرن يهدّده نقص فائق ومتعاظم في المواد الغذائية. على العكس، في العالم فائض هائل في المواد الغذائية، ووفرة تسبّبت بهبوط الأسعار وإضراب الفلاّحين في البلدان المتقدّمة. غير أن هذا الفائض لم يساعد مناطق العالم التي تعاني المجاعة ولم يصل إليها. وليس مردّ ذلك الى صعوبة وسائل النقل اللوجستيّة فحسب. وانّما الى مشكلة اجتماعية وثقافية طالت المناطق التي أصابها القحط. على الناس أن يتعلّموا كيف يعملون وينتجون في ظروفٍ جديدة، كما يتعيّن إعادة بناء اقتصادهم الزراعي.

في هذا الميدان تتمتّع اسرائيل بكنز هائل من الخبرة، وهي مستعدّة لمنح حصيلة هذه الخبرة. فقد نجحنا في أن نجعل من أناس كانوا يفتقرون الى أدنى التقاليد الزراعية مزارعين من الدرجة الأولى. وأخذنا أشخاصا ألفوا الوسائل التي كانت معتمدة في القرون الوسطى وصنعنا منهم فلاّحين يتقنون

استخدام أحدث التقنيّات. واستقبلنا مهاجرين يهودا لم يسبق لهم أن تصوّروا مجتمعاً صناعياً حديثاً ولا حتى في احلامهم الخصبة. وفي غضون بضع سنوات نجحوا في الدخول الى المصانع المتطوّرة والفروع الزراعية المتقدّمة تكنولوجيّا. نحن، إذاً نتمتع بخبرة نقدّمها الى الآخرين.

في الواقع، تعمل اسرائيل منذ خمسة وثلاثين أو أربعين عاما في قرابة مئة بلد تنتمي الى العالم الثالث، فصبّت جهودها خصوصا في قطاعي الزراعة والتخطيط، ويرتكز هذا العمل على اساس التعاون. أمّا تلك البلدان فلم تربطها يوما باسرائيل اية علاقات ديبلوماسيّة. وكما أشرت آنفا، جاء قرابة خمسة وثلاثون ألف عامل لقضاء مدة تدرّج في اسرائيل حتى يتعوّدوا على أنظمتنا، وقمنا بإعداد ما يتراوح بين الخمسة والثلاثين والأربعين ألف عامل في بلادهم.

هاكم مثلا حديثا على هذا : قبل سنتين، ذهبت الى كولومبيا لإجراء تحقيق حول امكانيّات التعاون الصناعي والزراعي ـــ الصناعي. اتفقنا على تقاسم التمويل بالمناصفة. فراح الخبراء يأتون الى اسرائيل وخبراؤنا يذهبون الى كولومبيا، فأدّى ذلك الى قيام شبكة من العلاقات والروابط والمصالح المتبادلة. وبصفتي وزيرا للزراعة، وقّعت سلسلة اتفاقات مع عددٍ من البلدان تمثّل القارات الخمس، لاسيّما اميركا الجنوبية وافريقيا. ولكن لايزال الكثير أمامنا لنقوم به.

أودّ حاليّا، على سبيل المثال، الشروع في برنامج لتحلية مياه البحر، يقوم بالاشتراك مع بلدٍ أو اكثر. فنحن تبوأنا مركز الصدارة في هذا الميدان، ولربّما ما زلنا البلد الأوّل. ويتسم حلّ مشكلة إزالة الملح من مياه البحر بأهمية بالغة. ويشكّل تسخير موارد بلدين في سبيل تحقيقه عملا مربحا على الصعيد الاقتصادي، وعملا انسانيا مشرّفا. فعلى الامة القيام بمشاريع كبرى لتشجيع اقتصادها وتقدّمها التكنولوجي، ولا سيّما رؤيتها التي تكوّنها عن نفسها. لكن هذه المهمّة لا تلقى على عاتق وزير واحد او رجل

واحد. ونتساءل هنا. كيف لنا أن نحسّن غلّة المحاصيل والبنية التحتيّة وانتاج المواد الغذائية والتخطيط والإعداد المهني والصحّة ؟ في سبيل تحقيق هذا كلّه، نحن في حاجة الى مفهوم قومي شامل، يحدّد المساعدة الزراعية والتطوّر في الخارج كأوّليات قوميّة. يجب الاّ تقوم سمعتنا على السيف وانّما على سكّة المحراث. على رغم هذه المواضيع الخطيرة والمقلقة، من الحيويّ بالنسبة الى اسرائيل أن تحدّد منهج إسهامها في العالم لأسباب مادية ومعنوية : من أجل المنافع الاقتصادية، ومن أجل صورتها في العالم، وصورتها في أعيننا. وعندما أتكلّم عن اسرائيل المثيرة للاهتمام والمميّزة، فهذا هو نوع الأشياء التي ارغب في رؤيتها تتحقّق.

لا يمثّل إنشاء اسرائيل المستقبل، التي تتمتّع بقدرة معنويّة ورؤية قومية تؤمّن لها بقاءها، مشروعا اسرائيليا فحسب. فبين اسرائيل والشعب اليهودي في الخارج ارتباط وثيق جوهري. واسرائيل لن يكتب لوجودها وديمومتها البقاء طويلا من دون الشعب اليهودي الموجود في المهجر. غير اني لا اعتقد، استنادا الى المبدأ عينه، ان الشعب اليهوديّ يمكنه البقاء يهوديّا من دون اسرائيل. لا يمكننا أن ننكر نجاح هذا الشعب في الصمود من دون وطن في الماضي، فراح ابناؤه يحلمون بهذا الوطن في أحلام يقظتهم. امّا في صلواتهم اليوميّة فكان اسم بلدهم تردّده شفاههم مرارا وتكرارا. بلدٌ احتضن كافّة آمالهم وتطلّعاتهم وذكريات جسّدت حياتهم ماضيا وتوقهم الى معاودة تلك الحياة مستقبلا. فوحّدهم هذا خلال الظروف المريعة التي عانوها وأبقاهم محافظين على يهوديتهم.

لكن العالم اليوم مختلف والحلم تحقّق. ربّما ليس على النحو الذي رغبوا فيه، فهم كانوا يصبون الى الكثير. إلاّ ان الهدف الذي سعينا الى نيله طوال ألفي عام استحال حقيقة في نهاية المطاف. وفي حال اضمحلال هذا الهدف، ألا وهو دولة اسرائيل، سيتلقّى الشعب اليهودي صدمة قد

لا يتعافى منها. عندئذ أيضا لن يساورنا أيّ شك في استحالة بلوغ هذا الهدف في يوم من الأيّام مجدّدا.

لذا تترتّب على يهود اسرائيل ويهود المهجر مسؤولية متبادلة. فاسرائيل ليست مشروعا اسرائيليّا فحسب، بل مشروعا يهوديا عالميّا. وبسبب العزلة التي تعيش فيها إسرائيل والأخطار الجسيمة التي تحدق بها، يجب بذل جهاد شامل في سبيل تنظيم قوّة الشعب اليهودي العظيمة. تلك هي كلمات لا أنفك أذكرها خلال رحلاتي الى الخارج. قبل ثلاثين عاما، اقترحت هذا الموضوع على بن غوريون وليفي اشكول وغولدا مائير كما عرضته بالتفصيل على اسحق رابين حينما كان رئيسا للوزراء. في العلاقات الدوليّة يفتقر اليهود الى الموارد المالية الضخمة. فتجمعّات رؤوس الأموال الكبرى في العالم لايسيطر عليها اليهود. غير أن الشعب اليهودي يتمتّع بالنفوذ وموارد أخرى تفوق عدده. وما من أحد كوّن فكرة تناولت موارد اليهود عن كثب. ونسائل أنفسنا : هل نملك لائحة بالألف أو الألفين يهودي الأكثر نفوذا في العالم ؟ كلاّ، لا نملك ايّ شيء من هذا القبيل. ماذا نعرف عن اليهود الذين يشغلون مراكز الصدارة في وسائل الاعلام والاعلان عبر العالم، أو مكانة موموقة في الطب او في الحياة الثقافية ؟ فمثل هذه المعطيات لم تجمع يوما. من هم كبار العلماء اليهود ؟ أين هم ؟ بماذا يكترثون ؟ أيأتون لزيارة اسرائيل ؟ هل لهم أقارب فيها ؟ من هم كبار الأطبّاء ؟ وماذا عن رجال السياسة ؟ من يعرف عدد المتعهّدين والمهندسين اليهود وهويّاتهم ؟ كيف لنا التعرّف اليهم ؟ كيف سنتمكّن من التحدّث إليهم وبثّ روح الجماعة فيهم ؟ فمعظم هؤلاء ليسوا على اتصال بحركة النداء اليهودي الموحّد أو غيرها من الهيئات الانسانيّة. ولم تغطِّ تلك المجموعات الانسانيّة الا جزءا يسيرا من الحياة اليهوديّة، جزءا تناول بعضا من عالم الصحافة او الحياة العلمية او الأكاديميّة. غير أن هؤلاء الناس يعرفون جذورهم ولهم علاقات وديّة ومصالح. وهم ايضا يرغبون في التعلّم والتعليم. ونتساءل ترى

ما هو السبيل حتّى نضمّهم إلينا من اجل تعبئة هذا القدر الهائل من الموهبة والطاقة الكامنتين فيهم ووضعه في تصرّف المشروع اليهودي العالمي المرتبط بهم ولو ارتباطا طفيفا ؟

لا يمثّل هذا سوى جزء من مشكلة جسيمة تعانيها اسرائيل والتجمّعات اليهودية في ما وراء البحار، جزء لا غير من سؤال مطروح لمعرفة السبيل الى الحصول على الدعم والتعاطف. وحتى نحقق هذه المهمّة، يتعيّن علينا أوّلا إيجاد مصدر الدعم. ثانيا، تحديد الأهداف والمثل العليا التي تعزّز شعور الانتماء الى هوية يهودية واحدة. اخيرا، لا بدّ من فتح مجالات تمنح فرصة التعبير عن هذه الأهداف والمثل. وفي هذا الميدان يطالعنا كثير من العمل نؤديه. فأنا أرغب في التوجّه الى الجالية اليهودية في لوس انجلوس أو فيلادلفيا وأعلن مجاهرا : « نريدكم أن تبنوا مدينة في اسرائيل. أترون تلك الأرض، إنّها لكم. افعلوا بها ما يحلوا لكم، على طريقتكم ووفق مفاهيمكم. إبنوا هذه المدينة أينما تشاؤون : « في الجليل او في صحراء اليهودية او في النجف او في السامرة او في ايّ مكان آخر. خذوا هذا الجبل او قطعة السهل هذه، واصنعوا منهما شيئا ».

سنة ١٩٨١ شرعنا في عمل من هذا القبيل، هو مشروع قناة تربط بين البحر المتوسط والبحر الميت. فجمعنا مئة مليون دولار في سبيل هذه الغاية، ثمّ بدأنا التنفيذ. وكان من شأن هذه القناة أن تشرّع أبواب النقب أمام السياحة والصناعة. الا انه من سوء الطالع أنّ حكومة جديدة تبوّأت سدّة الحكم سنة ١٩٨٤، فبقي المشروع حبرا على ورق. لكّن هذه المشاريع لا تزال ممكنة. ولا بدّ من إنجازها من دون ان يرتكز هذا الانجاز الى قاعدة حزبيّة. لابّد من بذل جهود طائلة في سبيل تحقيقها. ولا بدّ من التحلّي بالقدرة على التجرّد من مشاكل الحياة اليومية وأزماتها. لابدّ من تحديد ما نسعى إليه تحديدا دقيقا ومن وضع الخطط وتنفيذها. على أحدهم ان يأخذ هذه المهمّة على عاتقه، ربّما « وزير للشؤون الخارجية لما وراء

البحار »، أحدٌ نعهد بهذه المهمة إليه، كأوّلية قوميّة جديرة بذلك.

يكمن شرط بقائنا الأوّل في أن نصنع من اسرائيل أمّة يهودية، تملك أهدافا متفقا عليها، وتدرك هويّتها والاتجاه الذي ستتقدّم فيه. لكّن اسرائيل ليست امّة يهودية فحسب. ففيها تعيش أقليّات قومية ودروز وبدو وجركس وعرب. ويبلغ عدد العرب الاسرائيليين وفق آخر إحصاء سكاني سبع مئة وعشرة آلاف شخص. والسؤال الذي تطرحه كلّ أمّة متعدّدة القوميّات يتمثّل بمعرفة طريقة معاملة تلك الأقليّات والموقف الذي سيُتّخذ حيالهم.

من جهتي، لي قناعة راسخة في قدرة العرب واليهود على التعايش. وقد سبق لي أن كرّرت قناعتي هذه في غير مناسبة، لا للصحافيين او لغايات شعبيّة، وإنّما إيمانا وتشبّعا بهذا التعايش منذ أيّام طفولتي. لا أهاب العرب. بل أشعر بأنني استطيع أن أعيش معهم. وأعتقد انني أفهم مشاكلهم. وأعلم أنّ كلينا يسكن في هذا البلد، ولا تعني يهوديّة الدولة أن العرب يجب ألّا يكونوا مواطنين فيها بكلّ معنى الكلمة.

لهذا السبب اعتبرت دائما انه من الخطأ أن نقول للعرب الاسرائيليين (على غرار عدد من السياسيين الساعين الى كسب الأصوات) : « نحن نفهمكم، أنتم جزءٌ من الشعب الفلسطيني وتمثّل منظمة التحرير الفلسطينيّة جزءاً من تطلّعاتكم ». لا، لم أقلْ هذا يوما، بل : « أنتم جزءٌ من اسرائيل ومواطنين فيها ومن سكانّها. ولا بدّ لنا، نحن وأنتم، من العيش معا. لا أطلب منكم أن تنسوا فلسطينيّتكم. ولكنكم جزء من هذا البلد وجزء من الديمقراطية الموجودة هنا ».

ليس هذا الموقف، في نظري، مسألة اخلاقية فحسب، وانما ضرورة. فآراء الاسرائيليين حول مصير اليهودية والسامرة وغزة متضاربة وتترجح بين ابقاء هذه الأراضي على وضعها الحالي او منحها استقلالها الذاتي او اعطائها فرصة التعبير السياسي في عمّان او ضمّها الى اسرائيل او قبول تسوية لحلّ

مشكلة الأراضي او تحويلها الى كانتونات. أمّا في ما يتعلّق بالعرب الاسرائيليين، فقد طرح خيار واحد مقبول يتمثّل بالتعايش بين اليهود والعرب على أساس متناغم. ترى ماذا يمكننا ان نفعل غير التعايش بتناغم ؟ أن نتخلّى عن الجليل ؟ ثمّ عن النقب ؟ من جهتي، لا تتمثّل المشكلة الأساسيّة بعرب اليهودية والسامرة وانما بالعرب الاسرائيليين، هؤلاء المواطنين الذين ليسوا بشركاء يتمتعون بكافّة الحقوق والمنافع. إذاً، تمكن المشكلة في ايجاد السبيل الكفيل بجعلهم شركاءنا، وفي طريقة دمجهم في مجتمعنا كمواطنين يتمتّعون بالحقوق والواجبات على قدم المساواة.

استنادا لمنهج تفكيري، ترتبط الإجابة على تلك الأسئلة بطبيعة الديمقراطية نفسها. أوّلا، كثير من الحقوق والواجبات متكافئة ومتبادلة. ثانيا، على القوانين أن تطبّق على الجميع من دون تفرقة. حاليا، نحن نواجه وضعا لا يتمتّع فيه العرب الاسرائيليّون بكافّة الفرص التي يحق لهم الحصول عليها؛ هم يؤدون الواجبات المفترض ان تترتب عليهم. امّا القوانين فلا تطبّق في المتحدات العربية كما تطبّق في سائر مناطق اسرائيل.

يدفع المواطنون العرب، مثلا، ضرائب منخفضة جدًّا نسبيًّا.ونقبل عموما بعدم خضوع عددٍ من المتعهّدين العرب للأنظمة المطبّقة على الآخرين. ولا تجبى في انتظام الضرائب الثانويّة (على الراديو والتلفزيون مثلا) من بيوت العرب كما تجبى من بيوت اليهود. والأهمّ من هذا، لا يتكبّد العرب الاسرائيليون نصيبهم من العبء الذي يتحمّله الآخرون، ألا وهو الخدمة العسكرية. والخدمة العسكرية في اسرائيل لا ترتدي أهمية ثانوية كما هي الحال في عدد كبير من البلدان. وانّما تستغرق ثلاث سنوات من عمر شبابنا (وسنتين من عمر فتياتنا) وأربع سنوات على الأقلّ إذا ما اصبحوا في رتبة ضابط. ويظل شبابنا طوال خمسة وثلاثين عاما منتمين الى صفوف الاحتياط، ما يعني دورات مدّتها ثلاثين يوما سنويا (اثنين واربعين يوما للضباط)، يضاف إليها يوما شهريا — وقد يضاف عدد الأيام في حالات

التوتّر. يتكبّد كل فرد إذاً عبء الخدمة القومية طوال سنوات شبابه الأولى وخلال شهر ونصف الشهر سنويا خلال سن الكهولة. وتمثّل الخدمة العسكرية ما هو أبعد من مشاطرة الآخرين حمل هذا العبء. فحين تشارك في الدفاع عن بلدك يتحسّن عن كثب انتماؤك اليه. أمّا إذا لم تدافع عنه فهو لن يصبح بلدك بكليّته.

من عادتي ان اخاطب الجماهير العربية من وقت الى آخر؛ فقد دعيت للتحدث في احدى اكبر المدن العربية في اسرائيل : بقاع الغربية. كان هناك مئات العرب جلهم من الشبان. وفي غرفة صغيرة غصت بالحضور تكلمت عن مستقبل العلاقات بين اليهود والعرب. وقلت لهم اني اعرف جيدا جغرافية اسرائيل وديموغرافيتها، وتبعا لمعرفتي هذه لست ارى اي امكانية رسم خط يقسم البلاد بحيث يسمح لليهود والعرب بالعيش كل على حدة.

وتابعت قائلا : لذا على اليهود والعرب العيش معا في اسرائيل، وانا أعتقد بقدرتهم على التعايش. ولكن لابدّ من تحديد شروط هذا التعايش. فالسكان العرب لا يتكبّدون نصيبهم من عبء الواجبات والموجبات. ولا يخدمون في الجيش، ولا يدفعون إلا ضرائب منخفضة. وفي موازاة ذلك يقرّرون ما ستكون عليه حكومة اسرائيل بفعل وزنهم الانتخابي. واردفت قائلا في كلمتي: إنّ هذا يشكّل وضعا مرفوضا بتاتا.

وأضفت: أنّنا نتفهّم السكان العرب خير تفهّم. فالعرب لا يستطيعون ان يخدموا في الجيش لأن اسرائيل تحارب شعبهم او لأن شعبهم يحارب اسرائيل. ولكني أتوق الى اليوم الذي سيحلّ فيه السلام بين اليهود والعرب. واعتقد، من وجهة نظري الشخصيّة، بضرورة منح العرب فرصة التعبير سياسيّا إذا ما اردنا إحلال هذا السلام. فقد قامت منذ ١٩٢٢ دولة فلسطينيّة حينما اقتطعت بريطانيا العظمى ٧٥ في المئة من ارض فلسطين وأنشأت الضفة

الشرقيّة. والضفة الشرقية (المعروفة اليوم بالاردن) بلد تعيش فيه غالبيّة فلسطينيّة، وتتألف حكومته بجزئها الأكبر من فلسطينيين، وتعاقب فيه على منصب رئاسة الوزراة فلسطينيون. فالاردن هي في الواقع، إن لم تكن في النص، دولة فلسطينيّة يتعيّن علينا أن نفاوض معها مستقبل سكّان السامرة واليهودية وسائر مشاكلنا العالقة.

وقلت لهم : « عندما يحدث هذا كلّه ويخيّم السلام، علينا أن نتوجّه إليكم والتحدّث إليكم بكلّ صراحة قائلين : أيّها السادة، لم نعد في حالة حرب. أنتم تعيشون في هذا البلد وتتمتّعون بنعمه، لذا يتعيّن عليكم المشاركة في تحمّل العبء. عليكم أن تخدموا في الجيش. قد لا تكون الخدمة العسكرية فوريّة. ربّما يجدر البدء بنوع من الخدمة الوطنية الرديفة. خدمة وطنية يمكننا الحصول عليها منذ الآن. أنا أشاطركم رأيكم في أن تصبحوا شركاءنا، إلا انه يتعيّن عليكم أخذ نصيبكم من الواجبات بكامله ».

فيما كنت أوضّح هذه النقاط، رأيت في القاعة نظرات متقدمة. ثمّ صرخ أحدهم : « وإذا لم نرغب في أن نخدم بالجيش ؟ » أجبته : « في مثل هذه الحالة، أعتقد انّه يتعيّن عليكم العيش في اسرائيل كما يعيش الثمانون ألف يهودي وغير يهودي المقيمين هنا ولكنهم ليسوا بمواطنين اسرائيليين. فهم يستفيدون من الخدمات الاجتماعية المدرسيّة والطبيّة، الخ. ويمكنهم المشاركة في انتخابات البلديّات. ولكن ما لا يستطيعون القيام به هو المشاركة في الانتخابات الاشتراعية. فهم لا يستطيعون أن يقرّروا ما ستكون عليه الحكومة الاسرائيلية اذا لم يصبحوا مواطنين اسرائيليين ».

وسألني واحد آخر : « ايّ نوع من المواطنين سنكون اذاً ؟ » أجبته : « كونوا مواطنين فلسطينيين، مواطني الدولة الفلسطينيّة المقيمة في اسرائيل. لن يلحق احد الاذى بكم وبسائر المقيمين في البلاد ». قال : « ماذا لو لم تعجبنا هذه الفكرة ». أجبته : « هذا شأنكم. يمكنكم بيع أملاككم،

او الذهاب الى مكان آخر، او البقاء هنا كمقيمين في اسرائيل. ولكن لا يمكنكم ان تقرّروا ما ستكون عليه الحكومة في حال لم تضطلعوا بكافّة الموجبات : « من حقوق متساوية وواجبات متساوية ».

في تلك اللحظة، سمعت صوت شاب فتيّ يعلو من بين الجلبة ويقول : « ما معنى هذا ؟ لِمَ سنبقى مجرّد مقيمين ؟ نحن هنا قبلكم بكثير ». فسألته : « من أين أنت ؟ » قال : « من كفرملال ». كنت اعرف جيدا كفرملال. وقلت : « كيف اتفق أنكم قبلنا ؟ ما هو اسمك ؟ اجابني : « مصاروة » فاستدركت قائلا : « آه، نعم ». (المصاروة اسم مصري شائع في كفرملال). واردفت موضحا : « جاءت عائلتكم من مصر الى اسرائيل قبل اربعين عاما. أتى بكم الى هنا الباشا المصري ابراهيم علي الذي أسكن الناس في معظم القرى ». على هذا، هدأت الجموع.

في الماضي القريب جاءني الى الوزارة ممثّلو إحدى قرى البدو في النقب، اناس أعرفهم منذ سنوات وكانوا من جيراني. جاؤوا يطلبون منّي إقامة عدد من المشاريع الصناعية في مدينتهم وقالوا : « نحن مواطنون اسرائيليون على غرار سائر الاسرائيليين. نحن نلتمس مساعدتكم ». فاجبتهم : بكلّ تأكيد، سأساعدكم كما أساعد أيّ شخص آخر. سأساعدكم على انجاز هذه المشاريع. ولسوف أقوم بذلك. ولكن لديّ أوّلا ما أقوله لكم: فأنا مررت بمدينتكم، في يوم عيد الاستقلال، ولم أرَ فيها علما اسرائيليا واحدا. ربّما في هذه المدينة اعلام لم أرَها. ولكن عندما مررت بالمدينة العربيّة الاسرائيلية المجاورة، لم أشاهد فيها هي الأخرى أيّ علم اسرائيلي. والآن، ها أنتم تأتون اليّ وتقولون لي : نحن، انا وأنتم، مواطنون متساوون. بالطبع نحن متساوون. ولكنْ ماذا عن الأعلام الاسرائيلية في عيد الاستقلال ؟

هذا نوع من المشاكل التي تعيّن علينا الاهتمام بها منذ فترة طويلة، ولكن ليس على اساس حزبي. فالمشكلة لا علاقة لها بالأحزاب السياسية. فحين

أتكلّم الى اعضاء حزب العمل أقول لهم : انها مشكلة قومية، مشكلة اسرائيلية. وسيبقى جوهر المسألة على حاله، سواء تألّفت الحكومة من حزب العمل أم من الليكود. علينا درس المشكلة معا. امّا قاعدة محادثاتنا فيجب أن ترتكز على أن العرب واليهود لن يعيشوا معا إذا تطبّقت القوانين على العرب كما تطبّق على اليهود. على العدالة أن تكون واحدة لجميع المواطنين. وإلا فديمقراطيتنا وانماط السلوك العقلانية والعادلة التي وضعناها من أجل حياتنا المشتركة هنا لسوف تتحطّم أجزاء اجزاء.

غالبا ما تأتي الاجابة على الشكل الآتي : « هل يمكننا الوثوق بهم » ؟ فأقول : « قاتَلَ الدروز الى جانبنا ببسالة في بداية حرب الاستقلال. ومنذ ذلك الحين وهم معنا. وطوال سنوات خدم عدد منهم في الجيش تحت امرتي : خلال حربَي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف على قناة السويس. وكثيرون هم البدو الذين تطوّعوا وناضلوا في غزة ووادي عربة ضد الارهابيين، وكثيرون هم الذين شاركوا في حرب الغفران. وغالبا ما وجدتني في ساحة المعركة لايحيط بي سوى ضباط وجنود دروز. ويطالعنا بين الدروز من هو عقيد وقائد وكولونيل وقائد لواء. وقد خدم ولدي تحت إمرة ضباط دروز. فكم من معركة خضتها الى جانبهم. وأسائل نفسي : « هل خطر في بالي يوما ان أسأل من هو يهودي ومن ليس بيهودي ؟ كانوا مثل الآخرين. يقاتلون بشجاعة كما يقاتل الآخرون. فقد مضى على خدمتهم في الجيش اربعون عاما، فيه تلقوا دراستهم، وفيه يضطلعون بالمسؤوليّات. أنا أثق بهم. ولو كان عرب اسرائيل قادرين على الاندماج بالطريقة عينها، وتكبّد العبء عينه، لوضعت ثقتي بهم بالطريقة عينها. تلك هي وجهة نظري ».

حقّا، أن مشكلة العرب لهي معقّدة. وقد زادت تعقيدا بعد أن تورّط بعض من العرب الاسرائيليين أكثر فأكثر في العنف والارهاب. لذا يفضّل البعض ترك الوضع على حاله وعدم تحريك مياه السياسة الغادرة. لكن

المشكلة تتطلّب في الواقع انتباها شاملا وفوريا. فهي ليست معقدّة وحسب وانما خطِرة، لا بل أخطر من مشاكل السامرة واليهودية.

في السامرة واليهودية نملك على الأقلّ عدّة خيارات معقولة. ولكن في ما يتعلّق بعرب اسرائيل، فما من بديل ولا من خيار. وفي حال انفجار ازمة ما تبرز امكانيّتنان موفوضتان : فإمّا أن يعيش عرب اسرائيل مأساة تحاكي تلك التي تسبّب بها آباؤهم سنة ١٩٤٨. وإمّا أن يتنازل اليهود أكثر فأكثر ويجدوا أنفسهم في ارضٍ صغيرة أكثر فأكثر الى أن تفقد الأمّة سبيل البقاء على قيد الحياة لشدّة ما استُنزفت.

لا أدّعي معرفة كافة الإجابات. ولكني أعرف انّه من الضرورة ان يرتكز كل حلّ قومي يوضح لتسوية هذه المشكلة على إعلان الاستقلال. فدولة اسرائيل دولة يهودية كما فرنسا هي دولة فرنسيّة واسبانيا دولة اسبانيّة. امّا نشيد البلاد فهو « هاتيكفا »، والعلم يحمل نجمة داوود. فما من نشيدين لإسرائيل وما من علمين. ويتعيّن على هذه الدولة أن تضمن مواطنيّة كافّة أفرادها وأن تطلب من الجميع الالتزامات عينها.

يمثّل السلام مشكلة أخرى علينا من أجلها التوصّل الى اجماع قومي شامل بقدر المستطاع. لابدّ أن نجد صيغة تحظى بقبول كبير وتسمح لاسرائيل باتخاذ مبادرة اطلاق سيرورة مفاوضات سلام بدلا من اضطرارها الى الاستجابة لمتطلّبات الآخرين. فعندما يحدد الحزبان افضل موقف لهما سنتمكّن من السعي للحصول على الدعم الأميركي. عندها فقط يمكننا التوجّه الى الدول العربيّة، وقد استتبّ الأمن في دارنا وحظينا بحلفائنا الى جانبنا.

بصرف النظر عن ماهيّة خطة السلام الاسرائيلية — أو اي خطة سلام أخرى، لابدّ من استيفاء شرطين أساسيّين قبل احراز ايّ تقدّم في هذا الاتجاه. أوّلهما أن ينطبع السلام بأهميّة متساوية في نظر الفريقين العربي واليهودي. فجوهر السلام المتفاوَض بشأنه هو التسوية (الاتفاق على حل وسط)،

والتسوية بطبيعتها سيرورة ذات وجهين فاذا كان التوق الى السلام غير متبادل فان احد الفريقين سيرفض التسوية، وفي ذلك الوسيلة التي لا تخطىء لافشال كل تفاوض.

لا نجد إجمالا حتى الآن رغبة متبادلة في السلام. ومن الواضح في نظر الجميع أن اسرائيل الغارقة في محيط عربي سوف يعود السلام عليها بمنافع جمّة. وعلى رغم حاجة العرب الملحّة الى السلام قادتهم لا يعترفون بها، امّا سائر العالم فيبدو عليه كأنّه لا يلمس بدوره هذه الحاجة فترتّب على هذا التجاهل أن انهالت على القادة الاسرائيليين أسئلة الصحافيين والدبلوماسيين ورؤساء الدول الذين راحوا يسألون : « ماذا ستعطون مقابل السلام ؟ اي تنازلات انتم مستعدون لتقديمها ؟ » ولكني لم أسمع احدا يسأل العرب يوما : « ماذا ستعطون مقابل السلام ؟ فالسلام مهمّ أيضا بالنسبة إليكم. ماذا ستعطون لتحصلوا عليه ؟ » إنّها أسئلة تطرح على اسرائيل حصرا.

في الحقيقة، يتّسم السلام في نظر اسرائيل بأهمية تضاهي أهمّيته في نظر العرب. فمصر، تلك الدولة العربيّة الوحيدة التي أبرمنا معها اتفاقية سلام، لهي أوّل مثل على هذا.

كانت مصر ولا تزال تعاني مشاكل اقتصادية جسيمة. فهي تستلم من الولايات المتحدة مخصّصات ودعما لما استلمتهما لو لم يحلّ السلام. ولمصر حدود واحدة تنعم بالهدوء هي حدودها مع اسرائيل. في حين ولّدت مياه النيل بينها وبين السودان المشاكل والنزاعات. امّا حدودها مع ليبيا فالأوضاع متوتّرة فيها منذ سنين، بينما راحت الاضطرابات تتخذ فيها شكل اشتباكات ومعارك محليّة. وما زلت أذكر إحدى زياراتي لمصر في الوقت الذي اشتدّت فيه حدّة التوتّر السائد بينها وبين ليبيا. عند ذاك قرّر المصريّون حشد قوّاتهم على طول الحدود. ووصف لي حينذاك وزير الدفاع المشير ابو غزاله الوضع القائم، مصّرحا عن نيّته في نقل الجيش الثالث من منطقة القناة ووضعه على الحدود الليبيّة. فوافقت للحال وطلبت منه أن ينقل الجيش

الثالث من دون أن يساوره أدنى قلق. وقلت له : « اؤكدّ لكم أننا لن نحرّك أيّ جندي من موقعه ». وبالفعل نقل المصريون قوّاتهم؛ أمّا نحن، فلم نتحرّك خطوة من مواقعنا. كانوا يعلمون، على غرارنا، أن الحدود الوحيدة التي يخيّم عليها الأمن هي حدودهم مع اسرائيل.

عانت الأردن، شأنها شأن مصر، من مشاكل خطيرة: كمشاكلها الاقتصادية، ومشاكلها مع الارهاب ومع جيرانها العرب. في أواخر ١٩٥٠ راح العراق يهدّد الاردن، فأعطينا بريطانيا إذنا بالتحليق فوق اسرائيل لمنح هذا البلد مساعدة جويّة. وهكذا أنقذ البريطانيّون الاردن من الخطر العراقي. ويمكننا في الشرق الأوسط المتقلّب هذا ان نستبق الأحداث التي ستقع عندما ستفضي حقّا المعارك بين ايران والعراق الى نهايتها وتجد المملكة الاردنية على حدودها الشرقية ترسانة العراق الهائلة الساكنة. احتمال يصعب على الملك حسين التفكير فيه من دون أن يساوره القلق. وفي غضون ذلك يعيش الاردنيّون تحت رحمة الخطر السوري المستمّر. فالاجتياح السوري سنة ١٩٧٠ لا يزال محفورا في ذاكرتهم، وهم يدركون المصير الذي كانوا سيلقونه لولا التدابير التي اتخذتها آنذاك اسرائيل. فما كان الحسين ليبقى متربّعا على عرشه اليوم بالتأكيد. من جهتي، اعتقد ان اسرائيل قد ارتكبت خطأ في تدخّلها ولكننا تدخّلنا، أمّا الملك ودولة الاردن فتمكّنا من البقاء والصمود. ولا يغيب عن معرفة الملك حسين كم من مرّة زوّدته اسرائيل معلومات مكّنته من إحباط المؤامرات الاجراميّة. لذا، ليس للاردن حدود هادئة وآمنة سوى حدودها مع اسرائيل. فمنطقة الحدود هذه هي الوحيدة التي لا تعاني مشاكل.

نستنتج ممّا سبق أنّه عندما تتعلّق المسألة بمفاوضات السلام علينا أن نفهم أن السلام مهم في نظر الفريقين. في مثل هذه الحالة يدرك الفريقان انه يتعيّن عليهما القيام بتنازلات تأتي من الطرفين لا من طرفٍ واحد. وعندما يحدث هذا ستتزايد فرص احلال السلام.

يجب أن يكون السعي الى احلال السلام متبادلا. ذلك هو الشرط الأوّل. أمّا الشرط الثاني فيتمثّل بعدم تسريع سيرورة المفاوضات. فليس المطلوب الانطلاق في هذه السيرورة ومقياس الوقت في يدنا، مع تحديد مهل لا يمكن تخطيها، وممارسة ضغوطات على حتّى يوقعوا ويتبادلوا القبل في تاريخ محدّد. فالمشاكل الحقيقية الافرقاء الحيويّة بالنسبة الى حياة الأمّة يستحيل حلّها باتباع مثل هذه الطريقة. يمكن التحدّث عن اتجاه ما او عن تطوّرات في الظروف المؤاتية للسلام او المعرقلة له. ويمكن الاستفادة من الامكانيات المتاحة ومن الآفاق المفتوحة بسبب حصول احداث، ولكن ما من أمّة تلقي بنفسها في اتفاقات تغير مجرى حياتها.

ليست اسرائيل البلد الوحيد الذي يتخبّط في هذه الدوّامة. فالعالم يشهد مشاكل جسيمة لم يتوصّل الى حلّها بعد. كانقسام كوريا، ومشاكل اميركا الوسطى والكامبودج وايرلندا الشمالية. ولكن ما من أحد يمسك في يده مقياسا للوقت ويسأل : متى ستجدون الحل ؟ متى ستتبادلون القبل ؟ خذوا مثلا مشكلة باناما. فلو قدّمت الاتفاقية المتعلّقة بالقناة الى الولايات المتحدة اليوم، أما كان العام ٢٠٠٠ سيبدو قريب الحلول اذا ما أخذنا في عين الاعتبار تطوّرات الوضع في تلك المنطقة (لا سيّما أن هذه الكلمات كتبت في الوقت الذي كان يسعى فيه الى السلام جماعة « الكونتراس » ويتحدّى الجنرال نورييغا الولايات المتحدة) ؟ صعب على الولايات المتحدة تصديق دنونا من العام ٢٠٠٠ ورأينا الفوضى تسود اميركا الوسطى، هل يخطر في بالنا لحظة أن الولايات المتحدة ستتخلّى عن سيطرتها ؟ أشكّ في ذلك.

تعاني منطقتنا بدورها عدم الاستقرار، وهي تعتبر أكثر مناطق العالم تقلّبا. ففي الخليج العربي قد يحدث كلّ شيء، كما يتعذّر علينا معرفة مصير سوريا بعد الرئيس الأسد، ومصير العراق بعد الرئيس صدّام حسين، ومصير ايران بعد الخميني. ماذا سيحلّ بالعلويين في سوريا، وبالشيعة في لبنان ؟ نحن نعيش في وضع متحرّكٍ وخطر. وقد نحتاج الى عشرين أو ثلاثين

أو خمسين سنة قبل أن يستتبّ نوع من الاستقرار في هذه المنطقة. في مثل هذه الظروف، لابدّ من اتخاذ التدابير بحذر متناهٍ خصوصا عندما تلحق الضرر بحياتك لا بمصالحك فحسب. لذا، ان ننعم النظر في وضعنا كما كنتم تنعمون النظر في وضع بلادكم او اي منطقة اخرى من العالم. فالأوضاع المعقدّة جدا لا حاجة بها الى مهل أخيرة لحلّها. من هنا، يتعيّن علينا ان نستوفي شرطين، اوّلهما ان يرغب الفريقان في السلام ويبديا استعدادا لتقديم تنازلات، وثانيهما ان يفهم الجميع ان السلام يستغرق وقتا.

أضف الى هذين الشرطين عاملا لابدّ أن يشكّل جزءًا لا يتجزأ من كلّ اتفاقية سلام تقوم بين اسرائيل والعالم العربي. ويتمثّل هذا العامل بحل مشكلة اللاجئين، فنحن لن نسمح لأنفسنا، بعد مضي اربعين عاما، بإبقاء الجرح مفتوحا. على الجميع ان يعترف باستحالة التخفيف من حدّة التوتر في الشرق الأوسط إذا لم نجد حلاّ لهذه المشكلة. وحلّ المشكلة لا يأتي بعد الاتفاق وانمّا يندرج ضمن الاتفاق. هذا أيضا يشكّل شرطا أوّليّا مع ان الدول العربيّة في المنطقة لم تبذل أيّ جهد في سبيل تحسين مصير اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في كلّ منها.

بلغت أبعاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين حدّا يتطلب حله تعاون اسرائيل والعرب فحسب بل تعاون الولايات المتحدة وأوروبا ايضا. غير ان المشاكل، مهما تفاقمت، ليست بمستعصية. ففي وسعنا على سبيل المثال، أن نبدأ بمنطقة غزة. في تلك المنطقة تغطّي حاليا المدن ومخيّمات اللاجئين وبساتين البرتقال مساحة ثلاثمئة وستين كلم^{2} يعيش فيها خمسمئة وخمسون ألف شخص. ولا يتعين على منظمة كهذه ان تكون حكماً وسخة ومكتظة. إذا يستطيع برنامج تخطيط شامل وإصلاح وبناء، أن يحوّلها الى منطقة صناعيّة مدنية حديثة. أمّا منطقة تل أبيب الكبرى، التي تطالعك فيها المطارات والصناعات والجامعات والتي تتمتّع بمستوى معيشي مرتفع، فيبلغ عدد سكانها المليون شخص احتشدوا في مسافة لا تتعدّى المئة والثمانين كلم^{2}. وفي

الواقع، سيشكّل اعادة بناء غزة انجازا انسانيّا من الطراز الأوّل. ولسنا نبالغ إن قلنا ان نتائج مثل هذا الانجاز تنعكس ايجابا على السلام في المنطقة.

عند التطرق الى مشكلة اللاجئين كما يجب سيبقى وضع كلّ من السامرة واليهودية وغزة مشكلة يصعب على أطراف النزاع الاسرائيلي — العربي حلّها. ولابدّ من التذكير هنا بان هذا النزاع يعود الى ما قبل حرب الايام الستة، تلك الحرب التي وضعت هذه الأراضي تحت سيطرة الاسرائيليين. غير أن احداث السنة الفائتة سلّطت الأضواء على هذا النزاع. وبصرف النظر عن ان هذه المشكلة دخلت ضمن الاحداث الجارية، على كلّ حلّ يهدف الى احلال السلام لا الى تصعيد العنف ان يحسب حسابا لحقائق هذه المنطقة، ومنها حقيقة أساسية هي حاجة اسرائيل الى الأمن وإلى العيش حياة قومية طبيعية.

تشكّل المناطق المتنازع عليها جزءًا من فلسطين التي سماها اليهود دائما ارض اسرائيل والتي منحهم إيّاها وعد بلفور سنة ١٩١٧ وطنا قوميّا. عام ١٩٢٢ قُسمَتْ فلسطين مرة اولى، فاقتطع ثلاثة ارباعها لانشاء « شرقي الاردن » على الضفة الشرقية من نهر الاردن. وبعد قيام دولة اسرائيل وفقا لقرار منظمة الأمم المتحدة الصادر سنة ١٩٤٧ وحرب الاستقلال التي تلت، احتلت الاردن واسرائيل الضفة الغربيّة، ومصر قطاع غزة. في ما بعد سيطر الاسرائيليون سنة ١٩٦٧ على تلك المناطق. وايا يكن الجدل السياسي فالواقع هو انه يوجد دولة فلسطينية في الاردن، عاصمتها عمان، ودولة يهودية في اسرائيل، عاصمتها اورشليم.

يوجد، اذاً السامرة واليهودية وغزة. وأهميّة هذه الأراضي بالنسبة الى اسرائيل يُعبّر عنها غالبا بكلمات المسافات الاستراتيجية. فالسهل الضيّق حيث يعيش معظم الاسرائيليين يبلغ عرضه أربعة عشر كيلومترا في ناتانيا ولا تبعد تل أبيب عن جبال السامرة الا اثني عشر كيلومترا؛ وثمة ثلاثة كيلومترات فقط بين خط الحدود القديم ومطار بن غوريون. في حين يقل الممرّ المؤدي

الى اورشليم عن ثمانية كيلومترات. فالمسافات التي كانت تؤلف ثوابت دفاعنا سنة ١٩٦٧ هي دون المسافات التي يجتازها المرء عادة في الولايات المتحدة بين مسكنه ومكان عمله. من الناحية العمليّة، كانت البلاد وفق حدود ما قبل ١٩٦٧ عرضة للمدافع وصواريخ الأرض — جوّ.

ولكن، في حال اتضحت صحّة هذا الكلام وخطورته الناجمة عن العداوة التي تحيطنا، فإنّ المشكلة الرئيسية في السامرة والهودية لا تتمثّل بخطر المدفعيّة او الصواريخ او الدبابات المهاجمة. فهذه لا تشكّل سوى أخطار تهدّدك ايّام الحروب. أمّا المشكلة فتتمثّل بنوع الحرب التي خبرناها في هاتين المنطقتين ايّام السلم. وأقصد بقولي الارهاب. مائة عام من الارهاب. ولا علاقة لهذا بوجودنا في اليهودية أو السامرة أو غزّة. فالارهاب شكل جزءا من حياتنا في الستينات والخمسينات والاربعينات والثلاثينات والعشرينات. كان موجودا ايّام الاحتلال التركي والبريطاني والاردني والمصري. لذا فان خرائط تلك الأراضي، التي تشير الى المعطيات العسكرية والمسافات وأرقام المساحات والطوبوغرافيا وغيرها، هي ناقصة فحتى ندرك اهمية السامرة واليهودية وغزة بالنسبة الى أمن إسرائيل يتعيّن علينا الحصول على لائحة بعمليّات التسلّل والجرائم والأعمال التخريبيّة التي ارتكبها الفلسطينيون العرب المقيمون في هذه الأراضي ووقع ضحيّتها السكان اليهود قبل سنة ١٩٦٧.

تبعا لذلك، لا تندرج مشكلة هذه الأراضي بين تلك التي يسعنا تسويتها باتفاق يبرم بين الدول السيّدة المستقلّة. وهي لا تنتمي الى نوع المشاكل التي يمكن حلها على نحو قطعي يليه تلقائيا السلام والهدوء. وفي الموقف الذي أبديته تجاه هذه الأراضي حاولت اعتبارها من زاوية موضوعيّة تتخطّى المشاعر التاريخيّة العميقة التي اتقاسمها مع سائر اليهود. فبعد التمعّن فيها من خلال وجهة نظر تتطلّع الى الأمن فحسب، أيقنت أنّة من الضروري إبقاء أجهزة الأمن الداخلي والخارجي في تلك المناطق تحت سيطرتنا، وذلك

بصرف النظر عن ماهيّة الاتفاق السياسي الذي سنتوصّل إليه. فنحن لا يطالعنا سوى خيار واحد ألا وهو الأخذ في عين الاعتبار ان الاعمال الارهابية لن تنقطع حتى في ظلّ اتفاق مبرم مع الاردن. وعلى ضوء خبرة جاءت حصيلة مئة عام لا أرى حلاً سياسيّا من شأنه وضع حدّ للارهاب. لذا، لا نجد أمامنا سوى خيار واحد يتمثّل بالنهوض بمسؤوليات أمن تلك الأراضي.

كلّ شيء يبدأ هنا. ولكن، لا بدّ وأن نسائل أنفسنا ترى كيف يستطيع سكّان هذه الأراضي إدارة أنفسهم بأنفسهم في الميادين الاخرى. كيف يستطيعون تهيئة اسلوب عيشهم لبلوغ الأفضل وإيجاد افضل منهج للتعبير سياسيا ؟

من وجهة نظري، تتمثّل الإجابة المنطقيّة على هذا السؤال بممارسة التعبير السياسي ضمن اطار الدولة الفلسطينية في الاردن[1]. لا يمكننا أن نجعل من هؤلاء مواطنين اسرائيليين ولا اعتقد انهم يرغبون فيها. ويتعيّن علينا المجاهرة عاليا بأن انشغالنا بضمان ديمومتنا لا يسمح بإقامة دولة فلسطينية ثانية على الضفة الغربيّة. لذا فان الموقف الاكثر منطقية وربما الاكثر عملية هو ان يمارس سكان هذه المناطق حقوقهم السياسية بصفتهم مواطنين أردنيين على غرار معظمهم. (فالسكان العرب في اليهودية والسامرة هم أعضاء في البرلمان الاردني ووزراء في الحكومة الاردنية).

(١) تجدر الاشارة هنا الى ان اسرة الملك حسين، وهي العائلة المالكة الهاشميّة، جاءت من مكة واستقرّت في الضفة الشرقية على يد البريطانيين سنة ١٩٢١. في حين استقرّ فرع آخر من العائلة في سوريا (ثمّ ما لبث ان طرد منها) وفرع آخر في العراق (حيث أطيح عن العرش وقتل بعد ستة وثلاثين عاما) وبالطبع كانت العراق قبل الهاشميين تعرف بالعراق وبقيت على اسمها خلال وجودهم وبعد رحيلهم، شأنها شأن اليونان التي كانت تعرف باليونان قبل العائلة المالكة الدانمركية وبقيت على اسمها خلال وجودهم وبعد رحيلهم. وبالطريقة ذاتها فان الاردن هو فلسطين ايا يكن الملك المرتقي العرش، أو كان هناك عرش ام لا.

بالإجمال، يعني اتخاذ مثل هذا الموقف قيام تعاون وثيق بين اسرائيل والاردن. فمن المتوجبّ حلّ سلسلة مشاكل معقّدة، كمشكلة طريقة الاقتراع والضرائب وانتخاب البرلمان في عمّان. ويتعيّن على اي اتفاق يبرم حول الأراضي أن يشمل تنظيم العلاقات التجارية بين اسرائيل والاردن. فخلال العام الفائت، مثلا، سُجّل مليون ومئتا ألف عملية مرور فوق نهر الاردن الواقع بين الضفة الغربية والاردن. كما توجّهت آلاف الشاحنات من الضفة الغربية وغزة الى الاردن، حيث يصار الى تفريغ البضائع وتصديرها الى سوريا والعراق والإمارات والمملكة العربية السعودية ـــ كالخضار والفاكهة وغيرها من المنتجات. ولا بدّ لنا من اتخاذ الاجراء الذي يخوّلنا المضي في هذا الاتجاه، لا بل يخوّلنا ضمان تطوير هذا التحك. وماذا عن موارد البحر الميت الهائلة ؟ انها منطقة تعاون صناعي وتطور تجاري طبيعية. لذا، يجب إنشاء سكّة حديديّة لتأمين المواصلات بين اسرائيل والاردن من أجل خير هذين البلدين. فالاردن التي تفتقد الى منفذٍ على البحر المتوسّط قد تتوفر لها امكانيّة استخدام مرفأي اشدود وحيفا، في حين ستتمكّن اسرائيل من الاعتماد على منشآت مرفأ العقبة. ومن خلال ضفة غربية تصبّ اهتمامها على قيام رابطة اقتصادية بين اسرائيل والاردن، سيتمكّن هذان البلدان من المضي قدما في اتجاه انشاء سوق مشتركة. من منا يستطيع أن يقول كيف سيتطور هذا التعاون ؟ من الناحية النظرية، ان امكانات المساعدة المتبادلة في هذه المنطقة لا تعدّ ولا تحصى. ولن يشكل اتفاق في حد ذاته سوى بدايةٍ لسيرورة في مجال التعاون. فاهميّته الفعلية تأتي من الآفاق التي يشرّع أبوابها.

قد يعترض المرء بقوله ان التاريخ لم يسجل حلا كهذا : ان يجد شعب تعبيره السياسي في بلد آخر وحياته الاقتصادية مندمجة في الاثنين. والجواب هو ان العالم يعجّ بمشاكل قومية شتى في منتهى التعقيد، تنتظر ايجاد حلّ لها. ويحدث دائما تقريبا انه كلما تتدخل المصالح الحيوية المتنافسة

والخصومات المزمنة لتجعل من المستحيل ايجاد حلول محددة، يجد الفرقاء انفسهم امام الطريق المسدود والتوتر والضعف، كأنما هذه هي القاعدة. وهذه هي بالتمام الظروف التي نسعى للتحرّر منها، مع العلم انه يتعين علينا، من جهتنا، ان نحل مشاكل بقائنا القومي لا مصالحنا القومية فحسب. وهذا يعني ان الحلول، اذا وجدت، نادرا ما تكون تقليدية؛ وان كل الحلول — يجب انعام النظر فيها بحذرٍ متناهٍ.

من طالع جيلي انه ولد في الحقبة الاكثر مأسوية من التاريخ اليهودي الذي يعود الى ثلاثة آلاف وثمانمائة سنة. هذه الحقبة يفرض علينا الاضطلاع بمسؤولية ثقيلة هي ضمان ديمومة الوجود اليهودي. على جيلنا اتخاذ القرارات التي لا يمكنها الاستناد فقط على ما هو اسهل علينا او ما هو اكثر ملائمة لنا. علينا أن ننظر الى البعيد ونحاول أن نرى ما سيؤول اليه الوضع بعد مضي قرن أو قرنين. نحن الآن نعيش أوقاتا خطرة ومعقّدة، ويتعيّن علينا ايجاد الحلول المؤاتية لها. ولا يمكننا اقتحام المستقبل بحلول سهلة.

لسوء الحظ، يشكّل اخلاؤنا الاراضي حلاّ قد يرضي في البداية عددا من الأشخاص، لكنه سيؤدّي في نهاية المطاف الى مزيد من العنف والى خطر يهدّد بقاءنا، أعظم من كل الأخطار التي عهدناها خلال الفترة الأولى من حرب الاستقلال. والأحداث التي ستترتّب على انسحابنا لا يصعب تخمينها. فقد سبق لنا أن شهدنا مثلها على طول حدودنا الشمالية حيث لم نواجه حربا معلنة بل ارهابا، عاديا في البدء ومدفعيا بعد ذلك. قنبلة من هنا وقنبلة من هناك، لا اكثر، ولكنها تكفي لشل الحياة السوية. ونحن ندرك خير إدراك ما سيحدث في جنوب لبنان اذا أخلت القوات الاسرائيلية منطقة الحزام الأمني. فالقصف سيتجدّد على نحوٍ متقطع أوّلا ثمّ سينتظم تدريجا مع إعادة إرساء البنية التحتيّة الارهابية.

لكنّ وضع الاراضي والقطاع يختلف تماما عن وضع الجليل الاعلى. فغزة تشكّل في الوضع الراهن منطقتنا الأمنيّة في الجنوب. ماذا ترانا نفعل،

بعد انسحابنا من غزة، اذا صدق ما توقعناه حتما من ان عرفات وحلفاءه قد دخلوا هذه المنطقة، وان زمرا ارهابية انشأت فيها قواعد تنطلق منها، وتشنّ غارات قاتلة ضد اسرائيل ؟ وماذا سنفعل عندما تأخذ الصواريخ في التساقط على سديروت، على بعد ستة كيلومترات من غزة، وعلى عسقلان التي تبعد مسافة ثلاثة عشر كيلومترا من غزة، وعلى كريات غات على بعد عشرين كيلومترا من غزة ؟ فقاذفة الصواريخ ليست سوى اسطوانة نحاسيّة طولها متران، يسهل نقلها ويكاد يستحيل رصدها. ويصل مدى أبسط هذه القاذفات الى اثنين وعشرين كيلومترا، أمّا اتقنها صنعا فيبلغ هدفه على مسافة سبعة وثلاثين كيلومترا. ونتساءل : هل المشاهد التي سيبثها التلفزيون عن قصفنا الانتقامي لغزة ستكون اكثر استساغة من تلك التي تظهرنا أمام بيرون، أم أقلّ تأثيرا من صور جنودنا وهم يواجهون متمرّدين الضفة الغربية ؟ ماذا سنفعل اذا ما استمرّت الأعمال الارهابية في الوقت الذي ترابط فيه منظمة الأمم المتحدة او قوّة متعدّدة الجنسيّات في محيط غزة ؟ أنقاتل الايطاليين او البريطانيين او الأميركيين ؟ ماذا سنفعل لصدّ الغزوات التي مصدرها السامرة واليهودية مستهدفة كفرصفا وضواحي تل — أبيب ؟

عند ذلك سنواجه المأزق الحقيقي. ترى ما ستكون ردّة فعلنا ؟ ماذا سنفعل بعد تلك السنين وتلك الحروب وتلك المعارك ؟ أننفّذ عمليّات المظليين في الخمسينات والستينات معتمدين هذه المرة طريقة حديثة ؟ أنضرم الحرب فورا ؟ ترى ماذا سيحدث ؟

يشكّل هذا سؤالا نكاد لا نحتاج الى طرحه. فنحن سبق لنا أن شاهدنا ما حدث عندما راحت منظمة التحرير الفلسطينية تقصف المنطقة الحدودية الشمالية، حيث أخذ السكان يهجرون منازلهم وآلاف الناس يغادرون قراهم ومدنهم ويتوجهون الى وسط البلاد. لكن الوضع سيكون اسوأ في وسط البلاد. فالشعب هنا لم يعرف الارهاب الا لماما منذ جيل. ترى الى اين سيلجأون؟ الى سفارة الولايات المتحدة أم الى ناقلات الطائرات الأميركية ؟

ماذا سنفعل ؟ حتى الاسرائيليون المستعدّون للتنازل عن كل شيء لا يملكون الاجابة على هذه الأسئلة الجوهرية المتعلقة بأمننا.

فنحن، في الواقع، لا يمكننا أن نضع لأمننا معايير تختلف عن تلك التي اتخذتها الولايات المتحدة أو فرنسا أو أيّ بلد عاقلٍ آخر في سبيل أمنه — واقع يرفض العالم بأسلوب جارح قبوله. ترى، أتبقى حكومة أميركية مكتوفة الأيدي في حال قصفت المكسيك جنوب غرب البلاد ؟ استستمّر فرنسا في تقبّل الاغتيالات والأعمال التخريبيّة التي مصدرها اسبانيا ؟ في اجتماعات حلف شمال الأطلسي، يناقش القادة قلقين عدم فاعلية عمق انظمة الدفاع الغربيّة البالغ خمسمئة كيلومتر لصدّ السوفيات. ويحمل هذا الاسرائيليين على التساؤل. لست أبغي من خلال قولي اعطاء انطباع بأن الأميركيين او الأوروبيين الغربيين يعتقدون بأن حياتنا ليست مهمّة او هي اقلّ أهميّة. لكن هذا الاعتقاد غالبا ما ينطوي عليه معنى المواقف التي يعتمدونها. ونحن ندرك جيّدا أننا نعيش هنا يحدق بنا خطر واضح ومستمّر. لذا، يجب أن يكون لنا حق في حماية انفسنا من هذا الخطر، تماما كما يحمي الأميركيون والفرنسيّون وغيرهم أنفسهم.

خلال المناقشات الصريحة التي عقدتها مع المصريين تارة في مزرعتي وتارة اخرى في مصر، كنت أقول لهم: كم هو رائع أن يكون المرء محبوبا من الجميع، معانقا من الجميع، ومحط اعجاب الجميع. ولكن علينا ان نضع في الحسبان ان وجودنا وتقدّمنا ضرورة لابد منها. علينا أن نتمكّن من العيش في اسرائيل حياة سوية كتلك التي يجدر بملايين الأشخاص المقيمين في هذه المنطقة أن يعيشوها : من صناعة وتصدير واستيراد وزراعة وعلوم وفنون — وسائر مظاهر الحياة الطبيعية. واسرائيل بلد صغير صغير. لكّن الناس انتهى بهم المطاف الى الاعتقاد بأننا بلد عملاق بما أنّنا نتصدّر دائما المصفحات الأولى. غير أن مسافة اسرائيل من البحر المتوسط الى نهر الاردن تبلغ سبعين كيلومترا. ومن أقصى شمال الجليل الى أقصى جنوب

النقب لا تتعدّى مساحة البلاد الأربعمئة كيلومترا. وتتمثّل مهمّتنا الأولى في هذا البلد الصغير المحاصر بحماية الحياة. وهذا ما يشكّل الأهم. وحماية الحياة أشبه بقصّة دائما ماكنت أحبّ أن أرويها للجنود. فحتّى يتمكّن المرء من دفع احدى الشاحنات الى قمّة الجبل، يتوجّب اوّلا ايجاد حجر يضعه وراء العجلة. إذاً، لابدّ من الحجر اوّلا. لا بدّ من الأمن أوّلا، لنتمكّن من العيش حياة سوية. امّا الباقي فنهتمّ به في مرحلة لاحقة.

يتمثّل السؤال المطروح في ايّامنا هذه بمعرفة ما إذا كان في استطاعتنا، نحن ابناء شعب اسرائيل اليهودي، أن نجد في أنفسنا ارادة العيش والبقاء كأمّة وهي ارادة ضرورية لحل المشاكل التي تجابهنا. كيف ستصبح اسرائيل بعد عقدين من الزمن ؟ ماذا عن الهجرة من اسرائيل وإليها ؟ ماذا عن العلاقات المتبادلة بين اليهود والعرب الاسرائيليين، وعن علاقات اسرائيل بيهود الشتات وبسائر العالم ؟ تشكّل هذه مشاكل حيوية يجب أن نواجهها منذ الآن. فلم يعد في وسعنا تركها تسير على هواها. يجب أن نتحلّى بالمستوى الذى يخوّلنا وضع اسبقيات للمشاكل القومية الجوهرية التي تتعدّى المصالح الحزبيّة وتحديد جدول أعمال لها. فعدم تحديد الاوليات وجدول الأعمال قد يؤدّي الى تعثرنا في معركة لا يمكن أن نسمح لأنفسنا بخسارتها.

تلقي تجربة اسرائيل السياسية ظلاّ كثيفا على قدرتنا في الترفّع عن كلّ ما يزرع التقسيم بيننا. انما لا يزال هناك مجال للتفاؤل. فنحن، بعد كل ما جرى، شعب يملك تاريخا عمره اربعة آلاف سنة تربط الأجيال بعضها ببعض، شعبا نجح، على رغم كلّ شيء، في التغلّب على المحن التي أنزلها بنا اعداؤنا وانزلناها بأنفسنا. ويتعيّن على جيلنا تجنيد هذَيْن النبوغ والحرص على عدم فصم العرى التي تصلنا بالسلسلة القديمة. ضرورة نفهمها الفهم كلّه. ونعلم أيضا اننا واهلنا استطعنا ان نضيف الى رصيدنا عددا من الانتصارات الباهرة، على رغم المشاكل الهائلة التي نعانيها. وعندما أتبيّن الصعوبة التي تواجهنا اليوم اعود الى طفولتي حينما كنت أعمل مع والدي

في هذه الأرض القاحلة، متتبّعا خطواته لأزرع الحبّات في التراب الذي كان يقلبه بمجرفته. فعندما كنت أشعر بالوهن يدبّ في جسدي وقد أضحيت عاجزا عن التقدّم، كان أبي يتوقّف لحظة لينظر الى الوراء ويرى ما انجزناه حتى الآن. وكان ذلك يمدني دائما بالقوّة حتى أمضي قدما.

كلمة شكر

لقد حظيت بتعاون واسع من بعض الاسرائيليين لدى تحريري هذا الكتاب مع اريل شارون. هؤلاء اعانوني كثيرا بذكرياتهم وسعة اطلاعهم.

اخص منهم بالشكر أوديد شامير، مساعد آريل شارون في أثناء حرب لبنان؛ ودوف وايسغلاس الذي مثل شارون في التحقيقات التي أجرتها لجنة كاهان وفي الدعوى التي اقامها ضد مجلة « تايم »؛ واوري دان الذي ادلى بشهادته حول احداث مصيرته شتى. ولقد كانت اطروحته عن حرب الغفران (شارونز بريدهيد، إي. إل. — طبعة خاصة — تل أبيب، ١٩٧٥) عونا ثميناً لي واتاحت لي استعادة الجو الذي تمت فيه احداث عدة موصوفة في الفصل ».

في النهاية اسدي جزيل امتنائي لرفاييل بوغانم لمساهمته في نقل النصوص ودرايته التي اثبتها في الشؤون الاسرائيلية، الثقافية وغيرها.

دايفد شانوف.

إريك في زي « البوريم » في كفرملال، القرية التعاونية (موشاف) التي أبصر فيها النور عام ١٩٢٨.

إريك مع كلبه المفضل شيتنز امام منزله في كفرملال، عام ١٩٣٣.

إريك مع والدته فيرا وشقيقته ديتا أمام كومة قش في كفرملال.

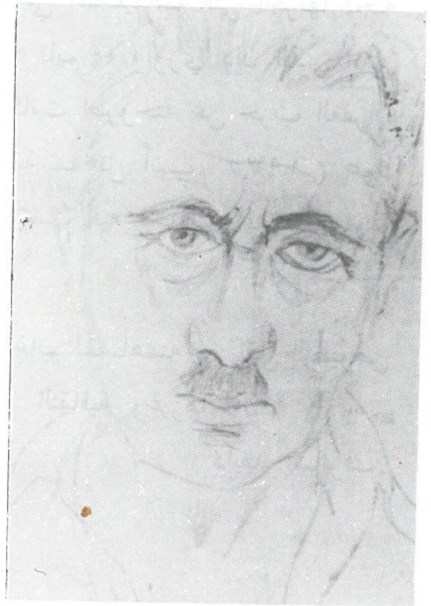

رسم ذاتي لوالد إريك، يعود الى ١٩٤٩.

١٩٤١ في كفرملال كان العمل نشاطاً مستمراً والمصدر الوحيد لافراح الحياة الريفية في آن.

شتاء ١٩٤٨. شارون على رأس فصيلة من المحاربين الذين سقط معظمهم قتلى خلال حرب الاستقلال.

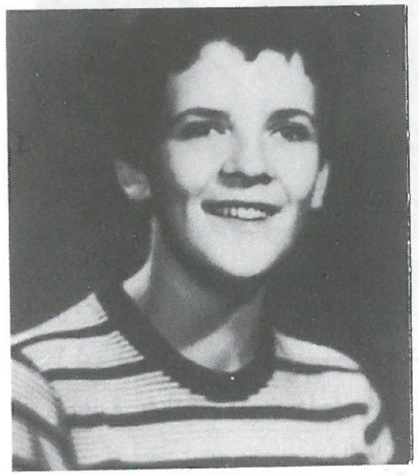

مارغاليت، زوجة شارون الاولى.

في حزيران ١٩٤٥ كان إريك في السابعة عشرة من عمره عندما حاز شهادة البكالوريا. وكان يستعد لمغادرة البيت الوالدي ليتابع دورة تدريبية لقادة الزمر، نظمها الجيش السري اليهودي آنذاك (الهاغانا) في كيبوتز روحاما، على حدود صحراء النقب.

١٢ كانون الاول (ديسمبر). دايان يهنئ وحدة إنزال لدى عودتها من إغارة بقيادة شارون داخل خطوط الجيش السوري، بعد ان اجتازت بحر الجليل (بحيرة طبريا).

قرر موردخاي ماكليف، رئيس هيئة الأركان لجيش الدفاع الاسرائيلي، انشاء وحدة مغاوير وطلب من شارون قيادتها. تلك كانت « الوحدة ١٠١ » الشهيرة، التي لم تستمر الا خمسة أشهر ومع ذلك لعبت دوراً طليعياً في صراع اسرائيل ضد الإرهاب. وهنا رجال الفرقة ١٠١ مع موشيه دايان في صحراء النقب.

١٩ آب ١٩٥٥. شارون يلقي أمام كتيبة المظليين ٨٩٠ بياناً موجزاً بتفاصيل سير الهجوم على مركز القيادة المصرية بـ خان يونس، في قطاع غزة.

في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٣، عندما عُيِّن دايان رئيساك للأركان، قرر تذويب « الوحدة ١٠١ » في كتيبة المظليين. وفي الصورة رجال الـ ١٠١ المتمردون على هذا القرار يصغون الى شارون يذكرهم بما قاموا به من أعمال باهرة.

٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٥. قادة وحدات المظليين بعد الإغارة على كونتيلا. من اليسار الى اليمين، الواقفون: مائير هار صهيون، شارون، دايان، دانّي مات، موشيه عفرون، عسّاف سيمخوني؛ الجالسون: اهارون دافيدي (مساعد شارون)، يعقوب يعقوب، رفول إيتان.

١٩٥٤، مع مائير هار صهيون، الرجل الذي قال عنه موشيه دايان انه كان « افضل مظليينا ».

حققت كتيبة المظليين، التي انشئت في ١٩٥٤، معظم الأعمال المنفردة التي كان يقوم بها الجيش الاسرائيلي.

بن غوريون وشارون يستعرضان حرس الشرف في فرقة كتيبة المظليين، في العام ١٩٥٥.

شباط (فبراير) ١٩٧١. الجنرال إريك شارون، القائد الأعلى لمنطقة الجنوب العسكرية، مع دافيد غوريون، يتفقدان ضفة قناة السويس.

٧ حزيران (يونيو)، الجنرال شارون رئيس فرقة خلال حرب الأيام الستة في سيناء.

١٩٥٧. كان بن غوريون غالباً ما يدعو إريك للجلوس قربه، مما كان يثير حفيظة الضباط الأعلى رتبة.

شارون بعد بضع ساعات من تلقيه شظية جرحته بعد ظهر ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣.

مع باتسي خلال معركة الدبابات في قطاع قناة السويس.

١٥ تموز (يوليو) ١٩٧٣. شارون يودع قواته بعد تخليه عن وظيفته كقائد عام لمنطقة الجنوب العسكرية.

في اليوم نفسه: ابتسامات دايان وشارون الأولى بعد عودتهما من الضفة الغربية لقناة السويس.

تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣. مع الحاخام مرشد الجيش، المعلم شلومو غورن. خلال حرب الغفران.

الرسالة الأولى الى ليلي، يكتبها من الأرض المصرية بعد وقف النار في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣.

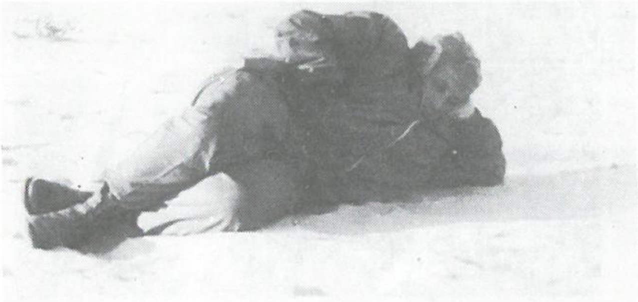

تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣: قائد مستوحد قرب القناة.

الجسر العائم على مراكب، بعد انجازه عصر ١٧ تشرين الاول (اكتوبر).

١٥ تشرين الأول (اكتوبر)، الساعة السابعة مساء: شارون يعطي الضباط تعليماته الأخيرة قبل اجتياز القناة.

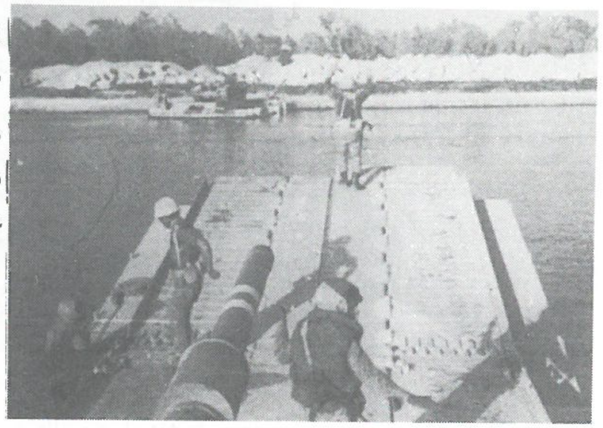

١٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣، الساعة السادسة مساء: فصيلة الدبابات الاولى من فرقة شارون في اثناء عبورها قناة السويس.

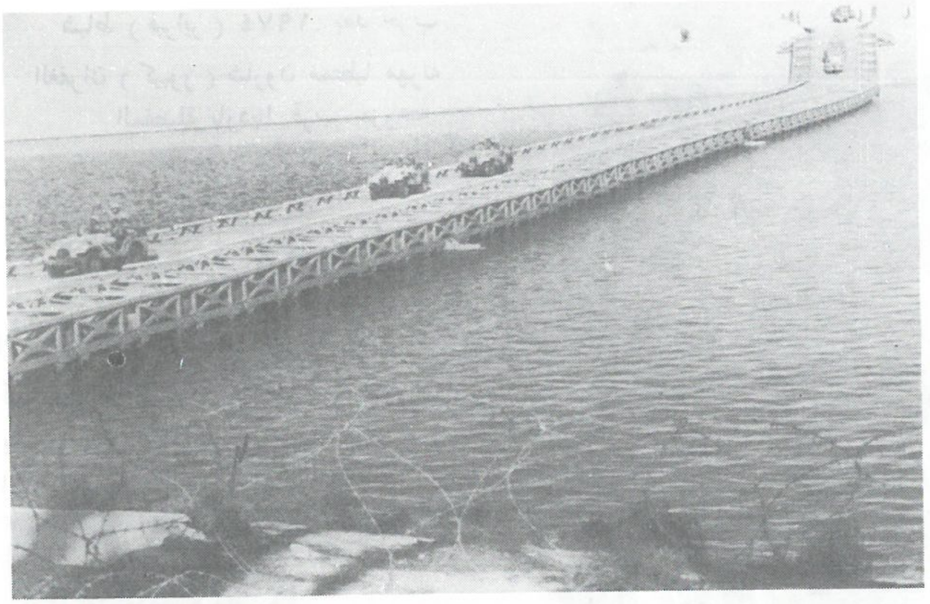

تحقق تجميع الجسر العائم الكبير، الذي أتاح عبور قناة السويس، بعد بذل جهود مضنية. وكان اللواء السابع الذي دُرِّب خصيصاً لهذا العمل يحارب حينئذٍ في الجبهة السورية.

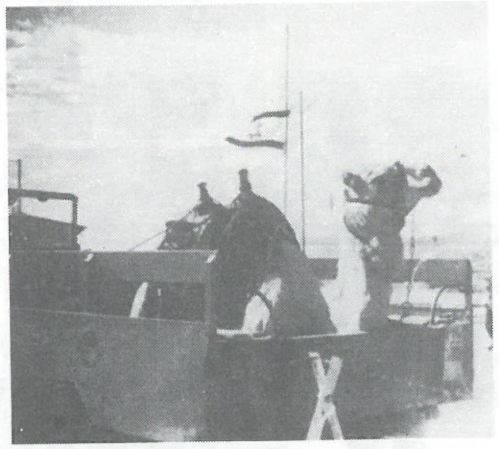

فصيلة الجمال جاهزة للعمل.

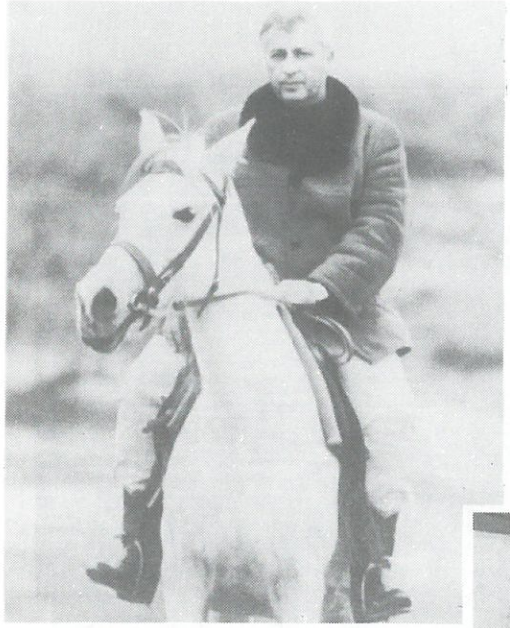

شباط (فبراير) ١٩٧٤: بعد حرب الغفران (كيبور) شارون ممتطياً مهرته المفضلة ياردينا قرب مزرعته.

الأمن الوطني والاستيطان مفهومان متلازمان أبداً في نظر شارون. في الصورة شارون يشير على الخارطة الى مشاريع الاستيطان في اليهودية والسامرة.

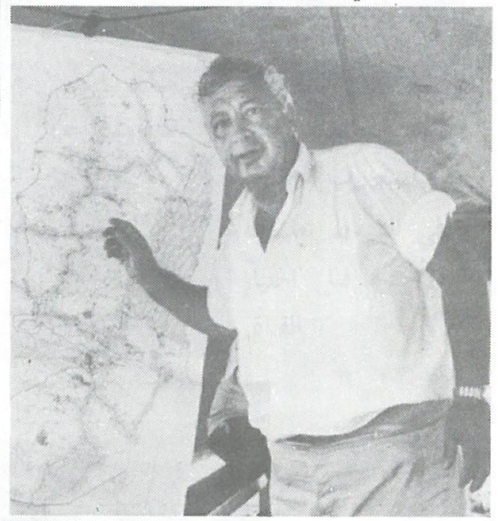

ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢: على قمة تلة في السامرة، شرق قلقيلية، شارون يشرح لغاسبار واينبرغر، وزير الدفاع الاميركي، مشروع استيطان.

١٩٦٧. إريك مع اولاده الثلاثة: جيلاد (الطفل) وعمري وغور.

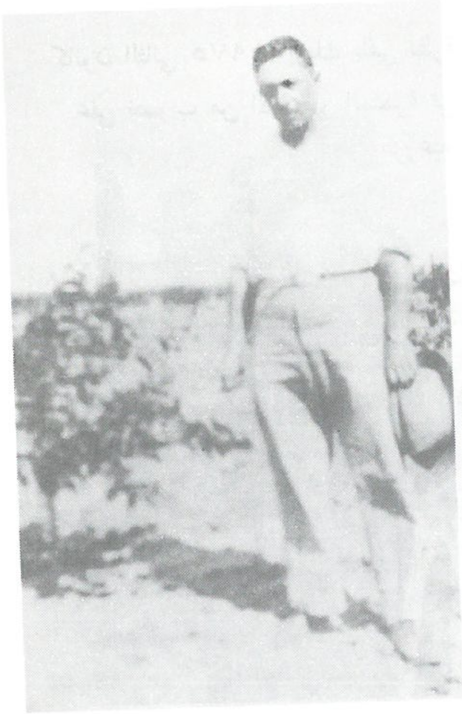

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٩. والد إريك يتفحص بستان حمضيات مغروس حديثاً في ارضه.

آب (اغسطس) ١٩٦٧. إريك وابنه غور قرب بحيرة اليرموك، على الحدود الاسرائيلية السورية الاردنية.

كانون الثاني ١٩٧٥. إريك يلقي نظرة على نصوب من الأشجار المثمرة في مزرعته.

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١: شارون مع موبوتو سيسي سيكو، وقد قرَّب بينهما عداؤهما المشترك للقذافي.

شارون يدلي بقسمه أمام مناحيم بيغن بعد تعيينه وزيراً للدفاع في ١٨٨١.

١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢. ليلي وإريك يزوران مدينة السويس قبل توجههما الى القاهرة في رفقة حاكم القناة وسفير اسرائيل في مصر موشيه ساسون.

أيار (مايو) ١٩٨١: مع السادات الذي اختار طريق السلام بعد ان فهم أنْ وجدها تسوية متَّفَق عليها من شأنها ان تتيح له استعادة سيناء.

١٣ أيار (مايو) ١٩٨٢: شارون يقدم الى النميري، رئيس السودان، هدية من حكومته: رشيشة اوزي.

٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١: شارون وواينبرغ يتبادلان وثائق المذكرات الدبلوماسية حول التفاهم بين اسرائيل والولايات المتحدة، بعد توقيعها.

أيار (مايو) ١٩٨٢: شارون مع وزير الخارجية الاميركي الكساندر هايغ الذي استمع منه الى عرض لنشاطات الارهابيين انطلاقاً من لبنان.

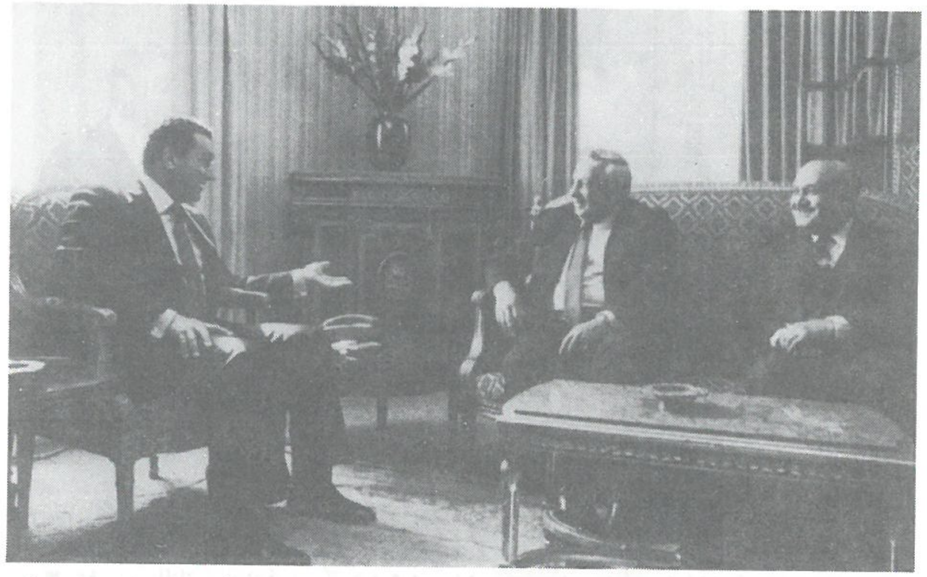

١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢: شارون في القاهرة مع الرئيس حسني مبارك وكمال حسن علي، نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية آنذاك.

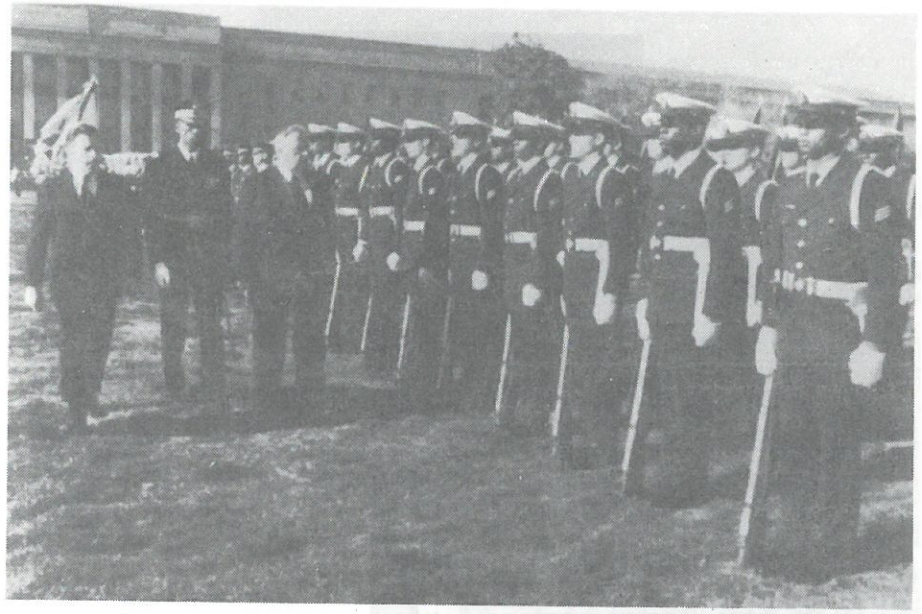

مع غاسبار واينبرغر في البنتاغون. في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١.

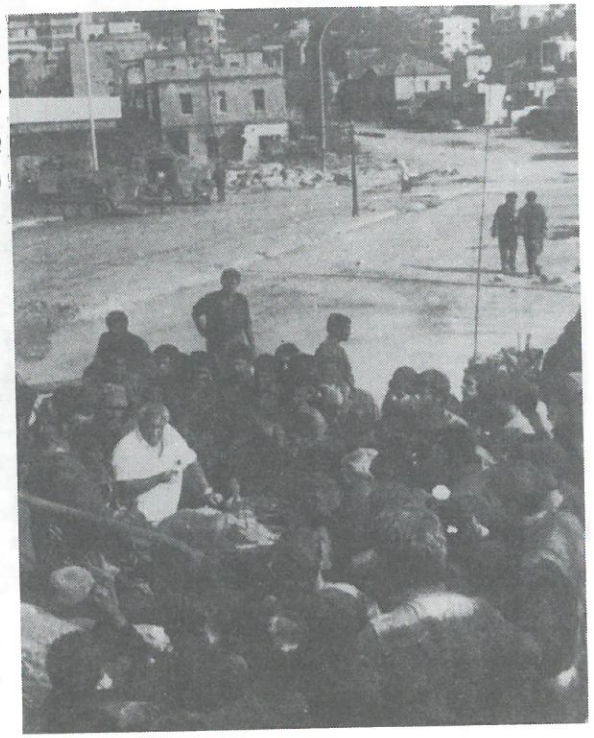

٢٤ أيار (مايو) ١٩٨٢:
على طريق بيروت ـــ دمشق بعد ان قطعها الجيش الاسرائيلي.

ايلول (سبتمبر) ١٩٨١: شارون وفيليب حبيب، مع ضابط لبناني (واقفاً) يحتفلون بالمرحلة الأخيرة من طرد منظمة التحرير الفلسطينية الإرهابية من بيروت.

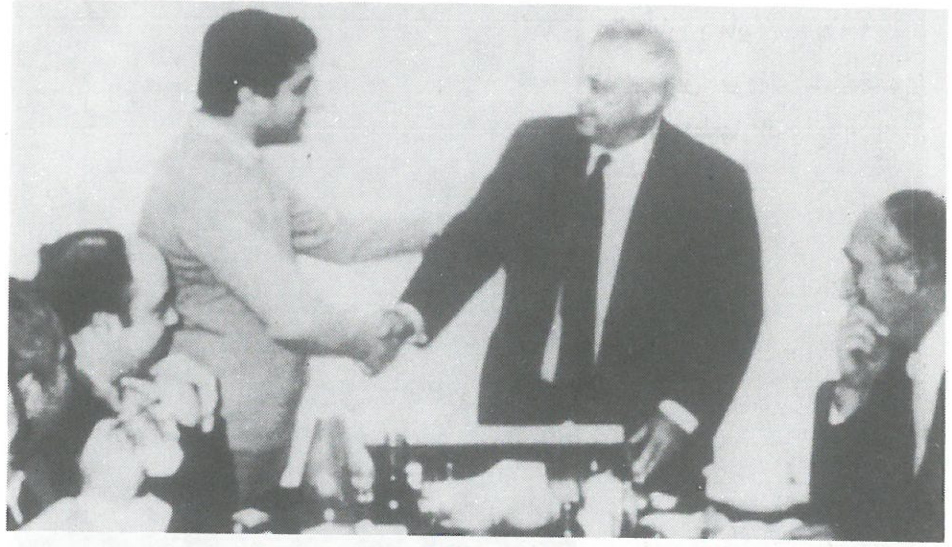

شباط (فبراير) ١٩٨٢: كان بشير الجميل يرغب بحرارة في تعميق وتخصيص علاقات الموارنة التقليدية مع اسرائيل. في الصورة شارون خلال زيارته السرية بيروت، قبل الحرب الخمسة أشهر.

مع ليلي وبيار الجميل، والد الرئيس المنتخب بشير الجميل (الذي إغتيل بعد أيام قليلة) ورئيس الكتائب اللبنانية.

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥: شارون على درج قصر العدل في فولي سكوار، مع محاميه الاستاذ غولد.

إريك وليلي وسط حقل قمح.

محتويات الكتاب

مقدمة ....
٥ ....
مثل صـدى ....
٧ ....
الابن سر أبيه ....
٢٢ ....
في صفوف الهاغانا ....
٣٩ ....
حرب الاستقلال ....
٥٩ ....
نصر مرّ ....
٧٨ ....
الوحدة ١٠١ ....
١٠٥ ....
فداءً عن كل حياة يهودية ....
١١٦ ....
أصدقاء وأعـداء ....
١٣٩ ....
العاصفة قبل العاصفة ....
١٥٤ ....
سيناء ....
١٦٩ ....
بدايات ونهايات ....
١٩٨ ....
فاصل افريقي ....
٢١١ ....
الحرب في الصحراء ....
٢٣١ ....
إستعادة الأنفاس ....
٢٦٣ ....
خط بارليف ....
٢٨١ ....
حرب الاستنزاف ....
٢٩٥ ....
إرهابـان ....
٣٠٩ ....

الوداع ٣٤١
الليكود ٣٥٥
يوم الغفران ٣٧٥
عبور القناة ٣٩٨
سياسيّ ومزارع ٤٣٦
لائحة إنتخابية وحيدة ٤٥٦
نقل السكان الى الأراضي ٤٦٦
مصريون وعراقيون ٤٩٠
مرحلة ما بعد كمب دايفيد ٥٠٦
وزير للدفاع ٥٣٦
نذير في لبنان ٥٥٥
سلام الجليل ٦٠٢
طرد الفلسطينيين ٦٢٤
الشوط الأخير ٦٥٦
الخاتمة ٦٩٥